مَسعُود الخوَند

القَارّات . المَناطِق . الدّوَل . البُلدان . المُدن

الموسوعة التاريخية الجغرافية

الجُزءُ الأوّل

معَالِم . وَثائِق . موضُوعات . زُعمَاء
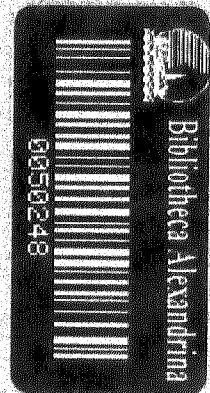
مَسعُود الخوَند

القارّات . المناطِق . الدّوَل . البُلدان . المُدُن

الموسوعة التاريخية الجغرافية

مَعَالِم . وَثَائِق . موضُوعَات . زُعَمَاء

الجُزءُ الأوّل

أبخازيا - آسوج

الدليل الى الموسوعة

«إنني أميّز بين طريقتين في درس العلوم: الأولى، زيادة كميّة المعارف بواسطة الاكتشافات، وبذلك يستحق صانعها أن يُقال فيه إنه مبتكر – والثانية، تقريب هذه الاكتشافات، وتنسيقها في ما بينها، حتى تتسنى، لمزيدٍ من الناس، سُبُلُ التوعية، فيُساهم كلٌّ واحد، وعلى قدْر إمكانيته، في نبراس عصره...».

ديدرو
(أنسيكلوبيديا أونيفرساليس)

من هذه الكوّة الشائكة، كوّة علوم وفنون تجميع المهمّ والنافع، وتنسيقهما وتقديمهما لمزيد من الناس، بالقالب المناسب، تحاول هذه الموسوعة أن تحتلّ مكاناً لها في المكتبة العربية. فترى إلى القارئ على أنه الإنسان اللاهث وراء عصر ميزته ليست السرعة فحسب، ولا حتى السرعة القصوى أو الخاطفة، بل السرعة المنفجرة بأهم المؤثرات على الكيان الإنساني، أي بالمعلومات ووسائل توصيلها. فتكاد لحظة واحدة تحتوي زماناً بكامله، ويكاد حيّز مكاني واحد يُراكم فوقه الأرض كلها وفضاء بعد فضاء. فماذا تُراها تكون وظيفة ذلك الجسم الميكروسكوبي، تلك الجُزيئة الالكترونية، الحاملة عشرات ملايين المعلومات، غير الضغط المنفجر في داخل كل إنسان والمتناثر في وجه كل الناس، وظيفة «قنبلة ذرية»، من نوع آخر، موضوعة قيد التداول، ولا شيء يدل حتى الآن أن أغراض هذه «القنبلة» المعلوماتية إنما هي أغراض إنسانية بالمعنى الحقيقي للكلمة.

فعصر السرعة المنفجرة هذا كم يحتاج إنسانه إلى ثقافة عامّة إنسانية المنحى، إلى فلسفة وآداب وفنون وعقائد وأفكار وبرامج إنسانية تسكب ماءً بارداً على قطار العلم المشتعل بالسرعة. وأرضية قبول الماء البارد، أرضية إنبات شجرة الخلاص من التيه في صحاري علم لا يُعمل (هذا إذا كان يُعمل)، إلاّ القليل الذي لا يُجدي على أَنْسَنَتِه، لا يمكن أن تكون إلا أرضية ترقٍ من درجة وعي ثقافي كوني عالمي إنساني إلى درجة أعلى، ودائماً على قاعدة كسب «المزيد من الناس» وباتجاه الالتزام الواعي بالقضية الانسانية الحضارية الواحدة، قضية السلام العالمي المحق والعادل الذي لا سلام حقيقيّا وإنسانيّا من دونه، لا على مستوى الأفراد ولا على مستوى الشعوب. فتتكوّن، بذلك، كتل ضغط مؤثرة على مراكز القرار السياسي والاقتصادي والمصلحي (بمفهوم «المصالح الواقعية») في الدول الصناعية المتقدمة، وتكون، في الوقت نفسه، رافعة مهمة لكوابيس المتخلف والمستغلّ والضحية في الدول والبلدان النامية.

والمعاجم والموسوعات، أخصّها بالطبع، تلك التي تتناول العلوم الإنسانية من تاريخ وجغرافيا واجتماع واقتصاد وفلسفة وسياسة، هي، أو يجب أن تكون من أقدر الوسائل الثقافية التي تنحو في اتجاه أغراض العالمية الإنسانية، فتسكن البيوت والمكتبات والمكاتب بهدوء حار وفاعل. وهذا ما تأمله هذه الموسوعة التي يطيب لها أن «تُتّهم» بقلق حشْر أكبر قدْر ممكن من معارف تاريخية وجغرافية وجغراسية، وإبراز العالمي والإنساني منها، خصوصاً العربي والإسلامي والثالثي، وعلى أقلام استراتيجيين وجغراسيين ومستقبليين.

مع بداية عهدي، منذ نحو عشرين سنة، بالتحرير الموسوعي، التأريخي، والسياسي (موضوعاتٍ ومفاهيم وأحزاباً وسيَر زعماء ورجال دولة) وفكرة النفع الذي تقدمه الأعمال المعجمية والموسوعية، خصوصاً في الموضوعات الإنسانية، تنمو باطّراد في قناعاتي فازداد تحضيراً وعملاً دؤوباً لهذه الموسوعة الحاملة خاصية ثقافية غير خافية على المطّلع والباحث. ومما زاد من القناعة رسوخاً ما أُتيح لي تعريبه من عشرات الدراسات التي وضعها خبراء وكتّاب اليونسكو حول مشكلات الثقافة والتربية والتعليم في البلدان النامية — وكلها تدور، في جملة ما تدور، حول توصيف للمشكلة ثنائي المحور: العالم النامي لا يفتقر إلى حوافز حضارية بل فيه أمّهات الحضارات البشرية وأمّ الحضارة الإنسانية، والعالم النامي لا يفتقر إلى متفوّقين وأدمغة وعباقرة بل فيه منهم قَدْر يفوق، أحياناً، القدر الذي يتمتع به الغرب المتقدم. وها هي الأيام الأخيرة تحمل إلينا، من الغرب، أنباء أحاديث (ودراسات وكتب) مشوبة، مع الأسف، بخشية وحذر أصحابها، من تلك «القبائل الآسيوية الزاحفة علينا بأعداد كبيرة من متفوقين وعباقرة في كل ميادين العلوم والفنون وضروب الأنشطة، وحتى في مجال المال والأعمال (بيزنس)...».

فجوهر المشكلة، إذاً، كامن في المستوى الثقافي العام، في درجات الوعي العام، وأخصّه طبعاً الوعي السياسي — المجتمعي كونه الحاضن الحقيقي لكل ظاهرة متقدمة ولكل إنجاز على طريق التقدم والارتقاء إلى مستوى أعلى. إذ أين تراه يكون النفع في مجتمع كل علاقاته (خصوصاً علاقات الحاكم بالمحكوم والعكس) معطّلة، عازلة، طاردة للمتفوّقين العباقرة فيه، وحتى أحياناً لمحقّقي نجاحات عادية.

في إحدى معالجاته تاريخ بلاده المعاصر، لخّص الكاتب الأرجنتيني، جورج لويس بورجيس، المشكلة بهذه العبارة: «لا أعتقده صائباً الحكم على أمّة من خلال عدد متفوّقيها وعباقرتها. فالمستوى الثقافي العام أهم من وجود، أو عدم وجود، بعض الشخصيات البارزة».

ثقافة عامة لـ «مزيد من الناس»، هي المآل الرئيسي لهذه الموسوعة، وكذلك إفادة أكيدة للموثّق منهم والباحث. والبارز في منهجها موزّع على نهجين أساسيين: الأول، مزيد من التفصيل والاهتمام — في حدود ما تمكنه المراجع، خصوصاً العربية منها — بدول وبلدان ومناطق العوالم الثلاثة، العربي والإسلامي والثالثي. والثاني، إيلاء الموضوعات والقضايا العالمية الإنسانية ما أمكن من اهتمام خاص.

* * *

أما أركان الموسوعة التي ستصدر أجزاؤها تباعاً فهي:

* **الفهرست** في بداية كل جزء، واضحة ومفصّلة حتى انها تضم العناوين الثانوية لكل مادة.
* **الخرائط** شاملة جميع القارّات والمناطق والدول والبلدان، وأكثرها مصوّر عن المراجع الأجنبية والعربية. الأجنبية منها أُبقيت كلماتها، عن قصد باللغة الأصلية (الفرنسية بالغالب) ليُتاح للقارئ معرفة الأسماء بلغة أجنبية. وقد وُضعت، أحياناً، خريطتان، واحدة بالعربية وأخرى بالأجنبية.
* **الصور** منتقاة بدقة من الكم الهائل المتوافر في المراجع، الموسوعات منها، والكتب والمجلات والجرائد. ومقياس إنتقاء الصورة قدرتها على أن ترمز إلى معلم جغرافي أو تاريخي أو سياسي – استراتيجي (في المرحلة الراهنة)، أو ما يتناسب وجوهر الموضوع المطروح.
* **بطاقة تعريف** تتصدّر الكلام على كل دولة أو بلد، وغايتها تقديم لمحة موجزة (أو بانوراما خاطفة) عن اسم الدولة أو البلد، مساحتها، سكّانها، عاصمتها وأهم مدنها، إقتصادها، ميزتها...
* **نبذة تاريخية** تبدأ بالتاريخ القديم، ثم الوسيط، ثم الحديث (إيجازاً). تفصّل بعض الشيء في التاريخ المعاصر (القرن العشرون)، وتدريجاً إلى أن تصل إلى الأحداث الراهنة فتتناول ثوابتها التاريخية.
* **الموضوعات** وتحمل عنوان «مناقشة»، حيث الرأي، رأي خبير أو كاتب أو باحث استراتيجي أو جيوبوليتيكي في الموضوع المطروح في باب المرحلة الراهنة من النبذة التاريخية، مع الحرص دائماً على إبعاد السياسي كسياسي متحرّك ومتغيّر وإدراج الاستراتيجي وتثبيت التاريخي.
* **معالم تاريخية** تتناول نقاطاً تاريخية بارزة، وتتضمنها غالبية الدول والبلدان. ترد بحسب الترتيب الأبجدي لعناوينها.
* **مدن ومعالم** تتناول تاريخ المدن وآثارها البارزة وأشهر معالمها – وتضمنها غالبية الدول والبلدان. ترد بحسب الترتيب الأبجدي لعناوينها.
* **زعماء ورجال دولة** حيث يقتصر هذا الباب على نبذة من سير زعماء كل دولة أو بلد في القرن العشرين. فيساعد هذا في تقديم المزيد من التاريخ المعاصر والراهن. ترد أسماؤهم بحسب ترتيبها الأبجدي.

وأما **المراجع** فموزّعة على عشرات المؤلفات من موسوعات وكتب ومجلاّت وجرائد، وباللغات الثلاث، العربية والفرنسية والانكليزية. أخصّ الأجنبية منها: «أنسيكلوبيديا أونيفرساليس» مع ملاحقها وكتبها السنوية، و «بلدان ودول» (بيي إي ناسيون)، و «بريتانيكا»، و «أميريكانا»، و «لو موند ديبلوماتيك»، و «تاريخ القرن العشرين» لمؤلفيه بيار ميلزا وسيرج برشتاين (هاتيه، باريس)، وقد صدر الجزء الثالث والأخير منه في صيف ١٩٩٣، والكتاب السنوي «كيد»... وأخصّ العربية: «موسوعة السياسة» الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، خصوصاً بالنسبة إلى باب «زعماء ورجال دولة»، و «الموسوعة الفلسطينية»، ومجلة «السياسة الدولية» المصرية، ومجلة «المدينة العربية» التي تصدرها منظمة المدن العربية، وجريدة «الحياة» وخصوصاً من خلال بابيها القيّمين: دراسات وتراث. هذا إضافة إلى عدد كبير من الكتب، والكتيبات والمنشورات الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة ومنظماتها الفرعية، وكذلك عن الملحقيات الثقافية للدول، ومختلف الهيئات والمنظمات والمراكز التي تُعنى بالبحث والنشر. ومما سيتبينه القارئ المطلع والباحث، دون شك، من خصوصيات لهذه الموسوعة وابتداءً من هذا

الجزء (الجزء الأول)، ان هناك نسبة لا تقلّ عن ٢٥ –٣٠٪ من مجموع موادها وموضوعاتها لم تتطرق إليها الموسوعات والأعمال الأكاديمية المعروفة، او انها تناولتها لماماً بسطور قليلة. ما حدا بهذه الموسوعة لأن تندفع بزخم في اتجاه البدء في سدّ هذه الثغرة معتمدة على أرشيف خاص عماده الرئيسي هذا «الزلزال السياسي والتاريخي العظيم» الذي عرفته البشرية في السنوات الثلاث الأخيرة، فذهب بكيانات وجاء بأخرى. ومن الطبيعي، هنا، أن ينحسر دور الموسوعات والاعمال الأكاديمية المعروفة (ولو الى حين)، فينسحب لمصلحة كتب وكتيبات ومنشورات ومجلات وجرائد ومقالات جادة ورصينة واستطلاعات.

والجدير ذكره، في نهاية هذا المطاف، ان المراجع، عموماً، حقل فسيح ومتنام لحظة بعد لحظة. فضاؤه وأرضه وتعاريجه تعجّ بكل الطرائد، الثمينة منها والهزيلة. فالأمر موقوف على ما سلّح الصيّاد به يديه، وعقد من عزم، ورغب في غذاء له ولمدعوّيه.

والحمدُ لله على عزم معقود وعافيةٍ حملت أثقالَ حياة وأنكادَ عيش. ورجاءٌ منه، سبحانه، يُبقي العزمَ والعافيةَ نعمةً ما بقيتُ على قصدِ خيرٍ ونفع.

مسعود الخوند

فهرست

معالم تاريخية

زعماء ورجال دولة

تشير الدائرة الى مناطق التوتر، والنجمة الى النزاعات المسلحة، والخطوط العمودية الى المناطق المتنازع عليها، والجندي الى مناطق وجود الجيش الروسي في النزاعات المسلحة. وتبدو ابخازيا شمال غربي جورجيا (لوموند ديبلوماتيك، نيسان ١٩٩٣، ص ١٧).

أبخازيا

بطاقة تعريف

• **الاسم الرسمي**: جمهورية أبخازيا المستقلة (ضمن اطار جمهورية جورجيا، ويقاتل الابخاز للاستقلال التام بعد انهيار الاتحاد السوفياتي).

• **المساحة**: ٨٦٠٠ كلم^٢، تقع شمال غربي جورجيا على البحر الأسود.

• **العاصمة**: سوخومي (١٣١٠٠٠ نسمة)، مرفأ مهم على البحر الأسود.

• **السكان**: ٤٥٦٠٠٠ نسمة (في العام ١٩٦٥)، ٥٤٠٠٠٠ نسمة (اواسط ١٩٩٣). الأصل الجورجي ٤٤٪، الروسي ١٧٪، الأغريقي ١٦٪، الارمني ٩٪، الاستوني ٨٪، وهناك اقليات من أصل تركي وأدجاري. الدين (غالبية الابخاز مسلمون)، الثقافة واللغة تباعد بين الأبخاز والجورجيين (غالبيتهم روم ارثوذكس)؛ وفي أبخازيا أقلية يهودية من نحو ألف يهودي، غادر نصفهم الى اسرائيل في اواخر ١٩٩٢؛ والباقون «يمكن إجلاؤهم اذا ما اقتضى الامر».

• **اللغة**: الأبخازية، أحد فروع اللغات القوقازية (القفقاسية) القديمة.

• **الاقتصاد**: الزراعة، الدواجن والماشية، الكرمة، الصناعة الخشبية، هي أهم أوجه النشاط الاقتصادي. أهم المزروعات: الحنطة، الشاي، الفاكهة. وأهم الصناعات، صناعة الأخشاب والاوراق. في العهد السوفياتي، شكلت أبخازيا منطقة اصطياف من الدرجة الأولى بالنسبة الى روسيا، إذ كانت ريفيرا سوفياتية حقيقية بمراكزها السياحية المنتشرة على طول شاطئها الممتد على البحر الأسود في سوخومي وغاغرا وبيتسوندا. وتميزت كذلك، بنظر السوفيات، بموقع استراتيجي مهم جداً (كونها منفذاً على البحر الأسود) لا تعادله أهمية سوى منطقة القرم التي اصبحت في حوزة أوكرانيا.

في الاطار الاقليمي الحالي
حرب الانفصال

في اطار جورجيا

اهتمت الامبراطورية الروسية باقليم ابخازيا، عسكرياً وسياسياً وثقافياً، لوقوعه على الطريق الساحلية الموصلة الى جورجيا؛ وذلك في سياق استراتيجيتها (روسيا) القاضية بالاحاطة بمنطقة القوقاز (القفقاس). وتوصلت، سياسياً، الى ضم ابخازيا عام ١٨١٠ بوصفها إمارة مستقلة من دون ان يكون لها أية علاقة تبعية بجورجيا.

مع سقوط الامبراطورية الروسية وقيام ثورة البلشفيك (١٩١٧)، انفصلت أبخازيا عن روسيا، وانتخب الأبخاز (في عاصمتهم سوخومي) برلماناً أعلن ارتباطه في ما بعد باتحاد القوقاز الجبلي الذي ضم الأديغة والقبرطاي والأميتين والشاشان وداغستان وغيرهم. وفي شباط ١٩١٨ تمّ عقد اتفاق بين البرلمان الأبخازي، الذي أصبح يمثل سلطة فعلية، وجورجيا لتقنين العلاقة المتبادلة بين البلدين اعترفت فيه جورجيا بحدود أبخازيا بين أراضي نهري اينغور ومزيمتا. وفي الفترة الممتدة بين حزيران ١٩١٨ واذار ١٩٢١، وقعت أبخازيا تحت الاحتلال الجورجي. وفي ١٩٢١ تأسست جمهورية أبخازيا السوفياتية. لكن، في ١٩٣١، وتحت ضغوط من ستالين ضمت أبخازيا الى جورجيا وتحولت الى جمهورية ذات حكم ذاتي. وبقي الوضع على حاله حتى انهيار الاتحاد السوفياتي وزوال جمهورياته الاشتراكية السابقة ومن ضمنها جورجيا.

ونتيجة الانقلاب العسكري الذي نفذته اللجنة العسكرية (في جورجيا)، استلم ادوارد شيفاردنادزه السلطة بعد ان ازاح الرئيس المنتخب زياد غمساخورديا الذي كان اعلن العمل بموجب دستور ١٩٢١ حيث لا وجود لأبخازيا من ضمن جمهورية جورجيا. فقامت جورجيا، ومن طرف واحد، بقطع علاقاتها الرسمية والقانونية مع أبخازيا وهيئاتها الرسمية. وردّ الابخازيون على هذا الاجراء باقامة انتخابات حرة وتمّ اختيار الدكتور فلاديسلاف أردزينبا رئيساً للجمهورية، وتمّ إحياء دستور عام ١٩٢٥ الذي يحدد العلاقة بين الطرفين بوصفها علاقة بين دولتين تتمتعان بالسيادة.

حرب الانفصال

اثناء اجتماع البرلمان الأبخازي لتنظيم العلاقة الفديرالية مع جورجيا في ١٤ شباط ١٩٩٢، دخلت القوات الجورجية سوخومي (عاصمة أبخازيا) بحجة القضاء على انصار الرئيس الجورجي السابق زياد غمساخورديا، وحاولت اعتقال رئيس الجمهورية ورئيس البرلمان والحكومة التي انسحبت الى غوداوتا لتنظيم الدفاع عن الاقليم. وقاوم المدنيون الاجتياح العسكري فسقط المئات من القتلى والجرحى. وبعد أقل من شهر استطاع الابخاز تنظيم انفسهم بعد ان توافد المتطوعون من كل انحاء شمال القوقاز. وشنّ المتطوعون من مختلف الاقاليم الشركسية حرب استقلال أدت الى استرجاع النصف الشمالي الشرقي من أبخازيا. ومع تزايد الاعمال العسكرية تدخلت القوات الروسية وعملت على الفصل بين القوات المتحاربة، علماً ان السبب الحقيقي (من جملة اسباب) للتدخل الروسي هو حماية الاقلية الروسية في ابخازيا (١٥٪).

ونتيجة للضغوط التي تعرضت لها الحكومة في البرلمان الروسي لوقف المذابح التي «ترتكبها القوات الجورجية» في أبخاريا، تم في ٣ أيلول ١٩٩٢ التوقيع على اتفاق في موسكو بين رئيس مجلس الدولة في جورجيا ادوارد شيفارنادزه وممثلين عن القوميين الابخاز برعاية الرئيس الروسي بوريس يلتسن ينص على تشكيل قوات من الاطراف الثلاثة تتولى حفظ الأمن، ويؤكد الاتفاق ايضاً على وحدة جورجيا وسلامة أراضيها. الا ان هذا الاتفاق انهار نتيجة تصاعد الأعمال العسكرية، ولا تزال (اواسط ١٩٩٣) المشكلة تتفاقم في غياب قبول الطرفين (أو الاطراف الثلاثة: ابخازيا، جورجيا وروسيا) لأي حل نهائي وثابت.

وبعد نحو عام على حرب استقلال أبخازيا وقع اتفاق آخر لوقف النار (١٨ ايار ١٩٩٣) في احتماع عقد في موسكو وضم ممثلين عن الاطراف الثلاثة، وينص على منع الطيران الجورجي والروسي والأبخازي من التحليق فوق الجمهورية الابخازية، وعلى سحب الاسلحة الثقيلة والمدفعية على طول نهر غوميستا الواقع غرب العاصمة الابخازية سوخومي. ولم ينص الاتفاق على سحب القوات المتقاتلة. واستمرت تبيليسي (عاصمة جورجيا) تتهم موسكو التي لها قوات في ابخازيا، بالمشاركة في المعارك الى جانب الابخاز. اما البرلمان الانفصالي الابخازي، برئاسة فلاديسلاف أردزينبا، فاستمر يطالب بانسحاب القوات الجورجية التي دخلت ابخازيا في آب ١٩٩٢ .

جندي روسي يندفع خارج منزل مدمّر أثناء معركة في إحدى بلدات أبخازيا، شباط ١٩٩٣.

عادت المعارك واندلعت على نطاق واسع (٢ تموز ١٩٩٣) في مناطق عدة على الساحل الغربي لجورجيا، وعاد مجلس الامن الدولي يعرب عن «قلقه العميق» للتدهور المفاجئ في الوضع الجورجي – الأبخازي. وفي رسالة بعث بها الرئيس الجورجي الى الامين العام للأمم المتحدة ان «عدواناً صارخاً على دولة ذات سيادة يرتكبه انفصاليون ابخازيون يدعمهم مرتزقة روس»، وسط نفي روسيا لهذه الاتهامات. وبعد ايام قليلة، اعلن شيفاردنادزه (في ٦ تموز) الاحكام العرفية في جميع مناطق جمهورية ابخازيا التي يقاتل سكانها الأصليون من اجل الانفصال والاستقلال التام، معللاً قراره بـ «التفاقم الخطير في الوضع السياسي والعسكري»، وضرورة ضمان امن المواطنين ودرء الأخطار التي تهدد وحدة الاراضي الجورجية.

والجدير ذكره ان تجدد معارك حرب الانفصال في ابخازيا جاء متزامناً مع تجدد القتال بين اذربيجان والارمن، ما دفع بالكثيرين، مسؤولين اقليميين ودوليين ومحللين، الى اعتبار ان منطقة القوقاز باتت تعيش على فوهة بركان ينذر بانفجار كبير بين دوله وقومياته. وكانت «رابطة شعوب القوقاز» التي تضم القوميات القاطنة جنوب روسيا والتي لها صلات قربى بالابخازيين، اعلنت التعبئة العامة لنجدتهم. وشاركت في المعارك ضد الجورجيين فصائل من القوزاق الروس الذين يؤيدون الحاق ابخازيا بروسيا واستعادة سيطرة موسكو على القواعد البحرية هناك. وغالبية هؤلاء المتطوعين من الشاشان والايدغيين والقبرديين البلقاريين (كلهم من العرق الاباظي). ومقر رابطة شعوب القوقاز مدينة نالتشيك في جنوب روسيا (راجع جورجيا).

اوضاع الأبخاز ومطالبهم

أما أوضاع الأبخاز ومطالبهم واهدافهم فيمكن ايرادها بحسب ما جاءت على لسان أحد مسؤوليهم، رؤوف ابجنو («الحياة»، ١٤ آذار ١٩٩٣) اثناء زيارته الى سوريا للقاء ممثلي الجالية الابخازية. وأهمية كلامه، هنا، انه مستشار الرئيس الابخازي، وعضو لجنة العلاقات الخارجية (وزارة الخارجية) لأبخازيا، والأهم من كل ذلك انه رئيس «المنبر الموحد» الذي يضم كل اطراف جبهات تحرير أبخازيا.

عن جذور المشكلة الأبخازية - الجورجية، قال: «الصراع بدأ بشكل علني في ١٤ آب الماضي (١٩٩٢)، الا ان جذوره تعود الى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن الحالي. فبعد تفكك الاتحاد السوفياتي وحصول كل جمهورية على حقوقها، اراد الجورجيون المحافظة على امبراطوريتهم الصغيرة على رغم انهم ساهموا بشكل فعلي في تفكيك الاتحاد السوفياتي. وفي ١٤ آب ١٩٩٢، اعلن البرلمان الأبخازي الاستقلال عن جورجيا والعودة الى قانون عام ١٩٢٥ وطالب بالغاء القانون السوفياتي على ابخازيا. لكن الجورجيين دخلوا عاصمتنا (سوخومي) بحجة ان وزير الداخلية الجورجي المخطوف موجود في أبخازيا، وبذريعة حماية خط سكة الحديد الى ارمينيا، لكن السبب الفعلي للتدخل كان اعلان البرلمان الأبخازي استقلالنا عن جورجيا».

وعن مدى تمثيل البرلمان للشعب الأبخازي، قال: «البرلمان انتخب بشكل ديمقراطي واعضاؤه الـ ٦٧ يمثلون كل القوميات الموجودة في أبخازيا: ٢٨ عضواً أبخازياً، و٢٨ جورجياً، و١١ عضواً من القوميات الاخرى».

وعن نظرة روسيا الاتحادية الى الصراع الأبخازي - الجورجي، قال: «بعد اندلاع الصراع لم تبد حكومة موسكو اهتماماً لما يجري فيه ولحل المشكلة. وحين جرى تصويت لسحب القوات الجورجية من سوخومي صوّت ١٦ عضواً فقط من أصل ١٨٥ ضد سحب القوات. والموقف الروسي الداعم لانسحاب الجورجيين ليس حباً بالابخاز بل تعاطفاً مع شعوب شمال القوقاز التي تحركت بدافع العلاقات

رئيس جورجيا، ادوارد شيفاردنادزه، في سوخومي بعد استئناف القتال وتصعيد الأبخازيين هجومهم (اواسط ايلول ١٩٩٣)

الاخوية والتقارب العرقي للوقوف الى جانب الابخاز حيث شارك المتطوعون من شعوب شمال القوقاز في الحرب الى جانب الابخازيين، لذلك اضطرت موسكو الى الوقوف الى جانبنا».

وعن الدعم الخارجي للأبخاز، قال: «في الحقيقة وصلنا دعم اكثر من المتوقع، ولم يقتصر الدعم على الجانب المادي. لدينا متطوعون من سوريا وتركيا، وهناك شهداء من هذه الدول سقطوا في ارض المعركة. أما على الصعيد الرسمي فقد قدمت لنا تركيا ٧٠٠ طن من المساعدات الانسانية عن طريق الهلال الأحمر التركي».

وعن كيفية الحصول على الأسلحة في ظل عدم التوازن مع القوات الجورجية، وموقف الدول الاسلامية والعربية من الصراع، قال: «كان التوازن بيننا وبين الجورجيين يميل بشكل واضح لصالحهم، إلا انه الآن أفضل بفضل الاسلحة التي حصلنا عليها من ارض المعركة، وبفضل الروح المعنوية العالية التي يتمتع بها المقاتلون الأبخاز. أما بالنسبة الى موقف الدول العربية والاسلامية من الصراع، فأذكر هنا موقف ايران الداعي الى انسحاب الجورجيين من أبخاريا، في حين يحاول الاتراك البقاء على الحياد بسبب وجود عدد كبير من الابخاز والجورجيين في تركيا (سبعة ملايين شركسي ومليونا جورجي)».

وعن ادعاء جورجيا بأن الصراع القائم ديني، قال: «يستطيع الجورجيون قول ما يريدون، لكن الواقع غير ذلك، فلدينا ٢٠٪ من الأبخاز مسيحيون و٨٠٪ مسلمون، وكلهم يطالبون بالاستقلال ويحاربون من أجله».

وعن دور الامم المتحدة، قال: «حاول الجورجيون تدويل المشكلة وادخال قوات الامم المتحدة. ولكن ذلك مستحيل في ظل الاحتلال الجورجي. ومع ذلك فنحن لسنا ضد دخول القوات الدولية الى الحدود الفاصلة بين الدولتين، بل نحن ضد تقسيم أبخازيا. وكانت جرت محاولات سلمية لحل الأزمة لكن من دون نتيجة، ومن جهتنا، نحن مستعدون للمحادثات السلمية بعد الاستقلال وليس في ظل الوجود الجورجي في عاصمتنا».

وعن أبخازيا المستقبل وموقفها من انتشار الاسلحة النووية في منطقة القوقاز، قال: «نحلم في العيش بسلام مع كل الجمهوريات خصوصاً التي لم تقاتلنا. وبما ان بلادنا تعتمد على السياحة بشكل اساسي فمن المهم لنا بناء علاقات متميزة وسلمية مع الجميع، من الشرق والغرب. ونحن مع دول القوقاز سواء في دولة واحدة ام اتحاد كونفيدرالي. لكننا نعارض تماماً الدخول مع الشركس في قائمة تحت راية روسيا، لأننا لا نفكر بالعودة الى الخضوع تحت راية اخرى بعد التحرر من جورجيا. وفي الوقت نفسه نؤيد إقامة علاقات اقتصادية جيدة مع دول شمال القوقاز في حال عدم استقلالها. ولأن دولتنا تعتمد على السياحة، لذلك يجب الحفاظ على البيئة حيث اننا لم نستثمر بعض المعادن بسبب التلوث البيئي الذي ينتج عنه، كما منعنا مرور خط التوتر العالي من روسيا الى جورجيا حفاظاً على البيئة. ولذلك نتطلع الى حظر انتشار السلاح النووي الذي لا نملكه ولن يكون موجوداً عندنا في المستقبل».

أبخازيا بين جورجيا وروسيا

يعتقد القادة الحاليون ان حرب انفصال «جمهورية أبخازيا» تجد تفسيرها في المناورات التي يقدم عليها قادة شيوعيون سابقون. فزعيم الانفصاليين الأبخاز، فلاديسلاف أردزينبا، هو أحد الأعضاء المحافظين في البرلمان والذي كان متمسكاً بقوة بالحفاظ على الاتحاد السوفياتي. ويذهب مساعدون

للرئيس الجورجي، شيفاردنادزه،الى حد اتهام محافظين روس في موسكو بدعم حركة الانفصال الابخازية، فيقول احدهم: «نحن لا نحارب ضد الابخاز. إننا إزاء حرب غير معلنة ضد روسيا». وابخازيا، بالنسبة الى روسيا، اكثر من مصيف مميز (لقد كانت منتجعاً سوفياتياً مهماً باستراحاتها الشهيرة في سوخومي، وغاغرا، وبيتسوندا)، فهي موقع استراتيجي على البحر الأسود واكثر حيوية من شبه جزيرة القرم التي باتت خاضعة لأوكرانيا. وبرأي مستشاري الرئيس شيفاردنادزه ان المحافظين الروس – العسكريين خاصة – يعملون لثلاثة اهداف رئيسية : حرمان جورجيا من الأقليم الاستراتيجي؛ مضاعفة الضغط على الرئيس الروسي يلتسن في اتجاه سلوك سياسة التدخل لمصلحة روسيا الاتحادية؛ ومعاقبة شيفاردنادزه المعتبر مهندس انسحاب الجيش الأحمر من افغانستان واوروبا الشرقية.

الرئيس الجورجي، شيفاردنادزه، تردد طويلاً قبل أن يبدأ بتوجيه انتقاداته الى موسكو. وكان يحرص دائماً على التمييز بين «قوى الماضي» وبين «القوى الديموقراطية والاصلاحية» التي يتزعمها يلتسن في روسيا. لكن، نتيجة لتطور الاحداث في ابخازيا، وكذلك للخلاف في أوسيتيا الجنوبية (جمهورية أخرى ذات استقلال ذاتي اندلعت فيها أيضاً أحداث دامية واتفق بشأنها على تشكيل قوات فصل روسية – جورجية)، ورفض روسيا سحب جيشها من ابخازيا، وقعت صدامات مسلحة بين الروس والجورجيين في ابخازيا، بدأ، على أثرها، شيفاردنادزه يتكلم عن مساندة الروس للابخاز في معاركهم العسكرية وعن «النزاع المسلح بين جورجيا وروسيا». وفي آخر تطور لحرب الانفصاليين الابخاز عن جورجيا ان عاد الفريقان، في اوائل حزيران ١٩٩٣، يتبادلان الاتهامات حول إشعال خط جبهة نهر غوميستا في غرب العاصمة الابخازية سوخومي. وذلك رغم إتفاق وقف النار الذي ابرمه في موسكو (٢٠ ايار ١٩٩٣) الزعيمان الروسي والجورجي، يلتسن وشيفاردنادزه. وقدّر عدد القتلى، من الجانبين، منذ بدء الحملة الانفصالية للأبخاز حتى اليوم (آب ١٩٩٢ – حزيران ١٩٩٣) بنحو ألف قتيل. وفي آخر الأنباء (٢٧ آب ١٩٩٣) ان الجورجيين أكملوا انسحابهم من أبخازيا الذي كان بدأ قبل نحو اسبوعين.

في القوقاز

من جهة أخرى، كثيراً ما يظهر الروس، بإمساكهم السيطرة الجوية فوق أرض المعركة في أبخازيا، امتعاضهم من مقاتلي «اتحاد شعوب القوقاز الجبلية» القادمين لمساندة اخوانهم الأبخاز. وقد تأسس هذا الاتحاد في تشرين الأول ١٩٩١ بهدف «الدفاع المشترك عن القوقاز ضد الهيمنة الروسية». ويتكون من ١٦ دولة متجمعة في برلمان ينبثق منه مجلس رئاسي يرأسه موسى شانيبوف. ولهذا الاتحاد بنيته وهيكليته داخل كل جمهورية، وقد قرر في اذار ١٩٩٢ تشكيل قواه المسلحة الخاصة به. وفي تشرين الثاني ١٩٩٢، غيّر إسمه ليصبح «اتحاد شعوب القوقاز»، مفسحاً في المجال امام شعوب اخرى في السهل الغربي وفي مناطق ما وراء القوقاز للانضمام اليه. وتقدر بعض المصادر عدد مقاتليه في أبخازيا بين أربعة آلاف وعشرة آلاف مقاتل.

ويبدو ان الاتفاق بين روسيا وجورجيا حول أبخازيا وغيرها من الأقاليم في المنطقة ما يزال بعيد المنال رغم المحاولات الاربع (اتفاقيات وقف النار) التي جرت حتى الآن (اواسط ١٩٩٣). ففي موسكو، هناك من يعمل على تغذية فكرة إعادة أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية الى حضن إتحاد روسيا. وفي تبيليسي، يعتقد الجورجيون انهم يشكلون الأغلبية الديموغرافية، ويرفضون أي مساس بالحدود التي كانت مرسومة ايام الاتحاد السوفياتي.

مما كتبه الكاتب الروسي الشهير، ليون تولستوي، أحداث الاستعمار الدموي لمناطق القوقاز الشمالية في القرن التاسع عشر والذي امتد الى عقود طويلة. وللمرة الأولى، منذ وفاة هذا الكاتب في ١٩١٠، يشعر الروس انهم مهددون في المنطقة بفعل يقظة القوميات. وقد علّق أحد الكتاب في «موسكوفسكي نوفوستي» (العدد ٤٩، ١٩٩٢) يقول: «تدفع روسيا اليوم ديون أجدادها، ديون المستعمرين. إنها راحلة، لكن بعد تسببها هدر الدماء وبعد تعبيدها الطريق امام جرائم أخرى».

إثنتان فقط (كراتشيس - شركس، وداغستان) من الجمهوريات الست ذات الاستقلال الذاتي في القوقاز الشمالي الداخلة في الاتحاد الروسي حافظتا على الهدوء بعد زوال الاتحاد السوفياتي وحتى اليوم. ففي كاباردينو - بلكاريا، جرت اضطرابات خطيرة بين الكابارد والبلكار. أما شاشان فقد اعلنت استقلالها بزعامة جوخار (جوهر) دودايف، وانفصلت عن إنغوشيا التي كانت متورطة في معارك في اوسيتيا الجنوبية (الواقعة ضمن جورجيا) قبل اندلاع معارك عنيفة بينها وبين إنغوشيا، حيث، وفي خلال اربعة ايام فقط (بدأت في ٣١ تشرين الاول ١٩٩٢)، قتل ٤٠٠ شخص، وهرب أكثر من ٦٠،٠٠٠ إنغوشي من اوسيتيا الشمالية، دون ان يقدم الجيش الروسي على فعل أي شيء لمنع المجازر وحرق المنازل. فثمة من يعتبر في موسكو أن الأوسيت مسيحيون أرثوذكس في منطقة يسيطر عليها الاسلام.

«غروزني» هي عاصمة جمهورية الشاشان (أو الشيشين، أو التشيتشين)، و «غروزني» تعني في اللغة الروسية «المخيف». وفي الشاشان ثمة غليان سياسي خارج عن المألوف لدى الروس. فخلال اشهر قليلة، اعلنت الشاشان استقلالها، وطردت الجيش الروسي من اراضيها، وتلقت حصاراً شاملاً، وتحولت الى هيئة اركان المقاومة الاسلامية الجبلية في وجه روسيا، والسند الاساسي للأبخاز في وجه جورجيا. وتحولت «غروزني» الى مركز اتحاد شعوب القوقاز الجبلية، وزعيمه موسى شانيبوف (كاباردي الأصل) أصبح داعية الكفاح الهادف لإنشاء دولة متعددة الاثنيات في القوقاز حيث ستكون سوخومي (عاصمة أبخازيا) هي عاصمتها.

هل ستلعب روسيا ورقة الحل العسكري في وجه حروب الانفصال هذه؟ ومتى؟ إنه السؤال الأهم المطروح بعد نحو سنتين من اندلاع هذه الحروب (أي حتى اواسط ١٩٩٣).

في جولته على مواقع الجيش الروسي في المنطقة، بما فيها المواقع في أبخازيا وآجاريا (في الاراضي الجورجية)، أعلن وزير الدفاع الروسي، الجنرال بافيل غراتشيف، ان على رأس المهمات تقوية الروح القتالية لدى الذين يدافعون عن الحدود الجنوبية للبلاد، كما أعلن عن وجود تسعة آلاف ضابط وصف ضابط روسي في المنطقة بعد ان تمّ نقلهم من اوروبا الشرقية (السابقة).

من جهته، الزعيم الشاشاني جوخار (جوهر) دودايف، القائد السابق لسلاح الجو الاستراتيجي السوفياتي، يضاعف من زياراته الى الخارج، خصوصاً الى البلدان التي تعيش فيها أقليات قوقازية الأصل (تركيا، سوريا، الاردن، لبنان). أضف الى ذلك ان البلاد (الشاشان) تمتلك ثروات نفطية مهمة (أربعة ملايين طن سنوياً) تمكّنها من تمويل الثورة المناهضة للروس.

يبدو، حالياً، ان مستقبل روسيا في المنطقة غير واضح، خصوصاً وان الصراع على السلطة في موسكو يحول دون استكشاف معالم سياسة خارجية للمدى المنظور. وإذا لم تقم هناك علاقات جديدة قائمة على الثقة المتبادلة بين موسكو وبلاد القوقاز، فإن ثمة ما يرجح ان الروس مقبلون على خوض حرب قد تكون أطول واعنف من حرب القرن التاسع عشر التي كتب عنها وأرّخ لها ليون تولستوي، فأخذ عنه العديدون.

لاجئة على شاطئ سوخومي، عاصمة أبخازيا، تنتظر من يساعدها للصعود الى الباخرة والفرار الى مكان آمن، حزيران ١٩٩٣.

جنود من الجيش الجورجي الفيدرالي في مواجهة مقاتلين أبخازيين، تموز ١٩٩٣.

في الاطار الاقليمي التاريخي
بلاد القفقاس (القوقاز)

يجمل حسن الأمين (باحث لبناني في التراث الاسلامي) هذا الاطار في مقالة له نشرتها «الحياة» (١٨ شباط ١٩٩٣) بعنوان: «ما أشبه احداث الأمس القريب بتطورات الحاضر – قراءة تاريخية لبلاد القفقاس: اطماع روسيا القيصرية أساس الفتن الداخلية». وفي ما يلي نص المقال (العناوين وضعها المؤلف):

الفتح الاسلامي

يحد قفقاسيا من الشمال روسيا، حيث تبدأ حدودها من الشمال من اطراف بحيرة (المانيتش)، ومن الشرق بحر الخزر، ومن الغرب البحر الأسود. ويفصل بعض اجزائها الجنوبية عن ايران نهر (أرس)، والبعض الآخر عن ارمينيا التركية جبل (آرارات). وتتكون الأجزاء الشمالية منها من اراض منبسطة، وفي بعضها اودية ذات مراتع وخضرة.

كانت المناطق الجنوبية من القفقاس عرضة لحملات مختلف الأقوام والشعوب، فقد ضمها عظماء الملوك الإيرانيين الى امبراطوريتهم لفترة من الزمن، ثم دخلتها جيوش الإسكندر المقدوني. ثم ألحق الساسانيون في البر اغلب اجزائها الشرقية بامبراطوريتهم، واعقب ذلك عزم اباطرة القسطنطينية على الاستيلاء عليها.

وفي العصور الاسلامية بلغت فتوحات المسلمين ارض القفقاس، ففي العام ٤١ هـ سار ربيعة الباهلي في اربعين ألف مقاتل الى القفقاس فتصدت له قوات الخزر مجتمعة واهالي كولشيد، وهزموه وشتتوا قواته. وفي عهد الوليد بن عبد الملك في العام ٦٤ هـ سيّر اخاه مسلمة على رأس ثلاثين ألف مقاتل لفتح القفقاس وتمكن مسلمة من فتح دربند ثم شيروان ثم اعقبهما بفتح اغلب ارض داغستان حتى فتح تفليس. وفي زمن خلفاء الوليد خرجت قبائل آلان وخزريو الجبال على المسلمين فأخرجوهم من دربند حتى بلغوا بهم حدود ارمينيا. وفي العام ١٠٤ استعاد الجراح الحكمي تلك الولايات واضطر قبائلها المعارضة الى التقهقر حتى شمال القفقاس، ثم انتهت هذه الحروب سنة ١١٤ .

ومن الحوادث المهمة في تاريخ القفقاس الفتوحات التي قام بها السلطان جلال الدين آخر الملوك الخوارزميين في هذه البلاد وفتحه لكرجستان (جورجيا)، ثم تبعه مغول صحراء قبجاق في السيطرة على القفقاس لفترة طويلة. وعندما استولى تيمور على جنوب القفقاس احالها الى خرائب، ثم آل الأمر فيها بعده الى ملوك القبائل. ومنذ ذلك الحين اصبحت تلك البلاد عرضة لمنافسات الحكومات الإيرانية والعثمانية، ففي زمن الملوك الصفويين كان اغلب ملوك القفقاس يخضعون لهم ويدفعون لهم الخراج، ثم عادت اطماع العثمانيين تنبعث من جديد بعد انحطاط السلالة الصفوية.

الروس: خلال تلك الاحداث التي كانت تدور رحاها في السفوح الجنوبية للقفقاس، كانت الجبال الشمالية وسفوحها المترامية على الجانب الآخر من صحراء مزدوك واستاوروبول تحمل في احشائها جنين دولة صغيرة، ثم تمخضت عن شعب اخذ يصحو تدريجاً من غفلته ليأخذ في يوم من الأيام على عاتقه قيادة هذه البلاد وزعامتها، هذه الدولة هي روسيا.

ومن الأسباب التي ادت الى استقرار هذه الدولة وتقويتها وجود نظام ملوك القبائل في القفقاس والممالك الواقعة في شمال القفقاس وبحر الخزر والبحر الأسود التي كانت تتألف من امارات مختلفة لا تلبث ان تزول، مثل دولة قازان ودولة الحاج ترخان وغيرهما، وقد ظهرت هذه الدويلات للوجود بعد جنكيز خان.

وكان الروس في أغلب الأحيان في صراع مستمر مع هذه الدويلات، ثم اعقبت ذلك فترة من الزمن استمرت حتى القرن السادس عشر انقطع فيها الروس عن الاختلاط والتعامل مع سكان شمال القفقاس مثل اللزكيين والآواريين – التابعين آنذاك للإيرانيين – والشركس والأبخازيين التابعين للعثمانيين، وغير هؤلاء من سائر السكان الآخرين. وقبل أربعة قرون، أي في زمن السلالة الصفوية، كان لايران دور كبير في الأحداث التاريخية للقفقاس، فقد فتح الشاه اسماعيل الصفوي كرجستان (جورجيا) في العام ١٥٢٢ ثم احتل العثمانيون هذه البلاد لبعض الوقت. ولكن حملات العثمانيين التي كانوا يشنونها في زمن عظمة واقتدار الشاه عباس الكبير منيت بالهزيمة في العام ١٦١٧

فاستعاد الايرانيون فرض سيطرتهم على ولايات اذربيجان وكرجستان وسائر بلاد القفقاس حتى كردستان وبغداد.

بدأ الروس مد علاقاتهم مع بعض ولايات القفقاس في أواخر القرن الخامس عشر. وكان خوانين القرم كثيراً ما يتعرضون لقبائل الشركس، فدخل بعضهم في العام ١٥٥٥ في حماية الروس خوفاً من هؤلاء الخوانين. ثم ارتبط الكرجيون بالروس بعد العام ١٥٨٩ ارتباطاً سرياً، فانفتحت امام الروس أبواب التدخل في القفقاس. وفي أواخر القرن السادس عشر اخضع الملك ايحرسي حكمه للوصاية الروسية، فأثار بذلك سخط البلاطين الايراني والعثماني، وساهم في اثارة بعض امراء القفقاس وبذلك اصبحت الساحة مهيأة لدخول الروس.

بطرس الأكبر: كان ذلك بفضل الظهور المفاجئ لبطرس الأكبر الذي لفت بقوته انظار الشرق والغرب، وفتح امام الاقوام الروسية ابواب الفتوحات، ثم خطا اول خطوة، فبدأ الايرانيون يدركون خطر اللسعات الروسية المسمومة. وكان المسار الذي حدد الوصية السياسية لبطرس الأكبر: «ينبغي الإقتراب من القسطنطينية وممالك الهند وبذل أقصى ما يمكن في سبيل ذلك، لأن حاكم هذه المناطق سيكون حاكماً للعالم برمته لذلك ينبغي ان تظل الحروب قائمة مع الأتراك حيناً ومع الايرانيين حيناً آخر. ولا بد ان تقام معامل صناعة السفن على سواحل البحر الأسود لكي يتم الإستيلاء على هذا البحر بالتدريج. وعلينا ان لا ننسى بحر البلطيق لأن في هذين الأمرين سبب نجاحنا، فيجب الاستيلاء على ايران من اقصاها الى اقصاها في اسرع وقت حتى الوصول الى الخليج الفارسي. ويجب اعادة الطريق التجاري القديم بين الشام والهند اذا كان ذلك ممكناً في سبيل الهجوم على الهند لأن فيها خزائن الدنيا. واذا ما وصلنا الى هناك فحينئذ سنكون في غنى عن الذهب الإنكليزي (انتهى)».

كان المسار الذي حددته هذه الوصية يطبق بحذافيره خطوة خطوة. ولا احسب ان احداً لا يعجب حين يرى المسؤولين الإيرانيين خلال مئتي عام، باستثناء العهد النادري، لم يلتفتوا الى الخطر الروسي.

ادرك بطرس الأكبر بحدة ذكائه مدى العظمة التي يمكن ان ينالها الروس باحتلال القفقاس، لذلك سعى بفكره الثاقب الى التقرب من مركز الحضارة المتمثل بأوروبا، وفي الوقت نفسه عزم على فتح آسيا والإستيلاء على مفتاحها (القفقاس)، اذ يسهل الإستيلاء عليها الدخول الى آسيا الصغرى وآسيا الوسطى، أي من ايران حتى الخليج، ويسهل ايضاً احتلال كنوز الذهب في الهند.

كان بطرس الكبير يدفع روسيا الى التطور يوماً بعد آخر، وكان يدرك ان اهم عوامل الرقي والإزدهار هي العوامل الإقتصادية، لذلك كان عازماً على ان تواكب التجارة الروسية السبل الحديثة. وكانت بلدان اوروبا الوسطى والغربية ترتبط في القرن الثامن عشر مع الهند، فحاول بطرس ان يفتح طريقاً تجارياً مباشراً الى الهند، ولم يكن هذا الطريق ممكناً الا عن طريق ايران، لذلك عقد معاهدة تجارية مع ايران في العام ١٧١٦ على امل الوصول الى تجارة مباشرة مع الهند.

كانت الأحداث آنذاك ترسخ افكاره وتزيده عزماً على تحقيق مآربه، اذ كانت ايران يومها مسرحاً للحروب الأهلية، مضطرمة بنار الفتنة الأفغانية. وحتى القفقاس ذاتها كانت تضطرب بالصراعات الداخلية بين الخوانين الكرجيين وسائر قبائل القفقاس الأخرى. كل هذه الظروف كانت تبعث الأمل في نفس بطرس الأكبر، لذلك كان عازماً على ان لا يقنع بمعاهدته مع الإيرانيين، بل صمم على الإنتفاع بأقصى ما يمكن من الظروف السائدة في ايران.

القفقاس بين روسيا وايران: في مثل هذه الظروف وقعت حادثة ساعدته على تحقيق طموحاته، اذ باغت داود بك احد الأمراء اللزكيين مدينة شيروان بهجوم، واحتل مدينتي قوبا وشماخ، وألحق بالتجار هناك ضرراً كبيراً، وقتل ثلاثمئة شخص من الروس ما بين تاجر وغير تاجر، ولحقت بالروس من جراء ذلك خسارة مقدارها اربعة ملايين منات فاحتج بطرس على ذلك لدى البلاط الايراني، وكان اذ ذاك محاصراً بالقوات الأفغانية، فانتهز الشاه سلطان حسين الصفوي هذه الفرصة. وطلب العون من روسيا، الا ان بطرس لم يكن مستعداً للتخلي عن احلامه وطموحاته وعزمه على رفع شأن آل رومانوف، لذلك سار على رأس جيش مؤلف من ثلاثين ألف مقاتل، فهاجم اقليم داغستان واحتل دربند متذرعاً في ذلك بحفظ ارواح رعاياه وحقوقهم، في حين انه كان يهدف الى توسيع بلاده وفتح اراض جديدة.

كان الشاه طهماسب استطاع الإفلات في ذلك الحين من حصار الأفغانيين وهرب من اصفهان وراح يسعى الى استعادة عرش ابيه المخلوع. اذذاك قدم

بطرس في مئة ألف مقاتل فاحتل الولايات الشمالية من ايران، ثم عقد في السنة الثانية معاهدة مع سفير ايران اضطرت فيها ايران لأن تتخلى لروسيا عن ولايات داغستان وشيروان وباكو وكيلان ومازندران واستر آباد. وبعد ان فاز بطرس بكل هذه الغنيمة تخلى موقتاً عن التفكير في السير الى الهند، وعاد الى بلاده.

ومع ظهور نادر شاه في ايران حدث انقلاب عجيب في اوضاع ايران، فقد كانت تجزئة البلاد في زمن انحطاط الصفويين واطماع الروس والعثمانيين فيها امراً لا بد منه. وتبدو آثار اضمحلال ايران وتمزيقها واضحة في كل مكان، ولكن لحسن الحظ لم يأفل نجم ايران، فبعد ان تمكن نادر شاه الأفشاري من اخماد فتنة الأفغانيين سنة ١٧٢٩ واظهر كفاءة في اصلاح الأمور الإدارية وقدرة على قمع الأعداء في الداخل والخارج، عزم على استرجاع الولايات الشمالية المغتصبة في ايران، فأرسل رسوله الى روسيا، ولكن روسيا لم ترد على طلبه إلا بالمماطلة والتسويف بسبب ما رأته من انشغاله بالمشاكل الداخلية ومواجهته بالإضطرابات القائمة في سائر انحاء ايران.

واخيراً ارسل نادر شاه سفيره الى روسيا لإتمام الحجة عليها وذلك عام ١٧٣١، وكانت روسيا آنذاك مدركة لقوته وصلابة شوكته، فاضطرت للإنسحاب من ايران من دون قيد أو شرط. وهكذا عادت الولايات الشمالية الى ايران مرة أخرى. وبعد ان اخمد نادر شاه فتنة شيراز سنة ١٧٣٢ قدم الى شيروان فاحتلها، ثم احتل بعدها داغستان، وعقد بعد ذلك صلحاً تجارياً وسياسياً مع الروس وضعت بموجبه دربند وباكو تحت تصرفه، حتى اذا فرغ من ذلك سار الى قلاع كنجة وتفليس، وكذلك ايدوان وقارص فانتزعها من العثمانيين وضمها الى ايران مرة اخرى.

وهكذا عاد معظم مناطق القفقاس الى ايران وقطعت يد روسيا عنها، واخذ نجم ايران يسطع مرة اخرى بوجود نادر شاه الافشاري. ولكن لم يدم الأمر طويلاً، وعاد النجم فخبا.

توفي بطرس سنة ١٧٢٥ ونادر شاه سنة ١٧٤٩ . وكان خلفاء بطرس يتبعون خطاه خطوة خطوة، فكانوا لا يغفلون لحظة عن زرع بذور الفتنة بين رؤساء قبائل القفقاس. ولأجل السيطرة عليهم كانوا يثيرون الخلافات الدينية بين المسلمين والمسيحيين، ثم يشجعون الفريقين على الثأر من بعضهم، بينما كان رجال البلاط العثماني لا يفكرون الا بأسر أو امتلاك الجواري الحسان والصبيان الظرفاء من ارض القفقاس وإلحاقهم بقصورهم ودور حريمهم.

وكان التعصب الديني بين الكرجيين وسائر الأقوام المسيحية من جهة وبين طوائف المسلمين من السنّة والشيعة من جهة أخرى سبباً لإراقة الدماء ونشوب الصراع، لذلك كان المسيحيون يعتقدون بأنهم سيخلدون الى الراحة والإطمئنان بدخولهم تحت وصاية الروس.

وباشرت كاترين الثانية فور اعتلائها العرش بالسير على مخطط بطرس الأكبر. وكان الروس يتخذون من الأموال والرشوة والحيل والتزييف سبلاً لبلوغ مآربهم. ثم عملت روسيا للمصالحة بين حاكمي ايحره سي وكرجستان (جورجيا) أي بين سليمان الأول وهراكليوس ثم حرضتهما على مهاجمة ايران والدولة العثمانية وامدتهما بثلاثين ألف مقاتل، فاستطاعت هذه القوات احتلال كوتاييس لكنها انكفأت راجعة أمام قلعة بوتي.

واستولت روسيا عام ١٧٨٢ في عهد كاترين الثانية على القرم والولايات الواقعة الى الجنوب من كوبان وبحر آزون، وبذلك استطاع الروس توسيع بلادهم حتى السفوح الشمالية من القفقاس. وفي السفوح الجنوبية كان هراكليوس يمتنع عن طاعة الإيرانيين خلفاء كريم زندخان الضعفاء، معتمداً في ذلك على حماية الروس، ثم دخل تحت وصايتهم سنة ١٧٨٢ . ولم يمض وقت طويل حتى سيّر الروس قواتهم الى كرجستان (جورجيا) فدخلوها بذريعة الدفاع عنها وحمايتها. وكانت ايران تعيش آنذاك فترة تغيير السلالة الحاكمة، لذلك لم يقف بوجه الروس احد على رغم خطورة ما يفعلون.

ولكن ما ان استولى محمد خان القاجاري على السلطة في ايران حتى اخمد الإضطرابات فيها، ثم جعل تأديب الأمير الكرجي في طليعة مهامه، فتوجه بجيشه الى كرجستان سنة ١٧٩٥ فأخضع قره باخ في بادئ الأمر، ثم هاجم تفليس عاصمة حكم كرجستان فاستغاث هراكليوس بملكة روسيا، فأمرت الجنرال فالدين ذوبوف – الذي عرف في ايران باسم (قزل باغ) لأن احدى رجليه كانت مصنوعة من الذهب – بالحملة على ايران.

وفي هذه الاثناء قتل محمد خان وتوفيت كاترين الثانية. وبسبب الأحداث السياسية القائمة آنذاك في روسيا، اضطر وريث كاترين (بول الأول) الى سحب قواته من كرجستان، وبذلك انتهت الخلافات بين روسيا وايران الى حين.

استيلاء روسيا على كرجستان (جورجيا) وأكثر مناطق القفقاس: وفي العام ١٧٩٩ صورت الخدع الروسية لكركين خان بن هراكليوس آخر ولاة كرجستان ان وجود المسلمين اللزكيين والدولتين العثمانية والإيرانية خطر ماحق، فقام هذا، اقتناعاً بكلام الروس او بالأحرى ضغطهم عليه وتهديدهم له، بتسليم كرجستان لروسيا مقابل اعطائه واقاربه مناصب في الجيش الروسي، وهكذا صدر قرار امبراطوري في العام ١٨٠١ بضم كرجستان الى روسيا.

وبعد فراغ الروس من الإستيلاء على كرجستان (جورجيا) اعتبرت حكومتهم في بطرسبورغ هذا الأمر غير مجد ما لم تلحق بها جميع اراضي القفقاس. لذلك باشرت بوضع الخطط لتوسيع اراضيها، فابتدأت بالدولة العثمانية واعلنت الحرب عليها سنة ١٨١١ وانتهت الحرب بخسارة العثمانيين لجميع القلاع والأراضي التابعة لهم في غرب القفقاس عدا آنابا وبوتي. ثم توجه الروس فور انتهائهم من هذه الحرب الى ايران فشنوا حملتهم على اراضيها الواقعة وراء نهر أرس سنة ١٨١٢ . تركت حروب روسيا وايران ذكريات مريرة في كل قلب ايراني، ففي ذلك الحين الذي لم يكن يقف بوجه بريطانيا بلد قوي من البلدان الأوروبية سوى روسيا، كان السياسيون الإنكليز يرون ان مصلحتهم تقضي ببقاء ايران دولة مستقلة قوية، لذلك بادروا الى الوساطة بين البلدين وانتهت الحرب بينهما بعقد معاهدة تخلت بها ايران عن داغستان وقوبا وشيروان وشماخي وباكو وساليان وطوالش وقره باغ وشوشة وكنجة وكرجستان وعاصمتها تفليس. ودخلت هذه المدن والاقاليم ضمن السيطرة الروسية. وعدا ذلك سلبت مناطق اخرى كانت خاضعة لسلطانها في عهد عباس الكبير ونادر شاه والملوك الذين سبقوهما، وهي مناطق ايحره سي وغوري ومنيكرلي (في ساحل البحر الأسود) وابخاز زشوراكلي وكاختي وغيرها.

كانت روسيا يومذاك تقتفي خطى بطرس الأكبر في التطور والإزدهار والتقدم رقياً وتفوقاً. بينما لم يكن احد في ايران يحمل روح نادر شاه، او يحاول الإحتفاظ بانتصاراته، بل اضاع الإيرانيون تلك الفتوحات، ولم يكونوا يدركون الهوة السحيقة التي تفصل ايران بأساليبها القديمة عن اوروبا بأساليبها الحديثة وحضارتها المتطورة، لهذا نرى ولي عهد ايران عباس ميرزا عندما شن حملته على الروس عام ١٨٢٤ لم يجن الا الخيبة والخسران، فعلى رغم تفوق الجيوش الإيرانية في بادئ الأمر، الا ان ثلاث سنوات من الأخذ والرد والكر والفر انتهت بتوقيع معاهدة تركمان جاي في العام ١٨٢٧، فتخلت ايران في تلك المعاهدة المشينة لجارتها الشمالية عن ايروان ونخجوان وجميع الأراضي الممتدة خلف نهر أرس.

صمود اربعين عاماً

خلال الفترة الممتدة من ١٨٠٠ الى ١٨٢٩ أحدث النفوذ الروسي تبدلاً مهماً في اوضاع القفقاس العامة. فعندما تمكنت روسيا من استئصال كل من النفوذ الايراني والنفوذ العثماني في القفقاس، صرفت كل جهدها لاخضاع السكان. واستمرت مقاومة القبائل الأخرى، خصوصاً في المناطق الجبلية التي سطرت، احياناً، ملاحم بطولية في مقاومتها حتى تيسّر للروس فتح القفقاس الذي كان يمثل مفتاحاً لاحتلال ايران والعراق ومصب شط العرب والوصول الى الخليج وطريق الهند.

فاذا كانت روسيا استطاعت سحق استقلال الامراء والزعماء في كرجستان (جورجيا) وقبائل الصحراء على وجه الخصوص، واستطاعت كذلك ان تحول دون تدخل الايرانيين والعثمانيين في هذه القبائل والمناطق، فإنها لم تستطع ان تخضع لسلطتها قبائل القفقاس الجبلية بمثل السهولة التي اخضعت بها القبائل الأخرى، إذ استمرت هذه القبائل تقاوم لفترات طويلة حتى ١٨٧٤، خصوصاً الأبخاز وسكان قوبان العليا، وفي شرق جبال القفقاس وفي داغستان والشاشان الذين صمدوا اربعين سنة واستطاعوا لأكثر من ثلاثين سنة تشتيت القوات الروسية التي كانت تشن حملاتها على القفقاس من دون انقطاع بقيادة ابرز القادة الروس.

كانت قبائل القفقاس تضم في تكوينها مختلف الاديان والمذاهب، فهم ما بين مسلم ومسيحي، والمسلمون ما بين سنة وشيعة. وكذلك ينقسم المسيحيون الى كاثوليك وأرثوذكس. فكان الروس يبذلون كل ما بوسعهم لدس الدسائس بين هذه القبائل. وأشهر من اشتهر من الروس في استعماله هذه الدسائس هو قائد قواتهم في القفقاس يرمالوف.

القاضي الملا محمد: عالم من علماء القفقاس، دعا مواطنيه القفقاسيين لنبذ الخلافات، وانطلق بدعوته من داغستان والقبائل المجاورة، حتى انتشر خبره بين القبائل، فالتفت حوله وهو يدعوها للجهاد. وكان نائبه ومساعده الشيخ شامل المعروف بشجاعته وجلادته.

دخل القاضي ميدان الحرب للمرة الأولى سنة ١٨٢٠، واستمر يصطدم بجيوش الروس الى ان بادرت قبيلة الاينقوش المشايعة للروس (شكلت بعد ذلك الجزء الأكبر من حرس الامبراطور الخاص) الى فتح الطرق الرئيسية امام الروس، فانتهى الأمر بمحاصرة القاضي في قصبة هيمير التي تقع على قمة جبل كوكر عقاب. وكان الروس يستهدفون القبض عليه حياً، فأبى الاستسلام، واستمر الحصار اياماً والمدافع الروسية تدك مواقعه حتى اتت عليها جميعاً، ولم يبق معه في اليوم الأخير الا ستون شخصاً، وقضى هو برصاصة اثناء الهجوم (١٨٣٢).

آلت القيادة بعد القاضي الملا محمد الى أحد مساعديه حمزة بك. ولكن هذا لم يكن جديراً بذلك، فلم يلبث ان قتل بيد أهالي خونزاخ. وعلى الرغم من ظروف القفقاسيين القاسية فقد أخذ عدد من قادة القوات الروسية وجنودها يتركون مواقعهم بسبب ما كان يصيبهم من تعسف الحكم الروسي، ويلجأون الى صفوف القفقاسيين فيقاتلون معهم. واشهر هؤلاء اللاجئين : برانوفسكي، وهو قائد عسكري أدّى للثوار خدمات جليلة، ولكنه وقع في قبضة الروس فحكم عليه بالأشغال الشاقة ونفي الى سيبيريا. وكان أغلب اللاجئين من البولونيين الذين اخذت روسيا تبعث بهم بعد ثورة ١٨٣٠ لقتال المظلومين مثلهم.

الشيخ شامل: كان الشيخ شامل الوحيد الجدير بخلافة القاضي الملا محمد وتحمل أعبائها. بعد إزالة حمزة بك دعا الشيخ شامل جميع رؤساء القبائل وكبار القضاة الى اجتماع في منطقة في وسط جبال القفقاس. فاجمع المجتمعون على انتخاب الشيخ شامل قائداً عاماً وزعيماً أوحد (١٨٣٤).

كان دور الشيخ شامل اكثر أهمية من دور القاضي الملا محمد. فقد كانت قبائل جبال شرق القفقاس حتى ذلك الحين تعيش منفصلة عن بعضها وتجتمع كل قبيلة على حدة لا تربط بينها وبين القبائل الأخرى الا وحدة الدين. ولذلك كانت مقاومة هذه القبائل للمحتل الأجنبي ضعيفة تفتقد الى النظام.

لذلك، بادر الشيخ شامل الى وضع القوانين والقواعد اللازمة للارتقاء بمستوى المقاومة، وسعى الى تحويل القبائل الى شعب واحد، وشكل قطعات عسكرية منظمة ومطيعة على غرار القطعات العسكرية الروسية. وأسس حكومة وطنية قائمة على اساس الشريعة الاسلامية، وديواناً اعلى للقضاء مقره (١٨٣٩) في دارقو في الشاشان، ثم نقل (في ١٨٤٤) الى فدن.

وقسّم الشيخ شامل مناطق نفوذه الى اقسام عدة، وبلغت في أوج قوته خمسة وعشرين قسماً. ثم وضع لكل قسم نائباً لحكومته يأخذ على عاتقه الامور الشرعية والعرفية والعسكرية وجباية الضرائب وتعبئة الجند وتنفيذ القوانين الشرعية وما اليها.

«**بلاد الجبال العالية**»: يختصر القفقاسي جوابه عند سؤاله عن بلاده بهذه العبارة: «إنها بلاد الجبال العالية»، ويضيف: «هي البلاد التي كتب عنها تولستوي، وبوشكين، وليرمنتوف».

القفقاسيون الشاشانيون والانغوش والداغستانيون والبلكار والكبارديون والأوسيت والشركس (كلهم شعوب قفقاسية) يرددون هذا الكلام. فما الذي دفع بهؤلاء الادباء الكبار الى العيش في تلك البلاد، في مرحلة شهدت فيها ثورات وحروب ضد روسيا القيصرية (بداية واواسط القرن التاسع عشر)؟.

لقد كانت منطقة جبال القفقاس تعتبر من جنوب روسيا القيصرية، بعد ان انتزعتها من الأتراك العثمانيين ومن ملوك الفرس، وبعد ان قضت على بعض الامارات المحلية التي كانت قائمة آنذاك. وفي منتصف القرن التاسع عشر، وصل الزحف الروسي الى ذروته في السيطرة على المناطق الجنوبية، ومن ثم سيطر الروس سيطرة كاملة على تلك المناطق وتم انتزاعها من ايدي الدول الاخرى أو الامارات المحلية.

إن تخليد تلك المنطقة في نتاج الادباء المشار اليهم يعود الى سبب قهري، تمثل في نفي بوشكين سنة ١٨٢٠ (في ايام القاضي الملا محمد) الى تلك المنطقة، ثم نفي ليرمنتوف سنة ١٨٣٧ (في ايام الشيخ شامل) اليها أيضاً، ويذكر انه عاش سنوات قليلة من صباه فيها أيضاً، ويعتبر هذا النفي هيناً اذا ما قيس بالنفي الى سيبيريا.

وقد جاء هذا النفي بسبب انتقاد الشاعرين المذكورين للاوضاع التي كانت قائمة آنذاك، والتحريض على مساوئ النظام القيصري ومباذله وظلمه الذي وزعه على الشعوب التي اخضعها.

أما تولستوي فإنه كان من النبلاء الاقطاعيين، جذبه الجيش فعين فيه ملازماً، واشترك في الحرب التي كانت دائرة في القفقاس (في ايام الشيخ شامل) وامضى هناك من سنة ١٨٥١ الى سنة ١٨٥٥ .

في رواية: «نهاية حب» يذكر تولستوي ان الجيش الروسي نزل في قرية نوفوميلينسكايا في بلاد القفقاس، ويتكلم في الرواية عن القفقاس والقفقاسيين، ولا يحدد شعباً بعينه. وتتكرر أسماء مثل نهر «يترك» و

«أبرييك» و «سكان الجبال»؛ وكلمة الأبركة ما هي إلا تعبير كان يطلقه الروس على سكان الجبال الذين حملوا السلاح وقاوموا الجيش الروسي. وهذا يعني ان بعض سكان السهول قد خضعوا للجيش الروسي، وتعاونوا معه، في حين ان سكان الجبال قد تمردوا عليه وثاروا

ولو نظرنا الى المرحلة التي كتب عنها تولستوي لأدركنا انها هي نفس المرحلة التي ثار فيها الشيخ شامل، وشاركه كثير من شعوب القفقاس في ثورته، وقد كان مركز تلك الثورة في داغستان، إلا أنها كانت منتشرة في انحاء القفقاس (خاصة الجبلية).

الاتحاد السوفياتي

١٩١٧ - ١٩٩١
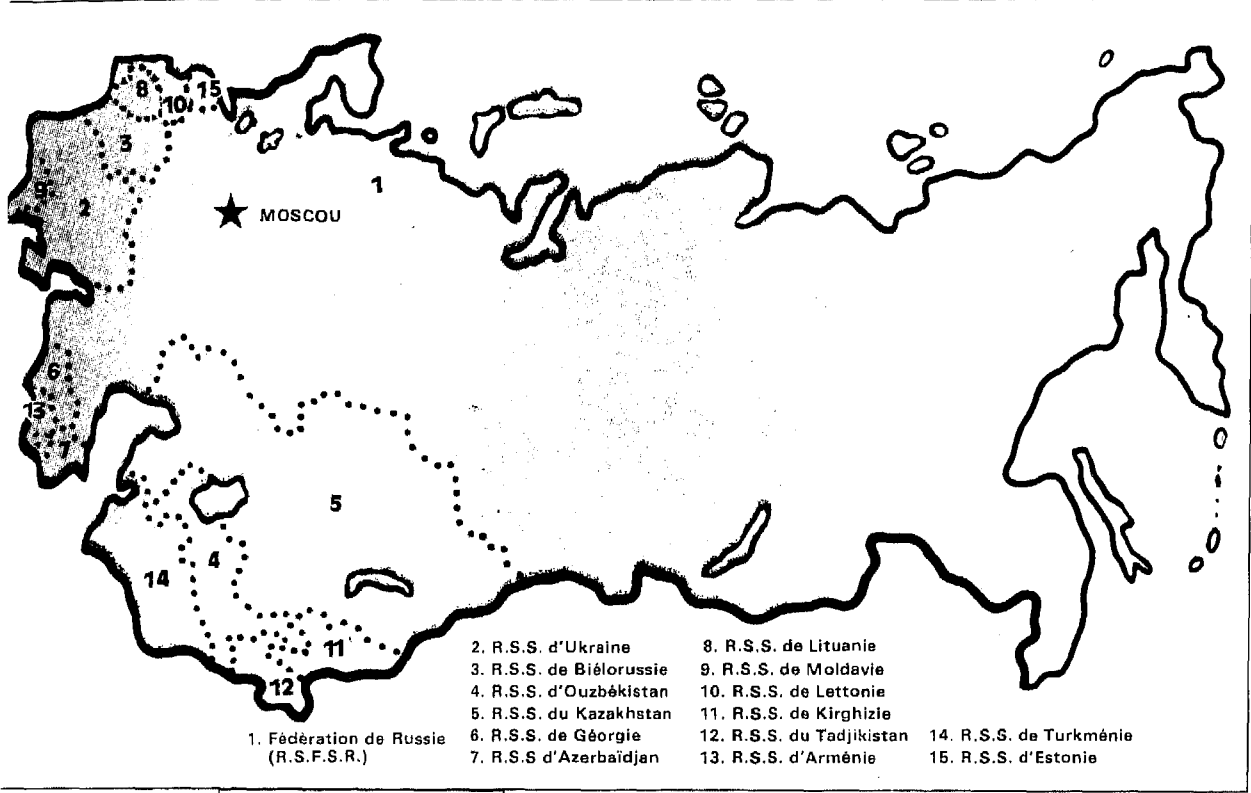
بطاقة تعريف

• **الاسم الرسمي**: اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية:

١ - **روسيا**: ١٧٠٧٥٤٠٠ كلم^{٢}، نحو ١٦٢ مليون ن. العاصمة موسكو (عاصمة الاتحاد ايضاً)؛

٢ - **أوكرانيا**: ٦٠٣٧٠٠ كلم^{٢}، نحو ٥٨ مليون ن. العاصمة كييف؛

٣ - **بيلوروسيا** (**روسيا البيضاء**): ٢٠٧٦٠٠ كلم٢، نحو ١٢ مليون ن. العاصمة مينسك؛

٤ - **أوزبكستان**: ٤٤٧٤٠٠ كلم^{٢}، نحو ٢٣ مليون ن. العاصمة طشقند.

٥ - **قازخستان**: ٢٧١٧٣٠٠ كلم^{٢}، نحو ٢٠ مليون ن. العاصمة ألما أتا.

٦ - **جورجيا**: ٦٩٧٠٠ كلم^{٢}، نحو ٥،٦ مليون ن. العاصمة تبيليسي؛

٧ - **أذربيجان**: ٨٦٦٠٠ كلم^{٢}، نحو ٩ ملايين ن. العاصمة باكو؛

٨ - **ليتوانيا**: ٦٥٢٠٠ كلم^{٢}، نحو ٥،٤ مليون ن. العاصمة فيلنيوس؛

٩ - **مولدافيا**: ٣٣٧٠٠ كلم^{٢}، نحو ٥،٥ مليون ن. العاصمة كيشينيف؛

١٠ - **لاتفيا**: ٦٣٧٠٠ كلم^{٢}، نحو ٣،٢٥ مليون ن. العاصمة ريغا؛

١١ – **قيرغيزستان (قيرغيزيا)**: ١٩٨٥٠٠ كلم٢، نحو ٦ ملايين ن. العاصمة فرونزه؛

١٢ – **طاجيكستان**: ١٤٣١٠٠ كلم٢، نحو ٧ ملايين ن. العاصمة دوشنبه.

١٣ – **أرمينيا**: ٢٩٨٠٠ كلم٢، نحو ٥ ملايين ن. العاصمة يريفان.

١٤ – **تركمانستان (تركمانيا)**: ٤٨٨١٠٠ كلم٢، نحو ٥،٥ ملايين ن. العاصمة أشخباد.

١٥ – **استونيا**: ٤٥١٠٠ كلم٢، نحو ١،٧ مليون ن. العاصمة تالّين.

وكانت كل دولة من هذه الدول يبدأ اسمها الرسمي (مضافاً الى اسمها الأصلي القومي) بعبارة: الجمهورية الاشتراكية السوفياتية.

• **أهم المدن**: راجع كل دولة في موضعها من الموسوعة.

• **السكان**: التعداد الإجمالي لسكان الاتحاد السوفياتي بحسب آخر إحصائية سوفياتية رسمية (١٩٨٩) بلغ تحديداً ٢٨٦٧١٧٠٠٠ نسمة. روسيا وحدها تأتي بعدد سكانها، بعد الصين والهند. بعد الروس (ضمن الاتحاد) يأتي على التوالي: الأوكرانيون، الأوزبك، البيلورروس، القازاخ، التتار، الأذريون، الارمن، الجورجيون (الكرج). أما المولداف، والطاجيك، والليتوان، والتركمان فيعد كل منهم اكثر من مليوني نسمة.

وهناك ايضاً اكثر من مليون ألماني، ومثلهم القيرغيز، واليهود، والتشوفاش، والليتون، والبشكير، والموردف، والبولونيون والاستونيون. وهناك اكثر من خمسين شعباً (مجموعة قومية) تعد كل منها أقل من مئة ألف نسمة. وبين الشعوب الأقل تعداداً هي التي تسكن الشمال، وبعضها لا يعد اكثر من ألف نسمة (نغاناسان، لوكاغير، نيغيدال، الخ...). **الكثافة السكانية**: ١٢ شخصاً في الكلم٢ الواحد في كامل الاتحاد السوفياتي. أعلى كثافة في مولدافيا، واوكرانيا وجورجيا (من ٧٣ الى ١١٩ شخصاً في الكلم٢). وادنى كثافة في قازاخستان، تركمنستان وفدرالية روسيا (٥ الى ٨ اشخاص). ثلاثة ارباع السكان يعيشون في القسم الاوروبي من البلاد، والباقون في القسم الآسيوي. بين عام ١٩٢٦ وعام ١٩٧٩، زاد تعداد السكان نحو مرتين ونصف المرة. **سكان المدن والارياف**: يشكل سكان المدن نحو ثلثي مجموع السكان، والثلث الآخر يعيش في الارياف. في ١٩٥٩، كان السكان موزعين مناصفة بين الارياف والمدن. والتطور الحاصل في هذا التوزيع ناتج عن التطور الاقتصادي، خصوصاً في القطاع الصناعي.

• **اللغات**: تتكلم شعوب الاتحاد السوفياتي لغات تعود الى اربعة اصول لغوية: الهندواوروبية (٨٣٪ من السكان)، الألتية (١٢٪)، القوقازية (٢٪) والاورالية (٢٪). المجموعة السلافية هي الأكبر عدداً بين اللغات الهندواوروبية: الروسية، الاوكرانية والبيلوروسية هي لغات ثلاثة ارباع السكان تقريباً. الليتوانيون واللاتفيون والمولدافيون قريبون من السلاف لغةً وثقافةً. اما الطاجيك وبعض شعوب القوقاز فيمثلون المجموعة الايرانية داخل اسرة الشعوب الهندو – اوروبية. اللغة الارمنية تشكل وضعاً خاصاً. في اسرة اللغات الألتية، تأتي المجموعة التركية في المقدمة من حيث عدد الناطقين بها؛ وتتألف هذه المجموعة من الأوزبك والقيرغيز والأذريين والقازاخ والتركمان والتشوفاش والتتار والبشكير. بالنسبة الى لغات الأسرة الأورالية فإن الناطقين بها هم الشعوب المتحدرة من الأصل الفيني والتي لا تعيش في الاورال بل في المناطق الغربية حتى البلطيق بسبب هجراتها التاريخية وتشتتها.

• **عمل ونقابات**: ٥١،٥٪ من السكان يعملون، و٧٠،٥ ٪ من مجموع العاملين يقومون باعمال يدوية اساساً، و٢٩،٥ بأعمال ثقافية. منذ بعض السنوات، شكلان من النشاطات هيمنا على النشاطات الاقتصادية: واحد في مشاريع الدولة، والآخر في التعاونيات الزراعية. اليوم (خصوصاً في السنتين الأخيرتين من عمر الاتحاد السوفياتي)، عرف النشاط الفردي للمهن نشاطاً ملحوظاً، وأخذ الأفراد يشكلون تعاونيات تعمل في مجالات عدة: تقنية، خدمات، مطاعم عامة، اشغال عامة، صناعة محلية وبناء. وتشكل النقابات اكبر تنظيم اجتماعي في الاتحاد السوفياتي. تضم ١٤٠ مليون عضو، منهم ١٢ مليون عضو في الكولخوزات. تدافع النقابات عن حقوق العمال وتشارك مباشرة في ادارة الانتاج. ولا تُتخذ القرارات المهمة في الادارة إلا بالاتفاق مع اللجان النقابية. وتدير النقابات الضمانات الاجتماعية لجميع العمال، الموظفين والكولخوزيين، وهم جميعهم على عاتق الدولة. وتمتلك النقابات حوالي ألف مؤسسة، منها فنادق ودور للراحة والاستجمام، وثلاثة آلاف مركز للوقاية من الأمراض، وثلاثة وعشرين ألف ناد وقصر للثقافة.

• **التنظيم السياسي والاداري**: الاتحاد السوفياتي بلد متعدد القوميات، لذلك فإن تقسيمه السياسي والاداري يرتكز على المبدأ القومي. ثمة اتحاد حر يضم جمهورياته الخمسة عشرة الى بعضها وعلى قاعدة التساوي في الحقوق. وكل واحدة من هذه الجمهوريات تحمل اسم

Copyright ATLASECO

الشعب الأكثر تعداداً على ارضها. وكل جمهورية هي دولة مستقلة لها دستور، وجهاز حكم، وسوفيات أعلى، وعلم ونشيد وطني وحكومة، وكذلك ميزانية الدولة. روسيا هي الأكبر بينها. وهناك عشرون شعباً (مجموعات كبيرة)، لكل منها جمهورية ذات حكم ذاتي، لها إقليمها، ودستورها، وسلطتها التشريعية وحكومتها. وإضافة الى الجمهوريات المستقلة، والى الجمهوريات ذات الحكم الذاتي، هناك ايضاً شكلان يتمتعان بادارة ذاتية: الأول هو المنطقة، حيث يوجد في البلاد ثماني مناطق تتميز بتركيبها القومي وعاداتها؛ والشكل الثاني هو المقاطعة او الأقليم المتمتع بظروف حياتية وإقتصادية خاصة، وهو وقف على المجموعات التي تسكن سيبيريا والشمال الكبير. روسيا هي الجمهورية الفدرالية الأكثر تعدداً للقوميات؛ ففيها أكثر من ١٠٠ شعب وإتنية، وهي تتضمن على ١٦ جمهورية ذات حكم ذاتي، و ٥ مناطق ذات حكم ذاتي ولكل إقليم من الأقاليم العشر في الاتحاد السوفياتي (أي في سيبيريا والشمال الكبير) حكم ذاتي ايضاً.

• **الجهاز الأعلى للسلطة**: مجلس نواب الشعب هو أعلى سلطة في البلاد. يتكون من ٢٢٥٠ نائباً منتخبين بالاقتراع السري الشامل لمدة خمسة أعوام. هناك ٧٥٠ نائباً ينتخبون على اساس التوزيع الاقليمي (الدائرة الانتخابية)؛ و ٧٥٠ نائباً يمثلون الجمهوريات الفدرالية والجمهوريات ذات الحكم الذاتي والمناطق والأقاليم؛ و ٧٥٠ نائباً تنتخبهم مختلف التنظيمات الاجتماعية، أي الحزب الشيوعي، الكوموسمول، النقابات، لجنة النساء السوفياتيات، الخ... بين هؤلاء النواب هناك ٥٣٢ عاملاً وفلاحاً؛ ٦١٦ يمثلون العلم والثقافة؛ ٣٥٢ امرأة؛ و ١٨٧ لا تتجاوز اعمارهم الثلاثين سنة (أول اجتماع لآخر مجلس نواب في ايار – حزيران ١٩٨٩). يلتئم المجلس في دورات مرتين على الاقل كل عام. وبين دورة ودورة يمارس السلطة مجلس السوفيات الاعلى للاتحاد السوفياتي، واعضاء هذا المجلس ينتخبهم النواب، وهو مكون من مجلسين: مجلس سوفيات الاتحاد، ومجلس سوفيات القوميات.

• **الحزب في السلطة**: الحزب الشيوعي، الذي أسسه لينين في ١٩٠٣، هو الحزب الحاكم الوحيد، ويحكم بموجب دستور الاتحاد السوفياتي. في مؤتمره السابع والعشرين، قدم الحزب برنامجه للتغيير (إعادة البناء)، ونظم التحويل الثوري للعلاقات الاجتماعية. ويمارس الحزب سلطته بواسطة الشيوعيين الذين يمارسون مهامهم في الهيئات العامة والاقتصادية وفي التنظيمات الاجتماعية. وفي «الكونفرنس» (إجتماع دوري يعقده الحزب وهو غير المؤتمر) التاسع عشر لاحظ الحزب انه «لن يقبل ابداً في ان تتكرر الاوضاع المشابهة لفترات العبادة الشخصية والركود، التي انتجت تشويهات عميقة في المجتمع الاشتراكي، وخففت تقدمه لعقود طويلة، واسقطت عدداً هائلاً من الضحايا وتسببت في خسائر الخلاقية وايديولوجية هائلة». نحو ٢٠ مليون عضو.

نبذة تاريخية

ثمة ثلاثة عناوين تصلح كمقدمة لتأريخ نهاية حكم القياصرة في الامبراطورية الروسية وقيام دولة الاتحاد السوفياتي على انقاضها: بدايات نهاية حكم القياصرة، النهاية الموشكة، والنهاية الحقيقية والبداية.

بدايات نهاية حكم القياصرة: منذ اواسط القرن التاسع عشر اخذت التناقضات الخارجية بين مصالح الامبراطورية الروسية والامبراطوريات الاخرى تنمو على نحو مطرد. ففي الشرق الأقصى ثمة مطامع غربية واخرى يابانية تتناقض مع مصالحها. وفي الشرق الادنى والاوسط كانت مطامع القياصرة الروس في ميراث السلطنة العثمانية المتهاوية تتناقض مع مطامع الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية اللتين كانتا تتطلعان الى الاستيلاء على هذا الميراث. وفي الغرب، كانت قوة ألمانيا في تعاظم، خاصة بعد توحيدها، وما تتطلع اليه من التوسع شرقاً يمثل تناقضاً آخر. هذا بالاضافة الى التناقض المزمن مع امبراطورية النمسا والمجر للسيطرة على الدول السلافية في البلقان وشرق اوروبا.

وقد كانت الهزيمة من نصيب روسيا في كل تحد واجهت به أياً من هذه التناقضات. ففي حرب القرم (١٨٥٦)، تدخلت بريطانيا وفرنسا الى جانب تركيا، الأمر الذي اوقع بالروس هزيمة قاسية. كذلك في الحرب الروسية – اليابانية (١٩٠٤) حيث طردت روسيا من كوريا ومنشوريا وفقدت ميناء بورت آرثر، وهو الميناء «الدافئ» الوحيد للاسطول الروسي في المحيط الهادي، وكانت روسيا قد حصلت من الصين على امتياز استخدامه دون باقي الدول الأخرى.

«٩ كانون الثاني ١٩٠٥» جيش القيصر يطلق النار على المتظاهرين في سان بطرسبورغ. فأصبح هذا اليوم يعرف بـ «الاحد الأحمر».

ولم تكن التناقضات الداخلية أقل اثراً في تفسّخ الامبراطورية الروسية من الهزائم الخارجية. فنظام الحكم الاستبدادي، والعلاقات الاجتماعية المتخلفة، أدّيا بدورهما الى تخلف الدولة حضارياً عن ركب التقدم الذي احرزته الدول الكبرى الأخرى؛ كما أدّيا، من ناحية أخرى، الى اختمار الثورة بين جماهير شعوب الامبراطورية المتطلعة الى اوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية أفضل. وجاء الاطار الظرفي المناسب وهو الحرب العالمية الأولى، وكانت الأداة جاهزة ومتمثلة بالحزب البلشفي (الشيوعي) وزعيمه لينين.

النهاية الموشكة: تحت عنوان: «١٢ آذار ١٩١٧، خطيئة القيصر غيّرت وجه التاريخ في روسيا» (ابراهيم العريس، «الحياة»، ١٢ آذار ١٩٩٣) نقرأ:

«في اي يوم بدأت النهاية الحقيقية لحكم القياصرة في روسيا؟ إذا كان لنا ان نؤرخ للاحداث الكبرى بالتواريخ الحقيقية التي تنفجر فيها، أي تلك الايام التي يقدم فيها الطرف الذي سوف ينهزم على اقتراف الخطيئة التي سيكون من شأنها ان تقضي عليه، فإنه سيكون من السهل علينا ان نعتبر يوم ١٢ آذار ١٩١٧ (٢٧ شباط بالتقويم الروسي القديم الذي يتأخر ١٣ يوماً عن التقويم الميلادي) اليوم الذي وقع فيه القيصر نقولا الثاني صك انتحاره السياسي، على رغم ان ذلك اليوم هو اليوم الذي بالكاد يشير احد اليه في مسار الاحداث الروسية العاصفة في تلك المرحلة. فالحال ان ١٢ آذار شهد صرخة رئيس مجلس الدوما (مجلس النواب) رودجيانكو، وهو يطلب من القيصر ان يدعو مجلس ممثلي الشعب التشريعي الى الانعقاد ولو بالقوة، قائلاً للقيصر: «إن ساعة مصيرك ومصير الوطن قد دقت. اما غداً فلسوف يكون الأوان قد فات».

كان من الواضح للجميع ان ما يقوله رودجيانكو هو الحق كل الحق. فماذا كان رد فعل القيصر نقولا الثاني؟ الرفض. لقد اقترف تلك الغلطة الشهيرة التي تشهد في العادة اكبر انقلابات التاريخ. قال إنه لن يستسلم ابداً امام مثل هذا الابتزاز. فما كان من مجلس الدوما إلا ان اجتمع بقرار ذاتي منه، دون ان يأخذ رأي القيصر في حسبانه. وعلى العموم، كانت الأحداث قد بدأت بالتسارع منذ ايام، حين بدت حكومة بتروغراد وشرطتها عاجزتين عن ضمان الامن العام، فيما كانت النزاعات المسلحة والاضرابات تعم المدن، وبدا القيصر تواقاً اكثر واكثر لمنع انعقاد مجلس الدوما، لايمانه بأن القرارات التي قد تصدر عن هذا المجلس التشريعي سوف لن تكون في صالحه. وفي ١٠ آذار شمل اضراب عمالي عام شهدته بتروغراد توقف ٢٠٠ ألف عامل عن العمل ونزولهم الى الشوارع، فما كان من نقولا الثاني الا ان امر الجيش بالتصدي لهم وسحقهم؛ لكن الجيش رفض تنفيذ الاوامر، بل راحت مجموعاته تنضم الى العمال الثائرين. وفي ظل هذا المناخ كانت صرخة رودجيانكو التي استهدفت إنقاذ ما لا يزال في الامكان إنقاذه.

والسؤال الذي يلح اليوم على اذهان المؤرخين هو: ترى هل كان من شأن حركة التاريخ ان تتبدل لو ان القيصر ابدى شيئاً من الليونة واستجاب في ذلك اليوم المشهود لدعوة رئيس مجلس الدوما؟.

من الواضح ان محاولة الاجابة عن مثل هذا السؤال تدخل في باب الخيال السياسي، لأن ما حدث قد حدث. وما حدث كان في الواقع مجموعة من تطورات رسمت نهاية واحدة من اكبر امبراطوريات ذلك الزمن، واسست لتلك الامبراطورية الجديدة التي سرعان ما سوف تقوم على انقاض السابقة، وتلعب واحداً من اخطر الادوار في تاريخ القرن العشرين: امبراطورية لينين وخلفائه. لكن الواقع التاريخي يقول إنه حين ارتكب القيصر خطيئته القاتلة، كان ظل لينين لا يزال بعيداً، كان

الحديث لا يزال حديث السلطة البورجوازية. ومن هنا لم يشعر الكثيرون بخطورة ما حدث في ١٥ آذار حين تنحى نقولا الثاني عن عرشه بعد ان كلف الامير لفوف تشكيل الحكومة الجديدة، واوكل الى أخيه الأمير ميشال شؤون الملك من بعده، لكن الدوق الأكبر ميشال رفض تلك الهدية المسمومة. وهكذا صارت السلطة في ايدي رئيس مجلس الدوما والأمير لفوف، في الوقت الذي تشكلت فيه حكومة ثورية في بتروغراد، في واحد من اعجب انقلابات التاريخ الحديث، الانقلاب الذي سيصل الى ذروته بعد شهور مع اندلاع ثورة اكتوبر. فهذه الأخيرة سوف تقضي على كيرنسكي عضو الدوما الاشتراكي الذي كان قد قفز الى الصف الأول بعد فشل انقلاب بلشفي جرى خلال صيف العام نفسه. ومع القضاء على كيرنسكي، كان مصير روسيا قد بدأ يتخذ وجهة جديدة. وجهة لم يكن احد يتوقعها».

نهاية القيصرية بداية الشيوعية السوفياتية (الثورة): تشكلت، إذاً، في ٢ آذار (١٩١٧) حكومة مؤقتة «بورجوازية» برئاسة الامير لفوف في اجواء تصاعد الاضرابات المصحوبة بأعمال عنف ومعارك مسلحة، وتزايد انضمام الجنود الى المضربين والثوار، وتشكيل مجالس السوفياتات المحلية في المدن والمناطق سيطر عليها المنشفيك (جناح بورجوازي في الحزب الشيوعي يقابله البلشفيك بزعامة لينين).

وفي ٨ آذار جرى توقيف القيصر نقولا الثاني وفرض الاقامة الاجبارية على العائلة الامبراطورية في تساركويه سيلا. إلا ان الحكومة لم تعلن إلغاء النظام الملكي ولم تستجب لمطالب كثيرة طالب بها الشعب، ففسر موقفها هذا انها تنتظر فرصة تمكنها من اعادة القيصر الى العرش. فكان هناك ازدواج واضح في السلطة بين الحكومة المؤقتة والسوفياتات المنتشرة في كل انحاء البلاد.

وفي ٣ نيسان (١٩١٧، وبحسب التقويم الروسي القديم الذي يتأخر ١٣ يوماً عن التقويم الميلادي)، عاد لينين الى روسيا من منفاه في سويسرا داخل عربة قطار مغلقة حملته مع ٣٠ من رفاقه عبر المانيا وبإذن من حكومتها. وبدأ، على الفور تطبيق خطته الرامية الى الانتقال بالثورة القائمة آنذاك من مرحلتها البورجوازية الديمقراطية الى الثورة الاشتراكية. جناح المنشفيك (أو المونشفيك) وقف متحالفاً مع الحكومة، في حين استمر البلشفيك يعملون تحت شعار «كل السلطة للسوفيتات». ولم تنجح الحكومة في تحويل الأنظار الى مخاطر الحرب الناشبة مع الألمان، إضافة الى ان القوات الروسية كانت قد خسرت نحو ٦٠ ألف قتيل وجريح في غضون ايام قليلة من معاركها الأخيرة على الجبهة، فشدّدت من رقابتها وقمعها للبلشفيك الذين بدأوا يقتنعون، تحت هذا الضغط، ان شعارهم «كل السلطات للسوفيتات» لم يعد يناسب الوضع الجديد بعد ان اصبحت السوفيتات تابعة للحكومة. فدعا لينين الى تشديد الكفاح لكسب السوفيتات (يسيطر عليها المونشفيك) الى جانب البلاشفة، ووضع خطة الانتفاضة المسلحة لاسقاط الحكم ونقله الى الطبقة العاملة (البروليتاريا). وفي أول آب (١٩١٧) تمّ ابعاد نقولا الثاني وعائلته الى طوبولسك في سيبيريا (وبقي هناك حتى اعدامه وافراد عائلته في العام ١٩١٨).

اتسعت اعمال التخريب في الصناعة ووسائط النقل، وتعاظمت الاضرابات والانتفاضات، وارتفعت اسعار السلع، وأصبحت الحكومة مؤقتة مرتكنة بالكامل على القوى الغربية، وتميزت هذه الاضرابات عما سبقها بطرد العديد من أصحاب العمل واستيلاء العمال على ادارة المصانع، واشتعلت هبات فلاحية في سائر انحاء روسيا، وعمد الفلاحون الى الاستيلاء على الأراضي.

في ٢١ آب (١٩١٧)، سقطت ريغا بيد الألمان. واستغل الجنرال كورنيلوف القائد العام للجيش الروسي هذه الفرصة وحاول القيام بانقلاب عسكري (٢٧ آب)، وتحركت قواته باتجاه العاصمة. لكن

البلاشفة والحكومة معاً اسقطوا هذه المحاولة، وأُلقي القبض على كورنيلوف، وعين كيرنسكي مكانه. فسارع هذا، في اول ايلول، الى تشكيل حكومة مديرين من خمسة أعضاء وأعلنت «الجمهورية الروسية».

اعتبر لينين أن ظروف ثورة البروليتاريا قد نضجت تماماً. فدعا، في ١٠ تشرين الأول ١٩١٧، الى اشعال الانتفاضة المسلحة. وفي ٢٤ تشرين الأول (حسب التقويم القديم، ٦ تشرين الثاني حسب التقويم الميلادي)، اصدر أمره لقوى الثورة الى «حسم الأمر هذا اليوم بالذات مساء أو ليلاً». فاكتظت بتروغراد بفصائل الحرس الاحمر والجنود والبحارة، وبسيارات الشحن التي تقل عشرات آلاف الروس المسلحين. فاحتلوا محطات السكك الحديدية والجسور ومراكز المواصلات ومحطات الكهرباء ودوائر الحكومة ومصرف الدولة... واحتفظت قوات الحكومة ببضع مراكز بما فيها «قصر الشتاء» حيث قبع وزراء الحكومة المؤقتة، وهرب رئيس الحكومة كيرنسكي. احتل الثوار «قصر الشتاء»، واعتقلوا الوزراء واودعوهم قصر بطرس وبولس حيث كان القيصر يسجن الثوار من قبل. ورفرف العلم الأحمر فوق العاصمة بتروغراد.

في مساء ٢٦ تشرين الأول ١٩١٧ (تقويم روسي قديم)، افتتحت جلسة مؤتمر السوفياتات الثاني (اكثر من ٦٥٠ مندوباً: ٤٠٠ من البلاشفة، ١٨٠ من الاشتراكيين الثوريين غادر بعضهم معارضاً)، واتخذ قراراً بانتقال السلطة كلها الى السوفياتات. والقى لينين في المؤتمر تقارير عن السلام والارض، اشار فيها الى ان البلاشفة عرضوا على حكومات البلدان المتحاربة جميعها الشروع فوراً بمفاوضات لعقد صلح ديمقراطي عام، ومنح جميع الامم والشعوب الحق في تقرير مصيرها. واقترح إقرار «مرسوم الارض» الذي ينص على مصادرة جميع اراضي الملاك والاديرة والعائلة القيصرية بلا تعويض وتمليكها للشعب. وشكل المؤتمر الحكومة السوفياتية التي حملت آنذاك إسم «مجلس مفوضي الشعب»، وعين لينين رئيساً لها.

لم تستسلم القوات المضادة للثورة. فقاد كيرنسكي وحدات من القوزاق من مدينة أوستروف في اتجاه بتروغراد، ووصلوا الى مسافة ٢٠ كلم من العاصمة. ونجحت قوات الثورة (الحرس الأحمر والثوار) في وقف تقدم القوزاق واجبارهم على التراجع، ثم الانتقال الى الهجوم حيث فرّ كيرنسكي من جديد متنكراً بزي بحار.

وفي موسكو، وقعت معارك بين الطرفين. فاحتلت قوات الثورة الكرملين ومواقع مهمة في موسكو. وكذلك في باكو وبسكوف وكييف وفاركوف وطشقند وفلاديفستوك ومعظم ارجاء سيبيريا وروسيا، في حين تم انتقال السلطة الى البلاشفة في كثير من المناطق بشكل سلمي.

وفي نهاية العام ١٩١٧ وخلال العام ١٩١٨، تمّ تأميم المشروعات الصناعية الكبرى، والبنوك، والنقل والتجارة الخارجية. واعلنت السلطة السوفياتية المساواة والسيادة لشعوب روسيا كلها. وفي ٣ آذار ١٩١٨، انسحبت روسيا من الحرب العالمية الاولى بعد عقد معاهدة بريست ليتوفسك. فاندلعت حرب اهلية روسية استمرت حتى ١٩٢٢، تكرّس في نهايتها انتصار البلاشفة.

بدأت تلك الحرب باشتباك بين القوات السوفياتية وقوات الليجون التشيكسلوفاكي التي كان يتم إجلاؤها عن روسيا. فاغتنم الروس البيض (التحالف الروسي المعادي للثورة) الفرصة وسيطروا على معظم المناطق الواقعة بين نهر الفولغا والمحيط الهادئ. وبدأ قتال عنيف بين وحدات الروس البيض والجيش الأحمر الذي انشأه تروتسكي بصفته مفوضاً للشؤون العسكرية. وبدأت الدول الحليفة الغربية تتدخل مباشرة لإعادة روسيا الى الحرب ضد ألمانيا. فانزلت كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة قوات في شمالي روسيا، وانزلت الولايات المتحدة واليابان قوات في سيبيريا الشرقية.

أدى انهيار المانيا الى افقاد الحلفاء ذريعتهم. فاتخذ التدخل طابعاً معادياً بشكل صريح، وضاعف الحلفاء دعمهم للروس البيض. وتمكنت قوات الجيش الأحمر من صد هجمات البيض واحدة إثر أخرى. ومع مطلع ١٩٢٠، تم اسر زعيم البيض كولتشاك واعدامه. وبدأت القوات الأجنبية بالانسحاب بعد ان ادركت عدم جدوى التدخل.

شكل إعلان حقوق العمال والشعوب المستغلة اساس الدستور السوفياتي الاول (١٩١٨)، «دستور جمهورية روسيا الاشتراكية السوفياتية المتحدة». وفتحت الثورة الروسية صفحة جديدة في تاريخ العالم. وانقسم العالم، بها الى نظامين متعارضين: النظام الاشتراكي والنظام الرأسمالي. وكانت هذه الثورة بداية عصر الثورات الاشتراكية في الدول الرأسمالية وملهم قوي لحركات التحرر الوطني. وبذا، انفصل عن النظام الرأسمالي التاريخي بلد يبلغ عدد سكانه عند الثورة اكثر من ١٥٠ مليون نسمة، ويشغل سدس الكرة الارضية، ويملك امكانات اقتصادية هائلة. لذلك، شكلت هذه الثورة، بحق، انعطافاً حاسماً في تاريخ البشرية.

سيرة عمر ٧٤ سنة

عاش الاتحاد السوفياتي عمراً هو متوسط العمر الذي يعيشه الانسان في الدول المتقدمة. ولد عظيماً. دبدب عظيماً. راهق عظيماً. شبّ عظيماً. أغمض عينيه على مشهد تمنى معه لو لم يولد: شعبه في طوابير الرغيف والجوع والمهانة، وفي صرخة الحرية. «لا رغيف، ولا حرية، ما هذا العمر؟ !»، قالها وأسلم الروح. ربما، ربما في ذاكرة المستلقي على فراش الموت التمع شعاع عزاء التجربة والخطأ والدرس على أمل مولود اشتراكي جديد عظيم يرى النور يوماً قريباً ويتعلم من «التجربة والخطأ والدرس» فيعطي الحل الإنساني الأكبر.

تسلسل الأحداث الزمني الوارد أدناه مستقى من كتاب سنوي نشرته وكالة نوفوستي للصحافة بعنوان «الاتحاد السوفياتي ١٩٨٨»، وهو يصل في ذكر الأحداث الى اواسط ١٩٨٧، وبعدها، الى يوم انهيار دولة الاتحاد السوفياتي، من مراجع غربية:

١٩١٧

• ٢٥ تشرين الاول (٧ تشرين الثاني، تقويم قديم): إنتصار إنتفاضة أكتوبر المسلحة في بتروغراد (لينينغراد اليوم).

• ٢٥ — ٢٧ تشرين الاول (٧ — ٩ تشرين الثاني، تقويم قديم): المؤتمر الثاني لمجالس السوفيات الروسية يتبنى مراسيم السلام والارض؛ تشكيل الحكومة: مجلس مفوضي الشعب، يرأسه لينين.

• ٢٩ تشرين الاول (١١ تشرين الثاني، تقويم قديم): مرسوم مجلس مفوضي الشعب يحدد بـ ٨ ساعات دوام العمل اليومي.

• ٢ تشرين الثاني (١٥، تقويم قديم): اعلان حقوق شعوب روسيا.

• ١٨ كانون الاول (٣١ كانون الاول، تقويم قديم): الاعتراف باستقلال فنلندا. قيام جمهوريات قومية عدة على أراضي روسيا.

١٩١٨

• ١٩١٨ — ١٩٢٠: حرب أهلية وتدخل قوات مسلحة إمبريالية.

• ١٠ — ١٨ كانون الثاني (٢٣ — ٣١ كانون الثاني، تقويم قديم): المؤتمر الثالث للمجالس السوفياتية الروسية. تبني اعلان حقوق الشعب العامل والمستغل. قيام الجمهورية الاشتراكية الفدرالية السوفياتية الروسية.

• ١٤ شباط: تبني التقويم الميلادي مكان التقويم الروسي القديم.

• ٢٣ شباط: إنشاء الجيش الأحمر.

• ٣ آذار: الانسحاب من الحرب العالمية الاولى.

• آذار — آب: الانكليز، الاميركيون، الفرنسيون واليابانيون يغزون، بقواتهم، البلاد. بداية التدخل الاجنبي.

• ٢٩ تشرين الاول: إنشاء اتحاد الشبيبة الشيوعية في روسيا.

• ٧ تشرين الثاني: إصدار اول طابع سوفياتي.

١٩١٩

• آذار: مؤتمر الحزب الشيوعي الروسي الثامن. تبني برنامج الحزب الثاني الذي يهدف الى بناء المجتمع الاشتراكي.

• ١٢ نيسان: أول سبت شيوعي (يوم عمل مجاني) في مستودع محطة فرز موسكو.

١٩٢٠

• تشرين الثاني: سحق قوات الروس البيض. نهاية الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي.

• كانون الاول: المؤتمر الثامن لمجالس السوفيات الروسية. تبني خطة لجنة الدولة للكهرباء في روسيا.

١٩٢١

• تبني السياسة الاقتصادية الجديدة المعوّلة على التجارة الخاصة والمشاريع الخاصة.

• افتتاح (في موسكو) أول مسرح احترافي للأولاد والشبيبة.

١٩٢٢

• ١ ايار: تشغيل محطة كاشيرا الكهربائية، أول محطة في إطار برنامج الكهرباء في روسيا. وإنشاء أول خط جوي دولي سوفياتي، موسكو — برلين.

• ١٩ ايار: إنشاء تنظيم الرواد.

• آب: أول بث تجريبي لراديو موسكو، أقوى إذاعة في العالم آنذاك.

• ٣٠ كانون الاول: قيام اتحاد الجمهوريات

الاشتراكية السوفياتية الذي يضم فدرالية روسيا وبلاد ما وراء القوقاز، وأوكرانيا وبيلوروسيا.

١٩٢٣

• أول تنقيب عن النفط في البحر في أذربيجان.
• أول خط جوي موسكو – نيجني – نوفغورود (غوركي اليوم).

١٩٢٤

• اعتراف بالاتحاد السوفياتي من انكلترا، فرنسا، ايطاليا، النروج، النمسا، اليونان، السويد، الصين، المكسيك والدانمارك.
• ٢١ كانون الثاني: وفاة لينين.
• ٢٦ كانون الثاني – ٢ شباط: مؤتمر السوفيات الثاني. تبني دستور الاتحاد السوفياتي.
• ٧ تشرين الثاني: أول شاحنة سوفياتية بطاقة طن ونصف الطن.

١٩٢٥

• إنشاء جائزة لينين وتخصيصها لأصحاب الأعمال العلمية البالغة الأهمية.
• إنشاء وكالة تاس.
• إنشاء «الاتحاد» للعلاقات الثقافية مع البلدان الأجنبية.

١٩٢٦

• كانون الاول: إحصاء السكان: ١٤٧ مليون نسمة.

١٩٢٧

• ٢ – ١٩ كانون الاول: المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي – بدء جعل الزراعة عملاً جماعيًا.

١٩٢٨

• الاهتمام بتصحيح مستوى المعيشة.

١٩٢٩

• ١٩٢٩ – ١٩٣٢: أول خطة خمسية. إنشاء فروع جديدة للصناعة.
• ١٨ ايلول: أول آلة حصاد سوفياتية.
• ٥ تشرين الثاني: تدشين المحطة الفلكية.

١٩٣٠

• ١٣ آذار: إقفال بورصة العمل التي كانت قد اصبحت دون جدوى. نهاية البطالة.
• أول أيار: تشغيل خط سكة حديد تركستان – سيبيريا الذي يصل سيبيريا بآسيا الوسطى.
• ١٤ آب: مرسوم حول «التعليم الابتدائي الاجباري».

١٩٣١

• اول حزيران: أول فيلم سينمائي ناطق ينتج في الاتحاد السوفياتي: «طريق الحياة». افتتاح مسرح كزيفان.
• ٣١ تشرين الاول: أول قاطرة سوفياتية.

١٩٣٢

• ١٠ تشرين الاول: تشغيل المحطة الكهرمائية على نهر الدنيبر. اكبر محطة في اوروبا آنذاك.
• ٧ تشرين الثاني: اول قاطرة كهربائية سوفياتية.

١٩٣٣

• ١٩٣٣ – ٣٧: الخطة الخمسية الثانية. اعادة تجهيز الاقتصاد تقنياً.
• ٢٧ نيسان: البدء باستثمار مناجم الحديد في كورسك.
• ٢ آب: افتتاح قناة البحر الأبيض – البحر البلطيق.
• ١٦ تشرين الثاني: إقامة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة.

١٩٣٤

• بريزيديوم السوفيات الاعلى ينشئ لقب «بطل الاتحاد السوفياتي»، الامتياز الاعلى في البلاد.
• آب: اول مؤتمر لكتّاب الاتحاد السوفياتي.
• ١٨ ايلول: انضمام الاتحاد السوفياتي الى عصبة الامم المتحدة.

١٩٣٥

• ٢١ شباط – ٢ آذار: أول مهرجان سينمائي دولي في موسكو.
• ١٥ ايار: تدشين أول خط ميترو في موسكو (طول ١١ كلم).
• ٣١ آب: رقم قياسي حققه المواطن ألكسي

ستاخانوف الذي نجح في استخراج كمية من الفحم الحجري في يوم عمل واحد أكثر بـ ١٤ مرة من الكمية العادية. بداية حركة عرفت بـ «الحركة الستاخانوفية».

١٩٣٦

• ٢٥ تشرين الثاني – ٥ كانون الاول: المؤتمر الاستثنائي الثامن للسوفيات في الاتحاد السوفياتي. تبني الدستور الذي يثبت انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي.

١٩٣٧

• ٢١ ايار: أول محطة علمية عائمة في القطب الشمالي.

• ١٨ – ٢٠ حزيران: طيران متواصل لفريق فاليري تشاخوف، موسكو – أميركا الشمالية عبر القطب الشمالي.

١٩٣٨

• تشرين الاول: تشغيل محطات التلفزيون الاولى في موسكو ولينينغراد.

١٩٣٩

• كانون الثاني: إحصاء السكان: ١٩٤ مليون نسمة.

• ٢٣ آب: توقيع ميثاق عدم الاعتداء بين المانيا والاتحاد السوفياتي.

• تشرين الثاني: أوكرانيا الغربية وبيلوروسيا الغربية تنضمان الى الاتحاد السوفياتي.

١٩٤٠

• ٢٨ حزيران: رومانيا تعيد للاتحاد السوفياتي بساربيا وبوكافين الشمالية اللتين ضُمتا في ١٩١٨.

• آب: انضمام ليتونيا ولاتفيا وإستونيا الى الاتحاد السوفياتي.

١٩٤١

• ٢٢ حزيران: النازيون يغزون الاتحاد السوفياتي دون اعلان الحرب. بداية الحرب القومية الكبرى.

• ١٢ تموز: توقيع اتفاق سوفياتي – انكليزي حول الاعمال المشتركة ضد المانيا.

• ٥ – ٦ كانون الاول: هزيمة النازيين بالقرب من موسكو وهجوم سوفياتي مضاد.

١٩٤٢

• انشاء التحالف المعادي للهتلرية.

١٩٤٣

• شباط: سحق كامل للجيش النازي (٣٣٠ ألف رجل) قرب ستالينغراد.

• تموز – آب: معركة كورسك. منعطف نهائي في الحرب.

١٩٤٤

• ٢٧ كانون الثاني: نهاية حصار لينينغراد الذي كان قد دام ٩٠٠ يوم.

• آب: طرد الغزاة النازيين عن أراضي الاتحاد السوفياتي.

١٩٤٥

• شباط: مؤتمر يالطا الذي ضم رؤساء الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وبريطانيا. تعاون في وضع خطط القضاء النهائي على المانيا النازية.

• نيسان – ايار: معركة برلين.

• ايار: استسلام القوات الألمانية للحلفاء دون شرط.

• ٩ ايار: يوم النصر على المانيا النازية.

• تموز – آب: مؤتمر بوتسدام الذي ضم الحلفاء (الاتحاد السوفياتي، بريطانيا والولايات المتحدة). وضع شروط معاهدات السلام مع المانيا وحلفائها خلال الحرب.

• ٩ ايلول: سحق اليابان العسكرية. نهاية الحرب القومية الكبرى بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي حيث أكثر من ٢٠ مليون سوفياتي لاقوا مصرعهم.

١٩٤٦

• ١٩٤٦ – ٥٠: الخطة الخمسية الرابعة. اعادة تنشيط الاقتصاد الذي دمّرته الحرب. مجموعة من الطلاب الاجانب جاؤوا يتلقون العلم في الاتحاد السوفياتي.

١٩٤٧

• تأسيس أكاديمية الفنون الجميلة في الاتحاد السوفياتي.

١٩٤٨

• اعادة مستوى الانتاج الصناعي الى ما كان عليه قبل الحرب. تخفيض عديد الجيش من ١١ مليون الى ٢٨٧٤٠٠٠. الاتحاد السوفياتي يقترح منع السلاح الذري.

١٩٤٩

• كانون الثاني: تأسيس «مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة». إنشاء جائزة لينين الدولية لتقوية السلام بين الشعوب.

• آب: انشاء اللجنة السوفياتية للدفاع عن السلام.

١٩٥٠

• حزيران: ١١٥ مليون شخص يوقعون «نداء ستوكهولم» الذي اطلقته اللجنة الدائمة للمؤتمر العالمي لأنصار السلام من اجل منع السلاح الذري.

١٩٥١

• ١٩٥١ — ٥٥: الخطة الخمسية لإنماء الاقتصاد.

• ١٢ آذار: مجلس السوفيات الأعلى يتبنى الدفاع عن السلام.

١٩٥٢

• ٢٧ تموز: تدشين قناة فولغا — دون (طولها ١٠١ كلم).

١٩٥٤

• نحو مليون متطوع يبدأون استصلاح الاراضي في شرق البلاد.

• ٢٧ حزيران: تشغيل اول محطة نووية في العالم في أوبنينسك قرب موسكو.

١٩٥٥

• ١٤ ايار: توقيع معاهدة فرصوفيا للصداقة، والتعاون والمساعدة المتبادلة بين بلدان اوروبا الاشتراكية. وإنشاء قوات مسلحة مشتركة بين هذه البلدان.

• ٣٠ تشرين الثاني: أول بعثة علمية الى انتاركتيكا.

١٩٥٦

• ٣٠ حزيران: قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي «حول إلغاء العبادة الشخصية ونتائجها».

١٩٥٧

• ٢٨ تموز — ١١ آب: المهرجان العالمي السادس للشبيبة والطلاب في موسكو.

• ٤ تشرين الاول: إطلاق أول قمر صناعي من الأرض.

١٩٥٩

• كانون الثاني: إحصاء السكانّ ٢٠٨٨٠٠٠٠٠ نسمة.

• ٣٠ كانون الثاني: البدء باستثمار القسم الاول من قناة كراكوم (٤٠٠ كلم).

• ٢٨ حزيران: طائرة ثو — ١٠٤ تحقق أول رحلة طيران مباشر موسكو — نيويورك.

• ٧ تشرين الاول: المركبة الفضائية لونا — ٣ تصور وجه القمر المخفي.

١٩٦٠

• اول تشرين الاول: افتتاح (في موسكو) جامعة الصداقة بين الشعوب (جامعة باتريس لومومبا) التي تستقبل طلاباً من البلدان النامية.

١٩٦١

• ١٢ نيسان: أول إنسان في الفضاء: يوري غاغارين، مواطن سوفياتي.

• تشرين الاول: المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي. تبني البرنامج الثالث للحزب. — انشاء وكالة نوفوستي للصحافة — انشاء الصندوق السوفياتي للسلام.

١٩٦٢

• حزيران: المؤتمر العالمي لنزع السلاح الشامل والسلام في موسكو.

١٩٦٣

• ١٦ حزيران: تحليق اول رائدة فضاء فالنتينا تيريشكوفا — مؤتمر النساء العالمي في موسكو.

• ٥ آب: الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة

وبريطانيا توقع معاهدة حظر تجارب السلاح النووي في الجو وتحت المياه. اكثر من مئة بلد تنضم الى هذه المعاهدة.

١٩٦٤

• ١٥ تشرين الاول: تشغيل خط انابيب «دروجبا» (طوله حوالي ٥٠٠٠ كلم) الذي ينقل النفط السوفياتي الى تشيكوسلوفاكيا، بولونيا، هنغاريا والمانيا الديمقراطية – انشاء نظام نقل نهري في القسم الاوروبي من الاتحاد السوفياتي يصل بين مرافئ بحر الأبيض، وبحر البلطيق، وبحر قزوين، والأسود، وأزوف.

١٩٦٥

• اول خروج لرائد فضاء من مركبته الى الفضاء، السوفياتي ألكسي ليونوف – إفتتاح (في موسكو) اول مسرح موسيقي للأولاد في العالم.

١٩٦٦

• ٣ شباط: نزول (وبنجاح وهدوء) أول مركبة فضائية على سطح القمر.

• ١٤ آذار: اسبوع العمل خمسة ايام. ويومان للراحة.

١٩٦٩

• ١٦ كانون الثاني: أول محطة فضائية.

١٩٧٠

• كانون الثاني: إحصاء السكان: ٢٤١٧٠٠٠٠٠ نسمة.

• ١٧ تشرين الثاني: لونوخود – ١، عربة آلية للاستكشاف تهبط على القمر.

١٩٧١

• ١٥ تشرين الثاني: البلدان الاشتراكية تنشيء نظام الاتصال الكوني (إنترسبوتنيك).

• ١٨ كانون الاول: تشغيل محطة كهربائية بقوة ستة آلاف ميغاوات.

١٩٧٢

• ايار: اول زيارة رسمية لرئيس الولايات المتحدة الى الاتحاد السوفياتي – تطويل مدة الدراسة من ٨ الى ١٠ أعوام.

١٩٧٣

• ٢٥ – ٣١ تشرين الاول: المؤتمر العالمي (في موسكو) لقوى السلام.

١٩٧٥

• ١٥ – ٢١ تموز: رحلة طيران فضائي مشترك اميركي – سوفياتي بالتحام سويوز – ١٩ وأبولو.

• ٢٢ تشرين الاول: المركبة الفضائية «فينوس – ٩» تهبط على سطح الزهرة وتلتقط صوراً له.

١٩٧٦

• ٢٨ ايار: توقيع (في موسكو) معاهدة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة حول التجارب النووية تحت سطح الارض ولأغراض سلمية.

١٩٧٧

• ايلول: اول معرض دولي «الكتاب في خدمة التقدم والسلام» في موسكو.

• ٧ تشرين الاول: تبني الدستور الحالي (حتى ١٩٩١، انهيار الاتحاد السوفياتي) – الانتهاء من طبع «مكتبة الادب العالمي» من ٢٠٠ جزء.

١٩٧٨

• اكبر منتوج من الحنطة في تاريخ البلاد: اكثر من ٢٣٥ مليون طن.

• ١٩٧٨ – ١٩٨٧: رحلات طيران فضائي مشتركة مع رواد فضاء ٩ بلدان اشتراكية، ورواد فضاء من الهند، فرنسا وسوريا.

١٩٧٩

• ١٨ حزيران: توقيع (في فيينا) معاهدة الحد من الاسلحة الاستراتيجية الهجومية بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة (سالت – ٢).

١٩٨٠

• ١٩ تموز – ٣ آب: الدورة الثانية والعشرون للألعاب الاولمبية في موسكو.

١٩٨١

• ١٩٨١ – ١٩٨٥: إنشاء شبكة أنابيب عابرة

القارات تنقل الغاز من سيبيريا الغربية الى النمسا، سويسرا، برلين الغربية، فرنسا وايطاليا.

١٩٨٢

• ١٦ حزيران: التزام الاتحاد السوفياتي بأنه لن يكون البادئ في استعمال السلاح النووي.

١٩٨٤

• تشرين الاول: رقم قياسي يحققه رواد الفضاء السوفيات: ٢٣٧ يوم طيران متواصلة.

١٩٨٥

• نيسان: انتخاب ميخائيل غورباتشوف سكرتير عام اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي السوفياتي.

• ٢٧ تموز – ٣ آب: المهرجان العالمي الثاني عشر للشبيبة والطلاب في موسكو.

• ٦ آب: الاتحاد السوفياتي يعلن من جانب واحد روزنامة الحد من التجارب النووية.

١٩٨٦

• ١٥ كانون الثاني: الاتحاد السوفياتي يطرح برنامج القضاء على السلاح النووي حتى العام ٢٠٠٠.

• ٢٤ شباط – ٦ آذار: المؤتمر السابع والعشرون للحزب. تبني النص الجديد لبرنامج الحزب والتعديلات في انظمة الحزب. وسياسة تسريع الانماء الاجتماعي – الاقتصادي في البلاد.

• ٢٦ نيسان: حادثة المفاعل النووي «تشيرنوبيل».

• ١٩ حزيران: السوفيات الاعلى يصادق على خطة الدولة للانماء الاقتصادي والاجتماعي ١٩٨٦ – ١٩٩٠.

• ١٦ تموز: عودة رواد الفضاء السوفيات الى الارض بعد اربعة اشهر قضوها يعدون المحطة الفضائية السوفياتية «مير» لمهمات علمية فضائية بالغة الأهمية.

• ١٨ آب: إعلان الاتحاد السوفياتي، مرة أخرى، عن استعداده في كل لحظة وفي أي مكان لتوقيع معاهدة حظر شامل للسلاح النووي.

• ٢٨ آب: قرار مجلس الوزراء السوفياتي تسهيل دخول الأجانب الى الاتحاد السوفياتي وخروج المواطنين السوفيات منه.

• ٢٦ تشرين الاول: قداس احتفالي من اجل السلام أقامه، في موسكو، البطريرك بيمن، بطريرك موسكو وسائر روسيا.

• اول تشرين الثاني: نهاية اسبوع السلام. نحو ٦٠ مليون سوفياتي اشتركوا في اجتماعات ومظاهرات وسهرات السلام.

• ٩ – ١١ كانون الاول: اثناء الاجتماع السنوي العاشر للمجلس التجاري والاقتصادي الاميركي – السوفياتي، اعربت ١٥ شركة اميركية عن رغبتها في إقامة مشاريع صناعية مشتركة.

• ١٢ كانون الاول: اكبر معرض تجاري وصناعي سوفياتي، منذ ١٩٥٤، اشترك فيه ٢٢ مجمعاً تجارياً، في بكين.

١٩٨٧

• اول كانون الثاني: خمسة قطاعات صناعية، وقطاع البناء والتجارة، تحولت الى التمويل الذاتي والى الادارة المالية الذاتية، والى الاكتفاء الذاتي. و٢١ وزارة قطاعية ومصالح واكثر من ٧٠ مشروعاً ومنظمة نالت حق التعاطي مباشرة مع الأسواق الخارجية.

• بيمن، بطريرك موسكو وسائر روسيا نال الميدالية الذهبية «من اجل دعم السلام»، تثميناً لجهوده من اجل السلام.

• ١٣ كانون الثاني: طبع العدد رقم ٢٥٠٠٠ من البرافدا الجريدة اليومية الناطقة بلسان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي والتي بدأت صدورها في ١٩١٢.

• ١٥ – ١٦ كانون الثاني: أول لقاء (في بروكسل) بين بعثات الخبراء السوفيات وممثلي تجارة المجموعة الاوروبية. وقد توصلوا الى الاتفاق على اقامة علاقات رسمية بين الاتحاد السوفياتي وثلاث مجموعات اوروبية: السوق المشتركة، المجموعة الاوروبية للفحم والفولاذ، والأوراتوم.

• ١٥ – ٢١ شباط: اكثر من ١٠٠ مليون اميركي وكندي شاهدوا، للمرة الأولى، قناة التلفزيون المركزية السوفياتية التي نقلتها شركات تلفزيون ديسكوڤري وأوربيتا بالتعاون مع تلفزيون الاتحاد السوفياتي واذاعته. وقد بثت البرامج من دون ترجمة (في ما عدا نشرة الأخبار المسائية) ولمدة ٩ ساعات يومياً.

• ٢٦ شباط: بعد ١٨ شهراً من التزام سوفياتي بايقاف كل تجربة نووية من دون ان تبادر الولايات المتحدة الى التزام مماثل، أجرى الاتحاد السوفياتي تجربة تحت سطح الارض معلناً في الوقت نفسه العودة الى التزامه السابق اذا اوقفت الولايات المتحدة تجاربها.

• ٢٨ شباط: الاتحاد السوفياتي يقترح عقد اتفاق لازالة الصواريخ السوفياتية والاميركية المتوسطة المدى في اوروبا.

• ١٠ – ١١ آذار: تبادل الآراء في موسكو بين ممثلي الاتحاد السوفياتي وأنغولا وكوبا. وتناول النقاش الوضع في جنوب افريقيا. وقد نوهت البعثة الأنغولية بالمساعدة المقدمة (لأنغولا) من الاتحاد السوفياتي وكوبا للانماء الاقتصادي والاجتماعي ودعم قدراتها الدفاعية.

• ١٨ آذار: نهاية المرحلة الاولى من التجربة السوفياتية – الاميركية بخصوص الرقابة على التجارب النووية في المنطقة السوفياتية القريبة من سيميبلاتينسك.

• ٢٨ آذار – اول نيسان: زيارة رسمية للاتحاد السوفياتي قامت بها مارغريت تاتشر، رئيسة مجلس الوزراء البريطاني. اتفاقات ثنائية مهمة تمت أثناء الزيارة.

• ٧ نيسان: مدينة روستوف (على نهر الدون) اصبحت المدينة السوفياتية الخامسة والعشرين التي تعد اكثر من مليون نسمة.

• نهاية التجارب على مجمع تحويل الطاقة الذي أنشئ بناء على طلب فنلندا وبالتعاون مع خبرائها. قوته مليون كيلوواط، ويؤمن ١٠/١ من مجموع استهلاك الطاقة في فنلندا.

• ١٠ نيسان: أثناء زيارته لتشيكوسلوفاكيا، اقترح غورباتشوف تخفيض، وإزالة، الصواريخ التكتيكية العملانية ذات المدى ٥٠٠ الى ١٠٠٠ كلم دون ربط ذلك بالمناقشات الدائرة حول مشكلة الصواريخ المتوسطة المدى.

• ١٨ نيسان: نهاية زيارة بعثة مجلس النواب الاميركي الى الاتحاد السوفياتي. رئيس البعثة أعلن انها المرة الأولى، منذ ١٥ سنة، تبدو الفرصة مفتوحة امام وفاق مثمر حول مشكلة تخفيض التسلح.

• ٢٥ – ٢٧ ايار: زيارة غورباتشوف لرومانيا حيث التقى سكرتير عام الحزب الشيوعي الروماني ورئيس رومانيا نيكولاي تشاوسيسكو. تركزت المباحثات على تطوير العلاقات السوفياتية – الرومانية والتعاون بين البلدين.

• ٢٨ – ٢٩ ايار: حلف فرصوفيا والحلف الاطلسي: مؤتمر في برلين للجنة السياسية الاستشارية للدول الاعضاء في حلف فرصوفيا. وقد وقّع أعضاء هذا الاتحاد الدفاعي بين البلدان الاشتراكية وثيقة حول عقيدتهم العسكرية التي تدين الحرب. وتوجه المؤتمر بدعوة لتطوير الحوار بين بلدان معاهدة فرصوفيا وبلدان الحلف الأطلسي من اجل تقوية الثقة في اوروبا.

• ٢١ حزيران: انتخابات المجالس السوفياتية المحلية في الاتحاد السوفياتي. نحو ٤ ملايين مرشح برزوا إبان إجتماعات الحملة الانتخابية.

• ٢٥ – ٢٦ حزيران: الدورة العادية للجنة المركزية في الحزب. ناقشت نقاطاً جوهرية صبّت جميعها في خانة إعادة بناء الاقتصاد. اتخذت الدورة قراراً بتحديد يوم ٢٨ حزيران ١٩٨٨ موعداً للكونغرس الوطني التاسع والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي في موسكو.

• ٢٩ حزيران: انتهاء المؤتمر العالمي للنساء: ٢٣٠٠ مندوبة شاركن في هذا المؤتمر وقدمن من ١٥٠ بلداً، وشعارهن: «نحو العام ٢٠٠٠ منزوع السلاح النووي».

• ٢٩ – ٣٠ حزيران: دورة مجلس السوفيات الأعلى. أقرّ النواب الاجراءات التي اتخذتها حكومة الاتحاد السوفياتي بهدف اعادة بناء الاقتصاد في المرحلة الحالية من تطور البلاد. وأقروا كذلك قانون النقاش الوطني والقومي للمشكلات المهمة في حياة الدولة، وقانون الاجراءات العدلية ضد الأعمال غير الشرعية المقترفة من الموظفين والتي أضرّت بحقوق المواطنين.

الرئيسان: السوفياتي ميخائيل غورباتشوف (الى يسار الصورة)، والاميركي رونالد ريغان، يوقعان في واشنطن في ٨ كانون الأول ١٩٨٧، معاهدة حول تدمير الصواريخ النووية المتوسطة والقصيرة المدى للدولتين.

• ٢٣ آب: مظاهرات تعمّ دول البلطيق وتهتف ضد ذكرى الانضمام الى الاتحاد السوفياتي.

١٩٨٨

• اول كانون الثاني: قانون حول الادارة الذاتية للشركات، واصدار أول الشيكات.
• ١٣ كانون الثاني: اتفاق مع السويد حول تقاسم المناطق الاقتصادية في بحر البلطيق (نالت السويد ٧٥٪ من المنطقة المتنازع عليها).
• ١٤ — ١٨ آذار: غورباتشوف يزور يوغوسلافيا.
• ١٤ نيسان: اتفاقات في جنيف حول افغانستان والانسحاب السوفياتي منها.
• ١٥ ايار: بدء انسحاب الجيش السوفياتي من افغانستان.
• ٢٩ ايار — ٢ حزيران: الرئيس الاميركي ريغان في زيارة لموسكو.
• ٢٨ حزيران: المؤتمر القومي التاسع عشر للحزب الشيوعي السوفياتي (لم يدع هذا المؤتمر للانعقاد منذ ١٩٤١).
• ٢٧ تموز: اول تدمير لصواريخ إس إس — ٢٠ بوجود مراقبين اميركيين.
• اول ايلول: مجلس السوفيات الاعلى (بريزيديوم) ينتخب غورباتشوف رئيساً للدولة.
• ٢٤ تشرين الاول: زيارة المستشار الألماني الغربي، كول، لموسكو.
• ٢٨ تشرين الاول: ادخال اصلاحات على الدستور المعتمد.
• اول كانون الاول: مجلس السوفيات الاعلى يقر نهائياً الاصلاحات الدستورية.
• ٦ كانون الاول: لقاء غورباتشوف، ريغان وبوش في نيويورك.
• ١٦ كانون الاول: إصدار قانون عقوبات جديد.

١٩٨٩

• ٧ كانون الثاني: البرافدا تعلن رد الاعتبار الى جميع ضحايا المرحلة الستالينية.
• ٢٢ كانون الثاني: اول مباراة لانتخاب ملكة جمال في موسكو.
• ١٥ شباط: الجيش السوفياتي ينهي انسحابه من افغانستان.
• ١٦ شباط: الليتوانيون مع حق تقرير مصيرهم والهدف الانفصال عن الاتحاد السوفياتي.
• ١٧ شباط: اول سفير سوفياتي لدى المجموعة الاوروبية.
• من ٢٢ تشرين الثاني ١٩٨٨ الى ٢ شباط ١٩٨٩: ١٤١٠٠٠ أذري يفرون من ارمينيا و ١٥٨٠٠٠ ارمني يفرون من أذربيجان.
• ٨ آذار: الاتحاد السوفياتي يعترف بصلاحية محكمة العدل الدولية في لاهاي لحماية حقوق الانسان.
• ٥ نيسان: غورباتشوف يزور لندن.
• ١٦ ايار: لقاء غورباتشوف ودنغ كساوبنغ في بكين.
• ٢٠ ايار: ٢٠٠٠٠٠ متظاهر في يريفان يطالبون باطلاق قادتهم الارمن.
• ٢٧ ايار: انتخاب بوريس يلتسن في مجلس السوفيات الاعلى.
• حزيران: غورباتشوف يزور المانيا الاتحادية.
• ٤ تموز: غورباتشوف يزور باريس.
• ١٧ تموز: قداس احتفالي في موسكو على نية القيصر نقولا الثاني (الأول منذ ١٩١٨).
• ١٨ تموز: في محاولة لايقاف موجة الاضرابات، غورباتشوف يعلن عن تخصيص ١٠٠ مليار فرنك لاستيراد سلع استهلاكية.
• ٣١ تموز: البدء بعدم اعتبار الدعاية المعادية للاتحاد السوفياتي جريمة ضد الدولة.
• ٣ آب: نيكولاي فورونتسوف (عالم احياء) وزير لحماية الطبيعة، أول عضو في الحكومة لا ينتمي الى الحزب الشيوعي.
• ٢٣ ايلول: الاتحاد السوفياتي يرفض ربط اتفاقية ستارت بتخلي الولايات المتحدة عن مشروع «حرب النجوم».
• ٢٣ تشرين الاول: الاتحاد السوفياتي يطرح إلغاء كل القواعد العسكرية في الخارج حتى العام ٢٠٠٠.
• ٢٤ تشرين الاول: مجلس السوفيات الاعلى يعرض انتخاب المجالس البرلمانية في الجمهوريات بالاقتراع الشامل.
• ٣٠ تشرين الاول: مظاهرات امام مركز المخابرات (ك ج ب).
• اول كانون الاول: غورباتشوف في روما، ويلتقي البابا.
• ٢ كانون الاول: قمة غورباتشوف — بوش في مالطا.

• ٦ كانون الاول: لقاء غورباتشوف والرئيس الفرنسي ميتران في كييف.

١٩٩٠

• ٣١ كانون الثاني: مطعم ماكدونالد الاميركي (للهمبرغر) يفتح اول فرع له في موسكو. وصدور اول مجلة للواطة والسحاقة (في سياق تعاظم الحديث عن غزو الصرعات الغربية للمجتمع السوفياتي، وظواهر أخرى كانت غريبة، أخصها المافيات).

• ٤ شباط: مئة ألف متظاهر، في موسكو، يطالبون بالديمقراطية.

• ٤ آذار: انتخابات تشريعية في الجمهوريات السوفياتية.

• ١٤ آذار: انتخاب غورباتشوف رئيساً للاتحاد السوفياتي.

• ٣ نيسان: قانون حول الاجراءات الشكلية لانفصال الجمهوريات.

• اول ايار: اول مسيرة تنظمها النقابات وليس الحزب الشيوعي.

• ٥ ايار: مشاركة الاتحاد السوفياتي في الاجتماع الوزاري للحلف الاطلسي حول توحيد المانيا.

• ١٣ حزيران: مجلس السوفيات الاعلى يصدق على مبدأ اقتصاد السوق الموجه (رفع التأميم عن ملكية الدولة، اصلاح زراعي، ومالي ومصرفي).

• ٢٠ تموز: خطة يلتسن للتخصيص وتحرير الاسعار.

• ٣٠ تموز: علاقات ديبلوماسية مع ألبانيا (مقطوعة منذ ١٩٦١).

• ١ آب: إلغاء الرقابة السياسية.

• ٩ آب: إنشاء صندوق للتخصيص.

• ٣٠ ايلول: علاقات قنصلية رسمية مع اسرائيل.

• ١٨ تشرين الثاني: غورباتشوف في الفاتيكان.

• ٢٩ تشرين الثاني: الاتحاد السوفياتي يقترع لصالح قرار هيئة الامم المتحدة رقم ٦٧٨ الذي يسمح باللجوء الى القوة في العراق.

• ٢٠ كانون الاول: استقالة شيفارنادزه (وزير الخارجية منذ ١٩٨٥) احتجاجاً على «هجمة الدكتاتورية».

• ٢٤ كانون الاول: قانون يجبر الجمهوريات السوفياتية الخمس عشرة تنظيم استفتاء حول انتمائها الى «الاتحاد السوفياتي المتجدد»، يتبعه استفتاء آخر حول ملكية الارض.

١٩٩١

• ١٤ كانون الثاني: فالنتين بافلوف رئيساً للوزراء.

• ٢٠ كانون الثاني: ٥٠٠٠٠٠ متظاهر في موسكو تلبية لنداء المنظمات الاصلاحية.

• ١٧ آذار: استفتاء حول بقاء الاتحاد السوفياتي كاتحاد متجدد بين جمهوريات سيّدة ومتساوية في الحقوق. ومن مجموع ١٥ جمهورية، ست (استونيا، لاتفيا، ليتونيا، مولدافيا، جورجيا، ارمينيا) رفضت الاقتراع، و٤ (بيلوروسيا، قيرغيزستان، تركمنستان، طاجيكستان) طرحت السؤال كما هو وارد، وخمس جمهوريات طرحت السؤال مختلفاً (مثلاً، في قازخستان، استعملت كلمة دولة وليس جمهورية).

• ٩ نيسان: بدء انسحاب الجيش السوفياتي من بولونيا.

• ١٦ نيسان: غورباتشوف في اليابان.

• ٩ ايار: الاتحاد السوفياتي والصين يعلنان انهما لم يعودا تهديداً لبعضهما.

• ٢٢ ايار: الاتحاد السوفياتي يطلب من الغرب مئة مليار دولار لانقاذ البيريسترويكا.

• ٥ حزيران: غورباتشوف في اوسلو لاستلام جائزة نوبل للسلام.

• ٢٦ تموز: غورباتشوف يطرح التخلي عن مبدأ «صراع الطبقات».

• ١٩ آب: انقلاب المحافظين وتشكيل لجنة الدولة للحالة الطارئة: غينّادي إيانيف (مولود ١٩٣٧) نائب رئيس، فالنتين بافلوف (١٩٣٧) رئيس وزراء، فلاديمير كريوتشوف (١٩٢٤) رئيس جهاز المخابرات ك.ج.ب.، وغيرهم. اللجنة تعلن عن عجز غورباتشوف القيام بمهامه «لاسباب صحية». اما حالة الطوارئ فحددت بستة اشهر. تمركز الدبابات في موسكو، ويلتسن يعلن عدم شرعية اللجنة، ومئة ألف متظاهر في لينينغراد.

• ٢١ آب: صدام مسلح حول البرلمان (٣ قتلى، «أبطال الاتحاد السوفياتي»). إجتماع استثنائي في باحة البرلمان حيث اعلن يلتسن نفسه قائداً للقوات المسلحة.

• ليل ٢١ — ٢٢ آب: غورباتشوف يقطع فرصة نقاهته على البحر الأسود ويعود الى موسكو. ويعلن من التلفزيون استعادته لمهامه في الاربع والعشرين ساعة القادمة.

• ٢٢ آب: إلقاء القبض على الانقلابيين وانتحار إثنين منهم. الجماهير، في موسكو، تحطم تمثال

دجيرزينسكي، مؤسس «تشيكا» السابقة لجهاز المخابرات ك.ج.ب. – يلتسن يعترف باستقلال استونيا وليتونيا – البرلمان الاوكراني يعلن استقلال اوكرانيا – غورباتشوف يطلب من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي حل نفسها، ويمنع (بمرسوم) نشاط الحزب الشيوعي في الجيش؛ وداخل ك.ج.ب. وفي وزارة الداخلية؛ ويستقيل من مهامه كسكرتير عام للحزب الشيوعي السوفياتي – العلم السابق (الابيض، الازرق، الاحمر) يعتمد من جديد علماً رسمياً لروسيا – منع صحيفة «البرافدا».

• ٢٦ آب: برلمان مولدافيا يعلن الاستقلال – تحطيم العديد من نصب لينين – بيلوروسيا تعلن استقلالها.

• ٢٩ آب: مجلس السوفيات الاعلى يعلّق نشاط الحزب الشيوعي على كامل اراضي الاتحاد، ويقرر حلّ نفسه.

• ٣٠ آب: اذربيجان تعلن استقلالها.

• ٣١ آب: استقلال قيرغيزستان وأوزبكستان.

• ٢ ايلول: نواب ارمن كرباخ (قره باخ) يعلنون استقلالها.

• ٤ ايلول: مجلس الدولة الجديد يعترف باستقلال جمهوريات البلطيق.

• ٦ ايلول: ممثل جورجيا يعلن في مجلس الدولة قطع كل علاقة مع المركز الذي لم يعترف باستقلالها.

• ٨ ايلول: معارك في ارمينيا بين الارمن والأذريين.

• ٩ ايلول: اعلان استقلال طاجيكستان.

• ٢١ ايلول: اعلان استقلال ارمينيا.

• ٢٧ ايلول: مؤتمر استثنائي للشبيبة الشيوعية (الكوموسمول) يعلن ايقاف كل نشاط.

• ١١ تشرين الاول: حل الـ ك.ج.ب.

• ٢٧ تشرين الاول: استقلال تركمنستان. من مجموع الجمهوريات السوفياتية (عددها ١٥)، وحدهما روسيا وقازخستان لم تعلنا استقلالهما.

• ٦ تشرين الثاني: حل الحزب الشيوعي الروسي.

• ١٤ تشرين الثاني: غورباتشوف يقدم مشروع اتحاد يجمع الدول المنفصلة.

• ٨ كانون الاول: بيان مشترك بين روسيا وبيلوروسيا واوكرانيا (في مينسك) يعلن ان الاتحاد السوفياتي لم يعد له من وجود سواء من وجهة نظر القانون الدولي او كحقيقة سياسية. ويقرر إنشاء «مجموعة الدول المستقلة» التي يمكن ان تضم اليها جمهوريات اخرى راغبة بهذا الانضمام لتنسيق السياسة الاقتصادية والمصرفية، والاحتفاظ بقيادة موحدة لاغراض عسكرية استراتيجية، واشراف موحد على اسلحتها النووية.

• ١٧ كانون الاول: لقاء يلتسن – غورباتشوف واتفاقهما على انهاء وجود الاتحاد السوفياتي عند آخر السنة (أي بعد ١٤ يوماً).

• ٢١ كانون الاول: في ألما أتا، مؤتمر ضم ١١ رئيس جمهورية سوفياتية سابقة (باستثناء جمهوريات البلطيق وغياب جورجيا) وكرّس زوال الاتحاد السوفياتي، وبعث برسالة الى غورباتشوف يعلن فيها إلغاء مؤسسة رئاسة الاتحاد السوفياتي.

• ٢٣ كانون الاول: آخر مرة عزف فيها النشيد السوفياتي لدى تقديم السفير السوفياتي في اسرائيل اوراق اعتماده.

• ٢٥ كانون الاول: غورباتشوف يعلن استقالته ويبدي قلقه: «إن أسوأ ما في هذه الأزمة انهيار الدولة». وعند منتصف الليل، أنزل علم الاتحاد السوفياتي عن مبنى الكرملين، ورفع مكانه علم روسيا.

السياسة الخارجية في العقد الأخير من عمر الدولة السوفياتية

«هجمة السلام»

ما الذي يمكن جمعه من المنشورات السوفياتية (خصوصاً وكالة نوفوستي للصحافة) حول هذه السياسة التي دعاها السوفيات «هجمة السلام»؟.

إن اعقد المشكلات المطروحة امام البشرية هي مشكلة الحرب والسلام. كانت كذلك حيث عرفت البشرية، في القرن الحالي، حربين عالميتين مدمرتين، ولا تزال اليوم حيث خطر حرب عالمية ثالثة جاثم في كل لحظة. وهذه الحرب ستكون، في حال اندلاعها، حرباً نووية قاضية على البشرية. فكيف يمكن تأمين السلام وضمان التقدم؟.

إن طريقة التفكير التي كانت متبعة في المرحلة ما قبل النووية وما قبل الكونية اصبحت عاجزة عن الاجابة على هذه الاسئلة. وهذا ما يفرض طريقة تفكير جديدة ملائمة للظروف التاريخية التي يعيش العالم اليوم في اطارها. فهناك تغييرات جذرية اصابت الوضع الدولي خلال العقود الأخيرة؛ ومحورها الطاقة (والسلاح) النووية التي وضعت البشرية في حال الخطر الدائم.

فالتاريخ فرض، على النظرية وعلى الممارسة في آن وبنفس درجة الأهمية، مشكلة جوهرية: ما العمل لتجنب الكارثة النووية، وكيف يُستفاد، دون اغفال واقع الخلافات الاجتماعية والسياسية والايدولوجية، من العلم والفن، ثم تأمين العيش بصورة حضارية وفي إطار سلام عالمي عادل تحققه علاقات دولية تحكمها روح التعاون؟

يؤمن الاتحاد السوفياتي بامكانية ايجاد حل لهذه المشكلة من خلال مفهوم نمط التفكير السياسي الجديد. فماهو هذا المفهوم إيجازاً؟.

اصبح العالم اليوم صغيراً جداً وسريع العطب بالنسبة الى الحروب وسياسات القوة. فهذا العالم اصبح عرضة للزوال في حال استعمال جزء صغير مما هو متوافر من السلاح النووي.فالتخلي عن الحروب وسياسة القوة هي الفكرة الأساسية المتحكمة بنمط التفكير السياسي الجديد. ويفترض هذا التفكير إمكانية حل كل المشكلات الشائكة والخلافات العميقة والنزاعات سياسياً، أي بواسطة المفاوضات وبعيداً عن استعمال القوة المسلحة. ولن يكون بمقدور الاختلافات بين الأنظمة الاجتماعية – السياسية، والايدولوجيا، والخصوصيات القوميات والثقافية وغيرها، ان تعرقل حواراً يجري باسم السلام. وهذا لا يعني التخلي عن الكبرياء القومية أو عن مصالح الشعب، إنما يعني ان على كل بلد أن يتجه بهذه الكبرياء وبهذه المصالح باتجاه هدف واحد جوهري: استمرار الحضارة البشرية. فالاولوية يجب ان تعطى للقيم البشرية. والفكرة القائلة بامكانية التفوق العسكري، على الارض أو في الفضاء، هي فكرة غير واقعية.

الفضاء ملك البشرية برمتها، واستعماله لأغراض عسكرية عمل لا إنساني ولا أخلاقي. وعلى البشرية، لضمان بقائها، التصدي لعسكرة الفضاء والقضاء نهائياً على السلاح النووي على الارض.

كل بلدان العالم مرتبطة ببعضها، وكل الناس يعيشون على كوكب واحد، الارض. وعلى كل الدول ان تشارك في صنع السلام والأمن. فأمن بلد واحد لا يمكن ان يكون مضموناً على حساب امن بلد آخر. فالأمن، إما ان يكون أمناً متساوياً، متبادلاً وعاماً، أو لا يكون. ويجب الاقرار بأن الحياة البشرية هي القيمة الأسمى في العالم، لأن الانسان هو خالق القيم المادية والروحية.

وبدفاعه عن عالم خال من العنف، يستمر الحزب الشيوعي السوفياتي بدعمه للحركات العالمية

والشيوعية الدولية، وحركات التحرر الوطني، والنضال الطبقي. فالماركسيون ليسوا دعاة سلم بالمعنى الطوباوي، إذ يعتبرون ان الحروب الدفاعية وحروب التحرر الوطني، شرعية ومبررة.

فالمهمة الأساسية لسياسة الدولة السوفياتية الخارجية هي في دعم السلام من خلال الحد من التسلح النووي تمهيداً للقضاء عليه نهائياً في مرحلة لاحقة. والبرنامج السوفياتي لبناء عالم خال من السلاح النووي مستوحى أصلاً من شعور هذه الدولة بمسؤولياتها تجاه مصير البشرية وبقائها. وفي حال قبول هذا البرنامج، يصبح بامكان البشرية أن تأمل، منذ بداية الألف الثالث، العيش تحت سماء خال من الأخطار النووية الحاملة الموت والاندثار. إلا ان بلوغ هذا الهدف يستوجب تضافر الجهود المشتركة لجميع الحكومات والشعوب والدول.

يقضي البرنامج بازالة الأسلحة الكيميائية بصورة تامة، والحد من الأسلحة الكلاسيكية والقوات المسلحة. اما مسألة وضع برنامج للقضاء على الأسلحة النووية من خلال تفجيرها فهي مسألة بالغة الأهمية. يجب التوقف عن هذا السباق المجنون. لقد بادر الاتحاد السوفياتي، بوعي كامل لمسؤولياته، ومن طرف واحد، بوضع برنامج (٦ آب ١٩٨٥) للتخلص من الأسلحة النووية. وقد مدد البدء به مرات عديدة بانتظار بادرة حسن نية من الولايات المتحدة الاميركية.

العقل والجنون القاتل نقيضان أبديان في التاريخ. وقد حدث ان الغلبة كانت للجنون القاتل في مرات عديدة، لكنها كانت غلبة مؤقتة، إذ لا بد في النهاية من ان يكون العقل هو المنتصر. وهذا ما هو مأمول اليوم.

مفهوم التعايش السلمي: منذ اواسط الثمانينات والعالم يتكلم عن «هجمة السلام» التي تقوم بها موسكو. فالمبادرات والمقترحات السوفياتية السلمية في اطار السياسة الخارجية للدولة تطاول جميع المشكلات الدولية في الوقت الحاضر. إذ إن النضال من اجل السلام مبدأ أساسي في نظرية الثورة الاشتراكية اللينينية التي تنبأت بحتمية قيام نظامين إجتماعيين مختلفين: الاشتراكية والرأسمالية. ويعتبر الشيوعيون ان في هذه المرحلة من التاريخ العالمي (مرحلة التوازن بين هذين النظامين) يجب العمل على تثبيت حسنات النظامين ليس بواسطة النزاع المسلح، وانما بواسطة التنافس في مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية في إطار تعاون الدول ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة. ففي هذا الأمر بالذات يكمن احد المبادئ الأساسية للسياسة الخارجية السوفياتية: مبدأ التعايش السلمي.

يتضمن مبدأ التعايش السلمي قواعد مثل رفض الاحتكام الى القوة أو التهديد باللجوء اليها، عدم التدخل في الشؤون الداخلية، احترام المصالح الشرعية المتبادلة، حق الشعوب بتقرير مصيرها، احترام سيادة الدول وسلامة اراضيها، التعاون على قاعدة المساواة التامة، تنفيذ الاحكام الدولية واحترام قواعد القانون الدولي العامة. إلا ان هذه القواعد لا تلغي اطلاقاً حق النضال الايديولوجي بين النظامين، ولا حق الشعوب المضطهدة للنضال من أجل استقلالها وحريتها.

المبادرات السلمية: أبقى الاتحاد السوفياتي برنامجه لتدمير السلاح النووي (من خلال تفجيره) منذ الاعلان عنه في آب ١٩٨٥ ساري المفعول. ولو انضمت الولايات المتحدة والدول النووية الأخرى الى هذه الجهود لكان شكّل ذلك حاجزاً منيعاً امام التزايد النوعي للترسانات النووية على الارض.

وفي كانون الثاني ١٩٨٦، قدّم الاتحاد السوفياتي برنامجاً أمنياً لنزع السلاح وتخليص البشرية من الأسلحة النووية في العام ٢٠٠٠. ويتضمن هذا البرنامج خطة عملية وواقعية.

في المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي (شباط - آذار ١٩٨٦)، دعا

الشيوعيون كل الشعوب تأييد ودعم نظام أمني كوني يرتكز على مبادئ وإجراءات عملية في مختلف المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية.

فُتحت آفاق عالم منزوع السلاح النووي بفضل المقترحات السوفياتية المقدمة في قمة ريكيافيك السوفياتية – الاميركية (تشرين الاول ١٩٨٦)، منها الدعوة الى تخفيض السلاح الهجومي الاستراتيجي بنسبة ٥٠٪ لدى الطرفين، تصفية الصواريخ الاميركية والسوفياتية المتوسطة المدى في اوروبا، منع التجارب النووية. الا ان الفريقين لم يتوصلا الى اتفاق في ريكيافيك.

بعد نحو عام على قمة ريكيافيك، اقترح الاتحاد السوفياتي، في محاولة اعطاء دفع للمحادثات السوفياتية – الاميركية حول التسلح النووي والفضائي في جنيف تدمير جميع الصواريخ المتوسطة والقصيرة المدى المنصوبة في اوروبا وآسيا ومن قبل الطرفين على حد سواء.

أول اتفاق من نوعه في التاريخ: أوجدت هذه المبادرات ظروفاً مؤاتية ومشجعة لعقد أول اتفاق من نوعه في التاريخ بعد مفاوضات سنين طويلة شاقة، وهو اتفاق تصفية مئتين من السلاح النووي. فقد اجتمع في واشنطن (٨ كانون الاول ١٩٨٧) الرئيسان الاميركي رونالد ريغان، والسوفياتي ميخائيل غورباتشوف، ووقعا معاهدة حول تدمير صواريخهما المتوسطة والقصيرة المدى، وفقاً لنظام مراقبة بالغ الدقة والجدية. وقد اعتبرت هذه المعاهدة بمثابة خطوة جديدة وأساسية على طريق الوصول الى الخلاص نهائياً من الخطر النووي. وقد اتفق الرئيسان في قمة واشنطن، فعلاً، على الاسراع في تنفيذ هذه الخطوات، منها موافقتهما على عقد لقاء آخر (١٩٨٨) للاتفاق على تخفيض (بنسبة ٥٠٪) السلاح الاستراتيجي الهجومي.

في آسيا: موقف الاتحاد السوفياتي من مسألة الأمن في منطقة آسيا الباسيفيكية يعبّر عنه بوضوح خطاب غورباتشوف في فلاديفوستوك (تموز ١٩٨٦) وأجوبته في المقابلة التي أجرتها معه الجريدة الاندونيسية «مرديكا». فبرنامج السلام السوفياتي في آسيا يعتمد بالدرجة الأولى على حل مختلف النزاعات الاقليمية، وعدم انتشار السلاح النووي في المنطقة، واجراء محادثات حول تخفيض نشاط الأساطيل البحرية في المحيط الباسيفيكي (الهادئ)، واستئناف المحادثات الآيلة لجعل المحيط الهندي منطقة سلام، والتصدي (مرحلياً وتدريجياً) لمسألة تخفيض القوات المسلحة والأسلحة التقليدية في آسيا الى مستوى معقول.

البيريسترويكا والغلاسنوست

أهم كلمتين واكثرهما ترديداً في القاموس السياسي اليومي في الاتحاد السوفياتي، ومرتبطتين بمطلقهما ميخائيل غورباتشوف منذ توليه سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي في آذار ١٩٨٥.

تعني البيريسترويكا «اعادة البناء»، والغلاسنوست «العلنية». ففي الكلمتين، بحد ذاتهما، معاني النقد لمرحلة سابقة من تاريخ الاتحاد السوفياتي والحزب الشيوعي السوفياتي، ودعوة للتغيير. وهما موضوع كتاب بعنوان «البيريسترويكا» وضعه غورباتشوف بعد وقت قصير من توليه مناصبه القيادية في الدولة والحزب. والفكرة الاساسية التي يعالجها الكتاب واستمر غورباتشوف يدافع عنها: إعادة البناء عن طريق الديمقراطية والعلنية والنقد ليُتاح للاتحاد السوفياتي تحقيق هدفه في حل مشكلاته الداخلية (خصوصاً الاقتصادية) وإبقائه الدولة العظمى الثانية، أو الانتقال به الى المرتبة الأولى في العالم.

ومن الدارسين، سواء في الاتحاد السوفياتي ودول المعسكر الاشتراكي أو في الولايات المتحدة والغرب، من اعتقد ان البيريسترويكا قد ساوت في أهميتها التاريخية ثورة أكتوبر البلشفية العظمى في العام ١٩١٧ وتأثيرها على الاتحاد السوفياتي والعالم الغربي والعالم الثالث.

وفي البيريسترويكا مستويات اربعة رئيسية (تتفرع منها مجموعة كبيرة من القضايا الفرعية) جرى في إطارها التحرك السياسي العام للاتحاد السوفياتي بين ١٩٨٥ (وصول غورباتشوف الى السلطة) و ١٩٩١ (زوال دولة الاتحاد السوفياتي). ويمكن عنونة هذه المستويات بـ: الايديولوجيا، الاقتصاد، البيروقراطية، العلاقات الخارجية.

الايديولوجيا: أي الفكر الماركسي اللينيني أو الفكر الاشتراكي ومدى مواكبته للعصر والواقع الانساني. فالمقولات السابقة والثابتة اخذت تتعرض للنقد، وحتى النقض. وقد اكثر المحللون السوفيات من سعيهم وراء مقولات وافعال للينين تؤيد الفكر الجديد، فكر اعادة البناء. وانصب نقدهم على ان ماركس وإنغلز كانا مثاليين في اعتقادهما بامكانية ايجاد مجتمع جديد مثالي ليس فيه مكان لأن تتحكم السلعة في العلاقات التي تربط الافراد، وبالتالي تختفي منه الدولة.

لقد وضع لينين، في اعتقاد الكتاب الداعمين للبيريسترويكا، قواعد اقتصادية عملية لبناء الاشتراكية، لكن تلك الخطط قد تنكر لها من جاؤوا بعده وأحلوا محلها اشتراكية تتحكم الدولة فيها بالنظام الاقتصادي عن طريق مركزية التخطيط، واقتصرت فيها العلاقة التي تقوم على اساس «السلعة مقابل النقود» (قال بها لينين برأيهم) على مجرد التقيد بالسجلات، وحلت الايصالات الورقية محل تسلم النقود الحقيقية، وتحولت فكرة الاشتراكية – كما يقول هؤلاء النقاد الداعمين للبيريسترويكا – من «مملكة الحريات» الى «مملكة الضروريات» واقعياً.

لقد سار الاتحاد السوفياتي، برأيهم، على مسار الخطط الاقتصادية التي وضعها ستالين حتى بعد غيابه؛ فأصبح الشكل، وهو تأميم وسائل الانتالج وسيطرة الدولة، يغني عن المحتوى، وهو تمثيل مصالح الشعب. وحدثت محاولات إصلاحية جانبية باءت بالفشل: الأولى في ١٩٥٦، الثانية في ١٩٦٤ بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي، ولكنها انتجت فقط الخروتشوفية، وهي انفتاح جزئي على العالم الخارجي. وما نحن بصدده هو المحاولة الثالثة للاصلاح، وتبدأ بالبيريسترويكا أو الغورباتشوفية.

والحوار الذي أوجدته البيريسترويكا والغلاسنوست جعل المجتمع السوفياتي في حال «غليان حوار» إن جاز التعبير. قال أكاديمي سوفياتي بخصوص هذا الوضع المستجد: «لقد كنا نشتكي من قلة التعددية محصورين في الرأي الواحد، فأصبحنا بين عشية وضحاها نشتكي من كثرة التعددية حتى لم نعد نستطيع متابعة الآراء والافكار الجديدة».

الاقتصاد: هذا التغير في الموقف الايديولوجي سببه، في الحقيقة، إقتصادي. فالاتحاد السوفياتي دولة عظمى من حيث امتلاكها للأسلحة والقوة العسكرية، ولكنها فقيرة وخاوية في هياكلها الاقتصادية. فالادارة الاقتصادية وتوزيع الموارد، والتقنية، والخدمات التي يحتاجها الشعب كلها يشوبها عطل مزمن. وثمة نص في البيروسترويكا يجمل هذه الازمة في السبعة عشر سنة الأخيرة من عمر الدولة:

«في النصف الأخير من السبعينات، حدث شيء ما في البلاد لم يكن قابلاً للتفسير من الوهلة الأولى، بدأت البلاد تفقد زخمها، فالاحباطات الاقتصادية اصبحت اكثر تكراراً، وبدأت المشاكل تتراكم والوضع يتدهور، وتضاعفت المشكلات التي لم تجد لها حلاً، فإن نوعية من آلية الكبح قد

تشكلت لتؤثر على كامل وجوه التطور الاقتصادي والاجتماعي... فانخفضت معدلات نمو الدخل القومي الى أكثر من النصف، وفي بداية الثمانينيات انخفض هذا المعدل ليقترب من الركود الاقتصادي. وهكذا اصبحت البلاد تفقد مواقعها واحداً بعد آخر». وهناك نصوص تستخدم الاحصائيات لتبرهن على هذا الواقع ونتائجه.

البيروقراطية: شكلت العقبة الكبرى في وجه محاولات الاصلاح سابقاً وحالياً. إنها صعوبة تقرب الاستحالة هي صعوبة تحويل إقتصاد مركزي مخطط استفادت منه طبقة كبيرة ونامية من البشر (عشرون مليوناً هم أعضاء الحزب الشيوعي السوفياتي) وتحكمت فيه بيروقراطية الدولة، الى اقتصاد مرن يقارب «قوانين السوق». بيروقراطية تضخمت في ظلها الرشاوى والسرقات والاختلاس وسوء استغلال الوظيفة وتفشي السوق السوداء. فهناك ٢٠٪ مثلاً من الانتاج الزراعي السوفياتي يذهب سدى نتيجة للتخزين البيروقراطي.

العلاقات الخارجية: فكرة بسيطة لكنها مهمة استمر إصلاحيو البيريسترويكا يرددونها في مجال حديثهم عن السياسة الخارجية والعلاقات الدولية خصوصاً إزاء الولايات المتحدة الاميركية: «لماذا نكدس الاسلحة النووية الضخمة والكثيرة، يكفي العالم أن يدمّر مرة واحدة فقط، وكمية قليلة من السلاح النووي المتوافر كفيلة بالقضاء على الحياة على الارض... إن تجربة هيروشيما وناغازاكي قد علمت العالم درساً، ولكننا تعلمنا درساً اكبر منه وأفدح في كارثة تشيرنوبيل... نحن نفهم الآن الحاجة الى الموقف الواقعي، وإذا لم تكن السياسة هي الواقعية فإن ذلك سيؤدي الى هلاك البشرية، نحن نحكم على العلاقات الدولية بمعيار واحد هو هل تؤدي الى استقرار الوضع الدولي ام لا؟».

ولا يستطيع المراقب للسياسة الخارجية السوفياتية، في اطار البيريسترويكا، من ان يلاحظ النشاط الدائم للاتحاد السوفياتي على الصعيد الدبلوماسي من البرازيل الى اوستراليا. ولسان حال البيروستروكيين في هذا الصدد ما كتبه أحد أكاديمييهم في ١٩٨٨: «في الماضي كانت علاقتنا مع العالم علاقة تصب في قوالب جاهزة، وفهم محدود منبثق فقط من فهم ايديولوجي ضيق الأفق، اما الآن فنحن منفتحون ومستعدون، ليس فقط ان نسمع، ولكن ان نتعاون ايضاً... إن الايديولوجيا لا تتقدم على العقل السليم».

اليوم الأخير: ١٧ كانون الاول ١٩٩١

انهيار الاتحاد السوفياتي

أدّى الانقلاب العسكري الفاشل الذي قاده عدد من قادة الحزب والدولة في الاتحاد السوفياتي الى وضع نهاية مأساوية لحكم الحزب الشيوعي السوفياتي الذي استمر ٧٤ عاماً. وقد لعب الرئيس الروسي بوريس يلتسن دوراً رئيسياً في تنظيم الانقلاب المضاد الذي اخرج الحزب الشيوعي من السلطة واسقط النظام السوفياتي.

وقد أُرغم غورباتشوف الذي بدا منهاراً وفاقداً لكل سلطة على المثول امام البرلمان الروسي، فوقع قرار منع نشاط الحزب الشيوعي السوفياتي في روسيا. وتم حظر صدور عدد من الصحف الشيوعية ومن بينها البرافدا التي ظلت تصدر بشكل يومي لأكثر من ثلاثة ارباع القرن. وقد أكد غورباتشوف على ضرورة ملاحقة الخونة اينما كانوا ولكنه حذّر من عواقب الحملة المعادية للشيوعية

والتي كانت بلغت أوجها بعد الانقلاب مباشرة، حيث جرى احتلال جميع مباني الحزب الشيوعي في موسكو، وتمّ في ما بعد اعتقال جميع المشاركين في الانقلاب في موسكو. وأعلن المدّعي العام السوفياتي ان ما قام به الانقلابيون يشير الى الخيانة العظمى. وتلا ذلك استقالات للمسؤولين الشيوعيين في كازاخستان ومولدافيا وأوزبكستان؛ وفي ليتوانيا وأستونيا منع الحزب الشيوعي من العمل واعتبر نشاطه مناقضاً للدستور.

لقد أرغمت الحملة المعادية للشيوعية غورباتشوف على الاستقالة من منصبه كسكرتير عام للحزب، وحل اللجنة المركزية بعد منع الحزب الشيوعي السوفياتي من العمل. ودعا الجناح الاصلاحي في الحزب الى تشكيل حزب جديد على اسس مختلفة تحت اسم «الحزب الديمقراطي لشيوعيي روسيا».

انهار النظام السوفياتي مثل بيت من الورق، ومعه انهار حزب لينين الذي قاد أهم وأعظم ثورة في التاريخ، وأسس لنظام جديد في التاريخ، وواجه النازية وأسقطها. ومع سقوط النظام الاشتراكي السوفياتي وحزبه، لم يعد ثمة ما يربط شعوب الاتحاد السوفياتي الى بعضها. كان الرباط الايديولوجي يقدّم المبرر في ما مضى للحديث عن الاشتراكية التي توحد بين الشعوب، أما الآن فلا احد يريد ان يكون شريكاً في الفقر.

وتوالى إعلان بيانات الانفصال والاستقلال الكامل عن الاتحاد السوفياتي المنهار من قبل الجمهوريات، حيث اعلنت اوكرانيا الانفصال وتشكيل جيش ومجلس دفاع خاصين بها، ما جعل الجيش الروسي يسرع الى نقل الأسلحة النووية الموجودة في اوكرانيا الى روسيا. وقد توتر الموقف بين أوكرانيا وروسيا بعد أن أعلن يلتسن انه يريد التفاوض على الحدود من جديد. ثم اعلنت بيلوروسيا (روسيا البيضاء) الاستقلال، واوزبكستان ومولدافيا وجمهوريات البلطيق الثلاث، وباقي الجمهوريات.

لقد مات الاتحاد السوفياتي، وتهاوت اكبر وأخطر امبراطورية في زمننا بطريقة لا مثيل لها في التاريخ كله، على حد قول وكالة المخابرات المركزية الاميركية التي «قررت زيادة عدد جواسيسها في روسيا وبقية الجمهوريات الأخرى لتوجيه التطورات بما يخدم المصالح الأميركية».

إن نهاية الاتحاد السوفياتي بهذه الطريقة المفجعة (الجوع يهدد الناس، خاصة الروس، وخطر انفلات السلاح النووي يخيم في اي وقت) يشكل تطوراً يخلو من اي مثيل له في التاريخ. لقد انهار كل شيء دفعة واحدة. بين ليلة وضحاها تحول لينين من مثال مقدّس الى ما يشبه الشيطان، واصبحت الاشتراكية كلمة يصعب حتى النطق بها. وفي وسط هذه العاصفة التي لا يعرف احد حدودها رمى القادة الشيوعيون انفسهم تاريخ ٧٤ عاماً من الكفاح المستمر للناس في المزبلة، وأصبح الناس فجأة من دون تاريخ، بل من دون أي شيء، ولم تبق لهم سوى الرابطة القومية التي عادوا اليها باعتبارها الملجأ الأخير.

وفي يوم الثلاثاء ١٧ كانون الأول ١٩٩١، جاء الخبر الخطير، ولكن غير المفاجئ لأحد حتى ان محطة موسكو اذاعته في المرتبة الثانية. «فقد نقلت وكالة تاس الى العالم ان الرئيس السوفياتي غورباتشوف والرئيس يلتسن قد التقيا واتفقا على حل الاتحاد السوفياتي».

اما اجتماع مجلس السوفيات الأعلى، والذي كان من المقرر ان يعقد آخر جلسة له، فقد ألغي حيث لم يحضره سوى بضعة نواب فقط، بل لم يحضره حتى غورباتشوف نفسه، رغم انه كان قد اعتبر قبل ذلك مجلس السوفيات الاعلى الهيئة الوحيدة التي يحق لها اعلان حل الاتحاد السوفياتي.

وبدا واضحاً ان جو الانهيار الذي خيّم على موسكو دفع الكثيرين للانسحاب، متأكدين ان الامور قد افلتت، بحيث اصبح من الصعب فعل أي شيء تجاهها.

بعد وقت قصير، اتفق قادة روسيا (بوريس يلتسن) واوكرانيا (ليونيد كرافتشوك) وبيلوروسيا (ستانيسلاف شوشكيفيتش) على تأسيس اتحاد الدول المستقلة على غرار الكومنولث البريطاني بعد لقاء استمر يومين في بريست، ووقعوا على اتفاقية خاصة بهذا المعنى اعتبرت الاتحاد السوفياتي ككيان قانوني دولي لم يعد قائماً. كما قررت الدول الثلاث الغاء جميع القوانين السوفياتية السابقة على الفور فوق اراضيها. وتركت اتفاقية بريست المجال مفتوحاً لانضمام جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق.

إنتفاضة ألما أتا

الأولى في عهد البيريسترويكا

من المعروف ان بلداناً عدة تنتمي الى ما كان يسمى بالمعسكر الاشتراكي عرفت، على مدى تاريخها الحديث، انتفاضات واعمال عنف كانت تجابه بعنف مضاد من السلطات المحلية. فإن عجزت هذه الأخيرة، تولى الاتحاد السوفياتي، تحت واجهة قوات حلف وارسو، المهمة وقام بما هو «مطلوب» (على رأس الأمثلة «ربيع براغ»).

اما داخل الاتحاد السوفياتي نفسه، فلقد كانت السلطة من القوة بحيث عرفت كيف تقتلع الانتفاضات قبل حصولها. وعلى هذا النحو لم يتكرر طوال نحو ربع قرن ما كان قد حدث في مدينة نوفوتشيركاسك العمالية في العام ١٩٦٢ حين حدثت انتفاضة هائلة أدى قمعها الى سقوط العديد من القتلى والجرحى. يومها كانت الدولة السوفياتية قوية فلم تحدث تلك الانتفاضة اية عدوى.

على العكس من ذلك كان مصير انتفاضة ألما أتا عاصمة جمهورية قازاخستان (كازخستان) الاسلامية، الانتفاضة التي اندلعت يوم ١٧ كانون الاول ١٩٨٦ في عز عهد البيريسترويكا، فكانت الشرارة التي ربما أدت الى اندلاع اللهب في طول البلاد السوفياتية وعرضها.

لقد أتت هذه الانتفاضة لتفاجئ العالم، على رغم انها لم تستمر سوى يوم واحد، وعلى رغم ان عدد قتلاها وجرحاها كان ضئيلاً نسبياً، لكن أهميتها كمنت في كونها اول انتفاضة حقيقية عرفها الاتحاد السوفياتي، وكانت ايذاناً بحدوث ما تلاها من انتفاضات وفتن.

اندلعت تلك الانتفاضة إثر إزاحة كوناييف، مسؤول الحزب الشيوعي في قازخستان، من قبل السلطة المركزية في موسكو. ولئن كانت إزاحته امراً عادياً، فهو عجوز ومن رفاق بريجنيف في العهد البائد وغير محبوب من ابناء الجمهورية، فإن ما أثار الناس كان تعيين الروسي غينادي كولبين بديلاً منه. فمع أن هذا الأخير كان متأقلماً مع البلد، ومن رفاق غورباتشوف المعروفين بمقاومتهم للفساد، ثار أهل قازخستان ضد تعيينه لأنهم كانوا، في الواقع، يتوقعون من سلطات البيروسترويكا ان تكف عن تجاهل حقائق العدد والتوزع الديموغرافي. فالمسؤول الأول في قازاخستان يجب ان يكون من أهل قازخستان، لا روسياً ينزل هناك بالمظلة.

والحال ان هذا التعيين، والانتفاضة التي أسفر عنها، وضعا العالم كله امام حقيقة كان الكثيرون قبل ذلك يميلون الى تجاهلها: حقيقة استفحال القضية القومية في الجمهوريات السوفياتية. ومن هنا تفسير ان الشعار الأساسي الذي ردده المنتفضون يومها كان يقول: «ألا فلتكن قازخستان ملكاً

لابنائها». وكان شعور المنتفضين واضحاً : ان غورباتشوف، في تعيينه لروسي في منصب الامين العام للحزب في قازخستان، انما عبر عن حذره إزاء الاطارات القومية وعن جهله بالاحتمالات المحلية وعن تفضيله ابناء جلدته من الروس. فأين هي البيروسترويكا إذن؟ واين هو العهد الجديد؟.

إن السلطة المركزية تحاول ان تحارب الفساد، فهل معنى هذا، تساءل اهل قازاخستان، ان الروس وحدهم هم الذين بامكانهم ومن مصلحتهم محاربة الفساد؟ لقد رفضوا يومها سلم التراتبية التي وضعتها موسكو حول استشراء الفساد، فإذا كان ينبغي توطيد النظام في جمهوريتهم فإنهم هم الذين سيتولون ذلك.

هذا الدرس لم تفهمه السلطات المركزية، إذ إنها ما إن هدأت الانتفاضة حتى بعثت بلجنة الاستقصاء. فماذا «اكتشفت» اللجنة؟ اكتشفت ان الانتفاضة هي من فعل «زعران فتيان من مدمني الكحول والمخدرات، المستعدين لأي فعل، والذين حرّضهم اولئك القوميون المتطرفون».

إذن، بدا واضحاً ان موسكو لم تكن بعد على استعداد لفهم حقيقة الاحداث، ولفهم حقيقة الغضب المحتمل في الجمهوريات. وعلى هذا النحو ارتكب غورباتشوف، وسط تصفيق العالم له، اخطاءه الأولى، حيث من المعروف ان سؤ معالجة السلطة لأحداث ألما أتا، وسؤ فهمها لها، ساهما في ايقاظ القضية القومية من سباتها، بحيث كان واضحاً يومها لمن يحب ان يدقق النظر، ان ثمة عفناً ما، يأخذ في التضخم، وان هذا كله سوف يسفر بالتأكيد عن الوصول الى الهاوية... وهو ما حدث بالفعل (ابراهيم العريس، «الحياة»، «إنتفاضة ألما أتا»، عدد ١٦ كانون الاول ١٩٩٢).

ميخائيل غورباتشوف

بوريس يلتسن

صورة متسول في احد شوارع موسكو، رمزت الى البؤس والازمات الاجتماعية التي صاحبت انهيار الامبراطورية السوفياتية.

مناقشة: الردع النووي والديمقراطية غداة انهيار الاتحاد السوفياتي

موضوعان اختيرا لأهميتهما كنماذج على ما راود المهتمين والاستراتيجيين (وحتى الرأي العام العالمي) من أفكار في أجواء انهيار الاتحاد السوفياتي بانتظار تلّمس المزيد مما تحمله الأيام من نتائج لهذا الانهيار البالغ الخطورة والنتائج:

الاول، «بعد انهيار الاتحاد السوفياتي واختلال التوازن الاستراتيجي العالمي – من الردع النووي المتبادل الى التجارة النووية السرّية» (هلال الأصغري – لواء متقاعد في الجيش السوري – «الحياة»، ٢٤ كانون الاول ١٩٩٢)؛

الثاني، ملخص «بداية نظام جديد، أي مستقبل للديمقراطية في العالم؟» (فؤاد بطرس – وزير الخارجية اللبنانية سابقاً – محاضرة القيت في بيروت، ١٩٩٣)؛

من الردع النووي الى التجارة النووية

ارتبط التقدم العلمي والتكنولوجي في زمننا المعاصر بالتوسع في الاعتماد على مواد مشعة في مجالات سلمية وعسكرية. اما المجالات السلمية فيتعلق معظمها بتوفير الطاقة والبحث العلمي والاغراض الطبية، في حين تتلخص المجالات العسكرية في انتاج اسلحة الدمار الشامل وفي مقدمها طبعاً الاسلحة النووية. والمتتبع للتطور في عالمنا يستطيع أن يتنبأ بيسر بأن اعتماد الانسان على المواد المشعة سوف يتنامى مع الزمن رغم كل المحاذير. والاخطار التي قد تنشأ لا تتعلق فقط بالمجالات العسكرية، انما تشمل ايضاً المجالات السلمية على حد سواء.

تسرب اسرار الذرة: من المعروف ان الولايات المتحدة الاميركية فجرت اول قنبلة نووية في عام ١٩٤٩ وتبعها الاتحاد السوفياتي عام ١٩٤٩، ثم بريطانيا في عام ١٩٥٢ وفرنسا في عام ١٩٦٠ والصين الشعبية في عام ١٩٦٤. وخلال العشرين سنة التي تلت استطاعت تفجير الذرة دول كثيرة مثل المانيا وكندا واليابان والسويد وجنوب افريقيا والهند واسرائيل وغيرها من الامم قد يبلغ عددها الثلاثين دولة في العالم. او هكذا على الاقل ما يفترض.

ومن الاسباب التي حملت العلماء على هذا الافتراض ما تسرب من اسرار الذرة، بعضها عن عمد، وبعضها عن غير عمد وبعضها عن حسن نية وبعضها عن سذاجة طويّة.

فانكلترا شاركت الولايات المتحدة الاميركية في علم الذرة في سنوات الحرب العالمية والروس دفعوا بالصين في سبيل الذرة اول دفعة ثم كفّوا. وكان في هذه الدفعة الاولى الكفاية لعلمائها والفنيين.

ولعل فرنسا وحدها هي التي قامت تكشف بشكل غير مباشر واستغرقت في ذلك ست سنين. وتسرّبت اسرار الذرة عندما بدأت تلك الحملة التي شعارها «الذرة في اغراض السلم». ولذلك عقدت عقوداً في سبيل الذرة مع كثير من الدول ومع دول اوروبا الست المشتركة في بحوث الذرة. واصبح عدد هذه الامم لا يقل عن ٦٠ دولة. واقتضى ذلك ان صدّرت الولايات المتحدة الى هذه الدول ٢٥٠ طناً من اليورانيوم الطبيعي لتستطيع المفاعلات النووية ان تحولها الى مقادير من عنصر البلوتونيوم تكفي لصنع ٣٠ قنبلة نووية. وصدّرت الولايات المتحدة الاميركية كذلك من اليورانيوم المقوى ١٨٧ طناً. واليورانيوم المقوّى هو اليورانيوم الذي زيدت فيه بالصناعة نسبة اليودانيوم ٢٣٥ القابل للتفجير الى اليورانيوم ٢٣٨ وهو النظير المستقر وذلك بعملية من عمليات التركيز طبقاً لما ذكرناه.

وقد تضمّنت كمية اليورانيوم التي صدّرتها الولايات المتحدة ٧ اطنان من اليورانيوم المجهّز للتفجير يورانيوم ٢٣٥. وهذا المقدار يكفي لصنع نحو ٣٢٠ قنبلة ذرية يرونيومية عند الامم التي تعرف كيف تفصل من هذا اليورانيوم المقوّى ما به من يورانيوم ٢٣٥ القنبلي.

وكلها قنابل لها من قوة التفجير مثل ما كان للقنبلة الاولى التي اسقطت على اليابان. وكذلك صدّرت الولايات المتحدة ٦٠ رطلاً من البلوتونيوم الخالص تكفي لصناعة ٤ قنابل ذرية بلوتونية.

اذن علم الذرة انفضح منه في سبيل «برنامج الذرة للأغراض السلمية» الكثير الذي يؤدي الى صنع القنبلة إما للحرب واما للدفاع عن النفس. وفعل السوفيات ما فعله الاميركان مع حلفائهم، ومن بينهم اسرائيل. وعلى سبيل المعلومات ان اسرائيل عندها عدد من المفاعل النووية، منها المفاعل النووي الاول في منطقة بني روبين، ويقع في ناحال سوريك على منتصف طريق تل ابيب ومستعمرة روحوبوت. وقد قدّمت الولايات المتحدة هذا الفرن الى اسرائيل وتمّ إنشاؤه في اوائل عام ١٩٦٠. والمفاعل الاسرائيلي الثاني في منطقة

النقب يقع في مستعمرة ديمونا على بعد ٢٥ كلم جنوب شرقي بئر السبع. وهو اقيم بمعاونة الحكومة الفرنسية عام ١٩٦٣ ويمكنه انتاج مادة البلوتونيوم التي تدخل في صناعة الاسلحة الذرية. كما ويمكن لهذا الفرن الاستفادة من المواد المشعة المستخرجة لصنع قنابل عسكرية لتلويث الافراد والمنشآت والاراضي بالمواد المشعة والتي تعتبر اخطر من القنابل الذرية.

خطر في الحرب والسلم: والى عهد غير بعيد كان الاستراتيجيون العسكريون في العالم مقتنعين بأن توازن قوى الردع النووي بين دول العالم كفيل بأن يجنب البشرية اخطار الترسانات النووية في شتى انحاء الارض. ولكن الاحداث تثبت مرّة بعد أخرى ان هذه النظرية اقرب الى الوهم منها الى الواقع.

ويحدثنا التاريخ المعاصر والقديم عن حكام لا يقدّرون عواقب قراراتهم حق قدرها. وهؤلاء قد يجعلون خطر الصراع النووي اكثر احتمالاً مما يتصور المتفائلون.

اما في زمن السلم فيكفي مثلاً ان تقع حادثة في احد المفاعلات النووية التي تستخدم لتوليد الطاقة لكي يتسرّب من الاشعاع النووي ما يهدد الاحياء المحيطين بالمفاعل لزمن طويل. وما زالت حادثة تشيرنوبيل الشهيرة حية في الذاكرة. اضف الى ذلك ان الصناعات والبحوث العلمية والاساليب التشخيصية والعلاجية للطب التي تستخدم فيها مواد مشعّة تنجم عنها بالطبع مخلفات مشعة تزداد كمياتها وانواعها يوماً بعد يوم، وتعتبر هي الأخرى خطراً محدقاً ببيئة الارض واحيائها.

وتمثل حادثة تشيرنوبيل الشهيرة مثالاً نمطياً للأخطار التي قد تنشأ من حوادث سببها القصور البشري. اذ ان التسرب الاشعاعي الذي حدث من المفاعل النووي في تشيرنوبيل كان نتيجة لاخطاء في تصميم هذا المفاعل. وهذه لم تكن الحادثة الاولى من نوعها – ولن تكون الاخيرة. فقد وقعت قبلها حوادث مشابهة لها في الولايات المتحدة الاميركية وغيرها من الدول الصناعية المتقدمة. ولكن حادثة تشيرنوبيل كانت أخطرها على الاطلاق. ورغم انقضاء حوالي خمس سنوات منذ وقوعها فما زالت آثارها المدمّرة مستمرة.

وتعاني بيلوروسيا من معظم المشاكل. اذ يقدر المختصون ان ٧٠ في المئة من الاشعاع المتسرب قد اصابها وحدها، وان ٤٠ في المئة من مساحة تربتها اصبحت ملوثة بالاشعاع، وبذلك فحوالي مليونين ونصف مليون من البشر – هم سكانها – يعيشون تحت أخطر الظروف البيئية من دون أن يشعروا بذلك. ولعل افدح الاخطاء التي اقترفتها الحكومة التي كانت جديدة عند وقوع الكارثة هو صمتها المطبق في البداية، وتعتيمها الاعلامي، ما ترك المواطنين عرضة للاشعاع النووي المباشر على مدى خمسة ايام على الأقل، قبل ان يشرعوا في محاولة حماية انفسهم. وقد وصفت الصحف الحادثة قائلة ان «الاشعاع النووي ظلّ يتسرّب من المفاعل المعطوب على مدى سبعة اشهر كاملة كما يتسرّب الدخان من فوهة القارورة». وما زالت التربة الملوثة بالاشعاع تزرع الى اليوم، ومن ثم فالقمح والخضروات واللحوم والالبان اصبحت هي الاخرى مشعّة. ومع ما يقاسيه ورثة «الاتحاد السوفياتي» اليوم من مشاكل اقتصادية جمّة ليس امام البشر الا ان يستهلكوا هذه الاطعمة المشعة والا هلكوا جوعاً. اضف الى ذلك ان الخطط التي وضعتها الحكومة لتهجير السكان من اكثف المناطق اشعاعاً، هذه الخطط لا تنجز الا ببطء شديد، وذلك اذا انجزت اصلاً. وتتزايد كل يوم في بيلوروسيا على وجه الخصوص اعداد حالات الامراض الناجمة عن التعرّض للاشعاع النووي. وتكتمل المأساة بعجز الطب السوفياتي عن التعامل مع الكثير من هذه الامراض التي قد يمكن التعامل معها في دول غرب اوروبا واميركا، ولكن ضيق ذات اليد يحول دون ارسال هذه الحالات للخارج. ويعيش المواطنون اليوم في حالة تقترب من الضياع، فالى جوار الكوارث التي اصابتهم اهتزّت ثقتهم فيما يقوله المسؤولون. فالارقام التي تنشرها الحكومة عن مقدار الاشعاع في الاغذية المختلفة كلها متناقضة. ومن الخطأ الظن ان اخطار تشيرنوبيل مقتصرة على روسيا البيضاء، او «الاتحاد السوفياتي». فالواقع ان تشيرنوبيل اصبحت بالفعل كارثة عالمية وستبقى كذلك لسنوات. فالاشعاع ينتقل مع الرياح وترسبّه الامطار. وقد رصد باحثون في غرب اوروبا انواعاً من حبوب اللقاح الملوثة بالاشعاع التي حملتها الرياح من نباتات نامية في بيلوروسيا، ومعاناة البشر اليوم من هذه الكارثة – على شدتها – لا تقاس بما سوف تعانيه الاجيال القادمة. فالاشعاع يحوّر من كيمياء العوامل الوراثية – مما يعني بالضرورة ان تشوّهات واخطاء وراثية سوف تظهر في الاجيال القادمة – وسوف تتوارث في عدد من الاجيال المتعاقبة لا يعلمه الا الله.

الرعب ودمار العالم: تفشت الجريمة في الاتحاد السوفياتي واصبحت نمطاً من انماط العيش وهناك تنظيم سري ينطلق من روسيا ويعتبر خطره اليوم من اسرع اخطار الجريمة المنظمة انتشاراً في العالم، اذ

ينشط آلاف من اعضائه في الولايات المتحدة الأميركية واوروبا. واختصاصهم كل عمل اجرامي مغطى مالياً، من تزوير عملات الى عقود لتنفيذ عمليات اغتيال، على ان أخطر نذر شرهم انهم متورطون في تجارة عناصر الاسلحة النووية ويحصلون عليها من المخزون الاحتياطي في الاتحاد السوفياتي، انهم اعضاء الـ «الاورغانيزاتسيا».

والآن بعد ان تمزّق الاتحاد السوفياتي وتراخي النظام وانتشر الفساد داخل الآلة العسكرية السوفياتية التي كانت جبارة في السابق، تحوّلت احدث الاسلحة، من الرشاشات الى مدافع الهاون وقاذفات القنابل والصواريخ المضادة للطائرات التي تحمل على الكتف ترسانة لقتلة الاورغانيزاتسيا وسماسرة السلاح العالميين. بيد ان أكثر ما يثير هلع وكالات الامن الغربية هو سهولة الوصول الى الترسانة النووية لمجموعة الدول المستقلة والتي تقدر محتوياتها بثلاثين الف رأس نووي.

ويتوزع هذا المخزون النووي على اربع جمهوريات مستقلة، قاصرة بقدراتها الامنية عن منع سرقة هذه الاسلحة، او تهريبها الى زبائن تواقين الى امتلاك اسلحة نووية. وأخطر هذه الاسلحة رؤوس نووية تكتيكية وقذائف مدفعية نووية قد لا يتجاوز وزنها ٥٠ كيلوغراماً مما يسهل عملية نقلها.

وتنفي الولايات المتحدة الاميركية وشركاؤها في حلف شمال الاطلسي علمها بأي مبيعات او تسريبات لاسلحة نووية او لمواد وعناصر صالحة للاستخدام في صنع اسلحة كهذه، لكن الصحافة البريطانية افادت في ٢٤ كانون الثاني ١٩٩٣ ان ثلاثة رؤوس نووية بيعت الى ايران من مخزون جمهورية كازاخستان. وهذه الجمهورية التي تملك اكثر من الفي رأس نووي قرابة ١٥٠٠ منها استراتيجية هي محط انظار شاري السلاح الايرانيين.

اما الاسعار فتبدأ بخمسة ملايين دولار او عشرة ملايين دولار للرأس النووي الواحد. وتفيد معلومات ان فريقاً من التلفزيون الفرنسي صوّر سراً، عميلاً للأورغانيزاتسيا وهو يفاوض لتسليم كيلوغرام من اليورانيوم المخصّب الى محامي شركة غربية.

وفي فريبور في سويسرا ابرم احد زعماء العصابات يرافقه ضابط من الجيش الروسي في ثياب مدنية صفقة لتسليم اربع شحنات اضافية من اليورانيوم زنة كل منها كيلوغرام واحد، بسعر اجمالي مقداره ٣٥ مليون دولار. وقد بيعت لجهة مجهولة.

وجميع هذه الشحنات المشعة عادة تغلّف بالرصاص بسماكات كبيرة مدروسة حتى لا تقتل الذين يتداولون بها.

وقد اصبح كشف تبادل الاسلحة النووية وعناصر تركيبها وتفكيكها الشغل الشاغل لأجهزة الاستخبارات الغربية، بما في ذلك مكتب التحقيقات الفيديرالي ووكالة الاستخبارات المركزية. لكن الحدود المفتوحة وقدرة المنظمات الاجرامية على رشوة السلطات العسكرية والحكومية في مجموعة الدول المستقلة، اوجدت ثغرات واسعة في دفاعات احدث هذه الاجهزة.

لذلك اخطر ما يهزّ العالم هي تجارة المواد المشعة والاسلحة النووية وخطره على شعوب الارض. وما لم تتخذ اجراءات سريعة وحاسمة على مستوى دولي ستصبح مؤامرات العصابات السرية مظهراً دائماً من مظاهر الجريمة المنظمة اشد خطراً واحدث تقنية مما سبقه. عندئذ يكون السيف سبق العزّل.

نظام جديد وأي مستقبل للديمقراطية

تنبؤ بسقوط الدولتين العظميين: نشر الكاتب الفرنسي جان فرنسوا روفيل كتاباً عنوانه «كيف تنقرض الديمقراطيات» حذر فيه من خطر انتشار الشيوعية في العالم على حساب الديمقراطية. وخالفه في الرأي بعض أقرانه وتنبأوا بسقوط النظام الشيوعي عاجلاً ام آجلاً.

في ١٩٨٨، نشر بول كنيدي، استاذ العلوم السياسية في جامعة ييل الاميركية كتاباً بعنوان «قيام الدولة الكبرى وانحطاطها»، وتنبأ فيه بسقوط كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي على السواء نتيجة لقاعدة استخلصها من مجريات احداث التاريخ. وفحواها ان الدول العظمى بعد ان تنمو وتتوسع لا تلبث ان تصاب بالانحلال بفعل فقدان التوازن بين متطلبات سياستها العسكرية ومواردها الاقتصادية والمالية (واضح هنا التأثير البعيد لابن خلدون).

إن ما يمكن ملاحظته (وقد مرّ نحو سنتين على انهيار الاتحاد السوفياتي)، في ضوء النقاش الدائر، ان الانتصار السياسي لأي نظام لا يعني انتصاره ايديولوجياً على النظام الآخر، لأن السياسة، من جهة، ليست المرجعية الصالحة للفصل بين النظريات الفلسفية، ولأن النظام الماركسي، من جهة اخرى، لم يسقط بفعل انتفاضة ديمقراطية قام بها الشعب ضده وانما بسبب إهتراء آليته الذاتية وعجزه عن حل المعضلات الاقتصادية وفشل محاولات اصلاحه.

جدل فلسفي: يستهوي مستقبل النظام الديمقراطي في العالم، بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، الباحثين، فتتعدّد الآراء وتتشعب وتتناقض. فثمة اتجاه يمثله الكاتب الاميركي الجنسية الياباني الاصل فرنسيس فوكوياما في مؤلفه «نهاية التاريخ» حيث ان النظام الديمقراطي الليبرالي هو أقصى ما يمكن ان يبلغه المجتمع السياسي في المستقبل مبرراً رأيه باعتبارات فلسفية بعيدة عن الاقتصاد والاستراتيجيا فحواها ان هذا النظام يتمتع بقدرة ذاتية على الصمود كونه يؤمن فسحة من الحرية للمواطنين تتيح لهم ايجاد حلول للمعضلات السياسية والاقتصادية.

اثارت هذه النظرية انتقاد كثيرين من علماء السياسة في الولايات المتحدة، وعلى رأسهم كي جيويت استاذ العلوم السياسية في جامعة بيركلي. فبعدما نازع هؤلاء نظرية فوكوياما على الصعيد الفلسفي يخلصون الى انه حتى لو بقي النظام الديقراطي النظام الأكثر رواجاً فإن ثمة انظمة بل ايديولوجيات اخرى مختلفة ومتناقضة لا بد ان تقوم هنا وهناك بما فيها التوتاليتارية، يمينية كانت ام يسارية، وذلك تبعاً لاعتبارات امنية واقتصادية وثقافية وحضارية ودينية واثنية.

وبعيداً عن هذا الجدل الفلسفي يبدي بعض الباحثين قلقهم على الديمقراطية بسبب سقوط الماركسية بالذات كما كان للخصومة معها من ايجابيات لأنها شكلت حافزاً دفع الديمقراطية الى التطور تحقيقاً لاصلاحات اقتصادية واجتماعية متتابعة.

داخل روسيا والدول المنسلخة: المعلوم ان هذه الدول تتخبط في حال من الفوضى تنذر باشد الاخطار وتعاني من الازمة الاقتصادية ومن صعوبة التأقلم مع اقتصاد السوق ومن تدني قيمة النقد والبطالة، كما انها تعاني من ازمة سياسية حادة ومن صعوبات في الممارسة الديمقراطية.

وإذا كانت الولايات المتحدة هي اللاعب الاول في مضمار مدّ هذه الدول بمساعدات سخية كي تتمكن من حل مشكلاتها فلا تنزلق نحو انظمة سلطوية استبدادية تعيد التاريخ الى الوراء، فلا بد ان تشاركها دول او مجموعات اخرى كاليابان ومجموعة دول اوروبا الغربية.

اما دول اوروبا التي كانت قائمة وراء ما كان يسمى الستار الحديدي، فنلاحظ انها تتمتع بحال أفضل إذ تمكنت من مواجهة الصعوبات الوطنية والسياسية والاقتصادية بنجاح نسبي. فها ان بولندا وهنغاريا يسيران بخطى ثابتة على طريق الليبرالية؛ وتشيكوسلوفاكيا التي استفحلت فيها المشكلة القومية، فإنها تغلبت عليها باعتمادها التقسيم بعيداً عن العنف. أما الوضع في البلقان، خصوصاً في دول يوغوسلافيا الاتحادية سابقاً فهو وصمة عار على جبين الانسانية وكل ما ترمز اليه من قيم معنوية وخلقية، وطعنة في النظام الديمقراطي وفي صدقية الامم المتحدة ومجموعة دول اوروبا الغربية والحلف الاطلسي.

إنعكاسات خارج اوروبا: يراود الباحث تساؤل طبيعي عن انعكاسات مجمل هذه التطورات على الدول والبلدان الأخرى خارج اوروبا والغرب؛ وفي ذهن الباحث المتسائل ان الليبرالية والماركسية إبنتا الغرب وتخاطبان، ولو من موقع عدائي الواحدة للأخرى، مجتمعاً متقدماً نوعاً على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي تجاوز القبلية والاقطاعية. في حين ان البلدان المتخلفة قلما تكون لديها قابلية لاعتماد أي من هذين النظامين لأن أكثرها سيظل عرضة لحركات واضطرابات ذات طابع قبلي او ديني او تحريري او ثوري او حتى عدمي.

فالبلدان الواقعة جنوبي الصحراء الافريقية لم تتجاوز المرحلة القبلية والاقطاعية ونظامها السياسي غير المستقر يتميز بالطابع الاستبدادي، اما حالتها الاقتصادية فيرثى لها، بحيث لا يبقى مجال لديها للتطلع نحو الديمقراطية، هذا خلافاً لما هي الحال في دول اميركا الجنوبية التي تتجه اكثر فأكثر نحو النظام الليبرالي وإن تعرضت الى بعض النكسات لأن للولايات المتحدة مصلحة أكيدة في مساعدتها على السير قدماً وبوسائل شتى نحو الاستقرار الديمقراطي.

الشرق الاوسط والعالم العربي: لقد تركت الازمة العربية – الاسرائيلية بصماتها على الدول العربية وعلى شعوبها، وكان من أولى نتائج هذه الأزمة تعبئة النفوس ضد الغرب المتمثل بالولايات المتحدة ونظامها السياسي بسبب سياستها المربكة ما لم يسهل لهذه الدول ان تقطع بشكل سليم المسافة الفاصلة بين الاستعمار والسيادة فتزعزعت بعض الانظمة العربية، فيما كانت لا تزال في مرحلة التدرج في الممارسة الديمقراطية وإذا بالقليل الذي تحقق يتساقط وتضيق نافذة الحريات.

واليوم، يرى العالم العربي نفسه إجمالاً في حالة ضياع أو تضعضع كأنه يعاني من أزمة هوية ما مهد الطريق امام انتشار الحركات الاصولية التي تبشّر تارة وتهدّد تارة اخرى وتتغذى من كل ثغرة في حيّز السياسة

والاقتصاد والمجتمع ومن الأخطاء في ممارسات الحكم وانحرافه.

وما يزيد الوضع تأزماً ان الاحلام والاوهام التي ولدها النظام الماركسي في الاذهان سقطت تاركة فراغاً تسعى الاصولية الى ملئه باستقطابها الرأي العام العربي والاسلامي وتعبئة الفئات المحرومة والمحبطة بفعل ما تؤديه لها من خدمات ومساعدات.

وهكذا يؤدي النزاع بين التيار الاصولي والأنظمة السياسية في العالم العربي الى تصلب وتصادم متبادلين والى اضطرابات تتمثل بأفعال واجراءات هي ابعد ما تكون عن الديمقراطية، فإذا بسلطوية تصارع سلطوية معرضة المجتمع ومستقبل الأنظمة الى اشد الأخطار.

وحيال هذا الوضع المضطرب في دنيا العرب والذي تجسده انظمة متنوعة بل متباعدة احياناً تعكس تارة تزمتاً في التمسك بالماضي وتارة قفزة متسرعة الى الحاضر كثيراً ما تتسم بجهل أو تجاهل لقواعد اللعبة الديمقراطية من الجائز الاستنتاج بأن الحلم الديمقراطي الذي يراود مثقفين عرب وبعض شرائح المجتمع العربي يبدو بعيداً عن التحقيق وإن مجرد نظرة الى خريطة هذا العالم السياسية وممارسات السلطة واخصامها لا تبشر عموماً بقرب سلوك منحى ديمقراطي، علماً ان لبنان، في ما يختص به، ينعم بفسحة من الديمقراطية وهو لا يزال يجهد نفسه استكمالاً لهويتها.

اما ايران، وهي المحرك المركزي لعقيدة سياسية ودينية صلبة ورافضة، فإن نظامها الذي يجعل الدولة مسيطرة على آلية الحكم في سائر الحقول السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية يشكل في محيطها الواسع نموذجاً يناقض الديمقراطية الغربية تناقضاً كلياً، وهذا النموذج يملك طاقة كبيرة على الانتشار لا سيما في البلدان التي تعاني إقتصادياً.

النظام الجديد: هل ينتقل الكون من صراع بين الشرق والغرب الى صراع بين الشمال (الغني) والجنوب (الفقير) وبين حضارات واديان؟. لا ريب ان هذه المسألة ستكون في صميم اهتمامات واضعي النظام العالمي الجديد الذي كثر الكلام عليه وتضاربت الآراء في صدده.

إن فكرة محورية تثير الرعب لدى دول الجنوب المغلوبة على امرها: ان تتولى الولايات المتحدة (وإن تعددت الأطراف المساعدة لها كمجلس الامن، واوروبا، واليابان...) تخطيط النظام العالمي الجديد بحيث يأتي ستاراً لنفوذ تمارسه والدول المتمحورة حولها يؤمن مصالحها بعيداً عن المبادئ الخلقية والمعنوية وحقوق الشعب، وباختصار من ان يكون النظام المقبل قناعاً لاستعمار جديد بلباس آخر.

لكن الحالة الاقتصادية الصعبة التي تنؤ تحتها الولايات المتحدة وضخامة مهمتها السياسية والعسكرية والاجتماعية على النطاق العالمي لا تسمحان لها بالتخطيط لهذا النظام ولا بتنفيذه، مما يحتم قيام اكثر من شبكة من التحالفات الاقليمية في انحاء العالم تعتمد على دول ذات نفوذ مناطقي للتعامل مع المشاكل الاقليمية، لذا من المفروض ان يأتي المخطط متوازناً وحصيلة مشاورات واسعة في هدف تحقيق مزيد من العدالة والانصاف مراعاة لمتطلبات الشعوب المشروعة.

ولا مناص من ان يقوم النظام الجديد على تضامن حقيقي بين دول العالم كافة فتتحمل مجموعة الدول الثرية العبء الأكبر منه في مساعدة الدول الضعيفة والنامية على العبور الى اليسر الاقتصادي الذي بدونه لا ديمقراطية ولا استقرار، كما لا مفر من ان تبرهن المنظمة الدولية عن احترامها مبادئ العدالة وان تطبق مقاييس واحدة على الدول التي تخرق شرعتها من دون ان تتأثر بالمحاباة والتحيز اللذين طالما عانت منهما الدول المستضعفة.

أي ديمقراطية؟ سولجنتسين: اكثر ما يتناوله الانتقاد مفهوم الديمقراطية للعدالة والمساواة وممارستها لهما والمنحى الذي تسلكه الرأسمالية في العالم الغربي، ناهيك عن طريقة التعاطي مع الانسان وحقوقه. فالذات الإنسانية من حيث كونها تطلعات روحية وتوقاً لتحقيق الذات هي مهملة في نظر النقاد، وخصوصية المرء غير محترمة كأنما الفرد لا يعدو كونه منتجاً ومستهلكاً لا جذور له ولا تاريخ ولا ماضي ولا تقاليد.

اما الرأسمالية فمأخذهم عليها ان ممارستها تخضع للنزعة والمصلحة الفرديتين ولا تهدف الا الى جني الربح السريع بأي ثمن من دون الالتفات الى مستلزمات التوافق المجتمعي والتضامن والى ضرورة ايلاء الأولوية للإزدهار على المدى البعيد. ويتناول هذا المأخذ الحداثة بالذات فيتهمها بأنها تسهل استعباد الفرد وافقاده انسانيته ومن المستغرب ان يكون في طليعة من دق ناقوس الخطر في هذا الصدد الفيلسوف والكاتب الروسي الكسندر سولجنتسين (Soljenitsyne) احد كبار المنشقين السوفيات. فيوم كانت دولته في عزها اضطرته معارضته العنيفة للنظام الماركسي ان يلجأ الى الولايات المتحدة، حيث

استقر في ظل نظام يتقبل الإنتقاد ويكرس الحرية إلا انه سريعاً ما صدمه ما لمسه في المجتمع الاميركي من فراغ روحي وتسابق على الكسب فبادر في خطاب القاه في جامعة هارفرد سنة ١٩٧٨ عنوانه: «اندحار الشجاعة» الى توجيه انتقادات لاذعة للنظام الديموقراطي الأميركي الذي احتضنه فلم يوفره اذ ضمن خطابه المقطع الآتي تعريبه:

«اذا ما طلب اليّ ان اوصي ابناء بلدي باعتماد النموذج الغربي كما يمارس اليوم فسوف ارفض ذلك بصراحة لأني لا استطيع ان اوصي باعتماد مجتمعكم كنموذج مثالي في هدف تغيير مجتمعنا. لقد تحمل اهل بلادي على مدى هذا القرن من الآلام والمآسي ما جعلهم ينعمون بنمو روحي في غاية الثراء بينما النظام الغربي في وضعه الراهن خال من الجاذبية كونه يعاني من انهاك روحي».

هذا القول الصادر عمن ألقاه وفي الزمن الذي ألقاه، جدير بأن يستوقف السياسي والمفكر واي امرئ اينما كان والى اية قومية انتمى.

أليس من الغرابة ان يحار منشق سوفياتي بين نظام استبدادي لم يستطع تحمل العيش في ظله ونظام منفتح استضافه وامن له منبراً يطل منه بحرية على العالم ليبشر بآرائه وقناعته، فلا يختار اياً منهما؟

اجل، لم تبلغ خيبة امله في النظام الأميركي حداً دعاه الى العودة الى الاتحاد السوفياتي. وانما بقي في الديار الأميركية. الا ان خيبة قوية اصابته في آماله وتطلعاته مردها الى الفراغ الروحي في المجتمع الأميركي لأفتقاره الى القيم الإنسانية والمعنوية فلم يتحمل ان يجسد الديموقراطية مجتمع يعيش مهرجاناً دائماً للإستهلاك، مسخراً له وسائل الإعلام، كأن الفراغ الروحي شرط للحرية والعدالة، والمساواة اسم لغير مسمى.

تجدر الاشارة الى ان هذا الكاتب لا يزال عند رأيه في النظام الأميركي بعد مرور خمسة عشر عاماً على خطابه.

ومن جهة أخرى يبدو ان الأزمة الاقتصادية الحادة المستشرية في الدول المتطورة تضع النظام الديموقراطي وممارساته على المحك خصوصاً ان ثمة بلبلة بين علماء الاقتصاد حول الوسائل الناجعة للمعالجة وحول الضوابط التي قد ينبغي اعتمادها.

وبديهي ان مزيداً من الدقة في تحديد ماهية الأزمة لمعرفة هل هي عضوية ام ظرفية هو مدخل اساسي للمعالجة، تلك المعالجة التي ربما تقتضي تعديلاً في الممارسة الليبيرالية وفي معادلات السياسة الاجتماعية في العالم الديموقراطي الأول، ما لا بد ان ينعكس على النهج المعتمد في التعامل الاقتصادي والتجاري بين الدول.

ولكن مهما يكن من امر ولئن كان النظام الديموقراطي اسوة بأي انجاز انساني لا بد ان يشكو من نواقص يضاعفها سوء الممارسة إلا انه يظل على علاته افضل من سواه من الأنظمة السياسية، لأنه يحترم حقوق الانسان والحريات الفردية ويعتمد التطور نهجاً في معالجة شؤون المجتمع البشري وشجونه فلا حلول معلبة ولا حقائق منزلة عنده فيها.

أليس ونستون تشرشل الذي قال خلال الحرب الكونية الثانية في معرض تعليقه على سلبيات النظام الذي تحمل عبء وشرف الدفاع عنه بمنهى الشجاعة «ان الديموقراطية هي اسوأ نظام باستثناء الأنظمة الأخرى!».

مدن ومعالم جغرافية

راجع: روسيا، وكل دولة من دول الاتحاد السوفياتي سابقاً.

معالم تاريخية

□ **إزفستيا وبرافدا**: إزفستيا كانت الصحيفة السوفياتية اليومية الناطقة بلسان الحكومة. صدر العدد الأول منها في ١٣ آذار ١٩١٧. اعتبرت عادة في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد برافدا الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفياتي. وكلمة برافدا تعني الحقيقة. كانت توزع، قبل تفكك الاتحاد السوفياتي، اكثر من خمسة ملايين نسخة يومياً. مركز تحريرها موسكو، ولكنها طبعت في أكثر من ١٢ مدينة سوفياتية في وقت واحد. ولها تاريخ عريق يعود الى ١٩٠٨ عندما بدأ تروتسكي إصدارها. عطلتها السلطات القيصرية، وعادت الى الصدور (١٩١٧) واصبح مقرها في موسكو ابتداء من ١٩١٨. وقد ساهم في تحريرها ستالين ومولوتوف وكامينيف وبوخارين وسوسلوف.

□ **بريست ليتوفسك، معاهدة**: اتفاقية صلح وقعت بين روسيا وألمانيا والنمسا – هنغاريا وبلغاريا وتركيا، تم التوصل اليها في ٣ آذار ١٩١٨ أوقفت بموجبها الحرب بين روسيا من جهة، وبقية الاطراف

من جهة أخرى. وبموجبها انسحبت روسيا من الحرب العالمية الاولى بعد ان استولى البلاشفة على السلطة، وذلك لأنهم كانوا يعارضون هذه الحرب، ولأن روسيا هزمت فيها. وقد اضطر البلاشفة الى التخلي عن مساحات شاسعة من الأراضي التابعة لروسيا الامبراطورية كما كانت قائمة قبل الحرب. وفي الوقت الذي نظر فيه خصوم البلاشفة الى المعاهدة على انها تتضمن تفريطاً بحقوق روسيا واراضيها، فإن اللينينيين اعتبروها تراجعاً تكتيكياً ضرورياً لحماية الثورة. وفي تشرين الثاني ١٩١٨، اصدرت اللجنة التنفيذية المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي قراراً باعتبار المعاهدة لاغية. والجدير ذكره انه في اليوم نفسه (٢٠ كانون الاول ١٩١٧، أي بعد اسابيع قليلة على اندلاع الثورة الروسية) الذي افتتحت فيه مفاوضات بريست ليتوفسك، صدر القرار السوفياتي بانشاء البوليس السياسي الذي عرف باسم «تشيكا» قبل أن يحمل اسم «غبيد»، ثم «ك. ج. ب».

□ **بلشفيك ومنشفيك**: بلشفيك وبلشفية، مصطلح يدل على الجناح اليساري للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي الذي انضوى تحت قيادة لينين ابتداءً من ١٩٠٣، والذي استأثر بالسلطة على اثر الثورة الروسية (١٩١٧)، حتى قيل إنها الثورة البلشفية أو ثورة البلشفيك. والكلمة تعني «فئة الأكثرية». ويعود تاريخ هذا المصطلح الى ١٩٠٣ عندما عقد الماركسيون الروس عدة اجتماعات في بروكسل ولندن ظفر خلالها دعاة الجذرية والانضباط الحزبي الدقيق بأكثرية ضئيلة مقابل الأقلية من الماركسيين المعتدلين الذين كانوا ينادون بضرورة انضمام العناصر التقدمية من البورجوازية الى الحركة الثورية لتحقيق الديمقراطية السياسية. واطلق الفريق المنتصر على فريق المنهزم اسم «منشفيك» أي فئة الاقلية. وفي آذار ١٩١٨، اسس البلشفيك الحزب الشيوعي البلشفي. وفي المؤتمر التاسع عشر للحزب (١٩٥٢)، اصبح اسم الحزب، باقتراح من ستالين «الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي».

□ **سوفخوز وكولخوز**: سوفخوز تعني مزارع الدولة في الاتحاد السوفياتي التي أنشئت بموجب مرسوم صادر العام ١٩١٨ لكي تكون القاعدة الأساسية التي يعتمد عليها النظام الاقتصادي الاشتراكي. اما الكولخوز فتعني المزارع التعاونية، التي هي من الناحية التطبيقية عبارة عن تجمع عدة عائلات ريفية تستثمر جماعياً، ولمدة غير محددة، مساحة من الاراضي تظل دوماً ملكاً للدولة. وقد ظهر نظام الكولخوز في الاتحاد السوفياتي لأول مرة سنة ١٩٢٢. ومن تعديلات قانون ١٩٦٨ تمكين الكولخوز مد نشاطه الى عدة ميادين غير زراعية مثل قطاع البناء والتجهيزات والكهرباء وبعض الصناعات التحويلية الصغيرة والصناعات التقليدية...

كل الاصلاحات التي اتخذت في السنوات الأخيرة (البيريسترويكا) والتي طالت بجزء كبير منها نظام السوفخوز والكولخوز حتى انها وصلت، في الأخير، الى حد إلغائه مع الاعلان عن الأخذ بمبدأ اقتصاد السوق عموماً، لم توفق بايقاف انهيار الدولة السوفياتية. والاسباب المجمع عليها إنما هي في تلك البيروقراطية الحزبية والادارية والاقتصادية التي راكمت، طيلة العقود التي عاشها الاتحاد السوفياتي، سلبيات لم يعد ينفع أي اصلاح معها.

□ **سوفنا رخوز**: تعبير روسي مختصر يشير الى الاحرف الاولى من «المجالس الاقتصادية الاقليمية» التي انشئت في الاتحاد السوفياتي (١٩٥٧) بناء على اقتراح خروتشوف لكي تمارس إدارة المشروعات الصناعية والتخطيط لها على اساس اقليمي او محلي. وقد حلّ هذا النظام محل «نظام الادارة الوزارية» او المركزية حيث ظهرت عيوب، من اهمها التعقيدات الادارية والبيروقراطية. لكن في النظام الجديد، ظهرت ايضاً عيوب منها تغليب المصلحة الاقليمية على القومية. لذلك، قررت السلطات السوفياتية (ايلول ١٩٦٥) إلغاء المجالس الاقليمية كافة، واعادة الوزارات الصناعية المتخصصة والعودة الى النظام السابق، نظام الادارة الوزارية. وعادت سنوات البيريسترويكا (١٩٨٥ — ١٩٩١) واجرت إصلاحات كثيرة في إطار تحرير الاقتصاد عامة والمبادرات الاقتصادية من كل مركزية. لكن من دون جدوى.

□ **سوفيات**: كلمة روسية معناها «مجلس». استعملها أول مؤتمر للسوفيات في ايار ١٩١٧ قبل الثورة (أكتوبر ١٩١٧). ثم شاع استخدامها عندما تكونت سلطة الثورة على اساس انها سلطة مجالس العمال والفلاحين والجنود. وكانت اول خطوة في ثورة تشرين الاول هي تلك الضربة التي وجهها سوفيات بتروغراد (لينينغراد بعد الثورة) الى النظام القيصري. ومنذ ذلك الحين اصبحت كلمة سوفيات تدل على

اسلوب من اساليب الديمقراطية الاشتراكية. فقد قال لينين: «إن السوفيات (مجالس) تحقق نمطاً جديداً من النظم السياسية».

□ **صراع موسكو - بكين**: أثار رئيس الجمهورية الصينية صن يان صن، اعتباراً من ١٩٢٣، قضية مطالبة الصين باراض صينية يعود احتلالها الى ما قبل العصر السوفياتي. لكن حين صار الحكم في الصين شيوعياً (١٩٤٩)، أغفلت هذه القضية، الى أن عادت الى البروز في ١٩٦٢ حين وصل تدهور العلاقات بين موسكو وبكين الى ذروته. فعاد الصينيون الى المطالبة بهذه الأراضي في سياق خلافهم الايديولوجي والسياسي مع السوفيات. فشهد عقد الستينات مداً وجزراً حول هذه القضية، واتهم الصينيون نظام خروتشوف (في ١٩٦٤) بأنه المسؤول عن الانتفاضات التي قام بها المسلمون الصينيون (معظمهم من أصول طاجيكية) في اقليم سنكيانغ الصيني المحاذي لمنطقة نهر آمور، فيما راح السوفيات يتهمون الصينيين بخرق الحدود بين الحين والآخر. ووصل هذا كله الى ذروته في ١٩٦٦ حين زار بودغورني، ثم بريجينيف المنطقة بشكل يمثل تهديداً واضحاً للصينيين. واهم المناطق الحدودية المتنازع عليها ويطالب بها البلدان جزيرة دامانسكي. وطابع هذا الصراع تاريخي وايديولوجي في آن.

وصل التحدي بين البلدين الى درجة شهدت معها كل من العاصمتين احداثاً تتعلق مباشرة بالصراع بينهما. ففي ١٩٦٧، اثناء الثورة الثقافية في الصين، راح الطلاب الصينيون في موسكو يتظاهرون ضد الاتحاد السوفياتي، وحاصر زملاؤهم في بكين السفارة السوفياتية. وشهد العام ١٩٦٨ مناوشات حدودية بين البلدين، وصلت الى ذروتها في ٢ آذار ١٩٦٩ حيث تبادل الطرفان اتهامات البدء بالاعتداءات. وتتابعت المناوشات الحدودية، وتوضحت في سياقها ان الصراع حول هذه الاراضي على نهر آمور الفاصل بين البلدين ليس في حقيقته سوى مرآة للصراع الايديولوجي بين الشيوعيين الصينيين والشيوعيين السوفيات. وقد بدا، مع مرور الزمن، ان موسكو وبكين معاً دفعتا ثمناً باهظاً بسبب هذا الصراع على ارض بعيدة عن مركز اهتمام العالم.

□ **غولاغ Gulag**: اختصار لعبارة روسية تعني حرفياً «الادارة المركزية لمعسكرات العمل الاصلاحية». وهي جهاز كلف بادارة معسكرات العمل القسري في الاتحاد السوفياتي نيابة عن «مفوضية الشعب للشؤون الداخلية» من ١٩٣٤ الى ١٩٦٠. وقد تجاوز عدد المعتقلين في هذه المعسكرات (في ١٩٤٥) ١٥ مليون معتقل. وقد كشف الكاتب الروسي سولجينتسين لأول مرة عن طبيعة الغولاغ وحقيقته بوصفه للاعتقالات التعسفية والمعاملة اللاإنسانية للسجناء وظروف حياتهم وعملهم المروعة في هذه المعسكرات في كتاب من ثلاثة اجزاء صدر لأول مرة بالانكليزية وعنوانه «أرخبيل الغولاغ»، ونشر في الغرب إبتداء من ١٩٧٣. واصبح تعبير الغولاغ يُستخدم، على اثر ذلك (في الغرب) لادانة الدولة البوليسية في الاتحاد السوفياتي، ليس فقط في عهد ستالين، بل في مختلف العهود السوفياتية في ما عدا عهد غورباتشوف الذي باشر اصلاحاً شاملاً وسط تهليل الغرب. لكنه كان إصلاحاً سرّع في انهيار الدولة السوفياتية، أو كان سبباً لهذا الانهيار. وهذه مسألة، ما زالت وستبقى الى مدة طويلة، موضوع ابحاث واجتهادات كثيرة.

□ **القوميات في السياسة السوفياتية**: اضطلعت التناقضات القومية بدور مهم في انهيار الامبراطورية الروسية، «سجن الشعوب» كما كان يقال عنها، وقد سمحت بانتصار البلاشفة في اكتوبر ١٩١٧ اولاً، ثم في الحرب الأهلية. ولم يكن دعم الاقليات القومية والانتصار لحقوقها في نظر البلاشفة مجرد اعتراف بدورها في انحلال النظام القديم: فقد اعتبروا التحرر القومي للشعوب وحقوق القوميات مقتضيات استراتيجية وشرطاً ضرورياً لتطور الاشتراكية. وقد نص اعلان حقوق شعوب روسيا (تشرين الثاني ١٩١٧) على المساواة المطلقة في الحقوق للقوميات كافة، بما فيها حق تقرير المصير والانفصال. وهكذا، وافق الحكم السوفياتي على استقلال فنلندا وبولونيا. اما القوميات الأخرى فقد اعلنت بطوع ارادتها عن اتحادها مع روسيا السوفياتية مع محافظتها على استقلالها الداخلي.

لكن، منذ الحرب الأهلية، رجحت كفة تيار المركزية على كفة تيار الاستقلالات الذاتية المحلية والقومية ولا سيما ان الاحزاب الشيوعية القومية كانت قد وضعت تحت اشراف الحزب الشيوعي الروسي الذي رفض، على سبيل المثال، انشاء حزب شيوعي مسلم مستقل. وفي ١٩٢١ - ٢٢، جاءت الازمات الجورجية، والمداولات حول دستور اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، تعطي صورة

واضحة عن الواقع الجديد. وقد سعى لينين جاهداً الى مكافحة النتائج السلبية لهذا التوجه، وانتقد السياسة الجورجية التي انتهجها ستالين، مفوض الشعب لشؤون القوميات. وبعد وفاة لينين (١٩٢٤)، ظل دعم الاقليات القومية يشكل محوراً اساسياً في السياسة السوفياتية الداخلية، ولا سيما لجهة محو الامية في صفوف تلك الاقليات وتنمية ثقافتها بلغاتها القومية. فقبل ١٩١٧، كان ثمة ثلاثون قومية واثنية فقط، من اساس ١٥٢، عندها ابجدية خاصة. ولم يحلّ العام ١٩٣٢، حتى كان اتباع ١٠٢ قومية واثنية قد غدوا يكتبون وينشرون اعمالهم بلغتهم الام.

لكن، على الصعيد السياسي، جاء انشاء مختلف الجمهوريات السوفياتية على نحو يحول دون ظهور قطب قوي قادر على منافسة الجمهورية الاشتراكية الاتحادية السوفياتية الروسية. فقد عارض الحكم السوفياتي على سبيل المثال، قيام جمهورية طوران التي كان طالب بها انصار سلطان علييف. فهذه الجمهورية، التي اريد لها ان تكون دولة قومية تركية جامعة، كانت ستشكل قطباً عظيم الشأن، ومرشحاً، بالتالي، لمنافسة الجمهورية الروسية.

وبدءاً من العام ١٩٣٠، ركّز الحزب على انتقاد الشوفينية الروسية و «النزعة القومية البورجوازية» المحلية في آن معاً. وقد أدين هذان «الانحرافان» من المؤتمر السادس عشر للحزب. وفي ١٩٣٤، دعا المؤتمر السابع عشر الى مكافحة النزعة القومية الاوكرانية وحدها. ومنذ ذلك الحين اعطيت الاولوية لوحدة الاتحاد السوفياتي. ومن الامور التي لها دلالتها، فرض الزامية تعليم اللغة الروسية، في ١٩٣٨، في جمهوريات الاتحاد كافة، واحلال الابجدية اللاتينية محل الابجدية الكيريلية في لغات الاقليات. وقد شهدت سنوات الحرب عمليات ترحيل جماعية لاقليات اتهمت بالتعاطف مع جيوش الاحتلال الهتلري (ألمان الفولغا، تتار شبه جزيرة القرم، كلموك، تشتشين، الخ...). وبعد النصر، طال القمع النزعتين القوميتين، البلطيقية والاوكرانية، بيد انه لم يكن قمعاً شاملاً. وفي إبان انعقاد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي (١٩٥٦)، ادان خروتشوف بشدة الجرائم التي اقترفها ستالين بحق القوميات وطالب بالعودة الى المبادئ اللينينية.

إن الوضع الراهن (قبيل انهيار دولة الاتحاد السوفياتي) للقوميات في الاتحاد السوفياتي هو حصيلة صيرورة تاريخية متناقضة يتواجه فيها إرث ثورة ١٩١٧ البروليتارية والقومية واستمرار الهيمنة الروسية على مجمل الاتحاد. لقد افادت القوميات من المكاسب الثورية الجمة، ومن نهوض ثقافي واقتصادي هائل. بيد انها ظلت تكابد من مظاهر الزعامة الروسية. وخلاصة القول: إن الاتحاد السوفياتي ليس «سجن شعوب»، وليس «الامبراطورية المشرذمة» التي يودّها بعضهم؛ غير انه ليس ايضاً، وبالمقابل، «اسرة من الشعوب الشقيقة»، كما أريد له ان يكون (موسوعة السياسة، ج ٤، ١٩٩٠، ص ٨٢٨).

□ **ك. ج. ب. المخابرات السوفياتية:** أثناء الثورة البلشفية كان هناك جهاز للمخابرات او «البوليس السري»، كما كان يُدعى، والذي كانت مهامه تنحصر في حماية العائلة المالكة. وعندما ظفر البلاشفة بالسلطة انشأوا جهازاً أسموه «الشيكا» مهمته مطاردة اعداء الثورة ومعارضيها، وقد نجح هذا الجهاز بالقضاء على جماعات معارضة عديدة، وامتدت نشاطاته الى خارج الاتحاد السوفياتي لملاحقة اعوان القياصرة الذين هربوا الى الخارج.

في ١٩٣٤، تطورت المخابرات السوفياتية، خصوصاً بالنسبة الى الشؤون السياسية، واصبح إسمها (M.K.F.D.). وقد اهتم ستالين اهتماماً خاصاً بها. ففي عهده ارتقى جهاز المخابرات بفن الجاسوسية الى مستوى متقدم، فسبق السوفيات به معظم اجهزة المخابرات الأخرى في العالم.

ومع نشوب الحرب العالمية الثانية وتعاظم مسؤوليات هذا الجهاز، قسّم الى قسمين، الأول عرف بـ (K.G.B.)، والثاني (M.F.D.). اهتم الاول بالتجسس الخارجي، فيما ركز الثاني نشاطه على الشؤون الداخلية.

اشتهر (M.F.D.) بقضائه على حركة الفلاحين وعلى حركة المعارضة والمخالفين لستالين، وحين انجز هذه المهمة، تولى ستالين تصفيته. واستمر جهاز ك. ج. ب. وجعل منه ستالين جهاز مخابرات قوياً جداً. وأدخل خروتشوف عليه إصلاحات وبدل إسمه الى «وزارة العدل والنظام».

تتبع هذا الجهاز «مدرسة المخابرات السوفياتية الأكاديمية»، تخرّج عشرات الجواسيس السوفيات سنوياً، فينقل طلابها بعد ذلك (أي بعد تلقيهم الدروس النظرية والتثقيف الحزبي) الى مدرسة لينين التقنية، حيث تبدأ فترة التدريب العملي كالرياضة والرماية

بالاسلحة المختلفة واساليب التخدير والتسميم والتنصت والتقاط الصور بكاميرات مختلفة، وكذلك دراسات عن الامن الداخلي والقانون بشكل عام والاستراتيجية العسكرية ومكافحة التجسس، إضافة الى اللغات الأجنبية حسب الجهة أو الدولة المقصودة.

مدة هذه المدرسة عامان، يصنف بعدها الناجحون الى قسمين: الاول للعمل خارج البلاد، والثاني في الداخل. بعد التخرج يخضع الخريجون الى امتحانات عملية ونفسية صعبة للتأكد من مدى تحملهم للظروف القاسية الجسدية والنفسية والمعنوية. وبعدها، يرسل كل في مهمته. وعناصر هذه المخابرات هم اعضاء في الحزب الشيوعي او مرشحون لعضويته، أو أعضاء في منظمات الشبيبة الشيوعية، كما يجب ان يكونوا من عائلة معروفة ليس منها خائن أو مشتبه بعدائه أو انتقاده للشيوعية.

□ **كرملين Kremlin**: اذا ذكر، مجرداً، فيقصد به مقر مجلس السوفيات الاعلى (برلمان الاتحاد السوفياتي)، والحكومة. ويُستعمل في التعبير السياسي كرمز للقيادة السوفياتية، مثلما يستعمل تعبير «١٠ دوانغ ستريت» في بريطانيا، و«البيت الأبيض» في الولايات المتحدة، وقصر «الاليزيه» في فرنسا.

والكرملين، في الاساس، نوع من القلاع في عدة مدن روسية، كان يُستخدم مقراً للادارة ومركزاً دينياً، وكان في الوقت نفسه حصناً لصد الغارات الحربية في العصور الوسطى. من اشهر هذه القلاع: كرملين استرخان، وقازان، وموسكو، ونغن نغفوردو وبسكوف. وكرملين موسكو يقوم في المدينة القديمة، ويضم بناؤه المثلث الشكل كثيراً من المباني التاريخية، منها كاتدرائية أوسبنسكي (اواخر القرن ١٥)، وكان يتوج فيها القياصرة؛ وكاتدرائية أركانجلسكي (القرون ١٥ – ١٧) وبها مدافن القياصرة، وبرج الجرس (القرن ١٦) ذو القبة الذهبية الذي بناه ايفان الرهيب. اما القصر الكبير الذي بني في القرن ١٩، فقد اعاد السوفيات بناءه ليكون مقراً لسلطتهم.

وبسبب هذا المعنى والقيمة التاريخيين للكرملين، استمر حكام روسيا الحاليين اتخاذه مقراً لسلطاتهم رغم انقلابهم وعدائهم لكل رموز مرحلة دولة الاتحاد السوفياتي؛ تماماً كما كان شأن السلطة السوفياتية مع هذه المباني رغم رفضها لكل ما كانت تمثله العهود القيصرية.

□ **الكوموسمول Komosmol**: منظمة الشباب اللينينية الشيوعية للاتحاد السوفياتي. تتراوح اعمار اعضائه بين ١٤ و٢٨ عاماً. اسست العام ١٩١٨. بلغ عدد اعضائها، في الثمانينات، نحو ٤٠ مليون عضو. وهي منظمة تابعة للحزب الشيوعي السوفياتي. مهمتها تثقيف الشباب السوفياتي على اساس المبادئ الماركسية – اللينينية، وبث روح المواطنية والنظام والانضباط. يشارك اعضاء الكوموسمول في العديد من الحملات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، بما في ذلك بناء مشاريع ضخمة. فعلى سبيل المثال، هناك مدينة كوموسمولسك (جنوب شرقي سيبيريا) التي تأسست في ١٩٣٢ واصبح عدد سكانها يتجاوز حالياً ٢٥٠ ألف نسمة، قد بنيت أصلاً بسواعد شبيبة الكوموسمول. واعضاء الكوموسمول يشرفون ويدربون منظمة الرواد (تضم فتياناً تتراوح أعمارهم بين ١٠ و١٤ عاماً).

وتبذل الكوموسمول نشاطاً مكثفاً في مجال النشر والدعاية. فبالاضافة الى صحيفة «كوموسمولسكايا برافدا» التي نطقت رسمياً باسمها، أصدرت حوالي ١٥٠ صحيفة يومية واكثر من ١٢ مجلة دورية و٣٥٠ كتاباً وكرّاساً في السنة، تجاوز عدد نسخها ٢٥ مليون نسخة.

اما التنظيم الداخلي للكوموسمول فهو على غرار تنظيم الحزب الشيوعي السوفياتي: مؤتمر، لجنة مركزية، مكتب سياسي، سكرتاريا.

□ **المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي**: اول مؤتمر لهذا الحزب بعد رحيل ستالين. افتتح في ١٤ شباط ١٩٥٦ في موسكو. فاجأ العالم آنذاك بما تجرأ عليه خروتشوف من نقد لستالين وللمرحلة الستالينية امام ١٤٢٤ مندوباً يمثلون ٥٥ جمهورية وعدد كبير من الضيوف الاجانب. قال خروتشوف إن جردة الحساب للعهد الستاليني ليست ايجابية بأي حال من الأحوال، وإن التعايش الايجابي مع الغرب بات ضرورياً على عكس ما كان ينادي ستالين به من ان قيام حرب جديدة امر محتم. غير ان هذا لم يكن شيئاً يذكر امام الهجوم الذي شنه خروتشوف ضد «عبادة الشخصية» و «تبجيل الزعيم» اللذين مورسا لحساب ستالين طوال سنوات عدة. والجزء الذي تناول فيه خروتشوف عهد ستالين وممارساته في تقريره، خصصت له جلسات مغلقة، وذلك لانّ ستالين كان لا يزال يعتبر حتى ذلك الحين بطلاً قومياً لا يجوز

المساس علناً بذكراه. اما خروتشوف فانه لم يتحرج ابداً في ذلك المساس، وخاصة حين اتى على تحليل العلاقة بين لينين وستالين، مركزاً على ما كان ينادي به لينين من التحسب لنهم خليفته بالسلطة.

وفي تقريره، ندّد خروتشوف بما مارسه ستالين من تصفيات جسدية طالت ٩٨ من ١٣٩ عضواً في اللجنة المركزية للحزب في العام ١٩٣٥، وتصفية ٨٥٦ من أصل ١٩٦٦ مندوباً شاركوا في المؤتمر السابع عشر للحزب.

ولم يكتف خروتشوف بهذا، بل راح يصب جام نقمته على الاسطورة التي صُنعت من حول ستالين بوصفه زعيماً حربياً كبيراً، مركزاً على تجاهل «الزعيم» لكل التنبيهات التي كانت تحذره من حتمية وقوع هجوم الماني قبل وقوع الهجوم، ما تسبّب في سقوط ملايين الضحايا التي كان من الممكن توفيرها لو لم يعتقد ستالين بأن هتلر سوف يحافظ على وعوده.

وختم خروتشوف كلامه بالقول إنه هو شخصياً كان يخشى على حياته في كل مرة يقوم فيها بزيارة ستالين. وبعد خروتشوف، تحدث ميكويان الذي كان معروفاً بصداقته لستالين، وراح يضيف ما يعرفه عن طغيان ستالين... ولم يعد بامكان أحد أن يصمت بعد ذلك. وبعد ايام من المؤتمر، نشرت صحيفة «البرافدا» اول مقال ينتقد مفهوم عبادة الشخصية. فبدا واضحاً ان ما رمى اليه خروتشوف قد تحقق. وخروتشوف نفسه أطيح به بعد سنوات، وعاد الاتحاد السوفياتي الى فترة جديدة من الجمود انتهت بمجيء غورباتشوف الذي أخذ يكمل ما بدأه خروتشوف في المؤتمر العشرين، مع فارق زمني مهم جداً هو الفارق القاتل هذه المرة.

□ **وصية لينين**: وصية سياسية كتبها لينين اثناء فترة مرضه واعرب فيها عن موقفه ورغبته بالنسبة الى قيادة الحزب الشيوعي السوفياتي والتوجهات السياسية المفترض انتهاجها بعد موته. وتشتمل هذه الوصية على ملاحظات نقدية تجاه بوخارين وستالين وتروتسكي وغيرهم من كبار قياديي الحزب والدولة. وكان ستالين اكثر الاشخاص عرضة للنقد في هذه الوصية التي طالب فيها لينين بنقله من منصبه كسكرتير عام للحزب نظراً للصلاحيات المطلقة التي يتمتع بها من يشغل هذا المنصب. ولم تنشر هذه الوصية قبيل وفاة لينين ولا بعدها ولا طيلة عهد ستالين. ولكنها نُشرت في الغرب بُعيد وفاة لينين، ثم في الاتحاد السوفياتي بعد وفاة ستالين، وبالتحديد اثناء المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي (١٩٥٦). وقد نشرت على نطاق واسع ووضعت قيد التداول الاعلامي العالمي اليومي تقريباً في معرض التعليقات والدراسات الكثيرة التي بدأت تبحث في اسباب الحالة الدراماتيكية التي وصلت اليها دولة الاتحاد السوفياتي وادت الى انهيارها وزوالها.

وفي ما يلي مقاطع من هذه الوصية السياسية التي هي كناية عن رسالتين املاهما لينين وهو على فراش المرض، قبيل وفاته بقليل، إذ أدّى مرضه الى شلل يده اليمنى. والرسالتان بمثابة وصية الى الحزب، تعبران عن خوف لينين على مصير الحزب والدولة والبلاد اذا استمر ستالين في منصب الامين العام... وفيهما توصيف لطبائع ستالين كانت من أهم أسباب الارتكابات والكوارث لاحقاً... أملى لينين هاتين الرسالتين في ٢٥ كانون الاول ١٩٢٢، و٤ كانون الثاني ١٩٢٣... وتليتا في المؤتمر الثالث عشر للحزب (ايار ١٩٢٤)؛ ولكنهما اخفيتا تماماً ولم تُنشرا ابداً الا في العام ١٩٥٦، كما سبق.

في بداية الرسالة، يتحدث لينين عن ضرورة تمتين اللجنة المركزية للحزب بضم عناصر جديدة اليها، لضمان عدم الانشقاق بسبب الصراع بين ستالين وتروتسكي، ثم يقول:

«اني اعتقد ان عضوين من اللجنة المركزية، واعني بهما ستالين وتروتسكي، هما من وجهة النظر هذه، النقطة الأساسية في مسألة المتانة. فالعلاقات بينهما، في رأيي، تشكل اكثر من نصف خطر ذلك الانشقاق الذي يمكن اجتنابه. فلا بدّ، في رأيي، من زيادة عدد اعضاء اللجنة المركزية حتى ٥٠ شخصاً، وحتى ١٠٠ شخص، لتؤمن فيما تؤمن، اجتناب الانشقاق.

إن الرفيق ستالين، الذي اصبح اميناً عاماً، قد حصر في يديه سلطة لا حدّ لها، وانا لست على ثقة في انه سيعرف على الدوام كيف يستعمل هذه السلطة بما يكفي من الاحتراس. ومن جهة أخرى، لا يتميز الرفيق تروتسكي بكفايات بارزة وحسب، كمل برهن على نضاله ضد اللجنة المركزية بصدد مسألة مفوضية الشعب لطرق المواصلات، بل لعلّه شخصياً أكفأ رجل في اللجنة المركزية الحالية. ولكنه كذلك تستحوذ عليه الى ما لا حدّ له الغطرسة والولوع، الذي لا حدّ له، بالجانب الاداري الصرف من العمل. وبمقدور هاتين الصفتين في زعيمي اللجنة المركزية الحالية البارزين ان تفضيا عن غير عمد الى الانشقاق. واذا لم يتخذ حزبنا

التدابير للحيلولة دون هذا، فقد يحدث الانشقاق فجأة».
التوقيع: لينين. التاريخ ١٩٢٢/١٢/٢٥.

وثمة إضافة الى هذه الرسالة أملاها لينين: «إن ستالين مفرط في الفظاظة، وهذه النقيصة - التي يمكن احتمالها تماماً في بيئتنا، نحن الشيوعيين، وفي الاتصالات في ما بيننا - تصبح امراً غير محتمل في منصب الامين العام. ولهذا اقترح على الرفاق ان يفكروا في اسلوب لنقل ستالين من هذا المنصب وتعيين شخص آخر لهذا المنصب يمتاز من جميع النواحي الأخرى عن الرفيق ستالين بميزة واحدة فقط، هي ان يكون اكثر تسامحاً، واوفر لطفاً، واشد انتباهاً للرفاق، وأقل تقلباً في الأهواء، الخ... هذا الاعتبار قد يبدو امراً تافهاً لا يؤبه له. ولكني اعتقد ان هذا ليس بالامر التافه من وجهة نظر درء الانشقاق، ومن وجهة نظر ماكتبته سابقاً عن العلاقات بين ستالين وتروتسكي، أو ان هذا امر تافه، ولكنه قد يكتسب اهمية فاصلة». التوقيع: لينين. التاريخ: ٤ كانون الثاني ١٩٢٣. (ملحق جريدة «النهار»، عدد ٢٤ نيسان ١٩٩٣).

* **أندروبوف، يوري Andropov, Y.** (١٩٢١ - ١٩٨٣): سياسي ورجل دولة سوفياتي. سفير لدى هنغاريا (المجر) في ١٩٥٣ - ٥٧. مسؤول العلاقات مع البلدان الشيوعية الأخرى (١٩٥٧ - ٦٢). عضو في اللجنة المركزية للحزب منذ ١٩٦١. أصبح عضواً في المكتب السياسي (١٩٧٣). ترأس لجنة أمن الدولة (المخابرات) منذ ١٩٦٧، وحاز على جائزة لينين مرتين. خلف بريجنيف في زعامة الحزب الشيوعي والدولة السوفياتية.

* **انغلز، فريدريك Engels, F.** (١٨٢٠ - ١٨٩٥): مفكر اشتراكي الماني وزميل كارل ماركس في وضع النظرية الشيوعية، وهو محرر مؤلفاته ورفيق حياته. كان هيغلياً (نسبة الى الفيلسوف الألماني هيغل) ثم أخذ ينتقده. تعرف على كارل ماركس (١٨٤٤) وعملا سوية على تنظيم رابطة شيوعية انطلاقاً من مذهبهما الجديد حول المادية الجدلية، واصدرا البيان الشيوعي (١٨٤٨) الذي يعتبر كاعلان

ستالين، لينين، إنغلز وماركس

زعماء ورجال دولة

* **أطلس، زخارينيف Atlas, Z.** (١٩٠٣ -): إقتصادي سوفياتي بارز وذو تأثير في رسم السياسة الاقتصادية السوفياتية. استاذ في معهد العلوم المالية في موسكو (الثمانينات). صاحب المقال الشهير (١٩٥٨) تحت عنوان «مردودية المشاريع الاشتراكية» الذي كان في أساس تيار مجدد أفسح في المجال امام إصلاح ١٩٦٨.

ميلاد الفكر الماركسي ونقطة الارتكاز الاولى للحركة الشيوعية في العالم. في ثورات ١٨٤٨، قام انغلز بدور صحافي تبشيري ونشر نظرية كفاح البروليتاريا. موّل اعمال ماركس وعمل معه على انشاء الاممية الأولى. له عدة مؤلفات: «الرد على دوهرنغ»، «اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة»، «فيورباخ وتهافت الفلسفة الألمانية».

* **اوردجونيكيدز، غريغوري Ordjonikidze, G.** (١٨٨٦ – ١٩٣٧): شيوعي سوفياتي. عرف بمواقفه المعادية لتروتسكي وبتقربه من ستالين. مفوض الصناعة الثقيلة (١٩٣٢). ظهرت بوادر خلاف بينه وبين ستالين فانتحر بعدها بقليل.

* **أوستروفسكي، نيكولاي Ostrovski, N.** (١٩٠٤ – ١٩٣٦): شيوعي. اشترك في الحرب الأهلية حيث اصيب بجروح بليغة سببت له عاهة دائمة فكرس نفسه كلياً لعمله كمسؤول الكوموسمول. ثم
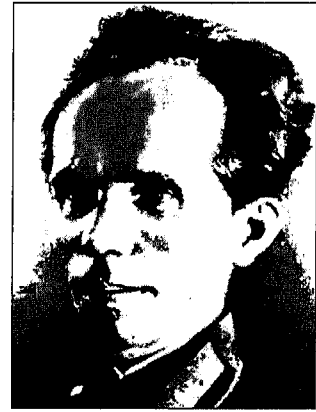
نيكولاي أوستروفسكي — جورج بليخانوف

اصيب بالشلل الكلي ثم بالعمى فساورته فكرة الانتحار. وأخذت الكتابة عنده شكل المعركة. فكان كتابه «الفولاذ المسقي» (١٩٣٤) وهو سيرة حياته الذاتية. ومن أعماق آلامه عرف مجداً كبيراً، إذ كان السوفيات يتقاطرون اليه لرؤيته وهو في سريره. اعتبرت كتاباته من روائع ادب شبيبة الكوموسمول، واصبح هو وبطل رواياته (بافيل كوتشاغين) رمزاً لجيل الحرب الأهلية ولبناء الاشتراكية. يعود تأثير اوستروفسكي هذا الى ذاك التعطش الى المطلق الذي يأمر بالتضحيات، والى «انتصار الروح على الجسد» كما يقول غوركي في حديثه عنه. أما جيد (Gide) فكتب يقول عنه بعد عودته من الاتحاد السوفياتي: «لو لم نكن في الاتحاد السوفياتي لقلت إنه قديس... قديس شيوعي».

* **بريجنيف، ليونيد إيلّيش Brejnev, L.I.** (١٩٠٦ – ١٩٨٢): رجل دولة وسياسي سوفياتي. سكرتير اول الحزب الشيوعي السوفياتي (١٩٦٤ – ٦٦) ثم امين عام الحزب. رئيس الحزب والدولة (١٩٧٧). انتسب الى الحزب الشيوعي (١٩٣١). مساعد خروتشوف (١٩٣٧). المفوض السياسي في فيروبتروفسك، حيث تألق عسكرياً خلال الحرب العالمية الثانية. سكرتير اول الحزب في جمهورية مولدافيا (١٩٥١ – ٥٣). مع بداية عهد خروتشوفوف، اصبح سكرتير أول للحزب في جمهورية قازخستان. ساهم في تشجيع تطوير برنامج الاكتشاف الفضائي السوفياتي. سكرتير أول الحزب (١٩٦٤) بعد عزل خروتشوف ومجموعته. طور في مجال السياسة الخارجية (الوفاق مع اميركا). في ١٩٧٧ ساهم في وضع اسس الدستور السوفياتي الجديد الذي عرف باسمه.

* **بريوبراجنسكي، أفغيني أ. Preobrajenski, E.A.** من زعماء الثورة الروسية. شارك بالمقاومة السرية (١٩٠٧). عمل الى جانب لينين. تصدى، الى جانب لينين وبوخارين، لسياسة كامينيف وستالين، (١٩١٧). وقف مع بوخارين الى جانب تروتسكي القائل بعسكرة النقابات. وضع دراسات وكتباً عديدة، وكلها تدعم خط تروتسكي. فأقصاهما ستالين في المؤتمر الخامس عشر للحزب. في ١٩٢٩، اجرى نقداً ذاتياً وامتدح تدابير ستالين في التصنيع والتأميم. مع ذلك، القي القبض عليه (١٩٣٦) بتهمة التروتسكية. لم يعدم فوراً كما جرى لبوخارين، إنما القي في غياهب السجون، وتعرض اهله وانسباؤه للتنكيل. ويبدو انه اعدم.

* **بلوخر، فاسيلي ق. Blucher, V.K.** (١٨٩٠ – ١٩٣٨) عسكري وثوري سوفياتي. سجن (١٩١٠ – ١٣) بتهمة التحريض على الاضراب. قاد مفرزة «الحرس الأحمر» في منطقة الاورال في الحرب الأهلية، وفي قطاع سيبيريا (١٩٢١ – ٢٢). اعطته الثورة الصينية مكانة خاصة، وكانت القيادة السوفياتية ارسلته الى الصين على رأس وفد من اربعين مستشاراً عسكرياً سوفياتياً (١٩٢٤). ساهم في صنع انتصارات الثورة الصينية في بداية انطلاقتها. لكن تشان كاي تشيك انقلب على حلفاء الأمس الشيوعيين وشن هجوماً مضاداً (كومونة كانتون) فاضطر الحزب الشيوعي الصيني الى اللجوء الى العمل السري. فعاد بلوخر الى الاتحاد السوفياتي حيث تولى عدة مناصب مهمة. لم

يتمكن من النجاة من ستالين. فاعتقل (١٩٣٨) وبعض افراد عائلته. ووجهت اليه تهمة التجسس لحساب اليابان، وأعدم. أعاد المؤتمر العشرون للحزب (١٩٥٦) اعتباره.

* **بليخانوف، جورج** Plekhanov, G. (١٨٥٧ – ١٩١٨): المؤسس الحقيقي للماركسية في روسيا. شكل في جنيف (١٨٨٣) الرابطة الماركسية لتحرير العمال (وهو من عائلة نبيلة). وقام بدور مهم في تكوين شخصية لينين، وقد أسسا جريدة «أسكرا» مع ماروتوف. في ١٩٠٣ حدث انقسام داخل الحزب الاشتراكي الديمقراطي بين البلشفيك بقيادة لينين، وبين المنشفيك، فوقف بليخانوف متردداً بين الفئتين الى ان انضم في النهاية الى المنشفيك ووقعت القطيعة نهائياً بينه وبين لينين. ولما نشبت الثورة البلشفية (١٩١٧) عاد الى روسيا ولكنه رفض الاشتراك في الحكم، وابتعد الى فنلندا حيث بقي حتى مماته. له عدة ابحاث حول فلسفة التاريخ.

* **بوخارين، نيكولاي إ.** Boukharin N. (١٨٨٨ – ١٩٣٨): منظر سياسي شيوعي روسي. قال فيه لينين: «اعظم المنظرين واكثرهم قيمة في الاشتراكية». عضو في اللجنة المركزية والمكتب السياسي للحزب. اختلف مع ستالين (١٩٢٩)، ومع ذلك تولى رئاسة تحرير «ازفستيا» حتى ١٩٣٦. أعدم

نيكولاي بودغورني

رمياً بالرصاص بتهمة الخيانة والتآمر (١٩٣٨). رد اعتباره في المؤتمر العشرين للحزب (١٩٥٦). وفي ١٤ شباط ١٩٨٨، اعلنت المحكمة العليا في الاتحاد السوفياتي قراراً اعادت فيه الاعتبار حقوقياً وقضائياً لعشرة من الذين كانت «المحاكم السوفياتية» قد حكمت عليهم بالاعدام خلال آذار ١٩٣٨، ومن اشهرهم بوخارين وزميله الكسي ريكوف اللذان اتهمتهما السلطات الستالينية بالتآمر ضد الشعب والدولة. وبوخارين كان من أقرب المقربين للينين. وكان كذلك مقرباً من ستالين نفسه، حيث كان يناصر هذا الأخير في صراعه ضد تروتسكي. ولئن كان تروتسكي يمثل الخط اليساري في السلطة السوفياتية، فإن بوخارين كان يمثل الخط اليميني، إذ كان منذ بداية الخطط الخمسية يعارض كل انواع التسرع في اتخاذ القرارات، وهو بوصفه عضواً في المكتب السياسي والرجل الثالث في السلطة السوفياتية، كان ينادي دائماً بضرورة الوصول الى نوع من التوازن بين القطاع العام الناشئ حديثاً، وبين القطاع الخاص الثابت والقوي. وكان بوخارين يرى ضرورة الحفاظ على مثل ذلك التوازن خاصة في الارياف، حيث كان يرى انه من الضروري للمزارعين ان يشعروا بالراحة وبنوع من حرية الحركة لكي يواصلوا الانتاج حتى يتمكنوا من اطعام المدن. وكان ينادي بأنه لو تسرعت الدولة والغت المزارع الفردية لصالح التعاونيات والمزارع الجماعية فإن نتيجة هذا ستكون استنكاف المزارعين عن الانتاج.

* **بودغورني. نيكولاي** Podgorny, N. (١٩٠٣ –): سياسي سوفياتي بارز. انضم الى الحزب الشيوعي (١٩٣٠). عين اثناء الحرب مديراً لمعهد موسكو التكنولوجي للصناعة الغذائية. الامين العام للحزب في اوكرانيا (١٩٥٧). سكرتير اللجنة المركزية مع بريجنيف. في ١٩٦٥، حل محل ميكويان في منصب رئيس مجلس السوفيات الأعلى. خلفه بريجنيف بعدما اقيل من منصبه (ربيع ١٩٧٧).

* **بودفويسكي، نيكولاي إ** Podovoiski, N.I. (١٨٨٠ – ١٩٤٨): أحد صانعي ثورة اكتوبر (١٩١٧) في بتروغراد. عين (١٩١٧) احد المفوضين الثلاثة لشؤون الحرب في الحكومة البلشفية الاولى. انقطع منذ ١٩١٩ الى الاعداد العسكري العام والى كتابة مذكراته. كان مناوئاً عنيفاً للتروتسكيين. تقاعد (١٩٤٣) لتدهور صحته.

* **بورودين، ميخائيل م. Borodine, M.M.** (١٨٨٤ – ١٩٥١): سياسي شيوعي سوفياتي. صاحب دور رئيسي في تطبيق سياسة الاممية الثالثة في الصين. اعتقل ونفي (١٩٠٦)، ثم هاجر الى الولايات المتحدةحيث تابع دراسته وانشأ مدرسة للمهاجرين الروس في شيكاغو. عاد الى روسيا بعد ثورة اكتوبر (١٩١٧). أرسلته القيادة الى الصين (١٩٢٣) كمستشار صن يات تسن. ساهم في اعادة تنظيم «الكومينتانغ» على غرار الحزب البلشفي. في ١٩٢٧، طرد من الصين بعد ان خلف تشانغ كاي تشك الرئيس صن يان تسن. وهكذا، أدت سياسة ستالين، التي طبقها بورودين الى فشل الشيوعيين الصينيين. عين رئيساً لتحرير جريدة «موسكو ديلي نيوز» (١٩٤٩)؛ اعتقل (١٩٥١) واعدم في اطار تصفية اللجنة اليهودية المعادية للفاشية.

* **بوغدانوف، أ. أ. مالينوفسكي Bogdanov, A.A.M.** (١٨٧٣ – ١٩٢٨): سياسي وشيوعي وفيلسوف وإقتصادي وعالم اجتماع روسي. عرف بخصومته للينين، وتوصل (١٩٠٨) الى ازاحته عن القيادة السياسية والايديولوجية للبلشفيك واحتلال مكانه. إلا ان لينين، سرعان ما عاد وقلب الموقف لمصلحته متهماً بوغدانوف بالعمل على الاستعاضة عن المفاهيم الماركسية بفلسفة أفيناريوس وماخ. وقد استند لينين باتهامه الى كتاب بوغدانوف «المادية والتجريبية النقدية».

* **بولغانين، نيكولاي Bulganin, N.** (١٨٩٥ – ١٩٧٥): سياسي ورجل دولة سوفياتي. اكتسب سمعة نادرة بوصفه ادارياً صناعياً. رئيس بنك الدولة (١٩٤٨). وزير الدفاع (١٩٤٦). عضو المكتب السياسي للحزب (١٩٤٨). رئيس الوزراء (١٩٥٤) في اعقاب سقوط مالنكوف. استقال (١٩٥٨) بسبب خلافه مع خروتشوف سكرتير الحزب آنذاك. اقترن اسمه بالانذار السوفياتي الى بريطانيا وفرنسا إبان الحرب الثلاثية على مصر (١٩٥٦).

* **بياتوكوف غيورغي ل. Piatokov, G.L.** (١٨٩٠ – ١٩٣٧): سياسي واداري لامع واحد كبار منظمي الصناعة السوفياتية. ذكره لينين في وصيته بين «الورثة الستة». تعرف على لينين في سويسرا واصبح معاوناً له. عارض شعار حق تقرير المصير لشعوب الاتحاد السوفياتي الذي صاغه لينين. قائد الشيوعيين الاوكرانيين بعد نجاح الثورة (١٩١٧). رئيس مجلس السوفيات في كييف. استقال من مناصبه كافة احتجاجاً على شروط معاهدة برست ليتوفسك. وفي ١٩١٨، لقبه الشيوعيون اليساريون والاشتراكيون الثوريون خليفة لينين الذي كان يريدون عزله. اسند اليه تروتسكي خلال الحرب الأهلية عدة مسؤوليات نفذها بنجاح. رئيس المحكمة العليا (١٩٢٢). ارسلته الاممية الشيوعية (١٩٢٣) الى المانيا بصحبة راديك ليمهد للثورة المسلحة. طرد من الحزب (١٩٢٧). اعاده ستالين، واشتغل في مجال السياسة التصنيعية. وافق (١٩٣٦) على اعدام كامينيف وزينوفيف. أوقف هو أيضاً (١٩٣٧) وكان المتهم الرئيسي في محاكمة موسكو. وحكم عليه بالاعدام.

* **بيريا، لافرنتي ب. Beria, L.P.** (١٨٩٩ – ١٩٥٣): سياسي سوفياتي. عين على رأس البوليس السياسي في جيورجيا، مسقط رأسه (من ١٩٢١ الى ١٩٣١). السكرتير الاول للحزب الشيوعي الجورجي (١٩٣١). عضو اللجنة المركزية للحزب السوفياتي (١٩٣٤). قمع بشدة الاتجاهات القومية. عينه ستالين (١٩٣٨) على رأس جهاز البوليس السياسي (N.K.V.D.) ما جعله من اقوى رجال النظام الستاليني. عضو المكتب السياسي (١٩٤٠). عضو المجلس الاعلى للدفاع الوطني (١٩٤١). وزير الداخلية (١٩٤٢ – ٤٥). نائب رئيس الوزراء ومشرف على جهاز الامن. بعد موت ستالين، عين وزيراً للداخلية (١٩٥٣) لكن سرعان ما اعتقل (تموز ١٩٥٣) وأعدم بعد محاكمة سرية. ارتبط اسمه باسم ستالين وسياسته بوصفه الاداة المباشرة في تنفيذها.

* **بيلنياك، بوريس Pilniak, B** (١٨٩٤ – ١٩٣٧): اديب ثوري رومنطيقي روسي من أصل الماني. من قصصه ما يذكر بمشاهد من الثورة التي رأى اليها محررة للانسان من قيود المدنية والمجتمع. اوقف (١٩٣٧) وأعدم من ضمن الحملة الستالينية. اعيد له اعتباره (١٩٥٦) إلا ان مؤلفاته بقيت محظورة في بلاده.

* **تروتسكي، ليف دافيدوفيتش Trotsky, L.D.** (١٨٧٩ – ١٩٤٠): مفكر ثوري أممي وقائد سياسي شيوعي ورجل دولة سوفياتي. من عائلة اوكرانية

يهودية فقيرة تمكنت من التقدم في السلم الاجتماعي لتصبح من الطبقة المتوسطة. قبض عليه (١٨٩٨) ونفي الى سيبيريا، فهرب والتحق بلينين في لندن (١٩٠٢). حاول التوفيق بين البلشفيك والمنشفيك (١٩٠٤). نظم اول سوفيات اثناء ثورة ١٩٠٥. اعتقل ونفي الى سيبيريا وهرب مرة جديدة متنقلاً في اوروبا. احتل موقع القيادة الأول في لينينغراد في الثورة (١٩١٧). اول وزير خارجية والرجل الثاني بعد لينين. وزير الحربية وأنشأ الجيش الأحمر في الحرب الأهلية. بدأ صراعه مع ستالين بعد مرض لينين (١٩٢١)، وانفجر على اثر موت لينين (١٩٢٤). جرد من مهماته الحزبية (١٩٢٥)، وطرد من الحزب (١٩٢٧)، ونفي من البلاد (١٩٢٩). وقد تركز الخلاف في تلك الفترة حول التناقض بين شعار الاشتراكية في بلد واحد الذي تبناه ستالين، وبين شعار الثورة العالمية الذي تمسك به تروتسكي. استقر فترة في فرنسا حيث كتب «تاريخ الثورة» الذي يعتبر بحق من روائع الكتب. ثم انتقل الى المكسيك وبها استقر حتى اغتياله (١٩٤٠). استمر انصاره (التروتسكيون) يشكلون خطاً سياسياً وعقائدياً في كثير من البلدان، وتعتبر التروتسكية في نظر معظم الأحزاب الشيوعية جريمة وخيانة.

* **تشاباييف، فاسيلي إ. Tchapaev V.I.** (١٨٨٧ – ١٩١٩): ثوري روسي، وشخصية اسطورية في الحرب الأهلية الروسية. قاتل في صفوف الجيش الأحمر، واصبح قائد فصيل (١٩١٨ – ١٩). جرح في رأسه اثناء احتلال اوفا وتمكن من تحرير أورالسك، وسقط اثناء إحدى هجمات الروس البيض على الاورال. كتب ديمتري فورمانوف رواية (بطلها تشاباييف) حاول فيها تبيان السيرورة الجدلية لتحول الانسان العادي الى بطل شعبي.

* **تشيتشيرين، غيورغي ف. Tchitcherine, G.V.** (١٨٧٢ – ١٩٣٦): احد كبار دبلوماسيي الدولة السوفياتية الفتية. موظف في وزارة الخارجية منذ ١٨٩٦. هاجر الى برلين (١٩٠٤) حيث انتسب الى حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي فرع برلين. طرد من بروسيا (١٩٠٧)، وانتخب اميناً للمنظمة في الخارج. كان مناصراً للمنشفيك، لكن قناعته بالاممية جعلته ينفصل عنهم ويعمل مع تروتسكي. بعد الثورة اقام في لندن وعمل على تنظيم عودة المهاجرين الثوريين الى روسيا. لدى عودته عين معاوناً لتروتسكي ومفوض الشعب للشؤون الخارجية. اقترن إسمه (حتى ١٩٢٧) بكل المبادرات الدبلوماسية. وقع معاهدة بريست ليتوفسك وترأس وفد بلاده الى جنوى ولوزان وهو الصانع لاتفاقات رابلو. ابتعد عن الصراعات الداخلية في الحزب.

* **توخاتشفسكي، ميخائيل ن. Toukhatchevski, M.N.** (١٨٩٣ – ١٩٣٧): عسكري وشيوعي روسي. انضم الى الحزب الشيوعي (١٩١٨) وساهم في تأسيس الجيش الأحمر وحقق انتصارات باهرة خاصة على جبهتي الشرق والجنوب. كان من انصار نقل الحرب الثورية الى خارج روسيا السوفياتية. قاد الجيش الأحمر اثناء حملته على بولونيا (١٩٢٠). رئيس الأكاديمية العسكرية ومساعد رئيس هيئة الاركان (١٩٢٢). رئيس هيئة اركان الجيش الأحمر (١٩٢٥ – ٢٨). مدير عمليات تسليح الجيش الأحمر ونائب رئيس المجلس العسكري (١٩٣١ – ٣٧). وعندما بدأ ستالين يتخلص من ابطال الحرب الأهلية، ألقي القبض على توخاتشفسكي، وأعدم مع ثمانية من زملائه. ثم قضي على كل افراد عائلته ما عدا احدى بناته. أعاد المؤتمر العشرون للحزب (١٩٥٦) اعتباره.

* **تومسكي، ميخائيل ب. Tomski, M.P.** (١٨٨٠ – ١٩٣٦): زعيم النقابات السوفياتية في العشرينات، واحدى الشخصيات البارزة الى جانب بوخارين وريكوف، ومن الجيل البلشفي القديم الذي صفاه ستالين. كرّس جهوده (منذ ١٩٠٥) لإنشاء النقابات. اعتقل (١٩٠٨) واستمر مسجوناً الى ان حررته الثورة (١٩١٧). رئيس النقابات (١٩١٧). عضو اللجنة المركزية (١٩١٩). عضو المكتب السياسي (١٩٢٢). كان احد أبرز مؤسسي الاممية النقابية الحمراء، وكان وراء إنشاء اللجنة النقابية الأنكلو – روسية (١٩٢٥). وصل الى السلطة بتحالفه مع ستالين خاصة وانه كان معارضاً لتروتسكي اثناء الازمة النقابية (١٩٢٠). عارض اساليب ستالين. فاصبح ابتداء من ١٩٢٨ العقبة الرئيسية الواجب القضاء عليها، بنظر ستالين، بسبب سيطرته على جهاز النقابات الضخم. أقصي في اوائل ١٩٢٩ عن المكتب السياسي. ورد اسمه اثناء محاكمات موسكو الأولى. لم ينتظر الحكم «المعروف» عليه فانتحر في ٢٣ آب ١٩٣٦.

* **جدانوف Jdanov** (١٨٩٦ – ١٩٤٨):

سياسي ومنظر بلشفي روسي. انتسب الى الحزب الشيوعي ١٩١٥. تدرج في الحزب حتى اصبح عضواً في سكرتاريته (١٩٣٤) وأحد المقربين من ستالين. عضو المكتب السياسي (١٩٣٩) والمتحدث الاول عن الامور النظرية والعقائدية. فرض قيوداً وقواعد متزمتة في ميادين الفن والأدب عرفت بالجدانوفية: وهي، الى حد كبير، الصورة، او الوجه الثقافي للستالينية. كان جدانوف يطلب من الفنانين ان يلعبوا دوراً تربوياً، وان يمتدحوا عمل السوفيات ومزاياهم الاخلاقية، إذ «ليس على الادب إلا ان يخدم الشعب، وتالياً، ان يخدم الحزب». فليس من مكان لغير الكتاب التقدميين. وعلى ذلك، اتخذت تدابير ضد الكثيرين من الكتاب. ولم تنحسر الجدانوفية التي اتخذت طابع الاضطهاد الفكري الا بعد موت ستالين (١٩٥٣). ففي ١٩٥٦ تراجعت الهيئات الرسمية عن هذه السياسة، واعيد الاعتبار للكتاب والفنانين الذين تعرضوا للاضطهاد والمنع.

* **جوكوف، غريغوري Jukov, G.** (١٨٩٦ –): قائد عسكري وسياسي سوفياتي. انضم الى الحزب الشيوعي (١٩١٩). لمع إسمه كأعظم القادة العسكريين السوفيات اثناء الحرب العالمية الثانية. ابرز معاركه معركة ستالينغراد، وقيادته للهجوم النهائي على برلين، وترؤسه الوفد الحليف الذي تلقى وثيقة استسلام المانيا. ابعده ستالين بعد نهاية الحرب، وعاد الى الظهور بعد وفاة هذا الأخير. عضو اللجنة المركزية للحزب (١٩٥٣). وزير دفاع (١٩٥٥). ساند خروتشوف في الصراعات الحزبية الداخلية. كتب مذكراته عن الحرب.

* **خروتشوف، نيكيتا س. Khrushchev, N.S.** (١٨٩٤ – ١٩٧١): زعيم شيوعي ورجل دولة سوفياتي. حكم الاتحاد السوفياتي من ١٩٥٣ الى ١٩٦٤، وتميز حكمه بالعداء الشديد للستالينية، وبارساء الدعائم الأولى لسياسة الانفراج الدولي والتعايش السلمي. انتسب الى الحزب الشيوعي (١٩١٨) وحارب في صفوف الحرس الأحمر اثناء الحرب الأهلية. عضو في مجلس السوفيات الأعلى (١٩٣٧). سكرتير اول للحزب في اوكرانيا. عضو في المكتب السياسي (١٩٣٩). شارك في تنظيم الانصار خلف الخطوط الألمانية، وساهم كمفوض سياسي في الجيش في الدفاع عن ستالينغراد. في ١٩٤٩ انتقل الى

نيكيتا خروتشوف

موسكو. بعد وفاة ستالين قرر اعضاء المجلس الرئاسي السبعة المجتمعون ان يتولى السلطة ثلاثة منهم: مولوتوف، مالينكوف وبيريا. طمع هذا الأخير في الأنفراد بالسلطة فاعتقل وأعدم. وجاء المؤتمر العشرون للحزب فأعلن خروتشوف فيه الحرب على الستالينية. وذلك في تلاوته للتقرير الذي اعده بصفته رئيساً للمؤتمر، في حين ان احداً لم يأت على ذكر ستالين. وقد أحدث هذا التقرير ضجة كبرى في العالم الشيوعي. فانتشرت نزعة التنديد بستالين والاشادة بخروتشوف. وفي السنوات التي تولى فيها خروتشوف زعامة الحزب والحكومة تفاقم النزاع السوفياتي – الصيني، وكان خروتشوف صاحب القرار بسحب الخبراء والفنيين السوفيات من الصين ووقف المساعدات الاقتصادية والفنية عنها (١٩٦١). اما معركته في مواجهة الولايات المتحدة فيما يعرف بازمة الصواريخ الكوبية (١٩٦٢)، فانها اتخذت طابعاً هدد بنشوب حرب عالمية، لأنها اوصلت الدولتين العظميين الى حافة الحرب. وإزاء بلدان العالم الثالث (خاصة البلدان العربية) انتهج سياسة انفتاح وتفهم وتأييد. فاتخذ موقفاً حاسماً من العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦)، وقدم المساعدة لتحقيق مشروع السد العالي في مصر فضلاً عن المشاركة في بناء مئات المشروعات الصناعية وكسر احتكار السلاح في المنطقة العربية (سوريا ومصر). وداخلياً، انجز خروتشوف إصلاح نظام التعليم، والبرنامج السوفياتي لغزو الفضاء الخارجي.

وفي عهده تم انشاء حلف وارسو (١٩٥٥)، وعقد اتفاقية الحظر الجزئي للتجارب النووية (١٩٦٣). في اواخر ١٩٦٤، بدأ يواجه نقداً واتهاماً من المكتب السياسي حول انه لا يقيم وزناً للمسؤولية الجماعية. فأصرّ المكتب على ان يصدر نقداً ذاتياً، فلم يفعل، وطلب منه سوسلوف ان يستقيل من جميع مناصبه ما عدا رئاسة الوزراء، فرفض كذلك. وفي ١٤ تشرين الأول ١٩٦٤ نحي خروتشوف عن مناصبه كافة. ويكاد يكون هناك اتفاق في الآراء حول ابرز اسباب تنحيته: – انفراده بالسلطة خلافاً لمبدأ القيادة الجماعية الذي أقر بعد وفاة ستالين في المؤتمر العشرين للحزب – فشل سياسته الزراعية – الاساءة الى هيبة الدولة إبان ازمة الصواريخ الكوبية – الاساءة الى هيبة منصبه الحزبي والحكومي بتصرفات افادت منها الدعايات الغربية (مثل خلعه الحذاء وهو جالس على رأس الوفد السوفياتي في دورة الجمعية العامة للامم المتحدة في ١٩٦٠ والدق به على المنصة) – تفاقم الخلافات وتبادل الاتهامات مع قيادة الحزب الشيوعي الصيني. اعتكف خروتشوف في دارة ريفية حتى وفاته في ١١ ايلول ١٩٧١. وقد ظهرت في العالم الغربي قبل وفاته سيرة حياة ذاتية له (١٩٧٠) بعنوان «خروتشوف يتذكر».

* **ديبنكو، بافل Dybenko, P.** (١٨٨٩ – ١٩٣٨): سياسي شيوعي وقائد عسكري سوفياتي. انضم الى البلاشفة (١٩١٢). شارك في الحرب الأهلية. نظم وقاد وحدات الانصار في اوكرانيا. انتسب الى الأكاديمية العسكرية (١٩٢٢). قائد منطقة آسيا الوسطى العسكرية (١٩٢٨). عضو اللجان المركزية للحزب في اوزبكستان وطاجكستان. اختفى إبان حملة التطهير التي شنها ستالين في صفوف الجيش الأحمر.

* **روكوفسكي، ق.ق. Rokowsky, C.C.** (١٨٩٦ –): مارشال سوفياتي. اشترك في الحرب العالمية الأولى، ثم انضم الى الثورة الاشتراكية وحارب اعداءها. قام في الحرب العالمية الثانية بدور كبير في الدفاع عن موسكو وحصار ستالينغراد، ثم في هزيمة ألمانيا. منح رتبة مارشال، ثم بطل الاتحاد السوفياتي.

* **ريازانوف (المعروف بـ غولدنباخ) Riazanov** (١٨٧٠ – ١٩٣٨): منظر وثوري ونقابي روسي وشيوعي. نظم الحركة النقابية في سان بترسبرغ اثناء ثورة ١٩٠٥. فرّ الى الخارج حيث امضى وقته في طبع ونشر النصوص الروسية لأعمال ماركس وإنغلز، وفي جمع وثائق الاممية الثالثة. وبعد الثورة (١٩١٧) عاد الى روسيا والتحق بالحزب البلشفي. اسس معهد دراسات ماركس وإنغلز واصبح مديراً له. تعتبر كتبه واعماله في الماركسية مرجعاً مهماً ورئيسياً.

* **زينوفييف، غريغوري Zinoviev, G.** (١٨٨٣ – ١٩٣٨): شيوعي سوفياتي. نشط في صفوف الحركة العمالية، وفر من البلاد (١٩٠٢) الى اوروبا الغربية حيث قابل لينين وبليخانوف. انضم الى البلشفيك، وعاد الى روسيا حيث شارك في ثورة ١٩٠٥. أصبح قيادياً بارزاً وتنقل مع لينين في اوروبا قبل الحرب العالمية الأولى. وفي ١٩١٧ عاد مع لينين في قطار خاص عبر سويسرا وألمانيا، الأمر الذي أدّى الى اتهامه، ولينين، بالضلوع مع ألمانيا. لم يقم بدور يذكر في الحرب الأهلية. وفي الصراع على خلافة لينين بين ستالين وتروتسكي، اخذ زينوفييف جانب ستالين على امل ان يكون هو الزعيم الفعلي. ولم تمض فترة طويلة حتى انقلب، ومعه كامينييف، على ستالين، واتجها للتحالف مع تروتسكي. لكنه لم يفلح، وفقد رئاسة الكومنترن لصالح بوخارين، وفصل عن المكتب السياسي للحزب (١٩٢٦)، وفصل، مع تروتسكي، من اللجنة المركزية (١٩٢٧). وفي ١٩٣٢، طردهما (زينوفييف وكامينيف) ستالين من الحزب، ثم اعادهما في السنة التالية بعد ممارستهما للنقد الذاتي التفصيلي. في ١٩٣٥، صدر حكم عليه بالسجن عشرة اعوام بتهمة مسؤوليته الادبية عن مقتل كيروف. وفي صيف ١٩٣٦، صدر حكم «محاكمات موسكو الاولى» باعدامه بتهمة اشتراكه في تأليف جماعة إرهابية محالفة للغستابو الألماني.

* **ساخاروف، اندريه Sakharov, A.** (١٩٢١ –): عالم ذرة وناشط سياسي تحرري سوفياتي. يلقب بـ «ابو القنبلة الهيدروجينية السوفياتية». درس الفيزياء في جامعة موسكو، واصبح (١٩٥٣) عضواً في أكاديمية العلوم السوفياتية وغيرها من الهيئات الأكاديمية العلمية. شارك مع إيغورتام، في تطوير السيطرة على الانفجار الذري وفي تطوير القنبلة الهيدروجينية السوفياتية. مارس نشاطاً سياسياً من خلال تأليف كتيب حول «الحرية الفكرية في الاتحاد السوفياتي والتعايش السلمي» (١٩٦٩)، ومن خلال تكوين لجنة حقوق الانسان

تروتسكي مغتالاً في منفاه في المكسيك، ٢٠ آب ١٩٤٠

نبش المقابر الجماعية
في العهد الستاليني

(١٩٧٠)، اضافة الى عدة مؤلفات سياسية، منها: «التقدم والتعايش السلمي والحرية الفكرية» (١٩٦٨)، و «ساخاروف يتكلم» و «بلدي والعالم» (١٩٧٥). اتهمه السوفيات، والشيوعيون، واصدقاؤهم في العالم، بأنه مسخّر للصهيونية العالمية والدعاية الاميركية (ربما من خلال زوجته اليهودية) للتشهير بالاتحاد السوفياتي والضغط عليه لتسهيل هجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل، فجردته السلطات السوفياتية من مناصبه الفخرية ومن اوسمته ونفته الى مدينة غوركي للحؤول بينه وبين اتصاله بوسائل الاعلام الغربية (١٩٨١). اما المؤسسات الغربية فتناولته، ونشاطاته، مادة إعلامية أولى في سياق البرهنة على مدى كبت الحريات داخل الاتحاد السوفياتي، واغدقت عليه الجوائز، فنال (١٩٧٣) جائزة اليانور روزفلت للسلام، وجائزة رينولد ينبوهر من جامعة شيكاغو (١٩٧٤)، وحصل على جائزة نوبل للسلام (١٩٧٥).

* **ستالين، جوزف Stalin, J.** (١٨٧٩ – ١٩٥٣): زعيم شيوعي بارز حكم الاتحاد السوفياتي حكماً مطلقاً من ١٩٢٨ الى ١٩٥٣. نشأ في ظل لينين واستلم قيادة الحزب والدولة من بعده، ففتك بمعارضيه، ودعم اسس الدولة السوفياتية وفق نظرية «الاشتراكية في بلد واحد»، وقاد بلاده نحو الانتصار في الحرب العالمية الثانية، وتقاسم مناطق النفوذ في العالم مع الولايات المتحدة الاميركية من خلال مؤتمر يالطا محولاً الاتحاد السوفياتي الى الدولة العظمى الثانية في العالم.

إسم ستالين إسم مستعار (لقب) يعني «الرجل الفولاذي»، اتخذه لنفسه وعرف به. اما اسمه الحقيقي: يوسف (جوزف) فيساريو نوفيتش دجوغاشيفيلي. ولد في مدينة غوري بجمهورية جورجيا، في اسرة فقيرة، إذ كان والده إسكافياً فقيراً وسكيراً، وكانت والدته متدينة تعمل منظفة للثياب، وكانت امنيتها ان يصبح ابنها كاهناً، فالحقته بمعهد تفليس الديني، وسرعان ما طرد منه (١٨٩٩) بسبب آرائه ونشاطاته الثورية. انضم الى «حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي»، وقاد، تحت إسم «كوبا»، الاضرابات والمظاهرات العمالية في القوقاز (القفقاس)، وشارك في نشاط «الألوية القتالية» التي استولت على بعض الاملاك لصالح الحزب. بعد انشقاق الحزب للمرة الأولى (١٩٠٣) بين المنشفيك والبلشفيك، اتخذ جانب البلشفيك واستمر عليه. تعرض للنفي مراراً، وكتب عدة مقالات لفتت اليه انتباه لينين. استمر منفياً في سيبيريا من ١٩١٣ الى ١٩١٧ (الثورة وسقوط النظام القيصري). عضو المكتب السياسي عشية هذه الثورة، شأنه شأن تروتسكي، رغم الفارق في الدور بينهما، دور انجاح الثورة، إذ كان تروتسكي يفوقه أهمية نظرية وممارسة. عين مفوضاً لشؤون القوميات وكلف بمهمات تنظيمية داخلية مكنته من بسط سيطرته على الجهاز الحزبي ومن الوصول الى منصب الامين العام للجنة المركزية (٣ نيسان ١٩٢٢). وتنبه لينين لهذا الخطأ في مركزية الصلاحيات المعطاة لستالين، لكن بعد فوات الأوان. فكتب في وصيته يقول: «إن الرفيق ستالين قد ركز في يديه قوة هائلة عندما أصبح اميناً عاماً. ولست متأكداً من انه يعرف كيف يستعمل هذه القوة بالحذر الكافي». وذهب لينين الى ابعد من ذلك في ملحق وصيته، فنصح «بازاحة ستالين عن هذا المنصب، وتعيين رجل مكانه». لكن ستالين نجح في ازاحة معارضيه عن طريقه، الواحد إثر الآخر، خصوصاً تروتسكي الذي كان ألمع رجال الثورة والحزب والسلطة فكراً وتنظيماً وممارسة بعد لينين مباشرة. فنفاه (١٩٢٩)، وارسل من يغتاله في المكسيك (١٩٤٠). اقام دكتاتورية لا تعرف حتى التلميح بالرأي المخالف. فنظم بين ١٩٣٤ و ١٩٣٨ سلسلة محاكمات شهيرة عرفت بمحاكمات موسكو كانت ذريعتها اغتيال معاونه كيروف، وشملت كل المعارضين، فأعدم الكاتب والاديب والسياسي والشيوعي... بتهم مختلفة. وعلى رأس هؤلاء القادة الذين سبق لهم وتعاونوا مع تروتسكي إبان الثورة (١٩١٧) وفي سنوات الحرب الأهلية اللاحقة، حتى ولو كانوا قد تبرأوا (كما فعل البعض) من تروتسكي ووقفوا الى جانبه (أي ستالين). اجرى سياسة تصنيع شاملة قائمة على التخطيط المركزي الصارم، وفرض نظام التعاونيات، وتمكن من تحديث البلاد في فترة وجيزة. ومع صعود النازية، سعى ستالين الى تأخير التصادم بها ما أمكن فوقّع حلف هتلر – ستالين الذي لم يدم اكثر من ٢٢ شهراً (٢٣ آب ٣٩ – ٢٢ حزيران ٤١). فمع الغزو الألماني لأجزاء واسعة من الاتحاد السوفياتي، استمر الانهيار في المواقع السوفياتية حتى معركتي ستالينغراد (شتاء ١٩٤٢) وكورسك (صيف ١٩٤٣) اللتين آذنتا ببداية سقوط النازية. شارك في مؤتمر طهران (١٩٤٣) الذي ضم الرئيس الاميركي روزفلت ورئيس الوزراء البريطاني تشرشل، وفي مؤتمر يالطا (١٩٤٥) الذي ضم الزعماء الثلاثة ليعيدوا رسم

خريطة العالم على ضوء انهيار النازية والفاشية والعسكرية اليابانية. وشارك في مؤتمر بوتسدام (٧ – ١٢ آب ١٩٤٥). وخرج الاتحاد السوفياتي بزعامة ستالين من الحرب قوة عسكرية عظمى رغم العشرين مليون قتيل سوفياتي، وامتدت شهرته، فلقب بـ «أبي الشعوب» و «مهندس الشيوعية». ومع بداية الحرب الباردة وخروج الرئيس اليوغوسلافي تيتو على السياسة الستالينية (١٩٤٧)، شن ستالين حملة تطهير دموية جديدة في صفوف الاحزاب الشيوعية في اوروبا الشرقية، كما اتخذ موقفاً مؤيداً من تقسيم فلسطين. وفي عهده، امتلك الاتحاد السوفياتي (١٩٤٩) قنبلته الذرية محطماً بذلك احتكار السلاح النووي، وفارضاً نوعاً من الاستقطاب الدولي الثنائي وتوازن الرعب النووي. توفي على فراشه وهو في قمة مجده، وبعيد قضائه على مؤامرة استهدفت حياته وقيل إن عدة اطباء يهود كانوا قد تورطوا فيها. وقد تبع ذلك حملة تطهير واسعة شملت العديد من الشيوعيين اليهود.

* **سفردلوف، ي. م. Sverdlov, Y.M.** (١٨٨٥ – ١٩١٩): سياسي وشيوعي سوفياتي وأحد ابرز بناة الحزب الشيوعي والدولة السوفياتية. كان تلميذاً وصديقاً وفياً للينين. انتسب الى الحزب الشيوعي (١٩٠١). تحول في ١٩٠٤ الى العمل السري. وفي ١٩٠٩ انتدبته اللجنة المركزية لمهمة تجديد منظمة الحزب في موسكو (بعد ان كان ينشط في الاورال). اشترك في إصدار جريدة «النجم»، وواحد من مديري جريدة البرافدا قبل الثورة. وبعدها انتخب عضواً في اللجنة المركزية للحزب. بذل جهوداً كبيرة لتدعيم السلطة السوفياتية في المركز والفروع وتأسيس الجهاز الجديد للدولة السوفياتية. وكان رئيساً للجنة المكلفة اعداد اول دستور لجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفياتية. وكان صاحب الفكرة في إنشاء مدرسة للدعاة والموجهين في اللجنة المركزية التنفيذية لعموم روسيا (تموز ١٩١٨)، وقد تحولت المدرسة في ما بعد الى جامعة شيوعية وحملت اسم جامعة سفردلوف.

* **سوسلوف، ميخائيل Soslov, M.** (١٩٠٢ – ١٩٨٢) : سياسي ومنظر سوفياتي شيوعي. انضم الى الحزب (١٩٢١). شارك في حملات التصفية الستالينية، وفي قيادة الحرب ضد ألمانيا. ادان يوغوسلافيا بالانحراف عن الخط الشيوعي. رئيس تحرير البرافدا (١٩٤٩ – ٥٠). عضو مجلس السوفيات الأعلى. عضو في رئاسة اللجنة المركزية للحزب (١٩٥٥)، وأمين عام الحزب حيث ادان الزعامة الصينية (١٩٦٤). تصفه المدارس الغربية السياسية بأنه «حارس العقيدة الشيوعية» و «صانع الرؤساء».

* **سوكولنيكوف، غريغوري إ. Sokolnikov, G.** (١٨٨٨ – ١٩٣٩): شيوعي وأحد مؤسسي الاقتصاد السوفياتي. شارك في ثورة ١٩٠٥. اعتقل وهرب واستقر في باريس. عاد الى موسكو مع لينين، والتحق بالحزب البلشفي في نيسان ١٩١٧. شارك ستالين في تحرير جريدة البرافدا. دافع عن سياسة تروتسكي العسكرية. نظم السلطة السوفياتية في تركمنستان بعد الحرب الأهلية. عضو المكتب السياسي (١٩٢٤). مندوب مطلق الصلاحية لدى بريطانيا (١٩٢٩ – ٣٤). اعتقل في ١٩٣٧ وبسياق محاكمات موسكو الثانية والمعروفة بمحاكمة الـ ١٧ التي حكم فيها بالاعدام على جميع المتهمين ما عدا ثلاثة، منهم سوكولنيكوف. لكنه ما لبث ان مات في ظروف غامضة.

* **سولجنيتسين، ألكسندر Soljenitsyne, A.** (١٩١٨ –): كاتب سوفياتي اعتبره الحزب الشيوعي السوفياتي والسلطة «منشقاً». ضابط مدفعية في الحرب ونال أكثر من وسام لشجاعته في القتال. حكم عليه بالسجن (١٩٤٥ – ٥٣)، ونفي الى سيبيريا (١٩٥٣ – ٥٦)، واعيد اليه الاعتبار (١٩٥٧). سجّل تجربته المرة أثناء سجنه في العهد الستاليني في أكثر من رواية. طرد من اتحاد الكتاب السوفيات (١٩٦٩)، فردت السلطات الادبية الغربية بمنحه جائزة نوبل للآداب (١٩٧٠). طرد من الاتحاد السوفياتي (١٩٧٤) فاستقر في ولاية كاليفورنيا الاميركية. كان لاقبال وسائل الاعلام الغربية على كتابته، لأسباب دعائية سياسية في الغالب، أثره في تكاثر أعماله المنشورة وتنوعها ومنحه العديد من الجوائز والألقاب الفخرية. له «يوم في حياة إيفان دنيزوفيتش» و «آب ١٩١٤»، و «ارخبيل غولاق».

* **شيفاردنادزه، ادوارد**: راجع: جورجيا.

* **عبد الرزاقوف** (١٩١٥ –): سياسي تتري سوفياتي. إسمه الكامل عبد الحق توفيتش عبد الرزاق. درس العلوم الزراعية ومارس الطب البيطري (١٩٣٨ – ٤٣). انضم الى الحزب الشيوعي، فوصل الى منصب

مستشار في اللجنة المركزية للحزب. اصبح (١٩٥٩) رئيساً للوزراء في جمهورية تتار الاشتراكية السوفياتية.

* **عليف، حيدر Aliev, Gueidar** (١٩٢٣): سياسي سوفياتي، من مقاطعة ناخيتشيفان في جمهورية أذربيجان. مسلم ومن عائلة متدينة إذ كان والده رجل الدين. في تموز ١٩٩٣، (بعد زوال الاتحاد السوفياتي) أصبح رئيساً لجمهورية أذربيجان خلفاً للرئيس الفضل ألتشي بيه (راجع أذربيجان).

* **غروميكو، أندريه أ. Gromyko, A.A.** (١٩٠٩ – ١٩٨٩): شيوعي ورجل دولة سوفياتي. شغل منصب وزير الخارجية لأكثر من ربع قرن قبل أن تُتوج حياته السياسية بتبؤ منصب رئيس مجلس السوفيات الاعلى (١٩٨٥).

ولد في بيلوروسيا (روسيا البيضاء) من ابوين كانا يعملان في الزراعة. درس الاقتصاد والهندسة الزراعية، وانضم خلال دراسته الى الحزب الشيوعي. قام بابحاث حول التصنيع الزراعي في الولايات المتحدة. في ١٩٣٩ التحق بوزارة الخارجية، فتولى قسم أميركا، ثم مستشار اول في السفارة السوفياتية في الولايات المتحدة. وفي ١٩٤١، اصبح قائماً بالأعمال، فسفيراً (١٩٤٣) شارك في تحضير مؤتمرات طهران ويالطا وبوتسدام بين الحلفاء. وفي ١٩٤٦، اصبح مندوب بلاده في الامم المتحدة، بعد ان كان قد ترأس الوفد السوفياتي الى المؤتمر التأسيسي للمنظمة المنعقد في سان فرنسيسكو. ومن خلال موقعه هذا شارك في اتخاذ قرار تقسيم فلسطين (١٩٤٧). وفي ١٩٤٩، عاد الى موسكو ليشغل منصب نائب وزير الخارجية. وفي ١٩٥٢، عين سفيراً لدى المملكة المتحدة (انكلترا، بريطانيا)، لكنه سرعان ما استعاد منصبه في وزارة الخارجية بعيد وفاة ستالين. وفي ١٩٥٦ اصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وفي العام التالي عينه خروتشوف وزيراً للخارجية بعد ان نجح في التخلص من مولوتوف وجماعته. وبقي في هذا المنصب طيلة عهود بريجينيف واندروبوف وتشيرنينكو واوائل عهد غورباتشوف. وفي ١٩٧٣ انتخب عضواً في المكتب السياسي للحزب.وبعد تولي اندروبوف السلطة، اصبح في اوائل ١٩٨٣ نائب رئيس الوزراء.

تميز غروميكو طيلة وجوده على رأس وزارة الخارجية بسعيه الى ابقاء قنوات الحوار مفتوحة مع الولايات المتحدة. وتنسب اليه قناعته بضرورة ادارة شؤون العالم بشكل مشترك بين واشنطن وموسكو. وقد عاصر غروميكو في منصبه سبعة رؤساء اميركيين، بالاضافة الى روزفلت الذي كان قد عرفه خلال وجوده في الولايات المتحدة. ويعتبر غروميكو من اشد خصوم السياسة الصينية وكان له اسهام كبير في اقامة التحالف السوفياتي – الهندي الهادف الى احتواء «الخطر الصيني». وبالاضافة الى مسؤوليته في ادارة السياسة الخارجية، اصبح غروميكو في نهاية عهد بريجينيف من اصحاب الحل والربط في الاتحاد السوفياتي. وقد توجت سيرته في العام ١٩٨٥ بأن أصبح، بتأييد من غورباتشوف، رئيساً لمجلس السوفيات الأعلى (أي رئيساً للدولة).

* **غريتشكو، أندريه أ. Gretchko, A.A.** (١٩٠٣ – ١٩٧٦): شيوعي وسياسي وعسكري سوفياتي. ولد في عائلة فلاحية. انخرط في الجيش الأحمر، وأصبح عضواً في الحزب الشيوعي منذ ١٩٢٨. اشترك في قيادة المعارك ضد المانيا النازية، فقاتل في خاركوف في القوقاز وفي اوكرانيا، وفي تشيكوسلوفاكيا حيث كان على رأس الحملة العسكرية التي حررتها من الألمان. عينه خروتشوف قائداً للقوات السوفياتية في المانيا الديمقراطية حيث ادار عملية قمع الانتفاضة العمالية في برلين الشرقية وبعض المدن الألمانية (١٩٥٣). وفي ١٩٥٥، رقي الى رتبة مارشال واصبح قائداً اعلى للقوات البرية السوفياتية، ونائباً لوزير الدفاع. وفي ١٩٥٦، منح لقب بطل الاتحاد السوفياتي. وما بين ١٩٦٠ و ١٩٦٧، شغل غريتشكو، في آن، منصبي نائب وزير الدفاع السوفياتي وقائد قوات حلف وارسو. وفي ١٩٦٧، خلف المارشال مالينوفسكي كوزير للدفاع وظل في هذا المنصب حتى آخر ايامه.

شارك بنشاط في القضاء على ما سمي «ربيع براغ» (١٩٦٨) في تشيكوسلوفاكيا وفي اعادة ترتيب الاوضاع في هذا البلد. وفي نيسان ١٩٧٣، انتخب عضواً اصيلاً في المكتب السياسي للحزب من دون ان ينتخب اولاً، وكما درجت العادة، عضواً بديلاً. وكان بذلك اول عسكري يتولى الجمع بين منصبي وزير الدفاع وعضو المكتب السياسي في آن، باستثناء جوكوف الذي شغل المنصبين لفترة قصيرة.

* **غورباتشوف، ميخائيل س. Gorbatchev, M.S.** (١٩٣١ –   ): عضو الحزب الشيوعي

السوفياتي منذ ١٩٥٢. في ١٩٥٥، انهى دراسة القانون في جامعة لومونوسوف في موسكو. وفي ١٩٦٧، نال دبلوم زراعي – اقتصادي من معهد الزراعة في ستافروبول. بين ١٩٤٦ و١٩٥٠، عمل كمساعد ميكانيكي. منذ ١٩٥٥، ناضل في صفوف الشبيبة الشيوعية (كوموسمول) وفي الحزب. استمر يتدرج في مسؤولياته الحزبية الى ان اصبح، في آذار ١٩٨٥، سكرتير اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي السوفياتي. نائب في مجلس السوفيات الاعلى في الدورات الانتخابية الثامنة حتى الحادية عشر. عضو البريزيديوم الاعلى منذ ١٩٨٥، فأمين عام الحزب ورئيس الدولة. وكان قبل ذلك، بعد وفاة بريجينيف، من الذين ارتكز عليهم اندروبوف في جهوده الاصلاحية في وجه الرعيل القديم.

اطلق البيريسترويكا (إعادة البناء)، وهي حركة إصلاحية، ودافع عنها حتى النهاية سواء في الداخل او في الخارج (انفتاح على الغرب وسط تهليل كل الاوساط الغربية له ولمبادراته خاصة من الدوائر الغربية الحاكمة ومن الصحافة). تعرض لانقلاب فاشل عليه من الشيوعيين التقليديين. وبعد وقت قصير، أعلن ورئيس روسيا الفدرالية، بوريس يلتسن (في ١٧ كانون الاول ١٩٩١) حل الاتحاد السوفياتي.

غادر روسيا (إذ لم يعد هناك «اتحاد سوفياتي»)، واخذ يتنقل في العواصم الغربية (وزار اسرائيل) التي هللت وأسبغت عليه الالقاب والميداليات والهدايا وعينته محاضراً في السياسة والفكر السياسي في جامعاتها وكاتباً في صحفها. وآخر مهمة له في الغرب تسميته رئيساً «للصليب الأخضر الدولي» الذي اعلن الصليب الأحمر الدولي من جنيف انه تأسس بشكل رسمي في ٢٠ نيسان ١٩٩٣، وانه منظمة عالمية للتدخل في حال الكوارث البيئوية، وان رئيس الاتحاد السوفياتي السابق ميخائيل غورباتشوف هو اول رئيس له. وتهدف المنظمة الجديدة الى اقامة مراكز إغاثة وإرسال فرق للتدخل السريع (القبعات الخضر) في حال حدوث كوارث بيئية واختيرت جنيف مقراً لها.

* **فرونزي، ميخائيل ف.** **Frunze, M.V.** (١٨٨٥ – ١٩٢٥): قائد عسكري بلشفي وعضو بارز في الحزب الشيوعي السوفياتي. اشترك في ثورة ١٩٠٥، واصدر القضاء القيصري بحقه حكم الاعدام مرتين. اول من نظم وحدة عسكرية للحرس الأحمر في روسيا البيضاء (بيلوروسيا) التي اشتركت في ثورة أكتوبر ١٩١٧، وفي اثناء الحرب الاهلية والاجتياح الاجنبي للبلاد كان فرونزي احد القادة الكبار للحرس الاحمر. اصبح رئيس اركان الجيش الاحمر وقائد الكلية الحربية التي حملت إسمه.

* **فوروشيلوف، ك.ب.** **Vorochilov, K.B.** (١٨٨١ – ١٩٦٩): عسكري ورجل دولة سوفياتي. نال شهرة واسعة بعد توليه قيادة الجيش الاحمر إبان الحرب الأهلية الروسية واصبح مارشالاً، ثم وزيراً للدفاع ١٩٢٥ – ١٩٤٠، وقائداً للقوات السوفياتية المدافعة عن لينينغراد اثناء الحرب العالمية الثانية. أصبح رئيساً للدولة ١٩٥٣، عقب وفاة ستالين وحتى ١٩٦٠.

* **فيشينسكي، أ. إ.** **Vychinsky, A.I.** (١٨٨٣ – ١٩٥٤): سياسي سوفياتي من ابرز وجوه الحرب الباردة. في ١٩٢٠ التحق بالحزب الشيوعي، فترقى بسرعة بفضل تحالفه غير المشروط مع ستالين. مدعي عام الاتحاد السوفياتي ابتداء من ١٩٣٥، فادار «محاكمات موسكو» الشهيرة والرهيبة، وهو الذي أسس، نظرياً، القانون القمعي السوفياتي. نائب رئيس مجلس الوزراء ١٩٥٣ – ١٩٥٤. وزير الخارجية منذ ١٩٤٩، واصبح ممثل الاتحاد السوفياتي لدى الامم المتحدة، وكان بهذه الصفة من ابرز رموز مرحلة الحرب الباردة بين الجبارين.

* **كاغانوفيتش، لازار م.** **Kaganovitch, L.M.** (١٨٩٣ –): شيوعي وسياسي سوفياتي، من ابرز رموز المرحلة الستالينية ومن اكثر اعضاء القيادة السوفياتية تفانياً في خدمة ستالين. تحدر من عائلة يهودية فقيرة. التحق بالبلشفية في ١٩١١. سكرتير اول للحزب الشيوعي في اوكرانيا حيث قاد تصفية المعارضة، ولعب دوراً ملحوظاً في حملة التطهيرات الستالينية في الثلاثينات ضد كبار الشيوعيين الذين عاصروا لينين والثورة. عضو اصيل في المكتب السياسي من ١٩٣٠ الى ١٩٥٧، حيث ساهم في صعود خروتشوف الى السلطة. تعرض لانتقاد المؤتمر الثاني والعشرين للحزب.

* **كالينن، ميخائيل إ.** **Kalinin, M.I.** (١٨٧٥ – ١٩٤٦): احد العقول البارزة في التخطيط الثوري السوفياتي. نشأ في اسرة فلاحية فقيرة. انضم الى حركة

الديمقراطيين الاشتراكيين (١٨٩٨). ظهرت مواهبه في التخطيط الثوري، فنفي الى سيبيريا، وبعد ثورة اكتوبر، عاد ليتولى رئاسة مجلس البريزيديوم من ١٩٢٢ الى وفاته في ١٩٤٦.

* **كامنيف، ليف ب Kamenev, L.B.** (١٨٨٣ – ١٩٣٦): زعيم شيوعي، واحد اعضاء الحكومة الثلاثية التي تألفت، بالاضافة اليه، من ستالين وزينوفيف، وتولت الحكم بعد وفاة لينين (١٩٢٤). إسمه الحقيقي روزنفلد. يمت بقرابة لتروتسكي (عديله) الذي انضم اليه في معارضة ستالين. فطرد من الحزب، ثم اعدم (١٩٣٦).

* **كروبسكايا، نادجا ك. Kroupskaia, N.K.** (١٨٦٩ – ١٩٣٩): شيوعية وزوجة لينين. شاركته حياته. بعد ثورة اكتوبر كرست معظم جهودها للمسائل التربوية. حافظت، بعد وفاة لينين على شعبيتها الكبيرة وعلى قدر من النفوذ السياسي. توفيت في موسكو.

* **كورنيلوف، لافرغ. Kornilov, L.G.** (١٨٧٠ – ١٩١٨): عسكري روسي من مناوئي الثورة البلشفية. عينه كيرينسكي، رئيس الحكومة الموقتة، قائداً للجيش (١٩١٧)، فحاول اطاحة الحكومة وفشل لرفض الجنود اطاعة اوامره، فسجن. فاستطاع الهرب، واستلم قيادة الجيش الأبيض في الدون. هزمه الجيش الاحمر، وقتل في احدى المعارك (١٩١٨). عرف عنه إقدامه والمهارة العسكرية، لكنه كان سياسياً فاشلاً، حتى قيل فيه «قلب اسد وراس خروف».

* **كوزنتسوف، فاسيلي Kouznetsov, V.** (١٩٠١ –): شيوعي وسياسي ودبلوماسي سوفياتي. نائب اول لرئيس الدولة السوفياتية، وهو منصب جديد استحدث في الدستور السوفياتي (١٩٧٧). مهندس معاون تحول الى دبلوماسي لامع. احد اعضاء الوفد السوفياتي في المؤتمر التأسيسي الذي عقد في سان فرنسيسكو لانشاء الأمم المتحدة. نائب اول لوزير الخارجية في ١٩٥٨. وبين ١٩٦٠ و١٩٦٢، رأس الوفد السوفياتي الى مؤتمر باريس حول ازمة الصواريخ الكوبية. كما استمر في رئاسة الوفد السوفياتي في محادثات الحد من الاسلحة النووية في جنيف حتى تشرين الاول ١٩٧٧. أصبح خليفة محتمل لبريجنيف. بعد وفاة الأخير استلم كوزنتسوف رئاسة البريزيديوم الاعلى مؤقتاً، قبل ان يعود الى منصبه كعضو مرشح الى المكتب السياسي (١٩٨٦) مع انتخاب اندروبوف على رأس الدولة والحزب.

* **كوسيغين، ألكسي Kossyguine, A.** (١٩٠٤ – ١٩٨٠): شيوعي وزعيم سياسي ورجل دولة سوفياتي ترأس حكومة الاتحاد السوفياتي من ١٩٦٤ الى ١٩٨٠. التحق بالجيش الاحمر. في ١٩٣٩ اصبح مفوضاً (أي وزيراً) للصناعة النسيجية، ولم يغادر مسؤولياته الحكومية منذ ذلك التاريخ؛ وفي الوقت نفسه، كان يرتقي في سلم المسؤوليات الحزبية. في ١٩٥٧، أيد مشاريع خروتشوف حول اللامركزية الاقتصادية. دافع عن خطط رفع مستوى معيشة المواطن السوفياتي، ومنح الاولوية للصناعات الخفيفة. قام بدور الوسيط في الحرب الهندية – الباكستانية. والتقى مرات رئيس الحكومة الصينية لايجاد حل للنزاع الصيني – السوفياتي. قال عنه الجنرال ديغول بعد زيارته لموسكو (١٩٦٦): «إنه أذكى رجل دولة في الجانب السوفياتي».

* **كولاكوف، فيودور Koulakov, F.** (١٩١٨ – ١٩٧٨): شيوعي ورجل دولة سوفياتي. بين ١٩٣٨ و١٩٥٠، تدرج في الحزب الى ان أصبح رئيساً لمجلس السوفيات في منطقة بانزا. وفي ١٩٥٥، نائب وزير الزراعة في الاتحاد السوفياتي. عضو اللجنة المركزية في ١٩٦١، ثم عضو المكتب السياسي. حامل وسام لينين ثلاث مرات. احد ابرز زعماء الاتحاد السوفياتي، وخليفة منتظر لبريجينيف لولا وفاته نتيجة مرض في القلب.

* **كولتشاك، ألكسندر Koltchak, A.** (١٨٧٤ – ١٩٢٠): عسكري روسي، ومن ابرز قادة الثورة المضادة للثورة البلشفية. يتحدر من عائلة نبيلة صغيرة من اوكرانيا ومن اصل تركي. قائد الاسطول البحري الروسي (١٩١٦). بعد نجاح الثورة البلشفية، عرض خدماته على بريطانيا وطلب الالتحاق بجيشها بصفة جندي عادي، فعرضت عليه بريطانيا الذهاب الى الصين وتأليف جيش هناك. ولدى انتفاضة التشيكوسلوفاكيين ضد السلطة السوفياتية، وصل كولتشاك الى «أومسك» مركز حكومة سيبيرياالغربية، حيث تمكن من الامساك في قرار الحكومة هناك، واصبح جيشه الجبهة الأساسية في الحرب الأهلية.

عرف عنه شجاعته النادرة، لكن في الوقت نفسه فشله السياسي والدبلوماسي، ما افقده دعم الجميع، بمن فيهم حلفاؤه الانكليز والاميركيين والفرنسيين. هزم أمام الجيش الأحمر على جبهة الاورال. هرب الى الخارج، فاعتقله التشيكيون وسلموه الى السلطات السوفياتية التي اعدمته في ٦ شباط ١٩٢٠.

* **كولونتاي، الكسندرا م. Kollontai, A.M.** (١٨٧٢ - ١٩٥٢): شيوعية ودبلوماسية سوفياتية. من عائلة ارستقراطية. انضمت الى البلشفيك في ١٩١٧. دخلت، احياناً كثيرة، في صراع مع قادة الحزب بتبنيها دعاوى «المعارضة العمالية». سفيرة في النروج (١٩٢٢)، وفي المكسيك (١٩٢٧)، وفي السويد (١٩٣٠ - ١٩٤٥).

* **كونييف، إيفان س. Koniev, I.S.** (١٨٩٧ - ١٩٧٣): شيوعي وعسكري وسياسي سوفياتي، وصل الى رتبة مارشال وكان احد أكبر الزعماء العسكريين في الحرب العالمية الثانية. التحق بالجيش الأحمر. بدأ نجمه بالصعود بعد حملة التطهير الستالينية. قائد الجبهة الغربية (١٩٤١ - ٤٢)، فاسترجع جيشه مدن أوكرانيا. في ١٩٤٤ أصبح مارشال الاتحاد السوفياتي. شارك بالاستيلاء على برلين ودرسد وبراغ. بعد الحرب، مثل الاتحاد السوفياتي في لجنة المراقبة للدول الحليفة. في ١٩٤٦ حل محل جوكوف كقائد للجيوش البرية، وفي ١٩٥٠ عين مفتشاً اعلى للجيش السوفياتي. وترأس في ١٩٥٣، المحكمة التي انزلت عقوبة الموت بـ«بيريا». في ١٩٥٥، القائد الاعلى لقوات حلف وارسو، ولكنه اختفى من مسرح الاحداث بسبب سياسة خروتشوف المعادية للستالينية، ليعود ويظهر قائداً اعلى للقوات السوفياتية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، اثر ازمة برلين ١٩٦١.

* **كيرنسكي، الكسندر ف. Kerensky, A.F.** (١٨٨١ - ١٩٧٠): سياسي روسي اشتراكي ورئيس حكومة. انضم الى الحزب الاشتراكي وانتخب عضواً في «الدوما» (البرلمان ايام القيصر) في ١٩١٢. وزير العدل في اول حكومة بعد اطاحة القيصر، ودخل في صراع مع وزير الخارجية، ميلوكوف، بسبب عدائه لسياسة الفتوحات العسكرية. في ايار ١٩١٧، وزير الحربية فبذل جهوداً يائسة لرفع معنويات الجيش الروسي. وبناء على مبادرة منه قامت الجيوش الروسية بهجوم اخير في غاليسيا عرف بـ «هجوم كيرنسكي»، وكان فاشلاً. وعلى اثر هذه الهزيمة وقعت اضطرابات تموز ١٩١٧ (قبل شهرين من ثورة البلشفيك)، فحل كيرنسكي محل الامير ليفوف على رأس الحكومة، ورحب به الرأي العام الغربي، الذي رأى فيه قائداً حازماً وقادراً على ابقاء روسيا داخل دائرة الحرب. لكن، بغية التصدي لضغوط البلاشفة المتعاظمة، اضطر كيرنسكي الى الاعتماد على عناصر مضادة للثورة داخل الجيش. فحاولت هذه العناصر، بقيادة الجنرال كورنيلوف، اسقاطه. فما كان منه الا ان سعى للتقارب من البلاشفة للتغلب على كورنيلوف وانصاره. خطط لعقد جمعية تأسيسية، بيد ان لينين استبق خطوته بقراره تفجير ثورة اكتوبر. بذل كيرنسكي المستحيل لاستعادة العاصمة (بتروغراد) من يد الثوار البلاشفة مستعيناً بقوات الجنرال كراسنوف. غير انه فشل واضطر الى الهرب (تشرين الاول ١٩١٧). التجأ الى الولايات المتحدة حيث نشر عدداً من المقالات والمؤلفات حول السياسة الروسية.

* **كيروف، سيرج Kirov, S.** (١٨٨٦ - ١٩٣٤): شيوعي وسياسي سوفياتي بارز ومن المقربين الى ستالين، وقد كان يعتبر خليفته في زعامة الحزب والدولة. يتحدر من عائلة فلاحية. انضم الى الحزب في ١٩٠٤، واصبح (١٩٢١) سكرتير اللجنة المركزية لأذربيجان وعضو اللجنة المركزية للحزب في روسيا. وفي ١٩٣٠، عضو دائم في القيادة العليا. وقف مع ستالين ضد تروتسكي إثر الخلافات الداخلية بعد وفاة لينين. في اول كانون الاول ١٩٣٤، ولدى دخوله الى مكتبه، اطلق شاب عليه النار وأرداه. فكانت مناسبة امام ستالين للقيام بحملات التطهير والتصفية الشهيرة ضد خصومه في الفترة ١٩٣٥ - ١٩٣٨.

* **كيريلنكو، أ. Kirilinko, A.** (١٩٠٦ -): عضو المكتب السياسي للحزب، وعضو سكرتارية اللجنة المركزية. انتسب للحزب في ١٩٣١، وعرف كأحد اعوان خروتشوف. عضو اللجنة المركزية (١٩٥٦)، والمكتب السياسي (١٩٦٦). زار لبنان (١٩٧٥) في نطاق محاولة الاتحاد السوفياتي الاطلاع عن كثب على الاوضاع السياسية في لبنان. طرح إسمه كخليفة محتمل لبريجنيف. لكنه فقد، بعد موت سوسلوف (كانون الثاني ١٩٨٢)، كل امل في الخلافة لمصلحة اندروبوف وتشيرنينكو اللذين اتفقا على استبعاده رغم صراعهما على الخلافة. ابعد عن

المكتب السياسي في ١٩٨٢.

* **لو ناتشرسكي، أناتول ف. Lou Natcharski, A.V.** (١٨٧٥ – ١٩٣٣): اديب وصحافي وشيوعي وسياسي سوفياتي. انتسب الى البلشفيك بتأثير من صهره بوغدانوف. اعتقل ونفي ثم هاجر الى سويسرا حيث شارك في تحرير المطبوعات، وعاد الى روسيا للمشاركة في ثورة ١٩٠٥. اعتقل في ١٩١٥، وافرج عنه بعد نجاح ثورة اكتوبر، فعين مفوض الشعب لشؤون التربية، واسس مع بوغدانوف حركة «برليتلكولت» (الثقافة البروليتارية)، وهي حركة ادبية كان هدفها خلق فن بروليتاري سهل النفاذ الى الشعب. وعند قيام الحرب الأهلية، ارسل الى عدة جبهات لكي يقوم بالتحريض الايديولوجي والسياسي لأنه كان يعتبر من اكثر الخطباء البلشفيين شعبية. كان من انصار التعددية في الفن والمنافسة بين الاتجاهات الادبية، ورفض اشراف الحزب الكامل على الحياة الادبية، ما عرّضه لانتقادات لينين الشديدة. وبمقدار ما كان من ألمع المحركين الايديولوجيين بمقدار ما كان فاشلاً في المهام الادارية. فاضطر بعد تسلم ستالين مقاليد الامور الى الانكفاء على نفسه ولم يحتفظ من الاشراف على السياسة التربوية الا بالاسم.

* **ليتفينوف، مكسيم م. Litvinov, M.M.** (١٨٧٦ – ١٩٥١): شيوعي ودبلوماسي ورجل دولة سوفياتي. بعد ثورة أكتوبر شغل عدداً من المناصب الدبلوماسية، وانتهج سياسة الميل نحو الغرب ومعارضة دولتي المحور، المانيا وايطاليا. نجح، منذ اواخر ١٩٣٣، في انتزاع اعتراف الولايات المتحدة بالنظام السوفياتي، ووقع مع رئيس الحكومة الفرنسية، بيار لافال، على ميثاق تعاون مشترك (١٩٣٥). لكن سياسة المهادنة الغربية لهتلر (اتفاقيات ميونخ ١٩٣٨) وجّهت ضربة قاضية لسياسة ليتفينوف الخارجية. فخلفه مولوتوف على رأس الدبلوماسية السوفياتية (١٩٣٩). ومع دخول الاتحاد السوفياتي الحرب ضد المانيا، عين سفيراً في واشنطن (١٩٤١) فتولى المفاوضات بشأن معاهدة التعاون بين البلدين (١٩٤٢). خلفه غروميكو (١٩٤٣) كسفير في واشنطن؛ غير انه احتفظ، حتى وفاته، بمنصب نائب مفوض الشعب للشؤون الخارجية.

* **ليغاتشيف، إيغور Ligatchev, Egor** (١٩٢٠ –): شيوعي ورجل دولة سوفياتي، اصبح عضواً في المكتب السياسي للحزب في ١٩٨٥. انضم الى الحزب في ١٩٤٤. كان صعوده في الهرمية الحزبية بطيئاً نسبياً. مع تسلم اندروبوف زمام الامور، بدأ نجم ليغاتشيف يتألق باطراد. وفي عهد غورباتشوف الذي كان قد حظي بدوره برعاية اندروبوف وحمايته، اصبح ليغاتشيف عضواً في المكتب السياسي للحزب وهو مركز القرار الفعلي في الاتحاد السوفياتي.

* **لينين، فلاديمير إليتش Lenine, V.I.** (١٨٧٠ – ١٩٢٤): قائد الثورة البلشفية الشيوعية السوفياتية (ثورة اكتوبر)، النظري والعملي، ومؤسس دولة الاتحاد السوفياتي. اضاف الى النظرية الماركسية دراسات حول الاحتكار والاستعمار، والحزب، والقومية، والتحالف بين العمال والفلاحين، والثورة الثقافية، والديمقراطية المباشرة... حتى اصبحت النظرية الماركسية من بعده تسمى «النظرية الماركسية اللينينية».

جاء في «موسوعة السياسة» الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (ج٥، ص ٦٠٣ – ٦٠٦):

«ولد فلاديمير إليتش اوليانوف لينين بمدينة سيميرسلك في روسيا لأب كان يعمل مفتشاً على المدارس الابتدائية، وامضى طفولة عادية بالنسبة الى طفل من الطبقة المتوسطة، وكان مسلكه، في ما يبدو، مسلك تلميذ دؤوب مجتهد طيّع (وإن كان المصدر السوفياتي عن تاريخ حياته يصوره تلميذاً شديد التصلب والاعتداد برأيه). ومن العام ١٨٨٧، التحق بجامعة قازان لدراسة القانون. ولقد قيل إنه تحول الى ثوري بعد إعدام شقيقه الأكبر البالغ من العمر ١٩ عاماً بتهمة الاشتراك في مؤامرة لاغتيال القيصر، ولا يُشك في انه اعتنق بعض افكار شقيقه قبل ذلك. وقد طرد من جامعة قازان بسبب نشاطه الثوري بين الطلاب، ولكنه تمكن من إكمال دراسته في جامعة اخرى انتسب اليها العام ١٨٩١ هي جامعة بطرسبورغ (لينينغراد في العهد السوفياتي). انضم الى منتدى ماركسي ودرس كتاب «رأس المال» لماركس. وعندما نقل الى جامعة سامارا ووضع تحت المراقبة، نظم هناك جماعة للدراسات الماركسية، وفي النهاية حصل على دراسته الجامعية بالمراسلة من جامعة سانت بطرسبورغ التي عاد وانتقل اليها ليعمل ضمن صفوف حركة بروليتارية ثورية وليؤلف اول كتبه «من هم اصدقاء الشعب؟» في العام ١٨٩٤ والذي فنّد فيه الافكار الاقتصادية والفلسفية للجماعات

نصب لنين في حديقة الكرملين

لينين يتكلم في
مؤتمر السوفيات
الثاني

الثورية التي كانت سائدة آنذاك. تمكن في ١٨٩٥ من توحيد عدة مجموعات ماركسية تحت لواء «عصبة النضال من اجل تحرير الطبقة العاملة»، وهي التنظيم الذي يعتبر البداية الحقيقية للحزب الشيوعي الروسي. وتكرر اعتقاله والافراج عنه، ثم نفي الى سيبيريا (١٨٩٧) حيث استمر في التخطيط للثورة وكتب كتابه «تطور الرأسمالية في روسيا» (١٨٩٩). ونظراً لوجوده تحت رقابة البوليس، لم يستطع ان يحضر الاجتماع التأسيسي للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي في مدينة منسك (١٨٩٩).

بعد الافراج عنه (١٩٠٠)، ذهب الى سويسرا حيث التقى بليخانوف وغيره من الثوريين المنفيين وعمل معهم؛ ثم الى انكلترا حيث كان يقضي معظم وقته في مكتبة المتحف البريطاني يقرأ ويكتب. وقام بزيارات للثوريين المنفيين في المانيا وفرنسا. وكان احد مؤسسي جريدة إسكرا (الشرارة) التي رأس تحريرها واتخذها هو وغيره من المهاجرين الماركسيين منبراً لنشر افكارهم عن الثورة، وكانت الجريدة تهرّب بصفة منتظمة الى داخل روسيا. وكان اهم أعماله في هذه الفترة الكتيب الذي نشره في ١٩٠٢ بعنوان «ما العمل؟»، والذي وضع فيه الاسس النظرية والتطبيقية لحزب ماركسي ثوري، والتي ظل متمسكاً بها الى ان تحققت الثورة.

في ١٩٠٣، انعقد المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي. وحدث انقسام في المؤتمر حول موضوع تنظيم الحزب، وفاز لينين بأغلبية الاصوات واصبح زعيماً للأغلبية اي «البلشفيك»، وبعد عام نشر كتابه «خطوة الى الامام وخطوتان الى الوراء» الذي وجه فيه انتقادات قاسية الى الأقلية «المنشفيك».

عاد لينين الى روسيا ليشترك في ثورة ١٩٠٥، لكنه اضطر عقب فشلها للعودة الى المنفى في سويسرا والنمسا وفرنسا. وظل يعمل في نشر مجموعة من الكتب الماركسية الثورية، كان من بينها كتاب «تكتيكان إشتراكيان ديمقراطيان في الثورة الديمقراطية»، ناقش فيه دور البروليتاريا في ثورة بورجوازية برلمانية، وأوضح كيف يمكن عن طريق اجتذاب الفلاحين الفقراء وغيرهم من الطبقات «شبه البروليتارية» الاستيلاء على الثورة البورجوازية وتحويلها الى ديكتاتورية للبروليتاريا. وفي هذه الفترة كان منكباً على انجاز كتابه «المادية والنقدية التجريبية».

في ١٩١٢، نجح في استبعاد المنشفيك من الاشتراك في مؤتمر الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي الذي انعقد في براغ، وأنشأ حزباً منفصلاً للبلشفيك. وقد ساعد في انشاء جريدة «برافدا» التي كانت في طريقها الى الصدور في سانت بطرسبورغ. وكان ما زال غير قادر على دخول روسيا فأقام عند حدودها في مدينة كاراكاو الى ان اعتقله البوليس النمساوي (١٩١٤)، وامره بمغادرة البلاد، فعاد الى سويسرا وظل بعض الوقت مركزاً جهده على الكتابة مهاجماً الاممية الاشتراكية الثانية التي وصفها بـ «الانتهازية» (...) وفي ١٩١٥، عقد اجتماعاً دعا اليه كل من استطاع حشده من الاشتراكيين الاوروبيين لاستنكار الحرب التي رأى فيها صراعاً بين قوى بورجوازية رأسمالية متخاصمة لا يمكن للطبقة العاملة ان تجني منها أي كسب. وكانت نظريته تحتوي على المخطط اللازم لتحويل مثل هذه الحرب الى حرب طبقية ثورية، الا انه لم يرَ ان الظروف المهيّأة للثورة قد توافرت، ولم يستكشف آنذاك، في ما يبدو، ان هذه الحرب سوف تخلق الفرصة التي كان في انتظارها.

وقد عكف في هذه الاثناء على دراسة هيغل مدوناً ملاحظاته تمهيداً لنشر «كرّاسات فلسفية» (١٩١٥)، وعلى القراءة اعداداً لاصدار كتابه «الامبريالية، اعلى مراحل الرأسمالية» (١٩١٦)، وكتاب «حق الامم في تقرير مصيرها» (١٩١٦). ولم يكف في اثناء ذلك عن محاولاته لتنظيم الاشتراكية الاوروبية من اجل ايقاف الحرب، وقد عقد مؤتمراً من أجل هذه الغاية في كيينتال لم يسفر عن أي نتائج ايجابية.

وبعد اندلاع ثورة شباط ١٩١٧، عاد الى بتروغراد بمعاونة القيادة العليا الألمانية التي كانت ترجو ان تسفر عودته الى روسيا عن عرقلة المجهود الحربي الروسي...

وهناك (في بتروغراد)، اثناء انشغاله بالعمل على تحويل الثورة البورجوازية الى ثورة بروليتارية، وجد وقتاً لوضع كتابه التالي عن الثورة «فرضيات نيسان». وكان الشعار الذي طرحه هو وانصاره البلشفيك على العمال والجنود المتمردين هو «كل السلطة للسوفيات»، اي للمجالس الثورية للعمال والجنود. وقد صبرت الحكومة المؤقتة على هذا النشاط الى شهر تموز عندما اصدرت الأوامر باعتقاله، ففر الى فنلندا حيث وضع كتابه «الدولة والثورة»، ثم تسلّل عائداً الى بتروغراد يوم ٧ تشرين الاول حيث اقنع اللجنة المركزية للحزب بالدعوة الى انتفاضة مسلحة. وقد ادار الثورة من مركز قيادته بمعهد سمولن. وبعد الانتصار على المعتدلين

وغيرهم من الجماعات الاشتراكية اصبح رئيساً لمجلس مفوضي الشعب (التسمية الجديدة لمجلس الوزراء بعد نبذ لقب «وزير الملطخ بالفساد البورجوازي»)، وقامت سياسته المبدئية على السلام والارض والخبز.

أمّنت حكومته السلام بمعاهدة بريست – ليتوفسك التي تولى تروتسكي المفاوضة بشأنها ببراعة. واعيد توزيع الارض على الفلاحين. ولكن الخبز كان قضية اخرى، إذ ما لبثت المجاعة ان انتشرت في روسيا. وقد أمّم لينين البنوك وكل وسائل الانتاج الصناعي، ولكن محاولته بناء اقتصاد اشتراكي كامل وهو يخوض حرباً أهلية على اكثر من عشر جبهات، ويواجه استيلاء البريطانيين واليابانيين على اراض روسية لمساعدة الثورة المضادة، ومحاولته إنشاء جهازي دولة، مدني وعسكري معاً، من حطام الدولة البائدة، كل ذلك ادّى الى انهيار كامل للاقتصاد الروسي في ١٩٢٠. هنا اظهر لينين مرونته عندما قدم السياسة الاقتصادية الجديدة التي سمحت بهامش تحرك للنشاط الاقتصادي الخاص. وقد وجد اثناء كل ذلك وقتاً ليصدر كتاب «المهمات العاجلة للسلطة السوفياتية» (١٩١٨)، وكتاب «الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي» (١٩١٩)، وان ينقل كل جهاز حكومته الثورية الى الكرملين في موسكو.

لم يواجه الحرب ضد اليمين فحسب، بل واجه ايضاً المعارضة العنيفة من جانب الجماعات الاشتراكية الاخرى، وخاصة الحزب الاشتراكي الثوري الذي بدأ، في ١٩١٨، يشن حملة اغتيالات للقادة البلشفيك الذين سقط منهم بعض الضحايا بينهم لينين نفسه. فالرصاصة التي اطلقتها عليه دورا كابلان، عضوة الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وإن لم تقتله، سببت تدهوراً مستمراً في صحته. واستمر يكتب، فوضع «اليسارية مرض الشيوعية الطفولي»، وهو كتيب يهاجم فيه الاتجاهات الانعزالية والمذهبية الجامدة التي رأى فيها مرضاً خطيراً يهدد الثورة؛ وكتاب «أهمية المادية النضالية» (١٩٢٢)... وخلال عامه الاخير، اصابه انزعاج شديد من نمو البيروقراطية الحزبية، وكان ستالين من بين الذين وبّخهم في «وصية سياسية»، لأنهم تركوا البيروقراطية تشوه الديمقراطية الاشتراكية. وفي ٢١ كانون الثاني ١٩٢٤، توفي لينين، والسبب الاساسي بحسب اكثر الاحتمالات ترجيحاً، الاجهاد الشديد.

كانت للينين حياة خاصة، لكن لم تكن لها اي أهمية تذكر. تزوج، وعرف عنه دفء العاطفة حيال اصدقائه المقربين، واستناداً لما رواه تروتسكي فإنه كان يتمتع بحس فكاهي لاذع. ولكن عمله من اجل الثورة واقامة الاشتراكية كانا كل حياته. كان الوحيد بين الاشتراكيين الثوريين في عصره الذي يعلم علم اليقين انه على حق، بينما كان الآخرون عرضة للتخاذل عن غايتهم بوضعها موضع الجدل. وقد منحه هذا اليقين قوة ارادة فائقة. وكتاباته التي كرّسها للفلسفة ولشرح اساليب واستراتيجية وتكتيكات واهداف الثورة الاشتراكية الماركسية وحكومة ديكتاتورية البروليتاريا تملأ اكثر من اربعين مجلداً. وعلى الرغم من الوضوح الذي تمتاز به كتابات لينين فقد فسّرتها الفئات الشيوعية المختلفة كل منها وفقاً لمصلحتها واتجاهاتها السياسية. فكان هناك تفسير التروتسكيين، والستالينيين، فجماعة خروتشوف، فالحزب الشيوعي الصيني...» (انتهى كلام «موسوعة السياسة»).

ضريح لينين في الساحة الحمراء في موسكو لم تنقطع عنه صفوف الزائرين من شيوعيي الاتحاد السوفياتي والعالم، إذ اصبح لينين بالنسبة اليهم معبوداً حقيقياً. لكن هذه الصورة بدأت تتغير مع إطلاق الزعيم السوفياتي الأخير، غورباتشوف، لحركة البيريسترويكا، الى ان انقلبت هذه الصورة تماماً الى عكسها. فما إن شارف الاتحاد السوفياتي على الزوال (١٩٩١) حتى بدأت نصب لينين وصوره تتعرض للتحطيم على أيدي المتظاهرين في روسيا وباقي الجمهوريات السوفياتية.

* **مارتوف، ايولي Martov, I.** (١٨٧٣ – ١٩٢٣): سياسي روسي معاصر للينين. اسس جريدة الايسكرا، وشارك بليخانوف وأكسلرود في تأسيس الحزب العمالي الاشتراكي الديمقراطي، الذي يعتبر الاول من نوعه في روسيا القيصرية. في مؤتمر ١٩٠٣ عارض لينين وبليخانوف حول مسائل تنظيمية. لكن الاغلبية وقفت مع لينين، فأصبح مارتوف يمثل الاقلية التي اطلق عليها اسم «المنشفيك». في ١٩١٧، رفض مبدأ الانتفاضة المسلحة التي دعا اليها لينين، كان على علاقة وطيدة معه رغم تباين الرأي.

* **ماركس، كارل Marx, Karl** (١٨١٨ – ١٨٨٣): فيلسوف اشتراكي ألماني. كانت له وللماركسية تأثيرهما الفائق على حركات وثورات النصف الثاني من القرن التاسع عشر وطيلة القرن العشرين، وبشكل خاص على أم هذه الثورات التي أسست لها أول دولة اشتراكية في التاريخ، أي ثورة

أكتوبر الاشتراكية في روسيا التي أقامت دولة الاتحاد السوفياتي (راجع ألمانيا).

* **ماليك، جاكوب Malik, Jacob** (١٩٠٦ – ١٩٨٠): دبلوماسي سوفياتي. نائب وزير الخارجية وممثل الاتحاد السوفياتي الدائم في هيئة الامم المتحدة. ولد في اوكرانيا. سفير في اليابان (١٩٤٢ – ٤٥)؛ ثم سفير في بريطانيا حتى ١٩٦٠. مثل بلاده في الامم المتحدة لحقبتين: من ١٩٤٨ الى ١٩٥٢، من ١٩٦٨ الى ١٩٧٦. وكان في شباط ١٩٥٠، قد قاطع جلسات مجلس الامن احتجاجاً على تمثيل الصين الوطنية فيه. وقد استغلت الولايات المتحدة هذا الظرف لانتزاع قرار يسمح بتدخل الامم المتحدة في كوريا من دون ان تتعرض للفيتو السوفياتي.

* **مالينكوف، جيورجي م. Malenkov, G.M.** (١٩٠٢ –): شيوعي ورجل دولة سوفياتي خلف ستالين في رئاسة الوزارة (١٩٥٣ – ٥٥). كان قبل ذلك قد أشرف على عمليات «التطهير» داخل الحزب، بما فيها عمليات ١٩٣٧. نُحيّ عن المسرح السياسي في ١٩٥٧. مع تقدمه في السن، عاد الى إيمانه المسيحي، حتى انه اصبح المشرف على إدارة املاك كنيسة بيكوفو الارثوذكسية.

* **مخنو، ن. إ. Makhno, N.I.** (١٨٨٩ – ١٩٣٤): فوضوي ومجالسي (سوفياتي) وزعيم الحركة المخنوية الفوضوية في اوكرانيا.

ولد إيفانوفيتش نسطور مخنو من ابوين فقيرين في مدينة غولياي – بوليه الاوكرانية. توفي والده ولما يتجاوز ١١ شهراً، فنشأ مع اخوته الاربعة برعاية امه التي كانت تعمل لدى احد إقطاعيي المنطقة. بعد الحرب الروسية – اليابانية (١٩٠٤)، ونتيجة فقره، بدأ تمرده وعصيانه. فالتحق باحدى الجماعات الفوضوية (١٩٠٦). اعتقل وحكم عليه بالاعدام، وخفض الحكم، لصغر سنه، فأمضى تسع سنوات في السجن يطالع ويقرأ. في ١٩١٤، أيّد الأمميين المناهضين للحرب، واطلق من السجن إبان أحداث ثورة آذار ١٩١٧. بعد عودته الى مدينته بيوم واحد باشر نشاطه السياسي فدعا الفلاحين الى انشاء مجلسهم الخاص والى الاستيلاء على اراضي الاقطاعيين. وقد انشأ فلاّحو المنطقة مجلسهم، فتبعهم عمال الحديد والأخشاب. وقاد مخنو، بشكل مستقل عن البلاشفة، اضراباً عمالياً في المدينة، حصل العمال بعده على زيادة ١٠٠٪ في الاجور، ثم قاموا بادارة المعامل بأنفسهم بتحريض منه. استولى مخنو ومؤيدوه على اسلحة الشرطة في المنطقة، وادار بنفسه ما سمّاه بالتجمع الزراعي، ووضعت التجمعات الفوضوية الاوكرانية الأخرى نفسها تحت تصرفه. بعد استيلاء البلاشفة على السلطة في موسكو (تشرين الاول ١٩١٧) قرر مخنو تأييدهم ومساعدتهم ضد العصيان المضاد الذي قام به الاوكرانيون الانفصاليون البيض، فانتصر عليهم مخنو على رأس جيشه الصغير.

التقى مخنو بلينين في موسكو وأطلعه على ما أنجز في مدينة غولياي – بوليه، وعارضه في كثير من النقاط، وقفل عائداً الى اوكرانيا، فوجد كل انجازاته قد ألغيت بفعل الاحتلال الألماني وتعاون الاوكرانيين البيض مع الاحتلال وتصفيتهم لعدد كبير من الفلاحين. وخلال فترة قصيرة، نظم صفوف المقاومة، وتمكن، في ايلول ١٩١٨، من تحرير مدينة غولياي – بوليه، واعاد تنظيم سلطة المجالس، ونظم مقاومة ضد الألمان والبيض في كل اوكرانيا حيث وزع انصاره على ثلاث جبهات: مواجهة الألمان، مواجهة القوزاق، مواجهة الجيش الابيض الروسي... ونجح بانشاء جيش قوي مستقل عن البلاشفة في موسكو وعن جيشهم الأحمر. وفي شباط ١٩١٩، وافق مخنو على اقامة حلف عسكري مع البلاشفة، ثم انسحب المخنويون منه (ايار ١٩١٩)، وبدأت السلطة البلشفية تطاردهم. لكنهم اعادوا تنظيم صفوفهم (٣٠ ألف مقاتل)، وطردوا البيض من اوكرانيا، وازالوا في الوقت نفسه كل مظاهر السلطة البلشفية في اوكرانيا، واطلقوا حرية الصحافة.

لم تدم قوة المخنويين طويلاً إذ انتشر وباء التيفوس في المنطقة فقضى على عدد كبير منهم. طلب البلاشفة منهم الانضمام الى الجيش الأحمر، ولما رفضوا انزلوا بهم هزيمة قاضية وطاردوا فلولهم. قام مخنو بمحاولة تمرد اخيرة فاشلة ضد البلاشفة اثناء احداث كرونستاند (١٩٢١)؛ وبعد فشله، هاجر الى رومانيا (٢٨ آب ١٩٢١)، ثم الى باريس (١٩٢٥) بعد رحلة شاقة. قضى وقته في التأليف والكتابة، فشارك بتحرير مجلة فوضوية ناطقة بالروسية وصدرت له عدة كتب. وتوفي في باريس.

لم تنته الحركة المخنوية مباشرة بعد رحيل مخنو إذ استمرت عملياً حتى ١٩٢٤. ورغم ان بعض الجماعات المتفرقة قد تابعت نشاطها بعد ذلك، إذ يذكر في اثناء الحرب العالمية الثانية ان بعض

الاشتباكات قد حصلت بين الجيش الروسي وجماعات تحمل علماً اسود في منطقة اوكرانيا (العلم الاسود هو علم الفوضويين). لكن هذه الجماعات ما لبثت ان صفيّت على يد الجيش الاحمر الروسي.

* **ميكويان، أنستاس إ. Mikoyan, A.I.** (١٨٩٥ - ١٩٧٨): شيوعي ورجل دولة وسابع رئيس للاتحاد السوفياتي. من أصل ارمني. انضم الى الحزب الشيوعي سنة ١٩١٥. استمر في نشاطه الحزبي في القوقاز حتى اصبح وزيراً للتجارة الداخلية والخارجية سنة ١٩٢٦. عضو المكتب السياسي (١٩٣٥). نائب اول لرئيس الوزراء خروتشوف (١٩٥٨). رئيس الاتحاد السوفياتي (١٩٦٤). قام بزيارات سياسية الى بلدان عديدة عقد اثناءها اتفاقيات ومعاهدات صداقة وتعاون بين تلك الدول والاتحاد السوفياتي. أبعد عن الحكم بعد إقالة خروتشوف بقليل. نشر مذكراته اثناء تقاعده.

* **نيكونوف، فيكتور Nikonov, V.** (١٩٢٩ -): شيوعي وسياسي سوفياتي. عضو الامانة العامة للحزب (١٩٨٥) في إطار الحملة التي قادها غورباتشوف لتجديد الفئة الحاكمة. انتمى الى الحزب في ١٩٥٤. اصبح عضو اللجنة المركزية في ١٩٧٦. سكرتير اول للحزب في جمهورية ماري الواقعة على تخوم روسيا الاوروبية من ١٩٦٧ الى ١٩٧٩؛ ونائب وزير الزراعة السوفياتية من ١٩٧٩ الى ١٩٨٣.

* **يازوف، ديميتري** (١٩٢٣ -): شيوعي عسكري ورجل دولة سوفياتي. ولد في منطقة أومسك في سيبيريا، ودخل الجيش في ١٩٤١ وشارك في الحرب العالمية الثانية. انتسب الى الحزب في ١٩٤٤. في ١٩٨٠، قائد المنطقة العسكرية في آسيا الوسطى، ثم المنطقة العسكرية في الشرق الأقصى ابتداء من ١٩٨٤، بعد ان اسقطت مدفعية الطيران السوفياتي طائرة بوينغ مدنية كورية جنوبية دخلت المجال الجوي السوفياتي، وعين قائد عام للجيش في العام نفسه. في ١٩٨١ (آخر ولاية بريجينيف)، اصبح يازوف عضواً مناوباً في اللجنة المركزية. ومنذ ١٩٨٧، اصبح وزيراً للدفاع، وعضواً مناوباً في المكتب السياسي، وعضواً كامل العضوية في اللجنة المركزية. ثم، في آذار ١٩٩٠، عين عضواً في المجلس الرئاسي، واصبح، بعد شهر، اول ماريشال يعينه غورباتشوف. شارك في العملية الانقلابية التي جرت في ١٩ آب ١٩٩١ ضد غورباتشوف، واصبح عضو «لجنة الدولة لحالة الطوارئ». لكن هذه العملية فشلت بسبب المقاومة الشديدة التي ابداها بوريس يلتسن والتنديد الذي جابهها به المعسكر الغربي. والقي القبض على يازوف، ووضع رهن الاعتقال في ٢١ آب ١٩٩١.

* **ياناييف، غينادي** (١٩٣٧ -): شيوعي وسياسي ورجل دولة سوفياتي. نائب رئيس الاتحاد السوفياتي منذ اواخر كانون الاول ١٩٩٠. عضو المكتب السياسي منذ المؤتمر الثامن والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي في تموز ١٩٩٠ (آخر مؤتمر)، حتى انتخابه نائباً للرئيس تحت ضغط المحافظين. أيد الانتقال التدريجي الى اقتصاد السوق، وحرص على ان يقدم نفسه على انه راديكالي واقعي.

اعتبر يانييف، منذ آذار ١٩٨٩، رئيساً للمجموعة الشيوعية في مؤتمر نواب الشعب. وتولى ملفات دولية بصفته عضواً في لجنة الشؤون الدولية في مجلس السوفيات الاعلى. محافظ، انتقد غورباتشوف وتوقع «خطر الحرب الاهلية»، كل ذلك في سياق دعمه للاصلاح في إطار البيريسترويكا. تزعم حركة انقلاب ١٩ آب ١٩٩١ الفاشل، ووضع رهن الاعتقال.

* **يلتسن، بوريس نيكولايفيتش Yeltsin, B.N.** (١٩٣١ -): سياسي ورجل دولة روسي، واول رئيس لجمهورية روسيا إثر انفصالها عن الاتحاد السوفياتي. هو نفسه أعلن هذا الانفصال، ونهاية الاتحاد السوفياتي، وانشاء رابطة الكومنولث الروسي (راجع: روسيا). .

١. ليبيا – ٢. تونس – ٣. الجزائر – ٤. المغرب – ٥. موريتانيا

إتحاد المغرب العربي

(الاتحاد المغاربي)

التأسيس فالتعثر

في ١٨ شباط ١٩٨٩، وقّع ملك المغرب ورؤساء موريتانيا والجزائر وتونس وليبيا معاهدة مراكش التي قضت بتأسيس إتحاد المغرب العربي (الاتحاد المغاربي) من الدول الخمس المذكورة. وفي الاجتماع الأول لمجلس الرئاسة الذي عقد في تونس مطلع العام ١٩٩٠ تقرّر إنشاء اربع لجان متخصصة: اللجنة الاقتصادية والمالية ولجنة الموارد البشرية ولجنة الامن الغذائي ولجنة البنية الأساسية. كما شكلت لجنة متابعة للبحث في استكمال إنشاء المؤسسات المغاربية وتنظيمها خصوصاً موازنة الامانة العامة (ومقرها في المغرب)، والهيئة القضائية (ومقرها في موريتانيا)، والمصرف المغاربي للاستثمار (ومقره في تونس)، ومجلس الشوري (ومقره في الجزائر)، والجامعة المغاربية وأكاديمية العلوم (ومقرهما في ليبيا). وفي الاجتماع الثاني (قمة الجزائر، تموز ١٩٩٠) تقرر

إنشاء منطقة تبادل حر في العام ١٩٩٢، ووحدة جمركية في ١٩٩٥.

وإذا كانت الجامعة المغاربية ومجلس الشوري والهيئة القضائية المغاربية والامانة العامة للاتحاد قد ابصرت النور (حتى اواسط ١٩٩٣)، وبعضها ما زال قيد التأسيس مثل مصرف الاستثمار المغاربي، فإن منطقة التبادل الحر والوحدة الجمركية لم تجدا بعد طريقهما الى التنفيذ. والواضح ان القطار المغاربي يسير ببطء ويتعثر بسبب كونه مرآة لواقع العلاقات السياسية بين اعضائه التي تتحكم فيها خلافات تعوق استكمال بناء الاتحاد. فصدرت عن مسؤولين بارزين في دول الاتحاد (في النصف الاول من ١٩٩٣) تصريحات تضمنت اعترافاً بتعثر البناء المغاربي، سواء بسبب انشغال العواصم المغاربية بترتيب الاوضاع الداخلية، أو بسبب انعكاسات ازمات خارجية، مثل أزمة لوكربي (ليبيا)، أو استمرار نزاع الصحراء الغربية، ووجود عراقيل تطاول اختلاف الانظمة والخيارات السياسية والاقتصادية بين شركاء الاتحاد. وكان لافتاً تشديد هؤلاء المسؤولين على تبرير التعثر بعبارات تدور حول ان «الاختلافات التي طبعت التوجهات القائمة للبلدان المغاربية منذ اكثر من ثلاثين عاماً لا يمكن تجاوزها في بضعة شهور أو سنوات». والأهم في هذا التبرير انه لم يكن متداولاً بالحدة ذاتها في السابق، وان العواصم المغاربية كانت تحاول تجاوزه. فابرمت مزيداً من الاتفاقات للدخول في مرحلة التكامل الاقتصادي، ورفع الحواجز امام تنقل الأشخاص والممتلكات، والبحث في امكان بناء سوق مغاربية. لكنها واجهت صعوبات اكبر حين جربت تنفيذ تلك الاتفاقات.

ما يمكن قوله، إختصاراً، ان اتحاد المغرب العربي ظل، بعد نحو اربعة أعوام ونصف العام على ولادته (أي منذ ٢ شباط ١٩٨٩ حتى اواسط ١٩٩٣)، مقتصراً على لقاءات قمة من حين لآخر دون ان ينجز خطوة عملية واحدة، وذلك على رغم العناصر التاريخية والحوافز والتحديات الحاضرة التي تدفع جميعها باتجاه تحقيق الاتحاد عملياً.

من التاريخ

جمع بين الدول المغاربية الخمس حكم قرطاجني، ثم بيزنطي أو غربي روماني، وبعدهما ربط بينها الفتح العربي الاسلامي برباطين هما الانتماء العربي والدين الاسلامي. ثم ظلت تلك الدول تحت إدارة الخلافة العثمانية الى ان انتقلت الى الادارة الفرنسية باستثناء ليبيا التي احتلها الايطاليون.

وترجع الروابط الحديثة خلال القرن الحالي الى اندلاع المطالبة بالاستقلال في الاقطار الخمسة وإن بدرجات حرارة مختلفة، وحدث ان حققت ليبيا استقلالها في كانون الاول ١٩٥١ الأمر الذي جعلها قاعدة لنشاط الزعامات المغاربية المطالبة بالاستقلال في تونس والجزائر بصفة خاصة. وما إن حل عام ١٩٦٤ حتى كانت جميع دول المغرب قد استقلت باستثناء موريتانيا التي لحقت في ما بعد بركب المغاربة المستقلين. وفي ذلك العام شاعت مشاعر الرغبة في تقارب وحدوي بشكل ملحوظ، وكان المغاربة يعتقدون انهم قادرون على تحقيق وحدة اقليمية باسلوب عملي ومتدرج يختلف عن دعوات الوحدة بين المشارقة العرب الذين اندفعوا وراء دعوات الوحدة «بصورة متسرعة ومثالية» (على حد ما تعتبره اكثر الدراسات التي تتناول اليوم مسألة الوحدة العربية). ولم ينته عام ١٩٦٤ إلا وقد تأسس بين الدول المغاربية المستقلة الاربع (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) ما سمي باللجنة الاستشارية الدائمة لدول المغرب العربي. فسارت محاولات التقارب السياسي والتعاون الاقتصادي سيراً مقبولاً، وإن لم يكن بالسرعة المرجوة. وكانت اسباب الابطاء ترجع الى عوامل سياسية أهمها

التنافس على زعامة المغرب الكبير بين الجزائر والمملكة المغربية، وخلافات الحدود بين البلدين، ثم نشوب الصراع بينهما حول الصحراء التي كانت تحتلها اسبانيا، بالاضافة الى حساسيات كانت تظهر آثارها على السطح بين الحين والآخر بين الجزائر وتونس، وحساسيات اخرى بين تونس والمغرب، وذلك حتى احداث ١٩٦٩ في ليبيا (انقلاب – ثورة) التي جاءت بالرئيس معمر القذافي على رأس السلطة وأطاحت الملك محمد إدريس السنوسي. فكانت مطامح الرئيس الليبي وسياسته التي غلب عليها «التقلب» سبباً إضافياً في إعاقة محاولات إقامة الاتحاد.

ففكرة وحدة المغرب العربي لم تولد في أواخر هذا القرن كردّ على الحواجز التي نصبتها السوق الاوروبية المشتركة كما هو متداول في الاوساط العالمية (خاصة الصحافية). فحتى خلال مرحلة ما قبل الاستقلال، تأسست لجان وحدة المغرب العربي، وكان ذلك في ١٩٤٧ في القاهرة. وفي ١٩٥٦ طرحت جبهة التحرير الوطني الجزائرية مشروع فيدرالية شمال افريقيا، تلاه مؤتمر في طنجة عام ١٩٥٨ جمع ممثلين عن الدول المغاربية كافة وطالب بارساء قواعد الوحدة على غرار السوق الاوروبية المشتركة الناشئة يومذاك. وسرعان ما بدا الاقتصاد عصب الوحدة المرجوة، فعقد في تونس (١٩٦٤) الاجتماع الاول لوزراء اقتصاد الدول المغاربية الحديثة (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب. أما موريتانيا فلم تكن بعد قد نالت استقلالها)، وأقر ثلاث مهام: ١ – تنمية العلاقات بين هذه الدول وايجاد سياسة موحدة للجمارك؛ ٢ – التنسيق بينها في مسائل الصناعة والطاقة والمواصلات؛ ٣ – توحيد المواقف إزاء السوق الاوروبية المشتركة. كذلك انشأ الاجتماع المذكور حوالي ٢٠ لجنة متخصصة في شتى القطاعات لم يكتب لمعظمها ان يقود مبادرة ناجحة، إذ إن اكثر من نصف اللجان لم يشهد اجتماعاً واحداً. وحتى اليوم، فإن العلاقات الاقتصادية بين دول المغرب العربي لم تتعد ٢٪ من مجمل علاقاتها مع الدول الأخرى، وقد ظل كل بلد يفاوض المجموعة الاوروبية بمفرده، آملاً تحسين مواقعه على حساب «أشقائه». وقد يكون لـ «غزو الجراد» شمال افريقيا عام ١٩٨٨، الفضل في تجديد البحث بالتكامل الاقتصادي والبيئوي بين الاقطار المغربية. ففي شباط ١٩٨٩ وافق زعماء الدول المغاربية الخمس على مشروع «اتحاد المغرب العربي». ولئن بدا هذا الاتفاق (البعض يعتبرونه معاهدة) اكثر جدية وعمقاً مما سبق، وأشد صلابة حيال الصراعات الدولية (حرب الخليج على رغم مواقف اعضاء الاتحاد المتضاربة إزاء هذه الحرب لم تقض عليه)، فإنه لم يعطِ الى الآن (اواسط ١٩٩٣) بوادر تؤكد نجاح مسيرته.

حوافز التأسيس والتنشيط

تبدو توقعات نجاح مسيرة الاتحاد بعيدة عن الواقع بعد اكثر من أربعة أعوام على تأسيسه، وإثر ما أعلن من تصريحات لمسؤوليه طيلة النصف الأول من ١٩٩٣. فوزير الخارجية المغربي الدكتور عبد اللطيف الفيلالي قال انه «ونظراءه من وزراء الخارجية المغاربيين تفاهموا على اعطاء المساعي الاتحادية إجازة يفسح خلالها المجال امام الزعماء المغاربة لاعادة النظر في المشروع المغاربي». كما ويلاحظ ان مجلس الرئاسة، الذي يتألف من قادة الدول الاعضاء، لا يعقد اجتماعاته بصورة دورية، اي مرة كل ستة أشهر، وان العديد من الهيئات المغاربية الاتحادية باتت مشلولة عن العمل تقريباً، وان الحماس لبعض المشاريع المغاربية، مثل مشروع «القطار المغربي» قد تبخر بين اصحاب القرار. لكن، ورغم كل ذلك ثمة توقعات لتنشيط الاتحاد ترتكز على الحوافز الدافعة في اتجاهه

(خاصة الحافز الخارجي الاوروبي المتمثل بالمصلحة المغاربية – الاوروبية الدائمة البحث في اطار الحوار المغاربي – الاوروبي). وبشأن هذه الحوافز، كتب الباحث السياسي اللبناني رغيد الصلح («الحياة»، ١٨ آذار ١٩٩٣):

«إن الفرق بين الآمال التي ولدت مع الاتحاد والحالة التي آل اليها، لا يعني بالضرورة، ان المشروع انتهى وان الطريق الى احيائه قد سدت، إذ سيبقى المشروع مستمراً، قابلاً للتنشيط والانتعاش، في الظروف الملائمة. وهذه الظروف تتصل عادة بالأسباب والحوافز التي تدفع مجموعة من الدول الى السير على طريق الاندماج.

لقد توافرت هذه الظروف عندما اعلنت دول المغرب العربي الخمس إنشاء مشروعها الاتحادي، ذلك ان هناك ما يشبه الاجماع في العالم على ان الكتل الكبرى توفّر إطاراً أفضل للتطور الاقتصادي، ولتوفير الرخاء والأمن للشعوب. وهذه القناعة لم تدفع دولاً نامية مثل دول جنوب شرق آسيا، او دولاً صغيرة مثل دول البلاد الواطئة (البنلوكس) في اوروبا الغربية الى الاندماج في كيانات اكبر فحسب، بل دفعت بلداً في مثل جبروت وحجم الولايات المتحدة الاقتصادي الى الاندماج في كيان اكبر. إن تجربة الأسرة الاوروبية القريبة الى الزعماء لعبت دوراً مهماً في إقناعهم بصواب هذه النظرة، ومن ثم في تحفيزهم على البحث عن الحل الاتحادي لمشاغل ومشاكل بلادهم الاقتصادية والاجتماعية. بيد ان الحافز وحده لم يكف للتفتيش عن حل مغاربي لهذه المشاكل، إذ إن بعض المسؤولين وصنّاع القرار والرأي في اقطار المغرب العربي كانوا يعتقدون ان باب الاندماج مفتوح امام بلادهم، ولكن ليس في متحد اقليمي مجاور، وانما في الأسرة الاوروبية نفسها. فإذا لم يكن من الاتحاد بد، فليكن مع الجيران الذين يملكون المال والرفاهية حتى ولو لم يملكوا التراث الحضاري المشترك، بدلاً من ان يكون مع الأشقاء في الحضارة، ولكن في الشقاء ايضاً. ولعل مثال هونغ كونغ أو سنغافورة كان في خاطر هؤلاء الزعماء، فظنوا ان بلادهم تستطيع ان تجتذب الرساميل الاوروبية بحيث تتحول الى واحات للثروة، او حتى الى مراكز لاعادة تصديرها وتوزيعها على الجوار، فيتحقق بذلك الخير للبلد الذي اقتحم السور الاوروبية، وللبلدان الشقيقة التي لم يسعفها الحظ فبقيت خارجه.

لبثت هذه الآمال تداعب مخيلة بعض الزعماء المغاربيين لسنوات، حتى انجلت التطورات الاوروبية عن ثلاثة احداث مهمة:

اولاً، انهيار المعسكر الاشتراكي، وتنافس دول اوروبا الوسطى والشرقية على تقديم طلبات الانتساب الى الاسرة الاوروبية. وهذا الحدث اخاف زعماء الأسرة، لأنهم، ولا سيما الألمان والفرنسيين، يعرفون ان اثقال الاسرة بعدد كبير من الاعضاء الجدد سيؤدي الى عرقلة مسيرة تحولها الى «ولايات اوروبية واحدة». ورداً على هذا الواقع المستجد، عمد زعماء الاسرة الى التشدد في تحديد شروط الانضمام الى السوق، والى رد العديد من الطلبات التي ظن اصحابها انهم قد استوفوا شروط «الاوروبية»، كما حدث مع تركيا مثلاً. في ظل هذه السياسة لم يعد من السهل التفكير في فتح الباب امام العضوية الكاملة، او الجزئية امام بلدان عربية، مغربية كانت أم مشرقية.

ثانياً، اندماج دول اوروبا الجنوبية (اسبانيا، البرتغال، اليونان) اندماجاً كاملاً بالاسرة، وفتح ابواب السوق امام صادراتها الزراعية على حساب الصادرات المغاربية المماثلة.

ثالثاً، وصول تطور الاسرة الاوروبية الى مراحل متقدمة جعلت زعماء «الاسرة الاوروبية» ينذرون، كما فعل جاك شيراك مثلاً، بتحويلها الى قلعة محصنة، ويعدون بالفعل لاسدال الستار

الجمركي حولها ابتداء من ١٩٩٢. وهكذا ازدادت الصعوبات والعقبات امام تصدير المنتجات او اليد العاملة المغاربية الى الاسواق الاوروبية كما كان الامر سابقاً.

هكذا، تكاثرت الصعوبات امام الالتحاق بـ «السوق» بل وحتى امام الاستفادة من فضلات الغنى الأوروبي. كما استفادت هونغ كونغ أو تايلاندا من فضلات ثروة الغرب، فكان من المعقول ان يعود زعماء المغرب العربي الى البديل «المحلي»، أي الى التفكير في إدماج الكيانات المغاربية نفسها حتى تنفتح اسواقها على بعضها البعض، وتتوافر المعطيات والاجواء لمعالجة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الكبيرة التي يعاني منها المغرب.

إن هذه الاعتبارات التي أثرت على نشؤ الاتحاد المغاربي لم تتبدل. والأسباب التي جعلت الزعماء الاوروبيين يرغبون في تحويل الاسرة الى «قلعة محصنة» لا تزال قائمة، وسعيهم الى قيام «اتحاد الدول الاوروبية» لا يزال مستمراً، وتشددهم في النظر في طلبات الانتساب والتعاون وعقد المعاهدات والاتفاقات لا يزال في محله. الذي تغير هو عودة بعض الزعماء المغاربيين الى التفكير بالحل الاوروبي لمشاكل بلادهم، بدل التركيز على ايجاد هذه الحلول مع الجيران والاقرباء الذين تجمعهم بهم روابط كثيرة. ومن المرجح ان يصل هؤلاء الزعماء الى ان هذا التفكير لن يؤدي الى النتائج التي يتوخونها، وانه من الأفضل انهاء الاجازة الاجبارية التي اعطيت الى الاتحاد المغاربي، واعادة تنشيطه وتحفيزه الى العمل. ولسوف يجدون، اكثر من ذلك، انهم لم يخطئوا بل كانوا على صواب عندما نظروا الى اتحادهم على انه منطلق الى توثيق العلاقات وتطويرها بين الأقطار العربية بشكل عام. ذلك ان اقطار المغرب العربي، في سعيها الى الحداثة، والتقدم الاقتصادي السريع، تحتاج الى تعزيز ما تملكه من طاقات بشرية واقتصادية بالمزيد منها، وهذا المزيد متوافر في المشرق العربي المهيأ للتفاعل مع المغرب. فهناك، على سبيل المثال لا الحصر، من الرساميل العربية ما يقارب السبعماية بليون دولار تطوف الاسواق الدولية، فلو وظف بعضها في المغرب العربي لتحسنت اوضاعه الاقتصادية تحسناً ملموساً، وتطورت اوضاعه الاجتماعية والسياسية.

إن تحقيق مثل هذا الانعطاف في السياسة المغاربية يحتاج الى تحسين العلاقات بين القوتين الرئيسيتين في الاتحاد، اي المغرب والجزائر. لقد طرأ على العلاقات بين البلدين، في الآونة الأخيرة، فتور يرجع، الى حد كبير، الى الكبرياء القطرية التي دفعتهما، في الماضي، الى التنافس على الاضطلاع بدور القوة الاقليمية الرئيسية في المنطقة. ومن المرجح ان هذا التنافس سيؤدي الى خراب كبير في البلدين لا يفيد منه احد. بالمقابل، فإن الانتقال من التنافس والاصطراع الى التعاون سيفسح المجال امام تحولهما الى «قوة نواة» تجتذب الاقطار المغاربية الأخرى وتسير بها ومعها على طريق الاندماج، فتتوافر عندئذ ظروف افضل لمعالجة الاحتقانات السياسية والاقتصادية التي يعاني منها المغرب العربي، والتي ترشح آثارها الى الاقطار العربية كافة».

الحوار المغاربي – الاوروبي

أوحت المساعي المغاربية، اذاً، ومنذ تأسيس الاتحاد، بأنها جاءت (من ضمن ما جاءت) استجابة للتحولات الدولية، وبشكل خاص الى قرب قيام الوحدة الاوروبية، والتي ستنجم عنها مجموعة إقتصادية – سياسية ضخمة، تقع على الحدود الشمالية للمنطقة المغاربية، خصوصاً ان بلدان الشمال الافريقي ضالعة في شبكة من العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية والبشرية على

غاية من العمق والتنوع مع القارة الاوروبية، بحيث ما كانت هذه البلدان ترغب في مواجهة هذا الواقع الجديد منفردة وكلا على حدة. بكلمة أخرى، وضمن هذه الظروف، كان مشروع الاتحاد المغاربي يمثل ليس اقل من فرصة بقاء واستمرار في وجود فاعل للبلدان المعنية.

وفي اطار العلاقات المغاربية – الغربية (أو بصورة اكثر تحديداً الحوار المغاربي – الاوروبي) يمكن اعتبار ان انهيار الاتحاد السوفياتي وزوال «الخطر الشيوعي» أنهيا حال الاستقطاب التي كانت سائدة في المنطقة المغاربية ما عجّل بالتقارب بين بلدانها مثلما اشار الدكتور محمد الغماري استاذ العلوم السياسية في جامعة محمد الخامس المغربية (في ايار ١٩٩٣، وفي ندوة أكاديمية لتقويم الاعوام الاربعة التي مضت منذ انشاء الاتحاد)، فرأى ان القوى الغربية التي كانت تركز على الشرق صارت متجهة نحو الجنوب والعالم العربي الذي يشكل المغرب العربي قسماً مهماً منه، وان مفهوم الأمن الاوروبي شهد تعديلات لافتة في الأعوام الأخيرة كون اوروبا لم تعد تحتاج المظلة الاميركية وصارت تعتمد على قوتها الذاتية لمجابهة أي أخطار محتملة «لأن الخطر الأكبر زال».

وفي ضوء هذه التغييرات دعا الأكاديميون المغاربيون الى إقامة «علاقات استقلال وتكافؤ» بين الاتحاد والمجموعة الاوروبية، وانتقدوا نزعة البلدان الغربية، خصوصاً الولايات المحدة، لإنشاء تراتبية بين المجموعات الدولية على غرار الهرم الذي تتربع الولايات المتحدة على قمته وتليها فيه اوروبا، فيما تتبوأ البلدان الأخرى مراتب أدنى. وشدّدوا على ان امن بلدان الاتحاد المغاربي لا يمكن ان يشكل احدى اولويات المجموعة الاوروبية فضلاً عن ان يكون احد مراكز الاهتمام الاميركية في العالم؛ واستبعدوا ان تساعد البلدان الغربية في تعزيز القدرات التكنولوجية والعسكرية للبلدان المغاربية مستقبلاً، خصوصاً بعد زوال الدوافع ذات الطابع الاستراتيجي التي كانت تتغذى من الصراع بين الشرق والغرب ومكافحة الشيوعية في العالم الثالث. فدعوا الى نظام امن اقليمي للمنطقة المغاربية في اطار نظام إقليمي عربي، وأكدوا ان الخلافات والانقسامات الداخلية للاتحاد تؤدي الى ارجاء قيام هكذا نظام أو تضعف فاعليته في حال قيامه. واعتبروا التنسيق بين الدبلوماسيات المغاربية وانشاء قوات مشتركة بينها هدفها الدفاع عن الامن الخارجي للمنطقة المغاربية خطوة ضرورية نحو وضع نظام اقليمي يتكيف مع المتغيرات الدولية.

وقد اقتصر الحوار المغاربي – الاوروبي، في النصف الأول من ١٩٩٣، على تحركات ونشاطات، اغلبها دبلوماسي، أهمها:

– إقدام اربع دول مغاربية (بحسب ما تناقلته وسائل الاعلام في كانون الثاني ١٩٩٣) على توقيع معاهدة منع استخدام وتصنيع وتخزين وتدمير الأسلحة الكيماوية، خلافاً لقرار اتخذته جامعة الدول العربية (قبل ذلك بأشهر قليلة). وهذا التوقيع جاء نتيجة اتصالات حثيثة قامت بها فرنسا ودول غربية اخرى. واما الدول المغاربية الموقعة فهي المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا استناداً الى قرار اتخذته في اطار اتحاد المغرب العربي وبهدف تحسين وتطوير العلاقات المغاربية – الاوروبية. اما ليبيا فقد خرقت الاجماع المغاربي وامتنعت عن توقيع المعاهدة.

– قيام تونس (بعد ايام من تسلم رئيسها زين العابدين بن علي رئاسة الاتحاد في كانون الثاني ١٩٩٣) باجراء اتصالات مع غير عاصمة اوروبية للبحث عن صيغة مشتركة تضع الحوار العالق بين الضفتين (ضفتي البحر المتوسط) على السكة مجدداً وتتيح وضع روزنامة لاجتماعات الحوار التي بدأها وزراء الخارجية في الجزائر في تشرين الثاني ١٩٩٠، وأوقفها الاوروبيون بسبب نزاعهم مع ليبيا حول قضية لوكربي. وطرح التونسيون فكرة العمل على تهيئة الأجواء لعقد اجتماع لوزراء خارجية

مجموعة «٥ + ٥» التي تضم الى الدول المغاربية كلا من اسبانيا وفرنسا والبرتغال وايطاليا ومالطا، بعد تسوية الخلاف بين ليبيا والدول الغربية. وكان وزراء خارجية بلدان ضفتي الحوض الغربي للمتوسط قرروا في اجتماع الجزائر عقد قمة لرؤساء دول مجموعة ٥ + ٥ في تونس مسبوقة باجتماع لوزراء خارجية البلدان العشرة؛ الا ان القمة والاجتماع أرجئا بعد اندلاع أزمة لوكربي التي كانت ليبيا وفرنسا طرفين فيها.

– اهتمام العواصم المغاربية بشكل خاص باجتماعات القمة الاسبانية – الايطالية في مدريد (٣ آذار ١٩٩٣) التي بحثت في مستقبل البناء الاوروبي والعلاقات مع بلدان الاتحاد المغاربي. وقد أمل المغاربيون ان تلعب مدريد وروما دور المدافع عن معاودة حوار «٥ + ٥» لاستئناف الحوار السياسي، وان تعاودا طرح فكرة عقد مؤتمر للأمن والتعاون في البحر المتوسط الذي كان مقترحاً بالتنسيق مع فرنسا في الثمانينات.

– الجولة المكوكية التي قام بها وزير الخارجية التونسي السيد حبيب بن يحيى، بصفته رئيس المجلس الوزاري المغاربي (حتى آخر ١٩٩٣)، على البلدان الاوروبية لانضاج مساعي استئناف الحوار، خصوصاً منها ما يتعلق بالسبل الآيلة لحل مشكلة لوكربي (تفجير طائرة «بان أميركان» عام ١٩٨٨ والمتهمة ليبيا بهذه الحادثة). وقد أسمع الاوروبيون زائرهم أنه لا يوجد اعتراض على معاودة حوار «٥ + ٥» وحوار «٥ + ١٢» (١٢ = المجموعة الاوروبية) من حيث المبدأ سوى اشتراط تسوية مشكلة لوكربي.

والاهتمام المغاربي بهذا الحوار (المغاربي – الاوروبي) أعيد التركيز عليه في اجتماعات مجلس وزراء الشؤون الخارجية المغاربي في تونس (١٨ حزيران ١٩٩٣) الذي بحث في عشر نقاط اهمها: وضع روزنامة الاجتماعات المغاربية، مناقشة حصاد اجتماعات المجالس الوزارية المتخصصة والبحث في العلاقات مع التجمعات الاقليمية خصوصاً الجامعة العربية والمجموعة الاوروبية ومنظمة المؤتمر الاسلامي.

أما الأولوية فقد اعطيت للخلافات الثنائية العالقة بين دول الاتحاد، اخصها تلك الناشئة بسبب قضية لوكربي (بين ليبيا والدول الغربية) وبسبب نزاع الصحراء (بين المغرب والجزائر). لذلك اعتبرت الاجتماعات المذكورة انها مفصل اساسي لتحسن العلاقات الثنائية ومؤشر الى مدى انفتاح الطريق امام تنفيذ الاتفاقات السابقة واعطاء دفعة للعمل المغاربي المشترك.

إثيوبيا

بطاقة تعريف

الاسم: إثيوبيا، أو «أيثيوبس» (من الاغريقي Aethiops) التي تعني «الجانب المشتعل». وكانت تطلق على افريقيا السوداء جنوب مصر. أعيد هذا الاسم الى التداول في اواخر القرن التاسع عشر ليُطلق على دولة الأحباش التي توسعت إثر غزوات الملك منليك.

والحبشة (استعمل العرب هذه التسمية بمعنى «الشعوب المختلطة») كانت تضم اريتريا، الصومال، وجزء من السودان، وكانت تمتد حتى بلاد النوبة. والاسم نفسه استعمل قبل الاحتلال الايطالي وبعده. وفي القرن الرابع عشر، طغت التسمية التي تتحدث عن «مملكة الأب يوحنا» (اسطورة العاهل المسيحي).

الموقع: في شرق افريقيا. كانت تطل على البحر الأحمر عبر إقليم اريتريا وعلى طول ٨٧٥ كلم. وبعد استقلال اريتريا (١٩٩٣)، لم يعد لها منفذ بحري. يحيط بها كينيا، السودان، الصومال، جيبوتي واريتريا.

المساحة: ١،١٠٨،٩٦٢ كلم٢ .

العاصمة: أديس أبابا.

السكان: نحو ٤٨،٥٠٠،٠٠٠ نسمة (تقديرات ١٩٩٣ وبعد انفصال اريتريا). والتوقعات تشير الى ان عدد سكان إثيوبيا سيبلغ نحو ٦١ مليوناً في العام ٢٠٠٠ . إن نحو ٩٠٪ من السكان في منطقة الهضاب التي تمتد على مساحة نحو ٢٧٠ ألف كلم٢ . يتوزع السكان، دينياً، بالمناصفة تقريباً بين مسيحيين ومسلمين. الارثوذكسية المونوفيزية دين الدولة الرسمي. في العام ١٩٧٤، أي قبل الحكم الماركسي، كان هناك ٧٥ ألف كاهن و١٢ ألف كنيسة و٨ آلاف دير. في ١٩٥٤، قطع بطريرك الكنيسة الاثيوبية (الأبونا) كل رابط يجمعه مع كنيسة الأقباط في الاسكندرية (مصر). المسلمون يسكنون الجنوب والشرق خصوصاً، واكثريتهم من الطائفة الشافعية التي تعد نحو ١٣ مليون نسمة. وهناك أقلية

صغيرة من اليهود الفالاشا، الذين يعتقد انهم احفاد وجهاء اورشليم القدس الذين اصطحبوا الملك منليك، وريث سليمان الحكيم والملكة سبأ، او انهم يعودون بأصلهم الى قبيلة دان التي جاءت الى المنطقة في العام ٧٢٢ ق.م. كان عدد يهود الفالاشا في القرن الثامن عشر نحو ٢٥٠ ألف نسمة، وفي العام ١٩٠٠ نحو مئة ألف نسمة، وفي العام ١٩٨٠ نحو ٢٥ ألف نسمة؛ وغالبيتهم هاجرت الى اسرائيل بين ١٩٨٠ و ١٩٨٥؛ ولم يبق سوى ١٥٠٠ شخص منهم، ما لبثوا ان هاجروا الى اسرائيل بدورهم في ١٩٩٢. وهناك اقلية صغيرة ايضاً من المسيحيين الذين كانوا يهوداً واعتنقوا المسيحية حوالي العام ١٨٦٠، واسمهم «الفالاشمورا»، وتعدادهم نحو ٥٠ ألف نسمة، وينتمون رسمياً الى الكنيسة الارثوذكسية القبطية، وعاداتهم مزيج من العادات الافريقية الأصلية والمسيحية واليهودية.

اللغات: الامهرية (رسمية)، ولغات افريقية محلية تتكلمها عدة اثنيات في المنطقة، خاصة الصومالية، والعربية، إضافة الى الايطالية، والفرنسية والانكليزية.

الاقتصاد: بلاد زراعية. تشكل المنتوجات الزراعية كل صادرات البلاد تقريباً واهمها البن. قضت خطة العام ١٩٧٥ بالقضاء على النظام الاقطاعي، فأممت الاراضي، واصبحت الدولة تدير نحو ١٢٥ مزرعة تنتج نحو ٥٠٪ من المحاصيل. اما الصناعة فكانت ما تزال تشكل أقل من ١٠٪ من الانتاج المحلي. واهم الصناعات، تعليب المأكولات، وصنع المنسوجات والسلع المستهلكة محلياً. وليس في إثيوبيا من الثروات المنجمية سوى كمية قليلة من الذهب والبوتاسيوم. وتعتبر إثيوبيا إحدى الدول العشر الأكثر فقراً في العالم.

وفي سياق تطورات السنوات الأخيرة، لم تشهد البلاد تغييرات جذرية على الصعيد الاقتصادي مقارنة مع التغييرات السياسية. وقد اكتُفي بوضع تشريعات هدفت الى الحد من تدخل الدولة في ادارة الاقتصاد. وصدر في ١٩٩٢ برنامج للنهوض الاقتصادي واعادة التأهيل في طور الانتقال والتحول من نظام الاقتصاد المركزي المغلق الى نظام اقتصاد السوق. ويجري الآن (اواسط ١٩٩٣) الاستعداد لتخصيص (نقله الى القطاع الخاص) بعض القطاعات الاقتصادية التي كان يسيطر عليها القطاع العام، منها حوالي ٥٠ مصنعاً و٢٦ فندقاً، وكذلك وسائل المواصلات والنقل البري بين الأقاليم. وبدأت مناقشة سياسة جديدة للسيطرة على النمو الاقتصادي الذي وصل الى ١,٩٪ في ظل زيادة سنوية في عدد السكان بنسبة ٢,٩٪. ويتوقع ان ترتفع تلك النسبة الى ٣,١٪ سنوياً خلال ما تبقى من القرن الجاري. كما بدأ تطبيق نظام نقل إدارة المشاريع الانمائية الى سلطات الاقاليم ويتوقع ان يشمل ذلك حوالي ٦٠٪ من المشاريع التي تمولها الحكومة المركزية والهيئات العالمية والاقليمية. الوحدة النقدية: البير، بدأ التعامل به في ١٩٧٦، وقبله كان الدولار الاثيوبي.

نبذة تاريخية

خلال الألف الأول قبل الميلاد وصل الساميون الى اثيوبيا وأسسوا مملكة أكسوم في هضابها المرتفعة بعد ان انتصروا على الحاميين الذين كانوا قد طردوا قبائل السود في مرحلة سابقة.

وفي القرن الرابع الميلادي، وصل الى تلك الهضاب مبشران مسيحيان قادمان من سورية، فادخلا المعتقدات المسيحية. وبعد ذلك، قامت صلات وثيقة بين مسيحيي اثيوبيا والكنيسة المسيحية في مصر.

ومع انتشار الاسلام في افريقيا السوداء طيلة القرن السابع، وجدت المملكة المسيحية في اثيوبيا نفسها معزولة عن محيطها. وكانت لهذه العزلة نتائج خطيرة بسبب ندرة المبادلات التجارية مع الخارج، وانقطاع العلاقات مع المدنيات المزدهرة في شبه الجزيرة العربية.

دامت تلك العزلة نحو ألف سنة، قامت خلالها ممالك على انقاض ممالك. واشهرها مملكة الزاغويين (١١١٧ – ١٢٧٠) الذين تركوا آثاراً هندسية (منها ١١ كنيسة منحوتة في الصخور في منطقة لاليبالا) تنم عن مدنية مزدهرة. ومن الآثار المهمة الأخرى، خرائب تعود الى مملكة أكسوم القديمة، وقصور لبعض الملوك تعود الى القرن السابع عشر.

يبدأ تاريخ اثيوبيا الحديث مع منليك الثاني الذي اصبح امبراطوراً العام ١٨٨٩ . ويعتبر هذا الامبراطور نفسه سليل منليك الأول ابن سليمان الحكيم والملكة سبأ. وتمكن خليفته، منليك الثاني من القضاء على النزعات القبلية، وإقامة سلطة مركزية قوية، وردّ الغزو الايطالي لبلاده (١٨٩٦)، وسمح للفرنسيين بانشاء خط حديد بين أديس أبابا وميناء جيبوتي. واخيراً، وضع أسس جيش عصري.

وإثر مرض أقعده، اعتزل منليك الحكم (١٩٠٩)، وخلفه وريثه الامبراطور ليدج يسوع الذي تحالف، في الحرب العالمية الأولى، مع الاتراك والألمان. أطيح به في نيسان ١٩١٦، وتوّجت زواديتو، ابنة منليك الثاني، امبراطورة في حين أصبح قريبها تافاري ماكونن وصياً على العرش. وبعد وفاة الامبراطورة في ٣ نيسان ١٩٣٠، طالب الوصي بالعرش وتوّج امبراطوراً باسم هايلي سيلاسي الأول.

هايلي سيلاسي: قبل تتويجه وبعده، كان هايلي سيلاسي يعمل لاصدار تشريع يحظر العبودية في المجتمع الاثيوبي. فتح ابواب اثيوبيا أمام النفوذ الغربي، واصدر دستوراً (١٩٣١) يرسي أسس نظام تمثيلي من مجلسين: مجلس الشيوخ الذي يعيّن الامبراطور جميع اعضائه، ومجلس النواب الذي يختار زعماء المقاطعات والقبائل جميع اعضائه.

وإثر الغزو الايطالي لأثيوبيا (١٩٣٥ – ٣٦)، غادر هايلي سيلاسي البلاد وعاش في لندن حتى ١٩٤١، عندما تمكن الانكليز من طرد الايطاليين من اثيوبيا وتثبيت هايلي سيلاسي على العرش من جديد. وفي ١٩٥٢، ضمت اريتريا (التي كانت تحت السيطرة الايطالية منذ ١٨٨٩) الى اثيوبيا ضمن نظام فدرالي. وفي ١٩٥٥، اعلن الامبراطور تعديلات على الدستور القائم (أهمها انتخاب النواب من الشعب)، مع بقائه الحاكم الفعلي ومطلق الصلاحيات.

في اواخر الخمسينات، ضمت اثيوبيا أوغادين والهود اليها. وفي ١٩٦٢، ألغت النظام الفدرالي الذي يربط أريتريا بها واعتبرتها اقليماً من أقاليمها. وقد كانت هذه الأقاليم المضمومة اليها
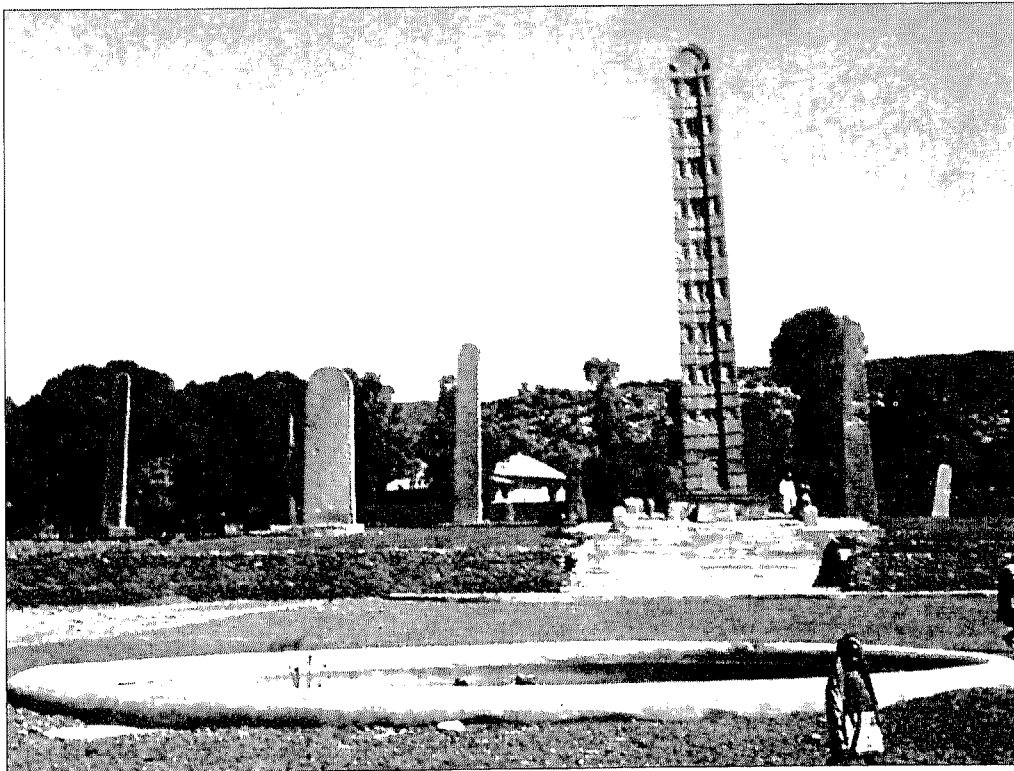
مسلّات أكسوم. آثار مركز ديني قبطي قديم في إثيوبيا

بالقوة، أو بمناورة الدول، بمثابة قنابل موقوتة في جسم اثيوبيا، وكانت حرب التحرير في اريتريا أحد العوامل الرئيسية في إسقاط نظام هايلي سيلاسي، فضلاً عن فشل نظامه في تحقيق اصلاحات سياسية واقتصادية (زراعية على وجه الخصوص)، ومعالجة المجاعة التي اصابت البلاد ١٩٧٣ - ٧٤.

منغيستو هايلي مريام و «الدرغ»: حقق العسكريون انقلاباً ناجحاً ضد الامبراطور هايلي سيلاسي، واتخذوا سلسلة اجراءات ضده انتهت باقصائه رسمياً في ١٢ ايلول ١٩٧٤، وتشكيل مجلس عسكري حاكم «درغ». وبعد نحو ثلاثة اعوام، استولى منغيستو هايلي مريام (وكان على رأس المجلس العسكري») على السلطة، واقصى معارضيه وأعدم عدداً منهم.

في ١٩٧٨، تمكن الجيش الاثيوبي (بعد سلسلة هزائم كان مُني بها) من رد الصوماليين عن إقليم أوغادين الذي كانت الصومال تطالب به. وقد وفّر كل من الاتحاد السوفياتي وكوبا مساعدات عسكرية واقتصادية ضخمة للاثيوبيين مكّنتهم من تحقيق هذا الانتصار، ومن ثم الانفراد بأريتريا وشن هجوم كبير عليها في حزيران ١٩٧٩ .

وكانت سبقت هذه العمليات العسكرية زيارة منغيستو لموسكو (١٩٧٧)، وقيام الرئيس الكوبي فيدل كاسترو بجولته في القرن الافريقي. كما وقعت اثيوبيا (تشرين الثاني ١٩٧٨) معاهدة تحالف مع الاتحاد السوفياتي.

إفريقياً، تميزت علاقات اثيوبيا في اواخر السبعينات بإعلان مصر تضايقها من إقدام اثيوبيا على اقامة مشاريع على النيل الازرق وبدء استغلالها لمياهه. اما سياسة الوفاق والتضامن بين «الدرغ» والعديد من الحكومات الافريقية فقد ظهرت بعض ملامحها في الموقف المشترك المناهض لإسرائيل.

في خريف ١٩٨٢، تجددت الاشتباكات بين الاثيوبيين (تساعدهم المعارضة الصومالية) والصوماليين الذين اعلنوا ان طيارين ألمان شرقيين وكوبيين اشتركوا في القتال الى جانب اثيوبيا. ولما لم تتمكن الصومال من الحصول على دعم مماثل من الغرب، دعا الرئيس الصومالي، سياد بري، الى مفاوضات مباشرة لحل المشكلات العالقة بين البلدين. وفي ١٢ تشرين الاول ١٩٨٢، وفي اطار استمرار الجبهة العسكرية ساخنة بين اثيوبيا والصومال، قام منغيستو بزيارة عمل أخرى للاتحاد السوفياتي، تبودل فيها البحث في «التغييرات الاقتصادية العميقة» التي حققتها اثيوبيا.

مرحلة انتقالية وانجازاتها

في ٢١ ايار ١٩٩١، هرب الرئيس الاثيوبي منغيستو هايلي مريام الى زيمبابوي كلاجئ سياسي بعد ان حاصرت قوات المعارضة (المتحالفة مع قوات أريتريا الداعية للانفصال والاستقلال) أديس أبابا عقب سلسلة من الهزائم العسكرية مني بها الجيش الحكومي.

وبدخول قوات «الجبهة الثورية الديمقراطية لشعوب اثيوبيا» العاصمة وسيطرتها على زمام الامور في عموم البلاد، دخلت اثيوبيا مرحلة مهمة في تاريخها المعاصر تميزت بحدوث تغييرات جذرية في نوعية الحكم وفلسفته السياسية، وكذلك في نوعية وشكل العلاقة بين مختلف القوميات التي تتكون منها اثيوبيا ايضاً.

والى الانتصار السياسي الذي تحقق للقوميات الاثيوبية بسقوط منغيستو وديكتاتوريته العسكرية، رفضت «الجبهة الشعبية» التفرد بالحكم، وأشركت القوى السياسية للقوميات الاثيوبية في

تحديد مستقبل البلاد السياسي، وهو أمر لعب دوراً حاسماً في نقل اثيوبيا من حال الفوضى والغليان العرقي والديني الى مرحلة انتقالية واعدة ترسى فيها الاسس لديمقراطية متعددة الاعراق والثقافات.

مؤتمر أديس أبابا: بدأت هذه الفترة الانتقالية بعقد مؤتمر موسع في أديس أبابا في مطلع تموز ١٩٩١، اشتركت فيه ٢٤ منظمة سياسية تمثل مختلف الشعوب والقوميات في اثيوبيا، الى مراقبين من الدول الخمس الكبرى والامم المتحدة والمنظمات الاقليمية وبعض دول الجوار.

صدر عن المؤتمر ميثاقاً وطنياً للمرحلة الانتقالية اعتبر المرجع القانوني الأعلى في الفترة الانتقالية التي حدّدت بسنتين ونصف السنة (أي الى آخر ١٩٩٣) كحد أقصى، كذلك صادق على حق الشعب الاريتري في الاستفتاء حول مصيره تحت اشراف دولي. وهو ما تمّ فعلاً باعلان استقلال أريتريا في ايار ١٩٩٣ .

وقرر المؤتمر إسناد مهمة الجيش الوطني الى «قوات الجبهة الثورية» خلال الفترة الانتقالية لأنها كانت القوة الوحيدة المتجانسة والمنضبطة تنظيمياً وعسكرياً، كما تم حلّ جميع أجهزة الأمن الداخلية السيئة السمعة.

اعتبر إصدار الميثاق الوطني للمرحلة الانتقالية انجازاً عبّر بوضوح عن تطلعات القوميات المضطهدة في إثيوبيا، لأنه تضمن مبادئ مهمة وقواعد مستجدة على الحياة السياسية في اثيوبيا. ونص على الآتي:

– حق القوميات في تقرير المصير والانفصال اذا انكرت عليها أو سلبت منها حقوقها الأساسية.

– الاعتراف بالتعددية الثقافية والعرقية والدينية في إثيوبيا وعدم جواز هيمنة عرق أو دين معين على الآخرين ومقدراتهم.

– حق القوميات في إدارة شؤونها ضمن حدودها وحقها في استخدام لغاتها الخاصة وتطوير ثقافتها والسيطرة على امكاناتها المحلية إقتصادياً واجتماعياً، والمشاركة ايضاً في الحكم المركزي بشكل مناسب.

– تبني الاعلان العالمي لحقوق الانسان وتطبيقه في اثيوبيا ما يكفل الحريات الأساسية مثل حرية التعبير والتظاهر والاجتماع وتشكيل الاحزاب والنقابات (أفرجت الحكومة – أواخر شباط ١٩٩٣ – عن ٤٠٠ معتقل سياسي كانوا محتجزين منذ اطاحة منغيستو، وهم من بين ألوف آخرين من المسؤولين السابقين).

– تبني سياسة خارجية متوازنة تعطي الأولوية لمصالح الشعوب الاثيوبية وتكفل علاقة حسنة مع الجوار (في هذا السياق، زار رئيس الوزراء الاثيوبي اسرائيل في ٩ ايار ١٩٩٣. وكانت اثيوبيا اعادت العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل في العام ١٩٨٩ . ويعيش اكثر من ٣٠ ألف شخص من اليهود الفالاشا في اسرائيل، وصل حوالي ١٥ ألفاً منهم في عملية نقل جوي نظمتها الدولة العبرية في ايار ١٩٨٩، قبل قليل من سقوط منغيستو).

التجربة: لم تكن هناك تجارب سياسية ايجابية في تاريخ اثيوبيا الحديث ليستفاد منها في تخطي المرحلة الحرجة، اذ انها جربت الحكم الاقطاعي الامبراطوري المبني على قاعدة السلطة المطلقة المستمدة من الأساطير، وكذلك الديكتاتورية العسكرية المتدثرة بالشعارات اليسارية؛ ومع ذلك تمكنت الجبهة الثورية والحكومة من تحقيق خطوات مهمة :

– الأولى، تعيين مجلس للممثلين (برلمان موقت) على اساس قومي شمل كل القوميات في
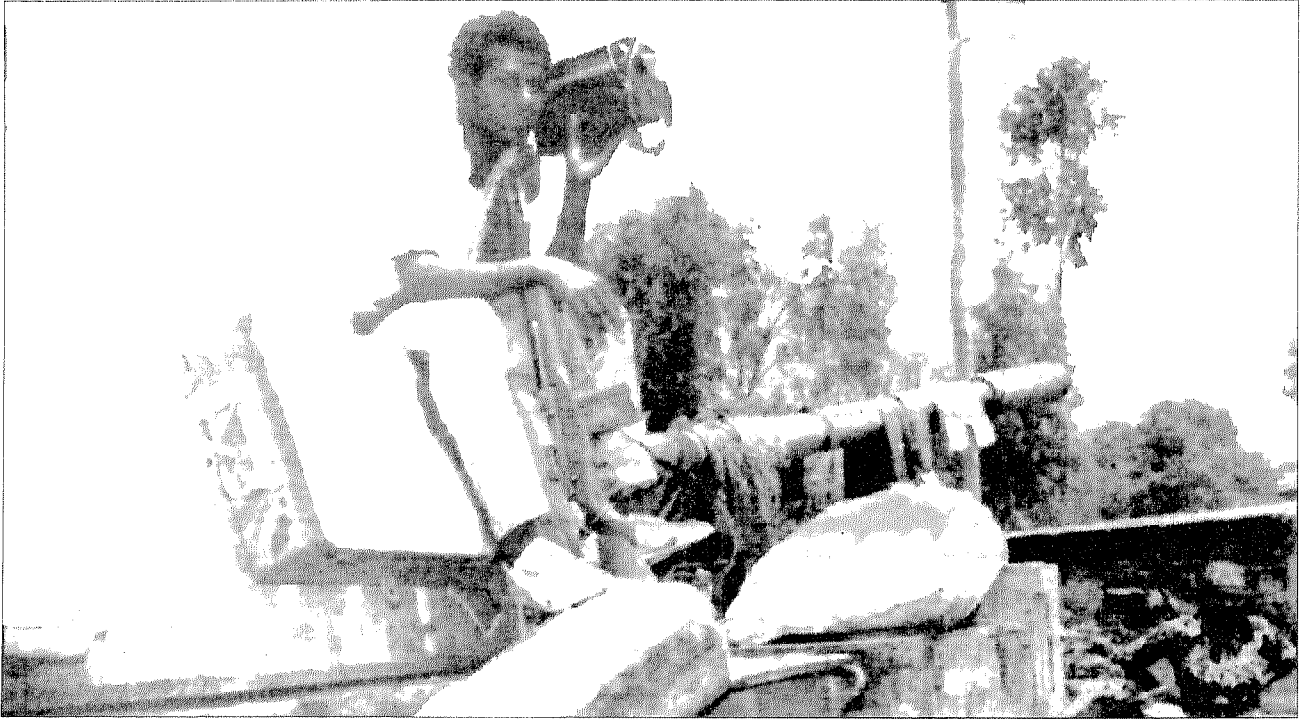
جندي اثيوبي يستريح على ظهر دبابة في جبهة أوغادين

من مخلفات المعارك الاهلية

اثيوبيا، ثم تأليف مجلس وزراء ذي قاعدة عريضة يكون مسؤولاً امام مجلس الممثلين. وعلى رغم ان بعض القوميات ابدى اعتراضه على حجم تمثيله في البرلمان الموقت ومجلس الوزراء، إلا ان بداية الفترة الانتقالية اتسمت بالهدوء وعززت مبدأ مشاركة الجميع في السلطة وعدم احتكارها من فئة معينة.

– الثانية، تثبيت الأمن والاستقرار وفرض النظام والسيطرة على فلول الجيش الاثيوبي المنهار. وكان هذا التحدي الأكبر الذي واجه الحكومة الانتقالية خلال العامين الماضيين (من انهيار نظام منغيستو في ايار ١٩٩١ حتى حزيران ١٩٩٣) قياساً على تكوين اثيوبيا البالغ التعقيد بفعل تعدد الأعراق والأجناس.

– الثالثة، نقل السلطة الى القوميات لادارة شؤونها ضمن حدودها الجغرافية. ووفقاً لذلك تم تقسيم اثيوبيا الى ١٤ إقليماً على اساس قومي ولغوي على ان تتولى إدارة تلك الأقاليم مجالس تشريعية منتخبة بالاقتراع العام المباشر (جرت تلك الانتخابات في النصف الثاني من ١٩٩٢). وفي البداية، اختارت المجالس التشريعية في كل من أقاليم الاورمو، التغراي، العفر الصوماليون (أوغادين) لغاتها القومية كلغات رسمية. وجرى نقل السلطات التنفيذية الى سلطات الاقاليم ما عدا الدفاع والنقد والشؤون الخارجية والصناعات الاستراتيجية.

– الرابعة، تشكل العديد من الاحزاب السياسية التي تتبنى برامج سياسية مختلفة في جميع انحاء إثيوبيا، منها ما هو قومي محض ومنها ما يدعو الى تجاوز ذلك باقامة تحالفات مشتركة. وظهر حزب سياسي يدعو الى عودة الملكية الى اثيوبيا وفق قالب دستوري جديد. وصدر (١٩٩٢) قانون ينظم الصحافة والمطبوعات الغى الرقابة على الصحف. وتصدر في اثيوبيا الآن (اواسط ١٩٩٣) أكثر من ٦٠ مطبوعة ما بين شهرية واسبوعية ويومية تمتلكها الاحزاب السياسية وشخصيات سياسية مستقلة، ما أعطى دفعة قوية للمارسة الديمقراطية في البلاد. فحتى صحف المعارضة الامهرية الصادرة في الولايات المتحدة تدخل البلاد بصورة شرعية وتوزع من دون تدخل من الحكومة على رغم انها تعترض على النظام اللامركزي القائم وتناصبه العداء لما تعتقده انه يفقدها امتيازات كثيرة كانت تتمتع بها في ظل الأنظمة السابقة.

وقد اعتقلت السلطات (٢٢ تموز ١٩٩٣) زعيم «منظمة عموم شعب الامهرا» البروفسور أسرت ولد يس، وبوشر معه التحقيق في شأن أمر أصدره الى اعضاء منظمته لشن حرب على الحكومة الانتقالية الاثيوبية التي يرأسها ملس زيناوي. وكانت هذه المنظمة انشئت في ايلول ١٩٩١، بعد استيلاء زعيم «الجبهة الشعبية لتحرير تغراي»، ملس زيناوي، على السلطة في أديس أبابا. ولا تشارك «منظمة عموم شعب الامهرا» في الحكومة الانتقالية أو في البرلمان اللذين يضمان ممثلين عن غالبية القوميات الاثيوبية وعددها نحو ٨٠ قومية. وترفض المنظمة انفصال اريتريا عن اثيوبيا. وكان معظم قادة المنظمة مسؤولين رفيعي المستوى عملوا في عهدي الامبراطور هايلي سيلاسي والرئيس السابق منغيستو هايلي مريام، وهما أمهريان.

أوغادين : بعد أكثر من ثلاثين عاماً من الحروب المتقطعة، خاضها الصوماليون في أوغادين طلباً للانفصال والاستقلال ضد الحكومات الاثيوبية المتعاقبة، توصلوا، في سياق الفترة الانتقالية وتنفيذاً لقرارات مؤتمر أديس أبابا (تموز ١٩٩١) الذي اشتركوا فيه الى جانب باقي القوميات في اثيوبيا، الى انتخاب (آذار ١٩٩٣) رئيساً لسلطات الحكم الذاتي في اقليم أوغادين بعد نحو ثلاثة أشهر من انتخابات المجلس الاشتراعي للحكم الذاتي. وبهذه الانتخابات، إضافة الى تشكيل الهيئة

التنفيذية (مجلس الوزراء)، اكتمل كيان الحكم الذاتي للاقليم، واعلان الزعماء فيه تخليهم عن مطلب الانفصال والاستقلال، وتوقيعهم لاتفاق في ما بينهم حول هذا الوضع في أديس أبابا (أواخر آذار ١٩٩٣) حيث أعلن الرئيس الأثيوبي، ملس زيناوي، على أثره أن «الصوماليين في اثيوبيا لا يسعون الى الاستقلال، ويتمتعون الآن بحكم ذاتي في اطار الدولة الاثيوبية» (راجع باب «مدن، ومعالم»).

انفصال أريتريا

في حين اكتفى الأوغادينيون (صوماليون) بالقبول بحكم ذاتي ضمن الدولة الاثيوبية استمر الأريتريون يعملون للانفصال والاستقلال التام والناجز. وهذا الامر كان في أساس التحالف بين «الجبهة الثورية الديمقراطية لشعوب اثيوبيا» بزعامة ملس زيناوي (أصبح رئيس اثيوبيا) و «الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا»، لاسقاط نظام الرئيس الاثيوبي منغيستو هايلي مريام.

وعندما تم اسقاط هذا النظام (٢١ ايار ١٩٩١)، وعقد مؤتمر أديس أبابا (المرجع القانوني للسلطة في مرحلة انتقالية أقصاها نحو السنتين ونصف السنة)، بدأ الحليفان يخطوان خطوات تنفيذية نحو استقلال اريتريا، وقد صاحبت ذلك تطورات أهمها، من الجانب الأثيوبي:

– دفاع الرئيس الاثيوبي، ملس زيناوي، (كانون الاول ١٩٩٢) عن موقف حكومته المؤيد لاجراء استفتاء على استقلال اريتريا معتبراً انه «الطريقة السلمية الديمقراطية الوحيدة لمعالجة مشكلة أريتريا» (التي ضمتها اثيوبيا في العام ١٩٥١)، ومتهماً معارضي الاستفتاء من الاثيوبيين انهم «يريدون جر اثيوبيا الى حرب أهلية جديدة».

– إزاء هذه السياسة الحكومية الداعمة لانفصال اريتريا، صعّدت المعارضة الاثيوبية من تحركها، وعقدت مؤتمراً في باريس (١١ – ١٣ آذار ١٩٩٣، أي قبل موعد الاستفتاء على استقلال اريتريا بنحو خمسة اسابيع) شاركت فيه سبعة فصائل هي: تحالف القوى الديمقراطية الاثيوبية، والحزب الديمقراطي لانقاذ اثيوبيا، وحزب مؤتمر القوميات الاثيوبية، والاتحاد الديمقراطي الثوري العفري، وجبهة تحرير اورومو وتيغراي، والتحالف الديمقراطي لشعوب جنوب اثيوبيا. واثر محادثات برئاسة وزير خارجية اثيوبيا السابق، الكولونيل غوشو ولدو، توصلت هذه الحركات المعارضة الى «اتفاق حد أدنى» تمحور حول عدم شرعية النظام الحاكم «لأنه جاء بقوة السلاح وليس عبر انتخابات ديمقراطية». وكانت المسألة الاريترية من أعقد المسائل في المؤتمر. وذلك لأن هذه الفصائل كانت ترفع شعار الديمقراطية وحق القوميات والشعوب في تقرير مصيرها من جهة، ورفض بعض زعماء المعارضة اقرار ذلك الحق عملياً للشعب الاريتري من جهة أخرى.

– تم الاستفتاء في موعده، واعقبه اعلان الاستقلال (اواخر نيسان ١٩٩٣)، وبدأت تكر سبحة الاعترافات الدولية باستقلال أريتريا. وفيما الاريتريون يعيشون أجواء إحتفالية باستقلالهم، طغى على الإثيوبيين في أديس أبابا شعور بالحزن لفقدانهم «إقليم أريتريا» الذي كان يعرف بالاقليم الرابع عشر في اثيوبيا. وكان النظامان الاثيوبيان السابقان، الامبراطوري (هايلي سيلاسي) والماركسي (منغيستو هايلي مريام)، حاولا على مدى اكثر من ٤٠ عاماً الابقاء على اريتريا ضمن اثيوبيا.وخسر الشعبان الاثيوبي والاريتري خلال هذه الفترة ما يزيد على ٢٠٠ ألف قتيل في حرب كانت اطول الحروب في افريقيا، وانتهت بسقوط نظام منغيستو في ايار ١٩٩١ . وكان اكثر المعارضين لاستقلال

اريتريا «منظمة عموم شعوب الأمهرا» (آيو) التي يرأسها البروفسور أسرات ولدي يس. وقد نشطت هذه المنظمة، قبيل موعد الاستفتاء، فبعثت برسائل الى الامم المتحدة وحكومات الدول الغربية والولايات المتحدة تعترض فيها على اجراء الاستفتاء، ونظمت تظاهرات عدة في اثيوبيا نفسها.

– بعد استقلال اريتريا، واعتراف حكومة أديس أبابا بها دولة مستقلة ذات سيادة (٣ ايار ١٩٩٣)، بدأت الحكومة الاثيوبية تتعرض لضغوطات داخلية تطالب بترحيل نحو ٣٥٠ ألف أريتري يعيشون ويعملون في اثيوبيا كونهم قد اصبحوا معتبرين من الاجانب بعد ان كانوا، قبل أيام، مواطنين أثيوبيين. وسيشكل هذا العدد الكبير من الاريتريين ازمة كبيرة لحكومة أسمرا (عاصمة اريتريا) التي تواجه مشاكل أخرى تتعلق ببناء دولة كاملة، إذ دمرت الحرب التي استمرت ثلاثين عاماً كل البنى التحتية لاريتريا. ولا توجد عملياً فيها نواة كاملة لأي من القطاعات والمؤسسات خصوصاً الاقتصاد والزراعة والتعليم والمواصلات. ويبرر الاثيوبيون (خصوصاً المعارضة) طلبهم ترحيل الاريتريين بأنهم، ومع «احترامهم قرار الشعب الاريتري بالانفصال عن اثيوبيا والاستقلال في دولة ذات سيادة، لكن ذلك لا يعني ان تواصل الحكومة الاثيوبية دفع رواتب من خزانتها لموظفين صاروا أجانب ولديهم دولة، في حين ان لدينا اكثر من خمسة ملايين عاطل عن العمل».

تعاون أمني ودفاعي بين اثيوبيا واريتريا: في ٣٠ تموز ١٩٩٣، وقّع الرئيسان الاثيوبي ملس زيناوي، والاريتري اسايس افورقي، اول اتفاق رسمي بين بلديهما بعد استقلال اريتريا الذي اعلن في نيسان ١٩٩٣. وينص الاتفاق على التعاون في مجالات عدة ابرزها الامن والدفاع. وفي البيان المشترك الذي صدر عن الرئيسين انهما اتفقا على تسهيل حركة نقل البضائع وحرية تنقل المواطنين بين البلدين، واستخدام مشترك لمرفأي عصب ومصوع المطلين على البحر الأحمر، والتعاون في مجالات الأمن والدفاع والسياسة الخارجية والاقتصادية، وتشكيل لجنة وزارية مشتركة لتنفيذ الاتفاق.

والجدير ذكره انه على رغم انفصال اريتريا واستقلالها رسمياً عن اثيوبيا، ما زالت العلاقات بين البلدين متداخلة الى حد يصعب معه الفصل بينها، وربما جاء الاتفاق الجديد ليؤطر هذه العلاقات. والاريتريون ما زالوا، بعد ثلاثة اشهر من الاستقلال، يستخدمون جوازات سفر اثيوبية ويتعاملون بالعملة الاثيوبية.

وحول الاتفاق الامني الاخير، يعتقد اريتريون ان هدفه الرئيسي هو السيطرة على أي نشاط مسلح لقبائل العفر الموجودة في اريتريا واثيوبيا.

الفالاشا و«شعب غيحون»

الفالاشا: طائفة يهودية اثيوبية ذات معتقدات خاصة مختلفة عن سائر الطوائف اليهودية. ويطلق الاثيوبيون على ابناء هذه الطائفة إسم « الفالاشا» الذي يشتق من كلمة «بالانش» العبرية، ويعني المهاجر والبدوي في الوقت نفسه. اما هم فيطلقون على انفسهم إسم «بيتا اسرائيل» وتعني قبيلة اسرائيل.

قدر عدد الفالاشا في اواسط الثمانينات بحوالي ٢٥ ألف نسمة (راجع السكان في بطاقة التعريف)، وهم يعيشون من الزراعة والرعي والعمل في بعض الحرف اليدوية.

ما يزال اصل الفالاشا غامضاً. ففي حين يزعم عدد من العلماء اليهود انهم يتحدرون من نسل

الملك سليمان والملكة بلقيس حيث هاجروا الى اثيوبيا منذ حوالي ثلاثة آلاف عام بقيادة الامير مينيليك، يؤكد علماء آخرون بأن الفالاشا هم أفراد قبيلة إفريقية اعتنقت اليهودية عن طريق اليهود الذين هاجروا الى مصر عبر البحر الأحمر.

يقول البروفسور جوزف طوبيانا، الأخصائي في الحضارات الافريقية، في حديث له الى صحيفة «لوماتان» الفرنسية (٥ كانون الثاني ١٩٨٥) ان «اصل الفالاشا الاسود وفهمهم الخاص جداً للدين اليهودي يؤكدان بأنهم افراد قبيلة اثيوبية اعتنقت الدين اليهودي بعد ان ادخلوا عليه تعديلات تتناسب ومفاهيمهم المستمدة من وسطهم وبيئتهم».

ويضيف البروفسور طوبيانا ان الفالاشا يتحدرون بالاساس من «الأغاوا» وهو اقدم شعب سكن شمالي اثيوبيا، وذلك قبل ان تخضع هذه المناطق لحكم الساميين الذين جاؤوا من اليمن اثر انهيار مملكة سبأ وتأسيسهم لمملكة «أقسوم» (أكسوم). وان هذه المملكة انهارت في القرن الرابع الميلادي اثر خلافات عنيفة بين القبائل التي انشأتها. ومنذ ذلك الحين، توزع شعب «الأغاوا» بين ثلاث ديانات رئيسية : القسم الأول اعتنق المسيحية الارثوذكسية الثاني هاجر الى منطقة اخرى اسمها «البابان» والثالث اعتنق اليهودية واقام في منطقة «غوندور». وقد بقي الفالاشا في هذه المنطقة حتى تاريخ تهجيرهم الى اسرائيل (اوائل ١٩٨٥).

وللدلالة على صدق مقولته هذه يؤكد البروفسور طوبيانا انه لهذا السبب بالذات لا يعرف الفالاشا اللغة العبرية إطلاقاً، وهم يتكلمون اللغة الأمهرية بعد ان اندثرت لغتهم الاصلية المسماة باسمهم «الغويانا».

اما الرحالة جيمس بروس الذي اكتشف وجود الفالاشا في اثيوبيا وعرّف العالم الغربي بهم من خلال كتابه المؤلف من خمسة مجلدات واسمه «الرحلات لاكتشاف منبع النيل»، فيقول في كتابه هذا ان الفالاشا دُهشوا عندما عرفوا ان هناك يهوداً آخرين موجودين في هذا العالم. فقد كانوا يعتقدون بأن اليهود جميعهم من السود.

لا يعرف الفالاشا كتاب التلمود ولا يعترفون به. وكتابهم المقدس هو نسخة محورة من التوراة المكتوبة باللغة الامهرية. ويقول الباحثون الغربيون ان ديانة الفالاشا هي شكل قديم من اليهودية المعدّلة وفق بيئتهم، وشعائرهم بدائية ولا تمت بصلة الى الشعائر اليهودية السائدة. ومن الواضح ان ديانة الفالاشا تأثرت بالديانات الأخرى السائدة في اثيوبيا. فقد اخذوا من المسيحية الارتباط المباشر برجال الدين حيث يأخذون الاوامر والتعليمات من الرهبان والراهبات ويمارسون سر الاعتراف، واخذوا من الاسلام تعدد الزوجات، كما تبنوا بعض التقاليد المستمدة من الوسط الزنجي الوثني المحيط بهم مثل ختان النساء في الوقت الذي لا يختنون فيه الرجال كما هو متبع لدى سائر اليهود.

اول اتصال بين الفالاشا وسائر اليهود تم في القرن الخامس عشر ميلادي، حيث اشار حاخام القاهرة في ذلك الزمن في كتابات له الى وجود اتصالات بينه وبين «يهود لهم عادات غريبة في اثيوبيا». لكن هذه الاتصالات لم تأخذ طابعاً جدياً الا بعد قيام الحركة الصهيونية، غير ان تجاوبهم معها كان ضعيفاً. وفي العام ١٩٠٤، سافر الى منطقة «الغوندور»، حيث يقيم الفالاشا، عضو في الحركة الصهيونية العالمية إسمه جاك فيتلوفيتش بعد ان حصل على مساعدة مالية من البارون اليهودي ادموند دي روتشيلد، وحاخام باريس زادوك كوهين.

وبعد إقامته حوالي العام بين الفالاشا، بعث فيتلوفيتش برسالة الى الحاخام حاييم ناحوم قال فيها انه متأكد من انه «لا يوجد دم يهودي لدى الفالاشا». واضاف في رسالته ان الفالاشا سعداء حيث هم ولا يفكرون

بالهجرة الى الخارج على الاطلاق، وأكد انه من غير المفيد تعليمهم اللغة العبرية وتعاليم اليهودية الحديثة.

وعندما قام الكيان الصهيوني العام ١٩٤٨ انشأ، بمساعدة من الامبراطور هايلي سيلاسي حوالي الخمسين مدرسة في منطقة الفالاشا من اجل تعليمهم العبرية واليهودية الحديثة. ولكن هذا النشاط لم يلق اقبالاً من ابناء الفالاشا واخذ ينحسر الى ان تمّ اقفال آخر مدرسة في اواخر الستينات. وبعد ان باءت هذه الجهود بالفشل نشأ لدى قادة الحركة الصهيونية واسرائيل وكبار حاميي اليهود قناعة بعدم جدوى النشاط بين الفالاشا، ووصل الامر ببعضهم – من ابرزهم اسرائيل ياشايهو، رئيس سابق للكنيست الاسرائيلي – للدعوة الى اسداء النصيحة للفالاشا بضرورة حل مشاكلهم عن طريق اعتناق المسيحية.

وبقيت المراجع الدينية اليهودية تعتبر الفالاشا غير يهود حتى ١٩٧٢، عندما اعلن كبير حاخامي طائفة اليهود السفارديم في اسرائيل أوفاديا يوسف ان اصل الفالاشا يعود الى قبيلة «الدان» الضائعة والتي هي إحدى القبائل الإثنتي عشرة التي يتشكل منها اليهود. وفي العام ١٩٧٥، نجحت جهود اوفاديا يوسف في استصدار تصريح رسمي من مجلس حاخامي اسرائيل اعترفوا فيه بـ «يهودية الفالاشا وحقهم في العودة الى اراض الميعاد».

ومنذ ذلك التاريخ بدأت جهود الحركة الصهيونية تأخذ طابعاً منظماً ورسمياً من اجل تهجير الفالاشا الى اسرائيل. ولكن هذه الجهود لم تثمر الا في تهجير بضع مئات من الشبان الفالاشا الذين أغرتهم الوعود بحياة جديدة مرفهة.

وفي العام ١٩٧٧، ناقشت حكومة مناحيم بيغن تقريراً حول تهجير الفالاشا كانت قد تقدمت به الوكالة اليهودية العالمية. وفي هذا التقرير تم عرض الجهود والاتصالات التي تقوم بها منظمتان صهيونيتان هما : المنظمة البريطانية لمساعدة الفالاشا التي تأسست العام ١٩٦٨ ويرأسها اليهودي البريطاني دافيد كيسلر، والمنظمة الاميركية ليهود اثيوبيا المؤسسة في العام ١٩٦٠ ويرأسها اليهودي الاميركي غرانيوم بيرغد. وقد وافقت الحكومة على خطة تهجير الفالاشا (الى اسرائيل) واطلقت عليها إسم «عملية موشي». وكان من المقرر ان تنفذ هذه العملية العام ١٩٧٨، عبر اتفاق سري مع نظام منغيستو هايلي مريام. ولكن تصريحاً لموشي دايان في ٦ شباط ١٩٧٨ في زوريخ قال فيه «إن اسرائيل تزود اثيوبيا بالاسلحة» ابطل مفعول هذا الاتفاق.

وبعد ذلك تم إدخال تعديلات على «عملية موشي»، بحيث اخذت تتم عن طريق السودان ومن خلال استخدام مخيمات اللاجئين في جنوب شرق السودان. وجاءت موجة القحط والجفاف التي اصابت اثيوبيا لتشجع الفالاشا على الهجرة هرباً من المجاعة التي ضربت المنطقة.

لقد تم تنفيذ «عملية موشي» بتنسيق مع الرئيس السوداني محمد جعفر نميري. وقد أكدت التحقيقات التي اجرتها الحكومة السودانية عقب إحاطة الرئيس نميري في ٦ نيسان ١٩٨٥ تورطه في هذه العملية. وبات من الثابت ان عدة اطراف دولية، على رأسها الادارة الاميركية، دعمت تنفيذ هذه العملية وساعدت على تهجير الفالاشا خلال الفترة الممتدة من اوائل شهر تشرين الثاني ١٩٨٤ حتى اوائل كانون الثاني ١٩٨٥ الى اسرائيل (موسوعة السياسة، ج٤، ص ٤٥٤ – ٤٥٦). بعد هذا الوقت، لم يبق سوى ١٥٠٠ شخص منهم ما لبثوا ان هاجروا الى اسرئيل بدورهم في ١٩٩١ و ١٩٩٢ في إطار «عملية سليمان».

«**شعب غيحون السامي**»: نقلت «الحياة» (٩ آب ١٩٩٣، ص٥) عن صحيفة هآرتس الاسرائيلية ما نشرته هذه الصحيفة، قبل يوم، بصدد هذا «الشعب»، ان نحو اربعة ملايين اثيوبي

يؤكدون انهم يتحدرون من اصل يهودي يطالبون بأن يتم الاعتراف بهم كيهود. ويطلق هؤلاء الاثيوبيون على أنفسهم إسم «شعب غيحون السامي»، باسم نبع «غيحون» في القدس الذي ورد ذكره في التوراة. وقالت الصحيفة ان منظمة تمثلهم وجهت اخيراً طلباً خطياً بهذا المعنى الى سفارة اسرائيل في اديس أبابا. وفي الوقت ذاته قام رئيس المنظمة الاخصائي في علم الأنتروبولوجيا والاجتماع موسى تاغانيني بالطلب من سلطات بلاده منح هؤلاء الاثيوبيين الذين يقيمون في منطقة تقع شمال اثيوبيا بين اقليم قندر وأديس أبابا وضع الاتنية الخاصة. وفي رسالة أخرى وجهتها الى رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين طلبت المنظمة افتتاح مكتب تمثيل لـ «شعب غيحون» في القدس. واعتبر سفير اسرائيل في اثيوبيا حاييم ديبون ان «هذه الخطوة ليست مثيرة للاستغراب لأن الكثير من المجموعات داخل الكنيسة الاثيوبية تؤكد انها متحدرة من اصول عبرانية». وقال رداً على اسئلة للاذاعة الاسرائيلية «اننا ندرس الموضوع المثير للاهتمام من الناحية التاريخية وندرس طلبهم بعناية كبيرة». من جهة اخرى اعلنت الناطقة باسم وزارة الاستيعاب ايدا بن شيتريت ان ١٦ شخصاً من الفلاسمورا، وهم اثيوبيون من اصل يهودي اعتنقوا المسيحية، سيصلون الى اسرائيل في الايام المقبلة. واوضحت ان عدد «الفلاسمورا الذين سمح لهم بالاقامة في اسرائيل بلغ ١٢٩ شخصاً في إطار جمع شمل العائلات بموجب قرار صادر عن لجنة وزارية شكلت خصيصاً للبحث في هذه المسألة».

مدن ومعالم

* **أديس أبابا**: عاصمة إثيوبيا. أنشأها منليك الثاني ١٨٨٧ . ارتفاعها عن سطح البحر نحو ٢٥٠٠م. نحو ١,٢٠٠,٠٠٠ ن. اصبحت جيبوتي المجاورة لاثيوبيا أهم منفذ لها على البحر بعد إنشاء سكة الحديد أديس أبابا - جيبوتي في ١٩١٧ . مركز منظمة الوحدة الافريقية.

* **أكسوم Axum**: مدينة قبطية في الحبشة (إثيوبيا). نحو ١٣,٠٠٠ ن. كانت عاصمة مملكة أكسوم القديمة في القرون المسيحية الأولى ولغاية القرن الثالث عشر. تجارة العاج.

* **أوغادين**: اقليم افريقي متنازع عليه بين إثيوبيا والصومال. ويعرف في الصومال على انه الصومال الغربي. ضم الى إثيوبيا ١٨٨٩ وأغلبية سكانه من الصوماليين. تتألف اوغادين من ثلاثة معاقل رئيسية هي : اقليم هررجي وهرر وإقليم ديراداوا. وتعد جيجيغا آخر بلدة قبل الهضاب الاثيوبية المرتفعة ومضيق كارا - ماروا الواقع على بعد ١٥ كلم الى الغرب، ويمر بها الطريق الرئيسي المتجه جنوباً الى اوغادين، ويمتد الطريق الآخر الذي يمر بجيجيغا شرقاً حتى الحدود الصومالية ليصل الى هارعشيا عاصمة شمال الصومال والى بربرة وهي ميناء صومالي على خليج عدن. وصحراء اوغادين منطقة نزاع بين اثيوبيا والصومال. فاثيوبيا تعتبر ان اوغادين جزء من اراضيها فيما الصومال تعتبر اوغادين صومالية ومن حق شعبها تقرير مصيره. في ١٩٧٧، استطاعت جبهة تحرير الصومال الغربي (أوغادين من وجهة نظر اثيوبيا)، بمساعدة من الصومال، تحرير القسم الأكبر منها، وقد دارت حرب طاحنة بين اثيوبيا تساندها قوات كوبية وبدعم من الاتحاد السوفياتي من جهة، وبين الصومال من جهة اخرى. وكانت الولايات المتحدة، ومعها الدول الغربية، مؤيدة لاثيوبيا، ثم اصبح الموقف الغربي غامضاً بعد ذلك. هاجر معظم سكان اوغادين نتيجة الحرب، وأعادت اثيوبيا سيطرتها على اوغادين، إلا ان حرب العصابات بقيت مستمرة الى ان أدّت حرب اوغادين الى قلب التحالفات الدولية في القرن الافريقي. ونتيجة للتطورات الدولية (على رأسها تفكك الاتحاد السوفياتي)، ولتطورات المنطقة (على رأسها نزول الجيش الاميركي في الصومال - بداية ١٩٩٣)، حصل في اوغادين نفسها تطور بالغ الأهمية (الاسبوع الأول من آذار ١٩٩٣) اذ اعلن الأوغادينيون سقوط شعار «الكفاح المسلح» وتراجعوا عن المطالبة باستقلال إقليم اوغادين (الصومالي سابقاً) في شرقي إثيوبيا. فبعد اكثر من ثلاثين عاماً من الحروب المتقطعة خاضها الصوماليون في اوغادين ضد الحكومات الاثيوبية المتعاقبة، انتخبوا اخيراً (آذار ١٩٩٣) رئيساً لسلطات الحكم الذاتي في أقليم أوغادين الذي اطلق عليه الامبراطور هايلي سيلاسي الاسم الاثيوبي «هررغي» بعدما ضمه الى اثيوبيا مطلع الخمسينات. وكانت انتخابات المجلس التشريعي (البرلمان الاقليمي) للحكم الذاتي جرت في اوغادين نهاية ١٩٩٢، وحصلت «الجبهة الوطنية لتحرير اوغادين» على غالبية مقاعد البرلمان المؤلف من ١٤٤ مقعداً، كما هيمنت على مقاعد الهيئة التنفيذية (مجلس الوزراء الاقليمي)، وهي أعلى سلطة في نظام الحكم الذاتي. واكتمل كيان الحكم الذاتي في اوغادين مع انتخاب كل من عبد الله محمد سعدي رئيساً لسلطات الحكم الذاتي، وزياد بدري محمد نائباً له. وبذلك دخل الاقليم ضمن نظام الدولة الاثيوبية الاتحادي الذي حارب للاستقلال عنها طوال اكثر من ربع قرن من الزمن. وكان سعدي احد قادة «جبهة تحرير الصومال الغربي» (اوغادين) التي تبناها الرئيس الصومالي المخلوع محمد سياد بري في السبعينات، كما كان احد مؤسسي «الجبهة الوطنية لتحرير اوغادين» مطلع الثمانينات. ويذكر في هذا السياق ان الضابط الاثيوبي، ملس زيناوي، رئيس «الجبهة الثورية لشعوب اثيوبيا» كان زحف بقواته الى العاصمة الاثيوبية أديس أبابا (ايار ١٩٩١) واطاح نظام الرئيس منغيستو هايلي مريام. ودعا زيناوي، لدى تسلمه السلطة، جميع القوميات الاثيوبية اعلان حكم ذاتي في اقاليمها اذا رغبت في ذلك، والمطالبة بالاستقلال بعد موافقة جميع القوميات في البلاد.

اما قبول سكان اوغادين اخيراً (آذار ١٩٩٣) بالحكم الذاتي في إطار الدولة الاثيوبية الاتحادية فمرده، كما يرى السياسيون الأوغانديون، الى التشرذم داخل ساحة الاقليم الذي حتم القبول بالحد الأدنى وهو الحكم الذاتي. إذ تأسس في الاقليم خلال اقل من ستة اشهر بعد سقوط نظام منغيستو اكثر من ١٤ تنظيماً سياسياً وعسكرياً لكل منها اتجاه مغاير للآخر. إضافة الى ان الحكومة الانتقالية في اثيوبيا استغلت هذا التشرذم ودفعت الاوغانديين في اتجاه لم يستطيعوا معه سوى اختيار الحكم الذاتي وإسقاط مطلب الاستقلال.

وكان متشددون داخل «الجبهة الوطنية» التي

يتزعمهم رئيسها الشيخ ابراهيم عبد الله محمد، لا يزالون حتى اواسط ١٩٩٢، يدعون الى اعتماد المواجهة المسلحة ضد الحكومة الانتقالية في اثيوبيا بغية الانفصال واعلان الاستقلال. ومنذ تموز ١٩٩٣ (حتى هذه الايام، ايلول ١٩٩٣) والاقليم يعيش حال من الخلافات والتوتر قام في اجوائها انقلاب ابيض اطاح اول رئيس لادارة الحكم الذاتي عبدالله محمد سعدي، وانتخب البرلمان الاقليمي حسن جري قلنلي خلفاً له.

* **بيدوا Baidoa**: مدينة اثيوبية. تعد نحو ١٥,٠٠٠ ن.

* **تسانا** (أو تانا): اكبر بحيرات الهضبة الاثيوبية. يخرج في جنوبها النيل الأزرق.

* **تغره Tigre**: مقاطعة في شمال اثيوبيا. قاعدتها مكاليه. نحو ١،٣٠٠،٠٠٠ ن.

* **الحبشة Abyssinie**: إسم اثيوبيا القديم.

* **دبرا ليبانوس**: معناه دير جبل لبنان. منسك شهير في الحبشة (اثيوبيا) ومن اقدم الاديرة في الشرق. يقع الى الشمال من أديس أبابا. مزار اتخذه الاسقف تقلا حيمانوت مقاماً منيعاً في القرن الثالث عشر ليدفن فيعه اعيان الأحباش.

* **ديره داوه**: مدينة حديثة باثيوبيا أنشئت ١٩٠٢ مع نشأة السكة الحديدية. نحو ٥٨,٠٠٠ ن.

* **عدوة**: مدينة باثيوبيا. نحو ١٥,٠٠٠ ن. شهدت موقعة حاسمة انتصر فيها منليك الثاني على الايطاليين ١٨٩٦.

* **غوندار Gondar**: مدينة في شمال غربي اثيوبيا. نحو ٣٨,٠٠٠ ن. كانت عاصمة البلاد قديماً.

* **لاليبلا Lalibela**: احدى المدن المقدسة في اثيوبيا. نحو ٥,٠٠٠ ن. تقع في اواسط البلاد. فيها كنيسة منقوشة في الصخر شهيرة بآثارها القبطية العربية.

* **مجدلا Magdala**: مدينة في وسط اثيوبيا. مركز بلاد الغَلا.

زعماء ورجال دولة

* **تيفري، بنتي Teferi, Benti** (١٩٢١ – ١٩٧٧): جنرال ورئيس المجلس العسكري الاثيوبي (الدرغ) من ١٩٧٤ الى ١٩٧٧ . عمل بالقوات البرية لمدة ٣٣ عاماً في وحدات مختلفة في منطقة هارارجي، ثم بمقر قيادة الفرقة الرابعة للجيش في أديس أبابا. وملحق عسكري لمدة خمس سنوات. وبعد عودته عمل قائداً للأكاديمية العسكرية للقوات البرية في هرر، ثم عين قائداً للفرقة الثانية في القطاع الشمالي من البلاد قبل الانقلاب الذي اطاح حكم الامبراطور هايلي سيلاسي. وبعد مقتل الجنرال أمان عندوم في تشرين الثاني ١٩٧٤ اختاره المجلس العسكري الاثيوبي رئيساً له، وبقي حتى شباط ١٩٧٧ حين اطاح حكمه العقيد منغيستو هايلي مريام، واعدمه.

* **عندوم، أمان م. Andom, Aman M.** (١٩٢٤ – ١٩٧٤): عسكري ورجل دولة حبشي (اثيوبي). ولد في اريتريا. بروتستانتي لوثري المذهب. تعلم في مدرسة اميركية في الخرطوم عاصمة السودان. التحق بحركة المقاومة ضد الاحتلال الايطالي. ظل جندياً نظامياً في القوات الاثيوبية حتى عام التحرير (١٩٤١)، التحق بعدها بالكلية العسكرية في الخرطوم، وسافر الى انكلترا للتخصص في اكاديميتي كامبرلي وساندهيرست العسكريتيين. ثم ترقى الى رتبة لواء (جنرال ميجور) في ١٩٦٢ .

كان دائم الانتقاد لحكم الامبراطور هايلي سيلاسي. أوفد، على اثر تمرد الحرس الامبراطوري في ١٩٦٠، ملحقاً عسكرياً في الولايات المتحدة (١٩٦٤). لكنه استقال من الجيش في العام التالي، وصار عضواً في مجلس الشيوخ الذي كان صورياً. وتابع نقده العلني للنظام الأوتوقراطي. بعد انتفاضة ١٩٧٤، عين وزيراً للدفاع ورئيساً للاركان، وعضواً في لجنة التنسيق العسكري.

كان قد أولى عنايته لحركة المقاومة الاريترية. فزارها(١٩٧٤) ودرس ما يجري فيها وابدى تعاطفاً مع مطالبها. وحين خلع الامبراطور في ١٢ ايلول ١٩٧٤، بدأ المجلس العسكري المؤقت (الدرغ) يحكم البلاد وعين عندوم رئيساً له، مع احتفاظه بمنصبه رئيساً للاركان ووزيراً للدفاع. لكنه كان على خلاف مع اعضاء المجلس.

الملك منليك امبراطور إثيوبيا

تتويج الملكة ليوديسيون على عرش إثيوبيا (١٩١٧)، والى جانبها راس تافاري
الذي سيصبح الامبراطور هايلي سيلاسي

بعد عودته من زيارته اريتريا واقتناعه بالحل السلمي للمشكلة الاريترية، رفض التصديق على اعدام المتهمين بمعارضة الثورة بدون محاكمة، واستقال من رئاسة الاركان ومن رئاسة المجلس الحاكم. في ٢٢ تشرين الثاني (١٩٧٤)، فرضت الاقامة الجبرية عليه، ثم قتل في اليوم التالي بالرصاص اثناء الهجوم العسكري المسلح على منزله والذي دبرته العناصر المتطرفة في «الدرغ» المحسوبة على منغيستو هايلي مريام الذي كان لا يؤمن بجدوى الحل السياسي للمشكلة الاريترية.

* **ماكونين، اندلكاتشيوي Makonnen, E.** (١٩٢٦ – ١٩٧٤): سياسي اثيوبي تولى رئاسة الحكومة قبيل ثورة «الدرغ» (المجلس العسكري الحاكم). ينتمي الى عائلة ارستقراطية. ابوه كان صديقاً حميماً للامبراطور هايلي سيلاسي، وكان قد تولى رئاسة الحكومة ورئاسة مجلس الشيوخ لسنوات. بعد دراسته الاقتصاد والسياسة والفلسفة في جامعة أكسفورد، دخل العام ١٩٥٣ ملاك وزارة الخارجية حيث ما لبث ان أصبح نائباً للوزير. وتولى بعد ذلك مناصب عديدة دبلوماسية ووزارية. فأصبح ممثل اثيوبيا لدى الامم المتحدة، وترأس، بهذه الصفة، مجلس الأمن بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٦٩. ورشحته الدول الافريقية العام ١٩٧١ لخلافة يوثانت في الامانة العامة للامم المتحدة.

في اوائل ١٩٧٤، اختاره الامبراطور هايلي سيلاسي رئيساً للوزراء، فوعد باجراء اصلاحات ساعياً الى امتصاص النقمة المنتشرة في الاوساط الشعبية وداخل الجيش. اعتقل بعد اسابيع من وقوع الانقلاب العسكري، واعدم في تشرين الثاني ١٩٧٤.

* **منغيستو، هايلي مريام Menguistu, H.M.**: الرجل القوي في السلطة منذ إطاحة الامبراطور هايلي سيلاسي (١٩٧٤) حتى فراره هو من البلاد (١٩٩١). نشأ في بيئة إجتماعية متواضعة، إذ كان ابوه جندياً بسيطاً في الجيش الامبراطوري. التحق منغيستو بالجيش، وكان في العشرين من عمره. تخرج من الكلية العسكرية. في شباط ١٩٧٤، تحرّك العديد من القطاعات المهنية ضد النظام الامبراطوري، وانتقلت عدوى التحرك والثورة الى الجيش الذي كان يمثل آخر معقل من معاقل النظام. فتشكلت لجنة تنسيق من القوات المسلحة عرفت ب «الدرغ» تمثل فيها الجيش بقطاعاته الثلاثة : البرية والبحرية والجوية. وشغل الجنرال تيفيري بانتي منصب رئيس الدولة والحكومة وكان منغيستو نائباً للرئيس. ثم لم يلبث ان اصبح الرجل القوي في الحكومة العسكرية، وذلك في اعقاب المجزرة التي نفذت في تشرين الثاني ١٩٧٤، والتي ذهب ضحيتها حوالي ستين شخصاً من افراد الاسرة الامبراطورية، بمن فيهم العديد من كبار الموظفين في العهد الامبراطوري. وكان منغيستو في طليعة الراديكاليين متمسكاً باصرار بوحدة اثيوبيا في وجه دعاة الانفصال والاستقلال، أي الاريتريين.

في المجالين السياسي والاقتصادي، عكف منغيستو على ربط بلاده بحزم بعجلة النظام الاشتراكي (بيان شباط ١٩٧٥). في ٢٣ ايلول ١٩٧٦، نجا من محاولة اغتيال. بعدها، اخذ يتفرد اكثر فأكثر بالسلطة، لكنه اتى بمنجزات، فزاد النتاج القومي، وتجاوز عدد افراد القوات المسلحة الـ ٣٥٠ الف رجل مجهزين بأحدث الاعتدة (من الاتحاد السوفياتي خصوصاً، ثم من كوبا)، واهتم بالتعليم، واكتشفت في الأوغادين حقول هائلة من الغاز الطبيعي (قدر الاحتياطي بـ ٢٥ مليار متر مكعب)، وعلى هذه الثروة علقت آمال واسعة. وفي ١٠ ايلول ١٩٨٧، انتخب، بالاجماع، رئيساً للجمهورية في اثيوبيا، ورئيساً لحزب العمال وقائداً عاماً للقوات المسلحة. وبهذا اراد منغيستو ان يحذو حذو مينيليك الثاني الذي جعل من اثيوبيا منطقة نفوذ واسعة، ما حدا ببعض خصومه ومؤيديه على حد سواء لأن يطلقوا عليه لقب «النجاشي الأحمر». انهار نظامه وفرّ هو من البلاد (ايار ١٩٩١) إثر استيلاء زعيم «الجبهة الشعبية لتحرير تغراي»، ملس زيناوي، على السلطة في أديس أبابا.

* **مينليك الثاني Menelik II** (١٨٤٤ – ١٩١٣): امبراطور الحبشة. احد بناة اثيوبيا الحديثة ومؤسس مدينة أديس أبابا.

كانت اثيوبيا مجزأة الى ممالك شبه مستقلة لا تدين للامبراطور الا بولاء شكلي عندما ولد الأمير سهليه مريام في العام ١٨٤٤ . جده سهليه سيلاسي كان حاكم مملكة شوا. وقد خلفه على العرش هايلي ماوالوك فاصبح الامير الصغير الذي اختار في ما بعد اسم مينيليك ولي العهد. وعندما صعد الى العرش الامبراطوري كاسا هايلو واتخذ اسم تيودوروس الثاني (١٨٥٥)، اراد ان يعيد الى السلطة المركزية هيبتها وان يحجّم بالتالي الممالك شبه المستقلة. فاصطدم بملك شوا الذي قتل في المعركة. واقتاد ولي العهد الى

عاصمته «مغدلة» حيث بقي أكثر من تسع سنوات رهينة بين يديه. وفي ١٨٦٥، تمكن مينيليك من الفرار فعاد الى شُوا حيث تمت مبايعته ملكاً. وتمكن من فرض سلطته على انحاء المملكة وانشأ جيشاً قادراً على صد أي هجوم ينطلق من عاصمة الامبراطور. كما شجع التجارة مع الاوروبيين وسعى الى صداقة فرنسا وبريطانيا وايطاليا.

أقلق هذا النشاط الامبراطور يوحنا الرابع (الذي كان تيودوروس الثاني). ويوحنا كان يسعى مثل سلفه الى توحيد الامبراطورية، فاجتاح شُوا (١٨٧٨). فاضطر مينيليك، تحت ضغط جيش الامبراطور الى توقيع معاهدة سلام في ليتشي، وقد اظهر فيها الولاء ليوحنا الذي اعترف به في المقابل ملكاً على شُوا. ولما نشبت خلافات جديدة بينهما، اضطر الطرفان الى توقيع معاهدة ثانية (١٨٨٢). وقد عنيت هذه المعاهدة بقضية خلافة الامبراطور الذي وافق على الاعتراف بها لمينيليك. لكن يوحنا عاد وعين ابن اخيه ولياً للعهد قبل وفاته (١٨٨٩). عندها حسم السلاح الموقف واستولى مينيليك على العرش فأصبح «ملك الملوك».

ما إن تولى مينيليك السلطة حتى ابدى نيته في تحديث البلاد. فبنى جهازاً إدارياً بما في ذلك حكومة من سبعة وزراء. وأسس جيشاً وطنياً وفرض نظام ضرائب، وجعل من أديس أبابا (واسمها يعني الزهرة الجديدة) التي كان بناها في العام ١٨٦٦ عاصمة للامبراطورية، وعمل على تجهيزها بالطرقات وبالمباني الجديدة. وبنى فيها اول مستشفى واول مدرسة ثانوية. كما أحدث عملة اثيوبية موحدة وانشأ جهاز بريد في العاصمة.

كان على مينيليك ان يحترس من طموحات الدول الاوروبية المتمركزة في جوار اثيوبيا. وفي محاولة لايقاف التغلغل الايطالي الى الاقليم الشمالي، اقدم على توقيع معاهدة مع الحكومة الايطالية، وقد تخلت بها اثيوبيا عن جزء من الاقليم الشمالي مقابل تعهد إيطاليا بتدريب الجيش الوطني. لكن الايطاليين واصلوا احتلالهم لإريتريا (أي القسم الشمالي المذكور)، وذهبوا الى حد اعتبار المعاهدة وكأنها تجعل اثيوبيا محمية إيطالية. وازاء هذا الاجتهاد، قام مينيليك بنقض المعاهدة (١٨٩٣). فاجتاح الجيش الايطالي الحبشة، لكنه مني بهزيمة نكراء في موقعه أدووا (Adowa) حيث قتل ٤ آلاف إيطالي. وعلى اثر هذه الهزيمة، اعترفت ايطاليا، وتبعتها الدول الاوروبية الكبرى، باستقلال اثيوبيا، واقامت علاقات دبلوماسية معها.

واصل مينيليك بعد ذلك سياسة تعزيز الحدود، فعقد معاهدة مع فرنسا واخرى مع بريطانيا. وعندما أصيب بالشلل (١٩٠٨)، عين حفيده ليج اياسو ولياً للعهد. وبعد خمس سنوات توفي (اواخر ١٩١٣).

* **هايلي سيلاسي (الأول) Haile Selassie** (١٨٩٢ - ١٩٧٦): امبراطور اثيوبيا، حكم لأكثر من اربعين عاماً، وقام بدور قيادي في تحريرها من الاحتلال الايطالي، كما قام بدور سياسي نشيط في العمل من اجل الوحدة الافريقية، وبرز على الصعيد العالمي كواحد من اكبر القادة ورجال الدولة الافريقيين.

يعني اسمه باللغة الاثيوبية القديمة «سلطة الثالوث». اما اسمه الذي اطلق عليه يوم مولده فهو تافاري ماكونين، وذلك في بلدة أوجيرسو في اقليم صرر، وكان والده (راس ماكونين) حاكماً للاقليم. ويزعم انه من سلالة الملك شوا، جد الامبراطور مينيليك الثاني الذي كان يحكم الحبشة وقت مولد هايلي سيلاسي.

في سن الرابعة عشرة اصبح حاكماً لاقليم سلالة، ثم عين في الثامنة عشرة حاكماً لاقليم هرر. وقد غرقت اثيوبيا في حالة من الفوضى والاضطراب في فترة حكم الامبراطور ليج اياسو الذي خلف مينيليك، عندما انحاز اياسو الى صف المسلمين في النزاعات الطائفية مع السكان المسيحيين. وسرعان ما اصبح تافاري (هايلي سيلاسي في ما بعد) محور التفاف المعارضة المسيحية للامبراطور اياسو الذي عزلته الكنيسة القبطية الاثيوبية في العام ١٩١٦. عندئذ اعلنت زواديتو، ابنة الامبراطور مينيليك، امبراطورة، وعين تافاري وصياً للعرش ووريثاً له. ودامت فترة وصايته ١٤ عاماً مهّد اثناءها لاصلاحات نفذها بعد ان اصبح امبراطوراً. وكان اهمها تحديث النظام التعليمي وارسال البعثات الدراسية الى الخارج.

في العام ١٩٢٨، توجته الامبراطورة ملكاً على شوا، وهي خطوة قللت كثيراً من سلطات الامبراطورة نفسها. وبعد عامين تمكن تافاري من الحاق الهزيمة بتمرد مسلح نظمه ضده مستشار الامبراطورة واسمه راس غوسكا، وقد قتل هذا الأخير في المعركة. وبعدها بوقت قصير توفيت الامبراطورة، وتوّج تافاري، في تشرين الثاني ١٩٣٠، امبراطوراً واتخذ من وقتها اسمه هايلي سيلاسي الاول.

حاول الامبراطور الجديد ان يصهر القبائل الاثيوبية المتعددة في مملكة حديثة. واتبع اسلوب الاعتماد على

الخبراء الاجانب في الحقول الادارية والمالية والقضائية. ثم توقفت محاولاته الاصلاحية بوقوع الغزو الايطالي المفاجئ على اثيوبيا في تشرين الاول ١٩٣٥. وفي العام ١٩٣٩ كانت معظم الدول الكبرى – ومنها بريطانيا وفرنسا – قد اعترفت بالملك عمانوئيل الثالث ملك ايطاليا امبراطوراً على اثيوبيا. فعاش هايلي سيلاسي في المنفى في مدينة بات، جنوب انكلترا متتبعاً التطورات المتلاحقة.

عندما دخلت ايطاليا الحرب العالمية الثانية الى جانب المانيا النازية سارعت بريطانيا الى الاعتراف بالامبراطور المنفي، ونقلته، في غضون ايام، الى الاسكندرية (مصر). ثم انتقل الى الخرطوم (السودان) حيث جمع حوله الانصار الاثيوبيين ونسق بينهم وبين القوات البريطانية في شرق افريقيا. ووجه في ذلك الوقت نداء الى عصبة الامم طالبها فيه بعمل مشترك لتأييد اثيوبيا.

عاد هايلي سيلاسي الى اثيوبيا في كانون الثاني ١٩٤١ حيث نزل في قاعدة جوية سرية، ودعا الشعب الى حمل السلاح لطرد الايطاليين من البلاد. وتمكنت القوات البريطانية والهندية والاثيوبية من طرد القوات الايطالية التي لم يكن بامكانها الحصول على دعم من ايطاليا. وفي ايار ١٩٤١، عاد هايلي سيلاسي الى أديس أبابا، واستسلمت القوات الايطالية رسمياً في شهر تشرين الثاني من العام نفسه. وقد اعلن تشرشل (رئيس الوزراء البريطاني) آنئذ ان هايلي سيلاسي كان اول حاكم يقصى عن عرشه بواسطة «المجرمين الفاشيين والنازيين»، واول من يعود الى عرشه.

بادر هايلي سيلاسي الى ضم اريتريا الى المناطق الخاضعة لسيطرته (١٩٦٢). وهذا الاقليم كانت الامم المتحدة قد قررت جعله اقليماً متمتعاً بالحكم الذاتي في اطار اتحاد فدرالي مع اثيوبيا في العام ١٩٥٢. وكان في ضم اريتريا تحقيقاً لامنية الامبراطور في ان يصبح لدولته منفذاً الى البحر الأحمر. وعلى مستوى السياسة الداخلية والخارجية، احتفظ الامبراطور لنفسه بسلطة شبه مطلقة.

في ١٩٦٠، تعرض لتمرد داخل القصر بينما كان في زيارة رسمية للبرازيل، استخدم فيه ولي عهده، الامير اصفا ووصن (Asfa Wassen) من قبل رجال الحرس الامبراطوري الذين اجبروه على توجيه خطاب من خلال الاذاعة الى الشعب اعلن نفسه فيه امبراطوراً، وكان المتمردون يفتقرون الى تأييد الجيش، فتمكن هايلي سيلاسي، فور عودته الى اثيوبيا، من سحق التمرد خلال ثلاثة ايام، وعفا عن ابنه.

وفي السنوات التالية بذل الامبراطور جهداً كبيراً ليجعل لعاصمته مكانة دولية كمقر لمنظمة الوحدة الافريقية، ولعدد من فروع الوكالات والمنظمات الدولية. لكن ذلك كله كان مظهراً خارجياً يغطي التردي المأساوي لمستوى معيشة الشعب، خاصة بسبب الجفاف وتفاقم الثورة الاريترية. الأمر الذي ادى الى حركة الجيش في شباط ١٩٧٤، التي اسفرت عن اعتقال الامبراطور ومصادرة امواله الطائلة وقصوره، والبدء بحركة اصلاحية لم تلبث ان اعلنت اتجاهها نحو اقامة عدالة اجتماعية على اسس من الاصلاح الزراعي والاصلاح الاداري والتأميم في المدن. وقد توفي الامبراطور هايلي سيلاسي حيث كان محتجزاً في احد قصوره في اوائل العام ١٩٧٦ بعد ان كانت حركة الجيش قد اعلنت الغاء النظام الامبراطوري والأخذ بالنظام الجمهوري.

الامبراطور هايلي سيلاسي

منغيستو هايلي مريام

ميليس زيناوي

أدجاريا

تعريف ونبذة تاريخية

«جمهورية أدجاريا المستقلة» ضمن اطار جمهورية جورجيا، ومثلها بذلك مثل «جمهورية أبخازيا المستقلة» و «مقاطعة أوسيتيا الجنوبية المستقلة» (للخريطة، راجع أبخازيا).

مساحة أدجاريا ٣٠٠٠ كلم٢، وعدد سكانها نحو ٤٠٠,٠٠٠ نسمة، ٤٠٪ منهم أدجار، و٢٩٪ جورجيون، والباقون اقليات مختلفة.

أهم مزروعاتها: الحمضيات، الشاي والتبغ.

عاصمتها: باتومي (نحو ١٤٥,٠٠٠ نسمة)، وهي ميناء بترولي مهم على البحر الأسود. فيها محطة لتوليد الكهرباء، وحوض لصنع السفن. شهيرة عالمياً بمحميتها لأسماك الدلفين. صناعتها غذائية. المحطة الأخيرة لخط سكة الحديد عابر القوقاز.

كانت باتومي مركزاً تجارياً اغريقياً. ثم محطة عسكرية رومانية. تنازع عليها الجورجيون والأتراك منذ القرن الخامس عشر والى القرن الثامن عشر. أعيدت الى روسيا بموجب معاهدة سان ستيفانو (١٨٧٨). أصبحت «جمهورية أدجاريا الاشتراكية السوفياتية ذات الحكم الذاتي» ضمن اطار «جمهورية جورجيا الاشتراكية السوفياتية الفدرالية» ابتداءً من ٣٠ كانون الاول ١٩٢٢، تاريخ انضمام جورجيا الى الاتحاد السوفياتي؛ وحتى انهيار هذا الاتحاد (١٩٩١).

أحداث جورجيا والقوقاز التي بدأت تعصف بالمنطقة منذ انهيار الإتحاد السوفياتي تترك بصماتها على أدجاريا وإن بحدية أقل مما هي عليه في أبخازيا او أوسيتيا الجنوبية. فثمة أدجار يطالبون بالانفصال عن جورجيا ونيل الاستقلال. وأهم حدث سياسي له مدلوله القوي على التطورات السياسية التاريخية في أدجاريا (بعد استقلال جورجيا على أثر انهيار الاتحاد السوفياتي) كان الزيارة التي قام بها، في شباط ١٩٩٣، وزير الدفاع الروسي، الجنرال بافيل غراتشيف، لقواعد الجيش الروسي في أبخازيا وأدجاريا رغم اعتراضات الحكومة الجورجية. واثناء زيارته، كان الوزير الروسي يشدّد على أهمية وجود هذا الجيش في المنطقة التي دعاها «الحدود الجنوبية للبلاد»، معلناً عن تمركز ٩٠٠٠ ضابط وصف ضابط روسي فيها. (راجع: أبخازيا الاطار الاقليمي التاريخي).

الأديرة في البلاد الشرق متوسطية

لماذا هذه المادة – الأديرة – في الموسوعة؟

لأنها تشكل معالم، جغرافية وتاريخية، بالغة الأهمية في المنطقة الشرق متوسطية (العراق، سوريا – وانطاكيا – لبنان، فلسطين ومصر)، هذه المنطقة الآخذة في التحول، مع التنقيبات الحديثة والراهنة (أوغاريت ١٩٢٨، ماري ١٩٣٣، قمران ١٩٤٨، مملكة إيبلا ١٩٧٥، الكنيسة البيزنطية في البتراء ١٩٩٣ ...)، الى متحف كبير يثبت غناها الحضاري الكبير. والمعالم الجغرافية والتاريخية ركن أساسي في الموسوعة.

وما هو موضوعها؟

١ – دير قمران (جماعة قمران، الاسينيون، مخطوطات دير قمران أو البحر الميت).

٢ – أديرة القرون العشرة الأولى.

١ – دير قمران ومخطوطات البحر الميت

بعض التوسع في هذا الموضوع لا بد منه، وذلك لفيض ما بُحث فيه وكُتب ونُشر، ولأهميته العقيدية البالغة الخطورة حيث البداية الأكثر جدلاً للمسيحية وعلاقة هذه البداية باليهودية أو باحدى فرقها المسماة «الاسينيون» أو «جماعة قمران». والغرب والشرق (خصوصاً الفلسطينيون، ولبنان وسوريا والاردن والعراق) ينشغل الباحثون المختصون فيهما انشغالاً كثيفاً في كل ما يتعلق بمخطوطات دير قمران أو البحر الميت، فصدر في السنوات الثلاث الماضية (أي حتى أواسط ١٩٩٣) كماً كبيراً من الكتب والأبحاث حاولت «الحياة»، في ملحقها «آفاق» (٦ و٢٧ حزيران ١٩٩٣) استخلاص أهم ما جاء فيها عبر أقلام مؤرخين اختصاصيين اخترنا منهم:

– شفيق أبو زيد، «الاسينيون خرجوا على اليهودية وتأثروا بالرهبنة الرافدية ثم انقرضوا بعد ظهور المسيحية».

– كميل الخباز، «من يفرض الرقابة على مخطوطات البحر الميت؟».

– الياس القطار، «مخطوطات قمران في الدراسات العربية».

وقد قدمت «الحياة» لملفها هذا (بتوقيع «آفاق») بالعبارات التالية:

«تكمن أهمية هذا الكشف في ان المخطوطات هي أقدم الوثائق المكتوبة التي يعثر عليها من أسفار التوراة العبرية، إذ يعتقد ان تاريخ كتابتها يتراوح بين القرن الثاني ق.م. والقرن الثاني بعده. وذلك يعني – اضافة الى قدمها – انها تلقي أضواء جديدة مهمة على المرحلة التي عاش فيها السيد المسيح، وهي مرحلة يكتنفها الغموض الشديد نظراً الى التحريفات الواسعة التي أدخلت على عمليات التسجيل الديني في القرون التي أعقبت انتشار الرسالة المسيحية.

لكن الانبعاث الجديد في الدراسات لا يتعلق فقط بأهمية المخطوطات، بل ثمة عوامل سياسية ولاهوتية (منها صراع جزويتي – بروتستانتي – يهودي) ساهمت في اطلاق اتهامات ب «مؤامرة» لاخفاء بعض من المخطوطات التي تخالف أو تناقض جوانب من التقاليد اليهودية والمسيحية. ووصل الحد بأحد الباحثين الى الحديث عن «مؤامرة فاتيكانية» لحجب المعلومات واخفاء الحقائق.

غير ان اقدام احدى المكتبات الأميركية على نشر كامل المجموعة المصورة التي تملكها للمخطوطات وضع حداً مبدئياً للحديث عن «مؤامرة الصمت» تلك، لكن لتبدأ حجة أخرى تتعلق بمعنى محتويات المخطوطات، وعلاقة اليهودية بالجماعة المسيحية الأولى، وغير ذلك من مسائل لاهوتية تمس في الصميم المفاهيم اليهودية والمسيحية كما نعرفها اليوم».

الاسينيون خرجوا على اليهودية وتأثروا بالرهبنة الرافدية ثم انقرضوا بعد ظهور المسيحية: أورد اسم الاسينيين للمرة الأولى في التاريخ الفيلسوف فيلو الاسكندري الذي عاش في القرن الميلادي الأول. ثم ذكرهم في ما بعد المؤرخ يوسيفوس والمؤرخ بلينوس والمؤرخ هيبوليتوس. وجميعهم يصفون الاسينيين بانهم جماعة يهودية منشقة عن اليهودية الكلاسيكية ولها استقلاليتها التنظيمية والعقائدية. وبذلك عرف الناس خلال العصور ان الاسينيين هم «خوارج» اليهودية، وقد اضمحل وجودهم مع دمار اورشليم سنة ٦٧ ميلادية وتفرق اليهود في العالم.

هذه الفكرة عن الاسينيين بدأت تتبلور وتتغير جذرياً مع اكتشاف مغاور قمران (سنة ١٩٤٦) الواقعة شمال غرب شاطىء البحر الميت في فلسطين. فهذه المكتشفات أظهرت هوية الاسينيين على حقيقتها، وما

برح العلماء والباحثون حتى الآن في جدل دائم حول فهم عقيدة الاسينيين، خصوصاً بعدما كشف الستار أخيراً عن مخطوطات بقيت طيّ الكتمان لعقود من الزمن.

عقيدة الاسينيين: وضع الكثير من الكتب حول الاسينيين وعقيدتهم، ولن أكرر ما قد كتب، انما أود ان أوجز سريعاً (الكلام للباحث شفيق ابو زيد) نقاطاً رئيسية في روحانية الاسينيين لعبت دوراً كبيراً في جعلهم حلفاء المسيحية الأولين، كما انها زادت الأمور تعقيداً وغموضاً لأنه لا يمكن مطلقاً أن تكون جذور عقيدة الاسينيين كلها يهودية.

يعتبر الاسينيون أنفسهم انهم حركة تصحيحية لليهودية كما تعلن عنها كتب التوراة اليهودية، ولذلك هم يتمسكون بحرفية التوراة وتعاليم الأنبياء ويتهمون اليهود وكهنتهم بأنهم منحرفون قد ضلوا عن طريق الله وخلطوا تعاليم الله بتعاليم الوثنيين الخاطئة. لذلك يرى الاسينيون انهم هم اليهود الحقيقيون الذين يعملون على تصحيح الاعوجاج بالعيش كما تنص التوراة اليهودية بحرفيتها. هكذا جعل الاسينيون ذواتهم أعداء لكهنة اليهود ولمعظم الشعب اليهودي الذي – على ما يبدو ملماً أكثر بتشددهم في اداء الواجبات الدينية التي نص عليها موسى. حتى ان الاسينيين اعتبروا هيكل اليهود مدنّساً وباتوا في انتظار المسيح الذي سيقضي على كل فساد ويطهر الهيكل من كل دنس. إذن فالاسينيون ليسوا سوى يهود متشددين في اتمام شريعة موسى وبالتالي ناقمين على فساد الكهنة اليهود ومن حولهم من الشعب.

بالاضافة الى هذه العقيدة الأصولية انقسم الاسينيون الى جماعتين رئيستين: جماعة الرهبان المقيمين في منطقة قمران ضمن حياة البتولية والعيش المشترك كالرهبان المسيحيين في وقتنا الحالي، وجماعة المتزوجين الذين عاشوا بشكل عام في المدن والقرى كبقية الناس انما ضمن التزام روحي صارم في أداء الواجبات الدينية.

أصل الاسينيين: نعود الآن لنقطة البداية للبحث في أصل الاسينيين، هل هم يهود أم دخلوا على اليهودية وهوّدوا فيما بعد؟ ندر من شك في عقيدة الاسينيين اليهودية، وهذا أمر أناقضه كلياً لسبب رئيسي لا مجال لنقضه وهو ان التنظيم الرهباني الذي كان يشكل العمود الفقري لوجود الاسينيين وهو حتماً غير يهودي، وقد كان السبب الرئيسي الذي جعل معظم اليهود ينفرون من الاسينيين، خصوصا رجال الدين الذين حاربوهم وناصبوهم العداء منذ بدء وجودهم وحتى الآن.

جاء في «قانون دمشق» الاسيني وهو احدى مخطوطات الاسينيين، ان الحركة الاسينية بدأت مسيرتها في اليهودية في «عصر الغضب» أي عندما دمر نبوخذ نصر، الامبراطور الأشوري، اورشليم سنة ٣٩٠ قبل المسيح ونقل اليهود الى العراق كسجناء حرب. عند ذلك، تقول مخطوطة «قانون دمشق»، قام «معلّم الحق» بين اليهود ليعلمهم طريق الله الحقيقية لأنهم قد أذلوا على يد نبوخذ نصر بسبب خطاياهم وفسادهم. وما «معلّم الحق» بالنسبة الى المخطوطة سوى المؤسس الحقيقي للحركة الاسينية. وليست الغاية هنا البحث عن اسم «معلّم الحق» وذكر تفاصيل بداية ثورته الروحية على فساد شعبه اليهودي، بل ما أريد ذكره، وهو في غاية الأهمية، ان الحركة الاسينية ولدت يهودية بعد ضربة نبوخذ نصر لليهود وجلائهم الى العراق، وفي العراق بالتحديد تعرّف قسم من اليهود على التنظيم الرهباني الذي هو دخيل حتماً على اليهودية.

جاء في نقوش بابل وأشور ان العراق عرف قبل المسيح بحوالي الفي سنة جماعات رهبانية شبيهة الى حد بعيد بالاسينيين والرهبان المسيحيين الحاليين. وكان في بابل وسيبار ونينورتا وغيرها من مدن العراق القديمة فتيات تكرسن للمعبود شمس ومردوك وغيرهما ضمن البتولية والحياة المشتركة في بيت كبير شبيه جداً باديار الاسينيين في قمران. وأشهر هذه الجماعات العراقية «الرهبانية» جماعة نساء «ناديتو» اللواتي ورد ذكرهن في بعض النقوش القديمة، خصوصاً في شرائع حمورابي. وكانت مهمة «راهبات الناديتو» الصلاة للمعبود من أجل شعبهن وعدم الزواج بل الحفاظ على بتوليتهن والعيش تحت سلطة رئيسة واحدة وادارة واحدة لكل «دير».

مما لا شك فيه ان رئيس الاسينيين الاول الذي يدعى «معلّم الحق» تأثر الى حد بعيد بـ«ناديتو» العراق، وعنهن أخذ التنظيم الرهباني الذي غيّر به الاسينيون، كما أخذ مفهوم البتولية كعقد يدوم مدى الحياة ويكون التزاماً لا فردياً فقط، بل ضمن جماعة منظمة نسميها اليوم «الجماعة الرهبانية». ان «معلّم الحق» الاسيني كان بارعاً جداً بعقد زواج غريب عجيب ما بين العقيدة اليهودية التوراتية وعقيدة «الحياة الرهبانية» التي وجدها في العراق القديم. واعتبر هذا الزواج غريباً وعجيباً لأن التوراة اليهودية ترفض مطلقاً حياة البتولية المكرسة كما عاشها الاسينيون وبعدهم الرهبان المسيحيون، وتعتبر أيضا ان البتولية الدائمة هي

نقد صريح وواضح لارادة الله الذي خلق الانسان للانجاب والتوالد. وقد يكون الاسينيون كلهم من العنصر اليهودي، انما عقيدتهم من دون ادنى شك مزيج واضح من الروحانية الآشورية «الرهبانية» والعقيدة التوراتية اليهودية.

الاسينيون والمسيحية: كثير من العلماء والباحثين ما برح يعتقد ان الاسينيين كانوا على علاقة متينة مع المسيحيين الاول، وقد يكون لهم الفضل في ارساء بعض قواعدها والمشاركة في انتشارها. والشيء الأكيد ان يوحنا المعمدان الذي بشّر بقدوم المسيح وحضّر له كان من الأسينيين الرهبان وقد عاش وبشر قرب دير الاسينيين في منطقة قمران. والشيء الأكيد أيضاً ان بعض تلاميذ يوحنا المعمدان كان حتماً من الاسينيين، وهم اصبحوا من تلاميذ المسيح بعد موت يوحنا المعمدان. وحسب بعض المصادر التي لم يحسم أمرها علمياً بعد فان بعض الوجوه البارزة التي التقت حول يسوع في رسالته التبشيرية في فلسطين كانت من الاسينيين، خصوصاً اليعازر الذي كان موضوع احدى معجزات المسيح. ومهما كانت الآراء والتحاليل حول التفاف الاسينيين حول المسيح، فالشيء الأكيد ان البعض منهم كان في عداد تلاميذه الأولين. كما ان قساوة يسوع المسيح مع رجال الدين اليهود تتفق كثيراً مع موقف الاسينيين المعادي لمعظم الكهنة اليهود. ومما لا شك فيه ان بعض الاسينيين، لكن ما برحنا نجهل نسبتهم المئوية، وجدوا في يسوع الناصري المسيح المنتظر الذي جاء ليطهر اليهودية من أدناسها ويحقق ملكوتاً مبنياً على كلمة الله الحقة.

وبعض الشذرات في مخطوطات قمران يوحي بان الاسينيين انقسموا الى تيارين على الأقل: تيار تمثل بروحانية يوحنا المعمدان الداعية الى الاعتراف بيسوع الناصري المسيح المنتظر، وتيار تحجّر وانحرف في مغالاته في أصوليته وطالب باستعمال العنف والقوة لتصحيح الأمور في الشعب اليهودي. وقد يكون أصحاب حركة «الغيورين» الذين حاربوا حتى الموت في ماسادا ضد الرومان من اتباعهم. لكن الأكيد ان يسوع المسيح الذي قبل بين تلاميذه بعض الاسينيين بقي مستقلاً عنهم ولم يكن يبشر برسالتهم بل برسالته الخاصة. وهذا الأمر واضح في الجماعة المسيحية الأولى التي أعلنت استقلاليتها التامة عن اليهودية في انطاكية عاصمة سورية أيام الرومان. وهذا الأمر تثبته الوثائق المسيحية الأولى التي لم تذكر اسم الاسينيين، لا سلباً ولا إيجاباً، بل تكلمت بوضوح عن المسيحيين المُهوّدين الذين حاولوا ارضاخ المسيحية للشرائع اليهودية، فكان الرفض من التيار المسيحي الناشىء خصوصاً في سورية. وهكذا اختفى اسم الاسينيين من التاريخ اليهودي الذي رفضهم منذ البداية، ومن التاريخ المسيحي الذي اعتبر رسالة يسوع المسيح مستقلة تماماً عن أي تيار يهودي أو غير يهودي.

استمرارية الأسينيين: انقرض اسم الاسينيين من التاريخ بعد خراب اورشليم، لكن لم تنقرض رسالتهم. انقرض ذكر «راهبات» آشور وبابل أي نساء ال «ناديتو» ولم ينقرض حضورهن في وطنهم الأم بالذات أي العراق. تنقل لنا الوثائق المسيحية في سورية والعراق ان أول ظهور للرهبان المسيحيين كان في العراق في نهاية القرن الثالث مع الناسك يعقوب الذي عاش في مدينة نصيبين. ثم كثر عدد النساك في سورية والعراق خلال القرن الرابع الميلادي وما بعد. والشيء الملفت للنظر ان العراق هو الذي أطلق الحركة «الرهبانية» في المسيحية التي تشابه حركة الاسينيين.

فهل الاسينيون الذين ذهبوا الى سورية والعراق بعد خراب اورشليم سنة ٦٧ ميلادية هم الذين أطلقوا الحركة الرهبانية في المسيحية في وطن «الرهبانية» الأم أي العراق؟

قد يكون الأمر ممكناً، انما التاريخ لا يخبرنا شيئاً عن هذا الأمر، ربما لأن المؤرخين المسيحيين رفضوا الاعتراف بأي تأثير يهودي في المسيحية الناشئة منذ اعلان انطاكية الشهير باستقلالية المسيحية. وهناك أيضاً احتمال آخر: هل بقايا ال «ناديتو» هم الذين أطلقوا حركة الرهبانية في المسيحية؟ لسنا ندري تماماً لأن التاريخ لا يذكر شيئاً عن حركة «ناديتو» لقرون عدة قبل ظهور النساك الأول في العراق وسورية.

هناك أيضاً بقايا تأثيرات اسينية في مخطوطات اللاهوتي السرياني افراهات الذي عاش في العراق خلال القرن الرابع. فقد كان هذا يدير حركة اسمها «أبناء وبنات العهد» وهي قريبة جداً من روحانية الاسينيين ومفهومهم للزواج والبتولية. وهناك أيضاً تأثير أسيني في الكتاب السوري المسيحي «موشحات سليمان» الذي يحمل تعابير روحية متناغمة جداً مع بعض أناشيد الاسينيين.

ومما لا شك فيه ان استمرارية الاسينيين واضحة جداً في التيار المسيحي الرهباني في العراق وسورية ومصر فلسطين، وان كنا نجهل كيف شارك الاسينيون في اطلاق الحركة الرهبانية المسيحية لكن لا يمكننا مطلقاً نكران تأثيرهم ولو المحدود.

خلاصة: هوية الاسينيين: أخذ الاسينيون أسس حياتهم الرهبانية وطريقة تنظيمها في حياة جماعية مشتركة من العراق القديم، وسكبوها في قالب التوراة اليهودية لأنهم أرادوا تجديد المجتمع اليهودي حسب رؤيتهم الخاصة له. ووجد معظم الاسينيين في رسالة السيد المسيح جواباً على بعض تطلعاتهم الروحية المهمة. ولذلك ذاب قسم منهم في الدين المسيحي الجديد وظهر تأثيرهم بكل وضوح في التيار الرهباني المسيحي. أما ما تبقى من الأسينيين المتشددين فقد اضمحلوا من الوجود ولا نعرف كيف كان انقراضهم الأخير بعد تهجيرهم من فلسطين على يد الرومان.

كتاب الدكتور وايزمان والدكتور وايز الذي ينشر للمرة الأولى ما تبقى من مخطوطات قمران يزيد الاعتقاد بان الاسينيين كانوا حركة يهودية تصحيحية بقيت على هامش المجتمع اليهودي وعجزت عن أن تجعل المسيحية تياراً تابعاً لها، بل كان دورها محدوداً ضمن اليهودية وانتهت رسمياً بظهور المسيحية. (انتهى كلام شفيق ابو زيد).

من يفرض الرقابة على مخطوطات البحر الميت؟
(الكلام للباحث كميل الخباز): يتفاعل لغز مخطوطات البحر الميت يوماً بعد يوم. فمنذ التاريخ الذي بدأت المغاور القريبة من خربة (دير) قمران تفيض بكنوزها من المخطوطات على بدو التعامرة والعلماء المشرفين على التنقيبات الأثرية في ذلك الموقع، أي منذ ربيع ١٩٤٧، ولغاية هذا اليوم، فان عملية نشر هذه المخطوطات ووضعها في متناول الباحثين تسير ببطء شديد، مما يوحي بوجود نوع من الرقابة، اذ ان ما نشر من المخطوطات لا يتعدى خُمس ما اكتشف منها.

وقد بيع قسم من الدروج المكتشفة في المغارة الأولى الى الدكتور سوكينيك، استاذ الآثار في الجامعة العبرية، كما اشترى مطران القدس للطائفة السريانية اثناسيوس يشوع صموئيل خمسة من تلك الدروج ثم باعها سنة ١٩٥٤ في اميركا الى المدعو سيدني استردج، لكن تبين في ما بعد ان المخطوطات اشتريت لحساب دولة اسرائيل. ويظهر ان الدولة العبرية وعت باكراً أهمية هذه المخطوطات، كما يتضح من تصريح موشي شريت في المجلس الاسرائيلي سنة ١٩٥٥، حين قال: «ان مدارج البحر الميت التي وقعت بيد الغرباء ... عادت اليوم الى القدس حيث كان يجب ان تكون». وبعد حرب ١٩٦٧، وضعت اسرائيل يدها على مخطوطات البحر الميت التي كانت معروضة في متحف روكفلر في القدس الشرقية. واناطت مديرية الأثار الاسرائيلية مسؤولية المخطوطات الى فريق صغير من العلماء، بحيث لا يستطيع أي باحث الاطلاع عليها الا اذا حاز على موافقة هذا الفريق. ويقول البروفسور كراون من جامعة سيدني وهو المدير الاداري لبرنامج نشر مخطوطات البحر الميت المكلف من قبل مركز أوكسفورد للدراسات العبرية المتخصصة، ان البطء الشديد في عملية نشر المخطوطات يعود الى العدد القليل من المتخصصين المكلفين بانجاز هذا العمل الضخم، والى فقدان مصادر التمويل، بالاضافة الى ضياع سجلات المخطوطات، أي اللوائح العائدة الى عشرات الآلاف من الفتائت، مما يجعل امر دراستها صعباً جداً. وبعد البروفسور كراون باعداد لوائح جديدة للمخطوطات خلال فترة قصيرة. لكن مجلة «Biblical Archaeological» تؤكد ان المخطوطات لن تنشر أبداً بحلول العام ٢٠٠٠ لأنه من المستحيل على هذا العدد القليل من العلماء الذين كلفوا بدراسة المخطوطات ونشرها، أن يقوموا بهذا العمل الضخم خلال الفترة المشار اليها. اضافة الى ذلك، يلاحظ ان هؤلاء العلماء يرفضون التحدث عن مدى تقدم أعمالهم ويمتنعون عن اعطاء نسخ واضحة وصالحة عن المخطوطات التي بحوزتهم.

هذه الرقابة المتشددة تثير غضب الاوساط العلمية وتزيد التكهنات والتساؤلات والشكوك، لا سيما انه قد مضى اكثر من ألفي سنة على كتابة هذه المخطوطات (...)

نشأت جماعة قمران في برية اورشليم. وكان دير قمران المركز الرئيسي للجماعات الأسينية. وكان المنتسبون الى الجماعة يعيشون في جوار الدير، في الخيم أو في المغاور الكثيرة المنتشرة في تلك البقعة (...) ولم ينحصر نشاط الاسينيين في منطقة قمران وحدها، بل توزعوا من هناك في مدن وقرى اليهودية وسواها (...)

يستدل من المخطوطات ان معلم البر هو مؤسس الجماعة. ووجد الباحثون صعوبة في تحديد هويته والعصر الذي عاش فيه. وبسبب بعض التعابير التي تصف شخصية وسيرة معلم البر والمتماثلة بدورها مع بعض الاوصاف الواردة في الاناجيل عن السيد المسيح فقد استنتج بعض الباحثين ان معلم البر قدم نفسه على انه المسيح وقتل على يد الجنود الوثنيين الذين كانوا في خدمة الكاهن الأعظم وانه ظهر بعد موته في الهيكل؟. لكن الثابت عند معظم الباحثين ان معلم البرّ عرف تفسير النبوءات فآمن به البعض ولم يصدقه الآخرون. وقد

اضطُهد لكن لا شيء يثبت انه صلب. وعلى الأرجح انه نُفي أو اختفى بطريقة غامضة. كما ان جماعة قمران كانت على يقين تام بانه ليس المسيا المنتظر في نهاية الأزمنة ليحرر اسرائيل ويملك على العالم.

هناك الكثير من أوجه التشابه بين الاسينيين والحماعة المسيحية الأولى في اورشليم. فقد كان الاسينيون ويوحنا المعمدان يُبشّرون من البرية بأن الأيام الأخيرة التي تحدث عنها الأنبياء ابتدأت، وان مجيء الرب قريب. واذا كان يوحنا المعمدان يستطيب أكل الجراد، فقد كان للقمرانيين فنونهم في تحضير الجراد واكله. وكانوا يطلقون على انفسهم العهد الجديد تماماً كالمسيحيين، بالرغم من ان الاسينيين اعتبروا هذا العهد تجديداً للعهد القديم، هو العهد الأبدي الذي يجب أن يسود بنظرهم في الأيام الأخيرة. وإذا كان القمرانيون ابناء النور فالمسيحيون كانوا كذلك أيضاً (١ تسالونيكي ٥:٥ و٢ كورنتس ٦:١٤) .

وحيثما تواجد الأسينيون، عاشوا حياة مشتركة. ويعطينا قانون الجماعة صورة عن مآدبهم: في كل مكان يتواجد فيه عشرة أعضاء من الجماعة، فليكن بينهم كاهن... وعندما يحضّرون الطاولة للطعام فليمدّ الكاهن يده أولاً ليبارك طلائع الخبز.

واذا كان العماد بالماء هو علامة العهد الجديد عند المسيحيين، فالطهارة بالماء كانت تشكل طقساً مهماً عند القمرانيين. فكان على العضو الجديد انتظار سنة كاملة، قبل ان يُسمح له بالاشتراك بماء التطهير مع الآخرين. وأشتهر القمرانيون بميلهم المفرط الى التطهر بالماء فكانوا لا يتناولون الطعام الا بعد الإغتسال. وهناك تفاصيل أخرى تظهر أوجه الشبه عند الجماعتين. فعدد رسل المسيح هو اثنا عشر، يمثلون جميع اسباط اسرائيل. كما ان مجلس الجماعة في قمران، كان يرأسه ١٢ عضواً، يمثلون اسرائيل الجديدة. واذا كان يعقوب وبطرس ويوحنا هم اساطين الكنيسة (غلاطية ٢:٩) ، فقد تميزت جماعة قمران بوجود ثلاثة كهنة على رأسها، لهم دور مميز (...)

حَرمُ الكتاب، في القدس، حيث يُحتفظ بمخطوطات البحر الميت

(بعد أن يجتهد الباحث – كميل الخباز – في تعيين مكان وزمان الاسينيين، جماعة دير قمران، في اطار وسطهم اليهودي وعلاقتهم باليهود الكلاسيكيين، وبالرومان، وبالمسيحيين الأول أو «كنيسة اورشليم الأولى»، يصل الى الاستنتاج التالي):

تصور رجال الدين اليهود بعد مقاومتهم للمسيح، انه اذا ضرب الراعي تبددت الخراف. غير ان الخراف لم تتبدد وبدأت الكنيسة تنمو وتنتشر بسرعة مذهلة (رسل ١:١٥ و٢:٤١ و٤:٤) . أمام هذا التطور السريع لنشوء الكنيسة، ونظراً الى كون الأرض المقدسة واقعة تحت سيطرة الرومان، راح رؤساء الكهنة واعيان الصدوقيين والفريسيين يخططون بسرية تامة للتحرر من أسيادهم، وشنّ حرب على الأمم ومخالفي العهد، معتبرين نشوء المسيحية احدى علامات نهاية الأزمنة. فوجدوا أفضل السبل للوصول الى غايتهم، هو انشاء جماعة قمران. ونجحوا في خطتهم، عندما اظهروا تلك الجماعة على عداء مع كهنة الهيكل، فأبعدوا الشبهة عنهم. واعطوا جماعة قمران شكلاً موازياً للجماعة المسيحية الأولى، فصعب التفريق بينهما. وغايتهم من وراء ذلك اتهام المسيحيين بإشعال نار الفتنة ضد روما.

وهنا نأتي الى نقطة مهمة تتعلق بشخصية معلم البِرّ الذي أعتبرته جماعة قمران مؤسسها. ان سلوك جماعة قمران الشبيه بحياة الجماعة المسيحية الأولى، بالاضافة الى بعض أوجه التشابه في سيرتي معلم البِرّ ويسوع المسيح، يحتّم القول ان معلم البِرّ هو نفسه يسوع المسيح، ولكن حسب نظرة مؤسسي جماعة قمران اليه، فمن الطبيعي أن لا يكون يسوع الناصري المسيح المنتظر بنظر ائمة اليهود الذين قاوموه وبنظر جماعة قمران المتعصبين للشريعة. كما ان فكرة مسيح متواضع يعاشر الخطاة والعشارين كانت غريبة عن فكرة الدين اليهودي. لهذا فقد اعتبر القمرانيون ان يسوع هو معلم البِرّ، مؤسس الجماعة، ولكن بعد أن جرّدُوه من معنى رسالة الخلاص التي حملها للبشر. ونستطيع اعتبار جماعة قمران، انها الجماعة اليهودية – النصرانية الأولى، نظراً الى نشوئها بعد المسيحية وليس قبلها. فقد تزيّا القمرانيون برداء مسيحي لتدمير الكنيسة وتحريف البشارة.

إن سر المخطوطات يكمن في معرفة الزمن الحقيقي الذي نشأت فيه جماعة قمران. فإذا صح القول بأن تلك الجماعة نشأت كردة فعل على ظهور المسيحية، ينكشف أمامنا فصل من مؤامرة كبيرة وضعها ائمة اليهود في القرن الميلادي الأول. وكانت تلك المؤامرة تهدف الى القضاء على المسيحية، لأنها كانت سبباً من الأسباب التي دفعت بيهود ذلك الزمان للإعتقاد بإقتراب يوم الدينونة، فراحوا يعدّون العدّة للثورة اليهودية الكبرى، تلك الثورة التي تسببت بدمار اورشليم، واحراق الهيكل، وبدء مرحلة الشتات الكبرى لليهود في انحاء المعمورة. ولا شك في ان التحريف اللاحق بالأصول التاريخية، والذي أعطى الأسينيين عمقاً تاريخياً سابقاً لنشوء المسيحية، كان يهدف في الأصل الى التشكيك باصالة الديانة المسيحية، نظراً الى أوجه الشبه المتعددة بين الأسينيين وكنيسة اورشليم الأولى.

مخطوطات قمران في الدراسات العربية (للدكتور الياس القطار): مخطوطات قمران أو مخطوطات البحر الميت، كنز من الوثائق، يُعتبر من بين أهم ما اكتشف من وثائق في هذا القرن لما تحتويه من اسرار تمت بصلة الى اليهودية والمسيحية. وأثار وجود هذه المخطوطات ضجّة عند اكتشافها في وادي قمران قرب البحر الميت ما بين ١٩٤٧ و١٩٥٦ . وأثار كذلك وضعها في تصرف الباحثين صخباً، منذ اواخر العام ١٩٩١، عندما قررت مكتبة «هننغتون» في كاليفورنيا اطلاق حرية قراءة نسخ الميكروفيلم الموجودة لديها عن المخطوطات، بعدما حرم من ذلك العلماء ما ينيف عن ثلاثين سنة، عندما وضعت اسرائيل يدها، بعد حرب ١٩٦٧، على ذلك الكنز الذي كان محفوظاً في المتحف الوطني الفلسطيني في القدس.

الصدفة كانت وراء اكتشاف هذا الكنز الذي لا يقدر بثمن، عندما كان محمد الذيب من عشيرة التعامرة، يرعى قطيعه في ربيع سنة ١٩٤٧، عند شاطىء البحر الميت الغربي في وادي قمران، على بعد كيلومترين ونصف الكيلومتر عن مياه البحر المذكور، شمالي مدينة اريحا على مسافة اثني عشر كيلومترا، فشردت احدى عنزاته، فلحق بها ليجد نفسه أمام كهف مملوء جراراً وفي داخلها، لا ذهباً وحجارة كريمة، بل ما هو أغلى من ذلك، دروجاً تتضمن وثائق خطيرة، لم يعرف المكتشف أهميتها، بل اعتبرها شيئاً صالحاً للاستعمال في الحوانيت ليس الا.

باع محمد الذيب ما حمله من دروج بسعر بخس الى حانوت في بيت لحم، ومنها انتقل بعض الدروج الى مطران السريان، ووصلت دروج أخرى وجرار الى استاذ الآثار في الجامعة العبرية، فبانت له اهميتها، فتواترت اخبار ذلك الى مديرية الآثار الفلسطينية،

وبدأت المؤسسات العلمية والاثرية وعلماء الآثار وعلماء العهد القديم، في فلسطين وفي الولايات المتحدة، تتفتح مسامعها وحشريتها على حدث علمي ينذر باكتشافات علمية ستكون بالغة الأهمية. وبالفعل، بدأ السباق بين كل هؤلاء على طلب مكتشفي هذه الوثائق والايدي التي انتقلت اليها من جهة، وعلى اكتشاف المزيد منها. ولكن عشيرة التعامرة كانت احذق من علماء الآثار في الكشف عن كهوف جديدة، ومخطوطات جديدة. وعندما حلت سنة ١٩٥٦ بلغ عدد الكهوف المكتشفة من قبل التعامرة والعلماء احد عشر كهفاً في ساحل خربة قمران، الى جانب كهوف اخرى في وادي المربعات وخربة المرد (وهذه اللفظة تعني القلعة، وقد تساهم في توضيح موضوع آخر) وبلغ عدد المخطوطات حوالي ٦٠٠ وبعضها يعود الى قرنين قبل الميلاد. هذه الوثائق، والمنطقة الجغرافية التي حوتها وما تضمّه من عاديات اثرية، أثارت اهتمام علماء التاريخ وعلماء اللاهوت التوراتي، وكتب عنها في اللغات العالمية، خصوصاً الأوروبية، مئات الكتب والمقالات، التي بلغت في عشر سنوات فقط (١٩٤٨ – ١٩٥٨) ما ينيف عن ثلاثة آلاف مصنّف. ولكنها لم تستحوذ الا على نزر قليل من الدراسات باللغة العربية. وكانت اولى المقالات عنها، ما صدر في مجلة «المنارة» العدد ٢١ (١٩٥٠) بادارة الآباء المرسلين اللبنانيين، للأب مرمرجي الدومنكي، بعنوان «المخطوطات العبرية القديمة» ص ١٩٨ – ٢٠٨.

واولى الدراسات عنها بطريقة علمية في اللغة العربية كانت للقس جايمس ولبي وابراهيم مطر والدكتور انيس فريحة في كرّاس، صدر العام ١٩٥٧ بعنوان: «مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران»، عن مكتبة المشغل الانجيلية، بيروت. وعلى رغم قيمة ما كتب، لم يجد المؤرخ الشهير اسد رستم، في المئة صفحة تلك، ما يروي ظمأ المؤمن والعالم في آن معاً. وبتشجيع من الكاتب المعروف الاب جورج فاخوري البولسي، مدير مجلة «المسرّة» التي يصدرها الآباء البولسيون للروم الكاثوليك، نشر الدكتور رستم في «هدايا المسرّة» في عام ١٩٥٩ في طبعة أولى دراسة بعنوان: «مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران»، ثم أعيد طبعها في منشورات المكتبة البولسية في العام ١٩٩٠ في طبعة ثانية منقّحة ومفهرسة، من ضمن مجموعة الدكتور اسد رستم، رقم ٢٦، مع بيبليوغرافيا قمرانية من وضع الدكتور وسام كبكب. وهذه الدراسة تعتبر من اوضح ما كتب عن الموضوع في اللغة العربية واول مقاربة علمية له.

ولربما كان احدث ما صدر عن الموضوع في اللغة العربية، عدد خاص من مجلة متخصصة تعنى بشؤون وبدراسات كتاب التوراة هي جريدة «ببليا» التي تصدر مرة كل شهرين عن المركز البيبلي في مدينة جبيل – لبنان. ففي العدد ١٢، تاريخ تشرين الثاني – كانون الاول ١٩٩١، عدد خاص عن «مخطوطات البحر الميت مفترق في تاريخ الاديان: «كنيسة قمران» و«كنيسة يسوع»، الشريعة القاتلة والمحبة الخلاقة».

شارك في العدد بعض الباحثين اللبنانيين في تاريخ العهد القديم، وتناولوا الموضوعات الاكثر اثارة للجدل. فبعد عرض تاريخي للاكتشاف مقتبس عن كتاب الدكتور اسد رستم، طرح موضوع دير قمران، و«الحسانيون» الجماعة اليهودية المنشقة عن اليهودية الرسمية التي اتخذت لها البرية مكاناً بقيادة «معلم البرّ». كما اجريت دراسة مقارنة بين كتابات قمران والعهد الجديد، مع تركيز في دراسة مقارنة واضحة وعميقة بين جماعة قمران وكل من يوحنا المعمدان ويسوع وتلاميذ يسوع الاوائل والجماعة المسيحية الاولى والرسالة الى العبرانيين. كما طرحت بجرأة مسألة المقارنة بين «معلم البر» و «يسوع»، اضف الى ذلك دراسة عن الولائم في قمران، والليتورجيا، وبولس والتنسك، والحياة بعد الموت، والكنيسة، وعالم قمران وعالم يسوع، وما الى غير ذلك من مواضيع أثارت جدلاً ومقارنة.

وكانت سبقت هذا العدد من «بيبليا» بسنة دراسة للاستاذ كميل خباز في العام ١٩٩٠، «الزؤان في الكتاب المقدس» (٢٤٥ صفحة – من دون ذكر لدار نشر) ، كرّسها لكشف السرّ عن اكبر لغزين في تاريخ الديانتين المسيحية واليهودية: رؤيا يوحنا ومخطوطات البحر الميت. ويحاول المؤلف ان يثبت فيها ان الرؤيا سفر مدسوس، كما يحدد الاطار التاريخي لنشأة جماعة قمران، ويوضح الهدف من انشائها والدور الكبير والمستتر الذي قامت به في حربها ضد الديانة المسيحية.

لم تكن دراسة هذا الموضوع محصورة باللبنانيين فقط، بل هناك دراسات عدة صدرت، في بعض البلدان العربية، وفي طليعتها المملكة الاردنية الهاشمية وفلسطين، لأن ملكية هذه الوثائق النادرة تعود للثانية بحكم التاريخ وللاولى بحكم الواقع الدولي. وفي هذا المجال اصدر حسين عمر حماده كتاباً بعنوان «مخطوطات البحر الميت»، (دار منارات للنشر،

عمّان، الاردن، ١٩٨٢، ١٤٨ صفحة)، كما اصدر محمود العابدي كتاباً آخر بعنوان «مخطوطات البحر الميت»، (منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمان ١٩٦٧). وكان للاستاذ عباس محمود العقاد، الاديب الشهير، رأي في الموضوع، ادرج نصّ منه في ملحق في كتاب الدكتور رستم عن هذه المخطوطات.

وتضاف الى هذه الدراسات كتب اخرى صدرت في لبنان ومقالات، ومنها: دراسة سهيل ديب «التوراة بين الوثنية والتوحيد»، (دار النفائس، بيروت، ١٩٨١) ، جورج سابا: «على عتبة الكتاب المقدس» (منشورات المكتبة البوليسية، جونية، ١٩٨٧). المطران اتناسيوس صموئيل: «كنز قمران مدارج البحر الميت»، (ترجمة الدكتور الفونس شوريز، ١٩٨٥)، قيصر صادر: «مخطوطات قمران»، (مقال في مجلة المسرّة، عدد ٦٠ - ١٩٧٤)، و«فحوى مخطوطات قمران»، (المسرّة ٦٠ - ١٩٧٤) ، وأنيس فريحة: «أضواء من مغاور قمران» في (كتاب دراسات في التاريخ، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨٠).

٢ - اديرة القرون العشرة الأولى

اديرة القرون العشرة الأولى الواردة «في مخطوطة نفيسة محفوظة في خزانة كتب برلين، رقمها ٨٣٢١، وتعود لأبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي المتوفي سنة ٩٨٨ م.»، وتبعاً لما حققه كوركيس عواد وأصدره في «كتاب الديارات» (ط١، بغداد ١٩٥١؛ وط٢، بغداد ١٩٦٦) .

يقول المحقّق: «هذا كتاب ذو جوانب ثقافية متعددة. فهو كتاب بلدان وتاريخ وتراجم وأدب وحضارة معاً. فالعالم بالبلدان، له ان ينظمه في سلك كتب هذا العلم، لكونه يذكر امكنة وبقاعاً كثيرة أغفلها غيره. هذا الى توسعه في ذكر ديارات أربت على خمسين ديراً (العراق ٣٧ ديراً، الشام ٣، مصر٩، الجزيرة ٤ - زال أكثرها من عالم الوجود، وأغلبها كان في العراق) . وللمؤرخ ان يعده في جملة كتب التاريخ، لما في مطاوي هذا السفر من الأنباء والاحداث التاريخية، ما لو جرّد واستخلص، لقام منه مؤلف في الأخبار والتراجم لا يستهان به. وللأديب ان يدخله في عداد كتب الأدب. فالمصنّف طرفة أدبية فاخرة...».

ونقل عواد عن ابن خلكان قوله في الشابشتي: «أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي الكاتب. كان أديباً فاضلاً. تعلّق بخدمة العزيز بن المعز العبيدي صاحب مصر، فولاه أمر خزانة كتبه، وجعله دفتر خوان يقرأ له الكتب ويجالسه وينادمه. وكان حلو المحاورة، لطيف المعاشرة. وله مصنّفات حسنة ...».

وبعد تحقيقه مخطوطة الشابشتي، يورد عواد لائحة طويلة بالمراجع القديمة، الباحثة في الديارات، عاصر أصحابها الشابشتي، أو التي وضعها مؤرخون في القرون اللاحقة حتى القرن الثامن عشر. من بينها وأهمها:

كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العبادين، لهشام بن محمد بن السائب الكلبي (المتوفي ٨٢١ م) ؛ وكتاب الديارات، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني في صاحب «الأغاني» (٩٦٦م)؛ وكتاب الديارات، للخالدين، وهما الأخوان الأديبان الشاعران أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد، شاعرا سيف الدولة الحمداني وخازنا دار كتبه؛ والاديرة والاعمار في البلدان والأقطار، لأبي الحسن علي بن محمد العدوي الشمشاطي (٩٨٧م)؛ وكتاب الديرة، لمحمد بن الحسن بن رمضان النحوي، ذكره ابن النديم ولم يعين سنة وفاة مؤلفه؛ ورسالتان، واحدة في دير مار سمعان العمودي ورهبانه، والثانية في اديرة مدينة انطاكية ورهبانها، لقيصر الانطاكي، في القرن الثاني عشر؛ وأخبار أديرة ورهبان مصر، لفرج الله الأخميني، الشماس القبطي (القرن الرابع عشر)؛ ووصف طور سينا وأبنيته، لأفرام الشماس (القرن السادس عشر)؛ وتاريخ دير الزعفران، لأيوب الراهب السرياني (القرن الثامن عشر).

هذا اضافة الى المراجع العربية القديمة فصولاً وأبواباً تناول فيها اصحابها الكلام على الديارات، واشارات الى الاديرة، خاصة في «تاريخ الطبري»، و «الكامل» لابن الأثير، و «تاريخ يحي بن سعيد الانطاكي»، و «تاريخ ابي صالح الارمني»... ومما يتصل بالديارات، كتب تناول فيها مؤلفوها أخبار الرهبان وحياتهم في أديرتهم، وما عندهم من نظم ورسوم يتبعونها.

أما المراجع العربية الحديثة فقد وضع كوركيس عواد فيها ثبتاً مفصلاً بالكتب والرسائل والفصول التي نشرت بين ١٩١٣ و١٩٦٦، خصوصاً في العراق وسوريا ولبنان ومصر والاردن.

* **الدير وما يشتمل عليه:** أجمل كوركيس عواد مواصفات الدير بالتالي:

تختلف الديارات باختلاف مواضعها. فمنها ما

آثار دير الصليب في آفاميا (سوريا) الذي يعود الى القرن الثامن

موقع دير قمران

تسنم قمم الجبال، أو ما توسّد ضفاف الانهار، ومنها ما اقترب من المدن والارياف، أو ما انفرد في البراري والقفار.

ولكل دير من الديارات، حاجات تماثل حاجات سائر الأديرة من وجوه، وتخالفها من وجوه اخرى. وفي وسعنا القول اجمالاً، ان كبر الدير يدل على كثرة الرهبان والمتبتلين فيه، والعكس بالعكس.

ولا يرى دير من الديارات الا وهو محصّن بسور مكين شاهق، يدفع عنه شر الهجمات ويقيه غائلة المعتدين عليه.

ويشترط في كل دير، صغر أم كبر ان يكون فيه كنيسة يصلي فيها االديرانيون كما يشترط فيه ان يحتوي على صوامع تستوعب من فيه من رهبان. ولا حاجة بنا الى القول، ان في كل دير من المباني الاخرى ما لا سبيل الى الاستغناء عنها، كالمخازن وبيوت الطعام وغيرها من المرافق.

على ان بعض الديارات الكبيرة، كانت تضم بين جدرانها غير كنيسة، تقام كل واحدة على اسم قديس أو يتخذ لها اسم من بعض شعائر الدير. أما الصوامع، وهي قلالي الرهبان، فكانت في بعض الاديرة تعد بعشرات، وفي بعضها بمئات، وجاوزت في بعضها الألف عداً.

ولا يخلو دير من الديارات الكبيرة من خزانة كتب يجد الرهبان فيها ما ينشدون من التآليف التي تتناول موضوعات دينية وادبية وعلمية مختلفة، كالكتب المقدسة وتفاسيرها، والفلسفة واللاهوت، وسير الشهداء والقديسين، والحياة النسكية، والعبادات والطقوس الدينية، والأدب والشعر، وغير ذلك مما تحفل به رفوفها.

وكانت خزانة الكتب مجتمع الباحثين من الرهبان، فيها يطالعون وفيها يؤلفون الكتب وفيها ينسخون.

ولا بد للراهب من صومعة يقيم فيها وحده. وهذه الصوامع تبنى بناء ان كان الدير قائماً في السهل، أو تنقر في قلب الصخر ان كان الدير في الجبل.

والديارات الجليلة الشأن، لا تخلو من دور ضيافة ينزلها زوار الدير والمجتازون به. فانه لا يباح لزائر ما ان يقيم في صوامع الرهبان ذاتها.

وقد كان بعض تلك الديارات، على جانب عظيم من فخامة البنيان واتساع الرقعة وحسن الآلة حتى ان بعض الخلفاء والملوك والامراء واعيان الناس ووجوههم، كانوا ينزلونها. ولا يخرج أحدهم منها الا وهو يلهج بطيب الاقامة فيها والثناء على من بها.

وان بعُدَ موضع الدير عن مجاري المياه لجأ مؤسسوه الى استنباط الماء الذي يفي بامور معيشتهم. فلا تقوم للدير قائمة إن فقد الماء. فتراهم يحفرون الآبار داخل الدير طلباً للماء. أو ينقرون الصهاريج في جوف الصخر ليجمع فيها ماء المطر.

وان ركب الدير شواطىء الانهار، ألفيت حوله من البساتين والمروج والرياحين ما يبهج النظر ويشرح الخاطر.

* * *

* **دير درمالس**: هذا الدير في رقّة باب الشماسية، قرب الدار التي بناها الديلمي أحمد بن بويه، بباب الشماسية. وموقعه أحسن موقع. وهو نزه كثير البساتين وبقربه أجمة قصب. وهو كبير، آهل برهبانه وقسانه والمتبتلين فيه ... واعياد النصارى ببغداد، مقصومة على ديارات معروفة، منها اعياد الصوم ... ولأبي عبد الله بن حمدون النديم (كان استاذ ابي العباس ثعلب) فيه: يا دير درمالس ما احسنك ويا غزال الدير ما افتنك...

* **دير سمالو**: وهذا الدير شرقي بغداد، بباب الشماسية، على نهر المهدي. وهناك أرحية للماء، وحوله بساتين واشجار ونخل. والموضع نزه، حسن العمارة، آهل بمن يطرقه، وبمن فيه من رهبانه. وعيد الفصح ببغداد، فيه منظر عجيب. لأنه لا يبقى نصراني الا حضره وتقرب فيه، ولا احد من أهل التطرب واللهو من المسلمين الا قصده للتنزه فيه. وهو أحد متنزهات بغداد المشهورة، ومواطن القصف المذكورة. ولمحمد بن عبد الله الهاشمي فيه: ولربّ يوم في سمالو تم لي فيه السرور وغيبت احزانه ... (بني هذا الدير سنة ١٦٣ هـ (٧٧٩ م) . وظل عامراً نحواً من خمسمائة سنة. وكان آهلاً برهبانه في ايام ياقوت الحموي. وذكر ابن عبد الحق ان هذا الدير «خرب، فلم يبق له أثر». فيكون خرابه قد حصل في نحو اواسط المائة السابعة للهجرة).

* **دير الثعالب**: وهذا الدير ببغداد، بالجانب الغربي منها، بالموضع المعروف بباب الحديد. وأهل بغداد يقصدونه ويتنزهون فيه، ولا يكاد يخلو من قاصد ولا طارق. وله عيد لا يتخلف عنه أحد من النصارى والمسلمين. وباب الحديد أعمر موضع ببغداد وانزهه، لما فيه من البساتين والشجر والنخل والرياحين،

ولتوسطه البلد وقربه من كل أحد... وقد قالت الشعراء في الدير وباب الحديد وقبرونيا (كذا في المخطوط: ترجمة لقديس اسمه قبرينا أو قبريانوس – المعروف عند الكتبة الغربيين باسم Cyprianos وقد قتل سنة ٢٥٨م... ولعل التسمية محرفة من «فبرونيا». وهي قديسة شهيرة قتلت نحو سنة ٣٠٩م).

* **دير الجاثليق**: وهذا الدير يقرب من باب الحديد، وهو دير كبير، حسن، نزه، تحدق به البساتين والاشجار والرياحين. وهو يوازي دير الثعالب في النزهة والطيب وعمارة الموضع، لأنهما في بقعة واحدة. وهو مقصود مطروق. وفيه رهبانه وفتيانه. ولمحمد بن ابي أمية الكاتب فيه: تذكرت دير الجاثليق وفتية بهم تمّ لي فيه السرور وأسعفا... (الجاثليق لفظ يوناني – Catholicos – معناه «العمومي»؛ والمراد به الرئيس الديني الأعلى عند الكلدان النساطرة في ايام الملوك الساسانيين والخلفاء العباسيين. ويقابله في وقتنا هذا «البطريرك») . وقد ذكر هذا الدير كثيرون من المؤرخين. وهناك دير ثانٍ عرف ايضاً بدير الجاثليق، وموضعه في شمال بغداد على الضفة الغربية. وهو على الحد بين آخر السواد وبين أول ارض تكريت. ولعل موضعه يرى في الأخربة الحالية المعروفة اليوم ب «ابو صخر». ولدير الجاثليق هذا شهرة في تاريخ الاسلام، لنشوب معركة حامية في جواره سنة ٧١ هـ (٦٩٠م) بين عبد الملك بن مروان وبين مصعب بن الزبير. ويقول البلاذري ان عبد الملك بويع بدير الجاثليق، ودفنت جثة مصعب هناك.

* **دير مديان**: وهذا الدير على نهر كرخايا ببغداد. وكرخايا نهر يشق من المحوّل الكبير ويمر على العباسية، ويشق الكرخ، ويصب في دجلة، وكان قديماً عامراً والماء فيه جارياً، ثم انطمّ وانقطعت جريته بالبثوق (جمع بثق = موضع الكسر من الشط) التي انفتحت في الفرات. وهو دير حسن، نزه. كان ديراً للنساطرة، ولغة هؤلاء السريانية. وياقوت الحموي ضبط اسم هذا الدير بكسر الميم، في حين انه ورد في مخطوطة الشابشتي بضمها. والذي عندنا ان هذا الضبط الثاني هو الوجه لتقارب لفظه من اللفظ السرياني المذكور.

* **دير أشموني**: وأشموني، امرأة بُني الدير على اسمها، ودفنت فيه. وهو بُقطرّبّل غربي دجلة (قال ياقوت ان بقطربل قرية بين بغداد وعكبرا، ينسب اليها الخمر. وما زالت متنزهاً للبطالين وحانة للخمارين. وقد اكثر الشعراء من ذكرها). وهناك أيضاً دير يسمى دير الجرجوث وحوله بساتين ومزارع، زمن ضاق به دير أشموني، عدل اليه (لم نقف على دير بهذا الاسم. ولعله مصحف عن دير جرجيوس، أو دير جرجس).

ما زال الى اليوم ذكر أشموني شائعاً بين ابناء كنائس المشرق، لا سيما بين السريان المشارقة والمغاربة. ففي العراق وغيره من الاقطار الشرقية، جملة كنائس عرفت باسم هذه القديسة: احداها في قره قوش (من أهم قرى شرقي الموصل وأعظمها شأناً. أهلها نصارى)، وفي قرية برطلى، كنيسة اخرى باسم أشموني، وهي عامرة. وفي باعشيقا (من أجمل قرى شرقي الموصل وانزهها. يسكنها اقوام من المسلمين والنصارى واليزيدية) كنيسة ثالثة مسماة باسمها ايضاً وهي عامرة يصلى بها يومياً. وهناك كنائس ومصليات عديدة في شمال العراق باسم أشموني.

وهناك في غير العراق ديارات وكنائس باسم أشموني: فعند سور مدينة ماردين في جنوبها، دير مرت شموني المقابية، لا يزال قائماً. وقد كان في الاسكندرية بمصر، كنيسة للنساطرة على اسم القديسة مرت شموني وسبعة اولادها ومعلمهم الكاهن اليعازر. وكان في مدينة بدليس (نواحي ارمينيا) كنيسة أخرى للنساطرة باسم هذه القديسة. وفي مدينة رأس العين، كنيسة أخرى كانت للنساطرة أيضاً، عرفت بهذا الاسم. كذلك في مدينة انطاكية، ومدينة مزيات، وبلدة شدرا (في لبنان) .

ومن المراجع التاريخية، قديمها وحديثها، يستلخص أن أشموني كانت والدة الفتية المكابين السبعة التي قتلت مع ابنائها وأليعازار الشيخ. بعد أن كابدوا صنوف العذاب لانكارهم الطاعة على الملك انطيخوس أبيفانس السلوقي (١٧٦ – ١٦٤ ق.م.).

* **دير سابر**: وهذا الدير ببزوغى (من قرى بغداد، قرب المزرفة، بينها وبين بغداد نحو فرسخين) ، وهي بين المزرفة والصالحية في الجانب الغربي من دجلة. وبزوغى عامرة، نزهة، كثيرة البساتين والفواكه والكروم والحانات والخمارين. والدير حسن، عامر، لا يخلو من متنزه فيه ومتطرب اليه. ولعل «سابر» من «سابور». والا فقد تكون اللفظة سريانية بمعنى البشارة.

* **دير قوطا**: وهذا الدير بالبردان على شاطىء دجلة. وبين البردان وبغداد بساتين متصلة ومتنزهات

متتابعة. والبردان، من المواضع الحسنة، والبقاع النزهة والاماكن الموصوفة. وهذا الدير بها يجمع احوالاً كثيرة، منها عمارة البلد، وكثرة فواكهه، ووجود جميع ما يحتاج اليه فيه؛ ومنها ان الشراب هناك مبذول، والحانات كثيرة. ولعبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع (شاعر كان في ايام المعتصم) فيه: يا دير قوطا، لقد هيجت لي طربا ازاح عن قلبي الاحزان والكربا.

* **دير مر جرجس**: (مر، وتكتب: مار، لفظة سريانية معناها السيد وهي لقب يطلق على القديسين والأولياء والجثالقة والاساقفة): هذا الدير بالمزرفة. وهو احدى الديارات والمواضع المقصودة. والمتنزهون من أهل بغداد يخرجون اليه دائماً في السميريات لقربه وطيبه. وهو على شاطىء دجلة. والعروب (مفردها العربة: طواحين تقوم على سفن رواكد في النهر، كانت شائعة منذ ما قبل الاسلام، في العراق والجزيرة وبعض ما جاورها من البلدان) بين يديه، والبساتين محدقة به، والحانات مجاورة له. وكل ما يحتاج اليه المتنزهون مخاضر فيه.

* **دير باشهرا** (لفظة سريانية «بيت شهرا» بمعنى محل السهر): وهذا الدير على شاطىء دجلة (بين سامراء وبغداد). وهو دير حسن، عامر... والمنحدرون من سرّ من رأى (سامراء) والمصعدون اليها، ينزلونه. فمن جعله طريقاً، بات فيه وأقام به ان طاب له. ومن قصده، أقام الأيام في ألذ عيش واطيبه، وأحسن مكان وأنزهه.

* **دير الخوات**: هذا الدير بعكبرا (عكبرا: عرفها ياقوت بقوله: بليدة من نواحي دجيل، قرب صريفين وأوانا، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ. ويقول البحاثة المحقق الأب حنا فياي، ان مدينة عكبرا، اسسها سابور الأول – ٢٤٢ – ٢٧٣م – واسكن فيها قوماً من الأسرى، وأصبحت كرسياً لأسقف نسطوري). ودير الخوات هو دير كبير عامر، يسكنه نساء مترهبات متبتلات فيه. وعيده الأحد الأول من الصوم، يجتمع اليه كل من يقرب منه من النصارى والمسلمين، فيعيّد هؤلاء ويتنزه هؤلاء. وفي هذا العيد ليلة الماشوش، وهي ليلة تختلط النساء بالرجال، فلا يرد أحد يده عن شيء، ولا يرد احد احداً عن شيء. وهو من معادن الشراب (اشارة الى شراب عكبرا، في اليتيمة، قال: «... ووضع لي يد كل واحد منهم طامس ذهب وزنه ألف مثقال، مملوء شراباً قطربلياً أو عكبرياً».

* **دير العلث**: والعلث، قرية على شاطىء دجلة، في الجانب الشرقي منها، وبين يديها ان دجلة موضع صعب، ضيق المجاز، كبير الحجارة، شديد الجرية، تجتاز فيه السفن بمشقة. وهذه المواضع تسمى الأبواب. واذا وافت السفن الى العلث، ارست بها، فلا يتهيأ لها الجواز الا بهاد من أهلها يكترونه، فيمسك السكان ويتخلل بهم تلك المواضع، فلا يحطها حتى يتخلص منها. وهذا الدير راكب دجلة. وهو من احسن الديارات موقعاً وانزهها موضعاً.

* **دير العذارى**: وهذا الدير أسفل الحظيرة (قرية كبيرة كانت من اعمال بغداد من جهة تكريت)، على شاطىء دجلة. وهو من الديارات الحسنة، وبقعته من البقاع المستطابة. وانما سمي بدير العذارى لأن فيه جوار متبتلات عذارى، هن سكانه وقطانه.

كتب البطريرك اغناطيوس افرام الأول برصوم الى المحقق كوركيس عواد بصدد هذا الدير يقول: «دير العذارى كان ديراً للرواهب السريانيات في بغداد، في قطيعة النصارى، حيث كانت بيعة مار توما للسريان. ذكره العلامة ابن العبري في احداث سنة ١٠٠٢م، وسماه دير الأخوات، وقال ان قوماً من السوقة حاولوا نهبه، ثم ولّوا عنه هاربين لنبأ أتاهم ان خلقاً من الأوباش هلكوا في حريق نشب في البيعة المذكورة بفعلهم».

* **دير السوسي**: وهذا الدير لطيف على شاطىء دجلة بقادسية (قرية كبيرة من نواحي دجيل، بين حربى وسامراء. وفي كتاب «سامراء» لمديرية الآثار العراقية وصف موجز لبقايا القادسية) سر من رأى. وبين القادسية وسر من رأى أربعة فراسخ، والمطيرة (قرية من نواحي سامراد) بينهما. وهذه النواحي كلها متنزهات وبساتين وكروم. والناس يقصدون هذا الدير ويشربون في بساتينه. ولابن المعتز فيه: يا لياليّ بالمطيرة والكرخ ودير السوسي بالله عودي.

قال ياقوت: «قال البلاذري: هو دير مريم، بناه رجل من أهل السوس وسكنه هو ورهبان معه، فسمي به. وهو بنواحي سر من رأى بالجانب الغربي».

* **دير مرمار**: صوابها «دير مر ماري» وبهذا الوجه ورد في معجم البلدان. وماري هذا من اقدم جثالقة –

بطارقة – المشرق. جعل مقامه في سلوقية، وبنى كنيسة في دير قنى بالقرب من المدائن. وفيها توفي سنة ٨٢م. وهذا الدير بسر من رأى (سامراء) عند قنطرة وصيف. وهو دير عامر كثير الرهبان. حوله كروم وشجر. وهو من المواضع النزهة والبقاع الطيبة الحسنة. وللفضل بن العباس بن المأمون (من اولاد الخلفاء) فيه: بدير مر ماري اذ نحيي الصبوح به ونُعمل الكاس فيه بالعشيات. وكان الخليفة المعتز يتردد على هذا الدير، واستمر على هذا النحو طيلة حياته.

* **دير مريحنا**: وهذا الدير الى جانب تكريت، على دجلة. وهو كبير عامر كثير القلايات (مفردها القلاية: الصومعة ينفرد فيها الراهب) والرهبان، مطروق مقصود لا يخلو من مسافر ينزله. وله مزارع وغلات كثيرة وبساتين وكروم. وهو للنسطور أي انه للنساطرة = فرقة من النصارى عرفت باسم مؤسسها وقد صار بطريركاً على القسطنطينية سنة ٤٢٨م. ثم زاغ في آرائه الدينية عما هو ثابت لدى أئمة الكنيسة. وفي سنة ٤٣١م عقد مجمع ديني في أفسس حرم نسطور وتعليمه وانزله عن كرسيه البطريركي. وقد انتشرت بدعته بين كثير من نصارى المشرق من بعده وما زالت بقاياها الى الآن بين الكلدان النساطرة. مات نسطور في صحراء ليبيا نحو ٤٤٠م.

وعلى باب الدير صومعة عبدون الراهب، بنى الصومعة ونزلها فصارت تعرف به. وهو الآن المستولي على الدير والقيم به وبمن فيه. وقد بنى الى جانبه بناء ينزله المجتازون، فيقيم لهم الضيافة ويحسن لهم القرى. وعبدون الراهب رجل من الملكية (أو الملكانية: هم المسيحيون الشرقيون المنتمون الى الكرسي الانطاكي الخاضعون لملوك الروم، المعتقدون بتقرير المجمع الخلقيدوني، التابعون للكرسي الروماني).

* **دير صباعي**: في دائرة المعارف الاسلامية: «دير سعابة»، وهذا غير صحيح. والصواب هو «دير صبّاعي»، بصاد مهملة مفتوحة، فباء مشددة. والمقصود به هنا القديس الشهيد «شمعون بَر صباعي»، وبر صباعي لفظ سرياني بمعنى ابن الصباغين لأن أهله كانوا يصبغون ثياب الملك، وباسمه عرف هذا الدير. كان شمعون بر صباعي جاثليق المشرق في المدائن. واصله من السوس. وقد ابتدأت جثلقته سنة ٣٢٩م. ثم أذاقه سابور الثاني، الملك الساساني شديد الاضطهاد ومرّ العذاب اكراهاً له على جحد النصرانية ليدين بالمجوسية. لكن شمعون لم يحد عن دينه، فكان مصيره القتل مع جملة كبيرة من رفاقه، سنة ٣٤١م، في مدينة كرخ ليدان من أعمال الأهواز.

وهذا الدير شرقي تكريت، مقابل لها، مشرف على دجلة. وهو نزه عامر. فيه خلق كثير من رهبانه وقسانه.

* **دير الأعلى**: هذا الدير بالموصل (في اعلاها)، يطل على دجلة والعروب (العروب ضرب من الطواحين المائية). وهو دير كبير عامر. فيه قلايات (صوامع) كثيرة لرهبانه. وله درجة منقورة في الجبل يفضي الى دجلة، وعليها يستقي الماء من دجلة. وتحت الدير عين كبيرة (تعرف اليوم بعين الكبريت) تصب الى دجلة، ولها وقت من السنة يقصدها الناس فيستحمون منها، ويذكرون انها تبرىء من الجرب والحكة وتنفع المقرعين (المقعدين) والزمنى. والشعانين في هذا الدير حسن، يخرج اليه الناس فيقيمون فيه الأيام يشربون. ومن اجتاز بالموصل من الولاة نزله. وكان المأمون اجتاز بهذا الدير في خروجه الى دمشق، فأقام به اياماً. ووافق نزوله عيد الشعانين.

اشتهر هذا الدير بكونه مركزاً خطيراً لطقوس الكنيسة الكلدانية. فقد ورد في كثير من كتب الطقوس، قول الناسخ «حسب نسخة الدير الأعلى». ومثل هذه العبارة تنبىء بأن هذا الدير كان يحرز خزانة كتب حافلة بالمؤلفات الطقسية وغير ذلك من المواضيع. وكان في هذا الدير مدرسة أطرى المؤرخون علومها وتقدمها. وذهب الخوري سليمان صائغ إلى ان خراب هذا الدير كان في نحو أواسط القرن الثامن عشر للميلاد مستنداً في ذلك الى قصيدة الشاعر حسن عبد الباقي التي قالها سنة ١١٥٦ هـ (١٧٤٣م) في تجديد كنيسة الطاهرة للكلدان في أعلى الموصل. وقد تطرقت جملة من المصادر العربية الى ذكر هذا الدير، ومنها يستشف ما كان لهذا الدير من جليل المنزلة وبعد الصيت.

* **دير يونس بن متى**: وهذا الدير ينسب الى يونس بن متى النبي. وهو في الجانب الشرقي من الموصل، بينه وبين دجلة فرسخان. وموضعه يعرف بنينوى، ونينوى هي مدينة يونس عليه السلام. وارضه كلها نوار وشقاق. وله في ايام الربيع ظاهر حسن مونق، وهو مقصود. وتحت الدير عين تعرف بعين

يونس. وكان اليهود في ايام الحسين بن عبد الله بن حمدان، دسوا واحداً منهم فدخل الهيكل وأحدث فيه، واتصل الخبر الى ابن حمدان، فجمع كل يهودي بالموصل، فصادرهم على مال كثير اخذه منهم.

* **دير الشياطين**: وهذا الدير غربي دجلة من أعمال بلد (وبلد، تعرف بقاياها اليوم ب «أسكي موصل» على نحو ٤٠ كلم من شمال غربي مدينة الموصل. وهي من المدن القديمة التي ترقى أخبارها الى ايام الدولة الأشمرية) . له منظر حسن وموقع جليل. وله سور يحيط به. وللخباز البلدي (هو ابو بكر محمد بن أحمد بن حمدان المعروف بالخباز البلدي الشاعر) فيه: رهبان دير سقوني الخمر صافية مثل الشياطين في دير الشياطين. وكان عبّادة (اشتهر بعبادة المخنث) ، لما نفاه المتوكل الى الموصل، يمضي الى دير الشياطين فيشرب فيه، ولم يكن يفارقه. فهوى غلاماً من الرهبان بالدير، وكان من أحسن الناس وجهاً وقداً فهام به وجنّ عليه ولزم الدير من أجله، ولم يزل يخدعه ويلاطفه ويعطيه الى ان سلخ الراهب من الدير وخرج معه. وفطن رهبان الدير بعبادة وما فعل من افساده الغلام، فارادوا قتله بأن يرموه من أعلى الدير الى الوادي. ففطن بهم وهرب.

* **عمر الزعفران**: ويعرف بدير الزعفران، أو دير مار حنانيا. وهو دير كبير آهل، يعد من أجل ديارات الجزيرة. يقوم على نشز من الأرض، في شرقي ماردين، على مسير ساعة منها. طول هذا الدير ٦٣ متراً وعرضه ٧١، وهو مسور بسور حصين. وابنية الدير غير متناسقة الترتيب لتشييدها في عصور شتى. ويرتقي تشييد هذا الدير الى ايام مار حنانيا مطران ماردين وكفرتوتا السرياني الذي وطد اركانه سنة ٧٩٣ – ٨٠٠م على انقاض قلعة ودير قديم، ووضع فيه كتباً كثيرة، وجمع فيه رهباناً بلغ عددهم في ايامه ثمانين راهباً. وقد صار هذا الدير كرسياً للبطاركة من سنة ١٢٩٣م وانجب واحداً وعشرين بطريركاً وتسعة مطارنة ومائة وعشرة. ويطل عليه من الشمال، ثلاثة اديار صغيرة متجاورة وهي دير مار عزرائيل، وكان آهلاً برهط من الرهبان بين سنة ١٥٠٠ – ١٦٠٠م. ودير مار يعقوب الملفان وذكر لأول مرة سنة ١١٦٥م ولا يزال عامراً. وصومعة مار بهنام وقطنها نفر من النساك حتى اواسط القرن السابع عشر. لفت هذا الدير القديم انظار بعض علماء الغرب، فزاروه وكتبوا في وصفه ابحاثاً مفيدة.

* **عمر أحويشا**: وتفسير أحويشا بالسريانية الحبيس (الراهب المحبوس في سبيل الله). وهذا العمر بسعرت، وسعرت مدينة كبيرة من دياربكر قرب أرزن. وهوكبير عظيم، فيه اربعمائة راهب في قلالي. حوله كروم وبساتين. يحمل منه الخمر الى المدن المذكورة. وبقربه عين عظيمة تدير ثلاثة أرجاء. والى جانبه نهر يعرف بنهر الروم. لا زال بناؤه قائماً، بل ان الرهبان الكلدان كانوا يقطنونه حتى الحرب العالمية الأولى، ثم تشتت شملهم بعد ذلك. وبجانب هذا الدير قرية سميت بدير يعقوب. أنشأ دير أحويشا، مار يعقوب، على مقربة من مدينة سعرد (سعرت) . وكان يعقوب حياً في المائة الخامسة للميلاد. والاخبار الواصلة الينا عن مؤسس هذا الدير مقتضبة، يؤخذ منها انه انطلق الى رجل حبيس ناسك، فاشتركا في بناء هذا العُمر والقيام بأمره. ثم أخذ الناس يتوافدون اليه من كل حدب وصوب ليصبحوا رهباناً فيه، حتى نال شهرة بعيدة بين ديارات تلك البقعة.

* **دير فيق**: وهذا الدير في ظهر عقبة فيق فيما بينها وبين بحيرة طبريا (بفلسطين) ، في جبل يتصل بالعقبة، منقور في الحجر. وهو عامر بمن فيه ومن يطرقه من النصارى لجلالة قدره عندهم، وغيرهم يقصده للتنزه والشرب فيه. والنصارى يزعمون انه اول دير عمل للنصرانية، وان المسيح، كان يأوى إليه، ومنه دعا الحواريين. وفيه حجر ذكروا ان المسيح كان يجلس عليه. فكل من دخل الموضع كسر قطعة من ذلك الحجر تبركاً به. وعُمل هذا الدير في الموضع على اسم المسيح عليه السلام. ولأبي نواس فيه: «بحجّك قاصداً ماسرجسان فدير النوبهار فدير فيق»، وهي قصيدة طريفة، يخاطب فيه غلاماً نصرانياً كان يهواه.

* **دير الطور**: والطّور، جبل مستدير مستطيل، واسع الاسفل مستدق الاعلى، لا يتعلق به شيء من الجبال، وليس اليه الا طريق واحد. وهو فيما بين طبريا واللجون، مشرف على الغور ومرج اللجون والدير في نفس التلة، وعين تنبع بها. ويعرف ايصاً بدير التجلي لأن المسيح، على زعمهم، تجلّى لتلامذته بعد ان رُفع، حتى اراهم نفسه وعرفوه. والناس يقصدونه من كل موضع فيقيمون به ويشربون فيه.

* **دير البخت**: وهذا الدير بدمشق، على فرسخين منها. وهو دير كبير حسن، وكان يسمى دير ميخائيل، فسمي بهذا الاسم، لبُخت (الابل الخراسانية) كانت

لعبد الملك بن مروان مقيمة هناك، فعرف بها.

* **دير زكى**: (اللفظة سريانية بمعنى «عفيف، بار طاهر») . وهذا الدير بالرقة على الفرات. وعن جنبه نهر البليخ (نهر أوله من ارض حران، ومصبه في الفرات) . وهو من احسن الديارات موقعاً. وكانت الملوك اذا اجتازت به نزلته واقامت فيه، لأنه يجتمع فيه كل ما يريدونه من عمارته ونفاسة ابنيته وطيب المواضع التي به. وبناحيته من الغزلان والارانب وما شاكل ذلك مما يصطاد بالجارح من طير الماء والحبارى واصناف الطير. وفي الفرات، بين يديه، مطارح الشباك للسمك. فهو جامع لكل ما تريده الملوك والسوقة. «وهو من اديار السريان الكبرى. شيد على الارجح في المئة الخامسة للميلاد. وذكر هذا الدير في التاريخ الكنسي، في احداث المائة السادسة. وأبصرتُ (الكلام للعلامة اغناطيوس أفرام الاول برصوم) في خزانة المتحف البريطاني انجيلاً عتيقاً مخطوطاً على رق بالقلم السرياني، انجزه قسطنطين وضبطه في هذا الدير القس سابا قبيل ٥٨٣م ورقمه ١٤٤٦٤... ومن أجلّ من نزل فيه ايام مجده هرون الرشيد الخليفة العباسي».

* **دير مار سرجيس**: (على اسم القديس الشهير الذي قتله القيصر الروماني مكسيمينوس غاليريوس نحو سنة ٣٠٧م). وهذا الدير بعانة. وعانة مدينة على الفرات عامرة. وهو كبير حسن كثير الرهبان.

* **دير ابن مزعوق**: وهذا الدير بالحيرة، في وسطها قريب دير الحريق (من ديارات الحيرة). وهو دير كثير الرهبان، حسن العمارة، مقصود وموصوف.

* **دير سرجس**: وهذا الدير كان بطيزناباذ (من أقدم مدن العرب الجاهلية في العراق)، وهو بين الكوفة والقادسية على حافة الطريق، وبينها وبين القادسية ميل (في العراق، قادسيتان، الاولى قرب سامراء. والثانية هي قرب الكوفة، وقد اشتهر امرها أثناء الفتح العربي لأن عندها جرت وقعة القادسية المعروفة في التاريخ). والدير في بقاع موصوفة، وقد خربت الآن وبطلت وعفت آثارها وتهدمت آبارها، ولم يبق من جميع رسومها الا قباب خراب وحجر على قارعة الطريق، تسميه الناس معصرة ابي نواس.

* **ديارات الأساقف**: هذه الديارات بالنجف، بظاهر الكوفة، وهو أول الحيرة. وهي قباب وقصور تسمى ديارات الاساقف. وبحضرتها نهر يعرف بالغدير، عن يمينه قصر ابي الخصيب مولى ابي جعفر، وعن شماله السدير (من اشهر قصور الحيرة)، وبين ذلك الديارات.

* **قبة الشتيق**: (لفظة سريانية «شتيقا» بمعنى الساكت والصامت) . هي من الابنية القديمة بالحيرة، على طريق الحاج. وبازائها قباب يقال لها الشكورة، جميعها للنصارى. فيخرجون يوم عيدهم من الشكورة الى القبة، في احسن زي، عليهم الصلبان، والشمامسة والقسّان معهم يقدسون (على نغم واحد، متفق في الالحان)، ويتبعهم خلق كثير من متطربي المسلمين واهل البطالة الى ان يبلغوا قبة الشتيق، فيتقربون ويتعمدون، ثم يعودون بمثل تلك الحال. فهو منظر مليح.

* **دير هند**: بنت هند (بنت النعمان بن المنذر) هذا الدير بالحيرة، وترهبت فيه وسكنته دهراً طويلاً، ثم عميت. وهذا الدير من أعظم ديارات الحيرة واعمرها. وهو بين الخندق وحصراه بكر. في المراجع العربية القديمة ثلاثة مواضع عرفت بدير هند: الأول دير هند الصفر وهو المذكور. الثاني دير هند الكبرى، من ديارات الحيرة ايضاً. الثالث دير هند من قرى دمشق ذكره ياقوت. عن الأول، ذكر أبو الفرج الاصفهاني في ان هنداً، «لما حبس كسرى النعمان الاصغر اباها، ومات في حبسه، ترهبت ولبست المسوح واقامت في ديرها مترهبة حتى ماتت، فدفنت فيه». وذكر ابن فضل الله العمري، ان بشر بن مروان «شق له (للدير) نهراً من الفرات. ولم يزل النهر يجري حتى خرب الدير».

* **دير زرارة**: وهو دير حسن، بين جسر الكوفة وحمّام أعين، ناحية عن الطريق على يمين الخارج من بغداد الى الكوفة. وهو موضع حسن كثير الحانات والشراب، عامر بمن يطرقه.

* **عمر مر يونان**: وهذا العُمر بالانبار (مدينة كانت على الفرات في غربي بغداد) . وهو عمر حسن كبير، كثير القلايات والرهبان. وعليه سور محكم البناء، فهو كالحصن له. ومن اجتاز بالانبار من الخلفاء ومن دونهم ينزله مدة مقامه.

يؤخذ من المراجع التاريخية ان يونان مؤسس العمر المعروف باسمه في الأنبار، كان من جزيرة قبرس، من سلالة الملك قسطنطين. وقد تخرج في علم الطب والفلسفة. وذهب الى مصر واطرح العالم وزهد ولزم الطباعة، وتتلمذ على القديس أوجين. ثم قدم معه بلاد العراق وشيد في الانبار ديراً. وزار دير مار توما في الهند، ثم عاد الى ديره، وفيه توفي ودفن. لبث عمر مر يونان قائماً زاهراً حتى أواسط المائة التاسعة للميلاد. فقد ذكر ماري بن سليمان ان المتوكل على الله الخليفة العباسي، أمر بهدم كنيسته فيما هدم من بيع واعمار. وقد كانت خلافة المتوكل من سنة ٢٣٢ الى ٢٤٧ هـ (٨٤٧ – ٨٦١ م) فيكون هذا العمر، أو قل كنيسة، قد ظلت قائمة زهاء ٥٠٠ سنة.

* **دير قنى**: (يعرف ايضاً بدير مر ماري السليح. والسليح لفظة سريانية بمعنى الرسول). وهذا الدير على ستة عشر فرسخاً من بغداد، بينه وبين دجلة ميل ونصف. فيه مائة قلاية لرهبانه والمتبتلين فيه، لكل راهب قلاية. وعليه سور عظيم يحيط به، وفي وسطه نهر جار. وعيده الذي يجتمع الناس اليه عيد الصليب: ١٤ ايلول.

في سير القديسين ان امرأة نبيلة تدعى قوني، أصيبت بالبرص، فشفاها ماري باعجوبة، فقابلت احسانه بأن وهبته كثيراً من ضياعها واراضيها. لكنه اقتصر من ذلك على بيت النار المجوسي، فشيد فيه ديراً هو دير قنى. ولما مات ماري دفن فيه. ومن ثم أصبح مدفناً لكثير من جثالقة الشرق. وانشأ ماري في الدير مدرسة كانت تدرس العربية والسريانية واليونانية واصاف العلوم والفنون. وكان فيها خزانة كتب حافلة تضم امهات التآليف التي كانت متداولة في ذلك العصر. وعن نهاية الدير، ما ذكره ياقوت (المتوفي سنة ٦٢٦هـ، ١١٢٨م): «واما الآن فلم يبق من هذا الدير غير سوره، وفيه رهبان صعاليك، وكأنه خرب بخراب النهروان».

* **عمر كسكر**: وهو اسفل من واسط، في الجانب الشرقي منها بالقرية المعروفة ببرجوني. وفيه كرسي المطران. وهو عمر كبير عظيم حسن البناء محكم الصنعة. حوله قلايات كثيرة، كل قلاية منها لراهب.

ديارات مصر

* **دير القصير**: وهذا الدير في أعلى الجبل. وهو دير حسن البناء، محكم الصنعة، نزه البقعة. فيه رهبان مقيمون به. وله بئر منقورة في الحجر يستقي الماء له منها. وفي هيكله صورة مريم في حجرها صورة المسيح عليه السلام. وفي اعلاه غرفة بناها ابو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وكان كثير الغشيان الى هذا الدير. وهو مطل على القرية المعروفة بشهران وعلى الصحراء والبحر. وهذه القرية المذكورة، قرية كبيرة عامرة على شاطىء البحر. ويذكرون ان موسى، صلى الله عليه، ولد فيها، ومنها القته امه الى البحر في التابوت. وقد قال فيه شعراء مصر. ولأبي هريرة بن ابي العصام فيه: كم لي بدير القصير من قصف مع كل ذي صبوة وذي ظرف.

اتسع في ذكر هذا الدير المؤرخ ابو صالح الارمني (أحد ابناء الثانية عشرة للميلاد) في تاريخه المعروف باسمه، الذي وصف فيه اخبار نصارى مصر في زمانه، مع وصف اديرتهم وبيعهم وغير ذلك من الاخبار المفيدة.

* **دير مار حنا**: (اسم هذا الدير في اليتيمة «دير يوحنا»، وفي تاريخ ابي صالح الارمني «دير مار يوحنا»). وهذا الدير على شاطىء بركة الحبش، قريب من البحر، والى جانبه بساتين انشأ بعضها الامير تميم اخو امير المؤمنين العزيز بالله. وبقرب هذا الدير، بئر تعرف ببئر نجاتي، عليها جميزة تجتمع الناس اليها ويشربون عندها. وهو «دير مار يوحنا المعمدان. من اديار الملكيين بمصر».

* **دير نهيا**: ونهيا بالجيزة. وديرها من احسن الديارات. عامر برهبانه وسكانه. وله في النيل منظر عجيب، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته. وقال ابو صالح الارمني في التاريخ المنسوب اليه، ان هذا الدير اهتم بعمارته انسان تاجر ورد من الاسكندرية الى مصر، قبل ان يتملك دقلطيانس باربعين سنة.

* **دير طمويه**: وطمويه في الغرب بازاء حلوان. والدير راكب البحر وحوله الكروم والبساتين والنخل والشجر. فهو نزه عامر آهل. وله في النيل منظر حسن. ويقول ابو صالح الارمني: «يحيط بهذا الدير حصن دائر. وبيعته على اسم القديس مرقوريوس. وجدد عمارته الشيخ ابو اليمن وزير متولي ديوان اسفل

الارض (يريد مصر السفلى) ، والشيخ ابو منصور ولده، وذلك في الخلافة الآمرية (١١٠١ – ١١٣٠ م) ووزارة الافضل شاهنشاه. وكان الافضل هذا ينزل فيه ويقيم به متنزهاً».

الديارات المعروفة بالعجائب

* **دير الخنافس**: هو دير على هضبة غير بعيدة من قرية برطلى، في شرقي الموصل. يحمل اسم القديس دانيال الناسك الذي بارح بعض اديار أمد (دياربكر) في صحبة القديس متى الناسك سنة ٣٦٣م قاصداً بلاد نينوى. ولعله بني في العقد الاخير من المائة الرابعة أو الأول من المائة الخامسة. وانما اطلق عليه بعد ذلك هذا الاسم لظهور خنافس صغيرة في عيده الواقع ٢٠ من شهر تشرين الاول، مدة ثلاثة ايام، ثم تختفي في ما ذكر الخالدي وعنه نقل الشابشتي فياقوت. وكان هذا الدير عامراً آهلاً حتى غاية المائة الثالثة عشرة للميلاد (هذا ما كتبه العلامة البطريرك مار اغناطيوس افرام الاول برصوم في ٨ شباط ١٩٤١م). تقوم أخربة هذا الدير، في قنّة «جبل العين الصفراء»، وله منظر عجيب لأنه يشرف على سهول نينوى كلها. وهذا الدير مربع، صغير الرقعة، لا تتجاوز مساحته مائتي متر مربع. وذكر البطريرك افرام رحماني، وقد زار هذا الدير سنة ١٨٩٦م، انه «تشاهد في بعض جدرانه المتهدمة كتابة (سريانية) سطرنجيلية يقرأ فيها اسم دانيال صاحبه».

* **دير الكلب**: قال الشابشتي: «وهو بين الموصل وبلد. يعالج فيه من عضه كلب كِلب. فمن عضه كلب كِلب بادر اليه فعالجوه منه برأ. ومن مضت له اربعون يوماً من العضة لم ينجح فيه العلاج». وتوسع ابن فضل الله العمري: «وهو قرب معلثايا في سفح الجبال. والماء ينحدر عليه.» وقلاليه مبنية بعضها فوق المقدسي: «ومن العجائب بارض الموصل: دير الكلب. يُحمل اليه من عضه كلب عقور فيقيم عند رهبانه خمسين يوماً فيبرأ باذن الله تعالى».

* **دير القيار** وهو لليعقوبية، على اربع فراسخ من الموصل، في الجانب الغربي، من أعمال الحديثة، مشرف على دجلة. تحته عين قير، وهي عين تفور بماء حار تصب في دجلة ويخرج منه البقير. «كان ديراً باسم مار زينا، واصله من نرسابادا (مدينة صغيرة كانت قريبة من تكريت) . تنصّر هو واخته سارة. ونصّر خلقاً كثيراً وبنى بيعاً وادياراً وعلا صيته. وتنسكت اخته وبني لها دير. فمدة هذا الدير المعروفة كانت زهاء ستمائة سنة».

* **دير برقوما**: (الاصح دير مر قوما، والبعض يقولون توما) . وقوما اسم سرياني اطلق على ناسك من صنف العموديين كان يدعى شمعون من قديسي الكنيسة السريانية. واصله من باجرمى (متصرفية كركوك في بلاد العراق). وقد نقل حبيب زيات في «الديارات النصرانية في الاسلام» خبراً يشير الى كارثة احاقت بهذا الدير في سنة ٤٩٩ هـ (١٠٥٧م) «عندما غزا جماعة من الغز التركمان جنود طغرليك السلجوقي هذا الدير. ففي تلك السنة (نقلاً عن صاحب مرآة الزمن) صعد عشرون رجلاً من الغز الى دير النصارى في ميافارقين. فيه اربعمائة راهب. فذبحوا منهم مائة وعشرين واشترى الباقون نفوسهم بست مكاكي ذهب وفضة».

* **دير باطا**: وهذا الدير بالشرق (وفي معجم البلدان: بالسن، بين الموصل وتكريت وهيت). وهو دير حسن، عامر في ايام الربيع. ويسمّى ايضاً دير الحمار. وشاهده يعرف بمريكس (لعاه مربكس، باكوس، باخوس)، وهو ناءٍ عن دجلة وعن المدينة. وزاد ياقوت: وفيه بئر تنفع من البهق، وفيه كرسي الاسقف.

* **دير الأب شمعون بنواحي السن للكلدان**: وكان شمعون هذا (على لسان البطريرك أفرام برصوم) ناسكاً كلدانياً عاش في اواخر القرن السادس حتى اواسط المائة السابعة.

* **دير العجاج**: وهذا الدير بين تكريت وهيت، عامر كثير الرهبان. وخارجه عين ماء تصب الى بركة هناك. وفي البركة سمك اسود، وهو طيب عذب الطعم، وحوله مزارع وخضر تسقى من تلك العين.

ومما كتبه البطريرك برصوم المذكور: «أصله دير عين جاج. بناه القديس العلامة مارثا مفريان الشرق والغرب المعروف بالتكريتي، نسبة الى كرسيه ... فأصبح هذا الدير ملجأ ووزراً ومأوى ومحط رحال لسائر أهل ما بين النهرين، وكل من يجتاز بها الى الكوفة (عاقولا)... ودام هذا الدير عامراً اكثر من ستمائة سنة. والارجح ان حروب التتر في اواسط المائة الثالثة عشرة للميلاد نكبته وامثاله نهباً وسلباً وتدميرا».

* **دير الجودي**: والجودي هو الجبل الذي

استقرت عليه السفينة. وبين هذا الجبل وجزيرة ابن عمر سبعة فراسخ. وهذا الدير مبني على قلّة الجبل. يقال انه بني منذ ايام نوح (ولم يتجدد بناؤه الى هذا الوقت – ياقوت). وزعموا ان فيه اعجوبة. حدثني (الشابشتي) بها بعض نصارى الجزيرة، وهي ان سطحه يشبر فيكون عشرين شبراً. ثم يعاود قياسه فيكون ثمانية عشر شبراً. في كل دفعة يشبر يختلف عدده.. وانه اعتبرذلك وقاسه فوجده كما ذكر.

* **دير طورسينا**: لم يعن الكتاب والمؤرخون القدماء والمحدثون بدير من الديارات الشرقية عنايتهم بدير طورسينا. فقد كتبوا في وصفه، وتاريخه، وخزانة كتبه، شيئاً كثيراً. ويمكننا ان نلخص منها ما يأتي (والكلام للمحقق كوركيس عواد): يقع هذا الدير في الجبل الشهير القائم في شبه جزيرة سينا. وهو الجبل الذي كلم الله فوقه النبي موسى على ما ورد تفصيله في التوراة. على ان لهذا الدير اسما حقيقياً هو دير القديسة كاترينة لكونه اقيم على اسمها. وكاترينة هذه، هي البتول العظيمة الشهيرة في الشرق والغرب. كان ابواها وثنيين من الاسكندرية، ثم اعتنقت هي النصرانية، فحكم عليها الملك مكسيميانس بالموت سنة٣٠٧م. وعيد هذه القديسة يقع في كل الكنائس، يوم ٢٥ تشرين الثاني. ويقوم هذا الدير في سفح قمة من قمم طورسينا. ويعلو نحو ٥٠١٢ قدماً عن سطح البحر وهو على نحو ثمانية ايام من السويس، وستة ايام من العقبة، ويومين من مدينة الطور، وذلك بطريقة القافلة. فبعد الدير عن القاهرة ٣٨٤ كيلو متراً. هذا الدير للروم الارثوذكس. وقد بناه الامبراطور يوستنيانس نحو سنة ٥٤٥م. وله سور عظيم، داخله ابنية قائم بعضه فوق بعض وعلى غير نظام. وتخترقها ممرات ودهاليز معوجة ضيقة، حتى يرى المتجول نفسه تارة في صعود وتارة في هبوط وتارة في ظلمة وتارة في نور. ويرى من اختلاف حال الابنية واشكالها انها قامت في اعصر مختلفة واحوال متباينة. وقد تداعى بعضها الى الخراب، وخرب البعض الآخر، وهدّم البعض بقصد تجديد بنائه. واهم الابنية القائمة في داخل السور الى الآن: الكنيسة الكبرى التي بنيت عند بناء السور. وكنيسة العلّيقة. وعدة كنائس اخرى بنيت بعدها في أعصر مختلفة. وجامع بمنارة. ومكتبة نفيسة ومنازل وزوار الدير. ومخازن للحبوب والمؤن والاثاث والأخشاب. ومطابخ وافران. وطاحونتان. ومعصرة زيتون. ومعمل للخمر من البلح والعنب. وآبار تختلف في العمق والقدم. وخارج السور حديقة متسعة فيها انواع الشجر والفاكهة. وفي خزانة كتب الدير نفائس المخطوطات النادرة، بالعربية واليونانية والقبطية والحبشية والسريانية، هذا الى فرامين تركية. وقد عني غير واحد من الباحثين والمستشرقين بالاطلاع على ما في هذه الخزانة من مخطوطات، فصنفوا في ذلك فهارس نافعة. وفي هذه الخزانة طائفة صالحة من المخطوطات، مكتوبة على الرق منذ عهد بعيد، ويرتقي تاريخ بعضها الى صدر النصرانية. وفيها كتب مطبوعة، اغلبها باليونانية والعربية.

* **بيعة ابي هور**: (أو دير ابي هور كما في معجم البلدان). وهي بسرياقوس من أعمال مصر، عامرة كثيرة الرهبان، لها اعياد يقصدها الناس.

* **دير يحنس**: هذا الدير بدمنهور من اعمال مصر. اذا كان يوم عيده، ارج شاهده من الدير في تابوت، فيسير التابوت على وجه الارض (يبدو ان المقصود احتفال طقسي ديني في يوم الجمعة العظيمة) لا يقدر احد ان يمسكه ولا يحبسه حتى يرد البحر فيغطس فيه ثم يرجع الى مكانه.

* **بيعة أتريب**: (في معجم البلدان: مارت مريم) وعيدها اليوم الحادي والعشرين من بونة (وهذا يقابله يوم الخامس عشر من آب). يذكرون ان حمامة بيضاء تجيئهم في ذلك العيد. فتدخل المذبح، لا يدرون من اين جاءت، ثم لا يرونها الى يوم مثله. زاد المقريزي على كلام الشابشتي هذا، قوله: «وقد تلاشى أمر هذا الدير، حتى لم يبق به الا ثلاثة من الرهبان، لكنهم يجتمعون في عيده. وهو على شاطىء النيل، قريب من بنها العسل».

* * *

والدراسات حول «الاديرة» في المنطقة، سواء اديرة القرون الاولى للمسيحية أو القرون التالية حتى اليوم، اكثر من ان تحصى. وقد وضع فيها كوركيس عواد، في القسم الثاني من تحقيقه المذكور، لائحة طويلة تناولت المراجع الموضوعة منذ بداية هذا القرن حتى أوائل الستينات. وبعد هذا التاريخ، تجد لوائح اخرى في كل دراسة حول الموضوع، خصوصاً في المجلات التاريخية والتراثية والدينية، وبالاخص تلك الصادرة عن مؤسسات دينية مسيحية في لبنان وسوريا والعراق والاردن وفلسطين ومصر.

أذربيجــان

بطاقة تعريف

أذربيجان، الجمهورية؛ وأذربيجان، المحافظتان في ايران، والاثنتان تشكلان «منطقة أذربيجان»، يفصل بينهما نهر أراكس الذي كان يعرف قديماً بنهر أراكسس. أذربيجان، المحافظتان الايرانيتان: الشرقية، مساحتها ٦٧,١٢٤ كلم² وقاعدتها مدينة تبريز. والغربية، مساحتها ٣٨,٨٥٠ كلم² وقاعدتها مدينة أرومية. وعدد سكانهما نحو ١٠ ملايين نسمة.

الكلام يقتصر، هنا، على جمهورية أذربيجان (سابقاً قبل انهيار الاتحاد السوفياتي في ١٩٩١، «الجمهورية الاتحادية الاشتراكية السوفياتية»).

الموقع: تقع جمهورية أذربيجان في الجزء الشرقي من منطقة القوقاز (القفقاس)، بين جبال القوقاز وبحر قزوين وتحيط بها روسيا وارمينيا وجورجيا وايران.

المساحة: ٨٦٨٠٠ كلم².

السكان: نحو ٧ ملايين نسمة، منهم ٧٨٪ أذريون، ٨٪ روس، و٨٪ أرمن (عدد كبير من هؤلاء تركوا البلاد الى ارمينيا اثر حرب قره باخ).

العاصمة: باكو (نحو مليوني نسمة)، وفي البلاد ٦٥ مدينة.

الاقتصاد: القطن اهم منتوج زراعي في البلاد، تليه الحنطة والكرمة والشاي والخضار؛ وأكثر المناطق خصوبة وادي كوره وأراكس الواقع في المنطقة الوسطى من البلاد. وفي البلاد ثروات باطنية طبيعية كبيرة: مناجم حديد، بيريت، كوبالت، مرمر، مياه معدنية... لكن أهم هذه الثروات النفط. وتتجه أذربيجان، حالياً، الى ان تستعيد مكانتها كمصدر رئيسي للنفط بعد اكثر من ربع قرن على تنازلها عن ذلك المركز نتيجة تحول اهتمام السلطات السوفياتية عنها الى حقول سيبيريا المكتشفة في اواسط الخمسينات. ويقف انتاجها النفطي، حالياً، عند مستوى ثلاثة ملايين طن سنوياً؛ وهو حجم لا يقاس بانتاج العصر الذهبي لأذربيجان التي كانت حقولها تنتج اكثر من نصف الطلب العالمي على الطاقة في الستينات، وتدهور انتاج النفط كان بسبب قلة الاستثمارات بالاضافة

الى التكنولوجيا السوفياتية المحدودة. الا ان اقبال الشركات الغربية على الاستثمار في قطاع النفط في اذربيجان يعد بتجديد نشاط هذا القطاع عبر التكنولوجيا الحديثة. وقد وقعت الحكومة اتفاقات عدة مع شركات نفطية غربية، مستفيدة، ولا شك، من كونها بقيت خارج كومنولث الدول المستقلة الذي ورث الاتحاد السوفياتي، فأبقت قرارها بذلك مستقلاً تماماً عن موسكو. وهذه الاتفاقات تقوم على اساس المشاركة في الارباح بعد أن يبدأ الحقل بالانتاج وتغطية الشركة المستثمرة لنفقات مشروعها. ووقعت تركيا واذربيجان (ايار ١٩٩٣) اتفاقاً لمد خط أنابيب للنفط الأذري من باكو الى ساحل البحر المتوسط في تركيا.

نبذة تاريخية

تم الفتح العربي (الاسلامي) لأذربيجان حوالي العام ٦٤٣م. وقد عرفها العرب باسم آران، وكانت مقاطعة مهمة بالنسبة الى الخلفاء العباسيين في القرنين الثامن والتاسع. حكمها في القرنين العاشر والحادي عشر موال من الفرس كولاة من قبل الخلفاء، ثم انتقلت الى حكم السلاجقة الاتراك في القرن الثاني عشر. ثم توالت عليها الغزوات بدءاً بالمغول وانتهاءً بالتركمان. وقد جعل البعض من هؤلاء الغزاة مدينة تبريز عاصمة لهم، ويعود وجود جامع تبريز الازرق الى تلك الفترة.

خضعت أذربيجان منذ بداية القرن السادس عشر لحكم الاسماعيليين الفرس، إلا انها اصبحت بعد ذلك مسرحاً للصراع بين الفرس والاتراك العثمانيين. وقد جعل الصفويون، الذين حكموا أذربيجان، المذهب الشيعي دين الدولة، فوقعت الخلافات بينهم وبين الاتراك العثمانيين الذين يدينون بالمذهب السني.

ظهر الروس في أذربيجان لأول مرة بعد انهيار الامبراطورية الصفوية. إلا انهم تراجعوا عنها بعد ١٢ عاماً، وعادت كل أذربيجان الى سيطرة الفرس. ثم استولى القيصر الاسكندر الثاني، بعد انتصاره على ايران، على كل المنطقة الواقعة الى الشمال من نهر أراكس بالاستناد الى معاهدة غوليستان التي عقدت العام ١٨١٣ (أراضي السيطرة الروسية من أذربيجان وبموجب المعاهدة المذكورة هي حالياً اراضي جمهورية أذربيجان).

اما منطقة أذربيجان الايرانية فقد عرفت بمواجهتها للسلطة الايرانية بسبب ما عانته، جرّاء السياسة الايرانية، من مشاكل اقتصادية عديدة. وقد قام الأذريون بدور مهم في الحركة الدستورية (١٩٠٥ – ١٩٠٦)، فأصبحت تبريز مركز معارضة السلالة الحاكمة في ذلك الوقت. وعندما اتفق الشاه مع القيصر الروسي، العام ١٩١١، ضد المطالبة بتغيير الدستور، عارضت تبريز موقف الحكم بشدة فتعرضت لهجوم الجيش الروسي الذي دخلها واحتلها.

واحتل أذربيجان، خلال الحرب العالمية الأولى كل من الاتراك والروس والانكليز على التوالي. فأصبحت مسرحاً للخلافات والاضطرابات القبلية بعد الحرب العالمية الأولى. إلا ان الشاه رضا بهلوي قمع تلك الانتفاضات في العام ١٩٢٥ وقبل ان يصبح شاهاً.

احتل الجيش الاحمر السوفياتي مناطق أذربيجان الايرانية خلال الحرب العالمية الثانية. وبعد انسحاب هذا الجيش منها في العام ١٩٤٥، نشأت فيها حكومة ديمقراطية برئاسة جعفر بيشيفاري، الا ان الشاه رضا بهلوي قاد حملة عسكرية ضد الجمهورية الفتية وقضى عليها واعلن إعادة ضمها الى ايران، ولجأ جعفر وباقي قياديي الحركة الى أذربيجان السوفياتية. وهذه الأخيرة كانت قد تأسست، كما مرّ معنا، في ٢٠ نيسان ١٩٢٠، وانضمت الى الاتحاد السوفياتي في ٣٠ كانون الأول ١٩٢٢. ودخلت ضمنها جمهورية ناخيتشيفان (جمهورية اشتراكية سوفياتية ذات حكم ذاتي، مساحتها ٥٥٠٠ كلم٢، وعدد سكانها نحو ٣٥٠ ألف نسمة. اعلنت انفصالها واستقلالها بعد تفكك الاتحاد السوفياتي) ومقاطعة ناغورنو – قره باخ ذات الحكم الذاتي (٤٤٠٠ كلم٢ ونحو ٢٠٠ ألف نسمة.

أذربيجان بين تركيا وايران

الازمة الحالية المتصاعدة (خصوصاً بعد تفكك الاتحاد السوفياتي ومسلسل الاستقلالات لدول القفقاس وجمهوريات آسيا الوسطى) بين تركيا وايران يمكن العودة، بصددها، الى الجذور البعيدة للعلاقات التركية – الايرانية حيث نلمح في الكثير من التطورات الراهنة امتداداً لأزمة عمرها خمسة قرون تخللتها حروب طاحنة واتفاقيات وهدنات موقتة وتحالفات تكتيكية احياناً.

فمنذ العصور القديمة توجهت انظار الطامعين من مختلف الملل والنحل صوب منطقة أذربيجان التي تقع في القسم الجنوبي الشرقي من المنطقة المعروفة بما وراء القفقاس (مناطق ارمينيا وجورجيا وبحر قزوين – الخزر – وتوابعهما). ويعتبر الأذريون (الأذربيجانيون) السكان الاصليين في المنطقة التي كانت تعرف قديماً بـ «اتروباتيا والبانيا القفقاسية». لكنهم اختلطوا، في غضون فترة تاريخية طويلة تمتد بين الألف الاول ق.م. والألف الأول بعده، بمجموعات فارسية وتركية الاصل. وفي الفترة الواقعة بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر، تكونت اللغة الأذرية نتيجة انتقال موجات من العشائر الناطقة بالتركية الى مناطق أذربيجان، والتي كانت لغتها اسهل نطقاً وتركيباً من اللغات التي كانت سائدة هناك. هكذا حصل نوع من التفاعل الطبيعي، وعلى هذا الأساس أصبح لأذربيجان موقع متميز في الشرق العريق، ما أثار اطماع ملوك الفرس، ومن ثم، سلاطين تركيا، على مرّ التاريخ.

لقد أرسي اساس الصراع في أذربيجان، ولعب تأسيس الدولة الايرانية الصفوية فوق ارضها، في مطلع القرن السادس عشر، دوراً مهماً في تاريخ تلك البلاد. فقد استولى مؤسس الدولة الصفوية الشاه اسماعيل الصفوي (١٥٠٢ – ١٥٢٤) على القسم الأعظم من أذربيجان التي تحولت مركزاً لحكمه على رغم اعتبار الأتراك انها من اراضيهم التاريخية. وفي غضون عقود قليلة استطاع الصفويون ضم كل ما تبقى من أذربيجان الى دولتهم التي اتخذت من مدينة تبريز عاصمة لها. لكن في فترة تأسيس الدولة الصفوية (١٥٠٢) بدأت الحروب بين الايرانيين والاتراك تتصاعد بشكل واسع، اذ اخذ الاتراك يمدون نفوذهم الى المناطق الشرقية من الاناضول، وبخاصة بعد انتصارهم الساحق على الايرانيين في معركة جالديران الشهيرة العام ١٥١٤، فتحولت اراضي الاكراد والارمن ساحة حرب بين جيوش الدولتين لردح من الزمن.

استمرت هذه الحالة بين حكام الدولتين الى ان تمّ تثبيت الحدود بينهما العام ١٦٣٩، بحسب معاهدة قصر شيرين – زهاو على يدي السلطان العثماني مراد الرابع والشاه الايراني صفي الاول، وكان قد سبق عقد المعاهدة طرد الايرانيين من بغداد وملاحقتهم الى عمق ايران.

ولكن المعادلة الآذرية تغيرت. ففي عهد الشاه عباس الاول، الذي حكم ايران مدة ٤٢ عاماً ما بين ١٥٨٧ و١٦٢٩، فقد الأذريون وزنهم السابق لدى الدولة الايرانية. فقد ابعد الشاه الطموح قادتهم عن السلطة والجيش لدرء خطر النفوذ التركي من خلالهم. وفي ١٥٩٨، نقل عاصمة ملكه من قزوين الى مدينة أصفهان الفارسية، وبسرعة حلت محل الأذرية (التركية).

هذا كله أثار حفيظة الاتراك وحقد الباب العالي في الآستانة، اذ اعتبروا العملية اهانة ايرانية موجهة اليهم، وتحولت منطقة أذربيجان الى مجرد مقاطعة داخل ايران. وقد ترافق ذلك مع تردّ في الاوضاع الاقتصادية الايرانية التي تفاقمت صعوبتها اكثر فأكثر بسبب الصراع الايراني – العثماني الدموي من أجل السيطرة على المنطقة، وفي مقدمها أذربيجان. كذلك باشر حكام ايران اتباع سياسة
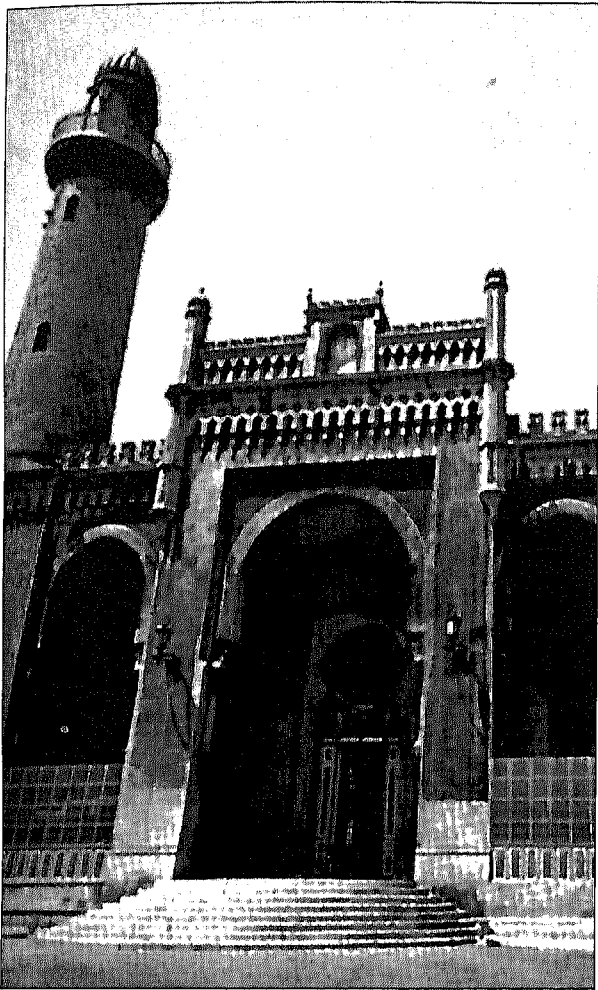
مسجد في باكو
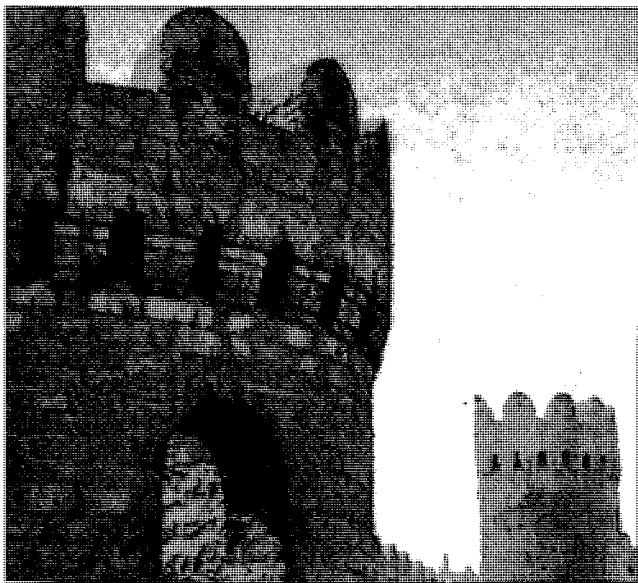
قلعة تاريخية

التهجير القسري للعناصر غير الفارسية (الكرد، الارمن، الترك، العرب)، وذلك في عهد الشاه الايراني عباس الاول. وقد سببت الضرائب الكبيرة والأتاوات المتنوعة المفروضة من قبل الحكومتين فقراً مدقعاً للسكان جميعاً، خصوصاً للكرد والارمن والجورجيين (الكرج) والافغان والعرب وشعوب البلقان. وبدورها أدّت تلك الأوضاع الى انتفاضات وتمردات على الولاة والحكام داخل الدولتين، وفي اوقات مختلفة كانت كل دولة تدعم الحركات والقبائل وتثير القلاقل في البلد الآخر. فالاتراك دعموا الأذريين ضد السلطات الايرانية، والايرانيون دعموا القبائل الكردية في مناطق نفوذ الاتراك. وهذه العملية السياسية الملتوية راحت تُمارس لقرون عدة من قبل الدولتين، وهي لا تزال تُمارس بين البلدين، مشكلة إحدى النقاط الرئيسية للخلاف الايراني – التركي الحالي.

ومصادر النزاع بين الدولتين لم تقتصر على أذربيجان ولا على المناطق الاوسع المجاورة لها في القفقاس او مناطق آسيا الوسطى او الشرق الاوسط، كما ان اطراف النزاع نفسه كثيراً ما شمل، إضافة الى ايران وتركيا وخصوصاً بدءاً من القرن التاسع عشر دولاً اخرى في مقدمها روسيا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا.

فالصراعات كانت تؤجج، احياناً، بدفع من الروس الذين آزروا الايرانيين ضد الاتراك الموالين للألمان. وضم الروس أراضي ايرانية واسعة الى ملكهم كمناطق قره باخ (ساحة الصراع الحالي بين الارمن والأذريين) وباكو وبحر الخزر وجورجيا وداغستان، وفق معاهدة كلستان في ٢٧ ايلول ١٨١٤، لقاء دعم الروس الايرانيين في حربهم مع الاتراك (لمزيد من الاطلاع على الاطارين التاريخي والجغرافي لأذربيجان ومنطقة القوقاز، راجع ابخازيا وارمينيا).

في القرن العشرين

في مطلع القرن الحالي، مرت العلاقات الايرانية – التركية بمرحلة هدوء نسبي تلت ثورة «تركيا الفتاة» وسقوط السلطان عبد الحميد الثاني في اعقاب انقلاب عسكري في تموز ١٩٠٨. وبحسب حقب التاريخ السياسي الايراني، تزامن هذا الهدوء مع وصول العائلة البهلوية (رضا شاه ثم نجله محمد رضا) الى الحكم في ١٩٢٥، واستمر حتى الثورة الايرانية في شباط ١٩٧٩، ورجوع الامام الخميني من منفاه. اما في تركيا، فكان سيد المرحلة مصطفى كمال اتاتورك الذي انهى السلطنة واسس للتقليد الجمهوري في بلاده. واساس هذا التقليد، على صعيد السياسة الخارجية، التقرب من الغرب.

والجديد (خلال السنوات الأخيرة حتى اليوم – اواسط ١٩٩٣) في المعادلة العدائية التاريخية بين ايران وتركيا، فهو الموقف الاميركي والغربي المساند لتركيا، العضو في حلف الأطلسي (الناتو)، على رغم اغلاق الولايات المتحدة ثماني قواعد من أصل ١٢ قاعدة عسكرية في تركيا العام ١٩٩٢. وهذا التأييد نابع من الوقوف في وجه التوجهات الاصولية المتمثلة بتصدير الثورة (خصوصاً الثورة الاسلامية في ايران) وزعزعة النظم الحاكمة على أمل إسقاطها كما هي الحال مع مصر ولبنان والجزائر وتونس والخليج، وبشكل خاص مع تركيا. وهذا ينطوي، بين ما ينطوي عليه، على استعادة ايام التناحر الدامي الطويل بين الامبراطوريتين الفارسية (الشيعية) والعثمانية التركية (السنية)، من اجل ازاحة تركيا من عملية الهيمنة والنفوذ داخل الجمهوريات الاسلامية في آسيا الوسطى، تلك الاراضي التي سلّمت من قبل ملوك فارس الى بطرسبورغ خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لقاء كسب

الروس الى جانبهم في حروبهم التاريخية مع العثمانيين.

ترصد تركيا، حالياً، ومن موقع اصطفافها الى جانب الغرب، تحركات ايران، خاصة داخل تركيا نفسها وفي لبنان وجمهوريات آسيا الوسطى الاسلامية (قيرغيزستان، تركمنستان، أوزبكستان، كازخستان وطاجكستان)، وتعمل على افشال الخطة الايرانية في طاجكستان التي تشهد حرباً أهلية طاحنة بين الشيوعيين القدامى والتحالف الاسلامي – الديمقراطي، وعلى منافستها حتى على الشيعة الأذريين في جمهورية أذربيجان.

وكدليل على عمق هذا الخلاف التاريخي الايراني – التركي دعم ايران الخفي لجمهورية ارمينيا (المسيحية) في صراعها على منطقة قره باخ مع جمهورية أذربيجان (المسلمة)، اذ تمكنت ارمينيا من ضمها الى حدودها الجغرافية، فيما فشلت جهود انقرة لضم المنطقة المتنازع عليها بين الارمن والأذريين الى أذربيجان. وتوجه ايران الاتهامات الى الحكومة التركية لتناغمها (بل دعمها) مع تنظيمات القوميين الأذريين في ايران الذين يشكلون حوالي ثلث سكان ايران، والحالمين بالوحدة مع بقية مناطق أذربيجان المقسمة. إذ سبق ان تلقى القوميون الأذريون في ايران، خلال عامي ١٩٧٩ – ١٩٨٠، «المساعدات المعنوية» من حكومة أنقرة أثناء سيطرتهم بالسلاح، لأيام، على مدن أذربيجان الايرانية وتبريز مركز المقاطعة. يومها، أدّى هذا الى اعدام عدد من قادتهم القوميين وهروب الالوف منهم الى تركيا وفرض الاقامة الاجبارية على الزعيم الروحي للأذريين في العالم، آية الله العظمى السيد كاظم شريعتمداري. وجدير بالذكر ان معاملة مماثلة عاشها الكرد (الاكراد) الايرانيون خلال تلك الفترة ايضاً، فاتُهموا بانهم يساندون الأذريين في تحركاتهم، اشارة الى التعاون الذي حصل بينهم في ايران بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وتشكيل جمهوريتي مهاباد الكردية (١٩٤٦)، وأذربيجان الشيوعية في تبريز (١٩٤٥).

أذربيجان والأرمن

منذ اكثر من خمس سنوات من اليوم (اواسط ١٩٩٣) بدأ الارمن (وكان ذلك قبل نحو سنتين من انهيار الاتحاد السوفياتي) تحركهم لاستعادة ناغورنوقره باخ (منطقة ذات حكم ذاتي من ضمن جمهورية أذربيجان السوفياتية بموجب الحدود التي رسمها جوزف ستالين) رافضين الاعتراف بشرعية وضعها لتجاهل ستالين وجود غالبية ارمنية فيها. وبداية هذا التحرك كان في ٢٠ شباط ١٩٨٨ عندما نظمت «حركة قره باخ» مظاهرة دعت لضم قره باخ (أو كرباخ) الى ارمينيا، والتي يشكل الارمن غالبية سكانها.

ثم ما لبثت ان بدأت تقع حوادث امنية وعسكرية، تطورت الى معارك عسكرية بين الارمن والأذريين، والى حرب وصلت الى اوجها في شباط وآذار ونيسان من العام ١٩٩٣. ونتيجة هذه الحرب، سيطر الارمن، اضافة الى قره باخ، على ممر بري يصلها بأرمينيا عبر بلدة لاتشين الحدودية (في ايار ١٩٩٢)، وعلى منطقة ومدينة كلبادجار الحدودية المهمة غرب أذربيجان بعد حصار استمر اسبوعاً (أوائل نيسان ١٩٩٣)، بحيث أصبح الارمن يسيطرون على ما يعادل ١٠٪ من اراضي أذربيجان المعترف بحدودها دولياً، وهي الحدود ذاتها التي كانت في ايام الاتحاد السوفياتي. ومن المآسي التي سببتها هذه الحرب مأساة حاج علي، عندما قتل، حسب مصادر باكو (عاصمة أذربيجلان) حوالي الفي أذري حوصروا في هذه المدينة في شباط ١٩٩٢؛ وأدّت تلك الكارثة الى

إسقاط الرئيس الأذري اياز مطلبوف الذي حُمّل مسؤولية الهزيمة؛ وفاز، بعده، في الانتخابات الرئاسية أبو الفضل التشي بيه، زعيم الجبهة الشعبية.

وكثيراً ما اتهمت أذربيجان، خلال الحرب، روسيا بوقوفها الى جانب أرمينيا، وأحياناً باشتراكها في المعارك العسكرية، متهمةً، خصوصاً، فريقاً من الروس «المحافظين» الذين لا يزالون يعملون لاعادة «الاتحاد السوفياتي». والجدير ذكره، هنا، ان اتفاقاً للدفاع المشترك يربط ارمينيا بروسيا والاعضاء الآخرين في «اسرة الدول المستقلة»، ويلزم موسكو حماية ارمينيا اذا تعرضت اراضيها للخطر؛ في حين ان أذربيجان ليست عضواً في معاهدة الاسرة وتربطها روابط وثيقة بتركيا العضو في حلف الاطلسي (الناتو).

حاول الأذريون (في النصف الاول من ١٩٩٣) تعويض هزائمهم العسكرية المتتالية بتمسكهم بما يعتبرونه حقوقاً إقليمية وسياسية لهم، وبعملهم لكسب الموقف الدولي الى جانبهم. وكثيراً ما كرّر الرئيس الأذري ابو الفضل التشي بيه ان «استيلاء القوات الارمنية على منطقة كلبا دجار (الواقعة بين ارمينيا وجيب قره باخ) دفع الولايات المتحدة وروسيا وبريطانيا الى التحرك على مستوى أوسع لوقف الحرب... (وأن) الولايات المتحدة طالبت بسحب القوات الارمنية من كلبادجار... (وأن) موقف ايران وتركيا حازم جداً أيضاً...». وكان يؤكد، في كل مرة، ان لا مساومة حول انتماء قره باخ الى أذربيجان، فإذا كان الارمن يخوضون الحرب «فصل ناغورنو قره باخ عن أذربيجان فلن يكون هناك سلام أبداً في القوقاز» (راجع ارمينيا).

الموقف الدولي

بدأ هذا الموقف، من الحرب الأذرية – الأرمنية، بالتبلور مع وصول وفد من «مؤتمر الأمن والتعاون الاوروبي» (اواسط نيسان ١٩٩٣) الى مناطق القفقاس لإكمال «جهود الوساطة» بشأن النزاع حول قره باخ (كرباخ). فالانتصارات العسكرية الارمنية، لا سيما السيطرة على مدينة كلبادجار ومنطقتها في أذربيجان، تركت أثراً عميقاً في مجريات الامور على ارض الواقع، إذ قد تؤدي الى ضم قره باخ، المتنازع عليها الى ارمينيا، بحكم الامر الواقع.

والمفاوضات التي بوشر بها قبل أشهر من وصول الوفد الاوروبي لم توفق بايقاف المعارك العسكرية. ففي اوائل ايار ١٩٩٢، وفي حين كان وزير الخارجية الايراني يرعى، في طهران، توقيع اتفاق بين الرئيسين الأذري والأرمني، كانت القوات الارمنية تقاتل وتسيطر على مدينة شوشا الاستراتيجية والآهلة بالأذريين. ووساطات غير مثمرة ايضاً قامت بها موسكو. ومنذ أول حزيران ١٩٩٢، رعى «مؤتمر الأمن والتعاون الاوروبي» ستة اجتماعات أفشلها جميعاً رفض أرمينيا الاعتراف بكونها طرفاً في النزاع معتبرة ان الأمر متعلق بأرمن قره باخ (كرباخ)، وهي حجة كانت باكو (عاصمة أذربيجان) ترفضها على الدوام كي لا تسمح «لجمهورية قره باخ» ذات الاغلبية الارمنية التي أعلنت انفصالها عنها الحصول على مقعد ثالث في المفاوضات. ومع ذلك، اتفق الرئيسان: أبو الفضل اليتشي بيه الأذري، وليفون تربتروسيان الارمني، في لقائهما اثناء جنازة الرئيس التركي تورغوت أوزال (٢١ نيسان ١٩٩٣)، على إنشاء «هاتف أحمر» بينهما لمتابعة المفاوضات.

لكن اجتياح الارمن لمدينة كلبادجار ومنطقتها، ولممر لاتشين، والمنطقتان خارج اقليم قره باخ، دفع الرأي العام الدولي وحكومات الدول الى الشك في نوايا أرمينيا التي بدأت وسائل الاعلام

الدولية تتحدث عن «عزلة دبلوماسية» لأرمينيا تجهد أذربيجان للاستفادة منها فتكسب سياسياً ما خسرته عسكرياً من خلال حلفاء لها سواء في العالم الغربي أو الاسلامي. لكن تركيا وحدها استمرت تدعم أذربيجان عملياً على الصعيد الدبلوماسي. وهذا الدعم نفسه محكوم باعتبارات تحد من فاعليته: الضغوطات الاميركية والفرنسية، والدولتان حريصتان على مراضاة مجموعتيهما الارمنيتين في الداخل؛ الوضع السياسي الداخلي المعقد في تركيا؛ وخشية تركيا من التصادم مع روسيا المعتبرة مؤيدة لأرمينيا. وإضافة الى ذلك، تبدو أنقرة شديدة الحرص على عدم المساس بدورها كجسر تفاهم بين الغرب ودول البحر الأسود وآسيا الوسطى السوفياتية سابقاً. ففي اليوم نفسه الذي سيطر فيه الأرمن على كلبادجار، أكد سليمان ديميريل، رئيس الوزراء التركي (رئيس الجمهورية بعد تورغوت أوزال) ان بلاده راغبة دائماً على إقامة علاقات حسن الجوار مع ارمينيا وأذربيجان على قدم المساواة. وقد ميّزه هذا الموقف عن موقف الرئيس التركي، أوزال، المعبّر عن غضب الاتراك حيال ما تعرّضت له أذربيجان.

في الامم المتحدة، تلقت أذربيجان دعماً من تركيا غير متحفظ. ومع ذلك، ظل مجلس الأمن الدولي يكتفي (كما في ٦ نيسان ١٩٩٣) بالاعلان (دون قرار أو توصية) عن ضرورة وقف القتال وسحب «القوات الارمنية المحلية (المقصود قوات قره باخ) التي اجتاحت إقليم كلبادجار الأذري». وقد تميز الموقف البريطاني – خصوصاً عن الفرنسي – بدعمه الدبلوماسي لأذربيجان بسبب المصالح النفطية (شركة بريتش بتروليوم العاملة في أذربيجان). وتظهر روسيا دائماً موقفاً أقرب الى أرمينيا، العضو في «أسرة الدول المستقلة» التي لا تزال أذربيجان ترفض الانضمام اليها فتجد نفسها في موقع الحليف لجورجيا التي تشعر ان سيادتها مهدّدة من النفوذ الروسي في القوقاز.

في ايران، ثمة رأي عام واسع يعترض على مهادنة حكومة طهران لأرمينيا، إذ بدا ان الحكومة لم تتخذ الموقف «المناسب» من «اعتداءات» ارمينيا واحتلالها كلبادجار. فجرت مظاهرات صاخبة في تبريز (عاصمة أذربيجان الايرانية) وقع على أثرها عدد من الجرحى بين الطلاب، وكذلك في طهران حيث هاجم المتظاهرون مراكز الدبلوماسيين الارمن وطالبوا برحيل السفير الارمني. فبرأي الأذريين الايرانيين ان ١٠٪ من إقليم أذربيجان الشمالية (هكذا يدعون جمهورية أذربيجان) قد ضاع.

وأخيراً، فإن الدبلوماسية الاقليمية والدولية، إزاء الصراع الأذري – الارمني، وصلت (اواخر ايار ١٩٩٣) الى توافق ارمينيا وأذربيجان على خطة جديدة للسلام في ناغورنو قره باخ. لكن القائد العسكري للارمن في هذه المنطقة، روبرت كوتشريان، سارع الى رفض الخطة التي توافقت على طرحها كل من روسيا وتركيا (اصبح سليمان ديميريل رئيسها قبل نحو اسبوعين) والولايات المتحدة، بحجة انها لا تضمن أمن المدنيين، وان أنقرة (طرف في الخطة) منحازة الى جانب أذربيجان. وتنص الخطة على تقليص العمليات العسكرية اعتباراً من ٢٩ ايار ١٩٩٣، ووقفها نهائياً ابتداءً من أول حزيران لمدة ٦٠ يوماً، وبدء محادثات في جنيف تضم الوسطاء والأطراف المتقاتلة؛ ويتبع ذلك عقد اجتماعات في روما برعاية «مؤتمر الامن والتعاون الاوروبي».

الوضع الداخلي (١٩٩٣)

لكن الوضع الداخلي في البلاد، المتميز بعدم الاستقرار السياسي وبالاضطراب الامني منذ احداث شباط ١٩٨٨ (انتفاضة الارمن في العاصمة الأذرية باكو) مروراً بهزائم حرب قره باخ، لا

ابو الفضل التشي بيه

حيدر علييف

مقاتل على جبهة قره باخ
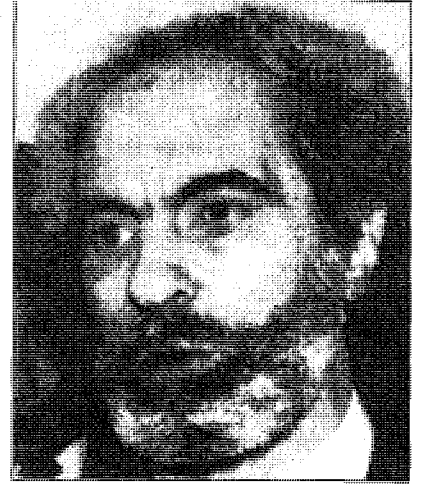
لاجئتان أذريتان تفران امام تقدم القوات الارمنية

يزال على حاله؛ وقد أشّر هذا الوضع، مع بداية حزيران ١٩٩٣، نحو ميل الى التصاعد، حيث قام قائد متمرد (سورت حسينوف) في الجيش الأذري بالاستيلاء على غنجة (ثاني اكبر مدن البلاد) بعد معارك مع قوات السلطة. وطالب المتمردون بينهم وزير الدفاع السابق، رحيم غازييف، باستقالة الرئيس أبو الفضل التشي بيه الذي اتهم «قوى خارجية» بافتعال حوادث مدينة غنجة في إشارة الى روسيا المستاءة من رفض حكومة باكو الانضمام الى «اسرة الدول المستقلة» وتوقيع معاهدة الدفاع المشترك، وفي إشارة ايضاً الى قيام موسكو بسحب لواء المظليين الروسي من غنجة عشية الحوادث، ما يوحي بانها كانت تعرف مسبقاً بوقوعها.

وفي إطار تفاقم الحالة الأمنية والسياسية (حال طوارئ و «شفير حرب أهلية»)، أصبح حيدر علييف، زعيم الحزب الشيوعي الأذري السابق الذي عزله الرئيس السوفياتي غورباتشوف (١٩٨٧) بسبب معارضة حركة الاصلاح آنذاك، والرئيس الحالي لجمهورية ناخيتشيفان التي تتمتع بحكم ذاتي في إطار أذربيجان، والمعروف بصلاته القوية مع موسكو وطهران ويريفان وأنقرة، أصبح حيدر علييف مرشحاً قوياً لاستلام مقدرات البلاد من خلال حكومة ائتلافية جديدة تنهي تفرد الجبهة الشعبية بالسلطة، وقد تتمكن من ايجاد تسوية لمشكلة قره باخ.

وفي اواسط حزيران (١٩٩٣)، تفاقمت الحالة الأمنية، وواصل المتمردون بقيادة حسينوف زحفهم الى العاصمة باكو. وفي محاولة لوقف تدهور الوضع في اتجاه حرب أهلية شاملة، انتخب برلمان أذربيجان حيدر علييف رئيساً له. ثم أدت التطورات المتسارعة الى استيلاء علييف على السلطة في البلاد بعد فرار الرئيس ألتشي بيه في اليوم نفسه (١٨ حزيران ١٩٩٣). لكن البرلمان رفض، في اليوم التالي، تسليم علييف الرئاسة رسمياً اثر إعلان اذاعه التشي بيه من ناخيتشيفان وأكد فيه استعداده للعودة الى باكو وتشكيل حكومة ائتلافية. ووفقاً للدستور يتولى رئيس البرلمان (علييف) مهمات الرئيس في حال استقالته او مرضه لفترة طويلة.

ومع رفض الرئيس الاستجابة لطلب البرلمان العودة الى باكو، واعلان صفر أبييف، وكيل وزارة الدفاع، ان الارمن استغلوا شلل السلطة للقيام بهجوم كاسح في قره باخ، ومخاطبته النواب في جلسة عقدت ليل ٢٥ – ٢٦ حزيران (١٩٩٣) قائلاً: «إما ان تتخذوا قراركم اليوم او يكون الوقت فات»، القرر البرلمان سحب صلاحيات الرئيس الفضل التشي بيه وتحويلها الى حيدر علييف. ووصف التشي بيه القرار بأنه «استكمال برلماني للانقلاب العسكري»، وقال إنه سيستخدم «وسائل ديمقراطية» لاستعادة صلاحياته. وقدّم اكثر الوزراء استقالتهم من الحكومة، فيما التقى علييف زعيم المتمردين، سورت حسينوف الذي دخل العاصمة (٢٧ حزيران ١٩٩٣) للمرة الاولى منذ اعلانه العصيان من مدينة غنجة مطلع الشهر نفسه (حزيران ١٩٩٣). واثناء ذلك، كان الارمن يحققون انتصارات جديدة في قره باخ ويضمنون سيطرتهم على بلدة مارداكيرت، وهي آخر معقل للقوات الأذرية في قره باخ، الاقليم المتنازع عليه. واصبحت قوات الارمن بذلك تهدد عدداً من مدن أذربيجان شمال الاقليم، وقامت بهجوم كبير على أذربيجان (اوائل تموز ١٩٩٣) ما دفع حيدر علييف لأن يناشد المجتمع الدولي ايقاف هذا الهجوم. وكانت روسيا أول المستجيبين إذ لوّحت بالانتقال الى تأييد باكو في حال لم يوقف الارمن هجومهم. وكانت قره باخ قد سقطت بكاملها في أيدي الارمن (حربها بدأت منذ قبل خمس سنوات) في ٢٧ حزيران ١٩٩٣ عندما تمّ الاستيلاء على آخر بلدة أذربيجانية فيها وهي أغدير. هذا، إضافة الى سيطرة الارمن على ممرين بريين استراتيجيين يربطان قره باخ بارمينيا عبر اراض أذربيجانية.

وقد أتى تصعيد المعارك بين قوات الدفاع الذاتي الارمنية في قره باخ والقوات الأذرية في الوقت الذي لم تنته فيه الأزمة السياسية التي شهدتها باكو، إذ إن الجنرال سورت حسينوف، الذي عيّن رئيساً للوزراء في ٣٠ حزيران ١٩٩٣، تعثر في تشكيل حكومته وانهمك في قيادة المعارك ضد الارمن، فترك العاصمة وانتقل الى مدينة أغدام حيث أصبحت قوات الارمن على مسافة كلم واحد جنوبها، ما حدا سكانها الى التدفق منها نحو الشرق. ويعتبر المسؤولون الاذريون مدينة أغدام موقعاً دفاعياً مهماً. وهي تقع في واد وراء الحدود الجبلية الشرقية لقره باخ. وهم يخشون، في حال سقوطها، ان تتمكن القوات الارمنية من التقدم على الطريق المتجه شرقاً الى العاصمة باكو. وقد سقطت أغدام بالفعل في ٢٣ تموز ١٩٩٣، واصبحت القوات الارمنية تهدد مدينة فضولي الواقعة على بعد نحو ٥٠ كلم جنوب أغدام. وفي رسالة بعث بها رئيس أذربيجان، حيدر علييف، الى الامين العام للامم المتحدة، أوضح ان القوات الارمنية «تحتل اليوم (٢٥ تموز ١٩٩٣) مساحة تزيد على ١٧٪ من الاراضي الأذرية وتضم ٣٠٥ قرى ومدن، ويبلغ اجمالي عدد اللاجئين ٥٦٧ ألفاً» (راجع : أرمينيا).

مناطق

* **باكو**: عاصمة جمهورية أذربيجان. تعد نحو مليوني نسمة. وهي مرفأ على شاطئ بحر قزوين الغربي. منطقة باكو شهيرة بالنفط حتى ان الروس يلقبونها «حوض الاورال النفطي»، وهو الاسم المعروف للمناطق النفطية الكبرى في الاتحاد السوفياتي (سابقاً) والواقعة بين فولغا والاورال، والتي بدأ استثمارها منذ ١٩٣٥ (أولى عمليات التنقيب تعود الى ١٩٢٩). والمنطقة غنية ايضاً بالغاز الطبيعي (١٥٪ من إجمالي الانتاج في الاتحاد السوفياتي السابق). وفيها ٨٠٪ من مجمل صناعات أذربيجان.

العاصمة مركز ثقافي وعلمي وفني مهم. جامعة. قلعة قديمة وآثار ومساجد اسلامية. كانت قاعدة خانية (حاكمية) مستقلة، ثم احتلها الاتراك، وبعدهم الفرس، ثم ضمتها روسيا (١٨٠٦).

* **قره باخ (كاراباخ)**: راجع ارمينيا.

* **شيروان**: منطقة في أذربيجان (غربي بحر قزوين)، اليها ينسب لقب «شيروانشاه» الذي عرف به امراء شيروان في العهود السابقة للاسلام حملته بعدئذ سلالة يزيد بن مزيد الشيباني (ت ٨٠١م): امير من ولاة العثمانيين. هو ابن اخي معن بن زائدة الشيباني، اشتهر بشجاعته وكرمه، تغلب على الخوارج في عهد الرشيد وولي ارمينيا ثم أذربيجان وتوفي فيها. وقد يكون هيثم بن خالد، احد امراء هذه السلالة، الذي استقل بامره في عهد المتوكل (٨٦١) هو الذي اتخذ هذا اللقب (شيروانشاه). وتذهب بعض المصادر الى ان بلدان شيروان وخراسان وايران كانت كلها خاضعة لملك يلقب بهذا الاسم.

* **شيز**: مقاطعة في أذربيجان شرقي بحيرة أرميا. يقال إنها مسقط رأس زرادشت مؤسس المجوسية نحو بداية القرن السابع والثامن ق.م.

* **ناخيتشيفان**: (او نخجوان): كانت جمهورية سوفياتية ذات استقلال داخلي في اطار جمهورية أذربيجان الفدرالية الاشتراكية السوفياتية. وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي (١٩٩١)، استمرت ناخيتشيفان في إطار جمهورية أذربيجان (أفردت لها مادة في الموسوعة، راجع ناخيتشيفان).

رجل دولة

* **علييف، حيدر**: (١٩٣٢ –): سياسي أذري، وشيوعي سابق. استلم السلطة في أذربيجان (١٨ حزيران ١٩٩٣) اثر أحداث دموية فرّ بسببها الرئيس الاذري الفضل التشي بيه.

ولد حيدر علي رضا أوغلو علييف في ١٩٢٢ في منطقة ناخيتشيفان التابعة لأذربيجان (وكانت ناخيتشيفان جمهورية ذات حكم ذاتي ضمن جمهورية أذربيجان

الاشتراكية السوفياتية) لكنها غير مرتبطة بها جغرافياً وتحيط بها اراضي ارمينيا وايران. انضم الى الحزب الشيوعي في ١٩٤٥، واحتل اول مركز مرموق في ١٩٦٥ عندما اصبح نائباً للرئيس ثم رئيساً للجنة امن الدولة (كي. جي. بي) في أذربيجان، وقفز من هذا المنصب الى زعامة الحزب الشيوعي في الجمهورية (١٩٦٩)، وأصبح الحاكم الفعلي لأذربيجان حتى ١٩٨٢؛ وفي عهده تولى المتحدرون من ناخيتشيفان مناصب قيادية واصبحوا «الوافدين الحاكمين» في باكو.

أقام علييف علاقات وثيقة مع الزعيم السوفياتي ليونيد بريجنيف ومع خلفه يوري أندروبوف (الذي كان قد قطع طريقاً مماثلاً من المخابرات الى الكرسي الأول)، فاستدعي في العام ١٩٨٢ الى موسكو ليصبح عضواً كاملاً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي ونائباً اول لرئيس الحكومة السوفياتية، وهو منصب بالغ الأهمية لم يسبق ان احتله أذري باستثناء جعفر باقروف الذي أعدم في الخمسينات لاتهامه بالتآمر.

وخلافاً لباقروف فإن اقصاء علييف عن السلطة في زمن البيريسترويكا لم يترافق بحرمانه من الحياة، لكن الكثيرين اعتبروه «جثة سياسية» إذ عزل من كل مناصبه في موسكو وأذربيجان ووجهت اليه اتهامات بالرشوة والفساد ولم يستطع اي طرف اثباتها.

وتوارى علييف فترة قصيرة ليظهر مجدداً في مسقط رأسه ويصبح رئيساً لها. ورغم ان رؤوساً كثيرة تساقطت في باكو إلا ان علييف لم يكن متسرعاً في الانتقال اليها وظل ينتظر ساعته التي أزفت اخيراً مع استفحال الازمة السياسية داخل باكو وفشل «الجبهة الشعبية» الحاكمة وزعيمها الرئيس ابو الفضل التشي بيه في تحقيق وعود كثيرة في انهاء حرب قره باخ وتحسين الاوضاع الاقتصادية في ظرف مئة يوم. وانتخب علييف رئيساً لبرلمان كان الكثيرون من أعضائه خصوماً له في الأمس ولكنهم ادركوا ان «رجل الملمات» هو الوحيد القادر على ضبط الاوضاع وخصوصاً انه يتمتع بتأييد قوي من غالبية المواطنين الذين يذكرون ان أذربيجان كانت تحولت في عهده من بلد زراعي الى قوة صناعية.

ولم يرفع علييف (رئيساً للبرلمان، ثم بعد يومين فقط، مستلماً لمقدرات البلاد) أياً من الشعارات الشيوعية، بل دعا الى «دولة علمانية ديمقراطية متحضرة»، تربطها علاقات جيدة مع البلدان المجاورة. ولكي يثبت علييف، الآن، انه الرجل المناسب، عليه ان يحل ثلاث مشاكل مترابطة: الاولى هي الازمة السياسية ووقف زحف الجنرال سورت حسينوف على باكو، والثانية، وهي الاصعب تتمثل في الازمة الاقتصادية المستفحلة، والثالثة ايجاد تسوية سريعة مع الارمن في قره باخ (سيرة ذاتية نشرتها «الحياة» في ١٨ حزيران ١٩٩٣، أي في اليوم نفسه الذي استلم فيه علييف مقدرات أذربيجان).

بطاقة تعريف

الاسم: الارجنتين او «بلاد الفضة» بحسب ما دعاها المستكشفون في القرن السادس عشر لاعتقادهم بوفرة وجود الفضة فيها لما رأوا منه في تزيين ملابس الهنود ومعابدهم. لكنهم سرعان ما اكتشفوا ان مصدر هذا المعدن الثمين هو البيرو وليس الارجنتين. فالارجنتين، رغم انها تتمتع بثروات مهمة، إلا انها معتبرة في عداد البلدان الفقيرة نسبياً بالمعادن الثمينة. لكنها، مع ذلك، حافظت على اسمها الذي يعني «بلاد الفضة».

الموقع: تحتل، هي وتشيلي، كامل المنطقة الجنوبية من أميركا الجنوبية: التشيلي على شكل شريط ساحلي لجهة الغرب، والارجنتين كامل المنطقة الجنوبية المتبقية. تحيط بها بوليفيا، الباراغوي، البرازيل والأوراغواي من الشمال والشمال الشرقي، والمحيط الأطلسي من الشرق، والتشيلي من الغرب. طرفها الجنوبي يكاد يتصل بقارة انتاركتيكا.

المساحة: ٢,٧٧٦,٨٨٩ كلم². تخترقها مجاري مائية كبيرة، وفيها جبال، وغابات، وسهول، وبحيرات وصحاري.

العاصمة: بيونس أيرس. **أهم المدن**: روزاريو، كوردوبا (قرطبة)، ريو دي لابلاتا، ميندوزا. **اللغة**: الاسبانية. **الدين**: الكاثوليكية.

الحكم: جمهورية فدرالية تضم ٢٢ ولاية بالاضافة الى ولاية (أو مقاطعة) العاصمة. يرتكز النظام السياسي على دستور عام ١٨٥٣ الذي عدّل مرات عديدة، والذي يشبه دستور الولايات المتحدة الاميركية الى حد كبير.

السكان: يبلغ تعدادهم نحو ٢٩ مليون نسمة (تقديرات ١٩٩٣). في سنوات الاستعمار الأولى كان هناك اختلاط قوي بين الهنديات والاسبان. أبناء هذا التزاوج دعاهم الاسبان «مانسبوس دي لاتيارا» (أبناء الارض) أو «كريولّوس». وهذا التعبير يدل، حتى ايامنا، على الارجنتيني الأصلي. بالنسبة الى السود، لم يتم اعتاقهم بصورة نهائية إلا بعد الغاء تجارة العبيد إثر سقوط الدكتاتور خوان مانويل أورتيز دي روزاس، فجاء دستور ١٨٥٣ يضع حداً تطبيقياً لهذا الالغاء. وكان هناك ايضاً اختلاط قوي بين السود والبيض خاصة إثر هجرات الاوروبيين الكثيفة الى البلاد في ١٨٨٠. وموجات الهجرة الاوروبية استمرت كثيفة في العقود الأولى من القرن العشرين. وقد شجعت هذه الهجرات على انماء الصناعة والمدن. فإحصاءات ١٨٦٩ دلت على ان ٣٤٪ من سكان البلاد كانوا من سكان المدن، وفي العقود اللاحقة وصولاً الى ١٩٤٧، بلغت هذه النسبة اكثر من ٥٠٪.

الاقتصاد: في ١٩١٠، أي بعد مئة عام من الاستقلال، كانت الارجنتين معتبرة إحدى اكبر الدول في انتاج المزروعات (كانت تدعى «إهراء العالم») حيث كانت تنتج ملايين الاطنان من القمح والذرة والشعير والرز، مع ان الزراعة كانت حديثة العهد بالنسبة الى الارجنتينيين، ذلك لأن الغوشو (الرجل الارجنتيني التقليدي الذي يمتطي الحصان ويجوب السهول والبقاع) كان يحتقر كل عمل يتم من غير ان يكون الرجل فيه ممتطياً صهوة الجواد. بعد اكتشاف المهندس الفرنسي شارل تلليه (١٨٧٦) طريقة حفظ المأكولات بواسطة التبريد، أخذ مربو الماشية في الارجنتين يبذلون جهوداً لتحسين نوعية ماشيتهم. ومع تطور صناعة اللحوم تبدلت ظروف الحياة في السهول الارجنتينية (بامبا)، وتخلى الغوشو عن حياتهم البدوية واخذوا يعملون في تربية الماشية. وفي وقت قصير، اصبحت صناعة اللحوم في الارجنتين إحدى اهم هذه الصناعات في العالم. وبشكل مواز (خصوصاً في العقود الأخيرة) اقيمت في البلاد مصانع لانتاج آلات صناعية، مواد جلدية، سيارات، إسمنت، جعة، الخ. وليس في الارجنتين إلا القليل من الثروات المنجمية حيث يتم استخراج كميات قليلة من الفحم، الحديد، النحاس، القصدير والزنك. ومنذ اكثر من ثلاثين سنة وإنتاج النفط في تزايد.

الوحدة النقدية: بيزو أرجنتيني. في ١٤ حزيران ١٩٨٥، وضع وزير الاقتصاد خوان سوروي خطة اقتصادية جديدة اعتمد فيها وحدة نقدية جديدة: أوسترال = ٠,٨٠ دولار اميركي، مع تجميد الاسعار والاجور. لكن في اول كانون الثاني ١٩٩٢، الغي الاوسترال وأعيد البيزو من جديد نتيجة استمرار الازمة الاقتصادية، خاصة لجهة التضخم.

رجل الغوشو يحتسي المتّة، المشروب التقليدي

نبذة تاريخية

الارجنتين الحالية هي نفسها «الاقليم المهمل» من الامبراطورية الاسبانية الاستعمارية في اميركا. إذ كان الاسبان يقصدون الذهب والفضة غير المتوافرين في الارجنتين، ولم تكن الاراضي الخصبة، ولا الماشية التي يمكن ان تربى عليها، تعنيان لهم شيئاً يذكر. فخلال قرنين من الزمن بقيت الاراضي عذراء وخالية من كل وجود بشري، في ما عدا بيونس ايرس وكوردوبا (قرطبة).

في بداية القرن التاسع عشر، جرت غزوتان بريطانيتان على الارجنتين، تصدى لهما سكان بيونس ايرس، وولّت قوات السلطة الاسبانية هاربة. فكان من شأن هذه الأحداث أن تؤجج الوعي القومي في صدور الارجنتينيين الذين بدأوا يتساءلون عن معنى حاجتهم للأسياد طالما انهم قادرون على رد هجمات الجيوش الاجنبية عن البلاد بوسائلهم الخاصة.

الثورة وحروب الاستقلال التي أعقبتها دامتا ١٥ سنة متواصلة. وتجدر الاشارة هنا ان حركة التحرير هذه لم تكن تتمتع بقاعدة شعبية، وقد قادتها فئة أوليغارشية مؤلفة من حفنة من القادة ومثقفي المدن على رأس رجال سهول الارجنتين وفنزويلا وكولومبيا.

يقول الكاتب الارجنتيني جورج لويس بورجيس في ١٩٨٠ في موسوعة «بلدان ودول» – Pays et Nations – ج٦ ص ٢٨٧): «نحن الارجنتينيون لا وجود لنا إلا منذ ١٥٠ سنة. ليس لدينا إلا القليل من المكتسبات الثقافية والتقاليد الكبرى. وبنتيجة ذلك، سعينا للحصول على ما نفتقده من وراء حدودنا ودون أي عقد. وأعتقد اننا أقرب الى ان نكون مقلّدين من أن نكون خلاّقين. لكن ذهننا منفتح. اننا مهتمون جداً بما يحصل حولنا. كثيرون في هذه البلاد يهتمون بالعلوم، بالآداب والموسيقى والرسم والسينما، ويتكلمون لغة ثانية مثل الفرنسية او الانكليزية او الايطالية. لا اعتقده صائباً الحكم على أمة من خلال عدد عباقرتها الكبار. فالمستوى الثقافي العام أهم من وجود – او عدم وجود – بعض الشخصيات البارزة».

من الاكتشاف الى بيرون

في عهد الاكتشافات الاوروبية الكبرى (القرن ١٦)، وصل عدد من البحّارة حتى أقاصي شواطئ اميركا الجنوبية، وتجرأ بعضهم حتى وصل الى مصب نهر ريو دي لابلاتا والسهول المجاورة له، يحدوهم الامل لاكتشاف الفضة وباقي المعادن الثمينة. من هؤلاء المستكشف الايطالي أمريكو فسبوتشي الذي كان يرفع الراية البرتغالية فوق مركبه. وفي عام ١٥١٦، طالب المستكشف الاسباني، خوان دياز دو سوليز (قتله الهنود في ما بعد)، باسم اسبانيا، بالأراضي المجاورة لمصب النهر. وبعد سنوات، أقام سباستيان كابوت (مستكشف من مدينة البندقية في خدمة اسبانيا) مركزاً مؤقتاً بالقرب من مدينة دو روزاريو. وفي عام ١٥٣٦، أسس بيترو دو مندوزا مستعمرة بالقرب من مدينة بيونس ايرس.

إلا أن هذه المستعمرة لم تدم، بسبب عدم اكتشاف المعادن في المنطقة، وبسبب تعرضها لهجمات الهنود المستمرة، وموت عدد كبير من المستوطنين تحت وطأة الأمراض. فأسس الاسبان مستوطناتهم الدائمة الأولى في المناطق الشمالية – الغربية من الأرجنتين حيث تعود الهنود هناك على رؤية الرجل الأبيض والتعامل مع عاداته، إذ كانت قد أقيمت، في فترات سابقة، مستعمرات

في التشيلي، والبيرو، وبوليفيا، والباراغواي. وبدأ الاسبان بالتوسّع، فأسسوا مدن سانتياغو دل استيرو، وتوكومن، وكوردوبا (قرطبة)؛ وأصبحت مدينة لسنسيون (عاصمة الباراغواي حالياً) مركز المستعمرات الاسبانية في تلك المنطقة من اميركا الجنوبية. وفي عام ١٥٨٠، توجّه المستكشف خوان دو غاراي جنوباً وشرقاً، ليؤسس أول مستعمرة اسبانية دائمة في تلك المنطقة، هي بيونس أيرس.

في القرن السابع عشر، ضمت تلك المستعمرات الى البيرو. وفي عام ١٧٧٦ أوجدت اسبانيا مملكة ريو دو لابلاتا، واتخذت بيونس ايرس عاصمة لها. ووصل الطغيان الاسباني، طيلة تلك الفترة، الى حد لم تسمح السلطات الاسبانية بإقامة مجالس تمثيلية محلية، فيما عدا مجالس بلدية ذات اختصاصات ضيقة جداً، وموضوعة تحت المراقبة الشديدة.

ومع بداية القرن التاسع عشر، قام الانكليز بمحاولتين (في ١٨٠٦ و ١٨٠٧) لاحتلال بيونس أيرس وميناثها. إلا ان الوطنيين الذين كانوا قد بدأوا ينتفضون ضد الاستعمار الاسباني، رفضوا أن يستبدلوا استعماراً باستعمار آخر، فاستبسلوا في معاركهم ضد الانكليز وردوهم على أعقابهم.

وكان من شأن حروب نابوليون الأول واسبانيا أن تؤثر الى حد كبير على هيبة السلطات الاسبانية لدى مستعمراتها، في حين كان التململ يتزايد في تلك المستعمرات وينذر بالانفجار. فتداعت مجموعة من قادة بيونس ايرس، ونظمت صفوفها، وشكلت اول «كابيلدو أبيرتو» (أو المجلس البلدي المفتوح أمام الجميع). وفي ٢٥ أيار ١٨١٠، انتخبت لجنة كلفت بحكم البلاد. وفي ٧ تشرين الثاني ١٨١٠، حقّق الوطنيون انتصاراً حاسماً على الوحدات الاسبانية في معركة سويباشا. وبعد ست سنوات، في ٩ تموز ١٨١٦، أعلنت الأرجنتين استقلالها.

وكان على الدولة الفتية أن تواجه المشكلات الانقسامية التي رفعها الزعماء السياسيون في المقاطعات البعيدة، خاصة وان الأرجنتين كانت ما تزال تعيش خطر اجتياح الاسبان الذين كانوا ما زالوا يحتلون شمالي البلاد، فضلاً عن التشيلي والبيرو. وفي خضمّ هذه الأجواء المضطربة، برز في مقاطعة مندوزا الغربية الأرجنتيني خوسيه دو سان مارتن (وكان قد حارب الى جانب الاسبان في الحروب النابوليونية)، فعمل على تشكيل جيش قوامه نحو خمسة آلاف رجل، وقطع به جبال الأنديز متجهاً نحو التشيلي. وهناك التقى مع قوات البطل التشيلي برناردو أوهيغنز، فأحرزا نصراً حاسماً على الاسبان في معارك شاكوبوكو ومايبو. وقبل أن يعود سان مارتان الى الأرجنتين حرّر ليما في البيرو تاركاً تحرير الجزء الشمالي من القارة الى سيمون بوليفار.

وقام في الأرجنتين نظام إتحادي سمّي «مقاطعات ريو دو لابلاتا الاتحادية»، وانتخب خوان مارتن أول «مدير أعلى» لها. إلا ان حساسيات المقاطعات تجاه بيونس أيرس لم تتوقف؛ واشتعلت حروب مدنية، حاول رئيس المقاطعات المتحدة الجديد، برناردينو ريفادافيا، أن يطفئ نارها بحل حكومة بيونس أيرس، واعتبار المدينة عاصمة المقاطعات (١٨٢٦). إلا ان هذا التدبير فشل، واضطر ريفادافيا على الاستقالة. وبرز في اجواء هذه الفوضى السياسية الدكتاتور مانويل أوربتز دو روزاس الذي لجأ الى أشد الأساليب عنفاً لإخضاع قادة المقاطعات. وبعد نحو عشرين سنة (أي في عام ١٨٥٢) توصل حاكم مقاطعة انتريوز، خوستو خوسيه أوركويزا، من انتزاع السلطة من هذا الدكتاتور الذي لجأ الى انكلترا. وأهم ما قام به الرئيس الجديد إصداره لدستور يشابه الى حد بعيد دستور الولايات المتحدة الاميركية.

وفي العقود اللاحقة من القرن التاسع عشر أخذت وحدة البلاد ترسّخ، وعرفت ازدهاراً

واسعاً، حتى اصبحت الأرجنتين، في العقد الأخير، إحدى أغنى الدول في العالم. ولم يعكر هذه المرحلة، بشكل مميز، سوى حرب السنوات الخمس التي اندلعت، عام ١٨٦٥، بين تحالف الارجنتين والبرازيل والأوراغواي من جهة، والباراغواي من جهة أخرى. وكذلك القمع الوحشي الذي ذهب ضحيته آلاف الهنود قبل أن يتوصّل الجنرال روكا (أصبح رئيساً لولايتين متتاليتين) الى وضع حلول لقضيتهم. وبدءاً من عام ١٨٨٠، أخذت تظهر الى الوجود قوة سياسية جديدة تمثل الطبقة الوسطى. وقد شكلت «الاتحاد الراديكالي» الذي يضم الى صفوفه اعضاء ينتمون، على وجه الخصوص، الى الطبقة البورجوازية والطبقة العمّالية. ومع ذلك، استمر المحافظون في السلطة حتى عام ١٩١٦.

في تلك السنة، وصل الى الرئاسة أحد قادة الاتحاد الراديكالي، إيبوليتو إريغوين، بعد اجراء أول انتخابات عامة وبالاقتراع السري. وبدأت تهب على البلاد أفكار جديدة وسط إصلاحات هامة. وعمل الرؤساء المتعاقبون حتى الحرب العالمية الثانية على تجنيب البلاد ويلات الحروب والأزمة الاقتصادية الكبرى (١٩٢٩)، والحفاظ على حيادها وسط الصراعات الدولية. وبدأ الصراع يتّسع بين الطبقات الوسطى والعمّال من جهة، والمحافظين من جهة أخرى، كما بدأ العسكريون يتسربون الى دوائر القرار السياسي. فعرف النصف الأول من الأربعينات سلسلة من الانقلابات العسكرية، حتى ظفر بالرئاسة، ولكن عن طريق انتخابات عام ١٩٤٦، الضابط خوان دومنغو بيرون.

من بيرون الى منعم: كسب بيرون وزوجته إيفا شعبية خاصة في صفوف العمّال والعسكريين ورجال الدين (الإكليروس). فقد أجرى إصلاحات عدة لمصلحة الطبقات الكادحة، وقوى من القدرة العسكرية للبلاد. ولكنه، بعد سنوات، أخذ يضيق على المعارضة، ويحد من حرية الكلام والصحافة، وتوصّل، عام ١٩٤٩، وهو في قمة شعبيته، الى تعليق الدستور المعمول به منذ ما يقارب القرن، وبدأ يسير على طريق الدكتاتورية. إلا أن انقلاباً عسكرياً أطاحه عام ١٩٥٥، فلجأ الى اسبانيا. وأمسك العسكريون بزمام الأمور في البلاد، فلجأوا عدة مرات الى خلع الرؤساء المنتخبين وتعيين آخرين مكانهم. وفي عام ١٩٦٦، منعوا الأحزاب السياسية، وعلّقوا القانون الذي يوجب انتخاب الرئيس بالاقتراع الشامل، وحلّوا المجلس النيابي ومجلس الشيوخ. وكانوا، في كل مرة، يصدرون وعدهم بعودة النظام المدني التمثيلي عندما تسمح الظروف لذلك. وبعد ١٨ سنة من النفي، انتخب الجنرال بيرون رئيساً للجمهورية من جديد في ٢٣ أيلول ١٩٧٣. وفي ٢ تموز ١٩٧٤، خلفته زوجته الثالثة ايزابيل مارتينيز بعد أن مهّد لها بانتخاب أحد مناصري بيرون، هكتور كامبورا، رئيساً للجمهورية في آذار ١٩٧٤، ثم استقالته مع كامل أعضاء حكومته. وفي ٢٤ آذار ١٩٧٦، أطاح انقلاب عسكري السيدة بيرون، واستلم الحكم مجلس عسكري برئاسة الجنرال جورج رافائيل فيديلا الذي عين نفسه رئيساً للجمهورية، ووضع رئيسة الجمهورية السابقة تحت الإقامة الجبرية، وانتهج سياسة قمعية معتمداً، في دعم حكمه، على قادة الجيوش الثلاثة، البريّة والجويّة والبحريّة.

وضع النظام الجديد خططاً إقتصادية طموحة، لكن التطبيق أعطى نتائج عكسية. فعلى صعيد الصناعة، هبطت مثلاً مبيعات السيارات الجديدة من ٣٢٢,٠٠٠ وحدة عام ١٩٧٤ الى ٢٣٨,٠٠٠ عام ١٩٧٧، مما تسبب بإغلاق مصانع جنرال موتورز عام ١٩٧٨. وفي السنة نفسها، أعلنت أغلبية المصانع الوطنية إفلاسها، خاصة مع تزايد منافسة المواد المستوردة التي أعاقت نمو الصناعات الوطنية (النسيجية على وجه الخصوص)، فضلاً عن ان عدم الاستقرار السياسي والاضطراب

الاجتماعي (الاضرابات) حالا دون قيام الشركات الأجنبية الكبرى بإجراء استثمارات لها في مشاريع داخلية. فسجل عام ١٩٧٨ تراجعاً في الانتاج الصناعي الصافي بنسبة ٤,٥٪، كما سجل التضخم في السنة نفسها نسبة ١٦٨,٨٪.

وحيال هذا المأزق الاقتصادي – الاجتماعي المتفاقم، عمد الحكم، وقد بدأ يشعر بتزايد العزلة الداخلية عليه، الى توجيه أنظار مواطنيه الى مشكلات وقضايا خارجية. فأثار مشكلة النزاع بينه وبين التشيلي حول قناة «بيغل».

وفي أول نيسان ١٩٨٢، نظم العمّال أول مظاهرة محظورة منذ انقلاب ١٩٧٦،انتهت بمقتل شخص واعتقال أكثر من ألفين. وفي اليوم التالي، احتلت الأرجنتين جزر فوكلاند أو مالوين المتنازع عليها مع بريطانيا (تتمسك بريطانيا بهذه الجزر لأهميتها الاستراتيجية، إذ تعتبرها مفتاح الدفاع عن جنوب المحيط الأطلسي، كما ان لها أهمية حيوية في حال إغلاق قناة السويس أو قناة بناما)؛ وكان الجنرال غالتيري قد خلف روبرتو فيولا منذ بداية ١٩٨٠ على رأس المجلس العسكري الحاكم.

وبعد استنفاد الوسائل الدبلوماسية التي استغرقت نحو شهر ونصف، وبدعم سياسي من الولايات المتحدة وحلفائها، تمكنت بريطانيا من استرجاع (عسكرياً) جزر فوكلاند (أو مالوين). فأقيل غاليتري على اثر مظاهرات صاخبة في العاصمة بيونس أيرس / حزيران ١٩٨٢)، واختير الجنرال المتقاعد رينالدو بينيوني رئيساً للجمهورية خلفاً له في محاولة لتجنب أزمة سياسية قد تودي بالمجلس العسكري الحاكم. وطالبت الأحزاب الرئيسية الخمسة في البلاد بالعودة سريعاً الى المؤسسات الدستورية وإطلاق الحريات النقابية والسياسية. فوعد بينيوني تسليم السلطة للمدنيين بعد سنتين. لكن الأحزاب لم تأخذ بجدية الوعد ونظمت مظاهرة ضخمة (نحو مائة ألف متظاهر) في ١٧ كانون الأول ١٩٨٢. وصعد العمّال تحركهم ونظموا إضراباً شاملاً أعقبته تظاهرات في أواخر آذار ١٩٨٣.

في ٣٠ تشرين الاول ١٩٨٣، ولأول مرة منذ ١٩٧٣، جرت انتخابات رئاسية تشريعية وبلدية. وكان على هذه الانتخابات ان تعيد الديمقراطية منهية النظام العسكري الذي بدأ بانقلاب ٢٤ آذار ١٩٧٦. ولقد فاز راوول الفونس مرشح الحزب الراديكالي في وجه منافسه الرئيسي، إيطالو لودر مرشح الحزب البيروني حيث لم تعد البيرونية، للمرة الاولى منذ ١٩٤٦، ممثلة للأغلبية. وبعد ان شكل الفونسو حكومته اعلن عن ان الجنرالين غاليتري ولامي دوزو والاميرال انايا سيحالون على المحكمة العسكرية بتهمة المسؤولية والتقصير في حرب جزر فوكلاند (مالوين). وقد احيلوا فعلاً مع ضباط آخرين. وقد اتاح هذا الامر للسلطة المدنية وضع يدها على الجيش.

لكن، أول فشل واجهه الفونسو كان في اواسط آذار ١٩٨٤ عندما رد مجلس الشيوخ مشروعاً يقلص سلطات النقابات التي تعتبر المعقل الرئيسي للحركة البيرونية. وقد اعقب ذلك عودة ايزابيلا بيرون (الرئيسة السابقة) الى البلاد. كما بدأ الرئيس يلاقي صعوبات (تموز ١٩٨٤) مع الجيش عندما استقال قائد الجيش وعدد من كبار الضباط نتيجة محاكمة بعض العسكريين في قضايا حقوق الانسان واقتطاع جزء كبير من موازنة القوات المسلحة.

أما الوضع الاقتصادي، فقد بدا كارثياً، إذ بلغت ديون الارجنتين (١٩٨٣) نحو ٤٠ مليار دولار، وكانت عاجزة عن سدّها. وبلغت نسبة زيادة الاسعار ٢٣٠٪ (في ١٩٨٣) فضلاً عن ان البطالة طالت نحو ربع السكان العاملين. وقد دعا ألفونس، في ايار ١٩٨٤، القوى السياسية في البلاد الى مؤتمر يتدارس سبل تجاوز الازمة الاقتصادية.

على صعيد سياسة ألفونس الخارجية، فقد أيّد عودة المحادثات مع لندن حول جزر فوكلاند.

الا ان هذه المحادثات، التي عقدت في سويسرا، سرعان ما انهارت (تموز ١٩٨٤) بسبب رفض بريطانيا مناقشة مسألة السيادة على الجزر. ووقعت الارجنتين، مع التشيلي، بعد ستة اعوام من جهود الكرسي الرسولي الذي حال تدخله في ١٩٧٨ دون اندلاع حرب بين البلدين، معاهدة رسمت نهائياً بموجبها حدود قناة بيغل وحددت المناطق الاقتصادية للبلدين. اما الجزر الثلاث المتنازع عليها بين البلدين (الارجنتين والتشيلي)، فقد اعترف بسيادة التشيلي عليها. وهذه الجزر وإن كانت جرداء فانها مهمة بسبب موقعها الجغرافي الاستراتيجي.

في السنوات الاخيرة (١٩٨٥ – اواسط ١٩٩٣): ثلاثة احداث داخلية ميّزت العام ١٩٨٥: استقالة ايزابيل بيرون من رئاسة حزب العدالة، وبدء محاكمة الجنرالات (بسبب تقصيرهم في حرب مالوين – فوكلاند، اضافة الى آخرين بسبب انتهاكهم لحقوق الانسان)، وخطة اوسترال الاقتصادية التي وضعها وزير الاقتصاد خوان سوروي، حيث اعتمد الأوسترال (اوسترال = ٠,٨٠ دولار اميركي) محل البيزو. وفي اول كانون الثاني ١٩٩٢، أعيد البيزو من جديد وألغي الاوسترال.

وفي ١٩٨٦ (١٦ ايار)، صدر الحكم بادانة المسؤولين عن هزيمة مالوين وبسجنهم. وقام الرئيس ألفونس بزيارة لباريس، هي الثالثة في غضون عام واحد. اما العام ١٩٨٨، فبدأ بتمرد عسكري وانتهى بتمرد عسكري آخر. الأول في كانون الثاني وقاده الكولونيل ألدو ريكو في منطقة مونتي كازيروس؛ ورغم تمكنه من السيطرة على مطار بيونس أيرس، الا انه حوصر واضطر للاستلام، وتم اعتقال ٢٧٨ عسكرياً. والثاني في اوائل كانون الاول في مدرسة المدفعية (معسكر مايو، بيونس أيرس) وقاده الكولونيل محمد علي صانيلدين (يبدو ان هذا الاسم هو صلاح الدين في الأساس) الذي تقدم بمطالب: عفو عام عن العسكريين، زيادة الميزانية العسكرية، وطرد رئيس هيئة الاركان في الجيش، جوزي دانتي كاريدي (الذي قدم استقالته).

في ٢٣ كانون الثاني ١٩٨٩، هاجمت «حركة الجميع من أجل الوطن» الحامية العسكرية في تابلادا حيث سقط ٤٠ قتيلاً. وفي ايار ١٩٨٩، جرت انتخابات رئاسية فاز بها كارلوس منعم بنسبة ٤٩،٢٪ من الاصوات. وفي اواخر الشهر نفسه، وضعت خطة اقتصادية جديدة تهدف اساساً للعمل على تخصيص (من القطاع الخاص) المشاريع العامة. وشهد شهر ايلول ثلاثة احداث مهمة: عفو عن ٢١٣ عسكرياً (منهم ٢٧ جنرالاً واميرالاً كانوا قد ادينوا لانتهاكهم حقوق الانسان، وقادة حرب مالوين الثلاثة، وبعض الانقلابيين الذين اشتركوا في انقلابات العامين ١٩٨٧ و١٩٨٨، إضافة الى ٦٤ عنصراً من رجال حرب العصابات)؛ والحدث الثاني، التخصيص الجزئي للنفط؛ والثالث، اعادة العلاقات القنصلية بين الارجنتين وبريطانيا (ثم العلاقات الدبلوماسية في ١٥ شباط ١٩٩٠).

في تشرين الثاني ١٩٩٠، ارسلت الارجنتين غواصتين حربيتين وفرقاً من جيشها الى الخليج للاشتراك في الحرب «الدولية» التي قادتها الولايات المتحدة ضد العراق. ولم تطرح الحكومة هذا الامر على الكونغرس الارجنتيني لنيل موافقته، ما شكل مخالفة دستورية، وما أدّى الى مظاهرات ضد الحكومة في بيونس أيرس. وقد تكون زيارة الرئيس الاميركي جورج بوش (الزيارة الأولى لرئيس اميركي منذ زيارة ايزنهاور في ١٩٦٠) بعد نحو اسبوعين للارجنتين بهدف دعم الحكومة في موقفها هذا.

في ٢٥ آذار ١٩٩١، جرى توقيع مشروع «مركوسور» الذي يقضي بانشاء السوق المشتركة

بين الارجنتين والاوروغواي والبرازيل والباراغواي، ويبدأ تنفيذه في اول كانون الثاني ١٩٩٥.
وفي تشرين الثاني ١٩٩١، اعلن الرئيس منعم نهاية تدخل الدولة في أي قطاع اقتصادي.
والحدث الأهم في السنة الأخيرة كان الانفجار الذي وقع في سفارة اسرائيل (١٧ آذار ١٩٩٣)
وذهب ضحيته ٢٨ قتيلاً.

نصب ساحة أيار تخليداً لثورة ٢٥ ايار ١٨١٠

مدن ومعالم

* **أرض النار:** مجموعة جزر تقع جنوبي أميركا الجنوبية. نحو ٩,٠٠٠ ن. يفصلها عنها مضيق ماجلان وكانت تعرف سابقاً باسم ارخبيل ماجلان.

* **باتاغونيا Patagonie**: منطقة جنوبي الارجنتين تربى فيها الاغنام وغنية بالبترول. مساحتها ٨٠٠,٠٠٠ كلم². وتغطي باتاغونيا جميع المناطق الواقعة جنوبي القارة، بما فيها ارض النار ومناطق في تشيلي (وارخبيل تشيلي). هضبة واسعة، صخرية، قاسية المناخ، وقليلة السكن. من مضيق ماجلان تم اكتشاف الساحل الباتاغوني في ١٥٢٠. الكثافة السكانية فيها لم تزد بعد عن شخص واحد في الكلم٢ الواحد. أهم مدينة فيها (في القسم الارجنتيني منها) هي كومودورو ريفادافيا حيث الصناعة البترولية.

* **باهيا بلانكا Bahia Blanka**: مدينة ومرفأ في الارجنتين جنوبي مقاطعة بيونس أيرس. نحو ٢٢٠,٠٠٠ ن. مركز صناعي (صناعات غذائية وأقمشة)، ومنفذ تجاري لباتاغونيا وبمبا. ومن مرفئها يتم تصدير كميات كبرى من القمح.

هندي من مقاطعة سالتا

* **بمبا Pampa**: سهل واسع في وسط شرقي الارجنتين. تزرع فيها الحنطة والخضار، وفيها مراع خصبة. تؤمن لوحدها ٨٠٪ من صادرات الحبوب واللحوم. قليلة السكان. مساحتها ١٤٣,٤٤٠ كلم². نحو ٢٥٠,٠٠٠ ن.

* **بيونس أيرس Buenos Aires**: مدينة ومرفأ على ضفاف ريو دي لابلاتا. عاصمة الارجنتين. فيها جالية لبنانية وسورية ذات شأن، ومدرسة للمرسلين اللبنانيين. تجارة الحبوب والجلود واللحوم. تعد نحو ٦,٠٠٠,٠٠٠ ن، ونحو ١٠,٠٠٠,٠٠٠ مع ضواحيها (أي ما يقارب ثلث سكان الارجنتين). ويعود نموها السكاني الى هجرة ايطالية كبيرة (بدأت في اواخر القرن الماضي)، اضافة الى النزوح الريفي الداخلي اليها. مركز ثقافي وتجاري وصناعي (ثاني أهم مدينة صناعية في اميركا الجنوبية بعد ساو باولو). أسسها الاسباني مندوزا (١٥٣٦)، وبعد خمس سنوات هجرها سكانها بسبب غزوات الهنود. اعيد انشاؤها في ١٥٨٠. وفي ١٧٧٦ اصبحت عاصمة نيابة الملكية الاسبانية في ريو دي لابلاتا. في القرن التاسع عشر اتخذها المركزيون (الاسبان) قاعدة لهم. وكانت دولة مستقلة بين ١٨٥٣ و١٨٦٠، واصبحت عاصمة فدرالية في ١٨٨٠. واسفر مؤتمر بيونس أيرس ١٩٣٦ عن حل لحروب شاكو لمصلحة الباراغوي.

* **توكومان Tucuman**: مدينة قديمة في الارجنتين. عاصمة المقاطعة. قائمة في قلب منطقة

زراعية غنية. تعمل على انماء القطاع الصناعي فيها.

* **روزاريو Rosario**: مدينة ومرفأ مهم في شمال شرقي الارجنتين على نهر بارانا وعلى مسافة ٢٧٠ كلم من العاصمة. نحو ٩٨٠,٠٠٠ ن. مركز صناعي مهم. تأسست ١٧٢٥، واصبحت مركزاً صناعياً مهماً في اواسط القرن التاسع عشر. فيها كاتدرائية تاريخية وجامعة.

* **شاكو Chaco**: صحاري واقعة في اميركا الجنوبية تتقاسمها الارجنتين وبوليفيا وباراغواي. تمتد على ٦٠٠,٠٠٠ كلم٢ عند اقدام جبال الانديز بين الامازون في الشمال والبمبا في الجنوب. حدثت بسببه عدة نزاعات دموية بين بوليفيا والباراغوي عندما لاح ظهور مؤشرات تدل على وجود النفط في بعض مناطقه. حاول الاسبان بلوغ مناجم جبال الانديز عن طريق صحاري شاكو، إلا انهم تخلوا عن هذه المحاولات منذ بداية القرن السابع عشر لتيقنهم من استحالة اجتيازه لوجود عدة آلاف من الهنود الحمر الذين كانوا يعيشون على صيد الحيوانات والأسماك. ومع بدء استقلال بلدان اميركا اللاتينية تقاسم الشاكو البلدان الثلاثة المحيطة به: بوليفيا، الباراغوي والارجنتين.

أتاحت هزيمة الباراغوي، في حرب ١٨٧٠، للارجنتين (بالتحالف مع بوليفيا) لأن تحتل مناطق واسعة في الشاكو حيث عملت على تشجيع زراعة القطن في بعض المناطق الصالحة على يد مستوطنين اوروبيين (بلغ عددهم خلال سنوات نحو ٧٥٠,٠٠٠) بعد ان قامت بحملات ابادة للسكان الاصليين من الهنود الحمر. وبعد ١٨٧٢، استطاعت بعض الشركات الارجنتينية والدولية ان تمتلك معظم اراضي الشاكو، وان تقيم لها قواعد على طول النهر الذي يقطع الاقليم. فكانت عائلة كارلوس كازادو الارجنتينية تمتلك وحدها نحو ٧ ملايين هكتار، في حين توزعت الاجزاء الأخرى شركات اجنبية، كانت شركة الأي.بي.سي الاميركية على رأسها. واشترت حكومة الباراغوي من عائلة كازادو نحو ٩٠٠,٠٠٠ هكتار من اراضي الشاكو الواقعة على الحدود البوليفية وسمحت لمستوطنين بالاقامة عليها واستغلالها بدءاً من ١٩٢٧، ومنحتهم حكماً ذاتياً، ويعود هؤلاء باصولهم الى كندا والمانيا وروسيا ومنشوريا، وبنوا مدينة اتخذوها عاصمة لهم دعوها فيلادلفيا. وفيما عدا هؤلاء المستوطنين فقد كانت الشاكو خالية من الوجود البشري حتى بدأت الشركات الاميركية العاملة في بوليفيا تهتم بالتنقيب عن النفط في بعض المناطق هناك، ما دفع ببوليفيا لأن تفكر بأن تقتطع حصة لها من الاقليم يعطيها منفذاً على الأطلسي يعوضها عن منفذها على المحيط الهادي الذي خسرته ١٨٨٣. كانت الشركات الاميركية العاملة في بوليفيا تشجعها على ذلك، في حين راهنت الشركات البريطانية النفطية على الحكومة الباراغوية.

واندلعت الحرب بين بوليفيا والباراغواي ١٩٣٢. وعلى الرغم من تفوق البوليفيين في العدد والعدة الا ان صعوبة البيئة التي لم يتعودوها، فضلاً عن الامراض (الملاريا) التي فتكت بعدد كبير منهم جعلتهم يتقهقرون امام الجيش الباراغواي المصمم على الثأر لهزيمته (١٨٧٠). وانتهت الحرب على ارض الشاكو بين البلدين بتوقيع معاهدة بيونس ايرس (١٩٣٦) التي اعطت الباراغواي ٢٢٥,٠٠٠ كلم٢ من اقليم الشاكو. لكن التنقيبات النفطية التي اجرتها الشركات خيّبت آمال الباراغواي، إذ اسفرت عن وجود النفط بكميات ضئيلة للغاية؛ ومن ثم تحولت الجهود هناك الى الاهتمام بتربية الماشية. ولتشجيع هذا النشاط الاقتصادي جرى، في ١٩٦٥، شق طريق يعبر الشاكو ويصل فيلاهايز في الباراغواي بمنطقة فيلازون على الحدود مع بوليفيا.

* **فوكلاند، جزر Falkland**: تقع في جنوبي المحيط الأطلسي، قبالة الطرف الجنوبي من شاطئ الارجنتين، وعلى بعد ٦٠٠ كلم من رأس هورن وارض النار. وجزر فوكلاند مستعمرة بريطانية تطالب بها الارجنتين وتسميها «جزر مالفينا» (او مالوين). مساحتها نحو ١٢ ألف كلم٢، وهي المساحة الاجمالية للجزر البالغ عددها ٢٠٢ جزيرة، منها الجزيرتان الكبيرتان. عدد سكانها نحو ٣ آلاف نسمة فقط، نصفهم في قاعدة الجزر «ستانلي» (أو بورت ستانلي)، والآخرون يعيشون من الزراعة في مناطق متفرقة. معظمهم من أصل انكليزي، ويتكلمون الانكليزية. يعتمد الاقتصاد على تربية الماشية، وانتاج اللحم والصوف. تتصل فوكلاند بالعالم الخارجي من خلال رحلات جوية قليلة ولكن منتظمة بين ستانلي وكومودورو بنادافيا في الارجنتين، ومن خلال رحلات بحرية تجري عدة مرات في السنة مع بريطانيا.

وتتبع فوكلاند جزر اخرى متفرقة تصل حتى الأنتاركتيكا، وتبعد احياناً مئات الكيلومترات، مثل جزيرة جيورجيا الجنوبية، وجزر ساندويش الجنوبية.

لكن الأولى وحدها مأهولة حيث يعمل سكانها في اعداد زيت الحوت والفقمة. وفي السابق، كانت هذه الجزر تضم ايضاً شتلند الجنوبية، وجزر أوركاد الجنوبية وجزءاً من قارة انتاركتيكا. لكن في عام ١٩٦٢ انفصلت هذه الاقاليم الاخيرة لتشكل في ما بينها وحدة سياسية تتمتع بحكم ذاتي تحت اسم «إقليم انتاركتيكا البريطاني».

جزر فوكلاند مستعمرة يحكمها حاكم تعينه بريطانيا ويعاونه مجلس تنفيذي وآخر تشريعي، من اعضائهما من هم معينون وآخرون منتخبون. التعليم إجباري ويطال جميع الاولاد الذين تتراوح اعمارهم بين ٥ و١٤ سنة. ليس هناك بعد من نظام تعليمي للمرحلة الثانوية، فالذين يرغبون في متابعة دروسهم يتوجهون الى بريطانيا. في ستانلي مدرستان، وفي باقي المناطق مدارس قرى صغيرة.

تاريخياً، من المرجح ان الضابط الانكليزي جون دافيس كان اول الذين نزلوا ارض الفوكلاند في العام ١٦٩٠، اي بعد نحو مائة سنة من اكتشافها. وقد تعاقب على احتلال هذه الجزر الانكليز والفرنسيون والاسبان والارجنتينيون. وعملية التعاقب هذه هي في اساس المطالب الاقليمية حول الجزر بين بريطانيا والارجنتين. تستند الارجنتين في مطلبها على حق وراثتها للتاج الاسباني وعلى حقوق الجوار، في حين تدعم الحكومة البريطانية سيادتها على الجزر بحقوق الاكتشاف، وحقوق الاحتلال والعمل في الجزر منذ ١٨٣٣. ومسألة السيادة هذه قد رفعت امام لجنة الامم المتحدة المختصة بوضع المستعمرات في العالم. وقد اوصت هذه اللجنة الحكومتين بمتابعة محادثتهما على امل الوصول الى حلول معقولة. وفي ١٩٨٢، نشبت حرب بين بريطانيا والارجنتين بسبب هذه الجزر، وخرجت بريطانيا منتصرة منها. وفي ١٩٨٤، دعا الرئيس الارجنتيني، ألفونس، بريطانيا الى محادثات حول الجزر، فعقدت في سويسرا (١٩٨٤)، إلا انها سرعان ما انهارت بسبب رفض بريطانيا مناقشة مسألة السيادة على الجزر.

غزّالة من مقاطعة كوردوبا (قرطبة)

* **كوردوبا Cordoba**: مدينة في الارجنتين. عاصمة الاقليم. نحو ١،١٠٠،٠٠٠ ن. مركز صناعي. كرسي اسقفي. سوق زراعي ومركز صناعي. مركز اقتصادي، جامعي، ثقافي وسياحي من الدرجة الاولى. تأسست ١٥٧٣، وكان لها أهمية كبرى في المرحلة الاستعمارية التي لا تزال تحتفظ منها بآثار كثيرة.

* **لا بلاتا La Plata**: مدينة ومرفأ شرقي الارجنتين، على نهر ريو دي لا بلاتا. عاصمة ولاية بيونس ايرس. نحو ٦٠٠،٠٠٠ ن. مركز ثقافي، صناعي وتجاري. بلغ فسبوتشي نهر ريو دي لابلاتا بعد ان اكتشف ريو دي جينيرو (١٥٠٢)، واعاد اكتشافه دياز قبل ان يصله ماجلان (١٥٢٠)، وبعده سيباستيان كابو. في ١٦١٧، قسم فيليب الثالث (ملك اسبانيا) اراضي المنطقة الجنوبية هناك بين حكومتين: حكومة الباراغواي وحكومة ريو دي لابلاتا. في ١٧٧٦، نشأ نظام نيابة – الملك على ريو دي لابلاتا، ومنه انبثقت الارجنتين الحديثة.

* **ماجلان**: (مضيق) ذراع بحرية بين طرف

اميركا الجنوبية وارض النار. سمّي على اسم المستكشف البرتغالي فرنان دي ماجلان (١٤٨٠ – ١٥٢١) الذي اكتشف هذا المضيق. وهو ملاح برتغالي (ولد في سابروسا ١٤٨٠ وقتل في الفيليبين ١٥٢١). قام برحلات استكشافية الى الهند والى افريقيا قبل ان يضع نفسه بخدمة اسبانيا (١٥١٢). وصل الى ريو دي لابلاتا (١٥٢٠). اجتاز المحيط الهادئ (الباسيفيكي) باتجاه الشمال – الغرب، ووصل الفيليبين ١٥٢١. اقنع الملك سيبو باعتناق الكثلكة. تعرّض له السكان الاصليون هناك وقتلوه.

زعماء ورجال دولة

* **بيرون، ايفا ديوارت Peron, E.** (١٩١٩ – ١٩٥٢): مغنية اوبرا وسياسية ارجنتينية، استطاعت انقاذ الزعيم الارجنتيني بيرون – المتعاطف مع الفاشية – من الاعتقال بعد هزيمة المحور، ثم تزوجته (١٩٤٥). لعبت دوراً سياسياً بارزاً في الارجنتين وإبان فترة حكم زوجها، فكانت مساعدته على رأس هيئة «المعونة الاجتماعية»، وكانت هي التي تدير عملياً وزارة العمل. انشأت حزب «الشغيلات الأرجنتينيات»، واشتهرت بدفاعها عن المحرومين في الارجنتين. وقد اوصلها الشعب الى منصب نائبة لرئيس الجمهورية، ولكنها اضطرت الى رفض المنصب امام معارضة الجيش (ايار ١٩٥١).

* **بيرون، خوان دومينغو Peron, J.D.** (١٨٩٥ – ١٩٧٤): سياسي ورجل دولة ارجنتيني. عقيد في الجيش (١٩٤٠). اشترك (حزيران ١٩٤٣) بانقلاب عسكري استلم بعده عدة مناصب سياسية في وزارة الدفاع والعمل، ثم أصبح نائباً لرئيس الجمهورية. اعتقل في ٧ تشرين الاول ١٩٤٥، إلا ان النقابات و «المعدمين» قاموا بانتفاضة بقيادة ايفا ديوارت (التي اصبحت زوجته) تمكنوا على اثرها من تحريره. انتخب رئيساً للجمهورية (١٩٤٦). تميزت سياسته بالسعي لتحقيق العدالة الاجتماعية وحماية العمال وتبني النظام الاقتصادي الموجه واتخاذ موقف ثالث بين الرأسمالية والشيوعية. اعيد انتخابه بعد تعديل الدستور (١٩٥١). وزع رجاله في كل المناصب واقام حكماً بوليسياً. صادر الاملاك الكبيرة ووزع الاراضي وامم المصرف المركزي والخطوط الحديدية والتجارة الخارجية وخفض العملة ودفع الديون الخارجية. رسم خطة خمسية للتصنيع وشجع الزراعة. خارجياً، التزم الحياد ونادى باتحاد فدرالي بين دول اميركا اللاتينية والتقارب مع اسبانيا. انفجر صراعه مع الكنيسة عندما اباح الطلاق وقرر فصل الدين عن الدولة، كما حرم من الكنيسة لطرده اسقف بيونس ايرس. اصطدم كذلك بالجيش الذي اجبره في النهاية على الاستقالة (ايلول ١٩٥٥) لصالح الجنرال لوناردي، وعلى اللجوء الى نيكاراغوا وفنزويلا والدومينيك واخيراً اسبانيا. اسس انصاره في الداخل «الحركة الوطنية من اجل العدالة» (ايار ١٩٦٨). عاد في نهاية ١٩٧٢ من منفاه واعلن انه لن يرشح نفسه للانتخابات بل سيرشح احد انصاره الذي نجح في انتخابات الرئاسة (١٩٧٣)، ثم ما لبث هذا الأخير ان استقال ليفسح المجال امام بيرون ليرشح نفسه لرئاسة الجمهورية. وفي ١٢ تشرين الاول ١٩٧٣ عاد خوان بيرون مجدداً رئيساً للجمهورية حتى تاريخ وفاته (تموز ١٩٧٤). وقد خلفته في هذا المنصب ماريا استيلا بيرون التي كان قد عينها نائبة له.

* **بيرون، ماريا استيلا Peron, M.E.** (١٩٣١ –): سياسية ارجنتينية. الزوجة الثانية للزعيم الارجنتيني الجنرال خوان بيرون. نائبة الرئيس (زوجها) في ١٩٧٣ – ٧٤، وخلفته في الرئاسة (١٩٧٤ – ٧٦)، وسقطت بانقلاب عسكري.

* **غاليتيري، فورتوناتو Galtieri, F.** (١٩٢٧ –): عسكري ورجل دولة ارجنتيني. رئيس الدولة من اواخر ١٩٨١ الى حزيران ١٩٨٢. درس الهندسة في الولايات المتحدة؛ وحاول، عندما كان قائداً لاركان القوات البرية (١٩٧٥ – ٧٩) ادخال الانجازات العلمية الى الحقل العسكري. كان وراء تفجير حرب المالوين (جزر فوكلاند)، فاضطر الى الاستقالة بعد هزيمة بلاده امام بريطانيا. اعتقل في اعقاب سقوط الحكم العسكري في الارجنتين وحوكم على الجرائم التي ارتكبها بحق المعارضة الارجنتينية، إذ كان من أشد انصار ارهاب الدولة حماسة، وقد مهد سقوطه امام عودة الديمقراطية الى الارجنتين.

* **فرونديزي، ارتورو Frondizi, A.** (١٩٠٨ –): سياسي ورجل دولة ارجنتيني. انتخب (١٩٥٨) رئيساً للارجنتين بدعم من انصار بيرون. حاول الحفاظ على الحكم الدستوري وتقوية الوحدة الوطنية وتنشيط الاقتصاد. إلا انه واجه معارضة من العسكريين في كل هذه المجالات. وعندما حاول رفع القيود الانتخابية

المفروضة على البيرونيين في العام ١٩٦٢، انقلب عليه العسكر وألغوا الانتخابات ولم يسمح له بالمشاركة في انتخابات ١٩٦٣. رشح نفسه لانتخابات ١٩٧٣ الرئاسية باسم «حركة التكامل والتنمية» التي كان يتزعمها، ولكنه عاد وعدل عن ذلك، وانضم الى الحركة البيرونية واخذ يعمل على اعادة بيرون الى الارجنتين من منفاه في اسبانيا.

* **فيديلا، جورج Videla, J.**: جنرال ارجنتيني تزعم الانقلاب العسكري الذي اطاح حكم ايزابيلا بيرون في آذار ١٩٧٦، وترأس الدولة من ١٩٧٦ الى ١٩٨١. في ظل حكمه شنت حملة قمع رهيبة قضت على الآلاف من الارجنتينيين. اعتقل في آب ١٩٨٤، ومثل امام القضاء في اطار «محاكمة القرن» التي ادت الى تجريم ابرز القادة العسكريين الذين حكموا الارجنتين من ١٩٧٦ الى ١٩٨٣، والى صدور احكام بالسجن لمدة متفاوتة ضدهم.

* **فيولا، روبرتو Viola, R.** (١٩٢٤ –): جنرال ارجنتيني شارك في الانقلاب العسكري الذي اطاح حكم إيزبيلا بيرون في آذار ١٩٨١ الى كانون الاول ١٩٨١. شغل، في عهد سلفه الجنرال فيديلا منصب القائد العام لاركان القوات المسلحة، ثم منصب القائد الاعلى للقوات البرية، واضطلع بدور اساسي في تنظيم حملة القمع التي كابد منها الشعب طيلة فترة تولي العسكريين منذ اطاحة إيزبيلا بيرون. القي القبض عليه في حزيران ١٩٨٤، بعد ان وجهت اليه تهمة اصدار الاوامر باعتقال، او بتصفية جميع العناصر «المخربة» في الارجنتين. وكان من بين القادة العسكريين التسعة الذين مثلوا امام القضاء في نيسان ١٩٨٥، بعد عودة الديمقراطية، ليحاكموا على الجرائم التي ارتكبوها ابان «الحرب القذرة» ضد المعارضة.

* **كامبورا، هكتور Campora, H.** (١٩٠٩ – ١٩٨٠): رجل دولة ارجنتيني. رئيس الدولة من ٢٥ ايار الى ١٣ تموز ١٩٧٣ (لمدة اقل من شهرين) حيث استقال ليفسح في المجال امام عودة الجنرال بيرون الى الحكم. كان كامبورا طبيب اسنان، ونشط في صفوف المنظمات الطلابية الارجنتينية. تعرّف الى بيرون في العام ١٩٤٤، واصبح من انصاره المخلصين. في ١٩٤٦، انتخب نائباً في البرلمان، وبعد ثلاثة اعوام اصبح رئيساً للبرلمان. وبعد إطاحة بيرون (١٩٥٥) تعرض للسجن والنفي. عاد الى الارجنتين في ١٩٥٩، وشارك في عدد من المؤتمرات البيرونية. وبعد انقلاب ١٩٦٦ العسكري، مُنع من النشاط السياسي، بيد انه استأنف هذا النشاط في ١٩٧١ عندما اختاره خوان بيرون (وهو في منفاه) مندوباً شخصياً في الارجنتين. وبفضل الاتصالات التي اجراها والجهود التي بذلها سُمح لبيرون بالعودة الى بلاده، فعاد في اواخر ١٩٧٢، وبادر الى تعيين كامبورا مرشحاً عن حزبه، حزب العدالة، لانتخابات ١٩٧٣ الرئاسية. فاز كامبورا في هذه الانتخابات وشكل حكومة مدنية لا تضم الا ممثلين عن الحزب البيروني، وارغم كبار ضباط الجيش، الذين كانوا قد ايدوا حكم الجنرال لانوس، على التقاعد. ولم تكن فترة رئاسته الوجيزة سوى تمهيد لعودة بيرون الى الحكم. وبعد انقلاب آذار ١٩٧٦ الذي اطاح حكم ارملة بيرون، لجأ كامبورا الى السفارة المكسيكية في بيونس ايرس، وعاش في هذه السفارة ثلاثة اعوام، الى ان حصل على اذن باللجوء الى المكسيك، حيث توفي بعد انقضاء عام على اقامته فيها.

الأردن

بطاقة تعريف

الاسم الرسمي: المملكة الاردنية الهاشمية.

الموقع: تحيط بالاردن سورية، العراق، العربية السعودية وفلسطين. ويطل الاردن في أقصى الجنوب على البحر الأحمر من خلال ميناء العقبة.

المساحة: ٩٨,٠٠٠ كلم٢. بما في ذلك مساحة الضفة الغربية المحتلة التي تبلغ مساحتها ٥٥٧٢ كلم.٢

العاصمة: عمان. أهم المدن: الزرقاء، اربد، السلط، جرش، معان، الكرك، العقبة.

اللغة: العربية.

السكان: يبلغ تعدادهم ٣,٩ مليون نسمة (تقديرات ١٩٩٣). أغلبهم مسلمون، وتبلغ الأقلية المسيحية نحو ١٢٪. ثمة دراسات تؤكد ان أكثر من نصف سكان الاردن من الفلسطينيين، ومن أصل فلسطيني، ويتمتعون في الاردن بوضع خاص مختلف عن وضع الفلسطينيين في أي دولة عربية: وضع مفروض عليهم ان يكونوا اردنيين رغم انهم يصرون على ان فلسطين ما زالت تعيش فيهم. وتعتبر القواعد التي تحكم العلاقة الاردنية – الفلسطينية على الصعيدين السياسي والاجتماعي معقدة وشائكة واحياناً متناقضة، وقد يبدو من المستحيل رسم خط فاصل واضح بين اردنية الشخص من اصل فلسطيني وبين فلسطينيته.

الاقتصاد: يظهر الانتاج الزراعي تقلبات كبيرة بسبب المناخ. أهم المزروعات: القمح، الشعير، العدس والكرمة. والثروة الحيوانية تتشكل اساساً من الأغنام والماعز والجمال. وفي الاردن، منذ نحو عقدين، تشديد على الصناعة والمعادن (الفوسفات الثروة المعدنية الاساسية). واهم الصناعات: السياحة، الفوسفات، الاقمشة، الاسمنت والدخان.

صناعة وتجارة الفوسفات هما الأهم في الاقتصاد الاردني. تأسست «شركة مناجم الفوسفات الاردنية» في ١٩٣٥. وقدّر احتياط الاردن من الفوسفات (في العام ١٩٩٣) بنحو ١،٥ بليون طن، فضلاً عن احتواء تربته على ما نسبته ٦٠٪ من هذه المادة. ويحتل الاردن المرتبة الثالثة لجهة حجم الصادرات من الفوسفات، بعد المغرب والولايات المتحدة، والمرتبة الخامسة لجهة الانتاج بعد هاتين الدولتين بالاضافة الى روسيا والصين. وتبلغ حصة الفوسفات الاردني ١٤٪ من السوق العالمية. انزلت حرب الخليج الثانية على العراق ضرراً كبيراً بالاقتصاد الاردني. وقدرت خسائره، بسببها، بنحو ٧ بلايين دولار (تموز ١٩٩٣).

واظهرت دراسة رسمية تم انجازها في نيسان ١٩٩٣، ان ٢١،٤ من العائلات التي يبلغ حجمها في المتوسط ٧ افراد تعيش تحت خط الفقر المطلق على دخل شهري يقل عن ١١٨ ديناراً اردنياً (١٧١ دولاراً). وكان الاردن يفاخر بنمو اقتصادي بلغ ١١٪ العام ١٩٩٢، لكن هذه العائلات (التي تشكل اكثر من خمس مجموع السكان) لا تستطيع ان تحصل على احتياجاتها الاساسية. واظهرت هذه الدراسة ايضاً ان ٦،٦٪ ممن يعيشون تحت خط الفقر، يعيشون في فقر مدقع على دخل شهري يبلغ ٦١ ديناراً (٩٠ دولاراً).

شباب وفتيات البادية

شيخ عشيرة الزلابية. يأبى الا ان يواصل العيش باسلوب البدو متنقلاً في صحراء وادي رم

شيخ عشيرة البدول امام بيت شعره في البتراء («العربي»، عدد ٣٦٧، حزيران ١٩٨٩)

نبذة تاريخية

اظهرت التنقيبات التي أجريت في وادي الاردن عن وجود بشري يرقى الى ستة آلاف سنة خلت. وتوالى على الاردن الغزاة، من العبرانيين، والاشوريين، والكلدانيين، والفرس (قورش)، ثم الاسكندر وخلفاؤه. وابرز مدينة قديمة في الاردن، مدينة الانباط. والأنباط شعب عربي اشتهروا بابرز مآثر هندسة العمار القديمة: مدينة البتراء. وبعد تقسيم الامبراطورية الرومانية، ظل الاردن تحت سيطرة بيزنطية حتى معركة اليرموك (٦٣٦ م) حين بدأ الحكم العربي الاسلامي المتواصل (في ما عدا فترات سيطرة الصليبيين) حتى قيام السلطنة العثمانية (راجع: مدن ومعالم).

شكل الاردن، في ظل السيطرة العثمانية، جزءاً من سوريا، باستثناء فترة قصيرة من احتلال الوهابيين للبلاد (من ١٨٠٦ حتى هزيمتهم على يد ابراهيم باشا). وبقي طيلة تلك الفترة، منطقة غير متطورة، تعيش بصورة رئيسية على الزراعة وتربية الدواجن.

في التاريخ المعاصر

بعد اندلاع الثورة العربية الكبرى (١٩١٦)، وما صاحبها من وعود الحلفاء الانكليز والفرنسيين لقادة هذه الثورة، وبعد هزيمة العثمانيين (١٩١٨)، وصل الى معان، في جنوب الاردن (٥ تشرين الثاني ١٩٢٠) الشريف عبد الله بن الشريف حسين، واعلن عن نيته طرد الفرنسيين من سوريا لاعادة أخيه (الملك فيصل) الى العرش. وكان البريطانيون، في وقت سابق، قد وعدوا عبد الله بعرش العراق. ومع وصول عبد الله الى عمّان (١٩٢١) وتصميمه على مواصلة حملته ضد الفرنسيين، خشي البريطانيون من تعطيل تنفيذ إتفاقية «سايكس – بيكو» فعرضوا على عبد الله إمارة شرق الاردن، مع مساعدة مالية، مقابل تعهده بايقاف حملته، ومنع الغارات ضد الفرنسيين، وتأييده للانتداب البريطاني في فلسطين. فوافق عبد الله وقامت دولة الاردن.

ولمساعدة الامير عبد الله في مهمته (إذ كان عليه ان يفرض سلطته على منطقة لم يكن يعرفها)، عهدت الحكومة البريطانية لضابط بريطاني، هو الكولونيل فريديريك بيك، بمهمة تأليف قوة كافية لفرض سلطة الدولة. ثم شكلت في العام ١٩٣٠ شرطة البادية وكلف الضابط البريطاني باغوت غلوب أمر قيادتها. ونجحت إمارة شرق الاردن في القضاء على تمرد سلطان باشا العدوان (١٩٢٢)، وردت الغزوة الوهابية التي وصلت الى مسافة أميال من عمان (١٩٢٤)، وقضت، في بداية الثلاثينات، على الغارات القبلية.

بقي شرق الاردن اكثر من عقدين من الزمن تحت الانتداب البريطاني، وكان المقيم البريطاني، السير هنري كوكس، يميل الى التصرف بطريقة دكتاتورية ومتعجرفة مع الاردنيين. ولم تتغير هذه الطريقة إلا في آب ١٩٣٩، عندما شكل ابو الهدى اول وزارة اردنية، وحلّ ألك كيركبرايد محل كوكس. وكانت المعونة المالية البريطانية تذهب للجيش الاردني، فيما لا يصرف الا النزر اليسير على الانماء الاقتصادي، خاصة على اثر نشوب الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦)، إذ قرّرت بريطانيا زيادة عدد افراد الجيش الاردني، وبشكل خاص قوات البادية لمواجهة احتمالات امتداد الثورة.

في الحرب العالمية الثانية، قدّم الامير عبد الله الدعم الكامل لبريطانيا، وخاض جيشه الحرب ضد حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق، وضد حكومة فيشي في سوريا. وبعد انتهاء الحرب،

توجه الأمير عبد الله ورئيس الوزراء ابراهيم باشا هاشم، الى لندن للتفاوض حول الاستقلال. وفي ٢٢ آذار ١٩٤٦، تم توقيع معاهدة تنص على استقلال شرق الاردن مع ترتيبات للتشاور المتبادل والدفاع المشترك مع بريطانيا. واعلن الاردن مملكة مستقلة، ملكها عبد الله بن الحسين، في ١٥ ايار ١٩٤٦ .

وبعد الحرب العربية – الاسرائيلية الاولى (١٩٤٨)، اجتمع بعض أعيان الضفة الغربية في أريحا (١٩٤٩)، واتخذوا قراراً يدعو شرق الاردن الى ضم منطقتهم اليه، وسميّ البلد «المملكة الاردنية الهاشمية». وأدّى هذا الى احداث تغييرات عميقة في المجتمع الاردني بسبب الاراضي والخبرات التي كسبها: اداريون، معلمون، اطباء، عمال، اصحاب مهن، أصحاب رؤوس اموال...

بعد اغتيال الملك عبد الله (١٩٥١)، خلفه ابنه طلال الذي لم يملك الا سنة واحدة، ثم خلع وخلفه ابنه حسين، ملك الاردن الحالي. والملك حسين، قد مضى عليه وهو في الملك (حتى اليوم – اواسط ١٩٩٣) نحو ٤٢ عاماً، وهي أطول مدة قضاها ملك أو رئيس دولة عربي.

الحربان: ٦٧ و ٧٣

عرفت الخمسينات موجة من المد القومي، ومن المظاهرات الشعبية والاضرابات في الاردن. وقد توجهت هذه الحركة اساساً ضد حلف بغداد، وضد وجود غلوب باشا وبعض الضباط البريطانيين على رأس الجيش الاردني. وتحت الضغط الشعبي، جرت انتخابات عامة اسفرت عن تشكيل حكومة برئاسة سليمان النابلسي. وقد ألغت هذه الحكومة معاهدة ١٩٤٨ مع بريطانيا. الا انه سرعان ما نشأ بين هذه الحكومة (والى جانبها بعض الضباط) وبين الملك صراع انتهى، في العام ١٩٥٧، لمصلحة الملك. وبعد قيام الوحدة السورية – المصرية (١٩٥٨)، دخل الاردن في «الاتحاد العربي» مع العراق. إلا ان ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ اطاحت الملكية الهاشمية في العراق، ووضعت حداً لاتحاد البلدين. ولمنع امتداد الثورة الى الاردن، طلب الملك حسين التدخل العسكري البريطاني، فنقلت قوات بريطانية جواً الى عمان في الوقت نفسه الذي نزلت فيه قوات الاسطول السادس الاميركي في لبنان.

وسادت البلاد فترة من الهدوء، ودخلت مرحلة الانماء حتى كانت حرب حزيران ١٩٦٧ التي اسفرت عن استيلاء اسرائيل على الضفة الغربية، ولجوء ما يزيد على ٤٠٠ ألف فلسطيني الى شرق الاردن. وافضت هذه الاحداث الى فترة جديدة من عدم الاستقرار السياسي، خاصة مع بروز المقاومة الفلسطينية التي باتت تهدد مصير العرش الهاشمي. الا ان الملك حسين بادر (١٩٧٠) الى تشكيل حكومة عسكرية تمكنت من ضرب المقاومة واخراجها من الاردن. وفي ١٩٧٢، حاول الملك حسين، عن طريق المشروع الذي طرحه لاقامة «مملكة عربية متحدة» (شرق الاردن والضفة الغربية)، ان يعيد تأكيد مطالبته بوضع الضفة الغربية تحت سيادته لدى تحقيق الانسحاب الاسرائيلي. وراحت منظمة التحرير الفلسطينية تطرح من جهتها حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني وأقامة الدولة المستقلة. وتبنت الدول العربية هذا المطلب في قمة الرباط (١٩٧٤)، وكذلك الجمعية العامة للامم المتحدة.

وعند اندلاع حرب تشرين الاول ١٩٧٣، شارك الاردن، بقوات رمزية، الى جانب سورية. وبعد انتهاء الحرب، تحفظ على مبادرة الرئيس انور السادات (التي بدأت بزيارته الى القدس)، وعارض اتفاقيات كامب دافيد، وشارك في قمة بغداد (١٩٧٨). وقبل ذلك، كان رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، ياسر عرفات، قام بزيارة للاردن، هي الأولى منذ هزيمة المقاومة الفلسطينية

وخروجها من الاردن العام ١٩٧٠، وشكلت هذه الزيارة بداية الحوار بين الاردن والمنظمة.

وفي ٢٥ – ٢٧ تشرين الثاني ١٩٨٠، عقدت في عمّان القمة الحادية عشر للملوك والرؤساء العرب، غابت عنها سورية، الجزائر، ليبيا واليمن الجنوبية التي كانت تشكل «جبهة الصمود والتصدي».
وفي حرب الخليج الأولى (العراق – ايران)، كان الاردن اكثر البلدان العربية تأييداً للعراق.

في الثمانينات

في ربيع ١٩٨٢، دعا الاردن الى مصالحة عربية مع مصر (بعد اغتيال السادات وتسلّم الرئيس حسني مبارك)، واعاد هو علاقاته معها في ٢٥ ايلول ١٩٨٤ (كانت هذه العلاقات قطعت في آذار ١٩٧٩، تاريخ توقيع معاهدة السلام المصرية – الاسرائيلية)، اعقبها تبادل زيارات بين العاهل الاردني والرئيس المصري حسني مبارك وسط ترحيب عراقي ومعارضة سورية شديدة وتّرت العلاقات بين الاردن وسورية.

وإثر غزو إسرائيل للبنان، عقدت قمة عربية (صيف ١٩٨٢) في فاس المغرب، خرجت بمقررات دعيت «مشروع السلام العربي» الذي التقى بكثير من خطوطه مع مبادرة للسلام في الشرق الاوسط كان طرحها الرئيس الاميركي، رونالد ريغان، وتشكلت لجنة عربية سباعية برئاسة الملك حسين ضمت الى الاردن، سورية، منظمة التحرير الفلسطينية، العربية السعودية، الجزائر، تونس، المغرب وامين عام جامعة الدول العربية، طافت على عواصم الدول (خاصة الكبرى) لشرح مشروع السلام العربي والطلب من هذه الدول تأييده.

وجرت مفاوضات اردنية – فلسطينية على اساس مشروع السلام العربي ومبادرة ريغان. وفي نيسان ١٩٨٣، أعلن عن فشلها، خصوصاً في بيان للحكومة الاردنية. وفور صدور هذا البيان، حمل الرئيس الاميركي، ريغان، «العناصر المتطرفة» في منظمة التحرير الفلسطينية مسؤولية هذا الفشل، معتبراً ان مقترحات هؤلاء «غير مقبولة لدى الملك حسين ولدى الملك فهد (العربية السعودية) ولدي شخصياً».
وقد سارع وزير الخارجية الاسرائيلي، اسحق شامير، في اليوم التالي، الى الاعلان عن «فشل مبادرة ريغان» وان سياسة الولايات المتحدة – في الشرق الاوسط – منيت مرة اخرى بفشل ذريع وثبت خطأها.
وتلا فشل الاتفاق الاردني – الفلسطيني كذلك، تأجيل البحث، على الصعيد العربي، في عقد قمة عربية طارئة، في حين أعطى السوفيات زخماً جديداً لدبلوماسيتهم في الشرق الاوسط.

اما مبادرة ريغان للسلام في الشرق الاوسط التي قدمها فور الانتهاء من جلاء القوات الفلسطينية من بيروت (ايلول ١٩٨٢)، فقد تركزت على: ضمان امن اسرائيل، دعوة الشعب الفلسطيني والدول العربية للاعتراف بها، حكم ذاتي كامل (فترة انتقالية) للفلسطينيين في الضفة وغزة، دعوة الاردن بدء التفاوض مع اسرائيل في مسألة الحدود بينهما، وضع القدس يتقرر بالتفاوض...

واما الجزء الخاص بالقضية الفلسطينية من مشروع السلام العربي (قمة فاس، ايلول ١٩٨٢) فقد تضمن النقاط الثماني الآتية: «١ – انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي العربية التي احتلتها في العام ١٩٦٧ بما فيها القدس العربية؛ ٢ – ازالة المستعمرات التي اقامتها اسرائيل في الاراضي العربية بعد العام ١٩٦٧؛ ٣ – ضمان حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية لجميع الاديان في الاماكن المقدسة؛ ٤ – تأكيد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وممارسة حقوقه الوطنية الثابتة غير القابلة للتصرف بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ممثله الشرعي الوحيد وتعويض من لا يرغب في

العودة؛ ٥ – اخضاع الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة انتقال تحت اشراف الامم المتحدة ولمدة لا تزيد عن بضعة اشهر؛ ٦ – قيام الدولة الفلسطينية المستقلة بعاصمتها القدس؛ ٧ – يضع مجلس الامن الدولي ضمانات سلام بين جميع دول المنطقة بما فيها الدولة الفلسطينية المستقلة؛ ٨ – يتولى مجلس الامن الدولي ضمان تنفيذ تلك المبادئ».

تميز العام ١٩٨٤، على الصعيد الخارجي، باجتماع قمة اميركية – اردنية – مصرية (في واشنطن) لم تسفر عن نتائج مهمة، انتقل بعدها الملك حسين الى الحديث تكراراً عن فقدانه كل أمل في السياسة الاميركية، واستبعاده المفاوضات مع اسرائيل، واستعداده لشراء اسلحة من الاتحاد السوفياتي، وتمسكه بفكرة المؤتمر الدولي... وعربياً، بقطع علاقات الاردن مع ليبيا، وتحسن علاقاته مع منظمة التحرير الفلسطينية، وبوادر تحسن مع سورية بعد تدهور بدأ في ١٩٨٠. كما تميز هذا العام (١٩٨٤) على الصعيد الداخلي باجراء انتخابات (المرة الاولى بعد ١٧ عاماً) لشغل ٨ مقاعد شاغرة في مجلس النواب. وقد اقترعت المرأة الاردنية في هذه الانتخابات للمرة الاولى، وكانت اعطيت هذا الحق في العام ١٩٧٤. وفي ١٥ ايار ١٩٨٤، أعلن رئيس الوزراء، احمد عبيدات، عن ضبط تنظيم موال لايران، واكتشاف اسلحة ومتفجرات لمنشقين فلسطينيين، واتهم سورية وليبيا بتشجيع محاولة إثارة اضطرابات في الاردن. وفي ١٣ تموز ١٩٨٤، جرى اتفاق مع العراق لإقامة خط انابيب نفطية من الحديثة (في العراق) الى العقبة (في الاردن) تنقل ٥٠٠ ألف برميل يومياً، ثم مليون برميل. لكن بعد مدة وجيزة، عاد العراق عن هذا الاتفاق.

في شباط ١٩٨٥، وُقع اتفاق ثانٍ مع منظمة التحرير الفلسطينية. لكن العلاقات ما لبثت ان عادت الى التردي في ١٩٨٦ حيث اقفلت الحكومة الاردنية ٢٦ مكتباً لمنظمة التحرير الفلسطينية، وردّت هذه المنظمة في ١٩٨٧ بإبطال إتفاق شباط ١٩٨٥. وفي تشرين الثاني ١٩٨٧، قمة عربية استثنائية في عمان. وفي ١٩٨٨، اعلن الملك حسين قطع كل الروابط الشرعية والادارية مع الضفة الغربية (تعويض بمبلغ ٣٠ مليون دولار لنحو ٢٤ ألف موظف، اضافة الى مساعدات توظف في مشاريع إنمائية...).

وفي كانون الثاني ١٩٨٩، دشّن الملك حسين والرئيس عرفات سفارة فلسطين في الاردن. وتميز هذا العام باضطرابات شعبية احتجاجاً على غلاء المعيشة، وفوز ليلى شرف، اول امرأة، بعضوية مجلس الاعيان (كانت وزيرة للاعلام واستقالت منها في ١٩٨٤).

السنوات الاخيرة ١٩٩٠ – تموز ١٩٩٣

١٩٩٠ – ٩١: حدثان بارزان لهما مدلولهما وأثرهما على الساحة الاردنية: انتخاب عبد اللطيف عربيات (عضو الاخوان المسلمين) نائباً في البرلمان، واندلاع حرب الخليج الثانية التي أدت الى عودة ٢٥٠ ألف اردني من الكويت (كانون الثاني ١٩٩١).

١٩٩٢: شهد الاردن قضية لا سابقة لها فيه. ففي ٢٧ آب اعلنت السلطات اعتقال عشرة اشخاص من جماعة «شباب النفير الاسلامي» بينهم النائب الاسلامي يعقوب قرش بتهمة حيازة اسلحة ومتفجرات وتلقي اموال من الخارج للقيام بعمليات تخريب. وبعد أربعة ايام اعتقل نائب اسلامي آخر هو ليث الشبيلات بتهمة تزويد هذه الجماعة الاسلامية المحظورة اسلحة ومتفجرات. وفي ٢٣ ايلول وجهت محكمة امن الدولة الى النائبين ورفاقهما تهمة «محاولة قلب نظام الحكم

بالثورة والتخريب» وقالت إن للمجموعة علاقات بايران و «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة»؛ ثم قضت بسجنهما ٢٠ سنة بعدما دانتهما بالتآمر لاطاحة الملك.

واثارت الاعتقالات موجة كبيرة من الاحتجاجات وطالب النواب الاسلاميون في البرلمان باطلاق زميليهما ووجهوا نداء الى الملك في هذا الشأن. واخرج الملك، الذي يدرك تماماً خطورة هذه المسألة، الاردن من مأزق كاد يقع فيه، فأصدر في عيد ميلاده السابع والخمسين، في ١٤ تشرين الثاني عفواً عاماً شمل الشبيلات وقرش اللذين أطلقا في اليوم التالي.

١٩٩٣ (حتى تموز): دولياً، وخصوصاً في العلاقات مع الولايات المتحدة، استمر الاردن يلعب دوراً نشطاً لانجاح مفاوضات السلام العربية – الاسرائيلية التي بدأت في مدريد (اواخر ١٩٩١) ووصلت الى جولتها العاشرة في حزيران ١٩٩٣. ففي زيارة قام بها الملك حسين للولايات المتحدة (١٨ حزيران ١٩٩٣)، أُعلن عن التزام الزعيمين، الملك حسين والرئيس الاميركي بيل كلينتون، «العمل لتحقيق تقدم ملموس في عملية السلام الخاصة بالشرق الاوسط».

عربياً، بدت واضحة الضغوطات السياسية والاقتصادية الشديدة التي تعرض لها الاردن منذ حرب الخليج وبسبب موقفه الداعم للعراق فيها. ومؤشر هذه الضغوطات الاساسي عدم حدوث اي تحسن يذكر على صعيد علاقات الاردن مع الدول الخليجية، ما حدا بالمسؤولين الاردنيين الى التحرك والتحذير، سواء باتجاه العرب أو الغرب (الولايات المتحدة خصوصاً)، من مغبة تفاقم الازمة الاقتصادية في البلاد واستمرار القطيعة الخليجية لها وغياب اي تقدم ملموس على صعيد العملية السلمية، ما سيؤدي الى وضع خطير يصعب معه الحفاظ على التجربة الديمقراطية وعلى خط الاعتدال السياسي اللذين يمثلهما الاردن.

وقد فسّر كثيرون انتقادات الملك حسين للقيادة العراقية على انها محاولات للتفلت من هذه الضغوطات الدولية والخليجية. ومما قاله الملك حسين: «النظام العراقي اوصلنا بممارساته الى وضع قصم ظهرنا... انا لا استطيع ان استمر في تأييد هذه السياسة وهذه القيادة» (٢٣ ايار ١٩٩٣). وكانت السياسة الاردنية، خصوصاً في توجهها للادارة الاميركية، تشدّد، في الوقت نفسه، على خطورة تكريس تقسيم العراق ثلاث مناطق، شمال ووسط وجنوب.

وعلى صعيد العلاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية، فإن ما قالته مصادر اردنية وفلسطينية رسمية، عقب اجتماع الملك حسين بالرئيس الفلسطيني ياسر عرفات في عمان (٨ حزيران ١٩٩٣) يلقي ضوءاً على آخر ما آلت اليه هذه العلاقات، خصوصاً في اطار مفاوضات السلام العربية – الاسرائيلية: «تركز اهتمام الرئيس الفلسطيني على التحرك الدبلوماسي الاردني المرتقب (..) وكان رئيس الوزراء الاردني عبد السلام المجالي اعرب عن الحاجة الى مزيد من التنسيق الفلسطيني مع الاردن لأن التنسيق الحالي ليس بالمستوى المطلوب (..) اعرب الجانب الفلسطيني عن الحاجة الى اطلاعه على آخر تطورات الاتفاق الاردني – الاسرائيلي على جدول أعمال المفاوضات (..) وتأتي المحادثات الاردنية – الفلسطينية بعد تصريحات ادلى بها وزير الخارجية الاسرائيلي شيمون بيريز تفيد بأنه لم يعد هناك سوى التوقيع على معاهدة سلام بين الطرفين...» («الحياة»، ٩ حزيران ١٩٩٣، ص ٥). ومن جهة أخرى، بدأت وسائل الاعلام (اواخر حزيران ١٩٩٣) تتحدث عن بدء السلطات الامنية الاردنية تحضيرات لتدريب مجموعات من الفلسطينيين للعمل مستقبلاً في مجال الحفاظ على الامن (شرطة) في الاراضي العربية المحتلة في اطار ترتيبات الحكومة الذاتية الانتقالية المتوقع ان تتمخض عنها مفاوضات السلام.
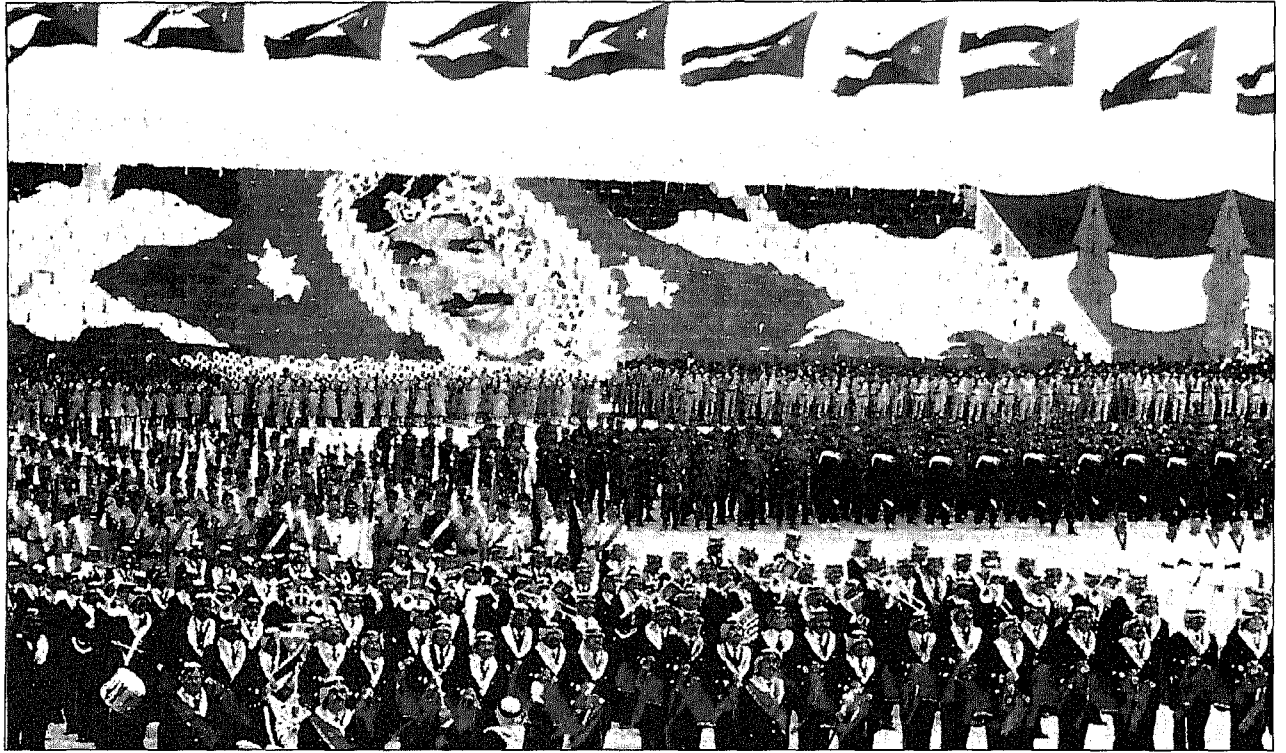
من احتفالات الذكرى الاربعين (ايار ١٩٩٣) لجلوس الملك حسين على العرش

رئيس الوزراء (١٩٩٣) عبد السلام المجالي

الملك حسين

وعلى صعيد هذه العلاقات ايضاً، فإن فكرة كونفيديرالية اردنية – فلسطينية شهدت تحولاً مهماً (منذ تموز ١٩٩٣). فبعدما كان الملك حسين يصفها ب «ورقة ميتة» قبل التوصل الى حل يحدد الوضع النهائي للاراضي المحتلة والمواطنين الفلسطينيين الذين يعيشون فيها، اعلن (١٢ تموز ١٩٩٣) وزير الاعلام الاردني رئيس الجانب الاردني في اجتماع اللجنة الاردنية – الفلسطينية المشتركة بأنه «استرشاداً بما تم الاتفاق عليه بين جلالة الملك حسين وفخامة الرئيس ياسر عرفات، فقد اتفق الجانبان على تشكيل ست لجان فرعية متخصصة للبحث في الموضوعات المشتركة فيها وتحديد المواقف التفاوضية تجاه تلك الموضوعات، وهي لجان القدس، واللاجئين والنازحين، والامن والحدود، والقضايا الاقتصادية، والمياه، ولجان التشريعات والقوانين»؛ هذا اضافة الى تصريحه بأن الجانبين «اتفقا على تشكيل غرفة عمليات مشتركة ودائمة بهدف التوصل الدائم وتبادل المعلومات والوثائق حول القضايا الجارية والمستجدة ذات الطبيعة العاجلة».

والجدير ذكره ان هذا التحول باتجاه التماسك الاردني – الفلسطيني جاء بعد نحو اسبوع من اجتماع الملك حسين بالرئيس عرفات، وعشية الجولة التي بدأها منسق شؤون المفاوضات في الخارجية الاميركية، دنيس روس، في الشرق الاوسط، والمتزامنة مع تزايد الضغوط الاميركية على منظمة التحرير الفلسطينية للموافقة على مسودة وثيقة اميركية تسعى الى ردم الهوة بين الجانبين الاسرائيلي والفلسطيني. وبدأ الجانب الاسرائيلي، بعد مغادرة روس المنطقة، يطرح ايضاً مسألة الكونفيدرالية بين الاردن والفلسطينيين؛ ومما قاله بهذا الصدد وزير الخارجية الاسرائيلي: «إذا كان الفلسطينيون يعرفون منذ اليوم ان الحل الدائم يندرج في اطار الكونفيديرالية، سيكون في امكاننا التغلب على المشكلات الحالية». وإزاء هذا الطرح الاسرائيلي، بدا غالباً لدى الفلسطينيين الرأي القائل إن الكونفيدرالية يمكن ان تكون تنفيذاً للقرار ٢٤٢ «هو مجرد تهرب من تنفيذ القرار لأن القرار لا ينص على الكونفدرالية ولا يشير الى العلاقة الفلسطينية – الاردنية بل يتحدث عن انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي العربية المحتلة. وكل ما يجري الآن هو لتمرير التهرب الاميركي – الاسرائيلي من القرار ٢٤٢ واسقاطه كأساس للتسوية السلمية في المنطقة». لكن الرئيس الفلسطيني، عرفات، بدا متمسكاً بما اسماه «خيار منظمة التحرير لاقامة كونفيدرالية اردنية – فلسطينية (...) وهذا امر نابع من قرار المجلس الوطني الفلسطيني».

داخلياً: طغت على الأجواء مسألة مفاوضات السلام العربية – الاسرائيلية في وجهتيها، المتعددة الاطراف والثنائية. وفي وجهها الثنائي الاردني – الاسرائيلي، جرى الكلام، خصوصاً في حزيران ١٩٩٣ وفي اجواء التحضير لاستئناف المفاوضات المتعددة في جولتها العاشرة، وعلى لسان وزير الخارجية الاردني، عن قرب التوصل الى اتفاق سلام مع اسرائيل.

كما طغت، داخلياً ايضاً، اجواء التحضير لانتخابات نيابية مقررة في تشرين الثاني ١٩٩٣، حيث استمر الملك حسين حريصاً على ان تأتي هذه الانتخابات ديمقراطية ودستورية. وفي ٢٨ ايار ١٩٩٣، قبل الملك استقالة حكومة الشريف زيد بن شاكر وكلف الدكتور عبد السلام المجالي تأليف الحكومة الاردنية التي اعتبرت بأنها الحكومة المكلفة الاشراف على الانتخابات النيابية. وكان المجالي رئيساً للوفد الاردني في المفاوضات الثنائية مع اسرائيل. والمهمة الاساسية التي واجهت حكومة المجالي منذ يومها الأول هي تعديل قانون الانتخابات الذي كانت المعارضة (خصوصاً الاسلامية) تطالب به. وقد قبلت الحكومة هذا التحدي وإجراء التعديل بسبب شعورها (والملك والنظام) بأنها مستوعبة للوضع العام في البلاد بما فيه الوضع الشعبي، وارتياحها لنتائج الانتخابات.

والبرلمان الجديد الذي سينبثق من هذه الانتخابات هو البرلمان الثاني عشر، والأول على قاعدة التعددية الحزبية والسياسية منذ منتصف الخمسينات.

كونفيدرالية أردنية – فلسطينية

إضافة الى ما مرّ حول اتفاق الملك حسين والرئيس ياسر عرفات على مشروع انشاء إتحاد كونفيدرالي بين الاردن وكيان فلسطيني يقام مستقبلاً في الاراضي المحتلة، وتشكيل ست لجان فرعية متخصصة للبحث في مختلف اوجه العلاقة الاردنية – الفلسطينية، وتحديد المواقف التفاوضية تجاه الموضوعات المشتركة، وهي لجان القدس، واللاجئين والنازحين، والأمن والحدود، والقضايا الاقتصادية، والمياه، والتشريعات والقوانين، إضافة الى ذلك يتعين النظر في مقدمات هذا المشروع التي تعود الى «مشروع المملكة العربية المتحدة» (١٥ آذار ١٩٧٢).

ففي ذاك اليوم، أعلن الملك حسين، في خطاب ألقاه في مؤتمر عقد في قصر بسمان بحضور ٥٠٠ شخص يمثلون أهالي ضفتي الاردن. وتضمّن الخطاب المرتكزات الاساسية للصيغة الجديدة المقترحة، وهي:

«اولاً – تصبح المملكة الاردنية الهاشمية مملكة عربية متحدة، وتسمى بهذا الاسم.

ثانياً – تتكون المملكة العربية المتحدة من قطرين هما: أ) قطر فلسطين، ويتكون من الضفة الغربية، واية اراضي اخرى يتم تحريرها، يرغب أهلها في الانضمام اليها؛ ب) قطر الاردن، ويتكون من الضفة الشرقية.

ثالثاً – تكون عمان العاصمة المركزية للمملكة، وفي الوقت نفسه تكون عاصمة قطر الاردن.

رابعاً – تكون القدس عاصمة لقطر فلسطين.

خامساً – رئيس الدولة هو الملك حسين، ويتولى السلطة التنفيذية المركزية ومعه مجلس وزراء مركزي. اما السلطة التشريعية المركزية فتناط بالملك وبمجلس يعرف بمجلس الامة. ويجري انتخاب اعضاء هذا المجلس بطريق الاقتراع السري المباشر، وبعدد متساو من الاعضاء لكل من القطرين.

سادساً – تكون السلطة القضائية منوطة بمحكمة عليا مركزية.

سابعاً – للمملكة قوات مسلحة واحدة قائدها الأعلى الملك.

ثامناً – تنحصر مسؤوليات السلطة التنفيذية المركزية في الشؤون ذات العلاقة بالمملكة كشخصية دولية واحدة، بما يكفل سلامة المملكة واستقرارها وازدهارها.

تاسعاً – يتولى السلطة التنفيذية في كل قطر حاكم عام من ابنائه ومجلس وزراء قطري ومن ابنائه ايضاً.

عاشراً – يتولى السلطة التشريعية في كل قطر مجلس يعرف باسم مجلس الشعب يتم انتخابه بطرق الاقتراع السري المباشر. وهذا المجلس هو الذي ينتخب الحاكم العام للقطر.

حادي عشر – السلطة القضائية في القطر لمحاكم القطر، ولا سلطان لأحد عليها.

ثاني عشر – تتولى السلطة التنفيذية في كل قطر جميع شؤون القطر باستثناء ما يحدده الدستور للسلطة التنفيذية المركزية».

اتى هذا المشروع بعد حوادث ايلول ١٩٧٠ بين الجيش الاردني والفصائل الفلسطينية التي كانت تعمل بكثافة في الاردن لكثافة الوجود الفلسطيني في هذا البلد، الأمر الذي يبرر طرح مشاريع

الملك حسين (الى اليسار) والرئيس الفلسطيني ياسر عرفات

عناصر الشرطة الفلسطينية تستمع الى محاضرة في اطار تدريبات تتلقاها في كلية الشرطة في عمان

سياسية تطال الجانبين، اضافة الى ما كان يكثر الاميركيون من ترداده، في ذلك الوقت، من ان تحقيق السلام في الشرق الاوسط لا يتم الا برضاء الفلسطينيين. ما يدفع الى الاعتقاد بضرورة قيام صيغة فلسطينية تكون طرفاً في التسوية المرتقبة وتؤمن وطناً للشعب الفلسطيني. وقد وصفت الدوائر الاميركية مشروع الملك حسين بأنه «خطوة جريئة نحو السلام... وان الفلسطينيين بفضل مكانتهم في المملكة العربية المتحدة قد يحصلون على صوت قوي في مفاوضات السلام التي لا ترى اسرائيل انها ممكنة إلا مع عمان فحسب».

اما منظمة التحرير الفلسطينية فقد رفضت هذا المشروع لكونه يلهي الشعب الفلسطيني عن نضاله ويحوّل انظاره الى شكل علاقات دستورية لا صلة لها بالمرحلة النضالية، ويثبت الملك كمتحدث رسمي باسم الشعب الفلسطيني، إضافة الى أسباب أخرى قدمتها المنظمة ولها علاقة بتطورات تلك المرحلة وظروفها. كذلك رفضت معظم الدول العربية هذا المشروع.

وقف مشروع «المملكة العربية المتحدة» عند هذا الحد طرحاً وتفاعلاً، دولياً وعربياً وفلسطينياً، وما لبث ان غاب عن مسرح الاحداث بعد ايام من طرحه في خطاب العاهل الاردني. حتى كان يوم ١١ شباط ١٩٨٥ حيث اعاد اتفاق عمان بين الاردنيين والفلسطينيين التذكير به فقط في بعض التعليقات والتحليلات من دون ان يكون له أي تأثير فعلي مباشر في هذا الاتفاق، الا اللهم ما يمكن اعتباره تأثيراً بعيداً وغير مباشر عندما أتى اتفاق عمان على ذكر «الكونفيدرالية» في معرض تركيزه على نقطتين اساسيتين:

١ – القبول الفلسطيني بمعادلة الملك حسين «الارض مقابل السلام» التي اطلقها في ٢ كانون الاول ١٩٨٤ في خطاب القاه في مجلس الشعب المصري.

٢ – الشراكة الفلسطينية مع الاردن في التسوية.

وفي مسار هذه العلاقة – الشراكة بين الاردنيين والفلسطينيين لا بد من لفت النظر الى محطة مهمة تمثلت باعلان الملك حسين (٣١ تموز ١٩٨٨) فك العلاقة القانونية والادارية بين الضفتين تمشياً مع رغبة منظمة التحرير الفلسطينية والتوجه العربي العام المنسجم مع هذه الرغبة. ولم يلغ هذا الاعلان إصدار جوازات السفر للفلسطينيين وشهادات زواج وولادة ووفاة، وإدارة المحاكم الشرعية والاماكن الدينية، والاشراف على امتحانات المدارس، والاستمرار في التعامل بالعملة الاردنية كعملة رئيسية في الاراضي المحتلة.

الوفدان الاردني والفلسطيني معاً في مؤتمر مدريد

مشروع كونفيدرالية تموز ١٩٩٣: في دراسة أعدها الدكتور ابراهيم هاشم ونشرت في جريدة «نداء الوطن» (آب ١٩٩٣) جاء: «لا بد من القول إن مشروع الكونفدرالية، على قدمه، قد يكون اتى في وقت مناسب. عنينا بذلك المفاوضات الجارية بين العرب واسرائيل من خلال مبادئ مؤتمر مدريد لاحلال السلام في الشرق الاوسط. فلا غرابة، والحالة هذه، ان نجد في الاتفاق الاخير (الاردني – الفلسطيني، تموز ١٩٩٣) محاولة لضبط المسارين التفاوضيين الاردني – الاسرائيلي، والفلسطيني الاسرائيلي، من ضمن خطة مدروسة لمواجهة تعقيدات هذه المفاوضات، ولتقديم مظهر سياسي مرتب ومنظم للادارة الاميركية التي قد تجد من المفيد استئناف الحوار مع منظمة التحرير او دخول هذه المنظمة الى المفاوضات بصورة كاملة ونهائية. وما اعلنه مستشار الرئيس عرفات، نبيل شعث، لوكالة أنباء الشرق الاوسط المصرية الرسمية في ٩ آب ١٩٩٣، من ان اسرائيل على وشك الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وبدء المفاوضات المباشرة معها حول الاراضي الفلسطينية وسلطة الحكم الذاتي إلا تفسير لما سبق. ونورد في هذا السياق ما قاله نائب وزير الخارجية الاسرائيلي، يوسي بيلين، بعد ورود انباء عن نوايا الثلاثي الفلسطيني المفاوض (الحسيني وعشراوي وعريقات) في تقديم استقالاتهم، قال بيلين إنه" تبين ان منظمة التحرير الفلسطينية في تونس اكثر اعتدالاً من منظمة التحرير الفلسطينية هنا». وهذه اشارة مهمة الى مستقبل المفاوضات التي قد تكون منظمة التحرير شريكاً كامل الشراكة في العملية التفاوضية التي تقتضي الآن اللعب بورقة الكونفيدرالية باعتبارها الورقة الوحيدة المتاحة، باعتبار ان الخيار الاردني يشكل، والحالة هذه، قاسماً مشتركاً بين الفلسطينيين والاسرائيليين يتيح اخراج المفاوضات الفلسطينية – الاسرائيلية من المأزق الذي وصلت اليه. فلا غرابة، إذن، ان يعلن وزير خارجية اسرائيل، شيمون بيريز، في ٣ آب ١٩٩٣، ان خيار الكونفيدرالية بين الاردن وكيان فلسطيني ستكون «الحل المفضل وستكون فوراً على رأس جدول الاعمال» باعتبار «الكونفيدرالية هي الحل الأمثل بالنسبة الى السلام المستقبلي ولاستقرار الشرق الاوسط من وجهة النظر الاسرائيلية». وليس مستغرباً ان ادارة الرئيس الاميركي السابق جورج بوش قد قالت في رسائل الضمانات إن الحل النهائي هو الكونفيدرالية.

وقد يكون الطرح الاردني (الكونفيدرالية) قد تزامن مع تبني العاهل الاردني النهج الديمقراطي في الاردن كنوع من ضمانات يقدمها للفلسطينيين بغية اقناعهم بأن الكونفيدرالية مع الاردن لا تشكل خطراً عليهم. ذلك ان الديمقراطية وتحديث نظامه السياسي هما الضمانة لهم لتحقيق طموحاتهم. وهذا بالفعل ما جرى على خط المشروع الكونفيدرالي المعبّر عنه بالمعادلة الآتية التي تستجيب لمتطلبات المرحلة الراهنة: تحديث النظام السياسي في الاردن = تحديث النظام السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية.

لقد اثبتت الاحداث ان الملك حسين مهندس بارع، بقي منتظراً منذ اوائل السبعينات (مشروع المملكة العربية المتحدة، ١٩٧٢)، الرد الفلسطيني الايجابي على مشروع الكونفيدرالية الذي انضجه الزمن، ذلك العامل الحاسم والضروري دائماً لانضاج المشاريع السياسية التي تخبو تارة وتعود للظهور تارة اخرى. وبذلك لا يكون هذا المشروع قد شذّ عن منطق التاريخ والجغرافيا، بل هو مولود شرعي لهذا المنطق دون ان نعلم بالتفصيل شكل هذه الكونفيدرالية التي نرجح ألا تكون كبيرة الشبه بمشروع المملكة العربية المتحدة، بسبب تبدل الظروف الدولية، وتبدل المواقف، ووجود معطيات مغايرة لتلك التي كانت سائدة في ايام الحرب الباردة اقلها المصالح المتبادلة والمتوازنة بين الاردنيين والفلسطينيين. وهذا بالضبط ما عبّر عنه السفير الفلسطيني في عمان، الطيّب عبد الرحيم، لوكالة رويتر، في ٢٢ تموز ١٩٩٣، عندما قال: «آن الأوان كي نبدأ في التخطيط للعلاقة بين شعبينا، إذ لا غنى لفلسطين عن الاردن، ولا غنى للاردن عن فلسطين». وهذا ما يريح الولايات المتحدة

واسرائيل كبديل عن استقلال فلسطين كامل في الاراضي المحتلة.

هذه المصالح المتبادلة والمتوازنة قد تكون هي التي عناها العاهل الاردني في حديثه مع جريدة «الحياة» (٢٨ تموز ١٩٩٣) من خلال ترسيمه لشكل الكونفيدرالية التي اتفق عليها والرئيس عرفات. هذا الشكل المتمثل بحكومة وبرلمان لكل طرف مع حكومة وبرلمان كونفيدراليين مشتركين، مع اصرار الاردن على ان هذه الكونفيدرالية لن تتحقق إلا بعد مرحلة الحلّ النهائي، وفقط اذا تمتع الشعب الفلسطيني بحق تقرير مصيره.

ولن يفوتنا التأكيد على ان هذه الكونفيدرالية التي ستبقى غامضة المعالم والأسس بتعمد من قبل اصحابها لأنه من المبكر ايضاح ذلك وتفصيله بسبب امتداد المرحلة الأولى من الحكم الذاتي خمسة اعوام، فلا داعي، والحال هذه، الى تبيان كل النقاط والأسس ما دامت المحادثات جارية».

الأحزاب والانتخابات

شكل العام ١٩٩٢ عاماً مفصلياً في الحياة السياسية والحزبية في الاردن. ففي الاول من نيسان (١٩٩٢) اعلن الملك إلغاء الاحكام العرفية المفروضة منذ حرب حزيران ١٩٦٧. ثم اقر المجلس (في ٦ تموز) قانوناً جديداً لتنظيم الاحزاب يشرّع الاحزاب السياسية بعد حظر مستمر منذ ١٩٥٧. وفي افتتاح الدورة البرلمانية (كانون الاول ١٩٩٢)، تعهد الملك مواصلة الديمقراطية، ومنح وزير الداخلية الترخيص لحزب التجمع الوطني الاردني، وهو من احزاب الوسط، وكان اول حزب يبت بطلبه ويمنح الترخيص. وفي غضون نحو خمسة اشهر (أول كانون الأول ١٩٩٢ – اواسط نيسان ١٩٩٣)، بلغت الأحزاب المرخص لها ١٧ حزباً، آخرها كان حزب البعث (الجناح الموالي لسورية)، ومنها حزبان إسلاميان: «الحركة العربية الاسلامية الديمقراطية» (دعاء) المؤسس حديثاً، و«جبهة العمل الاسلامي».

توزيع سكان الاردن على المحافظات. ونسبة سكان كل محافظة. وعدد المقاعد المخصصة لكل محافظة. ونسبتها الى اجمالي مقاعد مجلس النواب

المحافظة	عدد السكان ١٩٩١ بالآلاف	عدد السكان في نهاية ١٩٩٣	نسبة سكان المحاظة الى اجمالي السكان (٪)	عدد المقاعد المخصصة لدوائر المحافظات في مجلس النواب	نسبة مقاعد كل محافظة الى اجمالي المقاعد (٪)
عمان	١,٥٧٣	١,٦٩٠	٤٠,٤	٢١	٢٦,٢٥
الزرقاء	٦٠١	٦٤٦	١٥,٦	٦	٧,٥
اربد	٩٥٠	٤,٠٢١	٢٤,٤	١٩	٢٣,٧٥
المفرق	١٥٦	١٦٨	٤,٠	٣	٣,٧٥
البلقاء	٢٣٩	٢٥٧	٦,١	٨	١٠,٠٠
الكرك	١٦٣	١٧٥	٤,٢	٩	١١,٢٥
الطفيلة	٦٢	٦٧	١,٦	٣	٣,٧٥
معان	١٤٤	١٥٥	٣,٧	٥	٦,٢٥
بدو الشمال	–	–	–	٢	٢,٥
بدو الوسط	–	–	–	٢	٢,٥
بدو الجنوب	–	–	–	٢	٢,٥
المجموع	٣,٨٨٨	٤,١٧٩	١٠٠,٠	٨٠	١٠٠,٠٠

* جدول تقديري لعدد السكان في نهاية ١٩٩٣ بالأضافة الى ارقام ١٩٩١ لعدد السكان واحتسابها الى عدد المقاعد كما في الانتخابات الاخيرة. المصدر النشرة الاحصائية السنوية، دوائر الاحصاءات العامة، عمان.

مناقشة: كان من حق هذا التوجه الديمقراطي ان يعطي زخماً للحياة السياسية في الاردن، خصوصاً وان الانتخابات العامة تقرر موعدها بعد اشهر قليلة، ما ترك انطباعاً بأن تلك الانتخابات ستشهد تنافساً ساخناً على مقاعد مجلس النواب في اطار نظام تعددي حقيقي. لكن مراقبين للاوضاع في الاردن لاحظوا ان هذا الانطباع خاطئ، بدليل تشرذم معظم الاحزاب، سواء الايديولوجية اليسارية أو تلك التي تدور في فلك اشخاص، فأضحت كيانات ضحلة وغير فاعلة. من جهة ثانية، يقر هؤلاء المراقبون والدارسون أن ثمة إستثناء يتمثل بحزب «جبهة العمل الاسلامي» التي اصبحت منذ انفصال ١٧ اسلامياً مستقلاً بارزاً في نهاية ١٩٩٢، واجهة لحركة «الاخوان المسلمين». وقد انطلقت الجبهة بالفعل، وبفضل جهود حركة «الاخوان» وإخلاصها على مدى السنين، فأصبحت الحزب السياسي الوحيد في الاردن الذي يتمتع بقاعدة شعبية عريضة حقاً، فارضاً على الحكومة تبنيها سياسات تحاذر دائماً المواجهة معه، وتحاول الاحتواء قدر الامكان. كل ذلك في إطار ظروف ينعدم فيها أي مؤشر لامكانية ظهور حزب ذي قاعدة شعبية عريضة بديل عن «جبهة العمل الاسلامي».

الملك (ونظامه) تمكن من احتواء سلسلة من التحديات الداخلية والخارجية المرتبطة، بمعظمها، بالقضية الفلسطينية وتداعيات ازمة الخليج اضافة الى الازمات الاقتصادية. فحين اندلعت تظاهرات نيسان (١٩٨٩) في معان احتجاجاً على رفع الاسعار تماشياً مع اتفاقات ابرمت مع صندوق النقد الدولي، اختار الملك حسين حلاً سياسياً لمشكلة اقتصادية في اساسها، فقرر إقالة الحكومة واستعجل الخطى لاجراء انتخابات (١٩٨٩)، ومعها بدأت مسيرة تحول ديمقراطي، يقول عديدون ان لولاها لما تمكن نظام الملك من تجاوز تداعيات ازمة الخليج والاحتفاظ بشرعيته امام الشعب.

والذي جاء في مصلحة الملك ايضاً ان نظامه، باشراكه القوى النيابية المنتخبة في الحكم، اظهر افلاسها وعدم قدرتها على طرح برامج وحلول سياسية او اقتصادية بديلة افضل من تلك التي كانت تقدمها حكومات النظام السابقة. فظهرت المعارضة السياسية امام المواطنين، في كثير من المناسبات، كأنها مجموعة من الأشخاص تسعى من اجل السلطة. لكن، في الوقت نفسه، فإن سياسة الاحتواء هذه اظهرت الحكومة كأن لا سياسة واضحة لها حيال أي من القضايا الأساسية. فهي تتألف من مجموعة من الأشخاص الذين لا تربطهم رؤية سياسية موحدة أو أهداف مشتركة يسعون الى تحقيقها، بقدر ما هي تآلف لقوى متناقضة يحاول كل منها الدفع باتجاه السياسات التي تخدم مصالحه.

آخر تطور وتوقع: في آخر تطور ضمن اطار الاحزاب – الانتخابات – المعارضة – السلطة، ما نقله، من عمان، سلامة نعمت، ونشرته «الحياة» (عدد ١١ تموز ١٩٩٣):

«توقعت مصادر اردنية مسؤولة ان تجري الانتخابات النيابية العامة في الاردن في الثلث الاول من شهر تشرين الثاني المقبل بعد صدور مرسوم ملكي اول من امس (٩ تموز) باجراء الانتخابات وفق احكام القانون. وجاء صدور المرسوم وسط حديث عن «صفقة» بين السلطة والحركة الاسلامية تسبق الانتخابات تمتنع بموجبها الحكومة عن تعديل قانون الانتخابات. وستكون هذه اول انتخابات نيابية عامة في الاردن تشارك فيها الاحزاب السياسية في شكل علني منذ حظر الاحزاب السياسية عام ١٩٥٧. وسيتنافس ٢٠ حزباً سياسياً في الانتخابات الى جانب المرشحين المستقلين للفوز بمقاعد مجلس النواب التي يبلغ عددها ٨٠ مقعداً. ومع صدور المرسوم الملكي، تبدأ فعلياً الحملات الانتخابية للمرشحين في الدوائر الانتخابية التي عددها ٢٠ دائرة. وما زال الجدل دائراً في الاوساط

السياسية والبرلمانية حول ما إذا كانت الحكومة ستقدم على تعديل قانون الانتخاب المثير للجدل قبل إجراء الانتخابات، ما ينعكس على فرص الاحزاب ومرشحيها وبالتالي على اسلوب ادارتهم لحملاتهم الانتخابية. وكان الملك حسين تحدث في مناسبات عدة عن الحاجة الى إعادة النظر في قانون الانتخاب لضمان المساواة بين اصوات المواطنين في الدوائر المختلفة استناداً الى احكام الدستور. وركز العاهل الاردني على ضرورة اجراء حوار وطني موسع قبل اجراء اي تعديل على القانون، بمشاركة مختلف القوى السياسية. ومعروف ان الحركة الاسلامية اعلنت معارضتها الشديدة لاجراء تعديلات على القانون قبل عرضه على مجلس النواب في جلسة استثنائية. وتقول الاوساط البرلمانية ان الحركة الاسلامية ترى في أي تعديلات محاولة لتقليص نفوذها وتقليل فرص مرشحيها وقدرتهم على التحالف في الانتخابات المقبلة. ولم تستبعد الاوساط السياسية المطلعة التوصل الى اتفاق بين السلطة والحركة الاسلامية يبقى بموجبه القانون الحالي وتلتزم الحركة تقديم عدد محدود من المرشحين في الانتخابات المقبلة. وترى الاوساط السياسية في هذه «الصفقة» المحتملة مخرجاً لكل من السلطة والحركة الاسلامية يبعدها عن احتمالات المواجهة والصدام. وكان اعضاء في حركة «الاخوان المسلمين» حذروا من ان الحركة قد تقاطع الانتخابات في حال تعديل القانون في شكل لا يتفق مع مصالحها الانتخابية ».

لكن، بعد توقيع اتفاق غزة – أريحا في ١٣ ايلول ١٩٩٣، وفي سياق تشديد الملك حسين على الحزم في مواجهة أي تهديد لوحدة الاردن، بدأ الحديث يتواتر عن احتمال تأجيل الانتخابات. غير ان الملك فاجأ الجميع بتاكيده إجراء الانتخابات في موعدها. وقد جرت بالفعل (تشرين الثاني ١٩٩٣) وأسفرت عن نكسة انتخابية للحركة الاسلامية .
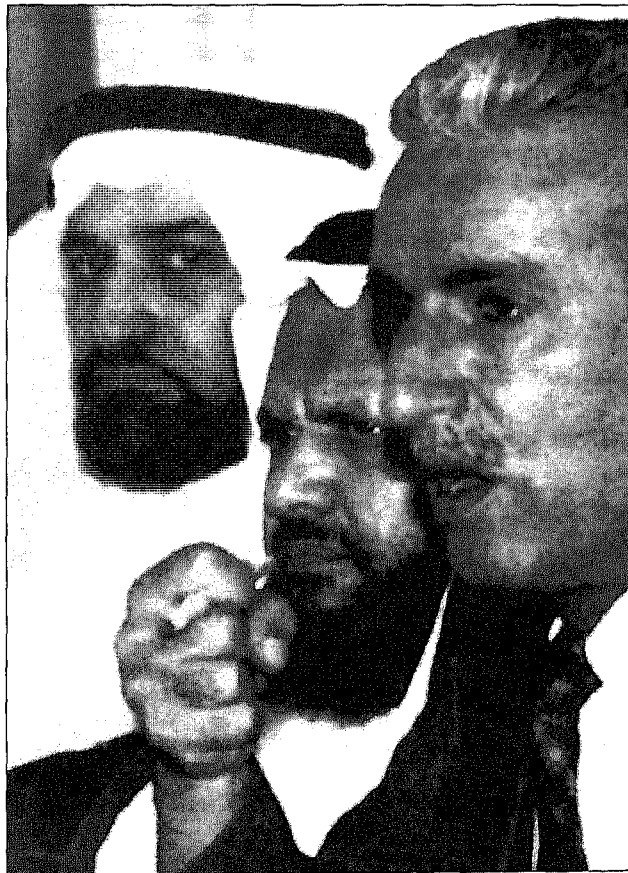
قادة للحركة الاسلامية في الاردن. اسحق الفرحان (فوق) وعبد الله العكايلة (الى يمين الصورة السفلى)

مدن ومعالم

• **أذرُح**: مكان بين معان وسلع، اشتهر بالتحكيم الذي عقد فيه بعد وقعة صفين بين علي ومعاوية العام ٦٥٨. وكان الحكمان أبو موسى الأشعري من قبل علي، وعمرو بن العاص من قبل معاوية. انتهى التحكيم لصالح معاوية.

• **إربد**: هي إربيلا القديمة، إحدى المدن العشر (ديكابوليس)، تقع قرب الحدود السورية. نحو ١٠٠,٠٠٠ نسمة. شهيرة بجودة مناخها وسهولها الخصبة. قاعدة محافظة إربد.

• **الاردن، نهر ومسألة مياه**: (٢٥٢ كلم). يتكون من ثلاثة روافد: الحاصباني (لبنان)، واللدان وبانياس (سورية). يصب في بحيرة طبرية بعد ان يخترق سهل الحولة. تنضم اليه بعد مغادرته البحيرة روافد اليرموك والزرقاء والجالود، وينتهي في البحر الميت. فيه اعتمد السيد المسيح.

ارتبطت، بهذا النهر، مسألة عرفت بـ «تحويل مجرى الاردن»، وذلك بدءاً من ١٩٥٣ (أي بعد سنوات قليلة من قيام دولة إسرائيل في فلسطين). ومحور المسألة مخطط اسرائيلي للاستيلاء على مياه نهر الاردن واستغلالها في ري صحراء النقب وتعميرها لاستيعاب المزيد من المهاجرين اليهود في فلسطين. بدأت اسرائيل في تنفيذ المخطط في العام ١٩٥٣. وأدّت الشكوى السورية في مجلس الامن الى مطالبة اسرائيل بايقاف العمل في قناة التحويل التي تمر عبر المنطقة المجرّدة من السلاح. لكن اسرائيل انتقلت الى مرحلة ثانية وقامت بمد قناة لجر المياه المضخوخة من بحيرة طبريا (١٩٦٠) الى الجنوب. وفي ١٩٦٤ استعمل الاسرائيليون مضخات لرفع المياه من طبريا الى مستوى السهل الساحلي بقصد تخزينها في البطون، ومن ثم جرها الى منطقة النقب، ما حدا بالدول العربية الى التحرك لحماية حقوقها في الثروة المائية. فاستجابت لدعوة الرئيس المصري جمال عبد الناصر، وانعقد مؤتمر القمة العربي الاول (مطلع ١٩٦٤) لوضع خطة للمواجهة تتضمن مشروعاً عربياً مشتركاً لتحويل روافد نهر الاردن (الحاصباني والوزاني ونهر بانياس) واستغلال المياه في ري الاراضي العربية. الا ان مؤتمر القمة فشل في منع تحويل نهر الاردن من قبل اسرائيل، وكان ذلك بداية لتفاعلات سياسية فلسطينية وعربية واسعة النطاق. وقد كان تحويل مجرى نهر الاردن وفشل العرب في الرد بمثابة مؤشر لهزيمة العرب في حزيران ١٩٦٧. ومنذ ذلك الوقت واسرائيل مستمرة في خططها المائية، بل في تنفيذ هذه الخطط بجر مياه الاراضي العربية وسط عجز عربي عن ايقافها. والأهمية التي توليها اسرائيل لموضوع المياه واضحة وصريحة في كل ما يعلنه مسؤولوها في هذا الصدد منذ نشأتها. ولعل آخر تصريح لوزير خارجيتها، شيمون بيريز، في واشنطن (١٤ شباط ١٩٩٣) يتوّج نزعتها الاستراتيجية للسيطرة على المياه في المنطقة، وحماية هذه السيطرة سياسياً واستراتيجياً بطلبه من الرئيس الاميركي (بيل كلينتون المنتخب حديثاً خلفاً للرئيس جورج بوش) تطوير العلاقات الاستراتيجية بين اسرائيل والولايات المتحدة لتشمل «شراكة سياسية» بينهما، مؤكداً انه «إذا تم التوصل بين اسرائيل والاطراف العربية الى اتفاق على الارض ولم يتم الاتفاق على المياه فقد نكتشف انه ليس لدينا اتفاق حقيقي». وثمة جانب آخر من مشكلة المياه في المنطقة لا يزال عالقاً وموضوع خلاف وتعقد بصدده الاجتماعات وتجري المفاوضات هو الجانب المتعلق بالدول الثلاث: سورية والعراق وتركيا، وهو حول مياه نهر الفرات خصوصاً.

وآخر تطور، بخصوص مسألة المياه عموماً في المنطقة، ما اعلن (اواخر حزيران ١٩٩٣) عن رغبة اميركية لتحريك «قضايا وحقوق المياه» بين اسرائيل والاردن والفلسطينيين في اطار مفاوضات السلام الجارية في المنطقة (الجولة العاشرة منها). وقد جرى حديث عن ان المواقف العربية تراوح بين الموقف الاردني الذي يؤيد الاعداد لكل المشاريع المائية المشتركة الممكنة حتى تكون جاهزة ساعة التوقيع على اتفاقات سلام في المفاوضات الثنائية والموقف الفلسطيني الذي يرفض البحث في مجالات التعاون قبل توصل الثنائيات الى اتفاقات مقبولة.

وفي ما يختص بالجانب الاردني تحديداً، فالاردن يعتبر ان حاجته ماسة لحل سياسي في المنطقة، ويعتبر ايضاً ان ايجاد حل لمشكلة المياه أكثر أهمية واكثر ضرورة خاصة وانه يعاني من شح في المصادر المائية من جهة، ونضوب بعض هذه المصادر من جهة اخرى، إضافة الى الاعتداء الاسرائيلي الصارخ على حقوق الاردن المائية، وخصوصاً نهر الاردن الذي كان حتى قبل الاحتلال يشكل مصدراً رئيسياً من المصادر المائية المستخدمة للزراعة في البلاد.

جاء في مجلة «الاسبوع العربي» (تاريخ ٦/٢٨/ ١٩٩٣) وتحت عنوان «الاردن – اسرائيل» معضلة الصلح المائي»:

«حول الوضع المائي في المملكة (الاردنية) وانتهاكات اسرائيل لحقوق الاردن المائية، ومشكلة المياه في الاردن، اعد الدكتور محمد شطناوي مدير «مركز البحوث والدراسات المائية والبيئية» دراسة مهمة، كشف فيها النقاب عن بعض جوانب هذه الانتهاكات (...) ومع ان الدراسة – التي اعتمدت كوثيقة اساسية – عالجت واقع الثروة المائية في المنطقة عموماً، فقد خرجت بنتائج مذهلة حول العجز المائي الذي يعاني منه الاردن، والذي سيعاني منه مستقبلاً (...) وهذه المعلومات التي تضمنتها الدراسة ستكون بين ايدي المفاوضين الاردنيين من اجل العمل على محورين: الاول، التفاوض من اجل الحصول على حق الاردن الطبيعي من المياه وبخاصة مياه نهر الاردن. الثاني، الاستغلال الامثل للمصادر المائية المحلية من جوفية وسطحية والبحث عن مصادر جديدة، خاصة وان مسألة تحلية مياه البحر تعتبر مكلفة جداً من ناحيتين: الاولى ان اقامة محطات التحلية على البحر مكلفة بطبيعتها، والثانية ان الاردن يفتقر الى البحر، باستثناء خليج العقبة الذي يقع في أقصى جنوب البلاد، وفي منطقة جغرافية تؤدي طبيعتها الى مضاعفة الكلفة مرات عديدة، في حال التحلية والنقل الى المدن الأخرى».

□ **الأنباط:** قبائل بدوية ظهرت في القرن السادس ق.م. في الصحراء الواقعة في شرق الاردن. وفي القرن الرابع ق.م. كان الانباط قوماً رحلاً يتكلمون العربية ولا يهتمون بالزراعة. وفي القرن الثالث تركوا حياة الرعي الى حياة الاستقرار وعملوا بالزراعة والتجارة. وفي اواخر القرن الثاني تحولوا الى مجتمع منظم. واول تاريخ ثابت للأنباط يرجع الى ٣١٢ ق.م. حين تمكنوا من صد هجمات حملتين عن سورية بقيادة أنتيغوس احد خلفاء الاسكندر. وكانت البتراء عاصمة الأنباط. وسع الانباط سلطتهم ومراكزهم الى المنطقة الشمالية حيث اعادوا بناء المدن الأدومية والموابية القديمة، واصبحت البتراء منذ اواخر القرن الرابع المدينة الرئيسية على طريق القوافل تربط بين جنوبي الجزيرة العربية التي تنتج التوابل، وبين مراكز الاستهلاك والبيع في الشمال. وكانت المملكة تضم في أقصى اتساعها جنوب فلسطين وشرق الاردن وسورية الجنوبية الشرقية وشمال الجزيرة العربية. كانت حضارة الأنباط عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، سامية في ديانتها، ويونانية – رومانية في فنها وهندستها المعمارية (راجع ايضاً: مأدبا).

* **إيلة (إيلات):** ميناء اردني في شمال العقبة على البحر الأحمر. يقوم على انقاض أيلة الرومانية.

* **البتراء:** مدينة أثرية في الاردن. هي «سلع» القديمة أو الصخرة. دعاها اليونان «بيترا» وتعني «الصخرة»، وجعلوها مركزاً لتخزين المؤن والحبوب. استقل بها الحارث الثاني (١١٠ – ٩٦ ق.م.)، وانتصر ملكها الحارث الثالث على الرومان (٨٧ – ٦٢ ق.م.). احتلها الانباط. ثم احتلها ترايانس فأصبحت على الطريق التجارية بين الشرق والغرب، وازدهرت. بدأت بالانحطاط في القرن الثالث حين تحولت هذه الطريق الى الفرات. أهم آثارها: قصر فرعون والبوابة الأثرية والمسرح الكبير وقبور بيترا وهيجرا.

عُرفت البتراء كمدينة الأضرحة التي فتحت بكاملها – على مساحة ٤٥ كلم٢ – في الصخر الرملي الملون الذي يتراوح بين الزهري والأحمر واحياناً البرتقالي والبنفسجي، تقطعه تحزيزات وخطوط من الأبيض أو الأخضر المائل الى الزرقة.

ولعلّ موقع البتراء الجغرافي حول وهرة او ممر السيخ هو الذي جعل منها قديماً محطة عبور واستراحة للقوافل القادمة من اليمن أو من الصين حاملة حرائره او التوابل الاندونيسية او العاج الافريقي والمجوهرات والحلي الهندية للمبادلة مع الحرفيات السورية العريقة، مثل الزجاجيات والسيراميك والذهب والفضة، وارجوان صور. ولعلّ هذا ما يفسر غنى المدينة ثم طمع الرومان بها.

اما طراز البتراء المعماري، فالاعتقاد الغالب انه ليس رومانياً، عدا بعض البصمات العسكرية بعد القضاء على المدينة. وبالاجمال، فالبتراء وتدمر وبصرى ودورا اوروبوس واكثر مدن ممالك الهلال الخصيب كانت ذات غلاف معماري هلّيني. واما الداخل، فكان يحمل التقاليد السورية العريقة.

وفي اوائل حزيران ١٩٩٣ كشف أثريون، يقومون بازالة انقاض وغبار ١٤ قرناً، عن كنيسة بيزنطية مزخرفة بين أطلال هذه المدينة الوثنية القديمة. وتعتبر الكنيسة، التي تخطف الابصار بزخارفها من الفسيفاء الحجرية والزجاجية، اول صرح بيزنطي يتم اكتشافه في مدينة الانباط القديمة المشيّدة من الحجر قبل مجيء المسيح بقرون عدة. ويقول أثريون ان الكنيسة تعتبر

واجهة «خزنة فرعون» في قلب البتراء. والجرّة في وسط الطابق الثاني كانت هدفاً لرصاص البدو الطامعين في الذهب («العربي». العدد ٣٩٧. حزيران ١٩٨٩).

قصران من القصور الأموية الصحراوية، قصير عمرة وقصر الخزّانة

شاهداً على انتصار المسيحية على الوثنية في ارجاء نائية من الامبراطورية الرومانية، وعلى ازدهار واضمحلال طريق رئيسي لتجارة الحرير والتوابل بين شبه الجزيرة العربية والشرق. ويقول الاثريون ان «كل شيء تم التعرف عليه في البتراء يعود الى حضارة الأنباط... الكنيسة اول اكتشاف من العصر البيزنطي...».

والكاتدرائية البيزنطية العتيقة غنية بنماذج زخرفية متكررة ومناظر مختلفة. وتصور الفسيفاء دلفينا رمز المعتقدات النبطية، ويشير عمود رخامي خماسي الوجه عليه صور رموز الانباط الى تعايش المسيحية مع الوثنية في القرون الاولى بعد المسيح. ولبعدها عن القسطنطينية كانت مملكة الانباط، التي ضمها الرومان الى امبراطوريتهم في العام ١٠٦ م.، بطيئة في اعتناق الدين الجديد، حتى بعد صدور مرسوم امبراطوري في ٣٩٥ م. باغلاق المعابد الوثنية كلها. ويُعمل، حالياً، على تحضير الكنيسة لفتحها امام الجمهور خلال أشهر قليلة، أي في خريف ١٩٩٣ (راجع أيضاً مأدبا).

* **جدارة:** بلدة يونانية – رومانية في الاردن. تُسمى حالياً «أم قيس». مسقط رأس منيبس الفيلسوف (القرن الثالث ق. م.)، وملياغرس الشاعر اليوناني. إحدى المدن العشر. آثار قديمة.

* **جرش:** مدينة في شمال الاردن على سفح جبل عجلون. تقوم على انقاض مدينة قديمة بناها الاسكندر المقدوني او أحد قواده. ازدهرت في العهد السلوقي واحتلها الرومان (٦٣ ق.م.). خضعت لتأثير الأنباط. كرسي اسقفي (القرن الرابع). فتحها العرب (٩٣٥). آثار هياكل وشوارع رومانية وكنائس.

* **الجزيرة:** راجع الاردن، مناطق حدودية متنازع عليها بين الاردن واسرائيل.

* **خزّانة (قصر):** بلاط اموي في بادية الاردن على بعد نحو ٦٢ كلم من عمان.

* **خزنة فرعون:** معبد نبطي في نهاية الشق المؤدي الى البتراء. قد يكون مدفناً لأحد الملوك.

* **الزرقاء:** مدينة اردنية على طرف البادية. نحو ١٨٥,٠٠٠ ن. منطقة زراعية. صناعة الدباغة.

* **سرحان:** واد طوله ٢٨٠ كلم وعرضه بين ٢ و ١٠ كلم. يجري في الاردن ونجد. كان طريق القوافل بين العراق وسورية وبلاد العرب.

* **السلط:** (او البلقاء) كتلة صخرية (جبال) في الاردن تمتد بين وادي الموجب ونهر الزرقاء. والسلط مدينة في الاردن، نحو ٥٥,٠٠٠ ن. قاعدة محافظة البلقاء. فيها قلعة بناها الملك المعظم ١٢٢٠. هدمها المغول ١٢٦٠ واعاد بناءها بيبرس ١٢٦١. مشهورة بالبساتين والكروم والحبوب. واسمها «السلط» تحريف

للكلمة اليونانية «سالتوس» أي الغابة.

* **الشويك:** قلعة بناها بغدوين الأول في جبل الشراة جنوب الاردن (محافظة معان) للاشراف على الطريق بين دمشق والحجاز ومصر. كانت مع حصن الكرك على جانب عظيم من الأهمية في الحروب الصليبية.

* **الضفة الشرقية:** منطقة في الاردن. كانت تعرف قبل قيام المملكة الاردنية الهاشمية باسم امارة شرقي الاردن. مساحتها ٩١,٠٠٠ كلم٢. جبلية تشرف على وادي الاردن، وتمتد في الشمال الى الجنوب متممة للجبال السورية: جبال عجلون، جبال البلقاء، جبال الكرك، جبال الطفيلة وجبال الشراة. وتقع شرقيها صحراء الاردن. اهم مدنها: عمان، الزرقاء، اربد، جرش، الكرك، مأدبا، العقبة، معان. منطقة جافة شبه صحراوية.

* **طوبة:** قصر ربيعي. بناه الامويون في البادية جنوب الاردن على بعد نحو ١٠٠ كلم من عمان. تظهر فيه هندسة فن البناء العربي. اكتشفه العالم موسيل (١٩٠٦).

* **عجلون:** مدينة في شمال شرقي الاردن (محافظة إربد). نحو ٣٥٠٠٠ نسمة. بالقرب منها قلعة الربض او قلعة عجلون التي بناها عز الدين عثمان أحد حكام صلاح الدين لمراقبة الاعداء وحماية الطرق المؤدية الى الشام (١١٨٤). هدمها المغول (١٢٦٠). وعجلون جبال صخرية تمتد بين وادي اليرموك الفاصل بين حوران ووادي الزرقاء. منطقة مراع وغابات.

* **العقبة:** مدينة وميناء وحيد للاردن على البحر الأحمر. ذات تاريخ قديم يعود الى القرن العاشر ق.م. حيث كانت تتبع دولة الأنباط، وكانت لها أهمية تجارية بسبب موقعها المميز، فاسترعت اهتمام الأدوميين والفينيقيين، فاتخذوها قاعدة بحرية للاتجار مع افريقيا، إضافة الى انها كانت محطة مهمة وملتقى للقوافل التجارية بين مصر وفلسطين والشام والعراق. وحين ضم امبراطور روما مملكة الأنباط الى امبراطوريته العام ١٠٦ م، اهتم اهتماماً خاصاً بالعقبة. فوضع فيها حامية رومانية لحماية موقعها الذي أصبح نهاية الطريق الطويل الذي شقه الرومان من مدينة بصرى الشام (كانت عاصمة الشام آنذاك) الى البحر الأحمر.

كانت العقبة معبراً للجيوش الاسلامية المتوجهة لفتح الشام من الجزيرة العربية (٦٦٤). تؤكد بعض المصادر التاريخية ان كلا من القائدين: يزيد بن ابي سفيان، وشرحبيل بن حسنة عسكرا بجيشهما عند العقبة وهما في طريقهما للالتقاء بجيش ابي عبيدة بن الجراح عند موقع اليرموك. كما ان خالد بن الوليد اتخذ من امتداد الصحراء شمال العقبة عمقاً له عندما خاض معركة اليرموك ضد الروم.

وظلت العقبة تقوم بدورها المهم كنقطة التقاء القوافل التجارية، ومعبر للحجيج طوال عصر ازدهار الاسلام إبان حكم الخلفاء الراشدين والامويين، حتى جاءت الدولة العباسية فقلّ شأن العقبة آنذاك، إذ حلت محلها في الأهمية مدينة البصرة (العراق)، حينما اصبحت الخلافة الاسلامية في بغداد بدلاً من دمشق.

وخلال الفترة التي تواجد فيها الصليبيون في فلسطين والشام، عادت الى العقبة اهميتها تاريخياً وجغرافياً، بل اصبحت مركزاً للصراع الحاد بين المسلمين والصليبيين حينذاك. ففي ١١١٦ استولى عليها الملك الصليبي بلدوين الأول، وحصّن ميناءها ببناء قلعة ثابتة في جزيرة فرعون المجاورة له. وتمكن صلاح الدين الايوبي من استرداد المدينة في العام ١١٧٠، إلا ان أمير الكرك فتح المدينة في العام التالي. ثم عاد الملك العادل ابو بكر بن ايوب شقيق السلطان صلاح الدين واسترجع المدينة من الصليبيين.

منذ ذلك الحين، بقيت العقبة مزدهرة حتى احتلها العثمانيون (١٥١٦)، فدخلت ضمن أملاك الدولة العثمانية. ولكن العثمانيين لم يروا لها أهمية استراتيجية أو اقتصادية فأهملوها، حتى اصبحت مجرد قرية لصيد الاسماك، خاصة بعدما أخذ الحجاج المتوجهون من مصر الى الحجاز يسافرون بحراً على طريق قناة السويس ابتداء من ١٨٦٩؛ اما الحجاج المسافرون من بلاد الشام فقد اخذوا يسافرون بواسطة السكة الحديد ابتداء من ١٩٠٨ .

جاء ذكر العقبة في مؤلفات بعض المؤرخين المسلمين. قال عنها ياقوت الحموي «إنها مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وقيل هي آخر الحجاز وأول الشام، وقال ابو زيد: انها مدينة صغيرة بها زرع يسير». وكتب عنها القزويني قائلاً إن بها يجتمع حجيج الشام ومصر ممن جاء بطريق البحر.

وتحفل العقبة بآثار تاريخية مهمة، من بينها الموضع الذي يعرف باسم «تل الخليفة». وقد اكتشفت

قلعة العقبة

في هذا الموضع سلسلة من الافران الكبيرة التي كانت تستخدم لصهر النحاس. ويرجع العلماء ان ذلك الموضع كان ميناء الملك سليمان لأنه المكان الوحيد الذي ثبت انه كان مأهولاً بالسكان في تلك الحقبة الزمنية. كما كشفت الحفريات الأثرية ايضاً عن وجود علاقة قريبة بين بلدة العقبة القديمة وجنوبي الجزيرة العربية الذي شهد حضارة تكاد تكون متزامنة مع حضارة الأنباط، والدليل على ذلك يتمثل في بقايا الفخار الذي اكتشف في المنطقة، والذي يختلف عن نماذج الفخار الذي تم العثور عليها في مواقع اخرى في فلسطين وشرق الاردن. ومن الآثار المهمة التي ما زالت قائمة شامخة بالعقبة: القلعة التي أنشأها ملك الصليبيين بلدوين الأول في جزيرة فرعون.

* **عمان**: عاصمة الاردن. شمال غربي البلاد، عند اقدام جبل عجلون. نحو ٩٥٠,٠٠٠ نسمة. مركز الحكومة. مركز ثقافي، وتجاري، وصناعي (صناعة الأغذية، الأقمشة اساساً). مصفاة النفط في الزرقاء. في التوراة: رباط عمون. عاصمة العمونيين. احتلها بطليموس فيلادلف وأعاد بناءها (٢٨٣ ق.م. — ٢٤٦ ق.م) ودعاها فيلادلفيا، وهو الاسم الذي عرفت به حتى العصر الروماني ومن بعده البيزنطي. بعد نهاية الاحتلال البيزنطي لها (القرن السابع)، استعادت اسمها الأول. اصبحت عاصمة شرق الاردن عندما اقام الامير عبد الله بها عاصمته بعد الحرب العالمية الأولى. فيها آثار رومانية: مسرح يتسع لستة آلاف مقعد، هيكل ومتحف. وآثار بيزنطية وعربية.

* **القسطل Castellum**: من حصون الرومان القديمة في شرق الاردن. كان يقيم فيه الوليد الثاني للصيد والنزهة.

* **الكرك**: مدينة في الاردن. نحو ١٥٠,٠٠٠ ن. قاعدة محافظة او لواء الكرك. عرفت قديماً باسم كير مؤاب. كانت حصناً مسوراً للمؤابين. احتلها الصليبيون ١١٧٧ واستولى صلاح الدين الايوبي على حصنها ١١٨٨. كانت مقراً اسقفياً منذ اوائل العهد المسيحي حتى ١٩١٠. قاعدة لدولة المماليك ١٣٠٩. حصنها

مأدبا اليوم

من آثار مأدبا

يشرف على طريق الحج والتجارة. ومؤاب او الكرك كتلة جبلية صخرية تشرف على البحر الميت جنوباً وتمتد بين وادي الموجب ووادي الحسا.

• **مأدبا**: «مأدبا» كلمة سامية، معناها «مكان طيّب» او «مياه هادئة». وجد عند تل مأدبا قبر يعود تاريخه الى العصر الحديدي الأول (١٢٠٠ - ١١٦٠ ق.م.)، ما يدل على انها كانت مأهولة في ذلك الزمن. احتفظت باسمها مع تحريف قليل، كقول البعض «ميداب».

— مأدبا مدينة مؤابية:

استولى المؤابيون على مأدبا سنة ١١٨٠ ق.م. انزل بها الأشوريون والبابليون النكبات فذرف أشعيا وأرميا الدموع عليها على الرغم من العداء الذي بين قومهم وبين مؤاب.

— مأدبا مدينة الأنباط العرب:

ظلت عرضة لتقلبات الزمن الى ان استولى عليها الأنباط في القرن الثاني ق.م. وفي سنة ١٦٠ ق.م. (في ايام الحارث الاول)، اضحت مدينة نبطية، تحت سلطة بني يمري. وفي هذه الأثناء، نشأت بفلسطين مملكة المكابيين الثائرين على السلوقيين في سورية خلفاء الاسكندر. ونشأ صراع بين المكابيين والأمراي (في مأدبا).

كان الأنباط يكتبون لغتهم بحروف آرامية، ثم اخذت كتاباتهم تستقل عن الآرامية تدريجياً، حتى اختلفت عنها نهائياً نحو منتصف القرن الأول ق.م. وعن تلك الحروف النبطية المستقلة نشأت الحروف العربية. وعثر سنة ١٨٨٩ على نقش مأدبا وقدم هدية للبابا لاون الثالث عشر، وهو موجود الآن في متحف الفاتيكان. ووجد نقش آخر موجود في متحف اللوفر (باريس) وهو بحروف نبطية.

— علاقة روما بالأنباط:

لم يحاول الرومان الاستيلاء على مقاطعة «نباطينا» في أول الأمر واكتفوا بأن تكون حليفة لهم. لكن الامبراطور الروماني تراجان (١١٧ م) أمر والي سورية باحتلال مملكة الانباط والنزول في بصرى المسماة «بصرى أسكي شام» وفي البتراء، ففعل الوالي واصبحت بلاد الانباط مقاطعة رومانية، وسميت «بلاد العرب الرومانية» لكثرة سكانها من العرب. ولتعظيم هذا الحدث سك مجلس الشيوخ الروماني نقداً يمثل بلاد العرب واقفةً، وفي يمينها غصن زيتون، وعند قدمها جمل مع هاتين الكلمتين Arabia Adquisita — أي بلاد العرب الملحقة بالامبراطورية، وجعل تراجان لهذه البلاد تاريخاً خاصاً يبتدئ في ٢٢ آذار سنة ١٠٦ م ويسمى تاريخ «بصرى».

تمتعت مأدبا في العهد الروماني بازدهار هو امتداد لازدهارها السابق. فقد كانت في العهد الموابي داراً لضرب النقود، وسك الرومانيون فيها نقوداً. ومن مآثر العهد الروماني فيها انتشار الفسيفساء زينة للهياكل التي وجدت آثارها في مأدبا وتشير الى ثراء المدينة.

— من عبادة عشتروت الى المسيحية:

تسرّبت المسيحية في مأدبا في زمن رؤاد بن الهبولة أحد أمراء العرب الضجاعمة، وايام امراء الغساسنة الذين جاؤا بعده العام ٢٩٢ وأنشأوا دولة الغساسنة باشراف الروم في البلقاء، وشمالي عمان، والقسطل، وحول (مأدبا) وحوران. وكان انتشار المسيحية سريعاً، وأصبحت مأدبا مركز أسقف يدعى «اسقف مأدبا مدينة الأنباط»، وكثرت فيها الكنائس.

— مأدبا، مدينة الفسيفساء:

في هذه المدينة الاثرية من روائع الفسيفساء ما اكسبها تلك المكانة العالمية في دنيا الآثار. ويعود ما أبرزته مأدبا من آثار هذا الفن الى ما قبل القرن الرابع الميلادي. واعظم أثر فني هو «خارطة الاردن وفلسطين» المسماة «تحفة مأدبا الخالدة».

– التحفة الخالدة، خارطة مأدبا:

في ١٨٨٤، اكتشف أحد الرهبان خارطة كبيرة من الفسيفساء في إحدى كنائس مأدبا الاثرية. لم يُعرها البطريرك، في حينه، أهمية حتى جاء خليفته، في ١٨٩٠، الذي بدأت معه الدراسات حول هذه الخارطة واستمرت حتى ١٩٥٣ واشترك فيها خبراء محليين وأجانب.

محور الخارطة هو مدينة «اورشليم المقدسة»، وتنتهي (الخارطة) جنوباً بدلتا النيل وصورة للاسكندرية. وتصل، من الشمال، الى صرفند المسماة «صرفت»، ويحتمل انها كانت تضم صيدا. وغرباً، البحر المتوسط؛ وشرقاً، مدينة الكرك. وقد قدّر ان طول الخارطة الاصلي كان ٢٤ متراً، وعرضها ٦ أمتار، ما عدا إطار الزينة. وقد تبين ايضاً ان صانعها استوحى التوراة والانجيل وارادها ان تكون خارطة للارض المقدسة، وتذكر بعض الحوادث واماكنها، خصوصاً القدس وبيت لحم. وتحوي الخارطة ايضاً وادي الاردن وصحراء سيناء ومعظم البحر الميت وقسماً من البحر المتوسط.

صاحب هذه الخارطة الفسيفسائية «سلمانوس» الذي ذكر إسمه في كنيسة الرسل في سياق هذه الكلمات: «ايها الرب الإله... وهذه هي الفسيفساء لسلمانوس... لابن مأدبا البار هذا الفضل في تخليد اسم هذه المدينة هذه التحفة شهادة خالدة ناطقة اسم هذا الفنان العظيم الذي تفوق فنه على الفن الروماني». وترجح الدراسات ان سلمانوس هذا فرغ من عمله نحو سنة ٥٦٥ م او بعد ذلك بسنوات قليلة.

– مأدبا العربية:

التقت الجيوش العربية الجيوش الرومية في أم الرصاص (جنوب شرق مأدبا) فدحرت الروم الى مؤتة (٦٢٩ م). وتوالت انتصارات العرب بما يشبه المعجزات الى ان تمت هزيمة الروم في واقعة اليرموك (٦٣٦ م) حيث شاهد هرقل الضربة التي لا قيام لدولته بعدها في الشرق، فرحل عن البلاد وكلمات الوداع تجف في حلقه: «سوزه سوريا» أي «وداعاً سورية». هكذا أصبحت مأدبا، مدينة الأنباط العرب، خاضعة للعرب سادة جند الاردن. ونعمت مأدبا في خلافة معاوية بالرخاء، وواصلت بناء كنائسها وتزيينها بالفسيفساء، منها كنيسة العذراء.

من الجداريات الفسيفسائية العديدة في مأدبا

– الزلازل

ظلت مأدبا تتمتع بشهرتها الى ان دمّرها زلزال العام ٧٤٦ الذي ضرب فلسطين والاردن وسورية فقتل ألوف الناس ودمّر الكنائس والأديار. وأضحت حياة مأدبا وضواحيها احتضاراً بطيئاً. قال البحّاثة الايطالي مانغريدي ما حرفه: «كانت مأدبا قد ماتت تحت أطلالها، ولا بدع في ذلك، لأن الزلازل

المتعاقبة عليها، قد دمّرتها ولا سيما زلزال ١٠١٦، وزلزال ١٠٣٣ الذي استمر أربعين يوماً متتالية، وكانت سبباً في انهدام أريحا ونابلس على سكانها، وكانت مأدبا قد ماتت حقاً موتاً أبدياً، إذ لم يرد لها ذكر في زمن مملكة الفرنجة ولا ذكرها أحد من الرحالة الكثيرين الذين لا شك في انهم مرّوا فيها او بالقرب منها». وظلت مأدبا في طي النسيان ايام المماليك ولم يرد لها ذكر إلا في سنة ١٨١٢ يوم نزل فيها بوركهارت السويسري كاشف البتراء.

– مأدبا اليوم:

ننقل عن مجلة «المدينة العربية» (مجلة متخصصة تصدرها منظمة المدن العربية، العدد ٣٤، تشرين الثاني ١٩٨٨) ما حرفه بصدد مأدبا اليوم:

«لما اجتاز بوركهات الكرك، في آب سنة ١٨١٢، قدّر سكانها بـ ٤٠٠ بيت من المسلمين، و١٥٠ بيتاً من المسيحيين. أما ره سوسي الفرنسي فيقول ان في الكرك بضع مئات من المسيحيين. وقد كان كلا الرجلين واهماً لأن تقديرات من يمر بالبلاد اياماً لا يحالفها التوفيق دائماً.

وكان المسيحيون يقسمون الى «حمايل» (جمع حمولة) إثنتان منها من أهل البلاد الأصليين هما: أ – الحدادين وهم غساسنة. ب – والعزيزات وهم من بني شيبان (...) وتقول التقاليد انهم ساعدوا خالد بن الوليد فمنحوا امتيازات (...) وعاملهم المسلمون معاملة خاصة جلبت كثيراً من العشائر المسيحية الى الكرك من الحجاز، ومن البتراء، ومن جبل الدروز ومن دمشق ومن لبنان ومن مصر. ومن الحقائق التي يجب اقرارها ان الكرك في كل أدوارها لم تعرف شيئاً إسمه تعصب ديني.

بعد هجعة أحد عشر قرناً، حضر الخوري اسكندر، الانسان الفاضل، ومعه:

أ – عشيرة الكرادنة. ب – وعشيرة المعاعية الذين سموا أنفسهم فيما بعدد بالمعايعة. فاكتمل عدد المهاجرين من الكرك ٨٠٠ شخص تقريباً. وأقامت العشائر ضاربة جثامها غربي مأدبا حيث المغاور الكثيرة. اقام القوم في خيامهم واتخذوا المغاور لخزن حبوبهم وتبنهم، وإيواء روابهم في تلك المغاور، وفي الشتاء يلجأون إليها. وخصصت المغارة الكبرى معبداً للصلاة»

ويقدر عدد سكان مأدبا اليوم بنحو ٣٠،٠٠٠ نسمة.

* **المدن العشر Decapole**: اسم اطلق قديماً على منطقة تحيط ببحيرة طبريا وبالاردن وتمتد حتى شمالي اليرموك، وفيها المدن الهلنستية العشر: دمشق، فيلادلفيا (عمّان)، سقيتوبوليس (بيسان)، بيلا، جرش، قناثا (قناة)، جدارة (أم قيس)، ديوان (تل الأشعري)، هيبوس (قلعة الحصن)، أبيلا.

مرج الحمام اليوم

* **مرج الحمام**: مدينة تعددت أسماؤها عبر التاريخ، لكنها ظلت ذات أهمية خاصة حتى يومنا. اشتهرت في العهدين الايوبي والمملوكي على انها احد مراكز البريد المهمة في البلقاء في الفترات التي كانت تتناوب خلالها عمان والكرك وحسبان على مراكز هذه المنطقة في الشام.

كانت في البداية تدعى البرج الأبيض حيث كانت محطة بريد على الطريق بين الكرك ودمشق وعبره كان البريد يُنقل من وبين مصر والشام. وتطور الاسم بعد ذلك ليستقر على «مرج الحمام». وتذكر المراجع التاريخية ان السلطان المملوكي الناصر قلاوون حين اعلن الثورة في الكرك ضد المماليك في مصر اتصل بنواب الشام، وخرج من الكرك، ثم حط رحاله في البرج الابيض (مرج الحمام) قبل ان يتابع سيره الى حوران. وكان صلاح الدين الايوبي، يخيّم على ارض هذه المدينة إبان مهاجمته للقوات الصليبية اثناء احتلالها للقدس وفلسطين.

خريطتان لمناطق حدودية متنازع عليها بين الاردن واسرائيل

ومرج الحمام، حالياً، إحدى ضواحي العاصمة الاردنية. تطورت في الآونة الأخيرة تطوراً ملموساً شمل مجالات الاسكان والخدمات كافة.

* **المشتّى**: انقاض قصير قديم في الاردن على طريق الحج بين دمشق ومكة. شيّد ليكون داراً للشتاء والربيع. اكتشف ١٨٧٢. أهدى السلطان عبد الحميد جزءاً من أفريز واجهته الى امبراطور المانيا فيلهلم الثاني، هو اليوم في متحف القيصر فريديريك في برلين. يرجح انه احد القصور الأمويين الشتوية شيّد في القرن السابع او الثامن.

* **معان**: بلدة في الاردن. نحو ٣٠,٠٠٠ نسمة. قاعدة محافظة معان. مركز تجاري وزراعي واداري مهم. حدائق. كانت قديماً مركزاً لتجارة الرقيق.

* **المفرق**: بلدة في الاردن شمال شرقي العاصمة عمّان. هي نقطة رئيسية بين الاردن وبغداد.

* **مناطق حدودية متنازع عليها بين الاردن واسرائيل**: تبلغ مساحة هذه المناطق (أو الاراضي) الحدودية بين الاردن واسرائيل بين ٣٢٠ - ٣٥٠ كلم٢

مندمجة حالياً في الجسم الاسرائيلي ويطالب الاردن باستعادتها. تقع غالبيتها الساحقة في وادي عربة الممتد بين البحر الميت وخليج العقبة، والبقية في منطقة التقاء نهري اليرموك والاردن. في هذه الاراضي مستوطنات ومنشآت اقتصادية اسرائيلية مختلفة.

خلال العهد التركي، لم تفصل بين فلسطين وشرق الاردن أي حدود سياسية، فكانت التقسيمات الادارية آنذاك تشمل وقوع صحراء النقب الفلسطينية ضمن متصرفية القدس المستقلة. اما في الجانب الشرقي من وادي عربة وعلى رقعة طويلة نحو الشمال، فكانت المنطقة ضمن ولاية سورية.

ولدى ابرام اتفاقية سايكس – بيكو (١٩١٦) تبين ان الاتفاقية قطعت الجزء الجنوبي من فلسطين وضمته الى اراضي شرق الاردن، وبذلك لم يخصص لفلسطين اتصال مع البحر الأحمر. بيد ان المذكرة الصهيونية التي قدمت الى المجلس الأعلى لمؤتمر الصلح (١٩١٩) أكدت على ضرورة ان يكون لفلسطين (التي ستقام عليها الدولة اليهودية مستقبلاً) حرية الوصول الى البحر الأحمر وفرصة تنمية موانئ على خليج العقبة.

ومع الانتداب البريطاني عمل المسؤولون البريطانيون على تخطيط الحدود الشرقية لفلسطين بما يتلاءم والمذكرة الصهيونية المذكورة. فأخذت الحكومة البريطانية بالحد الذي رسمه المندوب السامي هربرت صموئيل الذي اعطى فلسطين اكثر مما خصصته لها اتفاقية سايكس – بيكو.

ورغم ان سلطات الانتداب لم تحدد بصورة دقيقة اين تمر الحدود في وادي عربة، الا ان الخرائط البريطانية أظهرت ان صيغة هربرت صموئيل جعلت ثلث الوادي من نصيب فلسطين، بينما جعلت ثلثيه الآخرين من نصيب شرق الاردن. وبقيت الحدود بين فلسطين وشرق الاردن على الخارطة دون القيام بقياسات على الارض (الذريعة الكبرى فيضان نهر الاردن في ١٩٢٧ اثر سقوط امطار غزيرة وشقه لنفسه مجرى جديداً على طول ٥٠٠ م في منطقة بيسان). وهذا الأمر خاص بالنسبة الى الحدود هناك خلافاً لحالتي الحدود مع مصر وسورية.

وأثيرت المسألة من جديد في ١٩٣١، وفي نهاية ١٩٤٥ اي عشية حصول الاردن على استقلاله، لكنها استمرت عالقة جراء توجهات بريطانية واضحة في هذا الشأن.

في مرحلة تأسيس إسرائيل، وقعت المرشرش (ام الرشراش – مكان ايلات اليوم) تحت الاحتلال، وكان وادي عربة يمثل الحد الشرقي لمسرح العمليات الاسرائيلية في المنطقة. ثم تم اعتماد الخط الذي حدده البريطانيون عام ١٩٢٢ ليكون حداً دولياً بين اسرائيل والاردن بموجب اتفاقية الهدنة الاسرائيلية – الاردنية (رودس ١٩٤٩/٤/٣). بيد انه لم يقم الطرفان بوضع علامات حدودية في وادي عربة على الطبيعة، باستثناء منطقة يبلغ طولها نحو ٤ كلم في أقصى الجنوب منه، مما حدا بلجنة عسكرية اسرائيلية – اردنية مشتركة الى القيام بعملية تحديد جزئي وسريع ومرتجل.

اعتباراً من ١٩٥٠، بدأ الجيش الاسرائيلي يدفع الحدود مع الاردن شرقاً، فقام بشق طريق في وادي عربة، مرّ ضمن الاراضي الاردنية، اعقبها اشتبكات بين الطرفين وممارسات اسرائيلية هي كناية عن زحف تدريجي وزرع مستوطنات وبصورة متواصلة. وآخر هذه العمليات قيام كيبوتز (مستوطنة) تسوفر عام ١٩٩٠ بتوسيع منطقته الزراعية بدرجة كبيرة نسبياً نحو الشرق بسبب وجود مياه في المنطقة الاردنية التي تم التوسع على حسابها.

عموماً، اصبحت خطوط الهدنة الاسرائيلية – الاردنية على الخرائط غير متطابقة مع الحدود التي فرضها الاسرائيليون على الارض في منطقة وادي عربة. وقد أثار الجانب الاردني حقه في هذه الارض في مفاوضات السلام (مؤتمر مدريد – تشرين الاول ١٩٩١ – وما تلاه من جولات، وتم ادراج الطلب الاردني في اتفاق المبادئ في الجولة السابعة). وموافقة اسرائيل على مبدأ تسوية المشاكل الحدودية «لا تتعدى نطاقها السياسي (...) فقد أكد مصدر في حكومة رابين – دافار، ١٩٩٢/١١/٨ – ان اسرائيل تعترف بحق الاردن في المطالبة بالمناطق التي اخذت منه في وادي عربة، والتي ضمت الى اسرائيل خلال سنوات الستينات. ولكن اسرائيل ستسعى الى طرح اقتراحات تحصل على موافقة اردنية لابقاء هذه المنطقة على حالها بحوزة اسرائيل».

من جهة أخرى، فإن الخلافات الحدودية بين اسرائيل والاردن لا تقتصر على منطقة وادي عربة، بل إن للاردنيين مطالب اقليمية أخرى تشمل منطقة واقعة بالقرب من التقاء نهري اليرموك والاردن، يطلق عليها إسم «الجزيرة»، وهي منطقة تحتلها اسرائيل منذ العام ١٩٤٨.

مساحة هذه المنطقة نحو كلم^2 واحد، وعلى مقربة منها تقع محطة روتنبرغ للطاقة الكهربائية، وتقوم عندها شبكة من السدود والقنوات وبحيرة اصطناعية ضخمة يقع ثلثها ضمن الاراضي الفلسطينية

(الاسرائيلية). وقد اقام الاسرائيليون حول منطقة الجزيرة هذه منشآت صناعية وسياحية ومستوطنين.

يرى بعض الاسرائيليين ان ليس للاردن اي سند في مطالبته بمنطقة الجزيرة. ويقولون ان المشكلة نابعة من خطأ ارتكبه ضابط اردني من اعضاء لجنة الهدنة حين قام برسم خارطة الحدود بصورة خاطئة (...) وكحل لهذه المشكلة يقترح مسؤولون في المستوطنتين (الكيبوتزين) القريبتين من المنطقة، اقامة منتجع سياحي مشترك بين اسرائيل والاردن في اطار بناء السلام.

ويرى آخرون ان اسرائيل فقدت في هذه المنطقة تدريجاً اجزاء من الاراضي لمصلحة الاردن، نتيجة لقوى الطبيعة خلال عشرات السنين. ففي ايام السيول الكبرى التي تجتاح البلاد، تتسبب المياه الغزيرة المتدفقة في نهر اليرموك بحتّ ضفة النهر الغربية (الجانب الاسرائيلي). وفي احيان كثيرة (كما حدث في شتاء ١٩٨٣) ينتقل تيار المياه الجارف من مجراه السابق الى مجرى جديد غرباً.

يستفاد، من وجهة النظر الاسرائيلية هذه، ان الحدود الانتدابية بين فلسطين وشرق الاردن التي تمر من منتصف نهر اليرموك، قد تغيرت طبيعياً لغير مصلحة اسرائيل. وهذه - بطبيعة الحال - إحدى الذرائع التي قد تلجأ اليها اسرائيل في مواجهة المطالب الاقليمية الاردنية في المنطقة. ومن ثم يبدو ان منطقة الجزيرة «مرشحة لأن تكون في المستقبل طابا الاردنية» (قياساً على طابا المصرية في سيناء وعلى حل مشكلتها بين مصر واسرائيل في ١٩٨٢).

وبانتظار التوصل الى حل لمشكلة الحدود بين اسرائيل والاردن، من المقدر ان ينقب الاسرائيليون عن كل صغيرة وكبيرة تتصل بهذا الموضوع، وخصوصاً منذ العهد التركي الى الآن. وسيعمدون الى حشد الحجج والبراهين المستمدة من عوامل الجغرافيا والسياسة والواقع، في محاولة لتفريغ مسألة إعادة تخطيط الحدود من مضامينها، حين تكون هذه المضامين لصالح الاردن (من دراسة ابراهيم عبد الكريم - باحث في مؤسسة الارض للدراسات الفلسطينية، دمشق، «الحياة»، آذار ١٩٩٣).

* **مؤاب**: راجع الكرك ومأدبا.

* **مؤتة**: موضع جنوب شرقي بحر الميت (الاردن). حدثت فيه معركة بين العرب والبيزنطيين قتل فيها جعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة (٦٢٩).

* **الميت (بحر)**: او بحر لوط. طوله ٧٦ كلم وعرضه ١٧ كلم. شديد الملوحة، ينخفض نحو ٣٩٥ م تحت سطح البحر ويصب فيه نهر الاردن. غني بالبوطاس. عثر بالقرب منه على مخطوطات ذات قيمة تاريخية بالغة الأهمية عرفت بمخطوطات بحر الميت، أو «جماعة قمران» (راجع الأديرة في البلاد الشرق متوسطية).

* **وادي عربة**: راجع مناطق حدودية متنازع عليها بين الاردن واسرائيل.

زعماء ورجال دولة

* **ابراهيم هاشم (١٨٨٤ - ١٩٥٨)**: سياسي فلسطيني ورجل دولة اردني موال للسياسة الغربية. ولد في نابلس ودرس القانون في استانبول والتحق بخدمة القضاء العثماني وترأس محكمة الاستئناف في دمشق. إلتحق بالحركة القومية العربية وبالحكم العربي بدمشق بعد مبايعة الأمير فيصل بن الحسين ملكاً على سوريا. استدعاه الامير عبد الله بن الحسين (١٩٢٢) وعينه وزيراً للعدل في امارة شرقي الاردن، ثم وزيراً أولاً (١٩٣٣). رافق الامير عبد الله الى بريطانيا (١٩٤٦) لبحث مسألة استقلال شرقي الاردن الذي أعلن في ايار ١٩٤٦، فأصبح لقب هاشم «رئيس الوزراء». احتج على تأييد الاردن لضم تركيا لواء الاسكندرون. تولى رئاسة الوزراء في عهد الملك حسين بن طلال (١٩٥٧). وعند اعلان «الاتحاد العربي» بين الاردن والعراق، سمي نائباً لرئيس الوزراء الاتحادي. لقي حتفه إبان ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في بغداد.

* **بهجت التلهوني (١٩٠٥ -)**: سياسي اردني تخرج في الحقوق من جامعة دمشق وتقلب في مناصب قضائية، واصبح وزيراً للداخلية (١٩٥٣ - ١٩٥٤)، وللبلاط الملكي، فرئيساً للوزراء ١٩٦٠ الى ١٩٧٠ في ما عدا سنوات ٦٢ و٦٣ و٦٦. من اعوان الملك حسين الرئيسيين، وعلى علاقة مقبولة بالقاهرة إبان حكم الرئيس المصري جمال عبد الناصر، ولعب في التقارب بين العاصمتين.

* **توفيق ابو الهدى (١٨٩٥ - ١٩٥٦)**: سياسي ورجل دولة اردني. ولد في عكا بفلسطين. خدم في الجيش العثماني ثم انضم الى الامير فيصل وعمل في

الادارة العربية في دمشق (١٩١٩ – ١٩٢٠). التحق بخدمة الامارة الاردنية، فعين رئيس وزراء (١٩٤٧ – ٥٠). وفي ١٩٥٠ قدم استقالته احتجاجاً على محاولة الملك عبد الله التوصل الى صلح منفرد مع الكيان الاسرائيلي الوليد. وبعد اغتيال الملك عبد الله عين من جديد رئيساً للوزراء (١٩٥١ – ٥٣) و (١٩٤٥ – ٥٥).

* **حسين بن طلال، الملك** (١٩٣٥ –): ملك المملكة الاردنية الهاشمية وحفيد الملك عبد الله بن الحسين. ولد في عمان وتلقى علومه في الاسكندرية وهارو وساندرهست العسكرية البريطانية. كان مع جده في القدس اثناء حادثة اغتيال جده الملك عبد الله ١٩٥١. تولى العرش بعد تخلي والده طلال بن عبد الله عن العرش (١٩٥٣). سمّى أخيه الأمير حسن بن طلال ولياً للعهد (١٩٦٥). وافق على مطلب الحركة الوطنية الاردنية بطرد غلوب باشا القائد البريطاني للجيش الاردني (١٩٥٥)، وتعيين سليمان النابلسي رئيساً للوزراء، والتقارب مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر. ثم ما لبث ان اختلف مع هذه الحركة (في مطلع ١٩٥٧) معتمداً على ولاء الضباط والجنود والبدو والقبائل والعشائر. ورداً على قيام الوحدة السورية – المصرية (١٩٥٨)، اقام مع ابن عمه الملك – العراقي فيصل بن غازي «الاتحاد العربي الهاشمي» بين الاردن والعراق في شباط ١٩٥٨. إلا ان هذا الاتحاد انهار مع انهيار النظام الملكي في العراق صبيحة ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. فطلب الملك حسين انزال قوات بريطانية في الاردن. وتمكن من الثبات في وجه احداث المنطقة غير المؤاتية لنظامه، خصوصاً منها في العراق ولبنان والجمهورية العربية المتحدة (سورية ومصر). ومع قرار جامعة الدول العربية اقامة منظمة التحرير الفلسطينية عكف الملك حسين على الحد من تأثيرها على مملكته المكونة من أغلبية فلسطينية. وقد نجح في ذلك الى حد كبير، كما تمكن من الحيلولة دون اتخاذ الاردن قاعدة للعمل الفدائي بعد انطلاقته في مطلع ١٩٦٥. مع تسارع أحداث ربيع ١٩٦٧ وإقدام الرئيس المصري عبد الناصر على طلب سحب القوات الدولية المتمركزة على الحدود المصرية – الاسرائيلية، وقّع الملك حسين حلفاً دفاعياً مع مصر ووضع قواته بأمرة القيادة العربية الموحدة وتصالح مع منظمة التحرير الفلسطينية. لكن هزيمة حزيران ١٩٦٧ والاجتياح الاسرائيلي للضفة الغربية والقدس، جعلا الملك يركز (وطيلة السنوات اللاحقة وحتى اليوم – ١٩٩٣) على مطالبته تطبيق قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ لعام ١٩٦٧. وعلى أثر تأجج العمل الفدائي الفلسطيني، بعد هزيمة ١٩٦٧، وكسبه التأييد الشعبي العارم في أكثر الدول والبلدان العربية رأى الملك نفسه مدفوعاً لمجابهته على أرض الاردن، ساعده في ذلك قبول الرئيس جمال عبد الناصر مشروع روجرز (وزير الخارجية الاميركية) الذي باعد بين عبد الناصر والمقاومة الفلسطينية. فكان له ما اراد، إذ تمكن من ضرب المقاومة عسكرياً، فانسحبت من عمان أولاً، ثم من جرش في تموز ١٩٧١، وسيطر الملك حسين على الوضع الداخلي تماماً واعقب ذلك تجمع رجال المقاومة الفلسطينية في لبنان الذي سرعان ما أصبح الساحة التي تتحمل العبء الأكبر من القضية الفلسطينية البالغة التعقيد عسكرياً وسياسياً. شارك الملك في حرب تشرين الاول – أكتوبر ١٩٧٣ بارساله لواء عسكرياً الى الجبهة السورية. وبعد الحرب عقد اتفاقيات تعاون مع دمشق ووافق على مقررات مؤتمر الرباط بخصوص اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني. عارض اتفاقيات كامب ديفيد (١٩٧٧). شارك في قمة بغداد وايد قراراتها المعارضة لهذه الاتفاقيات، فحصل الاردن بموجبها على مساعدات عربية عوضته المساعدات الاميركية. وقف الملك بقوة الى جانب العراق في الحرب العراقية – الايرانية. واستضاف مؤتمر القمة العربي الحادي عشر الذي عقد في عمان والذي اتخذ قرارات مهمة. دعم العراق سياسياً في حرب الخليج (١٩٩١). وتبقى مشكلته الكبرى، على الصعيد الداخلي، (كما هي مشكلة اغلب الأنظمة العربية القائمة)، تنامي الحركات والدعوات الاسلامية الاصولية المعارضة. من المشهود للملك حسين حنكته السياسية، قدرته على التوازنات الداخلية والخارجية، اعتداله، وساطاته... حتى قيل انه من صنف الحكام «الحكماء».

في ٢ ايار ١٩٩٣، احتفل الاردن بالذكرى الاربعين لتسلم الملك حسين سلطاته الدستورية. وفي هذه المناسبة كتب الكثير حول حصيلة هذا العهد السياسية. واجمع الكتاب على اعتبار الملك حسين بن طلال اقدم الزعماء (مع انه لا يزال في ٥٨ من عمره)، حتى اصبح اسمه مرادفاً للاردن في الاوساط السياسية الدولية. ويتذكر السياسيون القدامى انه عندما تسلم عرش الاردن كان ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا، وكان جوزف ستالين يحكم الاتحاد السوفياتي. وتعامل الملك حسين مع تسعة رؤساء اميركيين ابتداء من دوايت ايزنهاور، و١٢ وزيراً للخارجية الاميركية وعشرات الزعماء امثال

الرئيس التونسي الحبيب بو رقيبة والرئيس جمال عبد الناصر، والرئيس انور السادات. وتمكن الملك حسين، من خلال عقد سلسلة من التحالفات على الصعيدين الداخلي والاقليمي والخارجي، واتباع ما صار يعرف بـ «سياسة الاحتواء» بدل المواجهة ان يعزز اركان حكمه وسط عواصف سياسية اجتاحت المنطقة على مدى الاربعين سنة الماضية. وعلى رغم صغر حجم الاردن وامكاناته الاقتصادية والعسكرية الضعيفة، نجح الملك حسين في تجاوز العواصف السياسية، ابتداء من انشاء دولة اسرائيل واحتلالها في ما بعد للضفة الغربية التي كانت حتى ١٩٦٧ جزءاً من المملكة الاردنية الهاشمية. وشهد حكمه خلال الفترة الماضية سلسلة من الازمات الاقتصادية والسياسية التي ترتبت على ست حروب شرق اوسطية-شارك الاردن في ثلاث منها في شكل مباشر، اضافة الى الحرب الاهلية في ايلول ١٩٧٠ ضد الفصائل الفلسطينية التي كانت تسعى الى قلب نظام الحكم. ونجا الملك حسين، خلال الأربعين سنة، من محاولات عدة لاغتياله دبرتها قوى مختلفة. وكان شهد وهو في الرابعة عشرة من عمره اغتيال جده الملك عبد الله خارج المسجد الأقصى (١٩٥١)، بينما نجا هو بسبب انزلاق الرصاصة التي وجهت اليه عن وسام كان في صدره. وبقيت اسرائيل وحال عدم الاستقرار التي تسببت فيها منذ إنشائها، التحدي الاكبر للملك حسين إضافة الى التحديات السياسية والاقتصادية التي ترتبت على استيعاب الاردن موجات اللاجئين والنازحين الفلسطينيين بعد حربي ١٩٤٨ و١٩٦٧، والذي بلغ عددهم الآن اكثر من ١،٧ مليون شخص.

* **حسين فخري الخالدي** (١٨٩٢ – ١٩٦٢): سياسي ورجل دولة فلسطيني ثم اردني. ولد في القدس ودرس فيها، ثم تخصص في الطب في الجامعة الاميركية ببيروت. شارك في الحركة العربية في سورية، وبعد الاحتلال الفرنسي لها عاد الى القدس وفاز برئاسة بلديتها بدعم من الحاج امين الحسيني (١٩٣٤). في ١٩٣٥ أسس «حزب الاصلاح»، وانضم الى اللجنة العربية العليا على اثر اندلاع الثورة الكبرى في فلسطين (١٩٣٦). اعتقله الانكليز، ونفوه مع غيره الى جزر سيشل حيث بقي عامين. في ١٩٣٩، شارك في الوفد الفلسطيني الى مؤتمر الطاولة المستديرة. بعد الحرب العالمية الثانية، شارك في الهيئة العربية وتولى امانة سرها. وفي ١٩٥٠ عينه الملك عبد الله حارساً للاماكن المقدسة، وفي ١٩٥٣، وزيراً للخارجية الاردنية. وفي ١٩٥٧، عينه الملك حسين رئيساً للوزراء بعد اقالة وزارة سليمان النابلسي؛ لكن وزارة الخالدي ما لبثت ان قدمت استقالتها بعد اسبوع من تشكيلها.

* **زيد الرفاعي** (١٩٣٦ –   ): سياسي اردني، ابن سمير الرفاعي (رئيس وزراء اردني). درس في الولايات المتحدة وعمل في البلاط الملكي الاردني وفي السلك الدبلوماسي منذ ١٩٥٧، كما شغل وظيفة السكرتير الشخصي للملك حسين. رئيس الوزراء ووزير الخارجية والدفاع (١٩٧٣ – ٧٦).

* **سعد جمعة** (١٩١٦ –   ): سياسي ورجل دولة اردني. درس في جامعة دمشق وعمل في الجهاز الاداري والدبلوماسي مدة طويلة واصبح سفيراً للاردن لدى الولايات المتحدة الاميركية (١٩٦٢ – ٦٥)، ثم وزيراً للبلاط الملكي (١٩٦٥ – ٦٧)، فرئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع بين نيسان وتشرين الاول ١٩٦٧. عرف بميوله للسياسة الغربية وولائه للعرش الاردني وصداقته الشخصية لبعض الاقطاب بمن فيهم المعارضين وقربه من الوسط الأدبي والثقافي. له بعض المؤلفات ابرزها كتاب عن حرب حزيران ١٩٦٧.

* **سليمان طوقان** (١٨٩٠ – ١٩٥٨): سياسي ورجل دولة فلسطيني – اردني. درس الحقوق والعلوم العسكرية في استانبول. رئيس بلدية نابلس (١٩٢٥ – ٤٨). من مؤسسي حزب الدفاع الوطني المساير لبريطانيا والمعارض للحاج امين الحسيني زعيم الحركة الوطنية الفلسطينية. وقف مناهضاً للثورة الفلسطينية الكبرى. تعاون مع الامير (الملك) عبد الله الذي عينه عضواً في مجلس الاعيان ثم نائباً لرئيس المجلس. وزير الدفاع الاردني (١٩٥١ – ٥٧)، ووزير البلاط (١٩٥٣ – ٥٥). عينه الملك حسين حاكماً عسكرياً لثلاثة اشهر على اثر انفجار الخلاف بين الملك والحركة الوطنية ممثلة بحكومة سليمان النابلسي. وزير دفاع من جديد (١٩٥٧ – ٥٨)، ووزير دفاع في حكومة الاتحاد العربي الهاشمي (الاردن – العراق). اغتيل في بغداد على اثر وقوع ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق.

* **سليمان النابلسي** (١٩١٠ –   ): سياسي اردني. ولد في مدينة السلط ودرس في جامعة بيروت الاميركية. مدير المصرف الزراعي الاردني (١٩٤٦). وزير المالية والاقتصاد (١٩٤٦ – ٤٧) و (١٩٥٠ –

٥١). سفير للاردن في لندن (١٩٥٣ – ٤٥). احد مؤسسي الحزب الاشتراكي الوطني (١٩٤٥). انتهج سياسة موالية للرئيس المصري جمال عبد الناصر ومناوئة للسياسة الغربية. احرز حزبه نجاحاً في انتخابات ١٩٥٦، وأصبح رئيساً للحكومة ووزيراً للخارجية (١٩٥٦ – ٥٧). اقاله الملك حسين (١٩٥٧).

* **سمير الرفاعي** (١٨٩٩ – ١٩٦٥): سياسي اردني من مواليد فلسطين. خلف توفيق ابو الهدى في رئاسة الوزراء بامارة شرقي الاردن (١٩٤٤). ترأس الوفد الاردني للتوقيع على «ميثاق الزعفران» تمهيداً لقيام جامعة الدول العربية. استدعاه الملك حسين لتأليف الوزارة الاردنية عقب احداث ١٩٥٦، فبقي رئيساً للوزراء من ١٩٥٦ الى ١٩٥٩. عاد وشكل وزارة في ١٩٦٣.

* **طلال بن عبد الله، الملك** (١٩٠٩ – ١٩٧٢): ملك الاردن. ولد في مكة، الابن الاكبر لعبد الله بن الحسين. والد الملك حسين. انضم الى الفيلق العربي (١٩٢٧)، وامضى سنتين في كلية سانت هيرست العسكرية البريطانية. رافق جده الشريف حسين الى منفاه في جزيرة قبرص. نال رتبة لواء (١٩٤١) وفريق (١٩٤٨)، وخدم في جيش العراق. تولى عرش الاردن إثر اغتيال والده الملك عبد الله (تموز ١٩٥١). نحّاه مجلس الاعيان عن العرش في آب ١٩٥٢، بسبب ما أعلن عن انهيار قواه العقلية. اقام في مصح تركي حتى وفاته.

* **عبد الحميد شرف** (١٩٣٨ – ١٩٨٠): سياسي ودبلوماسي من العائلة المالكة في الاردن. درس في الجامعة الاميركية في بيروت، وانتسب الى حركة القوميين العرب. بعد حصوله على الماجيستر في مطلع الستينات، عاد الى الاردن فقربه الملك حسين اليه. وعين رئيساً لقسم الشؤون العربية في وزارة الخارجية، فمديراً للاذاعة، فمديراً في البلاط الملكي، فوزيراً للاعلام (١٩٦٥ – ٧٠)، ثم سفيراً لدى الولايات المتحدة (١٩٧٢ – ٧٦)، فوزيراً في البلاط (١٩٧٦). وفي كانون الاول ١٩٧٩، عين رئيساً للوزراء، إلا ان الموت عاجله في صيف ١٩٨٠ نتيجة ذبحة قلبية.

* **عبد السلام المجالي** (١٩٢٥ –): من مدينة الكرك، جنوب الاردن. انهى دراسة الطب في سورية، ثم تخصص في لندن والولايات المتحدة في امراض الانف والاذن والحنجرة. طبيب خاص للملك حسين بين ١٩٦٧ و ١٩٧٩. بدأ حياته السياسية في العام ١٩٦٩ مع توليه حقيبة الصحة وشؤون رئاسة الوزراء ١٩٦٩–٧١، ومن ثم حقيبة التعليم ١٩٧٦–٧٩. عين رئيساً لجامعة عمان ١٩٧١–٧٦، ثم مستشاراً للملك حسين حتى ١٩٨٩. في تشرين الاول ١٩٩١، اختاره الملك لرئاسة الوفد الاردني الى مفاوضات السلام مع اسرائيل التي بدأت مع مؤتمر مدريد. رئيس الوزراء منذ اواسط ١٩٩٣.

* **عبد الله بن الحسين، الملك** (١٨٨٢ – ١٩٥١): ملك المملكة الاردنية الهاشمية (١٩٤٦ – ١٩٥١) بعد ان كان أمير إمارة شرقي الاردن (١٩٢١ – ١٩٤٦). الإبن الثاني لشريف مكة، ملك الحجاز (١٩١٧) الحسين بن علي المتحدر من قريش. تلقى علومه في استانبول التي انتقل اليها مع والده الذي استدعاه الاتراك للاقامة عندهم تحت المراقبة لشكهم في ولائه لهم. بعد ثورة تركيا الفتاة (١٩٠٨)، عاد الى مكة مع والده الذي اعيد اميراً عليها. فوضه والده التباحث مع المعتمد البريطاني في مصر، وقد ادت هذه الاتصالات الى مراسلات حسين – مكماهون الشهيرة. شارك في الثورة العربية الكبرى التي قادها والده (١٩١٦). وفي ١٩١٧ عينه والده وزيراً لخارجيته ومستشاراً سياسياً له بعد ان اعلن ملكاً على الحجاز. عند إعلان اخيه فيصل ملكاً على سورية وإسقاط الفرنسيين لعرشه، حشد عبد الله جيشاً (كان لا يزال مع والده الشريف حسين) لاسترداد العرش الهاشمي لأخيه. فوصل الى عمان في آذار ١٩٢١. فسارع وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل واقترح عليه البقاء حيث هو فتعترف به بريطانيا اميراً على شرقي الاردن مقابل صرف النظر عن نيته مهاجمة الفرنسيين وتطلعاته في العراق. اقرت صيغة تشرشل، وبعد عامين تقريباً (ايار ١٩٢٣) اعترفت بريطانيا بشرق الاردن امارة مستقلة ضمن الانتداب البريطاني على فلسطين. وبقيت تراود الامير عبد الله فكرة حكم اتحاد سورية الكبرى او الهلال الخصيب بتأييد تكتيكي من الانكليز ومعارضة مفتي فلسطين الحاج امين الحسيني اضافة الى معارضة فرنسا. اعتمد حكم الامير على المساعدات البريطانية. في الثلاثينات انشأ الانكليز قوة حدود

شرقي الاردن التي تطورت الى «الجيش العربي». شارك الامير عبد الله في جهود تأسيس الجامعة العربية، واصبح ملكاً (ايار ١٩٤٦) عندما منحت بريطانيا الاستقلال لشرقي الاردن. اقام إتصالات مع قادة يهود، لكنه لم يتوصل الى اتفاق معهم. وعندما اندلعت حرب فلسطين (١٩٤٨) سمي قائداً عاماً لجيوش الدول العربية في فلسطين، إلا ان تلك التسمية بقيت شكلية إذ تابع كل جيش عربي خطته على انفراد. وتجنبت قوات الملك عبد الله الوجود في المناطق التي منحها قرار تقسيم فلسطين (الصادر عن الامم المتحدة) للكيان الاسرائيلي، الأمر الذي دفع البعض الى الصاق بعض التهم السياسية فيه. وقد مكنت المحادثات السرية المباشرة بينه وبين الزعماء اليهود من تخطي العقبات الرئيسية في مفاوضات رودس. وفي ١٩٤٩ تمكن الملك عبد الله من عقد مؤتمر أريحا الذي جمع فيه عدداً من وجهاء فلسطين لاعلان ضم الضفة الغربية الى المملكة الاردنية الهاشمية. وبالمقابل فان الدول العربية سحبت معارضتها القوية لضم الضفة الغربية الى المملكة الاردنية عند اعلان ذلك رسمياً في نيسان ١٩٥٠. اغتاله شاب فلسطيني عند باب المسجد الأقصى في القدس (٢٠ تموز ١٩٥١). عرف عن الملك المحافظة والتفرد وتفضيل مشاورة الوجهاء على اعتماد المؤسسات التمثيلية، وكان على جانب من الفصاحة والبلاغة والتمرس بالادب.

* **عبد الله التل** (١٩١٩ –): ضابط اردني من مدينة اربد. اشتهر اثناء معارك القدس (١٩٤٨) حيث تسلم قيادة المدينة. وعرف عنه عدم تعاطفه مع بعض الانظمة العربية والبريطانيين. عمل على عرقلة مخططات إقامة صلح مع اسرائيل. استقال من الجيش الاردني (١٩٤٩) وغادر الاردن وأقام في مصر كلاجئ سياسي. اتهم بالمشاركة باغتيال الملك عبد الله. تكلم في مذكراته المنشورة على دور انظمة عربية «متخاذلة». عاد الى إربد (١٩٦٥) معتزلاً السياسة.

* **عبد المنعم الرفاعي** (١٩١٧ –): سياسي ودبلوماسي وشاعر اردني. خريج الجامعة الاميركية في بيروت. التحق في خدمة الملك عبد الله (١٩٣٨) وتقلب في المناصب الادارية والدبلوماسية واصبح وزيراً للخارجية (١٩٦٨ – ٦٩)، ورئيساً للوزراء (١٩٦٩)، ونائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للخارجية (١٩٦٩ – ٧٠)، وممثلاً شخصياً للملك حسين (١٩٧٢ – ٧٣). عرف بموالاته للعرش الاردني، ومسايرته لبعض القيادات الفلسطينية.

* **علي ابو نوار** (١٩٢٥ –): عسكري ودبلوماسي اردني. ولد في السلط، وتخرج في الكليات الحربية البريطانية. لمع اسمه أثر الانقلاب ضد غلوب باشا (١٩٥٦)، وعين رئيساً لأركان الجيش الاردني. لجأ الى مصر إثر التطورات التي حصلت في الاردن العام ١٩٥٧ ومكث فيها حتى ١٩٦٤، ثم عاد الى الاردن واصبح الممثل الشخصي للملك حسين في تشرين الاول ١٩٧٠ حتى شباط ١٩٧١. شغل منصب سفير للاردن في اكثر من بلد اوروبي.

* **فؤاد نصار** (١٩١٤ – ١٩٧٦): الامين الاول للحزب الشيوعي الاردني (١٩٥١ – ١٩٧٦)، واحد ابرز الشيوعيين الفلسطينيين. ولد في بلدة بلودان السورية، حيث كان والداه يعملان في التعليم. اعتقل (١٩٣٦) بتهمة تشكيل منظمة سرية معادية للانتداب البريطاني وسجن لمدة سنتين. قاد ثورة منطقة القدس – الخليل (١٩٣٩) خلفاً لعبد القادر الحسيني الذي جرح في إحدى المعارك. شارك في حركة رشيد عالي الكيلاني (آذار ١٩٤١). وحين تأسس «مؤتمر العمال العرب في فلسطين» (آب ١٩٤٥)، انتخب اميناً عاماً له. وفي حرب ١٩٤٨، كان في الضفة الغربية للاردن. وبعد ضم الضفة الغربية للاردن، انتخب فؤاد نصار اميناً عاماً «للحزب الشيوعي الاردني» (اول ايار ١٩٥١) الذي اعلنت عن تأسيسه «عصبة التحرر الوطني». وظل في منصبه هذا حتى وفاته إثر إصابته بداء السرطان.

* **قاسم الريماوي** (١٩١٨ – ١٩٨٢): سياسي ورجل دولة فلسطيني اردني. ولد في بيت ريما بفلسطين ودرس في القدس وانتسب الى الحزب العربي (١٩٤٤) ثم الى قوات الجهادالمقدس مع عبد القادر الحسيني. بعد قيام إسرائيل (١٩٤٨)، قصد دمشق والقاهرة وعين سكرتيراً عاماً لحكومة عموم فلسطين التي تألفت في مدينة غزة (١٩٤٩). عمل مع الوفد الفلسطيني في الامم المتحدة ونال شهادة الدكتوراه من جامعة كولومبيا (١٩٥٦). عاد الى الاردن حيث عمل مديراً لمناجم شركة الفوسفات الاردنية. وفي ١٩٦١ انتخب نائباً في البرلمان الاردني، ثم رئيساً لمجلس النواب الاردني

وعضواً في مجلس الاعيان، كما عين عضواً في اول لجنة تنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية برئاسة احمد الشقيري. نشط في الاوساط البرلمانية الدولية كمندوب للاردن لشرح القضية الفلسطينية.

في ١٩٧٩، عين وزيراً للزراعة في حكومة عبد الحميد شرف الذي توفي فجأة (٣ تموز ١٩٨٠) فأسندت الى الريماوي رئاسة الوزارة ووزارة الدفاع، لكنه ما لبث ان استقال بعد اقل من شهرين. له عدة كتب بالانكليزية.

* **كامل عريقات** (١٩٠٦ –   ): رجل دولة اردني. من مواليد قضاء القدس. درس في رام الله، ودرس القانون في القدس. موظف في بوليس فلسطين اثناء الانتداب البريطاني. عمل (١٩٤٦) في كتائب الفتوة و «الجهاد المقدس» في منطقة القدس الغربية حتى ١٩٤٨. التحق بعد ذلك بالاردن حيث اصبح نائباً في مجلس النواب الاردني، فوكيلا لرئيس المجلس (١٩٥٠ – ٦٧).

* **محمد الفرا**: سياسي اردني ولد في مدينة خان يونس بفلسطين حيث انهى دروسه الابتدائية، ثم انتقل الى مدينة يافا لاكمال تعليمه. عمل في مكتب للمحاماة. سافر الى الولايات المتحدة ونال شهادة البكالوريوس من جامعة سافولك في بوسطن؛ ثم حصل على شهادة الدكتوراه في القانون (١٩٥٨) من جامعة بنسلفانيا. عمل فترة وجيزة مع مكتب البعثة السورية في نيويورك، ثم مع مكتب الجامعة العربية. شغل عدة مناصب دبلوماسية رفيعة في الاردن ولدى الامم المتحدة، وتبوأ عدة مناصب خلال عمله سفيراً للاردن في الامم المتحدة، منها رئاسة مجلس الامن الدولي وعدة مراكز اخرى في اللجان المختلفة. امين عام مساعد للجامعة العربية (١٩٩٠). نشر كتابه «سنوات بلا قرار» باللغتين الانكليزية والعربية، وهو يعكس خبراته في الميدان الفلسطيني.

* **منيف الرزاز** (١٩١٩ – ١٩٨٤): سياسي ومفكر عربي اردني. ولد في دمشق، ورحل مع والده الى الاردن العام ١٩٢٣، حيث درس الابتدائية والاعدادية في عمان، والثانوية في الكلية العربية في القدس (١٩٣٧)، والتحق بالجامعة الاميركية حتى ١٩٣٩. عمل مدرساً في عمان حتى ١٩٤١. درس الطب في القاهرة وتخرج في ١٩٤٦، ومارس مهنة الطب في عمان حيث اسس مع آخرين جمعية الهلال الأحمر الأردني، ونشط في اللجان القومية لنصرة فلسطين في الاردن.

انضم الى حزب البعث العربي الاشتراكي في اواخر ١٩٤٩. سحبت منه الجنسية الاردنية وتم نفيه العام ١٩٥٢، إلا انه عاد على اثر تغيير حكومي في العام التالي. اعتقل في نيسان ١٩٥٧ حتى ١٩٥٨. امين سر قطر الاردن (١٩٥٩). بعد الانفصال (سوريا عن مصر)، اودع السجن. انتخب في المؤتمر القومي الثامن لحزب البعث (نيسان ١٩٦٥) اميناً عاماً للحزب. فانتقل من الاردن الى دمشق، ومنها الى لبنان فأوروبا، ثم عاد الى عمان (ايلول ١٩٦٧). وفي ١٩٦٩، التحق بقيادة جبهة التحرير العربية، واعتقل في ايلول ١٩٧٠، وفي حزيران ١٩٧٦. اصبح عضواً في القيادة القومية واميناً عاماً مساعداً للحزب (الجناح العراقي) بعد المؤتمر الحادي عشر، فانتقل من الاردن الى العراق. وفي ١٩٧٩، اقيل من منصبه وفرضت عليه الاقامة الجبرية وبقي فيها حتى وفاته، ودفن في الاردن. وتكريماً لذكراه، كرست رابطة الكتّاب الاردنيين جائزة فكرية للدراسات القومية باسمه.

وعلاوة على نشاطه القومي والحزبي والسياسي، وضع مساهمات فكرية مرموقة. له مجموعة من المؤلفات نشرت في كتب وكراريس. وقد جمعت أعماله في ثلاثة مجلدات صدرت في بيروت ١٩٨٦.

* **وصفي التل** (١٩٢٠ – ١٩٧١): سياسي ورجل دولة اردني. درس في الجامعة الاميركية في بيروت. عمل مدرساً (١٩٤١ – ٤٢)، ثم خدم في الجيش البريطاني (١٩٤٢ – ٤٥). انضم الى جيش الانقاذ (١٩٤٨)، ثم التحق لبضعة أشهر بالجيش السوري. التحق بعد ذلك بالادارة الاردنية ابتداء من ١٩٤٩. عين سفيراً للاردن في العراق (١٩٦١ – ٦٢)، ورئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع من كانون الثاني ١٩٦٢ الى آذار ١٩٦٣. عاد الى رئاسة الوزراء من ١٩٦٥ الى ١٩٦٧، ومن تشرين الاول ١٩٧٠ الى تشرين الثاني ١٩٧١. عرف بتشدده من المعارضة الاردنية، وموقفه الصلب من منظمات المقاومة الفلسطينية التي اتهمها باستباحة سيادة الاردن وتهديد امنه، فشن عليها حرباً من ايلول ١٩٧٠ الى ايلول ١٩٧١. اغتاله اربعة فدائيين من منظمة ايلول الأسود الفلسطينية في القاهرة (تشرين الثاني ١٩٧١).

أرض الصومال، جمهورية

وضعية انفصالية معلّقة

منذ اليوم الاول لاعلان انفصال شمال الصومال عن الشطر الجنوبي من البلاد (الصومال)، وتأسيس ما بات يعرف بـ «جمهورية أرض الصومال» في ١٨ ايار ١٩٩١، حتى اليوم (آخر ايار ١٩٩٣)، لم تعترف دولة بها بعد رغم اصرار الحكم فيها على الامم المتحدة التعامل معها على اساس ان الانفصال نهائي وان الحكم فيها بات يمثل دولة مستقلة.

إزاء هذا الوضع، دأبت القيادة السياسية في «جمهورية ارض الصومال» على توجيه نداء تلو الآخر الى الهيئات الدولية والمنظمات الانسانية لمساعدتها في اطعام شعب يبلغ تعداده نحو مليوني نسمة، ويشهد تدهوراً إقتصادياً لا بسبب الحروب الأهلية – القبلية (كما في الجزء الجنوبي من الصومال)، وانما لافتقار الشمال لمقومات الحياة الاقتصادية الضرورية.

وبالفعل، فان ما يزيد على عشر منظمات إنسانية، غير حكومية، استجابت لنداء الاستغاثة، واقامت مراكز عدة في المدن الرئيسية والقرى النائية. ولكن، بالنظر الى ان الهيئات الانسانية غير الرسمية لا يمكنها تحمل عبء تغذية ومعالجة شعب كامل الى أجل غير محدد اضافة الى عدم قدرتها (ولا صلاحيتها)على تلبية مطالب «الدولة»، فإنها أخذت تخفف وجودها وتقلص دعمها، ما ترك حكومة «أرض الصومال» في موقف حرج للغاية، واجبرها على حصر عملها الدبلوماسي ببذل

مساعي اطلاع المجتمع الدولي على حقيقة الوضع الاقتصادي في شمال الصومال.

وزارت وفود غربية رسمية تمثل جهات رسمية المناطق المحتاجة للمواد الغذائية، كان آخرها بعثة فرنسية حكومية، مع ابداء الحكومة الفرنسية حرصها على عدم تفسير موقفها وكأنه شكل من أشكال الاعتراف السياسي بـ «جمهورية ارض الصومال» وحصره بأنه «مهمة انسانية خالصة ولا يحمل اية دلالة دبلوماسية».

وكانت حكومة رئيس «ارض الصومال»، عبد الرحمن أحمد علي الملقب بـ «تور»، طرقت ابواب اثيوبيا، وجيبوتي، واريتريا، والسودان، وعدد من العواصم الغربية، والامم المتحدة، وجامعة الدول العربية، ومنظمة الوحدة الافريقية، والمؤتمر الاسلامي للحصول على الاعتراف، الا ان احداً لم يقدم على ذلك حتى الآن. والجدير ذكره ان بعض الدول الغربية التي دعمت في الماضي «الحركة الوطنية الصومالية» (ومناطقها الأساسية، ومناصروها في الشمال الصومالي حيث اليوم «جمهورية ارض الصومال»)، إبان حربها ضد نظام الرئيس الصومالي السابق الجنرال محمد سياد بري، كانت تشجع على الانفصال وتعرب عن استعدادها للاعتراف بـ «جمهورية ارض الصومال». لكن اليوم، أخذت هذه الدول تشترط على حكومة أرض الصومال ان تحظى اولاً باعتراف حكومة الجزء الجنوبي من البلاد. وبما ان الجنوب لا يزال يفتقر لحكومة مركزية ولا يزال محكوماً بالفوضى بصورة عامة (رغم عملية «اعادة الأمل» الدولية التي جاءت بقوات عسكرية دولية، خصوصاً اميركية، الى ارضه)، فإن قرار اعتراف الغرب بانفصال شمال الصومال اضحى مرهوناً لا بعودة السلام واستتباب الأمن في مقديشو (عاصمة الصومال)، وانما بمشروع مصالحة جميع الأطراف الصومالية، بما في ذلك الشماليون.

والسياق العام لهذه الوضعية الانفصالية التي مضى عليها عامان، والموقف الدولي منها لجهة الاعتراف يمكن اعتباره انه يسير في اتجاه الاعتراف بـ «جمهورية ارض الصومال»، بدليل ما أعلنه (في ٢٨ ايار ١٩٩٣) مبعوث الامم المتحدة الى الصومال، الجنرال جوناثان هاو، خلال زيارة الى العاصمة هرغيسا، عن عزمه على المساعدة في اعادة بناء «الجمهورية» التي اعلنت انفصالها عن الصومال. واجرى محادثات مع الرئيس المنتخب الجديد للجمهورية محمد ابراهيم عقال، واعلن بعد ذلك ان الامم المتحدة ترغب في تسهيل عملية الاسراع باعادة إحياء الاقتصاد وتحسين الخدمات الصحية والتعليمية، واعداد دستور للبلاد ورسم حدود الجمهورية. وقبل زيارة هاو، كانت مصادر أخرى في الامم المتحدة تقول ان المنظمة الدولية تريد ارسال قوات تصل الى ٣٠ ألف جندي للاشراف على الامن في ارض الصومال. لكن زعماء الجمهورية الجديدة، رغم انهم لم يحصلوا بعد على اعتراف من أي دولة، يصرون على ان تعاملهم الامم المتحدة كدولة مستقلة، سواء لجهة إرسال قواتها أو غيرها من الأمور.

مشكلات الانفصال و«الاستقلال»

أغلب المتقاتلين – «أمراء الحرب» – في الصومال عموماً كما في الأجزاء المتفسخة الأخرى، بما فيها ارض الصومال الشمالية، كانوا من ركائز نظام الرئيس الصومالي السابق محمد سياد بري. وجميعهم يتهمون، وهم يتناحرون، هذا النظام بتبديد خيرات البلاد وتدمير الاقتصاد وإشعال نار الحروب القبلية في سنواته الاخيرة.

فزعيم «التحالف الوطني الصومالي» الجنرال محمد فارح عيديد ترعرع في كنف الجيش الذي

كان يقوده الرئيس بري، ولم يتمرد الا عندما اوشكت سفينة النظام السابق على الغرق. ورئيس «جمهورية ارض الصومال»، من إعلان الانفصال حتى اواسط ١٩٩٣، عبد الرحمن تور كان لسان حال دبلوماسية الصومال في عهد بري، ولم يلتحق بـ «الحركة الوطنية الصومالية» (التي اتخذت حصناً لها في الشمال) إلا بعدما قوي عودها وترسخت أقدامها. وهذه هي حال اغلب القيادات السياسية والعسكرية في الصومال وأجزائه المقسمة في الوقت الراهن.

منذ قرار الانفصال في ١٨ ايار ١٩٩١، لم تذق «ارض الصومال» طعم الاستقرار الأمني والسياسي، وذلك لأسباب جوهرية تعود الى طبيعة تركيبة المجتمع الصومالي القبلية من ناحية، والى اسلوب الاداء السياسي للقيادات مع هذه الوضعية الاجتماعية من ناحية أخرى. ويمكن، بالطبع، إضافة عامل الأثر الخارجي المتمثل بمصالح الدول الأجنبية الضاربة عميقاً في المنطقة، وصاحبة الارث التاريخي والخبرة الطويلة في سياسة «فرق تسد».

مجلس تأسيسي ومشكلة الجيش: تألف اول مجلس تأسيسي في جمهورية ارض الصومال من ١٠٥ أعضاء وزّعوا على الشكل التالي: ٤٥ من الاسحاقيين، ٢٥ دولبهانهتيون، ٢٠ غدابورسيون، ١٠ ورسنغليون، و٥ عيساويون. ولم تنل القبائل الاسحاقية التي تشكل غالبية سكان شمال الصومال إلا اقل من نصف مجمل اعضاء المجلس التأسيسي، وذلك حرصاً على عدم توليد المخاوف لدى القبائل الأخرى من هيمنة الاسحاقيين. لكن هذا الحرص لم يؤخذ في الحسبان عندما شكلت اول حكومة للجمهورية من ١٧ وزيراً، حيث كان نصيب القبائل الاسحاقية فيها ١٢ حقيبة وزارية، في حين ان القبائل الأخرى لم تسند اليها إلا ٥ وزارات، وكان ذلك محط استيائها.

مع ذلك، فإن العقبة الكأداء التي واجهتها هذه الحكومة (برئاسة عبد الرحمن تور) منذ اليوم الأول هي مشكلة تأسيس جيش وطني على انقاض القوات القبلية. وقد كانت (قبل تشكيل الحكومة) القوات المسلحة «للحركة الوطنية الصومالية» موزعة على خمس فرق: الاولى تابعة لقبيلة حبرجالو، والثانية لقبيلة حبريونس، والثالثة لقبيلة اداغالي، والرابعة والخامسة لقبيلة حبراول، كبرى القبائل الاسحاقية. هذا فضلاً عن الوحدات العسكرية الاربع التابعة للقبائل الدارودية والعيساوية. وهذا يعني ان «جمهورية ارض الصومال» لا يوجد فيها جيش واحد، بقدر ما توجد فيها تسع قوات عسكرية قائمة على ارضية قبلية، ويقودها سياسيون ليست لهم مصلحة في صهر هذه القوات في بوتقة جيش وطني. فالسلطة السياسية والاقتصادية لأية قبيلة من قبائل البلاد ليس لها معنى عملي ما لم تركز على قوة عسكرية قبلية تصون افراد القبيلة من اعتداءات القبائل الأخرى، وتكفل لأبنائها حق الفوز بحصة ما في لعبة توزيع الادوار السياسية التي تهدد، في كل لحظة، باسقاط قناع تلاحم سكان شمال الصومال (جمهورية ارض الصومال) الذي يحجب عن الانظار مخاطر التفكك القبلي على غرار ما حدث في جنوب البلاد.

إضافة الى ذلك، فإن الرئيس عبد الرحمن علي تور وقوات قبيلته «حبريونس» لم يسيطرا الا على بعض اجزاء العاصمة هرغيسا، فيما تخضع المناطق الأخرى لنفوذ بقية القبائل الاسحاقية، والقبائل الدارودية والعيساوية. ومع حلول ١٩٩٣، لم يعد تور الشخص الاول في البلاد التي أُسندت إدارتها الى قيادة جماعية ريثما يعقد المؤتمر الوطني العام «للحركة الوطنية الصومالية» الذي حُدد موعد انعقاده في نيسان ١٩٩٣ لبت مصير هذا الجزء الشمالي من الصومال، خصوصاً وان بعض الاصوات عادت تنادي بالعدول عن قرار الانفصال، وتطالب بالبحث عن صيغة فيديرالية أو كونفيديرالية لعموم اجزاء الصومال.

ارض الصومال وعملية «إعادة الأمل»: هذه العملية التي تمت (اواخر ١٩٩٢)تحت راية الامم المتحدة، لكن بمشاركة ونفوذ مهيمن للولايات المتحدة الاميركية، فانتشرت على اثرها الجيوش المشاركة (خاصة المارينز الاميركيين) انطلاقاً من العاصمة الصومالية مقديشو وبحجة وقف الاقتتال بين القبائل وتوزيع الأغذية على الصوماليين الذين كان الجوع قد بدأ يفتك بهم، إزاء هذه العملية سارعت «جمهورية ارض الصومال» الى التحذير من اي تحرك عسكري دولي نحوها لأنه سيعرقل عملية السلام التي يقودها حكماء البلاد. وبالمقابل، حذّرت الامم المتحدة جمهورية ارض الصومال من عرقلة خطة المنظمة الدولية توسيع انتشار قواتها ليشمل تلك الجمهورية، او «مواجهة العواقب». وكان مسؤولو الامم المتحدة وقيادة القوات الاميركية في الصومال يتجنبون ذكر «جمهورية ارض الصومال» ويشيرون اليها بموقعها في شمال البلاد.

واستمر زعماء قبائل «الجمهورية» وحكماؤها حتى اليوم (آخر ايار ١٩٩٣) على موقفهم الرافض إرسال قوات الامم المتحدة (القوة المتعددة الجنسيات بقيادة اميركية) الى ارضهم، والمعبّر عنه في بيانهم الصادر في آخر شباط ١٩٩٣، حيث جاء: «علمت جمهورية ارض الصومال بدهشة وقلق ان الامين العام للامم المتحدة سيعرض على مجلس الأمن خطة لعملية في الصومال تتضمن ارسال قوات الى مناطق الشمال الشرقي سابقاً والتي تشكل الآن جمهورية ارض الصومال ... ونعتبر إرسال هذه القوات في شكل اعتباطي الى بلادنا غزواً اجنبياً سنقاومه بقوة ... وإن ممثلي جميع القبائل والشعب في ارض الصومال يناشدون المجتمع الدولي والقوى الكبرى الضغط على الامين العام للامم المتحدة (بطرس غالي) لرفع يده عن بلادنا ومنع حصول مأساة غير ضرورية فيها».

انقلاب أبيض وعدم استقرار: أطاح زعماء القبائل الرئيس عبد الرحمن تور (١٨ شباط ١٩٩٣) الذي كان رئيساً للحركة الوطنية الصومالية المسيطرة على شمال الصومال، ثم رئيساً لجمهورية ارض الصومال (منذ ايار ١٩٩١)، بتهمة عدم مقدرته على احلال سلام دائم بين القبائل أو التوفيق بينها، إضافة الى فشله في الحصول على اعتراف أو تأييد دولي بـ «الجمهورية».

لكن الامور لم تستتب لزعماء القبائل، واستمرت معارك متقطعة بين القبائل خاصة في المنطقة المطلة على خليج عدن، وفيها ميناء بربرة، احد أهم الموانئ على البحر الأحمر. وقد لخّص وزير خارجية جمهورية ارض الصومال السيد يوسف علي الشيخ مطر (في بيان ارسله الى جريدة «الحياة» في ٢١ شباط ١٩٩٣) الوضع الداخلي لبلاده على الشكل التالي :

«إن الحركة الوطنية الصومالية هي التنظيم الذي حرّر الجزء الشمالي من الجمهورية الصومالية، وهي السلطة السياسية التي يرتكز عليها الائتلاف الذي شكل جمهورية ارض الصومال في ١٨ ايار ١٩٩١ . اما دور الحكماء (زعماء القبائل) في تطور هذه الجمهورية فلا يعدو دوراً ثانوياً مؤيداً للسلطة الشرعية المنبثقة عن الحركة الوطنية الصومالية والائتلاف الذي انضم اليها بعد اعلان الجمهورية (...) وقد شهدت جمهورية ارض الصومال العام الماضي محنة خلافات سياسية اتسمت بالحدة والتصلب والمواجهات العسكرية الدموية، ما اثار الشكوك في مقدرة القيادة السياسية على تجاوز الازمة الخانقة واحلال الأمن والسلام والاستقرار. وهنا بدأ دور الحكماء في اقرار الأمن يتخذ اهمية متزايدة اثبتت لهم ممارسة جادة رفعت مركزهم السياسي. لكن تضعضع سلطة القيادة السياسية نتيجة الخلافات لم يلغ سلطتها الشرعية، وإن تعرضت لهجمات دعائية ضارية وتم تجاهلها عمداً، خصوصاً من الامم المتحدة وبعض المنظمات الدولية وغير الحكومية. وتعمدت هذه المنظمات تشجيع الفئات المناوئة للحكومة، وبعض الحكماء الموالين للمعارضة الصومالية (وتساءل) من هم الحكماء الذين نسب اليهم

القيام بانقلاب ابيض وعزل الرئيس عبد الرحمن احمد علي او ابعاده، وما هو الخط او الاتجاه السياسي الذي يمثلون ؟ إن الحكماء رؤساء قبائل مختلفة يمارسون سلطة تقليدية لا تخوّل اليهم التطاول على السلطة السياسية المنبثقة عن مؤسسات الدولة الحديثة، ولا يوحّدهم فكر ايديولوجي معين ولا تجمع بينهم مصلحة سياسية او اجتماعية او اقتصادية ليتفقوا على عمل سياسي موحد (...) وليست لديهم الصلاحيات لعزل او اختيار المسؤولين السياسيين، ولم يدّعوا (الحكماء) انهم سيقومون بما لا يستطيعون».

مؤتمر الحكماء: تزايد الحديث عن حكماء ارض الصومال (زعماء قبائلها) ودورهم في ادارة شؤون البلاد مع الاعلان عن انقلاب ابيض اطاح الرئيس عبد الرحمن-أحمد تور، وان حكماء القبائل المجتمعين في إحدى مدن شمال الصومال يديرون شؤون الجمهورية (١٨ شباط ١٩٩٣). وقد سبق لهؤلاء ان عقدوا اجتماعاً في مدينة شيخ في ايلول ١٩٩٢، واعلنوا، بعد ذلك بأيام، اتفاقاً للسلام بين القبائل من ١٩ بنداً. ثم عادوا للاجتماع في مدينة بورمة (تبعد نحو ١١٠ كلم شمال غربي العاصمة هرغيسا) في ٢٤ كانون الثاني ١٩٩٣، حيث ابقوا إجتماعاتهم مفتوحة حتى اعلانهم إطاحة الرئيس عبد الرحمن أحمد تور «الموجود وغالبية اعضاء حكومته خارج ارض الصومال منذ اكثر من شهرين»، وانهم في صدد مناقشة وضع دستور جديد للبلاد، واعداد الهيكل الحكومي الجديد، وإنشاء جيش وطني وقوات شرطة، وتأسيس نظام بريدي ومصرفي، وآلية لجمع العائدات المالية وتوزيعها، وإرساء نظام للخدمة المدنية؛ وكل ذلك في إطار مناقشتهم مصير «جمهوريتهم» من دون التنازل عن حقهم في تقرير المصير ضمن دولة مستقلة.

وحضر عبد الرحمن تور (اوائل آذار ١٩٩٣) اجتماعات «بورمة». في محاولة للحفاظ على تماسك «جمهورية ارض الصومال»، ومما قاله في افتتاح الاجتماع ان الأمر «متروك لكم لكي تنهوا الفوضى»، إذ كانت الحكومة في شمال الصومال تعاني افلاساً، ونادراً ما تنفذ اوامرها حتى في العاصمة (هرغيسا)، وتطاول عمليات السرقة التي تنفذها ميليشيات القبائل موارد رزق الناس. وقال مسؤول في «وزارة الخارجية» ان ادارته لا تملك سيارات أو وسيلة اتصال مع العالم الخارجي: «ليس للحكومة سوى وجود صوري، بل لا يمكنكم القول انها موجودة. الجميع ينتظر نتائج اجتماع بورمة». وفي اطار هذه الظروف، بدأت جماعات تشكك في «الجمهورية» بعد عامين من اعلان الانفصال، وفي جدوى هذه الخطوة، وفي انها كانت فشلاً ذريعاً. وقد لخّص نائب الرئيس، حسن عيسى جامع، تقويم الوضع بقوله: «ثبت في النهاية ان عوامل قوة الحركة الوطنية الصومالية هي اساساً ضعف ارض الصومال (وعزا اكبر فشل لحكومته الى) التأخر في إنشاء نظام لتجميع العائدات ما أدّى الى دائرة فراغ بين حكومة مركزية ضعيفة وميليشيات قبلية أقوى».

وفي اواسط آذار ١٩٩٣، عقد في أديس أبابا (عاصمة اثيوبيا) «مؤتمر الوفاق الوطني الصومالي» حضره محمد ابراهيم عقال ممثلاً مجلس حكماء ارض الصومال» (أو مؤتمر الحكماء، أو مؤتمر بورمة). وفي كلمة عقال ان «مجلس الحكماء» هو السلطة الوحيدة في «جمهورية ارض الصومال»، وان المجلس سيدعو الى اجراء استفتاء على استقلال هذه الجمهورية تحت اشراف دولي. وكان مؤتمر أديس أبابا يناقش موضوع وحدة الصومال، فجاءت كلمة عقال لتثير جدلاً طويلاً، خصوصاً وانها التقت، الى حد بعيد، مع ما طرحه رئيس «التحالف الوطني الصومالي» الجنرال محمد فارح عيديد (في شكل غير مباشر) حول تقسيم الصومال عبر ادارات إقليمية يحكم كل منها احد رؤساء الفصائل الصومالية الى حين تثبيت الأمن فيها، ثم يصار الى توحيد كل البلاد.

في غضون ذلك، كان «مجلس الحكماء» يضم نحو ٢٤٠ من زعماء قبائل الشمال) مستمراً في عقد اجتماعاته التي ابقاها مفتوحة منذ ٢٤ كانون الثاني ١٩٩٣، وقرر نهائياً عزل الرئيس تور (الذي شكره عقال باسم «مجلس الحكماء» لتنازله عن رئاسة الجمهورية سلماً استناداً الى قرار الحكماء، إذ ساعد بذلك على تجنب حرب أهلية ربما كانت ستندلع في حال قرر البقاء في منصبه).

عقال رئيساً: كان محمد ابراهيم عقال اول رئيس وزراء للصومال الموحد بعد استقلاله (١٩٦٠) وقبل الانقلاب الذي جاء بالرئيس المخلوع محمد سياد بري الى السلطة في العام ١٩٦٩. وأصبح احد ابرز دعاة انفصال الشمال الصومالي بحجة وضع الشمال الخاص في إطار الظروف والأحداث والمستجدات التي نالت من الصومال (بل المنطقة بأكملها). فبرأيه ان «لأرض الصومال وضعاً خاصاً يختلف كلياً عن بقية البلاد. ففي الوقت الذي يعاني جنوب البلاد من انقسامات وحروب قبلية قضت على بنيته التحتية، كانت ارض الصومال تبني مؤسساتها في اجواء وفاق بين جميع قبائلها. كما لم نعانِ في ارض الصومال من مجاعة تتطلب ارسال كميات ضخمة من مواد الاغاثة وقوات لحمايتها. لذلك تخطئ الامم المتحدة عندما تتعامل مع قضيتنا في اطار جنوب الصومال الذي يفتقد قيادة سياسية موحدة في حين يقود ارض الصومال مجلس واحد (...) وعلى رغم اتفاق جميع ابناء الشمال على الاستقلال، فإننا سنجري استفتاء على هذا الاستقلال لاعطائه شرعية دولية ونرحب بأي هيئة دولية او إقليمية للاشراف على نزاهة هذا الاستفتاء».

وفي إطار مواصلته لأعماله، قرر «مجلس الحكماء» (مؤتمر بورمة)، في نيسان ١٩٩٣، تأليف حكومة مؤقتة لادارة شؤون البلاد الى حين اجراء انتخابات عامة، والتأكيد على استقلالية ارض الصومال منفصلة عن جنوب الصومال، واقامة برلمان، ووضع اسس نظام خاص باعادة هيكلية الدولة وبناها قبل تحديد طبيعة العلاقة مع جنوب الصومال، أما على رأس مهمات الحكومة المؤقتة (بحسب قرارات مجلس الحكماء) جمع السلاح من الافراد، وتأسيس قوة شرطة لحفظ الامن والاستقرار. وكان المؤتمر دعا رجال القبائل في الجمهورية الى تنظيم حمل السلاح والأمن كل في منطقته الى ان تتولى قوات الشرطة التي سيتم تشكيلها حفظ الامن والنظام في البلاد.

وفي ١٠ ايار ١٩٩٣، انتخب مجلس الحكماء رئيساً جديداً «لجمهورية ارض الصومال» هو محمد ابراهيم عقال؛ وعين عبد الرحمن أوعلي نائباً لرئيس الجمهورية؛ وتولى رئاسة مجلس الشورى (البرلمان) علي خليف جاليد. وينتمي عقال الى القبيلة الرئيسية وهي الاسحاق، ونائبه أوعلي من قبيلة غدابورسي، وجاليد (رئيس البرلمان)من قبيلة دولباهنتي. ويحاول عقال ان يكون هذا التوزيع عادلاً بين كل القبائل الشمالية. لكن الرئيس السابق تور وانصاره رأوا ان هذا التوزيع جاء مجحفاً بحق قبيلة الاسحاق لأن «الحركة الوطنية الصومالية التي ينتمي غالبية انصارها الى قبيلة الاسحاق هي التي طردت قوات الرئيس الصومالي السابق محمد سياد بري من شمال البلاد ويحق لها تسلم المراكز الرئيسية في الجمهورية الجديدة».

على الأثر، بدأت تنشط معارضة داخلية حمل لوائها محمد حسن محمود، الامين العام لـ «حزب الاتحاد الصومالي» (غالبيته من قبيلة دولباهنتي الشمالية، احد فروع قبيلة الدارود المنتشرة في معظم انحاء الصومال، خصوصاً في جنوبه)؛ وشعاره السياسي الاساسي التحذير من اندلاع حرب اهلية جديدة في شمال الصومال «اذا أصرّت قبائل الاسحاق على انفصال شمال البلاد عن جنوبها ... لأن التركيبة الاجتماعية للشعب الصومالي صارت مزيجاً مختلطاً من جميع القبائل. والانفصال يزيد من حال تفكك القبائل التي بدأت منذ العام ١٩٨٨».

من جهة أخرى، بدأ مجلس الممثلين (البرلمان) في «جمهورية ارض الصومال» التي اعلنت دولة مستقلة في ايار ١٩٩١، اعداد قوانين الاستفتاء على استقلال الدولة التي لم تحظ حتى الآن (٣١ تموز ١٩٩٣) بأي اعتراف دولي. وعين المجلس رئيساً جديداً له هو السيد عبدي حابسدي.

شمال شرقي الصومال، دويلة

في اطار التفسخ والتقاتل القبلي ومسلسل الانفصالات التي بدأت تضرب الصومال الموحد مع انهيار نظام الرئيس محمد سياد بري، اعلنت «الجبهة الديمقراطية لانقاذ الصومال» فك الروابط بين منطقة شمال شرقي الصومال وبقية اجزاء البلاد التي صارت مقسمة دويلات عدة يحكمها زعماء القبائل (شباط ١٩٩٣). وعينت الجبهة التي يرأسها الجنرال محمد أبشر موسى رئيساً لادارة «الحكم الذاتي» في تلك المنطقة المطلة على البحر الأحمر والمحيط الهندي هو بوقر عبد الله بوقر موسى. وقد سارع هذا الى تشكيل مجلس إدارة يتولى اعضاؤه مسؤولية حكم المنطقة، واعلان مدينة بوصاصو (بووساسو)، المطلة على البحر الأحمر، عاصمة لمنطقة الحكم الذاتي، ودعا الامم المتحدة ومنظمات الاغاثة الدولية وحكومات العالم الى التعامل معه مباشرة في كل ما يتعلق بمنطقته، وأعلن انه لا يعترف بأي اجراء دولي يتخذ في شأن شمال شرقي الصومال اذا لم يستشر في ذلك.

والجدير ذكره ان «جبهة الانقاذ» هي اول تنظيم سياسي وعسكري تأسس في الصومال العام ١٩٧٨، وان الجنرال أبشر موسى كان قائداً للشرطة في عهد الرئيس محمد سياد بري.

وكانت «الحركة الوطنية الصومالية» اعلنت (كما مرّ معنا) في ١٧ ايار ١٩٩١ منطقة شمال الصومال دولة مستقلة مطلقة عليها اسم «جمهورية ارض الصومال». وفي آذار ١٩٩٢، كان رئيس «التحالف الوطني الصومالي»، الجنرال محمد فارح عيديد، أعلن حكماً ذاتياً في مقاطعات عدة جنوب البلاد ووسطها.

اتجاه عام: الرأي الغالب لدى متتّبعي أوضاع الصومال عموماً ان القبائل الصومالية الأخرى تتجه لاعلان الحكم الذاتي في المناطق الخاضعة لسيطرتها، خصوصاً بعدما فشل زعماء القبائل والفصائل، وبمناسبات عديدة، في توحيد كلمتهم والاتفاق على عمل انقاذي. ويُعزى هذا التوجه الانفصالي لدى القبائل ايضاً الى فشل الامم المتحدة والقيادة الاميركية للقوات المتعددة الجنسيات المشاركة في عملية «إعادة الأمل» في فرض حل سياسي على اطراف النزاع (هذا ما يُقال دبلوماسياً ويُروّج اعلامياً على نطاق واسع. اما الناس، افراداً وشعوباً، فيتساءلون : هل الامم المتحدة والولايات المتحدة الاميركية عاجزتان فعلاً عن فرض حل على زعماء هذه القبائل!؟). وثمة ما يشير الى ان الصوماليين بدأوا يفقدون الثقة بزعماء الميليشيات ويعودون تدريجاً بولائهم الى زعماء قبائلهم «الحكام الاساسيين لأبناء القبائل»؛ وان هذه العودة الى القبيلة تفرض تنظيماً قبلياً جديداً يتمحور حول زعامة واحدة لكل قبيلة في مناطق وجودها.

الأركتيكا والأنتاركتيكا

الأركتيكا

يعود الإسم «أركتيكا» الى الإغريق الذين لاحظوا ان كوكبة من النجوم تتنقل حول قطب ثابت في القبة الزرقاء، فدعوا المناطق الشمالية القطبية «أكتيكوس» نسبة الى كوكبة نجوم الدب. أما المنطقة القطبية الجنوبية فسميت «انتاركتيكا» لأنها عند الطرف الآخر من الأرض، المقابل لأركتيكا.

تقدم المناطق القطبية في الشمال وفي الجنوب، التي استكشفها رجال شجعان، ميزات مشتركة وفروقات في الوقت نفسه. فالمحيط الأركتيكي، الذي يحتوي في وسطه القطب الشمالي، محاط بكتل قارية أوروبية وآسيوية وأميركية شمالية وجزيرة غرونلاندا الكبرى. أما الأنتاركتيكا، الذي يتوسطه القطب الجنوبي، فكناية عن كتلة برية يحيط بها المحيط الهادىء (الباسيفيكي) والمحيط الأطلسي والمحيط الهندي. والمنطقتان : الأركتيكا والأنتاركتيكا تسيطر عليهما درجات حرارة منخفضة جداً، ويكسوهما الجليد على مدار السنة، وهما معزولتان عن باقي العالم.

في ١٩٠٩، كان الأميركيان : الأميرال روبرت بيري وماتيو هنسن أول الواصلين الى القطب الشمالي. أبحر بيري في مركب حتى وصل الى جزيرة إليسمير، ومن هناك أكمل رحلته على زلاجة. وقد قدّر عمق المحيط بنحو ٣٠٠٠م.

يجري عادة تعريف الأركتيكا بأنها المنطقة الممتدة شمالي الدائرة القطبية الأركتيكية. وهذه المنطقة ليست خالية من معالم الحياة، إذ هناك الغابات والحيوانات التي تساعد على تأمين العيش لحوالي مليون إنسان. وإضافة الى ذلك، فقد تم اكتشاف ثروات باطنية فيها. فهي غنية بآبار النفط، ومناجم الفحم وسواه من المعادن. وقد قصد المستكشفون الأركتيكا قبل الأنتاركتيكا، ذلك لأن الأولى كان أقرب الى المناطق الكبرى المأهولة.

المستكشفون الأول للأركتيكا

تركز المراجع الغربية على أن أول مستكشف، أو قاصد استكشاف الأركتيكا هو بيتياس، الرياضي ورجل العلم والملاح الأغريقي الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد. كان بيتياس يحلم ببلوغ المناطق المجهولة في ايامه والتي كانت تمتد غربي وشمالي جبل طارق (هذا الاسم – جبل طارق – يعود الى مرحلة لاحقة طبعاً). فحوالي العام ٣٣٠ ق.م. اجتاز المضيق على رأس عدد من المراكب : انها أول رحلة استكشاف معروفة باتجاه القطب الشمالي. فسارت المراكب محاذية الشاطئ الغربي لأوروبا، واجتازت المانش. ويعتقد أن بيتياس لاحظ، أثناء رحلته تلك حركة المد والجزر. فكان من أوائل الذين اعتقدوا بعلاقة في ما بينها وبين جاذبية القمر. دار حول انكلترا، ثم دخل برّها حيث سمع من يتكلم عن مقاطعة واقعة شمالاً ومحاطة بالجليد . فأبحر ثانية باتجاهها حيث وجد نفسه في موضع يدعى «تولي» (ويعتقد اليوم انها جزيرة آيسلندا)، فأحاط به ضباب كثيف

OCÉAN ARCTIQUE
relief
MER DE BEAUFORT
TERRE VICTORIA
Terre de Banks
MER DES TCHOUKTCHES
PLAINE DE BEAUFORT
BASSIN CANADIENNE
PLAINE HYPERBORÉENNE
BONNET TCHOUKTCHE
PLAINE ABYSSALE TCHOUKTCHE
I. Wrangel
MER DE SIBÉRIE ORIENTALE
AMÉRIQUE DU NORD
TERRE DE BAFFIN
MER DE BAFFIN
TERRE ELLESMERE
I. Melville
I. Parry
RIDE DE MENDELEEV
Porte d'Alis
PLAINE ABYSSALE SIBÉRIENNE
PLAINE ABYSSALE DE WRANGEL
PLAINE ABYSSALE DE MAKAROV
I. de Long
I. de Nle-Sibérie
CHAINE DE LOMONOSSOV
Pôle Nord
BASSIN DE NANSEN
GROENLAND
DORSALE DE NANSEN
FOSSE DU FRAM
Haut Fond de l'Ob
Auge de la Léna
MER DE LAPTEV
Terre du Nord (Severnaja Zemlja)
P. de Taimyr
Spitzberg
Terre François Joseph
MER DE BARENTS
MER DE KARA
ASIE
Nouvelle Terre (Novaia Zemlia)
Jenisseï
EUROPE
0 à – 200 m
– 200 m à – 3000 m
au delà de – 3000 m
limite des bassins
limite de la banquise
limite des icebergs
échelle 1/25 000 000
projection zénithale-équidistante

قال عنه «مادة لزجة تذوب فيها الأرض والهواء والبحر وحيث يصبح الكون معلقاً». فاعتقد الملاح الأغريقي انه بلغ المكان المقصود، وهو المكان الذي تنتهي الأرض عنده.

لم يعثر بعد على نصوص (أو آثار) تتحدث عن محاولات استكشاف قطبي بعد بيتياس، حتى كان القرن التاسع من عصرنا الميلادي هذا. ففي هذا القرن قام بعض الرهبان الايرلنديين (بقصد الفرار، على الأرجح، من الحرب) بالابحار في مراكب صغيرة تغطيها جلود حيوانات. فكانوا أول الواصلين الى جزر فيرويه، وجزيرة جان – مايان، وآيسلندا، وربما غرونلاندا. وكانوا هم الذين التقوا الفايكينغز للمرة الاولى عندما نزل هؤلاء في آيسلندا من مراكبهم الطويلة. والمعروف عن الفايكينغز انهم رجال أقوياء أشداء شجعان، لهم الدور الأساسي في استكشاف مناطق الاركتيكا في القرنين التاسع والعاشر. أشهر زعمائهم إريك الأحمر الذي ولد في النروج نحو العام ٩٥٠ . ويبدو انه وهو في العشرين من عمره، قتل إثنين من الرجال وفرّ الى آيسلندا حيث تزوج وأقام يعمل في زراعة الأرض. لكنه ما لبث ان اعتبر خارجاً على القانون إثر عملية قتل ارتكبها. فأبحر مع عائلته باتجاه الغرب. نزل في غرونلاندا وبنى مستوطنتين صغيرتين على ساحلها الجنوبي – الغربي. عاش في المستوطنتين نحو ٢٥٠٠ شخص في أيام إريك، واستمرتا قائمتين نحو أربعة قرون، ثم اختفتا. ولم يعرف بعد سبب زوالهما بسكانهما. وحوالي العام ١٤٠٠ كان قد تم اكتشاف غرونلاندا واستعمارها. وعلى الرغم من المعارف القليلة حول مناطق الأركتيكا، فإن الخرائط الجغرافية التي كانت قد انجزت بشأنها كانت تثير دائماً حشرية رجال العلم والمستكشفين وكل الذين كانوا يحلمون بسلوك طرق أقرب الى «كاتاي» (وهو إسم الصين في القرون الوسطى).

العبور شمالاً – غرباً

قاد مارتن فروبيشر، ضابط في البحرية ومستكشف انكليزي، ثلاث رحلات إستكشافية بهدف العثور على ممر شمالي – غربي يوصل الى «كاتاي» (الصين). في ١٥٧٦، انطلق على رأس ثلاثة مراكب و٣٥ رجلاً متجهاً صوب الشمال ومارّاً بجزر شيتلاند. في الطريق غرق مركب، وقضي على بحارة المركب الثاني، وتابع فروبيشر مع الناجين معه، فمر بالقرب من غرونلاندا، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تشاهد فيها هذه الجزيرة منذ اختفاء مستوطنات الفايكينغز. وعاد فروبيشر وقام بعدة رحلات استكشافية لكن دون ان يصيب نجاحاً. فأفلست شركة «كاتاي» التي كانت تموله، وتراجع هو ليقضي أيامه المتبقية معدماً. لكن محاولاته بقيت جذوة في صدور العديدين بعده.

ففي نيسان ١٦١٠، غادر هنري هدسون انكلترا على رأس رحلة استكشافية موّلتها «شركة موسكوفيا». وخلال الصيف، تمكن من الوصول الى خليج هدسون ووضع خريطة لشواطئه وجزره. لكن الجليد حاصره ونفذت منه المؤن، فقضى مع جميع رجاله.

ويليام بافن، انكليزي أيضاً، كان مقتنعاً ان خليج هدسون لا يؤدي الى الممر المقصود، أي الممر الشمالي – الغربي الى كاتاي. فوجه أبحاثه الى الشمال، ووصل، في ١٦١٦، الى الساحل الغربي من غرونلاندا، الى حيث توجد اليوم مدينة توليه، واكتشف مضيق دافيس، ومضائق سميث ولانكستر وجونز. وعلى الرغم من انه توغل بعيداً في الشمال عبر المحيط الشمالي – الاميركي، لكنه اعتقد باستحالة إيجاد ممر شمالي – غربي صالح للملاحة التجارية بسبب الجليد وعمق المياه.

وفي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، نشط الصيد في مياه الأركتيكا، وأصبح

الصيادون على معرفة متزايدة في المنطقة، لكنهم كانوا قليلي الكلام خوفاً على «مصالحهم وأرباحهم» من المنافسين الذين قد يغامرون مثلهم قاصدين «أرض ثروتهم» الجديدة.

وفي القرن التاسع عشر ضغطت «الشركة الملكية للجغرافيا»، في انكلترا، على الأميرالية لتقوم، أو تتبنى أبحاثاً جادة في موضوع ايجاد الممر المطلوب. فعُيّن جون فرانكلين قائداً لحملة جديدة. فغادرت الحملة انكلترا ١٨٤٥ محملة بمؤن تكفي لثلاث سنوات. ومضت سنتان دون أي نبأ عن فرانكلين ورفاقه.

وبعد مضي ثلاث سنوات على رحيلهم باشرت إنكلترا والولايات المتحدة بأوسع عمليات بحث في تاريخ الاستكشاف القطبي. فمنحتا مكافآت ضخمة لكل من يساهم بايجاد أي حل لمشكلة اختفاء فرانكلين ورفاقه. فخلال تسع سنوات جرت أكثر من ٣٩ رحلة إنقاذ. حتى تكشف السر وبانت دلائل على ان جميع أفراد الفريق قد لاقوا حتفهم. وخلال رحلات الإنقاذ عثر كذلك على وثائق تركها فرانكلين وخرائط رسمها، تشير الى الوسيلة الممكنة لايجاد معبر شمالي – غربي. فما تركه فرانكلين وما أضيف اليه مما سبقه ومما وضعه فريق رحلات الانقاذ، كله ساعد على النجاح – أخيراً – الذي حققه المستكشف النروجي روالد أموندسن عندما قام بين ١٩٠٣ و١٩٠٦ برحلته الشهيرة في المنطقة. ومنذ ذلك الحين أصبح العالم يعرف ان هناك معبراً شمالياً – غربياً يقع في الأركتيكا ويصل الى الصين (كاتاي في القرون الوسطى).

العبور شمالاً – شرقاً : مضيق بيرينغ

الاستكشاف، وتاليا العبور، شمالاً – شرقاً، ومن بحر الشمال الى الباسيفيك مروراً بالبحار الجليدية في شمالي أوروبا وآسيا، جرت بصورة مختلفة تماماً عن العبور الأول الشمالي – الغربي. ففي حين جاء العبور الشمالي – الغربي انطلاقاً من الشرق فقط، فإن العبور الشمالي – الشرقي قد تمّ من الشرق ومن الغرب على حد سواء. والفارق الثاني ان هذا العبور الأخير قد تم أيضاً عن طريق البر من خلال سيبيريا الآسيوية.

لقد ساهمت شركة التجار المغامرين (جمعية أفرادها إنكليز تتعاطى التجارة مع الخارج) كثيراً في استكشاف أركتيكا وتطورها. وكانت هذه الشركة الخاصة تتمتع في الحقيقة بحقوق تجارية حصرية في بعض بلدان العالم.

في ١٥٥٣، نظمت هذه الشركة رحلة استكشافية من ثلاثة مراكب لاستكشاف معبر شمالي – شرقي ورسم خرائط له، «وبهدف اكتشاف مناطق، وبلدان لربطها بالتاج البريطاني، وجزر وأمكنة مجهولة». السير هوغ ويلّوغبي قاد الرحلة، يعاونه ريتشارد شانسلور. عاصفة قوية بددت رفاق الطريق. فتابع ويلّوغبي، على رأس مركبين، طريقه باتجاه شمالي روسيا، ورسى قرب شبه جزيرة كولا. بعد نحو عام، عثر صيادون روس على المركبين وعلى جثث ركابهما. أما بالنسبة الى شانسولور، فبعد أن انتظر أسبوعاً، في منطقة محددة، قدوم رفيقه بعد أن بددتهما العاصفة، عاد وأكمل طريقه باتجاه أرخانجلسك. هناك عرف القيصر إيفان الرابع (إيفان الرهيب) بوصول الملاح الغريب، فدعاه الى بلاطه في موسكو. فكان على الملاح الانكليزي أن يقطع مسافة ٢،٤٠٠ كلم ليصل الى العاصمة الروسية، حيث استقبل بحفاوة كبيرة ووقع اتفاقاً تجارياً. وقد أعقب هذا الاتفاق إنشاء «شركة موسكوفيا» وفترة عشرين سنة من العلاقات التجارية المميزة سواء بالنسبة الى روسيا أو

بالنسبة الى إنكلترا.

الهولنديون كانوا أهم منافسي إنكلترا في السباق نحو السيطرة البحرية والتجارية، وكانوا يأملون عقد روابط تجارية مع الروس. وفي أواخر القرن السادس عشر، تمكن مندوبهم، أوليفر برونل، من إقامة علاقات صداقة مع القوزاق الذين كان يتزعمهم إيرماك تيموفييف المطالب بالسيادة على إقليم سيبيريا باسم قيصر روسيا. وقد حقق برونل بعض النجاح في سعيه لايجاد طريق بحرية جديدة، لكن نجاحه الأساسي كان في عقد علاقات تجارية. مستكشف هولندي آخر، فيلام بارنتس، كان يعتقد ان المراكب قد تكون أقل عرضة للجليد إن هي سلكت شمالي جزيرة زمبل الجديدة (نوفويا زمليا) الواقعة في روسيا الشمالية، بدل ان تسلك المضيق الفاصل هذه الجزيرة عن المحيط. وقام برحلة الاستكشاف على هذا الاساس ورسم خرائط زمبل الجديدة (١٥٩٤ – ٩٥)، ثم اكتشف الجزيرة التي تحمل إسمه وكذلك جزيرة سبيتزبرغ (١٥٩٦). لكن، في شتاء ١٥٩٦ – ٩٧، حاصر الجليد سفينته وقضى هو وأغلب رجاله، في ما عدا البعض الذين فازوا في الوصول الى كولا في لابونيا حيث كتبت لهم النجاة. فتوقفت رحلات الاستكشاف لمدة عقد من الزمن، أما التجارة مع روسيا فبقيت مستمرة.

كان قيصر روسيا بطرس الأول (بطرس الأكبر) يعتقد بوجود معبر شمالي – شرقي، ويرى الى أهمية استكشافه بالنسبة الى تطور بلاده. وقد قدّم القوزاق، الذين كانوا قد غزوا سيبيريا، معلومات مهمة جداً حول الساحل الشمالي من روسيا. فانبرى واحد منهم هو القوزاقي سيمن ديزنيف وانطلق من كوليما في بداية القرن السابع عشر، ثم اتجه صوب الشرق عابراً جليد بحر سيبيريا، ثم مضيق بيرينغ، حتى وصل الى المحيط الباسيفيكي. ولم يتسنى للقيصر بطرس الأكبر أن يسمع هذا النبأ، إذ وافته المنية فجأة (١٧٢٥)، وكان قبلها قد أمر باجراء استكشاف لكامل الشاطئ الشمالي لروسيا بهدف العثور على هذا المعبر الشمالي – الشرقي الرائع. وكان فيتوس بيرينغ، بحار دانماركي، عمل لمدة عشرين سنة في خدمة البحرية الروسية، قد عين قائداً لهذه الرحلة (التي أمر بها القيصر).

أقام بيرينغ مركز قيادته استعداداً للرحلة في مدينة بطرسبورغ، واختار لاكوتسك (في سيبيريا الشرقية)كمكان لتجميع كل اعتدته الضرورية للرحلة ولبناء سفنه. وقد اقتضى نقل كل هذه الأعتدة لدى الانتهاء من بنائها وتجهيزها مسافة ٨,٠٠٠ كلم براً لإيصالها الى مرفأ أوخوتسك (في أقصى الطرف الشرقي من روسيا). وكان على السفن ان تقطع بحر أوخوتسك حتى كامتشاتكا. ويكفي هنا إلقاء نظرة على الخريطة حتى يتبين القارئ جسامة المهمة البطولية وخطورتها.

وصل بيرينغ ورجاله الليل بالنهار طيلة ثلاثة أعوام وهم يعملون في مدينة بطرسبورغ (سان – بيترسبورغ)، ولاكوتسك وأوخوتسك. وفي صيف ١٧٢٨، انطلقوا باتجاه الشمال. في الشمال – الشرقي من آسيا، اكتشف بيرينغ جزيرة سان لوران وجزر ديوميد. قطع المضيق الذي يحمل اليوم اسمه، لكنه لم يلاحظ شاطئ قارة أميركا الشمالية. وبعد خمس سنوات من انطلاقه من بطرسبورغ (في ١٧٢٥)، عاد بيرينغ الى روسيا وقدم تقريره الى معهد الاميرالية الذي درسه لمدة سنتين، ثم أجاب صاحبه بأنه لم يفلح كفاية في مهمته التي كانت تقضي بأن يستمر «بالابحار حتى يلتقي منشأة أوروبية». ومع ذلك تمكن أصدقاء بيرينغ من أقناع الامبراطورة آن الاستمرار في تمويل الابحاث التي كان بطرس الأكبر قد أمر بها. فأعيد الاعتبار لبيرينغ وطلب منه من جديد إدارة مشروعات الاستكشاف. فكرس ١٥ سنة من حياته لهذا الغرض حتى وفاته في ١٧٤١ بسبب جنوح سفينته في جزيرة نائية.

لقد كان من شأن اكتشاف بيرينغ، الذي أتاح للبشرية تعميق معارفها حول شمال – شرق آسيا

وشمال – غرب أميركا، أن يدفع بروسيا الى تجهيز حملة استكشاف كبرى للشمال. إذ كان الأمر يقتضي وضع خرائط واستعمار الشاطئ السيبيري على المحيط الأركتيكي حتى يمكن، تالياً، من استعمال الممر الشمالي – الشرقي بسهولة. وقد وضعت لهذه الغاية وسائل وأدوات هائلة.

أول رجل اجتاز المعبر الشمالي – الشرقي هو البارون أدولف إريك نوردن سكجولد، ولد في فنلندا في بداية القرن التاسع عشر، وبعد تخرجه من الجامعة وحضوره إحدى الولائم التي شارك فيها الحاكم الروسي العام في فنلندا، أبدى تصرفاً لم يعجب هذا الحاكم، ثم نفي من بلاده. في ١٨٥٧، أقام في ستوكهولم حيث لقي دعماً من تاجر غني يدعى أوسكار ديكسون فاصبح أهم مستكشف قطبي سويدي. وبعد مشاركته في عدة رحلات استكشافية في الأركتيكا، عينه ملك السويد (١٨٧٨) قائداً لرحلة غرضها عبور الممر الذي كان المستكشفون يسعون لعبوره منذ قبل ثلاثة قرون.

غادرت البعثة كارلسكرون في ٢٢ حزيران ١٨٧٨، ووصلت الى إينيسي في ٦ آب. هناك انقسمت المراكب الثلاثة التي كانت تقل البحارة الى قسمين: مركبان اتجها لاغراض تجارية فصعدا مجاري المياه الى داخل البلاد؛ والمركب الثالث (لافيغا)، الذي كان يقل قائد الحملة، تابع طريقه شرقاً مستفيداً من الظروف المناخية المؤاتية، لكن الجليد اعترض سبيله بالقرب من مضيق بيرينغ حيث أمضى الشتاء هناك. وفي الصيف قطع المضيق ووصل الى المحيط الهادئ، ثم الى يوكوهاما (اليابان)في ٢ أيلول ١٨٧٩، وعاد الى السويد عن طريق قناة السويس.

بعد هذه الرحلة تأكد بشكل نهائي المعبر الشمالي – الشرقي. فبدأ السوفيات يسرعون من برامجهم الاستكشافية حول هذه الطريق البحرية. ففي ١٩٣٢، انشأوا وكالة حكومية تحت إسم «الوكالة العامة لطريق الشمال البحرية». فوضعت هذه الوكالة قيد التنفيذ مؤسسة متكاملة التجهيز والأدوات : اسطول من كاسحات الجليد، وسفن شحن، وشبكات للاتصالات، ومحطات للرصد الجوي، وطائرات استكشاف، وأخيراً مصلحة ادارية وعلمية وفنية لأغراض الدراسات الهيدروغرافية (دراسة البحار).

القطب الشمالي

شكل القطب الشمالي الهدف الأساسي الثالث والأخير للمستكشفين في رحلاتهم الى الأركتيكا. فالرحلات باتجاه الشرق كانت قد أتاحت الفرص لتجميع عدد كبير من المعلومات حول جغرافية أقصى الطرف الشمالي وظروفها الجوية وإمكانيات الحياة فيها. وقد تبين ان هذه الكمية من المعلومات قد أفادت ايما إفادة في بلوغ القطب الشمالي.

في ١٨٩١، كلفت أكاديمية العلوم الطبيعية في فيلادلفيا روبرت بيري، أحد ضباط البحرية الأميركية، قيادة رحلة قطبية لاستكشاف غرونلاندا. فكرس بيري نحو ربع قرن من حياته لهذا الغرض حيث توصل الى وضع دراسة بالغة الأهمية عن المنطقة التي زارها، أحوالها المناخية وطريقة عيش الإسكيمو.

ففي ١٩٠٨، غادر بيري الولايات المتحدة الأميركية على متن مركبه «روزفلت»، متجهاً الى رأس شيريدن حيث أقام أماكن إقامة شتوية. أما فريق آخر من رجاله فغادر في أول آذار رأس كولومبيا الواقع في أقصى الطرف الشمالي من جزيرة إيليسمير (على بعد ٧٦٥ كلم من القطب). وقد استخدم بيري ورجاله المزالق التي تجرها الكلاب للتنقل على جليد المحيط الأركتيكي. وتمكن بيري، ومعه

خمسة من رفاقه (رجل أسود هو ماتيو هنسن، وأربعة من الأسكيمو) من الوصول الى القطب الشمالي في ٦ نيسان ١٩٠٩ . ولدى عودة بيري الى بلاده فوجئ بخبر ان عالماً انتروبولوجياً هو الدكتور فريدريك كوك كان قد وصل الى القطب الشمالي قبله بسنة واحدة. وقام جدال بين الرجلين استمر طويلاً. واليوم يغلب الاعتقاد لمصلحة بيري.

في ١١ تموز ١٨٩٧، استعمل السويدي سلومون أوغست أندري المنطاد ليطير بواسطته مع رفيقين له، من سبيتزبرغ الى القطب الشمالي. وبقي الرجال الثلاثة ٦٦ ساعة في الجو قبل هبوط منطادهم اضطرارياً على الجليد. وبعد ٣٣ عاماً اكتشفت جثتهم ودفتر رحلتهم على أرض الجزيرة البيضاء شمالي – شرقي سبيتزبرغ.

بعد الحرب العالمية الأولى، قامت عدة دول بتمويل رحلات استكشافية جوية في مناطق الأركتيكا. في ٩ ايار ١٩٢٦، أقلع أميرال البحرية الأميركية ريتشارد بايرد، مع معاونه فلويد بينيت، من سبيتزبرغ ووصل، دون عوائق تذكر الى القطب الشمالي. وبعد يومين، روالد أموندسن ولينكولن إلسوورث غادرا القاعدة نفسها في سبيتزبرغ قاصدين ألاسكا عبر القطب الشمالي، وانضم اليهما الكولونيل الايطالي أومبورتو نوبيل. وإبان تحليقهم فوق القطب الشمالي رموا من الجو أعلام الدول الثلاث : الولايات المتحدة والنروج وايطاليا. ووصلوا معافين الى ألاسكا بعد ٧٢ ساعة من انطلاقهم، واجتيازهم مسافة ٥,٤٥٩ كلم فوق المحيط الأركتيكي.

الاوسترالي جورج هوبرت والكينز طار أيضاً فوق القطبين الشمالي والجنوبي، وكان مقتنعاً في الوقت نفسه بامكانية استعمال غواصة تبحر تحت الجليد للوصول الى القطب الشمالي. ففي ١٩٣١، نظم لهذه الغاية رحلة استعمل فيها غواصة. لكنها غرقت بالقرب من النروج. وفي ١٩٤٦، الأميرال كروزن (يعمل في البحرية الأميركية) الذي كلف اقامة محطات رصد جوي في الأركتيكا، استعمل لهذه الغاية غواصة. وهذه التجارب الأولى بواسطة الغواصات أتبعتها الولايات المتحدة بتجربتين اخريين (في ١٩٤٨ وفي ١٩٥٩).

والتجربة الأخيرة (١٩٥٩)، استعملت الولايات المتحدة فيها أحدث ما قد توصل اليه التطور التكنولوجي (خصوصاً في مجال مصدر الطاقة الحديث: الذرة). فأرسلت الغواصة النووية «نوتيلوس» الى القطب الشمالي. فغادرت القطعة بيرل هاربور في ٢٢ تموز ١٩٥٨، وبدأت مسيرها دون أحداث أي صوت يشير الى وجودها. قطعت بحر بيرينغ ووصلت الى جليد القطب الشمالي يوم الأحد في ٣ آب ١٩٥٨ ثم اتجهت جنوباً وعبرت المنطقة الفاصلة بين غرونلاندا وسبيتزبرغ، ووصلت الى بورتلاند في انكلترا بعد مرور ٢١ يوماً من انطلاقها واجتيازها مسافة ١٣,١٠٧ كلم.

وفي ١٩٦٨ – ٦٩، قام أربعة إنكليز باستكشاف المنطقة سيراً على الأقدام. فقطعوا مسافة ٥,٨٢٥ كلم، ودامت رحلتهم ٤٧٧ يوماً. فتعرضوا الى مخاطر كثيرة ليس أقلها تعرض الدببة لهم. ومما كتبه قائدهم وولي هربرت، قوله: «انها غزو لقمة إيفرست، ولكن بطريقة أفقية». ولا يزال استكشاف الأركتيكا هدفاً لعدد من الدول، خصوصاً المجاورة، وبالأخص الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة، ومغامرة يحلم بها ويشترك فيها العديدون من المستكشفين.

الحياة في الأركتيكا، الأسكيمو

يبدو غريباً أن تكون مجموعات بشرية قد اختارت بملء ارادتها العيش في مناطق طبيعتها طبيعة

طاردة للحياة البشرية كما عرفتها الحضارات البشرية الساعية دائماً الى ظروف بيئية صالحة للتطور والانماء. لكن وجود المجموعات هناك حقيقة واقعية، ولا مجال، هنا، للمقاييس أو المعايير، لا التاريخية ولا الحضارية والاجتماعية المعروفة.

ليس معروفاً بعد متى بدأ السكن في الأركتيكا. لكن الدارسين يكتفون بالقول انه مضى زمن على هذه السكنى البشرية. ويوزعون المجموعات هناك على: لابونيين، وساموييدين، وتشوكتشيين (أو نيتنيين)، وأوستياكيين، وكورياكيين، ويوكاغيريين وتونغوسيين، تركوا المناطق المجاورة وقدموا للعيش في الأركتيكا. وهم يمتلكون قدرة فائقة على مقاومة البرد، ونمط عيش مشترك. وقد التقاهم المستكشفون البيض إبان مسعاهم في العثور على طريق بحرية قصيرة توصل أوروبا بالصين، أو إبان إستكشاف القطب الشمالي. وأهم هذه المجموعات وأكثرها شهرة الأسكيمو الذين يقدر تعدادهم اليوم بنحو ١٢٥ ألف نسمة.

يعيشون من الصيد في البحر أو في المياه الحلوة. حيوان الفقمة يبقى الثروة الأثمن لهم: يتغذون بلحمه ويطعمون كلابهم منه، يستضيئون ويستدفئون على شحمه، يصنعون أحذيتهم من جلده، ويخيطون ثيابهم من أمعائه. واللحم هو المادة الغذائية الأولى لهم. فكل فرد منهم يستهلك ما متوسطه ٩ كلغ من اللحم يومياً، تضاف اليها كمية أخرى من الدهن، مما يجعله مقاوماً للبرد ومختزناً في جسمه لكمية غذائية تساعده على البقاء لأيام دون طعام. ومن الحيوانات التي يصطادونها أيضاً: الرنّة، والكاريبو والثعلب. يبنون بيوتهم من خشب وأحجار وجلود الفقمة وحتى من الجليد. أما كلابهم فتحتفر لها أوكاراً في الثلج ولا تبقِ لها فيها إلا فتحة صغيرة جداً للتنفس. وفي المنطقة نباتات من أنواع كثيرة، وهي تظهر أوتعيش فترة قصيرة من السنة (من عدة أيام الى ثلاثة أشهر كحد أقصى). يقول الكاتب والمستكشف القطبي ستيفنسون: الأركتيكا تبدو حديقة اذا ما قورنت بالأنتاركتيكا.

العائلة، لدى الأسكيمو وحدة شديدة التماسك في ما بين أفرادها، وخاصة لسلطة الأهل بصورة مطلقة. وعدة عائلات تشكل قبيلة يختار زعيمها من المشهود لهم في فنون الصيد. ولغة الأسكيمو بسيطة للغاية إذ تكفي كلمة واحدة، في أغلب الأحيان، لتعبر عما تحتاج للتعبير عنه جملة كاملة في اللغات الأخرى. أما نظامهم الديني التقليدي فعلى شيء من التعقيد: يؤمنون بكائنات عليا، تحيط بها الألغاز ومخيفة، يتقى شرّها بالتعاويذ والطقوس السحرية. لكن هذه المعتقدات في طريقها الى الزوال، إذ إن المسيحية آخذة في الانتشار بينهم، وهم يبدون، في الوقت نفسه، الحد الأقصى من التمسك بثقافتهم الأصلية.

اقنع بعض المستوطنين والتجار (البيض) في بعض المناطق الأركتيكية عدداً من الأسكيمو بالاقامة في بيوت خشبية مجهزة بوسائل تدفئة حديثة. فكانت النتيجة، كما يعتقد أكثر الباحثين، ان هذا التغيير في المسكن جعل الأسكيمو أكثر تعرضاً لأمراض مثل السل وغيره من الامراض التي أدخلها البيض الى تلك المناطق.

الأركتيكا اليوم

الدولتان العظميان: الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي تنافستا، من على طرفي الاركتيكا، في تطوير قدراتهما الاقتصادية والعسكرية في تلك المنطقة من العالم.

للأسكيمو ملامح آسيوية
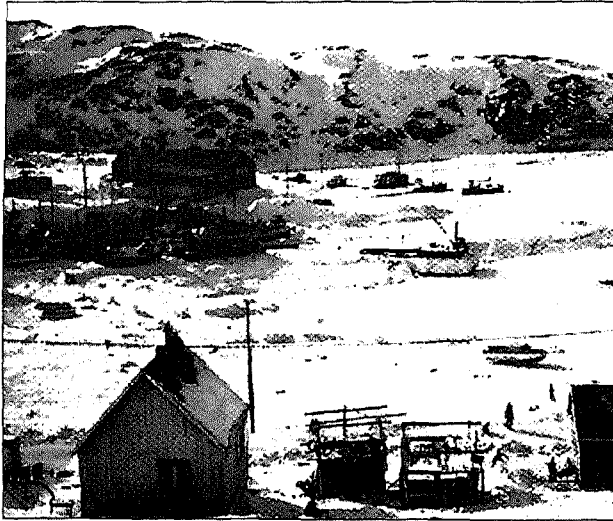
قناع خشبي: فن اسكيموي

قرية اسكيمو على ساحل غرونلاند الغربي

«إيغلو»، من كتل جليدية يحمي من الرياح والبرد
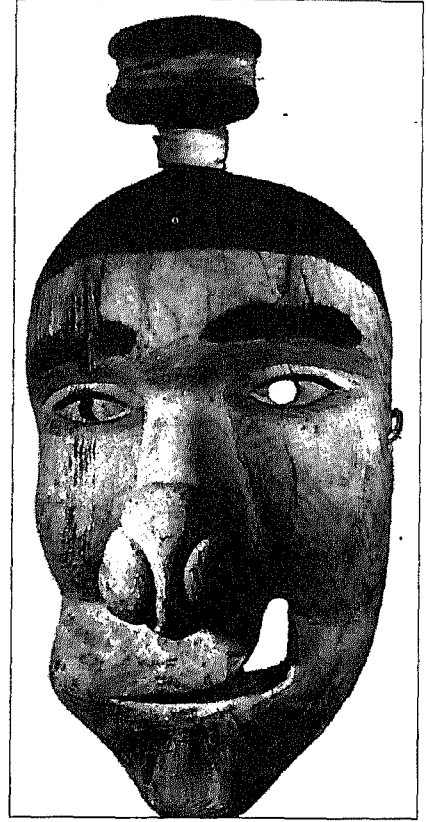
اليوم، اغلب اولاد الاسكيمو يرتادون المدارس

فالاتحاد السوفياتي (سابقاً أي قبل ١٩٩١) ركز على استغلال إمكانيات المعبر الشمالي – الشرقي. فكانت السفن السوفياتية تجوب المعبر في الاتجاهين، وتسلك المجاري المائية الكبرى الى داخل أراضي الاتحاد السوفياتي. فسيبيريا، التي كانت في السابق منطقة إبعاد ونفي، فقط، للمعتقلين السياسيين، بدأت تصبح مأهولة بسبب البدء في استغلال ثرواتها المنجمية (ذهب، نيكل، اورانيوم، ألماس، فحم، كوبالت، قصدير، الخ.)، وتطور الصناعة والزراعة فيها : تربية الماشية – خصوصاً الرنّة – كان هدف عناية خاصة. وتم بناء سدود ضخمة لإنتاج الكهرباء. مورمانسك، أكبر ميناء في خليج كولا على بحر بارنتس، والواقع عند منفذ المعبر الشمالي – الشرقي، أصبحت تعد (في بداية الثمانينات من هذا القرن) نحو ٣٥٠,٠٠٠ ن. وهناك أيضاً مدينة نوريلسك التي تشهد انطلاقة مهمة والتي تعد نحو ١٥٠,٠٠٠ ن. إضافة الى مدن سيبيرية أخرى تعد كل منها أكثر من ٥٠,٠٠٠ ن. الاجور مرتفعة نسبياً، والناس يعيشون في بنايات كبيرة، مدارسهم ومستشفياتهم الحديثة مؤمنة كذلك.

ومن جهتهما، بدأت كندا والولايات المتحدة بإنماء عقلاني لأقاليمهما الشمالية بعد نحو ربع قرن من الروس. ومنذ قبل نحو ١٥ سنة فقط (أي في أواخر سبعينات القرن الحالي) وجدتا انه من الضروري البدء بابحاث منهجية في تلك المناطق، خاصة في ما يتعلق بآبار النفط والثروات الباطنية الأخرى، وكذلك بتشجيع الاستيطان هناك. وكان المعبر الشمالي – الغربي لا يزال – حتى ذاك الوقت – غير مجرب كطريق بحرية قصيرة لنقل النفط ومختلف المعادن. فالرحلة التجارية الأولى عبر هذا الممر قامت بها السفينة «مانهاتن» في صيف ١٩٦٩.

يعتقد بعض الباحثين ان الجليد في الأركتيكا آخذ بالتضاؤل حجماً سنة بعد سنة، ما يدفع على الاعتقاد ان الملاحة ستكون هناك أسهل في المستقبل. لكن، لا يزال العلماء يجهلون إن كانت ظاهرة ازدياد الدفء مؤقتة أو دائمة.

إن وجود التجهيزات العسكرية السوفياتية والاميركية في الأركتيكا، وحرص الدولتين الدائم على تقوية هذه التجهيزات، زاد من عدد السكان هناك. فثلث الاميركيين الذين يعيشون في ألاسكا هم من العسكريين ومن أفراد عائلاتهم. وهناك نحو سبعة آلاف رجل في القاعدة الجوية الأميركية في تولي في غرونلاندا. وقد أقام الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة محطات رادار على طول دائرة الأركتيكا، إضافة الى العديد من القواعد الجوية. كما ان هناك غواصات مجهزة بصواريخ تحمل رؤوساً نووية. والجدير ذكره، أخيراً، ان تفكك الاتحاد السوفياتي (١٩٩١) يعيق اندفاعة الروس في الأركتيكا دون شك بسبب الكثير من المشكلات الناجمة عن هذا التفكك. لكن من المفيد ملاحظة انه لم يكن هناك ثمة دولة سوفياتية في الأركتيكا، بل كان هناك في الأساس مناطق روسية. فالتطور والإنماء في القسم الروسي من الأركتيكا عائد للدولة الروسية (راجع سيبيريا).

الأنتاركتيكا

قارة مغطاة بالجليد، تحتل أقصى جنوبي الكرة الأرضية، ومركزها (وسطها)القطب الجنوبي. تغمرها المحيطات الثلاثة : الباسيفيكي والأطلسي والهندي. رسمت حدودها معاهدة الأنتاركتيكاالموقعة في العام ١٩٥٩. والمنطقة تشمل الأنتاركتيكا نفسها، والجزر المغطاة بالجليد وأقسام المحيطات الثلاثة المتلاقية هناك.

ليس من بيئة على الأرض معادية (أو طاردة) للحياة البشرية مثل بيئة الانتاركتيكا، إذ لا تنبت فيها شجرة ولا نبتة، ولا وجود لحياة بشرية. فقط بعض الحيوانات (الفقمة وأنواع من الطيور) تتواجد عليها موسمياً لتكتفي، وخلال فترات تواجدها، ببعض ما يمكن لمياه المحيطات تقديمه لها من غذاء. إن نسبة ٩٥٪ من مساحتها مغطاة بالجليد، ويقدر العلماء انه لو قدر لهذا الجليد أن يذوب لارتفع مستوى مياه المحيطات ٦٠ متراً وغطت جزءاً كبيراً من اليابسة. أكثر المناطق صقيعاً، إذ سجلت في قاعدة فوستوك السوفياتية، في ٢٤ آب ١٩٦٠، درجة الحرارة فبلغت ٨٨،٢ مئوية تحت الصفر، وهي أكثر درجات الحرارة انخفاضاً عرفها كوكبنا الأرضي. وهي، إضافة الى ذلك، أكثر المناطق تعرضاً للرياح العاتية، رياح لا يقف في وجهها عائق.

تغطي الأنتاركتيكا مساحة تبلغ أكثر من ١٣ مليون كلم٢ . وهذا ما يعادل تقريباً مساحة الولايات المتحدة واوروبا مجتمعين. وقد تراكمت عليها الثلوج والجليد عبر آلاف السنين، وهي تغطي نحو ٨٠٪ من مجموع مساحتها. تتكاثر فيها كتل جليدية (هي أشبه بجبال على اليابسة) قد تتراوح كل كتلة عشرات الأمتار ارتفاعاً ونحو ٢٠٠ كلم طولاً. وأكبر بقعة جليدية هي بقعة بيردمور التي اكتشفها في العام ١٩٠٨ السير ارنست شيكلتون. وفي بعض المناطق تبلغ سماكة الجليد ٣ كلم، وهذا ما أكدته الدراسات التي وضعها المستكشف دانيال لاينيهان، بتكليف من مختبر ويستون التابع لمعهد بوسطن، والذي أجرى دراسته في القاعدة الأميركية في القطب الجنوبي خلال السنة الجيوفيزيائية الدولية (١٩٥٧ – ٥٨). ومما أثبته أيضاً ان سطح الأرض في القطب الجنوبي يرتفع ١٥٠م عن سطح البحر. وان هذه الأرض مغطاة بطبقة جليدية متوسط سماكتها ٢٧٠٠م. هكذا تكون القاعدة الأميركية على ارتفاع ٢٨٥٠م. عن سطح البحر.

الحيوانات في الأنتاركتيكا

طير الطُرسوح هو الأكثر تواجداً وتوافراً في المنطقة. يبلغ طوله بين ٦٠ – ٧٥ سم. منه ١٧ نوعاً، أشهرها وأكثرها معرفة من المستكشفين نوعان : الطرسوح الأدلي والطرسوح الامبراطوري (نسبة الى مشيته المهيبة). هذان النوعان يتواجدان فقط في هذه المنطقة الجنوبية من أميركا، من الطرف الجنوبي القطبي حتى مستوى جزر غالاباغوس قرب الاكوادور. لا تخشى هذه الطيور الإنسان، لكنها ترتعب من نوع آخر من الطيور، يدعى «سكواس» (شبيه بالنورس)، الذي ينقض، في البر، على أعشاشها وصغارها وبيضها فيفتك بها؛ وعدوها في المياه نوع من الفقمة يقال لها «الفقمة – الفهد» التي يمكن لواحدة منها ان تلتهم العشرات من طيور الطرسوح (وجد أحد العلماء في معدة فقمة واحدة ليس أقل من ٣٢ طيراً). وقد حدد العلماء الاختصاصيون أنواع الفقمة بستة أنواع. في أواسط القرن التاسع عشر اوشكت الفقمة على الانقراض بسبب كثرة اصطيادها للانتفاع،

تجارياً، بفروها. اليوم، ثمة اتفاقيات دولية وضعت لحمايتها، فعادت الى التكاثر. معدل طول الفقمة ثلاثة أمتار ووزنها ٤٥٠ كلغ؛ ويمكن أن تغطس الى عمق ٦٠٠م. بحثاً عن صيد.

هل هي بلاد مدارية ؟

منذ اليوم الأول لأكتشافها طرحت الأنتاركتيكا لغزاً محيراً أمام المستكشفين والعلماء. إذ ليس فيها من وجود لنبتة واحدة، ومع ذلك هناك ما يشير الى أنها كانت مليئة، في العصور الموغلة في القدم، بغابات الصنوبر والنخيل والخنشار وقد تصدى بعض العلماء لتوضيح هذا السر الذي يبدو انه آخذ بالانكشاف : فالانتاركتيكا عرفت، عبر عصور التطور الجيولوجي، مناخاً أقرب الى الدفء، وهناك وقائع تثبت هذا الأمر. فخلال صيف ١٨٩٢ – ٩٣، تم اكتشاف بقايا شجرة صنوبر ضخمة متحجرة في جزيرة سيمور قرب الرأس الشمالي من شبه جزيرة الانتاركتيكا. وكذلك اكتشف السير إرنست شيكليتون، ابان محاولته الوصول (كأول مستكشف) الى القطب الجنوبي (١٩٠٨ – ١٩٠٩)، جذع شجرة صنوبر متحجر في بقعة بيردمور الجليدية؛ ووجد أيضاً كمية من الفحم ذات النوعية الرديئة. وبعد سنوات، أكدت رحلة سكوت الاستكشافية هذا الاكتشاف. والامر نفسه بالنسبة الى الرحلات اللاحقة التي عثرت على مزيد من بقايا الصنوبريات المتحجرة. البروفسور لورنس غولد (عالم جيولوجي اشترك في رحلة الأميرال بايرد قبل الحرب العالمية الثانية) أكتشف مناجم من الفحم الحجري وجذع شجرة وأوراق متحجرة. في ١٩٦٠، اكتشفت بعثة علمية نظمتها جامعة أوهيو الأميركية بقايا حلزونات متجمدة.

وضعت عدة نظريات لتفسير وجود هذه الآثار. واحدة منها كانت تستند على وجود «جسور» كانت تربط بين القارات، لكن سرعان ما تهافتت هذه النظرية بعد اكتشاف اعماق البحار التي لا يمكن أن تسمح بوجود مثل هذه الجسور. نظرية أخرى، معروفة، تتحدث عن «زحف» القارات. لكن، ولاثبات اساس لهذه النظرية، يفترض، وبشكل مسبق إثبات ان الفقريات (حيوانات ذات العمود الفقري) التي عاشت في الأنتاركتيكا كانت هي نفسها الفقريات الموجودة في القارات التي انفصلت عنها الانتاركتيكا.

فمن أجل هذا الهدف – الإثبات ارسل معهد الدراسات القطبية في جامهة أوهيو فريقاً من علماء الجيولوجيا لاكتشاف الجزء الأعلى من بقعة بيردمور الجليدية في ١٩٦٧ – ٦٨. وفي كانون الأول، اكتشف هذا الفريق الذي كان يقوده البروفسور النيوزيلندي بيتر جي. باريّت، في مجرى نهر غني بالترسبات، نباتات متحجرة تعود الى الحقبة الترياسية (أو الثلاثية : أقدم عصور الدهر الوسيط وفيه سادت الزحافات وبدأت الثدييات بالظهور)، أي الى نحو ٢٠٠ مليون سنة. وعلى بعد نحو ٥٢٠ كلم، عثر على ما سماه البروفسور إدوين كولبرت (مسؤول قسم الإحاءة في متحف التاريخ الطبيعي في نيويورك) «اكتشاف القرن»: قطعة من فك طوله ٦ سم يعود الى نوع من الضفدعيات عاش في الحقبة الترياسية. وبرأي الدكتور كولبرت ان هذا الحيوان يشبه سمندلاً (Salamandre) ضخماً يبلغ طوله ١,٢٠م.

كان هذا الاكتشاف هو البرهان على ان الفقريات البرية كانت تسكن الأنتاركتيكا في تلك الحقب السحيقة. فساهم (الاكتشاف) في نشر النظرية القائلة بأن الانتاركتيكا كانت، في العصور الجيولوجية، متصلة بقارات أخرى، وانها على الأرجح كانت جزءاً مما أطلق عليه اسم غوندوانالند:

كتلة أرضية وجودها وجود افتراضي وعلمي في الوقت نفسه، اطلق عليها هذا الاسم نسبة الى غوندوانا في الهند. وكانت هذه الكتلة تشمل شبه الجزيرة الهندية وبعض الأجزاء من أفريقيا ومن أميركا الجنوبية، ومدغشقر، واوستراليا، وتاسمانيا وجزر الفوكلاند والأنتاركتيكا. وتقول نظرية زحف القارات هذه ان كتلة غوندوانالند تجزأت وتباعدت اجزاؤها منذ مئات ملايين السنين.

عصر الاكتشاف

الانتاركتيكا آخر القارات المكتشفة في العالم. وحتى السنة الجيو – فيزيائية الدولية (من أول تموز ١٩٥٧ الى آخر كانون الأول ١٩٥٨)، لم تعد الأنتاركتيكا موضوع استكشاف بالمعنى التقليدي للكلمة، إذ استمرت هناك بعض الدراسات العلمية فقط. لكن في فترة هذه السنة المذكورة (١٨ شهراً) جمعت معلومات حول هذه المنطقة تفوق بأهميتها كل المعلومات التي جمعت خلال السنوات التي أعقبت الاكتشاف في ١٨٢٠ .

المستكشف الانكليزي الشهير، كوك، أبحر حول الأنتاركتيكا، وكان الرجل الأول الذي اجتاز الدائرة القطبية الجنوبية. كتب يقول: «اذا تجرأ أحد وتوغل في تلك الكتلة الأرضية فإنني على ثقة بأن العالم لن ينتفع بشيء من ذلك».

احدى الطرقات التي كانت تسلك باتجاه الصين قصد التجارة كانت تدور حول رأس هورن. وابتداء من أوائل القرن التاسع عشر كثر الحديث عن وجود الفقمة بالآلاف في المنطقة. ولما كانت فقمة القطب الشمالي آخذة بالانقراض بسبب كثافة اصطيادها، بدأ الصيادون والتجار يقصدون القطب الجنوبي بحثاً عن هذه الطريدة الثمينة. في ١٨٢٠، التقت على أرض الانتاركتيكا، ثلاثة فرق: اميركية وبريطانية وروسية؛ فقامت بأعمال استكشافية مشتركة. أما الأعمال الأهم فكانت من نصيب الفريق الروسي بقيادة الأميرال الروسي فابيان بيلّينغشوسن الذي اعتبر كأول مستكشف دار حول الانتاركاتيكا بعد كوك. فاكتشف جزيرة شاسعة دعاها «ارض الاسكندر» نسبة الى إسم القيصر الروسي، إضافة الى ما أنجزه من أبحاث علمية كبيرة الفائدة. أما إسم «الأنتاركتيكا» فقد خلعته على المنطقة «اللجنة الدولية للجغرافيا» بعد سنوات قليلة من تلك السنة التي التقى فيها هناك الاميركيون والروس والانكليز. واستمرت الاستكشافات في الأنتاركتيكا طيلة القرن التاسع عشر، واخذت مناطقها تحمل إسم مستكشفيها من أميركيين وروس وإنكليز، ومنها اسماء فرنسية وبلجيكية وألمانية ونروجية.

حتى ١٩٠٠، كانت الاستكشافات تكتفي بالمناطق الساحلية من القارة. بعدها، أخذ التوغل الى الداخل، فتمكن النروجي روالد أموندسن من زرع علم بلاده في الداخل يوم ١٤ كانون الأول ١٩١١، وعاد الى مركبه، واستقبل في بلاده استقبال الفاتحين. وبعد نحو شهر (١٧ كانون الثاني ١٩١٢) وصل الى المكان نفسه البريطاني روبيرت فالكون سكوت، فشاهد العلم النروجي مرفرفاً هناك. وفي طريق عودته الى المركب، وقبل أن يصل اليه بنحو ١٨ كلم فقط، قضى هو وأفراد فريقه نتيجة الإعياء الشديد. ومنذ ١٩٢٠، بدأ الاميركيون (الأميرال ريتشارد بايرد) الاستعانة بالطيران. وازداد اهتمام المؤسسات العلمية (في بلدان عدة) بالانتاركتيكا، وبدأ التحضير لافتتاح «السنة الجيو – فيزيائية الدولية» حيث ادرجت على جدول برامجها الدراسات المعمقة للقارة الجديدة.

السنة الجيو – فيزيائية الدولية

في ربيع ١٩٥٠، اجتمع بعض العلماء الرواد، في ضاحية من ضواحي واشنطن. وخلال الاجتماع، اقترح البروفسور الأميركي لويد يو بيركنر إقامة سنة قطبية دولية ثالثة. لماذا ثالثة؟

تعود الفكرة الى ١٨٨٢ حيث قامت ١٢ دولة بارسال رحلات استكشاف الى الأركتيكا والى منطقة في الأنتاركتيكا بهدف التعاون في وضع دراسات جيو – فيزيائية حول هذه المناطق. وما وضع من معطيات جيو – مغناطيسية – نتيجة ذلك التعاون – لا يزال مدرجاً في الكتب التي تتكلم عن المغناطسية الأرضية. وبعد خمسين سنة (أي خلال ١٩٣٢ – ٣٣)، وخلال السنة القطبية الدولية الثانية ،تضافرت جهود ٣٤ دولة لدراسة الكرة الأرضية بأكملها. فالتقليد يقتضي، اذاً، تكريس سنة جيو – فيزيائية كل خمسين سنة. لكن العالم الكندي جي. توزو ويلسون اقترح ضرورة إقامة هذه السنة فوراً على أساس ان العالم العلمي يجب أن لا ينتظر فترات الخمسين سنة. فقبل اقتراحه بحماس، وتقررت السنة الجيوفيزيائية الدولية.

أقر المجلس الدولي للاتحادات العلمية اقتراح الدكتور بيركنر وشكل لجنة (اللجنة الخاصة بالسنة الجيو –فيزيائية الدولية) كلفت وضع برنامج علمي دولي للأبحاث الجيو – فيزيائية. واختيرت الفترة الواقعة بين أول تموز ١٩٥٧ و٣١ كانون الأول ١٩٥٨ لتكون هي السنة المحددة.

ضمت اللجنة الخاصة مندوبين عن أربعين دولة، وشكلت لجان محلية (في داخل كل دولة)، واتفق على ان تعقد هذه اللجان اجتماعات دورية في أوروبا قصد التنسيق في ما بينها. وإضافة الى مهمتها الأساسية القاضية بوضع البرنامج العلمي الأساسي للسنة، اهتمت اللجنة بتحديد قواعد العمل ميدانياً، وتأمين الدعم اللوجيستي لفرق العمل، والاتصالات وإقامة شبكة من المواصلات.

اقترح الإنكليز إرسال بعثتين منفصلتين الى فاسل باي في بحر ويديل، واحدة علمية واخرى رياضية. الأولى نظمتها وأشرفت عليها الشركة الملكية للمساهمة في أعمال السنة الجيو – فيزيائية الدولية. والثانية هي البعثة العابرة الأنتاركتيكا والعائدة للكومنولث، والتي عرفت بـ «آخر رحلة كبرى على الأرض» . إذ كلفت عبور القارة من بحر ويديل مروراً بقرب القطب ومواصلة الرحلة حتى بحر روس. وهذه المسافة، التي كان يحلم بها سكوت، وشيكلتيون وغيرهما من المستكشفين، كانت باشراف الملكة.

أما نيوزيلندا فشاركت الولايات المتحدة إدارة القاعدة التي اقيمت بالقرب من القاعدة الاميركية التي سبق واستكشفها الاميركي ماك موردو، كما شاركتها في استعمال محطة هاليت. ومن المشتركين المغامر النيوزيلندي السير إدموند هيلاري الذي سبق له ووصل الى قمة إيفيريست.

في أواخر ١٩٥٥، غادرت البعثتان الفرنسية والاوسترالية اوستراليا باتجاه قواعدهما في الانتاركتيكا. وهاتان البعثتان كانتا الأهم في اطار برنامج السنة الجيو – فيزيائية الدولية، وكان دور القاعدة الفرنسية «دومون دورفيل» (التي سبق وأنشئت منذ ١٩٥٢ بقيادة بول – افيل فكتور) هو الدور الأساسي. استعين بالطيران. وضعت الخرائط. أخذت الصور. اجتيزت المنطقة براً. واكتشفت مناطق وجبال جديدة أضيفت على خريطة الأنتاركتيكا التي كانت تعج بالحركة وبالعمل العلمي التعاوني. وكل ما كان قد اكتشف حتى تاريخه لم يكن بالمستوى الذي قد يثير الأطماع أو يدفع أية دولة للتفكير في انتهاج سياسة مركنتيلية حيال هذه القارة. وهذا الأمر كان في أساس التصديق على معاهدة الأنتاركتيكا.

معاهدة الأنتاركتيكا (١٩٥٩)

انطلاقاً من مبدأ الاستكشاف و «حقوقه» طالبت عدة دول بقطاعات من القارة تعتبرها خاصتها. وكانت هناك، احياناً اعتراضات لم تصل الى حد النزاع. فالولايات المتحدة، من جهتها، لم تطالب بمناطق تعود اليها بالمعنى التقليدي والمعروف للكلمة، بل تمسكت بحقوق العبور الى كل القطاعات في القارة. وموقفها هذا مرتكز على نظرية سياسية مفادها ان المطالبة بأقاليم جديدة لا تتوقف فقط على اكتشاف هذه الاقاليم، بل على الإقامة الدائمة، في المكان المكتشف من قبل مواطني دولة ما.

وخلال السنوات الأولى التي تلت المعاهدة المقترحة من الولايات المتحدة، استمرت دول عديدة بارسال بعثات الى الأنتاركتيكا لدعم مطالبها الاقليمية. فازدادت المنافسة واحتدمت النزاعات السياسية. أما المنطقة التي كانت أكثر مثاراً للنزاع من غيرها فكانت شبه جزيرة الانتاركتيكا، ذلك انها كانت موضوع نزاع بين التشيلي والارجنتين وبريطانيا. لكن، وفي نهاية المطاف، حققت السنةالجيو – فيزيائية الدولية نجاحاً مهماً بفتحها الطريق امام معاهدة الأنتاركتيكا (١٩٥٩).

والدول التي وقعت على هذه المعاهدة هي: الارجنتين، اوستراليا، بلجيكا، التشيلي، فرنسا، اليابان، نيوزيلندا، النروج، جمهورية جنوب افريقيا، الاتحاد السوفياتي، المملكة المتحدة (بريطانيا)، ايرلندا الشمالية والولايات المتحدة. وأهم بنود المعاهدة تنص على انه لا يجوز استعمال الانتاركاتيكا الا لأغراض سلمية، كما لا يجوز إجراء اية تجربة سلاح من أي نوع كان (نووياً كان أو غيره)، ولا رمي النفايات الشعاعية... أما حرية البحث العلمي وتعاون الدول في هذا الشأن فأمر يبقى سائر المفعول، وكذلك السماح باجرءات تفتيش في القواعد القائمة والتي سوف تقام، والمرور عبر المنافذ والى كل المناطق حر امام الجميع، وضرورة حماية كل اشكال الحياة في القارة والمحافظة عليها.

مستقبل الأنتاركتيكا

عند محاولة تصور مستقبل هذه القارة يجب ان لا تغيب عن الذهن ثلاثة عوامل على غاية من الأهمية: الأول، القارة نائية جداً عن باقي مناطق العالم، وخاصة عن المحاور الكبرى في التجارة والمواصلات العالمية. الثاني، إن نسبة تصل الى ٩٥ – ٩٨٪ من القارة مغطاة بالجليد، وسماكة طبقة الجليد هناك تصل الى حدود ٤٢٠٠م في بعض المناطق. الثالث والأخير، في الأنتاركتيكا كما في الأركتيكا تمر أشهر طويلة في السنة من دون أن يكون هناك ثمة ضوء يشير الى النهار. فهذه الوقائع الثلاثة، بطبيعتها، غير مشجعة للاقامة أو الاستيطان هناك. وهذا أمر قد تمر عليه عقود طويلة من الزمن بعد.

ما يمكن قوله في صدد مستقبل الانتاركتيكا، قياساً على حاجة الانسان وقدرته، انها ستبقى، والى سنوات طويلة، على ما هي عليه الآن، مختبراً للبحث وللعلماء. وهناك عوامل قد تساعد، أو تدفع باتجاه ان تصبح مأهولة ومستغلة: تغيير في المناخ، وبلوغ الكثافة السكانية، على الأجزاء المأهولة من الأرض، حداً دراماتيكياً، وتأمين مواصلات اكثر سهولة وملاءمة. فالقواعد المتواجدة حالياً تحت الجليد في الأنتاركتيكا وفي غرونلاندا يمكن أن تكون نماذج لمدن مستقبلية. وبالامكان الاستعانة بمفاعيل نووية سلمية لتأمين الطاقة والحرارة. ويؤكد علماء الجليد وجود آبار نفطية تحت

الطبقة الجليدية، ومناجم فحم، وألماس وأورانيوم، وذهب وفضة. والمشكلة الكبرى هي في استخراجها ونقلها بأسعار مقبولة. ويحكى أيضاً عن نوع من سمك، صغير في حجمه، يُدعى «كريل»، وهو مصدر غذائي غني جداً بالبروتيين.

والأمل باكتشاف المزيد من الثروات في الأنتاركتيكا لا يزال يحدو الكثيرين من المستكشفين والرحالة والمغامرين. وآخر رحلة استكشاف (١٩٩٣)، قام بها المستكشف البريطاني السير رانولف فينيس، ورفيقه مايكل ستراود، حيث امضيا ٩٧ يوماً وقطعا ٢٢٠٠ كلم. ولدى عودتهما الى بريطانيا، ردّد فينيس كلاماً مشابهاً لكلام الرحالة السابقين الى تلك المنطقة قبل اكثر من قرن، وعبر العقود والسنوات الماضية. قال: «وجدت هذه الرحلة منفرة. فالذكريات التي احملها عنها ليست مبهجة أبداً».

صراع على الأنتاركتيكا

لكن «المبهج» يبدو انه يجيء على ألسنة العلماء والخبراء، وكذلك الاستراتيجيين، خاصة الأميركيين الذين بدأوا يربطون بين القارة القطبية الجنوبية ومسألة الأمن القومي الاميركي بدافع مهم وواضح: القارة مخزون هائل للموارد الطبيعية.

ففي كتاب صادر (١٩٩٣) بعنوان له مغزاه: «القارة السابعة... أنتاركتيكا في زمن الموارد». ويتأكد هذا المغزى اذا علمنا ان مؤلفة الكتاب، ديبورا شابلي، هي استاذة محاضرة في مركز جامعة جورج تاون للدراسات الاستراتيجية والعالمية.

ويقول مدير قسم الطاقة والموارد في دار النشر التي اصدرت الكتاب، «إنه دراسة شاملة جاءت في وقت تتصارع فيه أمم عديدة لايجاد وضع قانوني لاستغلال موارد هذه القارة التي يحلو للبعض ان يشير اليها على انها ارث عام للبشرية. ومن غير الصعب ان تشعر بالتهكم الواضح في العبارة الأخيرة». (تبدو واضحة العبارة الأخيرة في دلاتها على رغبة كاتبها في ان تنفرد بلاده — الولايات المتحدة — في التحكم بانتاركتيكا ومواردها).

ويشير مقدم الكتاب الى ان «ثمة نغمة تسري عند الحديث عن شؤون القارة السابعة هذه الأيام، وهي الملكية العامة للقارة. لقد تجدد الاهتمام بالقارة القطبية الجنوبية ومواردها الطبيعية البكر. إن ذلك يرتبط بسؤال مهم جداً هو: من يملك السيادة على أرض القارة الجليدية؟. اننا نقترب من نهاية القرن العشرين، وقد تخطى البشر في سعيهم الى الموارد الطبيعية الجديدة، حدود الكوكب، فامتدت انشطتهم ومساعيهم الى الفضاء الخارجي، وتبقى القارة الجنوبية القطبية لم تمس تقريباً، ولا يكاد النشاط الآدمي فيها يتعدى حدود الدراسات الحقلية والبحث العلمي».

وتعرض المؤلفة للروابط بين الولايات المتحدة الاميركية والمنطقة القطبية الجنوبية. وترى ان ذلك ضروري لتفهم الصوت القوي الذي كان للولايات المتحدة في كل ما تمّ من جهود دبلوماسية متصلة بقضايا القارة. وتعتمد المؤلفة على الوثائق الاصلية الموجودة في القسم القطبي في السجلات القومية الاميركية. فواضح، اذاً، ان التوجه توجه سياسي استراتيجي بالدرجة الأولى، خصوصاً لدى مناقشة الكاتبة لمسألة معاهدة الانتاركتيكا التي أبرمت في ١٩٥٩ بين ١٦ دولة (الارجنتين، اوستراليا، بلجيكا، البرازيل، تشيلي، المانيا، فرنسا، الهند، اليابان، نيوزيلاندا، النروج، بولونيا، جنوب افريقيا، الاتحاد السوفياتي، انكلترا والولايات المتحدة)، فترى الكاتبة ان تلك المعاهدة،
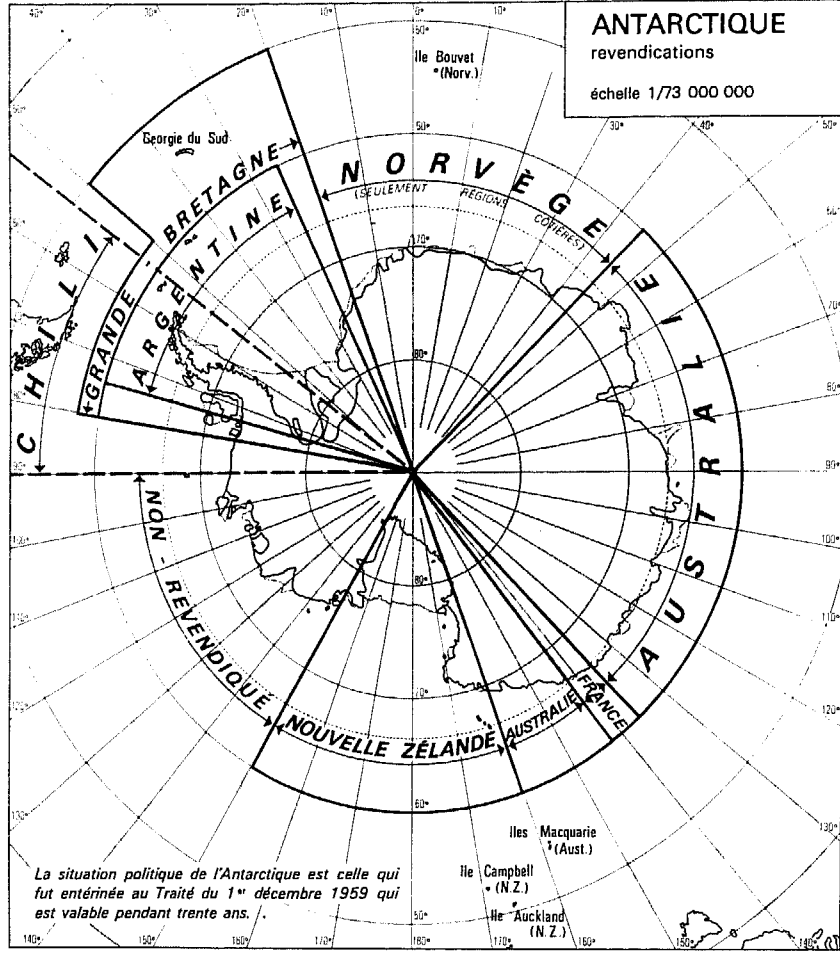
الوضع السياسي لأنتاركتيكا المعتمد بموجب معاهدة اول كانون الاول ١٩٥٩
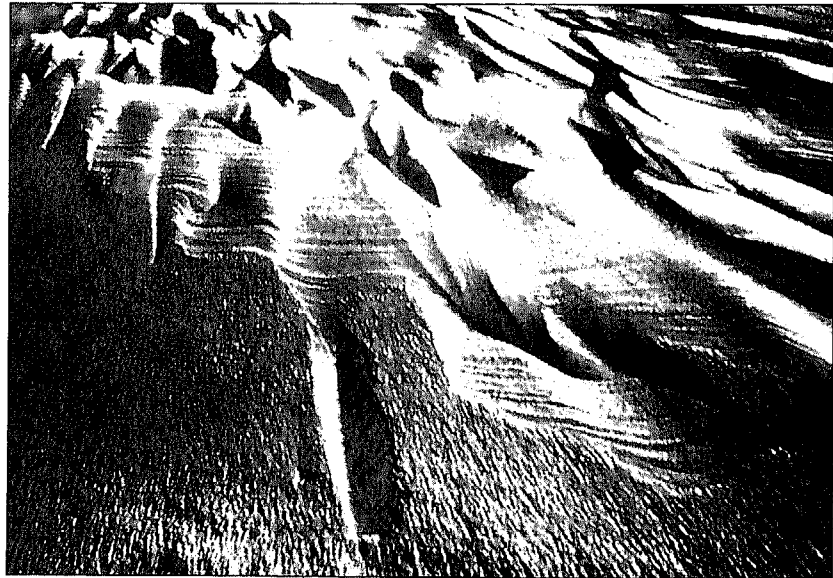
رياح تتخطى سرعتها احياناً ٣٠٠ كلم/ساعة فتشكل مثل هذه التموجات الجليدية

برغم القوى السياسية التي تدعمها وتوليها اهتماماتها، يجب أن تخضع لعملية تطوير لتتناسب ودخول العديد من الدول والمؤسسات والتنظيمات الى دائرة الاهتمام بالقارة القطبية الجنوبية. وتحلل المؤلفة سياسات الولايات المتحدة في تأمين استقرار المنطقة، وتقدم توصياتها الداعية الى التأكيد على الدور القيادي للولايات المتحدة الأميركية في إدارة شؤون تلك القارة البعيدة.

مؤشرات الصراع الدولي على الأنتاركتيكا ذات «المخزون الهائل للموارد الطبيعية» واضحة. يبقى السؤال: متى يبدأ هذا الصراع، أو متى يطفو على السطح؟.
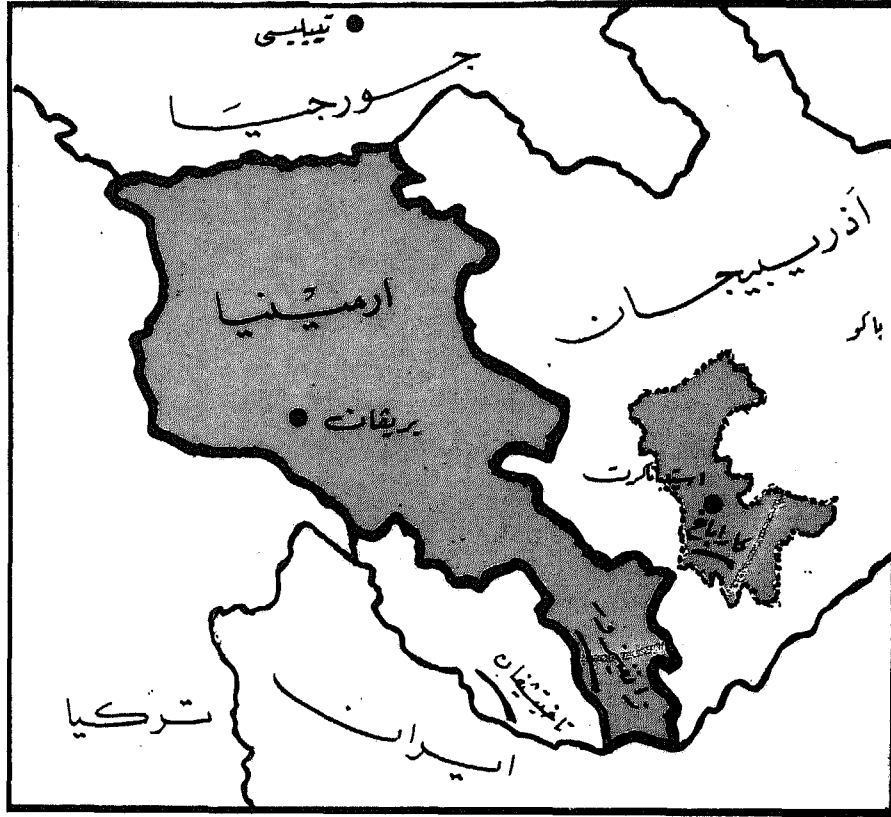
للخريطة، ولأسمائها باللغة الفرنسية، راجع أذربيجان

أرمينيا

بطاقة تعريف

الاسم: جمهورية أرمينيا؛ الاستقلال: ٢١ أيلول ١٩٩١.
الموقع: في جنوب القوقاز (القفقاس) بين البحر الأسود وبحر قزوين وعند الحدود الفاصلة بين آسيا وأوروبا.
المساحة: ٢٩,٨٠٠ كلم٢، ما عدا إقليم قره باخ (كرباخ) التي تتنازعه أرمينيا وأذربيجان، وتبلغ مساحته ٤٤٠٠كلم٢. تطورات حرب قره باخ منذ اندلاعها حتى اليوم (تموز ١٩٩٣) تشير إلى فوز أرمينيا به، خاصة وان الأغلبية الساحقة من أبنائه هم أرمن يقاتلون بقوة للفوز بمطلبهم الانضمام إلى الوطن الأم أرمينيا. وأرمينيا هذه هي أرمينيا الشرقية (السوفياتية سابقاً) التي تمكّنت من الإفلات من قبضة العثمانيين. وهناك أراضي أرمنية تاريخياً، لا تزال حالياً داخل إطار تركيا، وهي التي تعرّض أبناؤها لمجازر الإبادة العنصرية على يد الأتراك الطورانيين. أغلب أراضي جمهورية أرمينيا (الشرقية)، أي نسبة ٧٠٪ منها جبلية.
العاصمة: يريفان (نحو ١,٣٠٠,٠٠٠ نسمة)، وهناك

٢٧ مدينة.
اللغة: الأرمنية.
السكان: تعدادهم نحو ٣,٧٠٠,٠٠٠ نسمة. هناك ٩٦٪ منهم أرمن؛ و١,٧٪ أكراد (منهم اليزيديون)؛ و١,٦٪ روس؛ و٠,٣٪ أوكرانيون؛ و٠,٢٪ اشوريون؛ و٠,١٪ إغريق، و٠,١٪ من قوميات أخرى. وأرمينيا، تبعاً لهذه النسب، تأتي في طليعة بلدان ودول العالم صفاءً عنصرياً وقومياً. هناك ٩٠٪ من الأرمن كاثوليك. الأرمن عاشقون للموسيقى، ونادرة جداً القرى الأرمنية التي لا تضم مدرسة للموسيقى؛ والفلاحون الأرمن يعتبرون ان الانسان الذي لا يتذوق الموسيقى غير مؤهل لتلقي أي علم. وثمة ميزة في حياة الأرمن تحسدهم عليها، اليوم، الشعوب الأوروبية والغربية التي تعاني تفككاً أسروياً واجتماعياً خطيراً. ففي كتاب صادر عن وكالة نوفوستي السوفياتية بعنوان «الاتحاد السوفياتي، ١٩٨٨»، هذه العبارات: «ارمينيا بلد نسبة الولادة فيه مرتفعة جداً، والأشخاص المعمرون فيه كثيرون جداً. الارمن يحبون الأولاد ويحترمون الكهول. فالعائلات ذات الولد الوحيد نادرة للغاية. الطلاق بين الأزواج قليل، وللعائلة والأسرة احترام كبير. نادراً ما تضحي الزوجات بالحياة العائلية وخدمة الأسرة طلباً للوظيفة، علماً أنهن تدرجن إلى مراتب عالية في التحصيل العلمي والمهني. ويفضل الأزواج الشباب العيش مع أهلهم. وللأهل المعمّرين سلطة كبيرة، وقرارهم نهائي ولا عودة عنه».
الاقتصاد: يستخرج من جبال أرمينيا الرخام، والفليساء (تستعمل للبناء)، والنحاس، والذهب، والفضة، والحديد. الطاقة الأساسية للصناعة تأتي من المفاعل النووي الأرمني الذي يعطي من الطاقة ثلاث مرات أكثر من كل المحطات الهيدوكهربائية المتوافرة في البلاد. ويساعد المفاعل النووي الأرمني في تأمين حاجة جورجيا وأذربيجان والجمهوريات المجاورة للطاقة. وفي أرمينيا مصنع للآلات الكهربائية يعمل فيه أكثر من ١٦ ألف عامل وموظف، ومصانع للسيارات، والمنتوجات الكيميائية... منتوجات صناعية كثيرة تستوردها الدول الغربية من أرمينيا، منها أجهزة كومبيوتر «نيري» ذات قدرة تنفيذ ٣٠ مليون عملية في الثانية. أما الزراعة، فليس في أرمينيا أكثر من ٤٦٠ ألف هكتار من الأراضي المزروعة التي تنتج الفاكهة، خصوصاً العنب، والخضار والتبغ. والتقدم العلمي الكبير، الذي تستمرّ أرمينيا في تحقيقه، يندرج دائماً وفق خطة إنمائية تطال مختلف القطاعات الاقتصادية.
الوحدة النقدية: روبل.
تسببت الحرب ضد أذربيجان في ازمة اقتصادية واجتماعية خانقة (صيف ١٩٩٣).

نبذة تاريخية

الأرمن أحد أقدم الشعوب على الأرض. الآثار المنقوشة على الصخور والعائدة للملك الأكاديين نارام سين (٢٢٣٦ق.م.) تؤكّد هذا الأمر. وكذلك ذكر الملك داريوس الكبير (٥٢١- ٤٨٦ق.م.) الأرمن على صخور باهستان في ايران، حيث جاء انه أخضع اثنتين وأربعين أمة. وتبين اليوم أن الأمة الأرمنية وحدها بين هذه الأمم تمكنت من الاستمرار حتى اليوم.

الأرمن شعب من الشعوب الهندو-أوروبية، عاشوا منذ القدم على الهضبة الأرمنية في المنطقة الجنوبية من جبال القوقاز (القفقاس)، وعلى الأخص في المناطق الممتدة بين أعالي نهر الفرات ونهر كور، غربي بحر قزوين. وكانت منطقة بحيرة «وان-و-سيفان» مركز موطنهم، يتوسطها جبل أرارات الأشمّ المذكور في التوراة التي جاء فيها ان سفينة نوح قد حطت على قمّته بعد الطوفان العظيم، وان الحياة البشرية انطلقت من تلك البقعة لتملأ الأرض من جديد. ويصف مشاهير المؤلفين الأجانب أرمينيا بأنها مهد الحضارة البشرية.

بلغ عدد سكان أرمينيا، في أوج ازدهارها ومجدها، ثمانية ملايين نسمة، يقطنون في بقعة من الأرض مساحتها ٣٠٠ ألف كلم². وكان لأرمينيا، منذ فجر التاريخ ولغاية العام ١٣٧٥م، عهود استقلال مميزة ابتداءً من العهد الأورونتيدي (٤٠١- ١٨٩ق.م.)، والعهد الأرتشيدي (١٨٩-١ق.م.)، والارشاكوني (٥٣- ٤٢٩م.)، والباقرادوني (٨٨٥- ١٠٤٥م.)، وفي مقاطعة كيليكيا (١٠٨٠- ٣٧٥م.).

كان موقع أرمينيا من أصعب المناطق في العالم من الناحية الاستراتيجية. فاستمرّت، منذ فجر التاريخ ولغاية استقلالها، مركز معارك وحروب بين مختلف الدول والشعوب في أوروبا وآسيا. فقد تعاقب على حكمها (في فترات هزائمها) البابليون، والفرس، والرومان، والبيزنطيون، والعرب، والسلاجقة الأتراك، والمغول، والعثمانيون، والروس، إلى أن نالت استقلالها، وانضمامها بعده مباشرة إلى الاتحاد السوفياتي. ثم، في ١٩٩١، عادت إلى الاستقلال الناجز والتام لتبدأ بدور ذي ثقل مهم في المنطقة وفي العالم، ثقلٍ مدعومٍ بحضارة شعب راسخ في التاريخ، محبٍ للعمل، ناشطٍ ومطبوعٍ على العلم والفنون.

إن أمجاد التاريخ الأرمني تتضمن عهد ملك الملوك ديكران الثاني الملقب بالكبير (القرن الميلادي الأول)، وهو قمة العهود الملكية في تاريخ الممالك الأرمنية التي استمرّت حتى ١٣٧٥ وقد جعل الملك ديكران الثاني أرمينيا قوة دولية عظمى في عصره، وتوسع خارج أرمينيا وأبرم معاهدات صداقة وتعاون بين الأرمن والرومان. ومنذ عصورها الأولى، دخلت المسيحية أرمينيا، وأصبحت دين الدولة (٣٠١م)، فتكون أرمينيا هي الدولة الأولى التي جعلت، أو فرضت، أن تكون المسيحية دين الدولة الرسمي.

ومن أمجاد التاريخ الأرمني اكتشاف الحروف الأبجدية الأرمنية على يد الأب (الكاهن) مسروب ماشتوس الذي أطلق بذلك عصوراً حضارية ذهبية للأمة الأرمنية. ومن أهم المعارك التي خاضها الأرمن معركة «أفارایر» ضد الفرس الزرادشتيين، وكان القائد الارمني وارطان ماميكونيان.

وفي العصور الوسطى، ازدهرت أرمينيا في عهد الملوك الباقرادونيين، وخاصة عاصمتهم آني ذات الألف كنيسة وكنيسة.

وبعد أن سقطت مدينة آني ووقعت تحت رحمة جحافل السلاجقة والأتراك، وانكسار فلول الجيش البيزنطي في معركة منازجرد العام ١٠٧٧م، لم يتمكن الأرمن من التمتع بالاستقلال حتى العام ١٩١٨، لكن على عشر (١/١٠) فقط من مجموع أراضي أرمينيا.

ورغم قيام مملكة أرمنية مستقلة ومزدهرة في اقليم كيليكيا (١٠٨٠- ١٣٧٥م)، كانت أرمينيا بمعظمها تتعرض للاحتلال من قبل السلاجقة الأتراك والمغول والعثمانيين الأتراك على التوالي. ففي العام ١٥١٤ احتلّ السلطان سليم الأول أرمينيا، وبدأ سياسة استيطانية باستقدامه عناصر بشرية غير أرمنية وإسكانها في أرمينيا.

إن أكثر القرون التي عانت أرمينيا فيها كانت تلك التي عرفت الحروب والمعارك بين الامبراطورية العثمانية والمملكة الفارسية والتي دارت رحاها على أرض أرمينيا التي كانت تنتقل بين سيد وآخر بموجب المعاهدات التي كانت تبرم بين الطرفين المتحاربين، وخاصة معاهدات ١٥٥٥ و ١٦٣٩ و ١٧٤٦، إلى أن آلت معظم أراضي أرمينيا من نصيب السلاطين العثمانيين الذين حكموا باستبداد؛ إذ كانوا يعتبرون الأرمن مواطنين من الدرجة الثالثة، محرومين من أبسط الحقوق الانسانية ومعرّضين للبيع أو الذبح أو التتريك. فكانت النساء – في بعض المناطق – يتعرضن للسبي والاغتصاب، والقرى الأرمنية تتعرض للتدمير والحرق، حيث يخطف الأطفال الذكور لينشأوا في معسكرات خاصة ويصبحوا جنوداً في الجيش الانكشاري.

نصب داود ساسون، بطل ارمني ملحمي.
ناحته: يرفند كوتشار.

قناة ماء لا تزال قيد الإستعمال وتعود الى اكثر من ٤٠٠٠ عام.

ضريح ناروفاك.

المذبحة والمعاهدات

في ١٩٧٠، وبمناسبة مرور خمسين عاماً على توقيع معاهدة سيفر (١٩٢٠) وضعت هيئات أرمنية رسمية وشعبية مذكرة متعلقة بالمسألة (أو القضية) الأرمنية، جاء فيها:

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حينما تحركت شعوب البلقان للتحرر، بدأ الأرمن القاطنون في الامبراطورية العثمانية نضالهم لتحقيق إصلاحات في الولايات الآهلة بالأرمن، بغية تأمين شروط أفضل تضمن سلامة الحياة وصون الأعراض وازدهار الثقافة القومية.

وقد سنحت الفرصة، في نهاية الحرب الروسية – التركية العام ١٨٧٨، إذ إن المسألة الأرمنية حظيت، لأول مرة، بالاهتمام الدولي، وقد جسّدت ذلك الاهتمام المادة ١٦ من معاهدة سان ستيفانو. إلا أن هذه المسألة فقدت أهميتها وأولويتها وانقلبت لتصبح في المادة ٦١ من معاهدة برلين (١٨٧٨) نصاً يقول: «سيتخذ الباب العالي، بدون تأخير، جميع الخطوات الآيلة إلى الإصلاحات الضرورية التي تدعو إليها الحاجة المحلية ضمن المناطق الآهلة بالأرمن، ولضمان أمنهم...».

وتدويل المسألة الأرمنية وعرضها في المحافل الدولية – على هذا الشكل الضعيف الذي لا يتناسب وأهميتها – جعل السلطان عبد الحميد الثاني لا يتورع عن تنظيم مذبحة راح ضحيتها أكثر من ٣٠٠ ألف من الأرمن في الأقضية الداخلية وفي اسطنبول نفسها ما بين ١٨٩٤ و ١٨٩٦.

وأما زعماء حزب تركيا الفتاة، بعد خلع عبد الحميد (١٩٠٨)، فقد تابعوا سياسة السلطان المخلوع إزاء الأرمن، ما جعل الحاجة إلى الإصلاحات ملحة جداً. وفي شباط ١٩١٤، تمّ التوقيع على اتفاقية بين تركيا والقوى العظمى، تنص على تحقيق إصلاحات خاصة بالولايات الست الآهلة بالأرمن، وهي أرضروم، وان، بيتليس، دياربكر، معمورة العزيز وسيواس، وذلك تحت إشراف مفتشين أجانب.

مذبحة ١٩١٥: عندما دخلت تركيا الحرب العالمية الأولى في تشرين الثاني ١٩١٤ ألغيت الاتفاقية المذكورة. وكان الزعماء الأتراك المتعصبون، من أعضاء حزب الاتحاد والترقي، واثقين كل الثقة من أنه في حال انتهاء الحرب بانتصار الحلفاء، فإن الأرمن والعرب، سيحصلون على الاستقلال، وستنهار الامبراطورية العثمانية انهياراً كاملاً. لذلك، اتفق هؤلاء الزعماء في ما بينهم، في جلسات سرية عقدوها في سالونيك على خطة مسبقة، ووضعوا اللمسات الأخيرة، لتأخذ المقررات شكلها النهائي في شباط ١٩١٥، ثم بدأوا الخطة لإبادة الأرمن المقيمين على أراضي الامبراطورية العثمانية.

وفي صبيحة ١٥ نيسان ١٩١٥، قام ثلاثي الاتحاد والترقي: طلعت باشا وزير الداخلية، وأنور باشا وزير الحربية، والدكتور ناظم أمين عام الحزب، بإرسال البرقية التالية إلى الولاة وحكّام المقاطعات والمديرين في القرى والدساكر في آسيا الصغرى التركية:

«... إن المسألة الأرمنية التي نحن بصددها، والتي حازت على اهتمام دولي منذ أكثر من نصف قرن، ستغرز كالمدية في صدورنا. لذلك، فإن الحكومة التي تمثل إرادة الشعب التركي وحزب الاتحاد والترقي – وللحؤول دون بروز المسألة الأرمنية – قد قررت أن تضع حدًّا نهائيًّا لهذه المسألة بإبادة هذا العنصر من الشعب. ويمكن تنفيذ هذا القرار بتهجير الأرمن إلى الصحارى العربية، بموجب الأوامر السرية المعطاة لكم.

إن الحكومة واللجنة المركزية للحزب تناشدانكم لمساعدتها في هذه المهمة بكل إمكانياتكم.

إن كل ضابط أو موظف حكومي يرفض تنفيذ هذا العمل الوطني ويحاول أن يدافع عن أي فرد

أرمني سيعتبر عدواً للدولة والدين، وسيحاكم على هذا الأساس.

إن الحجج التي قد تُستخدم كأسباب داعية أو موجبة لتنفيذ هذه الخطة هي:

أ) وجود جنود متطوعين أرمن يخدمون في جيوش الأعداء.

ب) وجود تنظيمات أرمنية في هذه البلاد، متهمة بالتآمر ضد جيشنا التركي.

ج) وجود كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر مضبوطة عند الأرمن في جميع أنحاء البلاد».

وفي ليلة ٢٤ نيسان ١٩١٥، «أُلقي القبض على طبقة المثقفين وزعماء الأحزاب الأرمنية في القسطنطينية (اسطنبول) وتمّ نفيهم إلى أعماق تركيا، وتصفيتهم بأوحش الأساليب البربرية» (أرنولد توينبي، «الفظائع ضد الأرمن»، الكتاب الأزرق البريطاني ١٩١٦). ثم جاء دور ٣٠٠ ألف مجند أرمني يخدمون في صفوف الجيش العثماني، إذ تم تجريدهم من أسلحتهم وتحوّلوا إلى طوابير العمل (عمالة طابوري)، وأخذوا إلى أماكن غير مأهولة حيث أرغموا على حفر قبورهم وأطلقت النار عليهم بكل برودة أعصاب. وما إن تمّت تصفية عنصر الشباب والقادرين على العمل أو النضال، تعرضت بقية الشعب الأرمني، المؤلفة من النساء والأطفال والشيوخ، إلى التهجير والذبح.

ذكر تشرشل في كتابه «آثار الكارثة» ان الحكومة التركية بدأت ونفذت – بدون رحمة أو شفقة – التهجير والمجزرة المشؤومة ضد الأرمن في آسيا الصغرى».

وفي رسالة مؤرّخة في ٣ تشرين الأول ١٩١٨، وموجّهة إلى اللورد برايس، كتب روبرت سيسيل، نائب أمين عام وزارة الخارجية البريطانية ما يلي:

«إن الأرمن العثمانيين قد قتلوا بانتظام من قبل الحكومة التركية (١٩١٥) إذ تمّت تصفية ثلثي السكّان الأرمن بكل برودة أعصاب وبأكثر الوسائل وحشية...».

كان عدد الأرمن قبل المجازر ٢,٦٦٠,٠٠٠ نسمة (حسب نشرة البطريركية الأرمنية في اسطنبول، «التعداد السكّاني للأرمن قبل الحرب»، باريس، ١٩٢٠، ص ٢٩٠) يعيشون في أراضي الامبراطورية العثمانية، ومعظمهم كان يعيش في الولايات الأرمنية. وقد قتل مليون ونصف المليون منهم. واليوم، يبلغ عدد الأرمن في تركيا نحو ١٢٥ ألف نسمة فقط، معظمهم في اسطنبول. وبالإضافة إلى المجازر الفظيعة بحق الأرمن، فقد بلغ عدد الكنائس المدمّرة ٢٠٥٠ كنيسة، و٢٠٣ أديرة، في حين تحولت المدارس الأرمنية وحقولهم وقراهم ودساكرهم وكل منقولاتهم وممتلكاتهم إلى دمار ورماد، أو استولى عليها الأتراك، إضافة إلى اغتصابهم الأراضي الأرمنية التي كانت موطن الأرمن منذ أكثر من ٣٥٠٠ سنة.
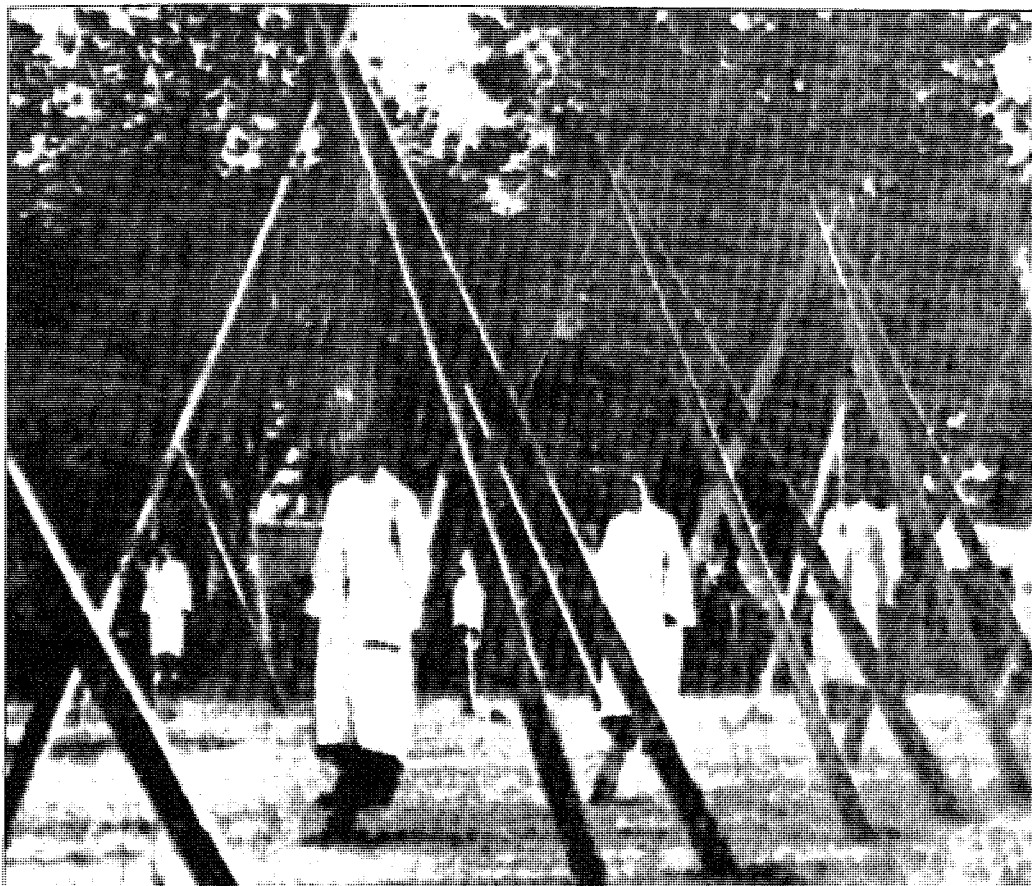
معاهدة سيفر: في ٣١ آب ١٩١٥، قال طلعت باشا، وزير الداخلية التركي، لسفير الولايات المتحدة الأميركية في اسطنبول هنري مورغناتو إن المسألة الأرمنية انتهت لأنه لم يبق هناك أرمني.

إلا أن أكثر من مائة ألف من الأرمن القاطنين في المناطق الحدودية قد نجوا من شر الذبح لأنهم قاموا بالدفاع المسلّح عن النفس، وآخرون نجوا بسبب استضافة بعض القبائل العربية لهم وايوائهم في مضاربها، في حين أن الأرمن في ارمينيا الشرقية المنضوية تحت حماية روسيا القيصرية لم تصبهم الفظائع التي أصابت إخوانهم في أرمينيا الغربية. وكان هناك أيضاً جنود أرمن يقاتلون الأتراك إلى جانب جيوش الحلفاء وعلى شكل حرب عصابات على مختلف جبهات القتال. ووجود نحو ربع مليون مجند أرمني يقاتلون في صفوف الجيش الامبراطوري الروسي قد تسبب في تأخير الاحتلال التركي – الألماني لآبار النفط في باكو (عاصمة أذربيجان) سبعة أشهر، في حين كان هناك نحو خمسة آلاف متطوع أرمني شكّلوا «الفرقة الأرمنية» الشهيرة للقتال إلى جانب القوات الفرنسية والبريطانية بقيادة الجنرال اللنبي، وخاصة على جبهة «العرعارة» في فلسطين.

لقد وعد الحلفاء الأرمن بإحقاق حقهم ومساعدتهم لاسترداد وطنهم الأم. وكان لينين يشدد على حق الأرمن في تقرير مصيرهم و «توحيد الأراضي الأرمنية وسيادتها». وفي ٨ كانون الثاني ١٩١٨، أعلن الرئيس الأميركي وودرو ويلسون بيانه الشهير المتضمن ١٤ بنداً حيث شدّد على مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، وعلى رأسها الشعوب التي كانت ترزح تحت نير الاحتلال التركي. وفي كانون الثاني ١٩١٩، لخصت الدول الحليفة الأربع: بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وايطاليا أهداف حربها بحيث انفردت إحدى المواد بموضوع الشعوب التي تضطهدها تركيا، فجاء فيها:

«بسبب اضطهاد تركيا، على مرّ العصور، لرعاياها من الشعوب التي كانت تحت سيطرتها، وبسبب المجازر الرهيبة التي تعرّض لها الأرمن وغيرهم في السنوات الأخيرة، فإن القوات الحليفة والموحّدة قد وافقت على أن أرمينيا وسوريا والعراق (وباقي الأقطار العربية) يجب أن تفصل عن الامبراطورية العثمانية».

وفي ١٠ آب ١٩٢٠، تمّ التوقيع على معاهدة السلام في سيفر مع تركيا، وكانت جمهورية أرمينيا (الشرقية، السوفياتية) إحدى الدول التي وقّعت على هذه المعاهدة إلى جانب تركيا وبريطانيا وايطاليا واليابان وفرنسا وبلجيكا واليونان وتشيكوسلوفاكيا...

وأهم المواد المتعلقة بأرمينيا في هذه المعاهدة:

المادة ٨٨: «إن تركيا، وانسجاماً مع الخطوات التي اتخذتها القوات الحليفة، تعترف بأن أرمينيا هي دولة حرة ومستقلّة».

المادة ٨٩: «إن تركيا وأرمينيا، إلى جانب الأطراف المتعاقدة، توافقان على إحالة المسألة الأرمنية إلى تحكيم رئيس الولايات المتحدة الأميركية للبتّ في مسألة رسم الحدود بين تركيا وأرمينيا في ولايات أرضروم ودرابيزون وبيتليس، وتتعهدان بقبول قراره بهذا الشأن، بالإضافة إلى قبول أي شروط مسبقة قد يضعها لأجل تأمين ممر لأرمينيا إلى البحر، ومن ثم نزع السلاح في المناطق التركية المتاخمة للحدود الأرمنية المذكورة».

وبموجب هذه المعاهدة (معاهدة سيفر) تمّ الاعتراف باقتراف تركيا للمجازر ضد الأرمن القاطنين في الدولة العثمانية. وكان ثمة مشروع لأن ينشئ الحلفاء محاكم خاصة لمحاكمة جميع الأشخاص المسؤولين الذين تعهدت تركيا بتقديمهم للمحاكمة.

وإضافة إلى معاهدة سيفر، وفي ضوء التقارير المقدمة من لجنة كينغ –كراين لتقصي الحقائق،

ومفوضية الجنرال هاربرد العليا التي قامت بدراسة ميدانية للمسألة الأرمنية، فقد أعلن الرئيس ويلسون قراره بهذا الشأن محدّداً الأراضي الأرمنية.

لكن، لا معاهدة سيفر، ولا إعلان الرئيس ويلسون، وجدا طريقهما للتنفيذ، ذلك لأن الدول الحليفة لم تضغط على تركيا ولم تقم بما يلزم لتنفيذ بنود المعاهدة. بل على العكس، فقد غضت الطرف عن قيام تركيا بالإغارة على جمهورية أرمينيا (الشرقية) في خريف ١٩٢٠ واحتلالها أقاليم كارس واردهان وسورمالو. وجاء تغيير نظام الحكم في أرمينيا (الشرقية) وانضمامها إلى الاتحاد السوفياتي لينقذ البقية الباقية من أرمينيا التي أصبحت «جمهورية أرمينيا السوفياتية».

وبنتيجة هذه الحرب التركية على أرمينيا واحتلالها معظم الأراضي الأرمنية، فرض الأتراك على الحكومة الأرمنية معاهدات آليكسانترابول (لينيناكان، في ما بعد)، وموسكو وكارس، وذلك خلال ١٩٢٠– ١٩٢٢. كل ذلك وسط تخلي الحلفاء عن حليفتهم الصغيرة أرمينيا تبعاً لمصالحهم الاقتصادية والسياسية، ورغم القرارات الصادرة عن عصبة الأمم لصالح الأرمن. وقد تجسّد هذا التخلي في معاهدة لوزان (١٩٢٣) التي لم تأتِ على ذكر الأرمن أو أرمينيا، مكرّسة الأمر الواقع العسكري الذي كان لصالح الأتراك. وقال مصطفى كمال (أتاتورك) في خطاب له أمام البرلمان التركي: «إن المسألة الأرمنية قد تأجل حلّها...»، وفي الحقيقية، فقد أدرجت في مرتبة المسائل أو القضايا غير المحلولة.

أرمينيا، الجمهورية السوفياتية والقضية

١- الجمهورية السوفياتية الاشتراكية

في العام ١٦٧٨، عقد وجهاء الأرمن مؤتمراً سرياً في ايشميازين (مركز كبير بطاركة الأرمن) برئاسة الكاثوليكوس، وقرروا أن يطلبوا مساعدة عسكرية من الدول الأوروبية ليتمكنوا من التحرر من تعاقب النير الفارسي أو العثماني عليهم. ويبدو أن روسيا القيصرية وحدها أبدت اهتماماً جدياً بهذا الطلب لأسباب ومصالح خاصة بها.

لكن، الوضع استمرّ على حاله إلى أن كان الربع الأول من القرن التاسع عشر، حيث بدأ الروس ينظرون إلى القوقاز على أنها منطقة يجب ضمها إلى روسيا. فتحرك الجيش القيصري الروسي إلى القوقاز، وهناك دارت رحى الحرب الروسية - الفارسية، تمّ على أثرها توقيع معاهدة تركمان - جاي (١٨٢٨)، بموجبها ضمت روسيا إليها مناطق خانيتا، يريفان وناخيتشيفان، وسميت هذه الأراضي «المقاطعة الأرمنية». وبذلك تكوّنت ما يمكن تسميته اليوم «جمهورية أرمينيا».

وبعد المجازر التي ارتكبها العثمانيون الأتراك بحق أرمن الامبراطورية العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها، استفاد الأرمن القاطنون في أرمينيا الشرقية من الوضع السياسي الآمن نسبياً في القوقاز، ومن انسحاب الجيش الروسي من هذه المنطقة، لتثبيت أنفسهم سياسياً. إلا أن ذلك لم يكن بدون ثمن، إذ سارعت القوات التركية، كما تقدم، وقامت بالهجوم على أرمينيا (الشرقية) للإجهاز على البقية الباقية من الأرمن. إلا أن الشعب الأرمني برمّته، بشيبه وشبابه ونسائه وأطفاله، ارتمى في رحى معركة مصيرية، فانتصر على الجيش التركي في سرداراباد (١٦ أيار ١٩١٨).

جاء انحلال الاتحاد القوقازي (السايم) ليخلق ظرفاً مصيرياً قاهراً بتركه أرمينيا الشرقية تواجه الأتراك لوحدها، إضافة إلى تخلي الحلفاء عن التزاماتهم إزاء الأرمن. فأعلن المسؤولون الأرمن ولادة «الجمهورية الأرمنية»، في ٢٨ أيار ١٩١٨. وعادت الجيوش التركية تشن حرباً عدوانية على الجمهورية الفتية في خريف ١٩٢٠، واحتلت مقاطعتَي كارس وأرداهان اللتين كانت روسيا القيصرية قد سلختهما من الأتراك في ١٨٧٨، وكذلك مقاطة سورمالو حيث يقع جبل آرارات.

وبسبب الخوف من التقدم التركي وتكرار المجازر، وبناءً على طلب السلطات الروسية السوفياتية، أعلن المسؤولون الأرمن في أرمينيا الشرقية تغيير نظام الحكم والانضواء في كنف الاتحاد السوفياتي باسم «جمهورية أرمينيا السوفياتية الاشتراكية» التي سرعان ما حظيت بدعم الجيش الأحمر. فأمكن إنقاذ ما تبقى من الأراضي الأرمنية من احتلال الأتراك والنجاة من مصير مشؤوم. ومساحة ما تبقى من هذه الأراضي، والذي حمل الاسم «السوفياتي» هي نحو ٣٠ ألف كلم^2 من مجمل الأراضي التي كانت تبلغ ٣٠٠ ألف كلم^2.

ولقد دام نظام أرمينيا السوفياتية، من ٢٩ تشرين الثاني ١٩٢٠ إلى ٢٣ آب ١٩٩٠ حيث أعلن البرلمان الأرمني استقلال «جمهورية أرمينيا» في أواخر أجواء البيريسترويكا (إعادة البناء) السوفياتية.

التأريخ السوفياتي: في كتيب سوفياتي رسمي عن «جمهورية أرمينيا السوفياتية الاشتراكية»، صادر

في العام ١٩٨٧، هذه الفقرات:

انتصرت الثورة الاشتراكية في روسيا في تشرين الأول ١٩١٧. فاستلم العمّال والفلاّحون السلطة على كامل الأراضي التي كانت تشكّل الامبراطورية الروسية القيصرية... وقامت انتفاضة في أرمينيا الشرقية، في ٢٠ أيار ١٩٢٠ حيث كانت السلطة في يد زمرة من القوميين الأرمن، الطاشناق. فانتفض الشيوعيون الأرمن، يحدوهم المثال الروسي الثوري وآمال إنقاذ ما تبقى من الأراضي الأرمنية من المخاطر الخارجية، وقاوموا الطاشناق، يدعمهم الشعب الأرمني الذي طلب المساعدة من الجيش الأحمر. وفي ٢٩ تشرين الثاني ١٩٢٠، أعلنت أرمينيا «جمهورية سوفياتية اشتراكية»، فبادرت اللجنة الثورية فيها وأرسلت برقية إلى لينين.

هكذا، وبعد ستة قرون صعبة، عادت دولة أرمينيا لتنشأ من جديد وعلى قاعدة الاشتراكية. فالشعب الأرمني، الذي يحمل ٣ آلاف سنة من التاريخ، لم يرث سوى الدمار والرماد، فكان عليه أن يعيد صناعة حياته من نقطة الصفر. وكل الوثائق تثبت أنه، وفي هذه المرحلة الجديدة الممتدة على عقود قليلة من الزمن، ظفر بنجاحات مهمة، خصوصاً على صعيد الصناعة والفنون.

وقدمت روسيا السوفياتية كل مساعدة. فما إن انقضى العام ١٩٢٠ حتى خصصت مساعدة مالية مهمة لأرمينيا بناءً على اقتراح لينين. وذهبت هذه المساعدة لشراء الآلات الزراعية والمعدات والتجهيزات الضرورية للثروات الزراعية. وإضافة إلى ذلك، أرسلت روسيا وأوكرانيا كميات كبيرة من المواد الغذائية وغيرها، في حين قدمت أذربيجان المنتوجات النفطية.

في بداية ١٩٢٢، وأثناء المؤتمر السوفياتي الأول لأرمينيا، جرى التصديق على الدستور الأول للجمهورية الفتية. ثم انضمت الجمهورية، بكامل رضاها إلى الاتحاد السوفياتي.

وبين ١٩٢٠ و١٩٣٠، خطا الشعب الأرمني خطواته الأولى في اتجاه النهوض الاقتصادي، والإنماء الصناعي والزراعي والعلمي والثقافي. وحول هذا الموضوع تلك الأسطر القليلة المعبّرة التي وردت في جريدة اسكندر مياسنيكيان، رئيس مجلس مفوضي الشعب (حكومة أرمينيا آنذاك):

«سكة حديد. قنوات. قطن. قمح. كرمة. محطات كهربائية... اللغة الأم. عشرات المجلات والجرائد. مئات الكتب. جامعة. مكتبة. متاحف. معاهد. معهد موسيقي... انها ثلاثة أعوام فقط، لكن كم وكم من الإنجازات قد تحققت فعلاً! مرحلة كاملة في ثلاثة أعوام. إنها الحياة الجديدة. إنه العالم الجديد...».

وعندما غزت ألمانيا الهتلرية الاتحاد السوفياتي (١٩٤١) وبدأت الحرب الوطنية الكبرى، انتفض الشعب الأرمني، إلى جانب كل شعوب الاتحاد السوفياتي، دفاعاً عن الوطن. إن أكثر من ثلث مجموع جمهورية أرمينيا شارك في المعارك، ومئات الألوف من الأرمن سقطت في ساحات الوغى. هناك ١٠٦ من أبناء أرمينيا حملوا لقب «بطل الاتحاد السوفياتي»، وهو أعلى لقب يمنح للذين يؤدون الخدمات للدولة. أكثر من ٥٠ أرمنياً بين جنرالات وأميرالات الاتحاد. هذا إضافة إلى عدد كبير من الأرمن الذين قاتلوا في صفوف جيوش الحلفاء. الشاعر الشيوعي الأرمني، ميساك مانوشيان، كان يقود فصيلاً ثورياً في باريس، أعدمه النازيون في ١٩٤٣، وأصبح بطلاً قومياً في فرنسا.

يتكون الأساس السياسي لجمهورية أرمينيا السوفياتية من مجالس سوفيات نواب الشعب، والأساس الاقتصادي من النظام الاقتصادي الاشتراكي والملكية الاشتراكية لوسائل الإنتاج... والجمهورية سيّدة نفسها في إنماء اقتصادها، وثقافتها وعلومها... والهيئة العليا في السلطة هي مجلس السوفيات الأعلى الخاص بالجمهورية، وتتألف من مجلس (أو برلمان) منتخب لمدة خمسة أعوام. وهذا
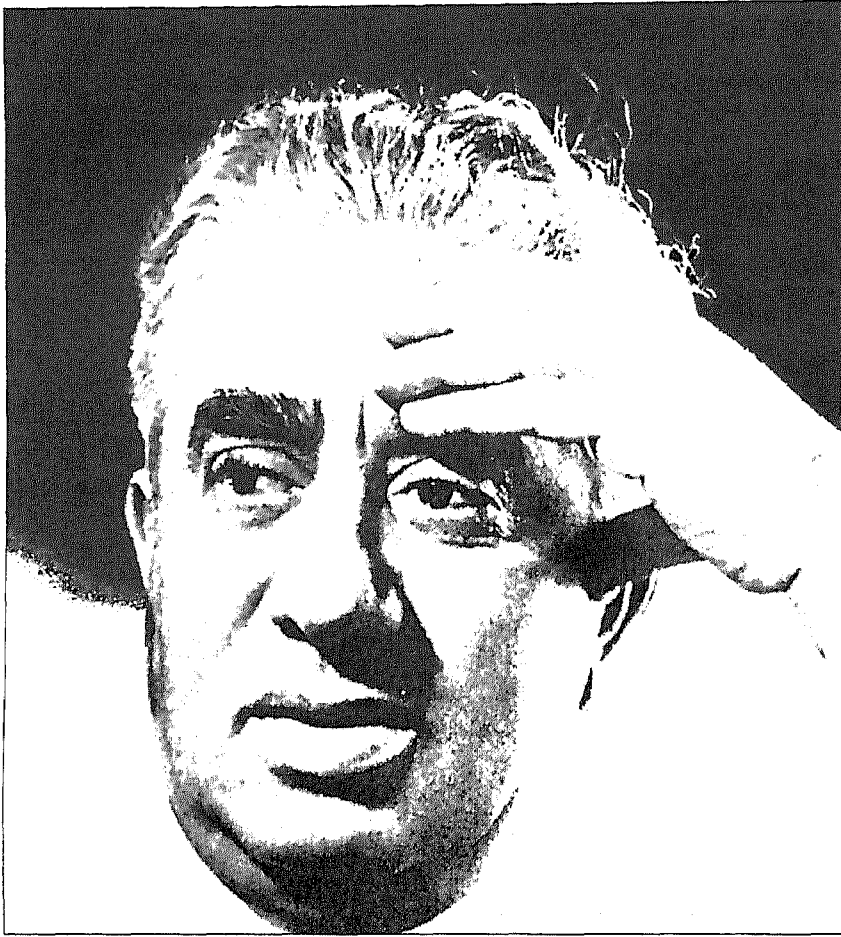
الموسيقار آرام خاتشادوريان
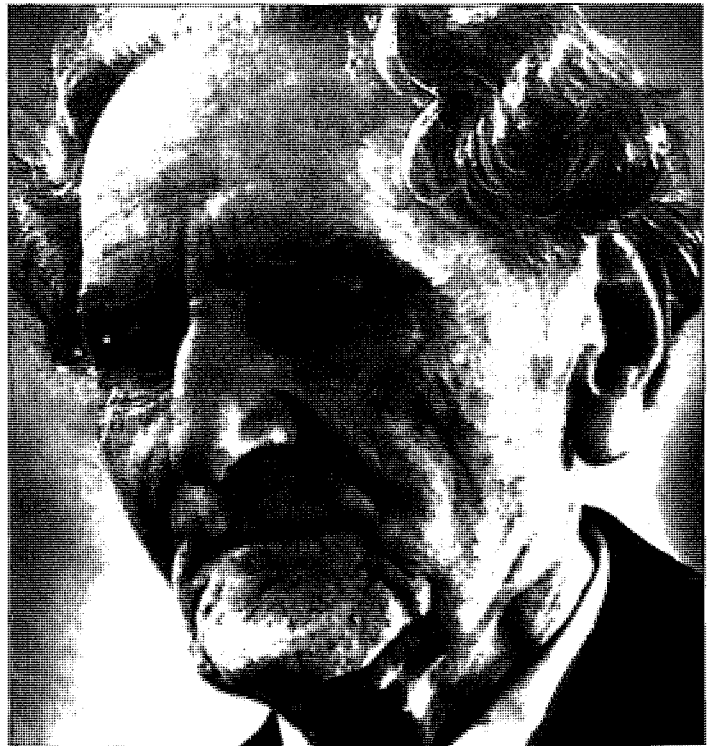
الرسام مارتيروس ساريان (١٨٧٠ - ١٩٧٢)

النحات غرانسيا ستيبانيان

المجلس ينتخب بدوره بريزيديوم السوفيات الأعلى الذي يكون مسؤولاً إزاءه. ورئيس البريزيديوم يعيّن أعضاء مجلس الوزراء وأعضاء المحكمة العليا في أرمينيا... وللجمهورية دستورها، وأسلحتها، وعلمها، ولغتها الرسمية.

بدأت عودة الأرمن (من بلدان الشتات في الشرق الأوسط، وأوروبا، وأميركا) منذ ١٩٢١ تنفيذاً لقرار اتخذته دولة أرمينيا الفتية بهذا الشأن.

وبعد الحرب الوطنية الكبرى (١٩٤١- ١٩٤٥)، تقدم عشرات آلاف الأرمن من القنصليات والسفارات السوفياتية في الخارج لمساعدتهم في تأمين عودتهم إلى وطنهم. وحتى اليوم، هناك العديدون الذين مضى عليهم وقتاً طويلاً في الخارج، يستمرّون في التدفق إلى أرض الأجداد.

منذ ١٩٢١ (وحتى ١٩٨٧)، أكثر من ٢٥٠ ألف أرمني من أكثر من ٣٠ بلداً عادوا إلى أرمينيا. والعائدون معفيون لمدة سنتين من الضرائب، ولهم الحق في العمل، والسكن، والتعليم والضمان الصحي المجاني، والضمان الاجتماعي، والاشتراك في شؤون الدولة والمجتمع.

وهناك، ضمن مجلس وزراء جمهورية أرمينيا السوفياتية الاشتراكية، لجنة مختصّة لاستقبال الأرمن العائدين من الخارج، وهي تنسّق العمل مع لجنة اجتماعية مختصّة بالروابط الثقافية مع أرمن الخارج.

٢- القضية دولياً

على خط موازٍ مع وجود دولة أرمنية ضمن الاتحاد السوفياتي، كان هناك عمل دؤوب انخرط فيه عدد كبير من أرمن الخارج الموزّعين على بلدان كثيرة، عمل يهدف إلى إبقاء القضية الأرمنية حية في المحافل الدولية وفي الضمير الانساني، واستمرار المطالبة بتحميل الأتراك مسؤولية المجازر التي حلّت بهم والحقوق التي انتزعت منهم.

أما الأتراك فقد استمرّوا يعملون ويضغطون باتجاه محو هذه الذكرى والحقوق وإبعاد المسؤولية عنهم معتمدين أساساً على علاقاتهم الدولية وعلى المصالح الدولية التي كثيراً ما التقت ومصلحة تركيا وأهمية دورها. والموقف التركي من المطالب الأرمنية استمر واحداً، وهو الذي عبّر عنه، في السنوات الأخيرة، الكلام الذي ردّده مراراً الرئيس التركي الجنرال كنعان أفرين في خطاباته في المدن التركية التي كانت في ما مضى آهلة بأغلبية أرمنية، مفاده بأن المسألة الأرمنية انتهت بموجب معاهدات أليكسانترابول (١٩٢٠)، وموسكو (آذار ١٩٢١)، وكارس (تشرين الأول ١٩٢١). وهذه المعاهدات، ما أمكن للأرمن مرة أن يقبلوا بها باعتبارها تمثل أمراً واقعاً مفروضاً عليهم وعلى دولة أرمينيا الشرقية (السوفياتية)، وحيث أنهم ما زالوا يطالبون بالاعتراف بتلك المجازر المرتكبة ضدهم، وبإدانة مرتكبيها، وبإرجاع الأقاليم والأراضي الأرمنية المغتصبة.

لم تثر القضية الأرمنية خلال السنوات ١٩٢٣- ١٩٤٥ كقضية دولية. إلا أن الحكومة السوفياتية قد تقدمت للمطالبة بإقليمي كارس واردهان. إلا أن المطالبة تلك لم يبتّ بها جدياً، فأسقطت سنة ١٩٥٣. ومنذ ذلك التاريخ سعى الأتراك دائماً إلى استرضاء السوفيات والحصول منهم على ضمانات لسلامة أراضي بلادهم، وكان لهم ما أرادوا في ذلك الحين.

وفي الذكرى الخمسين (في العام ١٩٦٥) للمجازر المرتكبة ضد الأمة الأرمنية، أثار الأرمن المتواجدون في المهجر قضيتهم تجاه الرأي العام العالمي، وتجاه الحكومات في العالم، إذ طالبوا أن تعترف

جميع الدول – وخاصة تركيا – بأن مجازر رهيبة ارتكبت ضد الأرمن في مستهلّ القرن العشرين، وان على تركيا أن تدفع تعويضات مالية وترد الأراضي التي سلختها عن أرمينيا.

نجاح دبلوماسي

نجح الأرمن، في العام ١٩٧٣، في إدراج موضوع المجازر الأرمنية في تقرير دولي حمل عنوان «دراسة في مسألة منع حدوث مجازر إبادة ومعاقبة مرتكبيها». فالمادة ٣٠ من هذا التقرير تنص على: «... وفي العصر الحديث، اننا نلاحظ وجود مستندات كافية وافية ذات صلة وثيقة بالمجازر المرتكبة ضد الأرمن، وهذه المستندات صنفت على أساس أنها أولى مجازر الإبادة المرتكبة في القرن العشرين...». وقد أغاظت هذه الكلمات الحكومة التركية وأحرجتها، مع العلم أن التقرير المذكور لم يأت على ذكر أي دولة أو حكومة بالاسم. وتمكنت الحكومة التركية، بمساعدة حليفاتها، من حذف تلك الكلمات من التقرير.

لكن الأرمن عادوا وتمكنوا من تثبيت المجازر بشكل قاطع ومبرم في الصيغة النهائية للتقرير الذي تمّ إعداده في العام ١٩٨٥. فالمادة ٢٤، معطوفة على الحاشية المطوّلة للتقرير النهائي تشير إلى «مجازر العثمانيين ضد الأرمن خلال ١٩١٥– ١٩١٦». وقد وافقت لجنة حقوق الإنسان المنبثقة من هيئة الأمم المتحدة على التقرير النهائي، ما شكّل نجاحاً باهراً لجهود الأرمن في الصدد هذا.

أما قرار البرلمان الأوروبي في ستراسبورغ والصادر في ١٨ حزيران ١٩٨٧، فكان نجاحاً باهراً آخر، إذ أقرّ هذا البرلمان بأن «مجزرة إبادة كانت قد ارتكبت ضد الأرمن ضمن الأراضي العثمانية خلال ١٩١٥– ١٩١٧»؛ ولكنه أعقب ذلك بقوله: «باتت تركيا الحديثة غير مسؤولة عن تلك المجازر»؛ وطالب بالحفاظ على الآثار التاريخية الأرمنية الموجودة في تركيا. ونصّ القرار أيضاً على أن عدم اعتراف تركيا بوقوع تلك المجزرة ضد الأرمن، ونكرانها لها، يشكّل عقبة كبيرة في وجه انضمامها إلى السوق الأوروبية المشتركة.

وأما البابا يوحنا بولس الثاني، والرئيس الأرجنتيني راوول ألفونسين، والرئيس الأميركي جورج بوش، والرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران، فقد قدم كل منهم، بشكل أو بآخر، تصريحاً بمساندة الأرمن ولصالح قضيتهم. وبذل السيناتور الأميركي، روبرت دول، جهوداً كبيرة لإقناع الكونغرس الأميركي اتخاذ قرار بشأن اعتبار يوم ٢٤ نيسان يوماً وطنياً لما يحمله من ذكرى أليمة ليس بالنسبة إلى الأرمن فحسب بل بالنسبة لضمير الانسانية برمّتها؛ لكنه لم يوفق بذلك.

منظمات سرية وعمليات عسكرية: منذ المجازر الأرمنية وتشريد الأرمن من وطنهم «في الأراضي الأرمنية المحتلة من تركيا» وحتى العام ١٩٧٥، أي حوالي ٦٠ عاماً، كان الأرمن يؤمنون بأن الدول المتحضرة، لا سيّما الدول الكبرى والدول الأوروبية التي كان لها الدور الأساسي في إبرام معاهدة سيفر، ستقوم بمسؤوليتها السياسية والانسانية، وستطالب تركيا الاعتراف بالإبادة وإعادة الأراضي المغتصبة.

لكن الأرمن، أو شرائح كبيرة منهم خصوصاً في صفوف الشباب، هالهم خيبات الأمل، تأتيهم الواحدة بعد الأخرى، من هذه الدول رغم اعترافها بعدالة مطالبهم التي يمكن ايجازها بثلاثة مطالب:

أولاً: اعتراف تركيا بأنها ارتكبت مجازر الإبادة.

ثانياً: إعادة الأراضي المغتصبة والمرسومة بموجب معاهدة سيفر ١٩٢٠.
ثالثاً: دفع تعويضات عن الخسائر البشرية والمعنوية والمالية المترتبة على الدولة التركية من جرّاء تنظيم عملية الإبادة وتنفيذها.

فأمام هذا الواقع، وأمام اللامبالاة الدولية، وأمام تجربة الأحزاب الأرمنية حول ما قامت به منذ المجازر وحتى السبعينات التي كانت (هذه التجربة) كافية لإعطاء الدول الوقت اللازم لاتخاذ خطوات ايجابية من أجل القضية الأرمنية، ولم تفلح، فقد قرر شباب أرمني اللجوء إلى عمليات عسكرية تنفّذها منظمات أرمنية سرية. وفي الصدد هذا، كتب فروير مارزبيديان («الديار»، ٢٤ نيسان ١٩٩١، ملحق خاص، ص ٢٨):

«... فكان القرار بضرب تركيا ومصالحها في مختلف أنحاء العالم. وربّما اغتيال القنصل التركي في لوس أنجلوس من قبل كوركين يانكيان، وهو في عمر متقدم من الحياة، كانت الشرارة الأولى التي أشعلت نار الكفاح المسلّح. في ٢٤ تشرين الأول ١٩٧٥، اغتيل السفير التركي في فييّنا، وبعد يومين اغتيل سفير آخر في باريس. وهكذا تلاحقت العمليات ونظمت مجموعات مختلفة تعمل في هذا الحقل النضالي.

والجدير بالذكر أن هذه العمليات ما بين ١٩٧٥– ١٩٨٠، لم تصب في خانة الإرهاب الدولي بل كانت نضالاً موجهاً لهدف معين ولفترة معينة ولنتيجة معينة. باختصار، انه تكتيك ضمن استراتيجية هي الوصول إلى حل عادل وشامل ودائم للقضية الأرمنية. فإذا أردنا أن نعدد الأهداف التي رسمتها المنظمات السرية الأرمنية لنفسها في كفاحها من أجل القضية الأرمنية، وانطلاقاً من بياناتها ومنشوراتها والتصريحات التي كان المسؤولون يدلون بها، نصل إلى الأهداف التالية (الكلام لا يزال لكاتب المقال المذكور في «الديار»):

أولاً: الإبراز للعالم ان الشعب الأرمني لا يزال يتذكر الإبادة ويعمل من أجل استرجاع حقوقه.
ثانياً: الإبراز للدول المتحضرة والهيئات الدولية والرأي العام العالمي بأن قرار عودة حمل السلاح هو قرار اتخذ بعد معاناة وتجارب طويلة وبعد أن سدّت أمام الشعب الأرمني جميع الوسائل السلمية (...)

ثالثاً: الإبراز لتركيا، الوريثة الشرعية للسلطنة العثمانية بموجب القانون الدولي، وبموجب الاتفاقيات التي أبرمتها وتناولت فيها القضية الأرمنية وحقوق الشعب الأرمني بأنه رغم الإبادة وتشريد ما يقارب مليوني أرمني من وطنهم الأم يبقى اليوم صوت العدالة بسلاح العدالة متسلطاً أمام وجهها.
رابعاً: جعل العمليات العسكرية وسيلة سياسية إعلامية في طريق الحل العادل. فالمنظمات السرية كانت تعرف بأن تركيا لن ترضخ أمام هذه الهجمات، وان هذه العمليات ليست ثورة ولا حرباً ضد تركيا بل ضربات قاسية للتذكير فقط ولإفساح المجال أمام مساع خيّرة من أجل القضية.

وعلى صعيد المنظمات السرية برز عدد كبير من مجموعات قامتْ بمختلف العمليات العسكرية. إلا أن ثلاث من هذه المنظمات جعلت العالم يتحدث عنها وجعلت تركيا تحسب حسابها. وهذه المنظمات هي:

١– الجيش السري الأرمني لتحرير أرمينيا الذي قام حتى ١٩٧٩، بعمليات عسكرية ضد أهداف تركية. إلا أنه، وخاصة بعد أن تمّ اعتقال بعض أفراده، قام بضرب مصالح غير تركية أيضاً. وتحت اسم الجيش السري الأرمني لتحرير أرمينيا، عملت مجموعات أخرى مثل: مجموعة أورلي، سويسرا ١٥، ٩ حزيران، ٣ تشرين الأول، وغيرها.

٢- كومندوس العدالة: وهي منظمة سرية قامت فقط بضرب أهداف تركية، وخاصة دبلوماسيين أتراك في مختلف أنحاء العالم، من أوروبا إلى أوستراليا وأميركا.

٣- الجيش الثوري الأرمني: منظمة ضربت أهدافاً تركية، وكانت لها طريقة خاصة راديكالية مثل اللجوء إلى عملية انتحارية في السفارة التركية في ليشبونة، أو اقتحام سفارة، أو تفجير سيارة تابعة للسفارة التركية.

واليوم، وبعد أن أوقفت هذه المنظمات هجماتها (بلغت ١٥١ عملية من العملية الأولى في ١٦ شباط ١٩٧٦ إلى آخر عملية في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٨٦)، يطرح السؤال: هل حقق الكفاح المسلّح الأرمني أهدافه؟

من الصعب الجواب على هذا السؤال ولا يتعدى تاريخ آخر هجوم إلا فترة سبع سنوات والعالم في تحرك مستمر والظروف تتغير. إلا أنه من الواضح أن اهتمام العالم، ولا سيّما تصدّي تركيا للنشاط الأرمني، وقرارات مختلف البرلمانات في العالم كالأرجنتين والأوروغواي ودول أوروبا لا سيّما قرار البرلمان الأوروبي بشأن منع دخول تركيا السوق الأوروبية المشتركة، وقرارات لجنة حقوق الانسان في الأمم المتحدة والمحكمة الدائمة للشعوب وتصريحات كبار الشخصيات هي نتيجة حتمية للكفاح المسلّح وللنشاط السياسي المرافق له».

قره باخ (كاراباخ)

إقليم جبلي أرمني، مساحته ٤٤٠٠كلم٢، وعدد سكّانه نحو ٢٠٠ ألف نسمة، ٨٠٪ منهم أرمن. كناية عن جيب أرمني داخل أذربيجان، ويفصله عن أرمينيا شريط بري ضيق.

كانت قره باخ جزءًا من أرمينيا، وعرفت باسم «أرتساخ» منذ القرن السادس قبل الميلاد. وكان الأرمن يشكلون دائماً الأغلبية الساحقة من سكانها. لكن منذ منتصف القرن الثامن عشر، بدأ التتار، الذين يتكلمون اللغة التركية واليوم هم الأذريون أنفسهم، بالإقامة والاستيطان في تلك الأراضي مستفيدين من حكم الخانية الفارسية ومن الضعف الذي بدأ يصيب تدريجياً الإمارات الخمس شبه المستقلّة في قره باخ.

في الأول من كانون الأول ١٩٢٠، وفي باكو (عاصمة أذربيجان)، أعلنت اللجنة الثورية الأذرية الحاكمة انها أسقطت ادعاءات أذربيجان بأراضي قره باخ، وأنها تعتبر تلك الأراضي جزءًا لا يتجزأ من جمهورية أرمينيا السوفياتية. وبهذا الإعلان الصريح، ألغت هذه اللجنة الثورية القرار الاعتباطي لقائد القوات البريطانية (التي كانت متواجدة في القوقاز) الذي وضع إقليم قره باخ تحت السلطة الأذرية في ١٩١٩.

لكن ستالين كرّس السيادة الأذرية على إقليم قره باخ الذي اعتبره إقليماً يتمتع بحكم ذاتي داخل جمهورية أذربيجان السوفياتية الاشتراكية، ضارباً عرض الحائط مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، في حين كان الأرمن يشكّلون ٩١,٢٪ من مجموع سكان الإقليم.

بدأ الأذريون يقطنون الإقليم، وبدأت نسبة سكان الأرمن تتراجع ولكن مع احتفاظها بالأكثرية الساحقة: في ١٩٢٦، أصبحت هذه النسبة ٨٩,١٪؛ وفي ١٩٣٨ تراجعت إلى ٨٨,١٪؛ وفي ١٩٥٩ إلى ٨٤,٤٪؛ وفي ١٩٧٠ إلى ٨٠,٦٪، وبلغت في ١٩٨٩ نسبة ٧٥,٩٪.

طالب أرمن قره باخ، مراراً، الانضمام إلى الوطن الأم أرمينيا. وكان هذا الطلب موضوع تجاهل

من ستالين وخروتشوف وبريجنيف، إلى أن جاء غورباتشوف وبدأت معه حركة إعادة البناء والإصلاح المعروفة بـ «البيريسترويكا»، فصوت برلمان قره باخ، وبأكثرية أعضائه الساحقة، على مشروع الانضمام إلى أرمينيا (٢٠ شباط ١٩٨٨)، مخافة أن يصيب إقليم قره باخ الأرمني، مع مرور الأيام، ما أصاب إقليم ناخيتشيفان الأذري المحاط بأراضي جمهورية أرمينيا بموجب ترتيبات العام ١٩٢٠ أيضاً، حيث تضاءلت نسبة السكّان الأرمن في ناخيتشيفان من ٤٥٪ إلى ١,٢٪ فقط، وذلك إثر سياسة التقتيل والتهجير القسري والنفي إلى مجاهل سيبيريا وانعدام الأمن والتجريم الثقافي وإثقال كاهل الأرمن بشروط حياة تعجيزية وتهديم الكنائس والنصب والآثار الأرمنية التاريخية. فاعتبر أرمن قره باخ، وهم الآن الأكثرية الساحقة ان مثل هذا المصير ينتظرهم إن استمرّوا إقليماً داخل أذربيجان وفي إطار سيادتها وسلطتها. فاستعجلوا أمر مطالبتهم بالانضمام إلى أرمينيا مستفيدين من زوال الاتحاد السوفياتي واستقلال جمهورية أرمينيا وباقي جمهوريات الاتحاد السابق، وحملوا السلاح وخاضوا المعارك ضد الأذريين وحققوا عليهم انتصارات متتالية.

من التاريخ

تورد المصادر الأرمنية والأذرية معلومات متناقضة تماماً عن تاريخ قره باخ. فالأرمن الذين سكنوا المناطق الممتدة من بحيرة وان الواقعة في تركيا حالياً وأسسوا دولة أوراتو في الألف الأول ق.م. يدعون ان «الخاتشكاري»، وهي صلبان منقوشة على الحجر ودور العبادة القائمة حتى اليوم تؤكد أحقيتهم في قره باخ التي يصرون على تسميتها «أرتشاخ».

ويرد الأذريون بأن الكنائس هناك أقامها الألبان المسيحيون في المنطقة ولا دخل للأرمن فيها. وفي نقلة سريعة عبر التاريخ يشيرون إلى أن خان قره باخ كان أقام دولة فيها تمتد بين نهري كورا وأراكس دامت من ١٧٤٧ إلى ١٨٢٢ وألحقت بالامبراطورية الروسية مع سائر المناطق الأذرية إثر الحرب الطويلة بين الفرس والأتراك التي بدأت في عهد الدولة الصفوية.

ويرى الأذريون أن روسيا سمحت للأرمن بالانتقال إلى هذه المناطق لتعزيز الطائفة المسيحية في الجناح الجنوبي من الامبراطورية والتصدي لنفوذ الدولة العثمانية هناك.

وبعد الثورة البلشفية (١٩١٧)، بدأت صفحة جديدة في تاريخ روسيا حين أعاد الشيوعيون تقسيم الامبراطورية على أساس قومي وفقاً لمبدأ حق الأمم في تقرير مصيرها الذي بدا شعاراً مغرياً. بيد أن تطبيقه أظهر أن المركز الامبراطوري ظل دونما تغيير. وكان إحكام القبضة على المناطق القومية هاجساً أساسياً لستالين، وزير شؤون القوميات في عهد لينين، والقيصر الجديد الذي أمسى اسمه الأمين العام للحزب.

وفي محاولة من الاتحاد السوفياتي (الامبراطورية الجديدة) للتقارب مع مصطفى كمال، مؤسس تركيا المعاصرة، جرى تقسيم المنطقة في صورة جيوب متداخلة حين صارت ناخيتشيفان المحاطة بالأراضي الأرمنية والايرانية تابعة إدارياً لأذربيجان، بينما أصبحت قره باخ الجبلية المطوّقة بالأراضي الأذرية كياناً يتمتع بحقوق قومية للأرمن ويطمح إلى تجاوز الكيلومترات السبعة التي تفصله عن الوطن الأم للعودة إلى أحضانه.

وتمكن المركز السوفياتي من وقف الحرب القومية التي بدأت بين الطرفين في العام ١٩١٨، وانتهت بعزل «الحكومتين البورجوازيتين» في كل من أذربيجان وأرمينيا، وفرض الوفاق القومي بالقوة،

مما عنى التستر على المرض وليس علاجه. وعلى رغم ذلك ظل الأرمن الذين يتمتعون تقليدياً بمواقع قوية في موسكو ولهم جالية كبيرة فيها يطالبون برفع الحيف وإعادة قره باخ إلى أرمينيا. وانفجرت الأزمة بعد استلام غورباتشوف السلطة وبدء عهد «بيريسترويكا» وغياب المركز القومي القادر على ضبط الأوضاع، ثم انهيار الاتحاد السوفياتي.

السنوات الأخيرة (حتى أواسط ١٩٩٣)

البداية: تجاهلت موسكو أحداث الشغب في مدينة سومفاييت الأذرية التي قتل فيها عشرات الأرمن، ما أدى إلى تفاعلات متسارعة في قره باخ بلغت ذروتها في شباط ١٩٨٨، حينما أعلن مجلس السوفيات في المنطقة (إقليم قره باخ) تعزيز استقلاليتها عن أذربيجان. وإثر ذلك تحولت المناوشات إلى معارك، ثم إلى حرب على ساحتين: الأولى داخل قره باخ، والثانية في كل من أرمينيا وأذربيجان، حينما بدأت حملات التهجير المتبادلة. وقدر عدد النازحين من الطرفين بـ ٧٠٠ ألف شخص أصبحوا عبئاً اقتصادياً واجتماعياً على باكو (عاصمة أذربيجان) ويريفان (عاصمة أرمينيا).

وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي، أعلن أرمن قره باخ انفصالهم الكامل وشكلوا «جمهورية قره باخ الجبلية»، ولم تعترف بها الدول، بما فيها أرمينيا نفسها رغم ان البرلمان الأرمني كان أقرّ في العام ١٩٨٩ ضرورة قيام اتحاد بين الكيانين.

وكان قيام الدول المستقلة عن الاتحاد السوفياتي يعني تأسيس جيوش لها. وبالاتفاق مع موسكو، جرى تسليم عدد كبير من أسلحة الجيش الرابع المرابط في أذربيجان، والجيش السابع في أرمينيا إلى الدولتين.

هكذا، دخلت الحرب في قره باخ طوراً جديداً، وأصبحت، عملياً، بين دولتين مسلحتين رغم إصرار الأرمن على أن قوات الدفاع «القره باخي» هي وحدها التي تقاتل. وكان الهجوم القره باخي الناجح الأول على قلعة شوشا الجبلية والاستراتيجية، والاستيلاء على ممر لاتشين الموصل بين قره باخ وأرمينيا.

أواسط ١٩٩٣: استمرّ أرمن قره باخ يحققون انتصارات عسكرية، فتمكنوا من اكتساح قضاء كلباجار، ما أدّى إلى فقدان أذربيجان ١٠٪ من مجموع أراضيها، واحتلال غالبية الأراضي الواقعة بين قره باخ وأرمينيا (حتى أيار ١٩٩٣). وخلال حزيران وتموز من ١٩٩٣، صعّد الأرمن حدة معاركهم حتى سيطروا على الوضع العسكري وزادوا من تقدمهم وهدّدوا العديد من المدن الأذرية نفسها، مستفيدين، إلى الحدّ الأقصى، من الأزمة السياسية التي عصفت بحكومة باكو. ولم ينقض شهر تموز ١٩٩٣ إلا وكان أرمن قره باخ يسيطرون على ١٧٪ من الأراضي الأذرية التي تضم ٣٠٥ قرى ومدن (راجع: أذربيجان).

فالهزائم التي مُني بها الأذريون، وفقدانهم السيطرة على مدينة أغدام الاستراتيجية أرغمتهم على القبول بالتفاوض المباشر مع القره باخيين بعدما كانوا يرفضونها في صورة قطعية مؤكدين أن الأرمن القاطنين هناك هم «جزء من الأمة الأذرية».

ورغم أن «جمهورية قره باخ الجبلية» التي أعلنها الأرمن لم تحظَ باعتراف أي بلد بما في ذلك أرمينيا نفسها، فإنها أعلنت عن استحداث وزارة خارجية أسندت مسؤوليتها إلى أركادي غوكاسيان الذي كان على رأس الوفد المفاوض إلى جانب وزير الدفاع القره باخي صامويل سركيسيان.

أما يريفان (عاصمة أرمينيا)، فقد رحّبت بهذا اللقاء الذي اعتبرته «خطوة حكيمة»، ويعني اعترافاً ضمنياً بأن قره باخ طرف ينبغي التفاوض معه، وهو الجهة الوحيدة المؤهلة لحسم قضايا الانسحاب من مدينة أغدام وقضاء كلباجار وممر لاتشين. ويطالب الأرمن بأن تكون الأراضي التي ينسحبون منها منزوعة السلاح وخالية من القوات الأذرية، ويدعون إلى وضع مراقبين وقوات دولية على الحدود بين أذربيجان وقره باخ.

وقد دان مجلس الأمن الدولي، في قراره رقم ٨٥٣، الاستيلاء على منطقة أغدام وعلى «كل المناطق الأخرى التي احتلت مؤخراً في الجمهورية الأذرية»، وطالب بانسحاب القوات الأرمنية منها.

حرب انفصال قره باخ في إطار مواقف الدول

انتصارات أرمن قره باخ محيّرة. فهل تكفي التفسيرات العسكرية حول التدريب الجيد، والحصول على أسلحة متقدمة ووجود أعداد من الخبراء بينهم رعايا فرنسيون و «لبنانيون» و «سوريون» قاتلوا إلى جانب القره باخيين؟ وكيف أمكن لجمهورية أرمينيا، المحاصرة من كل جانب والتي قطعت عنها إمدادات الوقود وعانت مشاكل في توفير النفط للتدفئة والاحتياجات الصناعية، من إيجاد البنزين اللازم لتحريك المدرعات بأعداد كبيرة دعماً لأرمن قره باخ؟

روسيا: إن أول ما يتبادر إلى الذهن، إضافةً طبعاً إلى المستوى القتالي العالي للمقاتل الأرمني المدفوع بموروث نضالي وقضية تاريخية، هو دور موسكو التي تشعر بارتباط تاريخي بالأرمن فضلاً عن انضمام أرمينيا إلى أسرة الدول المستقلة، ثم إلى معاهدة الدفاع المشترك، فيما امتنعت أذربيجان عن إبرام أي من الوثيقتين. وقد يكون من مصلحة الكرملين إقناع الطرفين بأن أي حل لن يكون مقبولاً ما لم يراع مصالح روسيا وأهدافها الجيوسياسية، خصوصاً في ضوء مخاوفها من امتداد النفوذ التركي في منطقة القوقاز كلها. وكان عيسى غمباروف، رئيس البرلمان الأذري، قال إن أذربيجان قد تكون امتداداً طبيعياً للجناح الجنوبي للحلف الأطلسي. كما أكّدت الجبهة الشعبية الحاكمة في أذربيجان (برئاسة الفضل بيه ألتشي) على تتريك البلد واعتمدت اللغة التركية أساساً للتعامل رغبة منها في «نموذج» أتاتورك (في تركيا) وليس الخميني (في ايران).

تركيا: كان سليمان ديميريل، الرئيس الحالي ورئيس الوزراء السابق في تركيا، قال إن رقعة اهتمامات بلاده تمتد من ألما أتا (عاصمة قازخستان) إلى بحر الأدرياتيك. ولا شك أن وجود قاعدة مهمة مثل أذربيجان التي يرتبط أهلها بعرى القرابة القومية مع الأتراك إلى جانب وجود نفط بحر قزوين كانا من العوامل الأساسية التي دخلت في حسابات أنقرة.

بيد أن تركيا الطامحة إلى دور دولة إقليمية عظمى لا تبدو راغبة في إحراق الجسور مع روسيا ولا حتى مع أرمينيا. فتعاملت بحذر مع النزاع رغم أنها استقبلت أعداداً كبيرة من الأذريين للدراسة في معاهدها العسكرية، وذكر أنها أوفدت ضباطاً كباراً للعمل كخبراء في باكو. فرئيسة وزراء تركيا التي خلفت ديميريل، تانسو تشيلر، سارعت إلى التقاط مناسبة أول لقاء أذري – قره باخي (أواخر تموز ١٩٩٣) لتدعو إلى إدخال قوات سلام دولية، ما أثار ردود فعل سلبية في أذربيجان، حيث اعتبر كثيرون أن هذا الموقف التركي ينم عن تخلي تركيا عن أذربيجان، ولا يمكن اعتباره إلا دعوة للاستسلام. فاضطرت السفارة التركية في باكو إلى إصدار بيان أكدت فيه أن تصريح تشيلر «مجرد اقتراح»، وذكرت أن تركيا تدين «العدوان الأرمني» وستؤيد في المحافل الدولية القيادة الأذرية إذا

قررت استدعاء قوات سلام.

إيران: تشعر ايران بمخاوف من التحالف بين باكو وأنقرة خصوصاً في ضوء فشل طهران في استخدام الورقة الطائفية، وجذب الأذريين الشيعة إلى جانبها. أما أكبر مخاوف طهران فمتأتٍ من وجود أعداد تقدّر بين ١٠–١٥ مليون أذري داخل ايران ودعوة عدد من قادة باكو إلى إقامة أذربيجان الكبرى، الأمر الذي يشكّل مصدر قلق كبير للإيرانيين، ويدفعهم إلى التحالف مع الأرمن والروس في الصراع القره باخي.

لكن ايران، في الوقت نفسه، حاولت أن تغدو وسيطاً بين الطرفين (الأرمني – الأذري). إلا أن العمليات العسكرية الأرمنية الناجحة، وفشل اتفاقات كثيرة لوقف النار، أحرج موقفها داخلياً وخارجياً، فأصدرت تصريحات عنيفة ضد الاحتلال الأرمني لقضاء كلباجار، ولكنها ظلت في إطار القول دون أي تحرّك فعلي ملموس (حتى اواخر صيف ١٩٩٣).

دولياً: كيف كانت الصورة العامة للموقف الدولي من حرب انفصال قره باخ قبيل اتفاق قره باخ – أذربيجان على وقف إطلاق النار ومبدأ التفاوض مباشرة وعلى مستوى القمة وقرار مجلس الأمن الدولي (أواخر تموز ١٩٩٣)؟

كان اللوبي الأرمني القوي تمكن طوال سنوات من تأمين مساندة للقره باخيين (في المنشورات الأرمنية باللغة العربية: كراباخ، أو أرتساخ، أو أرتشاخ)، بيد أن المصالح الاقتصادية والمتغيرات الجيوسياسية أدخلت عناصر جديدة، ومنها احتمال تقارب باكو مع حلف الأطلسي واستخدامها عازلاً في وجه النفوذ الإيراني المحتمل. لكن هذا الأمر بالذات لا بد وأن تحسب له واشنطن ألف حساب. فهي، على رغم ارتباطها بتحالف سياسي مع أنقرة تخشى تحوّل تركيا إلى دولة «تتحرك ضمن خريطة مصالحها ولا تلتزم بسيناريوهات خارجية».

إلى ذلك فإن الأميركيين يتوجسون من تحرّك بريطاني في أذربيجان التي كانت من أهم مصادر البترول التي تسيطر عليها لندن لحين قيام الثورة البلشفية، وكان توقيع اتفاقية مع «بريتيش بتروليوم» وزيارة رئيسة الوزراء السابقة مارغريت تاتشر لباكو مؤشراً آخر يعزز المخاوف لدى عدد من العواصم الغربية.

وعلى النطاق السياسي والإعلامي، أصبح من الصعب على المناصرين للأرمن في العالم ترسيخ صورة «الأرمني القره باخي» الضعيف الذي يتعرض إلى الاضطهاد الأذري. وكانت معارك ربيع ١٩٩٣ واحتلال كلباجار دافعاً لإصدار أول قرار من مجلس الأمن الدولي يعترف رسمياً بوجود قوات أرمنية في أراضٍ أذرية ويطالب بسحبها. والأمر نفسه مع معارك حزيران وتموز ١٩٩٣ التي أسفرت عن احتلال أغدام ومدن وقرى أذرية عديدة، حيث أصدر مجلس الأمن قراراً يدعو إلى انسحاب القوات المحتلة.

قره باخ وأذربيجان: أيضاً، كيف كانت صورة الموقف داخل كل من قره باخ وأذربيجان قبيل اتفاقهما على بدء مفاوضات مباشرة بينهما (أواخر تموز ١٩٩٣)؟

لا شك أن هناك تراكمات تاريخية، قومية ودينية، تعكر صفو العلاقات بين الأمتين المتجاورتين، لكنها لم تصل إلى حد الاحتراب إلا في فترات معينة (مثل تلك التي جرت قبيل جعلهما ينضمان إلى الاتحاد السوفياتي بعيد الحرب العالمية الأولى). أما في الحرب الأخيرة، فإلى الدوافع القومية والدينية التي لا شك فيها، تجدر الإشارة إلى عناصر طارئة أجّجت الصراع، منها ما أكدته دراسات كثيرة عن وجود «مافيات» من الطرفين تزوّد المتحاربين بالأسلحة والمواد الغذائية والوقود وليس لها أي منفعة في

وقف القتال. وكانت رؤوس كثيرة سقطت في الجمهوريتين بسبب حرب قره باخ. وحسبنا الإشارة إلى مصير اياز مطلبوف الذي نُحّي مرّتين عن رئاسة الجمهورية لاتهامه بـ «تسليم» مدينة أحاج علي التي قُتل فيها مئات من الأذريين. وحينما استلم أبو الفضل التشي بيه، زعيم الجبهة الشعبية، كرسي الرئاسة، وعد بحل المشكلة في غضون مئة يوم، لكن فقد المزيد من الأراضي، وازدادات الصراعات الداخلية إلى أن أطاحته وأتت بحيدر علييف.

وفي أرمينيا، تعرّض، ولا يزال، الرئيس ليفون دير بتروسيان إلى ضغوط شديدة من حزب الطاشناق المطالب بإعادة «أرمينيا التاريخية»، وتمرّد مقاتلوه الذين يشكلون الغالبية في «قره باخ» على أي اتفاق تعقده يريفان.

وما يزيد تعقيد المشكلة ان الطرفين ينطلقان من مسألتين معترف بهما في القانون الدولي والأعراف الدولية، لكنهما، بالنسبة إلى قره باخ، متناقضتان. فالأرمن يشددون على الحق التاريخي وعلى حق تقرير المصير، بينما يتشبث الأذريون بمبدأ وحدة الأراضي وثبات الحدود. فيقولون ان أرمن قره باخ ليسوا أمة لكي ينطبق عليهم المبدأ الأول بل هم أقلية عرقية ضمن الأمة الأذرية ويتمتعون بحقوق متساوية مع الأذريين والروس والأكراد وسائر القوميات القاطنة في الجمهورية؛ ومن هذا المنطلق تقترح باكو على قره باخ «الحكم الذاتي الثقافي». ويرد أرمن قره باخ إلى أن الهدف الحقيقي للأذريين ابتلاع قره باخ وتمييع استقلالها وتغيير ديموغرافيتها وبالتالي «دفن القضية إلى الأبد».

وقد فشلت حتى أواخر تموز ١٩٩٣ (أي حتى قبول الطرفين مبدأ التفاوض المباشر بينهما) كل محاولات الوساطة التي قامت بها قازخستان وروسيا وايران للتوفيق بين الجانبين. ورفض الأذريون بشدة دخول قوات روسية تحت علم الأمم المتحدة إلى المنطقة باعتبار ذلك تطاولاً على سيادتهم لكنهم وافقوا فيما بعد على إرسال مراقبين. وفي إطار مجلس التعاون الأوروبي، شكلت لجنة برئاسة الايطالي ماريو روفائيلي، وضعت مقترحات لوقف النار وسحب القوات وتجريد المنطقة من السلاح. بيد أن إصرار الأرمن على أن تمثل قره باخ بوفد رسمي أعاق المفاوضات التي ما لبثت أن انهارت كلياً بعد احتلال كلباجار ودخول مجلس الأمن الدولي والأقطاب الكبار على الخط.

لكن هذا الدخول نفسه لم يمنع معارك حزيران وتموز ١٩٩٣ التي حقق فيها أرمن قره باخ انتصارات متلاحقة جعلتهم يسيطرون على مناطق واسعة من أذربيجان خارج حدود قره باخ. وعلى أرضية هذه الانتصارات، اضطرّ الأذريون إلى الإعلان عن قبولهم بدء مفاوضات ثنائية مع قره باخ.

عند هذا الحد الذي وصلت إليه التطورات بين قره باخ وأذربيجان (أواخر تموز ١٩٩٣)، تكثف الحديث عن توقّع قبول الطرفين الخطة الروسية – الأميركية – التركية التي وضعت خلال لقاءات سرية، وحدد عدد من بنودها الأساسية في مباحثات أجراها وزير الدفاع الروسي بافل غراتشوف في أنقرة.

مناقشة: اهتمام عربي

لمزيد من إلقاء الضوء على القضية الأرمنية عموماً، نعرض حرفية المحاضرة التي ألقاها الدكتور صالح زهرالدين في بيروت (٢٤ أيار ١٩٩٢) بدعوة من مجلس إدارة «الحلقة الأدبية الأرمنية اللبنانية»، نظراً لأهمية المحاضرة إن لجهة المعلومات الدقيقة التي تعرضها للمرة الأولى، وإن لجهة التحليلات الاستراتيجية التي تضمنتها، وإن أيضاً لجهة حرص المحاضر على إبراز حقائق مهمة من حقّها ترسيخ العلاقات الطيبة بين الأرمن والعرب والمسلمين. وقد استعمل المحاضر «كاراباخ» بدلاً من قره باخ. والمحاضرة بعنوان «كاراباخ: بين تقرير المصير والمشروع الطوراني الصهيوني»:

يقال بأن «النار تندلع من مستصغر الشرر». فكم ينطبق هذا القول على أحداث ناغورني كاراباخ الأخيرة!

استناداً لذلك يخطئ من يظن أن الصراع الأذربيجاني - الأرمني الذي انفجر في نهاية ثمانينات هذا القرن بسبب مقاطعة ناغورني كاراباخ هو صراع حديث وابن ساعته، بل على العكس، فهو صراع طويل ومرير، تمتد جذوره التاريخية إلى أكثر من سبعين عاماً، وتكرّس حرباً مفتوحة بقرار من ستالين عام ١٩٢٣، لذلك يمكن القول انه إذا ضاعت الأصول ضاع التاريخ معها.

وليس من الغرابة أن تثير أحداث كاراباخ اهتمام الرأي العام العالمي، ولا سيّما في البلاد العربية. إذ منذ اندلاع تلك الأحداث بين جمهورية أذربيجان ومقاطعة كاراباخ الأرمنية، أخذت وكالات الأنباء والصحف الغربية تتناول أنباء محرّضة كعادتها، وتعطي الأحداث تارة طابعاً دينياً طائفياً - بين مسلمين ومسيحيين - وتارة طابعاً انفصالياً، مشوّهة بذلك حقيقة الصراع القائم منذ أكثر من سبعين عاماً...

والنزاع الدائر، في جوهره، ليس بنزاع طائفي، كما روّجت له بعض وسائل الإعلام، خاصة في لبنان، بل انه يدور حول مبدأ ديمقراطي عام، يتمثل بمبدأ حق

الشعوب في تقرير مصيرها بحرية.

وان اعطاء الحوادث هذه طابعاً طائفياً في بلد كلبنان، ليس بمثابة صبّ الزيت على النار فحسب، لكنه قبل كل شيء يشكّل تزويراً فادحاً لحقيقة العلاقات الأرمنية الإسلامية، والأرمنية العربية في التاريخ القديم والحديث.

والجدير بالذكر، وإثباتاً للحقيقة التاريخية، فإن المجازر الجماعية التي ارتكبها الأتراك الطورانيون (على يد جمعية الاتحاد والترقي) بحق الأمة الأرمنية، وباسم الإسلام زوراً، كان مخططاً لها تحت لواء الطورانية، المذهب العنصري التوسعي الذي يتناقض مع روح الدين الإسلامي، ويتلاق مع الصهيونية والنازية والاستعمار.. ذلك لأن كل مشروع توسعي يستلزم نظرية عنصرية.. وكل نظرية عنصرية تخفي بين سطورها مشروعاً توسعياً استيطانياً احتلالياً.. وجريمة إبادة الجنس الأرمني ارتكبت وفقاً لمشروع طوراني، كان يهدف إلى توحيد وتتريك كافة الشعوب القاطنة في حدود الامبراطورية العثمانية والقفقاس وآسيا الوسطى، وحتى الشرق الأقصى، وذلك في امبراطورية شاسعة، تحت راية الطورانية، لا الإسلام. والحقيقة أنه بسبب هذا المشروع الطوراني بدأ النزاع بين الأمة الأرمنية وأصحاب المشروع التوسعي هذا حول ثلاث مقاطعات أرمنية (في بداية هذا القرن) ذات أهمية استراتيجية كبيرة وهي: ناخيتشيفان، وزانغيزور، وكاراباخ، التي تشكل الحد الفاصل والمعبر الاستراتيجي بين تركيا وأذربيجان. كما تشكل العقبة الكبرى أمام التوسع التركي نحو آسيا الوسطى تحقيقاً للمشروع الطوراني الذي يتطلب تأمين الصلة المباشرة بين تركيا وأذربيجان.

فبالنسبة لإقليم ناخيتشيفان، فإنه كان يشكّل جزءًا لا يتجزأ من أرمينيا، سواء في التاريخ القديم أو الحديث. واعتبر طوال قرون واحداً من أهم مراكز أرمينيا السياسية والثقافية. لكن معاهدة موسكو التي وقّعت بين تركيا وروسيا السوفياتية في ١٦ آذار ١٩٢١، أقرّت سلخ ناخيتشيفان عن أرمينيا وضمّت إلى أذربيجان، بالرغم من عدم وجود أي ارتباط جغرافي أو حدود مشتركة بين أذربيجان وناخيتشيفان، كما شكلت هذه المعاهدة الأساس القانوني لتشكيل إقليم ناخيتشيفان السوفياتية ذات الحكم الذاتي في حدود أذربيجان، كما ان تركيا لم يكفها اقتطاع منطقة قارص وقضاء سورمالو من أرمينيا، بل وطالبت باصرار بسلخ اقليم ناخيتشيفان عن أرمينيا السوفياتية وضمّه لأذربيجان (وهكذا يلاحظ أن تركيا تتصرف كدولة منتدبة على أذربيجان). وسعياً لضم إقليم ناخيتشيفان إلى أذربيجان، لم تستغل تركيا الوضع السياسي الخارجي الملائم لها فحسب، بل استفادت كذلك من موقف ستالين من حكم مصطفى كمال (أتاتورك) ومن مساعدة بعض الأذربيجانيين أيضاً، ومن بينهم عضو اللجنة الثورية في أذربيجان ب. شاهتاهتينسكي الذي دعا الأقلية الأذربيجانية في ناخيتشيفان الاعتماد على تركيا قائلاً لها: «توجّهوا اليوم بأنظاركم إلى الأتراك، فهم منقذوكم الوحيدون، وتوثقوا بهم قوياً» (وقد جاء ذلك بعد بيان اللجنة الثورية المعروف في ناخيتشيفان الذي صدر في أول كانون الأول ١٩٢٠ والذي اعترف بناخيتشيفان وزانغيزور وكاراباخ كجزء لا يتجزأ من أرمينيا).

ولقد أثلج صوت الطورانيين الأذربيجانيين صدر تركيا الكمالية التي استغل قادتها الوضع الدولي المناسب لهم في مطلع العام ١٩٢١، في مرحلة المفاوضات السوفياتية – التركية، فطالبوا بضم اقليم ناخيتشيفان إلى أذربيجان. وكان لتركيا والأذربيجانيين الطورانيين ما أرادوا كخطوة استراتيجية نحو المشروع الطوراني التوسعي.

وقد جاء في البند الثالث من المعاهدة المذكورة: «ان الطرفين الموقعين على المعاهدة موافقان على أن يشكل اقليم ناخيتشيفان، منطقة ذات حكم ذاتي تحت رعاية أذربيجان شرط ألا تتنازل أذربيجان عن هذه الرعاية لدولة ثالثة». والمقصود هنا بالدولة الثالثة هو أرمينيا طبعاً.

كذلك الحال بالنسبة لإقليم ناغورني كاراباخ، فقد كان ن. ناريمانوف رئيساً للجنة الثورية في أذربيجان عام ١٩٢٠ بعد انتصار الحكم السوفياتي فيها، وإصراراً منه على ضمّ كاراباخ وزانغيزور إلى أذربيجان، قال ناريمانوف «لا أحد في العالم يستطيع منعنا من التأثير في سكان المنطقتين لكي يوافقوا على ضمّها إلى أذربيجان». ومن هذا الاتجاه كان رئيس اللجنة الثورية في كاراباخ أسعد كارابيف الذي قال في رسالة إلى رئيس اللجنة الثورية في قضاء غيروسين في ٢١ تموز ١٩٢٠: «حاولوا اعتقال الأرمن البارزين والمطلوبين، واتركوا حبّ الانسانية جانباً.. ولا تتركوا في زانغيزور إنساناً مرموقاً واحداً ولا مصدر ثروة، كي لا تستطيع هذه القبيلة اللعينة (يعني الأرمن) الوقوف على قدميها». وبهذه التدابير الفظيعة أرادوا ضمّ كاراباخ وزانغيزور إلى أذربيجان.

أما بعد انتصار الحكم السوفياتي في أرمينيا (في ٢٩ت ١٩٢٠) مباشرة، أصدرت اللجنة الثورية في

أذربيجان بياناً خاصاً في الأول من كانون الأول ١٩٢٠ أعلنت فيه التخلّي لصالح أرمينيا عن الأراضي المتنازع عليها مع أرمينيا، وكان البيان على الشكل التالي:

«إن حكومة العمال والفلاحين في أذربيجان التي تلقّت نبأ إعلان جمهورية اشتراكية سوفياتية باسم الفلاحين الثائرين في أرمينيا تحيّي انتصار الشعب الشقيق، واعتباراً من اليوم تعتبر الحدود بين أرمينيا وأذربيجان ملغاة. ويعترف بناغورني كاراباخ وزانغيزور وناخيتشيفان جزءً لا يتجزأ من جمهورية أرمينيا الاشتراكية».

على هذا الأساس، كتب ستالين مقالاً تحت عنوان «عاشت أرمينيا الاشتراكية» حيّا فيه بيان اللجنة الثورية في أذربيجان جاء فيه «في الأول من كانون الأول أعلنت أذربيجان السوفياتية تخلّيها عن المقاطعات المتنازع عليها وتسليم أرمينيا السوفياتية زانغيزور وناخيتشيفان وناغورني كاراباخ». وذكرت ذلك أيضاً جريدة «البرافدا» في ٢ كانون الأول ١٩٢٠.

غير أن الاجتماع الذي عقده مكتب القفقاس للجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) بحضور ستالين المفاجئ في ٥ تموز ١٩٢١، أعاد النظر بالقرار الذي يقضي بإعادة كاراباخ إلى أرمينيا، واتخذ قراراً ملائماً لناريمانوف جاء فيه: «انطلاقاً من ضرورة السلام القومي بين الأذربيجانيين والأرمن، والعلاقات الاقتصادية لكاراباخ العليا (الجبلية) والدنيا (السهلية) وارتباطاتها المستمرّة مع أذربيجان، تبقى ناغورني كاراباخ في إطار أذربيجان مع منحها حكماً ذاتياً واسعاً مركزه الإداري مدينة شوشي الكائنة ضمن حدود المقاطعة الذاتية الحكم». وعلى ما يبدو ان هذا القرار كان قد صدر بناء على تهديدات ناريمانوف «بكارثة» محتملة، تتمثل «بإعفاء مجلس مفوضي الشعب في أذربيجان من المسؤولية، وبالتالي توقّف النفط» إذا أعطيت ناغورني كاراباخ لأرمينيا.

في هذه الحال، تمّ تجاهل العوامل التاريخية والجغرافية والقومية والأثنية لهذه المنطقة وتقدم العامل الاقتصادي وحده إلى المرتبة الأولى، وتكرس ذلك في ٧ تموز ١٩٢٣ عند رسم الحدود وتشكيل المقاطعة، في الوقت الذي كان فيه لينين طريح الفراش، وحلّ المسائل في يد ستالين وحده، الذي تدرّج بأنه كان يعي تماماً مخاطر المشروع الطوراني من جهة، وإرضاء لمصطفى كمال بغية ابعاده عن الغرب من جهة أخرى.

والجدير بالذكر، ان المذهب الطوراني، العنصري التوسعي، يتناقض مع الدعوة الإسلامية، وقد عارضه المسلمون، خصوصاً أولئك الذين حموا الأرمن، ليس في البلاد العربية فحسب، بل في الأناضول أيضاً، في قرى كردية وفي بلدات تركية...

ومما يذكر أيضاً، أن الشريف حسين بن علي الهاشمي، وقف ضد الطورانيين الأتراك، جماعة الاتحاد والترقي، وضد المجازر التي ارتكبوها، وقد أصدر أمراً إلى الأميرين فيصل وعبد العزيز، يطلب منهما حماية أبناء «الطائفة اليعقوبية الأرمنية» ومساعدتهم والمحافظة عليهم «كما تحافظون على أنفسكم وأبنائكم وأموالكم» لأنهم «أهل ذمّة المسلمين».

والواقع، لقد سبق هذا الأمر الشريفي ثلاثة بيانات شهيرة: الأول في ٢٧ حزيران ١٩١٦، يدين فيه الحكم الاتحادي (جمعية الاتحاد والترقي) ويتهمه بقطع الصلة مع العالم الإسلامي ومع القرآن الكريم والسنّة.

والثاني بتاريخ ١٢ تشرين الثاني ١٩١٦ يدين فيه المجازر المرتكبة بحق الأرمن واليونانيين والعرب في سوريا وبلاد ما بين النهرين.

والثالث بتاريخ ٥ آذار ١٩١٧ يدعو فيه جميع المسلمين القاطنين في بلاد الأتراك، وبصورة خاصة الجيش والقيادات فيه، للانتفاضة ضد «حكومة الطورانيين الكفّار» لإنقاذ البلاد من «جماعة العصابة الطورانية».

والواضح أن الشريف حسين، لم يبالغ حين نعت الطورانيين بالكفّار والعصابة، لأن المذهب الطوراني كان اختراعاً صهيونياً، والأداة التي كانت تنفّذه، جمعية الاتحاد والترقّي، كانت صنيعة الصهيونية واليهود «الدونمة».

وفي هذا الإطار، يؤكد المؤرخ الانكليزي سيتون وطسون في كتابه القيّم «نشوء القومية في البلقان». ما حرفيته: «ان الحقيقة البارزة في تكوين جمعية الاتحاد والترقي أنها غير تركية وغير اسلامية... ان أصحاب العقول المحركة وراء الحركة فقد كانوا يهوداً أو مسلمين من أصل يهودي (اي الدونمة... وأما «العون المالي فكان يجيئهم عن طريق الدونمة ويهود سالونيك الأغنياء، كما كانت تأتيهم معونات مالية من الرأسمالية الدولية» التي هي في الأساس صهيونية. على هذا الأساس، فقد جاء في احدى المنشورات الدعائية التي كانت توزّع على الجنود بأمر من أنور باشا «ان هذه البدعة الخيالية المخيفة التي يسمّونها «الأمة الإسلامية» التي ظلت إلى أمد طويل سدًّا يحول دون التقدّم بوجه عام، ودون تحقيق الوحدة الطورانية بوجه خاص، هي في طريقها الآن إلى التفكك فالزوال».. وبدوره، فقد

ندّد المفكّر العربي الكبير أمين الريحاني، بالحكم الاتحادي، واعتبره أكثر عهود الأتراك فظائع وأشدها أهوالاً.. ويقول: «لقد حاولوا أن يسحقوا الأمة الأرمنية.. وشنقوا أحرار سوريا والعرب باسم الدستور، وقتلوا ثلاثمائة ألف عربي من المسلمين والمسيحيين على السواء، وان القرابة المزعومة بين الأتراك والعرب، تحت لواء الدين الإسلامي مزيّفة». لقد استغلّ الأتراك في الواقع النصوص الإسلامية الخاصة بعدم التفرقة القومية في الإسلام (لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى...) لضرب العرب ولرفع مكانة الأتراك على اعتبار أنهم الحكّام المسلمون.. وفي هذا الإطار فإن العرب تحملوا كثيراً من الاضطهاد والتنكيل في ظل النير العثماني، لأن السياسة العامة للدولة العثمانية كانت قائمة عملياً على مبدأ الاضطهاد القومي والتتريك. وهذه السياسة ازدادت شراسة وقسوة، وهددت بتذويب الشخصية العربية تحت شعار الإسلام وتحويل العرب إلى أتراك قلباً وقالباً عن طريق اجتثاث جذورهم الحضارية. والحقيقة ان المشروع الطوراني لم تطو صفحته لا في عهد مصطفى كمال، ولا في عهد سليمان ديميريل وتورغوت أوزال اليوم. وإذا كانت حكومة أتاتورك تعمل بروح الطورانية لمحو هوية لواء اسكندرون العربية (والمطالبة بشطبه عن الخارطة السورية)، بتكثيف الهجرة التركية إليه، وبمنع اللغة العربية حتى في المدارس، وبتفريغ الاسكندرون من سكانه العرب، وبتغيير المعادلة الديموغرافية فيه من ٣٨ بالمئة أتراكاً في عام ١٩٣٣ إلى ٦٣ بالمئة عام ١٩٣٩ تحت سمع وبصر السلطات الفرنسية المنتدبة فإن خلفاءهم اليوم يعملون لتذويب الأكراد وتفريغ المناطق الكردية من سكانها الأصليين بأساليب وحشية مختلفة من أجل تحقيق الدولة التركية المتجانسة. وهذا ما دفع المناضل نلسون مانديلا، زعيم المؤتمر الوطني الافريقي إلى «رفض قبول جائزة أتاتورك للعام ١٩٩١، بسبب انتهاكات انقرة لحقوق الانسان». وقالت المتحدثة باسم المؤتمر الوطني الافريقي انه «إذا تساءل أي انسان عن سبب رفض مانديلا قبول جائزة تركيا، فيجب أن يحاول أن يصبح كردياً لفترة بسيطة». وفي جمهورية أذربيجان، يبدو أن المشروع الطوراني لم تطوَ صفحته أيضاً، رغم تأسيس السلطة الاشتراكية فيها، والتي كانت طورانية المضمون.. إذ خلال السنوات العشرين الأخيرة، انخفض مجموع عدد سكان الأقليات القومية في أذربيجان، تنفيذاً للسياسة الطورانية الهادفة إلى الدولة المتجانسة.. وبين أعوام ١٩٧٠ و ١٩٧٩ انخفض عدد السكان الروس من خمسمائة وعشرة آلاف شخص إلى أربعمائة وخمس وسبعين ألفاً بدلاً من الزيادة الطبيعية. كذلك انخفض عدد سكان بعض القوميات الداغستانية وتلاشت نهائياً مثل الطاليش والتات (العلويين) والفرس وغيرهم... كما ألغيت المنطقة الكردية نهائياً وتماماً ولم تعد تشير الوثائق الرسمية إلى وجود السكان الأكراد. في حين أن عدد الأذربيجانيين في أرمينيا قد ارتفع في هذه الفترة أكثر من النصف. يضاف إلى ذلك، ان عدد الأذربيجانيين في مدينة يريفان مثلاً لا يتجاوز الألفين وثلاثمائة شخص، تعمل فيها مدرستان أذربيجيتان ومسرح أذربيجاني وكلية أذربيجانية لدى معهد خشادو أبوفيان للتربية.. في حين أن في باكو التي يعيش فيها أكثر من مئتي ألف أرمني، أغلق المسرح الأرمني الوحيد، والمعهد الأرمني للتربية، ولا يوجد فيها مركز ثقافي قومي أرمني. ومن أصل ٧٦ مدرسة أرمنية في باكو وحدها قبل الحرب العالمية الثانية، لم يبق مدرسة واحدة.

وحتى في مقاطعة كاراباخ الأرمنية ذات الحكم الذاتي، انتقص من حقوق الأرمن القومية عاماً بعد عام. وان حظر تدريس تاريخ الشعب الأرمني في مدارس كاراباخ، ومنع الكتب الأدبية والمدرسية، وتعقيد كل أنواع الاتصالات الثقافية مع أرمينيا السوفياتية، كل هذا غيض من فيض الأساليب التي اتبعت من قبل الحكومة الأذربيجانية «الاشتراكية». يتضح من خلال ذلك، ان الحركة الكاراباخية موجّهة ضد المشروع الطوراني، الذي حقق ابتلاع ناخيتشيفان، ويستعدّ لابتلاع مقاطعة كاراباخ نهائياً لكي يأتي دور مقاطعة زانغيزور.. الحلقة الأخيرة في المشروع الطوراني الذي يهدف إلى ربط صلة مباشرة بين تركيا وآسيا عبر أذربيجان...

وهذا ما أكّده المؤتمر الخطير الذي عقد في باكو في ١٧ آذار ١٩٩٢، بمبادرة من الجبهة الشعبية الأذربيجانية، وبحضور مندوبين من تركيا.. وكانت على جدول الأعمال النقاط التالية:

أ) التحضير العسكري لإعلان «جمهورية هايجه – زانغيزور» التترية – التركية.

ب) التحضير لإجراء انتخاب أعضاء المجلس النيابي لهذه «الجمهورية».

ج) التحضير لإجراء انتخابات الأعضاء في هيئات السلطة التنفيذية في «الجمهورية».

د) تصعيد العمليات ضد مراكز جيش «جامعة الدول المستقلة» والتركيز على منطقة جولفا وأوردوباد.

وقد رافق هذا المؤتمر حملة واسعة في الصحافة

التركية تطلب التدخّل العسكري التركي لصالح «الأخوة في الدم.. الأتراك في أذربيجان»، وتطلب علناً ممارسة السياسة الطورانية الهجومية وإعادة الاعتبار إلى المشروع الطوراني.

هذا في الوقت الذي لا ترتدي فيه الحركة الكاراباخية طابعاً انفصالياً ولا طابعاً طائفياً، وتطالب بمبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها خصوصاً، وان المؤتمر العالمي الذي عقد في الجزائر عام ١٩٧٥ أعلن عن حقوق الشعوب بموازاة حقوق الانسان، وحق تقرير المصير هو على رأس هذه القائمة، وبالمقابل فإن المشروع الطوراني يتكوّن من عدة مشاريع جزئية أو تفصيلية، منها:

أ) مشروع أذربيجان الكبرى، الذي يضم ليس فقط المقاطعات الثلاث: كاراباخ وزانغيزور وناخيتشيفان، بل وأيضاً الأذربيجان الايراني في شمال غرب إيران.

ب) مشروع مكدونيا الكبرى.

ج) مشروع احتلال شمال العراق حتى كركوك.

د) مشروع احتلال شمال سوريا بالإضافة إلى لواء اسكندرون.

هـ) مشروع ألبانيا الكبرى.

و) تكريس الاحتلال في قبرص.

ز) مشروع تركستان الكبرى.

علماً أن الولايات المتحدة الأميركية هي التي تشجع تركيا على القيام بدور أكبر، ليس فقط في أوروبا الوسطى والشرق الأوسط، بل وأيضاً في القفقاس وفي آسيا الوسطى لضرب المدّ الايراني تحت راية الإسلام في هذه المناطق. فوفق «النظام الدولي الجديد»، تتداخل حركة المصالح الحيوية للدولة التركية، ودورها في تنفيذ هذا المشروع أو ذاك، مع الاستراتيجية الأميركية. وليس «النظام الأمني الاقتصادي الإقليمي» إلا حلقة في سلسلة النظام الدولي الجديد.. تتقاسم وظائفه في المنطقة حليفتا أميركا: تركيا واسرائيل. بمعنى أن هذا النظام الدولي الجديد يتكون عالمياً من رأس أميركي، ويستند اقليمياً إلى قدمين: القدم الأولى اسرائيل، والقدم الثانية تركيا. وفي هذه الحالة، فإن العرب مطوّقون بأعداء من الشمال والجنوب مدعومين عالمياً، يتمثلون بالخطر الصهيوني والخطر التركي، مستنفرين دائماً لأحكام الخناق حول الأمة العربية. وهذا ما تأكد بشكل واضح من خلال:

١- تعاظم الدور التركي عسكرياً ولوجستياً بعد أزمة حرب الخليج، والسماح بتعاظم وجود قواعد عسكرية أميركية وحشود على أراضيها، فضلاً عن كونها عضو في حلف الأطلسي وقد اعترفت بالكيان الصهيوني منذ الإعلان عن ولادته.

٢- إبان مؤتمر مدريد وجولاته المتعددة، وفق سياسة تخدم المصالح الاسرائيلية، والأميركية والتركية، طرح ما يسمّى بمسألة التعاون الاقتصادي والمائي في المنطقة، وبالتالي الأمني والايكولوجي (البيئي).

٣- مشروع «أنابيب السلام»، الذي تقدمت به تركيا والمستند لدراسات أميركية قام بها المركز العالمي لتكنولوجيا المياه في واشنطن بإدارة الخبيرة الأميركية المؤيّدة للكيان الصهيوني جوزية ستاد.

٤- مشروع سدّ الغاب (Gap) منذ عام ١٩٨٥ لري جنوب الأناضول.. مما يحوّل تركيا لدولة غذائية مصدِّرة تموّل الشرق الأوسط وتتحكم بسياساته عبر «سياسة الأمن الغذائي».

٥- تجارياً، تحركت الاستثمارات التجارية التركية باتجاه تسويق منتجاتها المختلفة إلى دول الخليج العربي عبر اتفاقات ثنائية متعددة، مضافاً لها حركة شركات المقاولات التركية بحجّة إعمار ما تهدّم في العراق وإيران والكويت.

٦- قيام الدولة التركية بعمليات قطع المياه المستمر عبر مشاريعها المائية (السدود) عن كل من سورية والعراق، بغرض ممارسة الضغوط على الموقف العربي الصلب في الصراع العربي الصهيوني وتسييس المياه.. هذا الدور الوظيفي للدولة التركية ترافق مع الدور المعدّ لاسرائيل ضمن إطار هذا «النظام الأمني — الاقتصادي الإقليمي» بقيادة الولايات المتحدة لتطويق المنطقة، ويحلّ بدوره أزمات ومشاكل الكيان الصهيوني.

٧- تعزز دور تركيا غربياً بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وبروز الجمهوريات الإسلامية، وذلك من خلال استغلال الغرب لصلات تركيا مع هذه الجمهوريات.. هذا الدور الجديد لتركيا أعادها مجدداً إلى واجهة الأحداث كقطب مركزي في المنطقة له دوره وله طموحاته.

٨- على أثر الحظر الجوي والعسكري على ليبيا، حرّكت الإدارة الأميركية تركيا، باتجاه سورية، متّهمة إياها بمساندة الحزب الشيوعي التركي وحزب العمال الكردستاني الذي يهدد وحدة تركيا.. وهذا ما يمهّد المناخ والأرض لأية ضربة تستهدف سورية كموقع وموقف في الوقت نفسه.

والواقع، أن التحرّك التركي باتجاه الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى —السوفياتية سابقاً— أدى

إلى خوف الإدارة السياسية الايرانية من استيلاء تركيا على هذا الشريط من الجمهوريات عبر معاهدات أو اتحادات، تمثل بحد ذاتها مشروعاً لحرب مفتوحة بين تركيا وإيران، وفق برنامج ورغبة السياسة الأميركية، بغية إعادة تشكيل هذه المنطقة من العالم وفق المصالح الأميركية الحيوية وحلفائها، خاصة إذا علمنا من وقائع التاريخ أن الولايات المتحدة كان لها دور بارز لا يستهان به على صعيد تخطيط الحدود بين جمهوريتي أذربيجان وأرمينيا؛ حيث في عام ١٩٢٠ كلّف المجلس الأعلى للحلفاء الرئيس الأميركي وودرو ويلسون برسم حدود أرمينيا.. ونتيجة للتنافس بين المصالح الأميركية والفرنسية، فضلاً عن تأييد ويلسون للصهيونية، نجد أن الولايات المتحدة باعت القضية الأرمنية لقاء الامتياز المعروف باسم «تشستر أويل» الذي أعطاه مصطفى كمال لشركة الإنماء العثماني – الأميركي، كما تخلّت فرنسا عن الأرمن، لقاء امتيازات اقتصادية وثقافية وانسحبت من كيليكيا.

ان فتح الملفات الساخنة، في هذا الوقت، من قبل تركيا مع سورية خاصة، لا يمكن أن يكون معزولاً عن إطار «النظام الدولي الجديد» و«النظام الاقليمي»، أيضاً، ودور تركيا فيه، والذي هو في الأساس دور عدواني ضد العرب ككل. فضلاً عن دورها المشبوه في الصراع الأذربيجاني الأرمني وضلوعها العسكري والسياسي. وهكذا يمسك «النظام الدولي الجديد» الممثل بأميركا اليوم بأهم ورقتين: ورقة الكيان الصهيوني في المنطقة العربية، وورقة تركيا في منطقة آسيا. وقد برز الدور التركي جلياً في عرقلة المشروع الإيراني التعاوني مع الجمهوريات الإسلامية، وذلك بعد أن حسمت أنقرة خيارها الأميركي، وتريد أن تبرهن لواشنطن أنها «الوكيل المعتمد» «للنظام الدولي الجديد» في منطقة آسيا والشرق الأوسط والحزام الإسلامي المتمثل بمثلث أفغانستان، باكستان، ايران، ويصبح بالتالي «مشروع تركيا الكبرى» واقعاً لا حلماً، بالموازاة طبعاً مع «مشروع اسرائيل الكبرى» في المنطقة العربية.

أمام هذا الواقع، لا بد من تسجيل بعض الملاحظات:

أولاً: يجب الاعتراف بتقصير الأرمن، كل الأرمن على اختلاف انتماءاتهم، بتوضيح قضيتهم عامة، وقضية كاراباخ خاصة، للرأي العام العربي، انطلاقاً من علاقات الصداقة التاريخية أولاً، والحرية ثانياً، والمصير ثالثاً في وجه العدو المشترك الطوراني الصهيوني. مع ضرورة بذل كل الجهود كي لا تأخذ صبغة «حرب صليبية» جديدة ضد الإسلام، فتخسر عندها كثيراً من الحق والمصداقية.

ثانياً: إدانة قرار إعادة العلاقات الدبلوماسية بين أرمينيا واسرائيل، لقناعتنا بأن صهاينة أواخر القرن العشرين ليسوا أفضل من صهاينة بداية هذا القرن، وما عجزت عنه الصهيونية في بداية القرن العشرين بالنسبة لإبادة الأرمن، فقد حاولت اسرائيل تحقيقه أثناء كارثة الزلزال التي أصابت أرمينيا منذ سنوات قليلة، عندما قدمت لضحايا الكارثة معونات الأغذية الفاسدة والدم الفاسد، مما اضطرّ السلطات السوفياتية يومها أن تعيد هذه المساعدات بالقول: «لسنا بحاجة إلى هذه المساعدات».

كما يجب على أرمن لبنان أن يلعبوا دوراً أساسياً في التنديد بهذا القرار والعمل على الغائه. لأن الصراع مع الصهيونية واسرائيل هو صراع تاريخي، حيث كان لليهود والصهيونية دور كبير في مجازر الأرمن التي ارتكبت في الربع الأول من القرن العشرين.

ومن جهتنا نؤكد بأن هذا القرار لا يحمل إلا تفسيراً واحداً وهو: تبرئة اليهود والصهاينة من دم الشعب الأرمني، وهذه بحدّ ذاتها جريمة توازي جريمة الإبادة نفسها.. ولا يجب السكوت عليها مطلقاً.

ثالثاً: اننا ندين كل تدخل خارجي من شأنه تأجيج نار الصراع بين الجانبين، وضرورة العمل بكل الإمكانات للوصول إلى حلّ يحفظ الحقوق التاريخية ويصونها. مع العلم أن القوى الكبرى التي تتطلع اليوم إلى نفط باكو هي ذاتها التي شاركت في رسم الحدود بين الجمهوريات (السوفياتية سابقاً)، وفي مجازر الأرمن أيضاً.

رابعاً: اننا ندين كل القوى والجهات التي تعطي الصراع طابعاً طائفياً، أو تغذّي النزعة الدينية (الصليبية – الإسلامية).. وإذا كان الأرمن أنفسهم يعملون بهذه الروحية، فنحن ضدّهم، انطلاقاً من روح الإسلام والمعاملة الإسلامية لهم أبّان محنتهم وبعدها. (انتهت محاضرة الدكتور زهير الدين في بيروت، ٢٤ أيار ١٩٩٢).

معالم تاريخية

□ **الأبجدية الأرمنية**: بدأ التفكير بإيجاد أبجدية مستقلة خاصة بالشعب الأرمني وتحتضنه أمة وقومية بعيد إعلان المسيحية ديناً رسمياً للدولة الأرمنية (٣٠١م). فقد كانت الطقوس الدينية والتراتيل الكنسية والمؤلفات

كنوز مكتبة ماتاداران: من المخطوطات القديمة البالغة الأهمية. اول مطبعة ارمنية تأسست في ١٥٢٢ في البندقية واول مجلة ارمنية دورية صدرت في مدراس العام ١٧٩٤. وامام المكتبة نصب ميسروب ماشتوتز أب الكتابة الارمنية، الذي توصل الى وضع ابجدية ارمنية متكاملة الى درجة انه لم يطرأ عليها أي تغيير وتعديل منذ ١٦٠٠ سنة.

٣٦ حرفاً مصنوعة من الذهب هي احرف الأبجدية الارمنية، محفوظة في متحف إتشميادزين.

معبد ريبسمي (القرن السابع) في إتشميادزين. مركز ديني للأرمن

المسيحية، خلال القرن الرابع وحتى مطلع القرن الخامس، تكتب بالحروف الفارسية أو السريانية أو اليونانية، حسب المناطق والأقاليم الأرمنية الخاضعة لنفوذ إحدى الدول صاحبة هذه اللغات (الفارسية التي احتلّت أرمينيا الشرقية بعد تقسيم العام ٣٨٧، والبيزنطية التي احتلّت أرمينيا الغربية بموجب التقسيم نفسه). وكانت فصول الكتاب المقدس تقرأ بهذه اللغات على مجموعة من الرهبان المتعلمين، ما عنى عملياً بقاء الأرمن المسيحيين بعيدين عن فهم المضامين الحقيقية لهذه النصوص الدينية، وبالتالي ترديدهم لها دون إدراك مغزاها الحقيقي. ومن ثم استمرار تمسكهم بشكل أو بآخر بالمعتقدات الوثنية السابقة دون أن يتسلل الإيمان الجديد إلى قلوبهم، بما يكفي لتحويلهم جذريًّا عن هذه الوثنية.

وازداد الأمر خطورة عندما قام ملوك الدولة الساسانية، وبالتحديد الملك أرداشير (يزدجرد) الأول بالتبشير بالديانة المزدكية والدعاية لها في الولايات الأرمنية الخاضعة لنفوذ دولته، ما استدعى اتخاذ تدابير حاسمة ضدها. ولم يكن هذا ممكناً إلا بوجود لغة قومية أرمنية مكتوبة.

وكان من الممكن أن يتأخر اختراع الأبجدية الأرمنية، ولو لقرون قليلة، لولا ذلك العناد والتعصّب الديني الشرس الذي أبداه الملوك الساسانيون عقيب فشل دعوتهم السلمية للمزدكية عندما قرّروا (٤٥١م) شنّ حروب دينية، منها معركة أفارابر وغيرها من المعارك التي استمرت حتى العام ٤٩١م. ما دفع بالقادة الأرمن الغيورين على دينهم وقوميتهم إلى التفكير الجدي بضرورة إيجاد حروف أرمنية. وهو ما حدث فعلاً على يد كل من الملك فرام شابوه (٣٩٣– ٤١٤ و ٤٣٢– ٤٣٩)، والجثليق إسحق بارثيف (٣٨٧– ٤٢٨)، والقديس ميسروب ماشدوتس، وذلك في اجتماع ضمهم حيث قرروا بانتهائه تكليف الراهب ميسروب بهذه المهمة.

كان ميسروب يتمتع بكفاءات أدبية ولغوية هائلة. فهو إلى جانب اتقانه اللغات الثلاث الرئيسية في عهده، الاغريقية والفارسية والسريانية، كان أيضاً مؤلفاً بارعاً معروفاً بسعة اطّلاعه وغزارة علمه. هكذا رأيناه عقيب إسناد هذه المهمة إليه وقد نما إلى علمه أن المطران السوري دانيال (حسب الروايات المتواترة) قد وضع حروفاً هجائية أرمنية معينة، يسافر إلى مقر هذا المطران في أورفه. ولكنه وجد هذه الحروف غير مهيأة أو مكيفة تماماً مع اللغة الأرمنية، ولذلك لم يستخدمها.

وهنا، بدأ عمل ميسروب الحقيقي فقد حمله هذا الإخفاق الأولي إلى الانطلاق من نقطة الصفر تماماً. وهكذا وجد نفسه، ولهذا الغرض، مضطراً للقيام برحلة دراسة وبحث أخذته مع تلاميذه (يزنيك، كوريون) إلى عميت (أميدا) أولاً، ثم إلى أورفه (الرها). وفي هذه المدينة التقى فيلسوفاً يدعى أفلاطون الذي تحمّس لعمل ميسروب وتعهّد بانجازه بالاشتراك معه. ولكنه سرعان ما أعلن تخليه عن هذا العمل لعجزه عن الاستمرار فيه، وأشار على ميسروب أن يقصد أستاذه يفيبانوس. فتوجّه إليه ميسروب مباشرة ولكنه وجده وقد قضى نحبه. وعندئذ عاد ميسروب أدراجه وتوجّه إلى مدينة ساموساتا حيث التقى فيها بالفنان والخطاط روفانوس (تلميذ يفيبانوس) الذي ساعده في إعطاء الشكل النهائي للحروف الأرمنية المبتكرة.

وحسبما تروي المصادر التاريخية، فقد استفاد ميسروب في عمله هذا (اختراع الحروف الأرمنية الهجائية) من إلمامه الواسع باللغات اليونانية والسريانية والفارسية. وعاد إلى أرمينيا من هذه الرحلة الطويلة ومعه ٣٦ حرفاً صوتياً تتطابق مع جميع اللهجات الأرمنية المتعددة. وقد صمم ٢٢ حرفاً من أصل هذه الحروف وفق الحروف اليونانية، في حين أن الحروف السريانية قد ساعدت بدورها على تصميم بعض الحروف الأخرى. وقد استفاد ميسروب من شكل حروف هاتين اللغتين فكتب لغة أرمنية بحروف يونانية، ثم وضع إشارة على صوت كل حرف من الكلمة، ولما رأى أن بعض الأصوات لا حرف لها في تلك اللغة، فقد اخترع حروفاً إضافية. كما انه أخذ بعض أشكال من حروف اللغة الآرامية، ونقّح فيها، ثم استعملها بحيث أفاد من اللغات الثلاث أو الأربع المذكورة (اليونانية في المقام الأول، ثم الفارسية والسريانية والآرامية).

كان لإنجاز هذا العمل آثار مباشرة أعقبته بسرعة، وتناولت بامتداداتها مختلف المجالات الدينية والأدبية والاجتماعية للشعب الأرمني، في حقول الترجمة والتأليف والتأريخ والعلوم والشعر والفلسفة... (ملحق جريدة «الديار»، ٢٤ نيسان ١٩٩١، والمرجع نفسه للمواد الثلاث التالية من هذه المعالم: حرب افارابر، حزب الرامغفار، حزب الطاشناق، حزب الهنشاق).

□ **حرب افارابر والقديس وارطان**: في شهر شباط من كل سنة، يعيّد الأرمن للاحتفال بعيد القديس وارطان. من هو هذا القديس، ولماذا يعتبره الشعب الأرمني الرمز والمثال؟

بدأت القصة عقب محاولة تأرين الفرس للأرمن (جعل الأرمن ايرانيين) عبر فرض معتقداتهم الدينية عليهم. فالفرس الساسانيون كانوا على الديانة المازادية، في حين كان الأرمن من أتباع الديانة المسيحية. وهكذا طلب الملك الفارسي الساساني، يزدجرد الثالث إلى الأرمن التخلي عن ديانتهم النصرانية والتحوّل عنها إلى الديانة الفارسية. فأجمع الأرمن بجميع طبقاتهم، من النبلاء وحكام المقاطعات، والأشراف، والفلاحين، ورجال الدين، والعمال، على رفض هذا الطلب، والالتفاف حول القائد الأرمني وارطان ماميكونيان، وبالتالي العمل على تنظيم الثورة المسلحة ووضعها موضع التنفيذ (٤٥١م) رغم أن الظروف السائدة، في ذلك الوقت، في أرمينيا لم تكن مناسبة تماماً، حيث كان قسم كبير من الأرمن يحارب، ضمن الجيوش الساسانية، قبائل الهون، فضلاً عن رفض الدولة البيزنطية (المسيحية) إرسال المساعدات العسكرية إلى أرمينيا لتمكينها من الاستمرار على مسيحيتها.

وهكذا، دعا وارطان ماميكونيان (حفيد الكاثوليكوس الجثليق اسحق، ومن أقوى الزعماء البارزين في أرمينيا) إلى عقد اجتماع لتدارس الإنذار الذي وجّهه يزدجرد. وتقرر رفض الإنذار بالإجماع، والاشتباك في حرب مع الفرس الساسانيين، وهو ما جرى فعلاً. إذ اشتبك الطرفان بمناوشات صغيرة كانت الغلبة فيها للأرمن الذين ساعدهم الجورجيون والأذريون. ثم وقعت المعركة الحاسمة في سهل أفارابر في ٢٦ أيار ٤٥١.

وصف المؤرخ إيغيشيه هذه المعركة، فقال: «كانت الجيوش الساسانية وجحافلها منتقاة من أقوى الكتائب الإيرانية وقد تقدمتها فرقة «الخالدين» التي تمتطي الأفيال، في حين كان الأرمن يشكّلون جيشاً صغيراً، ولكنه جيش يقاتل من أجل الدفاع عن عقيدته. وفي ليلة المعركة سهر المقاتلون الأرمن، ثم تناولوا القربان المقدس، وتمّ تعميد من كان منهم لا يزال في طور الموعوظين.

دامت المعركة يوماً واحداً بذل فيها الأرمن، وقائدهم وارطان، كل ما هيأه لهم حماسهم الديني وثورتهم ضد الوثنية. إلا أن انسحاب إحدى الفرق الأرمنية، بقيادة الأرمني المرتد إلى الوثنية، واساك سوني، من صفوف الجيش الأرمني، والقوة العددية الرهيبة للعدو، أديا إلى انتهاء المعركة بفوز الفرس الساسانيين واستشهاد القائد وارطان مع حفنة من رجاله». وخلد الأرمن جميع شهدائهم في هذه المعركة بحفر أسمائهم في جميع الكنائس الأرمنية. وما زال هذا الشعب يحتفل حتى اليوم بذكرى هذه المعركة بما يشبه الإجلال والتقديس.

□ **حزب الرامغفار** «الديمقراطي الليبرالي»: أصغر الأحزاب الأرمنية عمراً. تأسس في اسطنبول في الأول من تشرين الأول ١٩٢١، ونشأ من تكتل مجموعة أحزاب أرمنية أهمها: حزب الأرمنكان المؤسس في فان (١٨٨٥)، وجناح حزب الهنشاق المجدد، وحزب الأحرار والدستوريين والشعبيين وغيرها من الأحزاب. من مبادئه سيادة الشعب وحرية المبادرة الفردية في الحقل الاقتصادي. ومعنى الرامغفار هو «الديمقراطي الليبرالي». من أهم مؤسسات هذا الحزب «مؤسسة تكيان الثقافية»، ولها فروع في جميع انحاء العالم، تصدر عنها مجلة «شيراك» الشهيرة الأدبية، وجريدة يومية ومنشورات مختلفة، إضافة إلى نشاطات اجتماعية وثقافية.

منشورات حزب الرامغفار التي تصدر في انحاء العالم كافة

شعار حزب الرامغفار

☐ **حزب الطاشناق:** تأسس في العام ١٨٩٠ في تلفيس (عاصمة جورجيا) بسبب الاضطهاد العثماني. مؤسسوه هم: كريستابور ميخائليان، روستوم زوريان وسيمون زافاريان. لم يكن هدف الحزب، في مراحل تأسيسه الأولى، الاستقلال عن تركيا، بل كان يطالب

شعار حزب الطاشناق

بإصلاحات ضمن الولايات الأرمنية التابعة للسلطنة العثمانية. وللوصول إلى هذا الهدف قام حزب الطاشناق بتنظيم مجموعات فدائية قامت بعمليات عسكرية ضد تركيا، منها احتلال البنك العثماني، محاولة اغتيال السلطان عبد الحميد، والهجوم على سهل خناصور. وحين أعلن الدستور العثماني الجديد (١٩٠٨) ظن القادة في الحزب بأنه تم الوصول إلى الأهداف المرجوّة. لكن بعد مضي عام واحد، نفذت الدولة العثمانية مجازر جديدة في أضنه ضد الأرمن، ذهب ضحيتها ٣٠٠ ألف أرمني. فكان من الواضح أن زعماء حزب الاتحاد والترقي لا يختلفون في سياستهم عن السلطان عبد الحميد، وكانت السياسة المتبعة من الدولة العثمانية إنشاء دولة طورانية أي دولة من شعوب أصلها طوراني، ولتنفيذ هذه السياسة كانت أرمينيا العقبة الوحيدة الرئيسية.

وعلى صعيد القوقاز وأرمينيا كان الحزب يعمل ضد الحكم في روسيا. وبعد المجازر العثمانية بحق الأرمن، وبفضل جهود القيادات الأرمنية، تم إعلان جمهورية أرمينيا المستقلة على أرض أرمينيا الحالية. وبعد إعلان استقلالها (١٩١٩)، عقد حزب الطاشناق مؤتمره في العاصمة يريفان. وبعد دخول الجيش الأحمر في ٢ كانون الأول ١٩٢٠، تغير الحكم فيها، وأبعدت قيادات حزب الطاشناق خارج أرمينيا وانخرطت في قوافل المهجّرين إلى سورية ولبنان وبقية الجاليات الأرمنية في العالم.

وفي ٨ آب ١٩٩٠، أعلن حزب الطاشناق عودته إلى أرمينيا حيث له تنظيم داخلها، كما له أربعة نواب في برلمانها.

وتاريخ حزب الطاشناق في لبنان يعود إلى العام ١٩٠٤، حين أتى أحد مؤسسيه، سيمون زافاريان، وأسس مصلحة طلاب من طلاب الجامعة الأميركية واليسوعية.

☐ **حزب الهنشاق:** أول الأحزاب الأرمنية. تأسس في العام ١٨٨٧ في جنيف على يد طلاب أرمن. وجاء هذا التأسيس بعد معاهدتي سان ستيفانو وبرلين (١٨٧٧- ١٨٧٨) اللتين لم تتوافقا وتطلعات الشعب الأرمني، وكانت نواته جريدة «هنشاق» (أو هنشاك، معناها بالأرمنية جرس، وأخذ هذا الإسم من مجلة «كولوكول» الروسية لصاحبها الثوري الروسي الشهير كرتسين).

لاقت الجريدة (هنشاق) إقبالاً كبيراً من الأرمن، خصوصاً وأنها كانت تدعو إلى الثورة وعدم الانصياع لتوجيهات الدول الاستعمارية وتحرير الوطن بقوة السلاح. وفي ذلك الوقت كانت الايديولوجية الماركسية أو الاشتراكية العلمية تواجه إقبالاً شديداً في أوروبا، وقد تأثّر بها الطلاب الأرمن المقيمون في جنيف، وقرروا جعل الاشتراكية عقيدة الحزب.

في العام ١٨٨٨، صدرت مبادئ وخطة الحزب السياسية في قسمين: الغاية القريبة المدى تمثلت بتحرير «الأرمنيتين»، الشرقية والغربية، وإقامة دولة أرمنية حرة

شعار حزب الهنشاق

مستقلة. أما الغاية البعيدة، فتمثلت بالسعي إلى إقامة نظام اشتراكي في أرمينيا المحررة.

ومن أجل تحقيق الغاية الأولى، طرحت الخطة الوسائل التالية: ١) الدعاية السياسية والتوجيه الإعلامي، ٢) العمل العنفي المنظّم، ٣) إنشاء فرق فدائية، ٤) تقوية التنظيم الحزبي، ٥) إنشاء فرق عسكرية من أجل الثورة الشاملة.

وقد استخدم الهنشاق جميع هذه الوسائل بفعالية كبيرة. فتخطت خلاياهم المدن ووصلت إلى الأرياف والقرى في الولايات الأرمنية وخارجها وفي بلدان المهجر. وقاموا بمئات العمليات العنفية ضد العثمانيين، وأشعلوا المظاهرات والثورات... كل ذلك وفق خطهم الفكري الداعم، في الوقت نفسه، لثورات وحركات تحرر الشعوب الأخرى، واشتراكهم فيها (كما بالنسبة إلى الثورات الروسية).

وفي لبنان، يرجع تاريخ بدء النشاط السياسي لحزب الهنشاق إلى حوالي ١٩٠٨، حيث تشكلت في الجامعة الأميركية، في بيروت، خلية حزبية نظمت نشاط الطلاب الأرمن. وقد أصبح نشاط الهنشاق في لبنان أكثر تيسراً بعد مجيء أول قوافل المهجرين الأرمن من شمالي سورية ودير الزور، وخصوصاً وان معظم المهجرين كانوا من كيليكيا حيث الهنشاق أقوى حزب هناك.

مدن ومعالم

• **أبوفيان، تشارنتسافان، ديليجان...**: مدن نموذجية من حيث تخطيطها الحديث. لم تنمو هذه المدن على أنقاض مدن قديمة ولا انطلاقاً من قرى. انها مراكز صناعية حديثة بنيت على أساس تخطيط. بعضها لتكون مراكز لاستخراج المعادن ومعالجتها. وبعضها الآخر بسبب منشآت الطاقة المائية، والمصانع والوحدات الصناعية. لكن دائماً في إطار المنظور التاريخي للأرمن وتعلقهم بالأرض. لذلك، أعطيت أهمية كبرى لإقامة الأحزمة الخضراء حول هذه المدن. وهذه الأحزمة، إضافة إلى أهميتها البيئية البالغة، فإنها تسمح بتطور زراعي موازٍ للتطوّر الصناعي.

• **أرتشات، أوكتمبريان، إيدجيفان، ميغري...**: مجمّعات سكنية حديثة أيضاً، تجمع بين المدينة والقرية، فتقدم وسائل الرفاهية المدنية لسكّانها من دون أن تفقدهم محاسن الحياة الريفية. وهذا النمط في تطوير القرى (قرى كبيرة) يعتبر الأمثل لاستيعاب مشكلات المدن والسكن فيها في المستقبل. قسم من سكانها يعمل في الصناعة، وقسم في الزراعة، ودائماً من خلال خطة توازن بين القطاعين.

• **كافان Kafan**: مدينة ذات تاريخ عريق. ترتفع عن جانبيها جبال. أبنيتها ومساكنها على مسطحات، مسطح فوق آخر، لذلك سميت «المدينة - الدرج». ينشط فيها قطاع استخراج النحاس، وفيها مصانع للأدوات الكهربائية والسيارات.

ومنطقة كافان جبلية صخرية كثيرة التعاريج. خرائبها، وقلاعها، وأديرتها، ومدنها الصغيرة المتناثرة، ومساكنها المحفورة في الصخور، وطرقاتها الضيقة، كلها تدل على أنها كانت ملاذاً من الاضطهادات، وفي الوقت نفسه، قلعة دفاعية صعبة المنال على الغزاة.

• **كيروفاكان Kirovakan**: تبعد نحو ٥٠كلم عن مدينة لينينكان. تدعى «المدينة الخضراء». بيوتها أشبه بالفيلات، تحيط بها الحدائق والبساتين. فيها العديد من المراكز السياسية، ومنشآت ومخيمات الاستجمام والراحة. شهدت نهضة عمرانية في بداية الثلاثينات مع إنشاء مصنع كبير للمنتوجات الكيميائية. فشقت فيها الطرقات العريضة والساحات. انها اليوم ثالث مدينة في أرمينيا، وتعد نحو ٢٠٠ ألف نسمة. جرى توأمتها مع

مدينة بانيو الفرنسية. فعند مدخلها نصب حفرت فيه عبارة: «كيروفاكان – بانيو: صداقة دائمة». والزيارات المتبادلة بين مختلف فئات أهالي المدينتين متواصلة.

* **لينينكان Léninakan**: تغير اسمها مرات عديدة. وفي كل مرة كان اسمها يعكس مرحلة تاريخية عاشتها. برزت إلى الوجود منذ نحو ٢٥٠٠ سنة، وكانت قلعة متقدمة لشعب «الأوراتو»، أجداد الأرمن. كان اسمها «كوميري» عندما كانت تتمكن من البقاء نتيجة صدّها لغزوات الأشوريين والحثيين. ثم عرفت باسم «غيومري»، أي مدينة الأهالي الحذقين والفرحين. وعندما ضمّت روسيا إليها أرمينيا الشرقية في بداية القرن التاسع عشر أطلق الروس على المدينة اسم «ألكسندروبول». بعد عقود، نشأت في المدينة مصانع صغيرة ومعامل، ومعها قامت طبقة اجتماعية هي طبقة العمال. وفي ١٩٢٠، كان هؤلاء العمال أول الثائرين المطالبين بالسلطة السوفياتية والمعلنين قيامها. بعد وفاة لينين (١٩٢٤)، مؤسس الدولة السوفياتية، أطلق الأهالي اسم «لينينكان» على مدينتهم بدلاً من اسم ألكسندروبول. والمدينة التي كانت تعد نحو عشرة آلاف نسمة، أصبحت، خلال سنوات قليلة مدينة صناعية وعلمية وثقافية ذات شأن. وهي حالياً ثاني أكبر مدينة في البلاد بعد العاصمة يريفان. وتعد نحو ٢٥٠ ألف نسمة.

* **يريفان Erévan**: مدينة ذات القدر الفريد بين أقدار المدن. وذات العمر المديد الذي تحسدها عليه باقي المدن. تنبسط في وادي آرارات عند أقدام جبل آرارات، المقدس في الروايات الدينية. في العام ٧٨٢ قبل الميلاد، العام الخامس من حكم ملك أورارتو، واسمه «أرغيشتي»، نحتت عبارة على حجارة القلعة المحيطة بالمدينة الحديثة، تعلن عن إنشاء مدينة «يريبوني» التي اعتبرها التاريخ انها عاصمة أرمينيا.

يريبوني – يريفان تعرضت لغزوات ودمرت مرات عديدة. وهي الضحية الأولى في كل تناوب تركي – فارسي على المنطقة. فعلى مدى قرنين من الزمن، القرن السادس عشر والقرن السابع عشر، تناوب الغزاة عليها ١٤ مرة، وفي كل مرة كانت تتعرض للتدمير بشكل وحشي. وعانت أيضاً من هزة أرضية قوية خلال هذه المدة، حيث مئات المنازل، والكنائس، والجسور، والمدارس تحولت إلى خرائب.

يريفان مدينة الآثار والمباني الحديثة معاً وفي عملية امتزاج فني يحرص المخططون على عدم ايذائه. يقال فيها «المدينة – الوردة»، ذلك أن أغلب أبنيتها من نوع من حجارة تكثر في أرمينيا وتدعى «التوف» أو «الفليس» ولونه ضارب إلى الزهري.

يريفان مدينة جامعية بلا جدال: فيها ١٣ كلية للتعليم العالي. وهي أيضاً مدينة المتاحف. أما مكتبتها العامة (ماتيناداران) فتحتوي على ١٠٠ ألف مخطوطة ووثيقة قديمة في مختلف اللغات الحية والميتة. وهي مدينة المسارح، والألعاب الرياضية (فيها ملعب يضم ٧٥ ألف مقعد). مدينة علمية، حيث عشرات معاهد الأبحاث، ومئات المختبرات. مدينة الأولاد، حيث العناية الفائقة بالتربية ظاهرة من كثرة ما خصص من منشآت لتربيتهم وألعابهم وتسليتهم، خصوصاً في ميادين التربية الفنية.

يريبوني – يريفان، أصبح عمرها ٢٧٧٥ سنة. عاصرت بابل وروما وما بعدهما في مسار غلبت عليه المحن. وترى، اليوم، إلى الاستقلال تجربةً جديدة تنشط في سبيلها تجنباً لمحن جديدة.

السودان
اريتريا
البحر الأحمر
علم اريتريا
اثيوبيا
كيرين
كسالا
مصوع
اغوردات
أسمرة
دكمهار
اكسوم
اليمن
إثيوبيا
جيبوتي

إريتريا

SOUDAN
ARABIE SAOUDITE
ÉRYTHRÉE
Keren
Massawa
Barentu
Asmara
Om Hajer
Adi Ougri
Adona
Îles Dahlak
MER
ROUGE
YÉMEN
Edd
ÉTHIOPIE
Assab
DJIBOUTI
200 km

بطاقة تعريف

الاسم: «تأخذ إريتريا اسمها من اسم لاتيني قديم اختارته لها روما، وهو مشتق من إسم احدى الزهور التي تنمو على شواطئها الدافئة «ميرا إيريتريوم» (**Mare Erythraeum**). ويبدو ان خيالات الايطاليين الذين احتلوا اثيوبيا والمنطقة المحيطة بها عام ١٨٨٠ كانت تحاول اعادة تجسيد البعث الجديد للامبراطورية الرومانية في قلب افريقيا السوداء» (د. محمد الرميحي، مجلة «العربي»، العدد ٤١٦، تموز ١٩٩٣، ص١٣).

الموقع والمساحة: تقع في الشمال الشرقي من القارة الافريقية على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر. وهي على شكل مطرقة، يحيط بها السودان من الشمال والغرب، واثيوبيا من الجنوب، وجيبوتي من الجنوب الغربي. تبلغ مساحتها ١٤٢٣٢٠ كلم٢، وتمتلك ١٢٦ جزيرة تقع في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر وتتحكم مباشرة في باب المندب.

العاصمة: أسمرا. **أهم المدن**: مصوع، كيرن، برنتو، أم حجر، أدي أوغري، إد، عصب.

السكان: لا يوجد إحصاء سكاني دقيق لشعب إريتريا. المؤتمر الوطني الاول لجبهة التحرير سجل رقماً تقريبياً هو ٤ ملايين إريتري. العدد التقريبي الذي أجمعت الصحف على تناقله بتغطيتها لأحداث اريتريا في ١٩٩٣ هو ٣،٢٥٠ ملايين نسمة. ينقسم الاريتريون مناصفة تقريباً بين مسيحيين (اقباط عموماً) ومسلمين، وينتمون الى نحو تسع إتنيات لها لغاتها المحلية الخاصة، وتعتبر اللغتان التيغرية والعربية من ابرز لغات الاتصال. على الصعيد الاجتماعي، لا تزال مشكلة اللاجئين ابرز مشاكل البلاد. فهناك اكثر من ٧٥٠ ألف لاجئ اريتري منتشرون في العالم، بينهم ٥٠٠ ألف في السودان، وصل منهم الى البلاد، طواعية، نحو ٨٠ ألفاً (اواسط ١٩٩٣)، لكنهم لم يجدوا في مناطقهم مأوى او عملاً. والهجرة الداخلية ايضاً ليست بسيطة، فهناك نحو ١٠٠ ألف نازح داخل البلاد. وقد خلّفت الحرب ٩٠ ألف يتيم و٥٦ ألف معاق و٣٠٠ ألف جريح اصاباتهم خطرة. وفي عهدة الحكومة اليوم نحو ١٠٠ ألف عسكري لا تستطيع الاحتفاظ بهم لفترة طويلة من دون رواتب (كانوا متطوعين خلال الحرب)، ولا تستطيع تسريحهم من دون تخطيط مسبق وايجاد عمل لهم. ووجه المشكلة الاجتماعية الأكثر حدية يبرز في هاتين النسبتين ٧٠٪ من السكان فلاحون او رعاة، والارض قاحلة، والاساليب والادوات جد بدائية؛ وهناك نسبة ثلاثة من كل اربعة اشخاص من الاريتريين يعتمدون على طعام تتبرع به دول غربية وهيئات انسانية.

الاقتصاد: يعتبر القطاع الزراعي الأهم في الاقتصاد الاريتري، إذ يمثل ٥٠٪ من الدخل القومي الاجمالي، و٧٠٪ من عائدات الصادرات، فيما يعمل فيه ٨٠٪ من السكان. لكن الحرب والجفاف أديا الى تدني الانتاج الزراعي بأكثر من ٦٠٪، كما خسر الاريتريون اكثر من ٧٠٪ من ماشيتهم التي نفقت. وحالياً، هناك ٢٦٪ من الاراضي الصالحة للزراعة (٣،٢ مليون هكتار) لكن ما يزرع منها لا يتعدى ١٠٪. وفي قطاع الصناعة، تستورد البلاد ثلاثة ارباع المواد الخام التي تحتاجها الصناعة من الخارج، بينما لا توجد حاليا عملات صعبة لاستيرادها. وثمة نقص حاد في الطاقة التي يعتمد عليها إقتصاد البلد كله، إذ ان المصدر الرئيسي الذي يؤمن ٨٢٪ من اجمالي استهلاك الطاقة يعتمد على الاساليب التقليدية، مثل حرق الاخشاب وروث الحيوانات، فيما الباقي مشتقات نفطية (وقود) وكهرباء.

حمامة تحمل غصن السلام، نصبها الاريتريون رمزاً للمرحلة القادمة،
واحد المقاتلين الاريتريين الذي فقد ساقيه في معارك الاستقلال

فتاة اريترية

نبذة تاريخية

في هذه البقعة (اريتريا) تجمع العديد من الاجناس البشرية، جاءت اليها القبائل النيلية ذات الاصل الحامي، ثم جاء الزنوج من قلب افريقيا. واكتسبت المنطقة طابعها الخاص عندما هاجرت اليها القبائل العربية في الفترة من سنة ١٠٠٠ الى ٧٠٠ ق.م. ولقد تواصلت هذه الهجرات على مدى مئات السنين عبر باب المندب وجزيرة دهلك التي لا يفصلها عن الشواطئ اليمنية الا أميال قليلة.

ولعل اقدم القبائل التي هاجرت الى اريتريا هي «الأجاعز» و «حبشات» اللتان فقدتا ديارهما واراضيهما بعد انهيار سد مأرب. وقد حملت هذه القبائل الى اريتريا اولى مقومات الحضارة: المحراث الذي قادها الى احتراف الزراعة، والابجدية الحميرية التي فتحت امامها ابواب اللغة والكتابة. وهكذا نشأت في الهضبة الاريترية مجتمعات زراعية مستقرة ما مهد فيما بعد لظهور مملكة «أكسوم» التي ظهرت في اثيوبيا وامتدت الى اجزاء في اريتريا وبطريقة التفاعل نفسها التي تم بها انتقال الاجناس. انتقل الدين الاسلامي من ارض الجزيرة ليجد في اريتريا بيئة ثقافية ملائمة لتعاليمه. ولم ينتشر الاسلام هناك عن طريق السيف ولكن عن طريق التجار المسلمين، وانبعثت بسبب ذلك العديد من الامارات والسلطنات الاسلامية على الساحل، وارتبط ارخبيل دهلك ومصوع بالخلافة الاموية ثم الخلافة العباسية من بعدها.

وعرفت اوروبا الحديثة طريقها الى سواحل اريتريا في مستهل القرن السادس عشر. فقد رست السفن البرتغالية بقيادة دييغو لوبيز وقضت على الممالك الصغيرة التي صادفتها ثم توغلت داخل البلاد. كان البرتغاليون يريدون موطئ قدم يحاصرون منه باب المندب ويؤمنون التجارة عن طريق رأس الرجاء الصالح. وظلوا متشبثين بهذا الموقع حتى تقدم الاسطول التركي ودمر الاسطول البرتغالي في العام ١٥٥٧.

وعُرفت الشواطئ الاريترية في القرون الوسطى ببلاد الطراز الاسلامي، او باقليم باضع، كما عرفت هضبتها باقليم مدري بحري (اي بلاد الشاطئ). واستمر النفوذ التركي على ساحل البحر الأحمر (بما فيه اريتريا) منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر حتى ١٨٦٦، عندما أحالها سلطان تركيا الى الخديوية المصرية. واصبحت مستعمرة ايطالية في اول كانون الثاني ١٨٩٠، إثر التوسع الايطالي بالغزو والاتفاقيات مع الحكام المحليين، ومع امبراطور اثيوبيا والادارة البريطانية التي كانت تحكم السودان. وقد استتب الامر لايطاليا بعد قضائها على الانتفاضات المتفرقة التي دامت ١٥ عاماً.

لم يكن هناك من ارتسام لما يُسمّى اليوم «الوحدة الوطنية» على الصعيد السياسي قبل المرحلة الاستعمارية. فتاريخ الاراضي الجبلية العالية مرتبط بتاريخ منطقة التيغري الحبشية التي تمتد مباشرة نحو الجنوب، وفي المنطقتين مجموعة لغتها وثقافتها واحدة. اما الاراضي المنخفضة في الغرب، فسكانها كانوا يدفعون الجزية لسلطنة «فونج» في سينار التي يمكن اعتبارها «سودانية». وفي الدنقل، حافظ الرعاة العفار على استقلالهم. مرفأ مصوع والمناطق الساحلية المجاورة احتلها الاتراك بين ١٥٥٧ و ١٨٣٠ – ٤٠ حيث كانت السلطة، في المرحلة الأخيرة، بيد نائب حاكم مصر محمد علي الكبير وخلفائه.

الامبراطور الاثيوبي، يوحنا الرابع، هزم الاتراك في موقعتين، فتخلى هؤلاء عن أطماعهم في

الاراضي الداخلية واكتفوا بالمناطق الساحلية حتى انهيار امبراطوريتهم في افريقيا كلها العام ١٨٨٥. وهزيمتهم هذه، وسببها الأساسي انتفاضة المهديين في السودان، وضعت بريطانيا (وكانت آنذاك القوة المهيمنة في البحر الأحمر) في حيرة من أمرها. فالانكليز لم يبدوا حماساً لاحتلال أريتريا التي بدت لهم فقيرة وغير ذات أهمية كافية، لكنهم في الوقت نفسه خافوا من أن يملأ الفرنسيون هذا الفراغ خاصة وان هؤلاء يقيمون في أوبوك على مقربة من المنطقة التي ستدعى في ما بعد «جيبوتي». لذلك شجعوا الايطاليين، بدءاً من ١٨٨٩، على القدوم الى المنطقة، لأن ايطاليا كانت، بنظرهم، قوة اوروبية ثانوية.

حاول الايطاليون، انطلاقاً من أريتريا، مد نفوذهم الى اثيوبيا وإخضاعها. لكن الامبراطور الاثيوبي منليك هزمهم في معركة أدوا (١٨٩٦)، فاكتفوا بالمناطق الشمالية التي تمكنوا من احتلالها، من مصوع في السودان وساحل تيغري حتى المناطق المسماة وقتها ساحل الصومال الفرنسي.

اعطى الاستعمار الايطالي (١٨٨٩ – ١٩٤١) أريتريا ميزتها كمنطقة مختلفة ومميزة، جغرافياً وسياسياً، عن اثيوبيا من جهة وعن السودان من جهة ثانية. لكن بالنسبة الى الدولة الاثيوبية التي أوجدها (بالمعنى الحديث) الامبراطور منليك، استمرت اريتريا جزءاً من «ارض الأحباش القديمة» على الأقل لجهة السكان المسيحيين فيها. إلا ان اريتريا أصابت تطوراً مغايراً تماماً عن المجتمع الفلاحي في اثيوبيا، وذلك تحت تأثير النظام الاداري والاقتصادي الذي نفذه الايطاليون فيها.

نظر موسوليني الى اريتريا على انها منطقة يجب ان تكون قاعدة للامبراطورية الشرقية الافريقية التي كان يعمل لانشائها. وعندما اعتقد موسوليني انه اصبح على قاب قوسين من تحقيق هدفه (١٩٤٠)، كانت اريتريا تضم اكثر من نصف المشروعات الصناعية الامبراطورية الايطالية وتستثمر ٨٠,٥٪ من رؤوس الاموال الصناعية التي تستثمرها روما في مشروعها الاستعماري.

وفي حين لم يكن في المستعمرة الايطالية (اريتريا) أكثر من أربعة آلاف ايطالي في ١٩٣١، أخذ الايطاليون جنوداً ومدنيين، يضاعفون اعدادهم فيها حتى وصلوا الى ٣٧٠ ألفاً (١٩٣٥–٣٧). وقد شاركت اعداد كبيرة من الاريتريين في غزو اثيوبيا حتى قام الانكليز بهجومهم المضاد (١٩٤١) انطلاقاً من السودان، واحتلوا على أثره كامل «افريقيا الشرقية الايطالية».

ومرت سنوات (نحو عقد من الزمن) على طرد الايطاليين التقى فيها الاريتريون والاثيوبيون وكأنهم «أشقاء» باعد بينهم الزمن واضطرهم العيش في بلدين مختلفين. لكنهم سرعان ما تيقنوا انهم سيشقون طريقهم في اتجاهين مختلفين عمل الوجود البريطاني على ترسيخهما وتسريعهما. فقد امضى الانكليز ١١ عاماً (١٩٤١ – ٥٢) في أريتريا يعملون على ادخال نمط اداري، وطرق عيش وثقافة سياسية مختلفة تماماً: صحافة، نقابات، برلمان، حياة سياسية فيها قدر من الديمقراطية كانت، آنذاك، نادرة في افريقيا.

بعد هزيمة ايطاليا في الحرب العالمية الثانية، فشلت حكومات الدول الابع: الاتحاد السوفياتي، انكلترا، الولايات المتحدة وفرنسا، في ايجاد حل لمشكلة اريتريا. فكانت الدول الغربية الثلاث ترى وجوب منح اثيوبيا منفذاً الى البحر الأحمر عن طريق الجزء الجنوبي (منطقة عصب) من اريتريا، دافعها في ذلك السيطرة من خلال اثيوبيا الموالية للغرب (في تلك الاثناء) على باب المندب الاستراتيجي، بينما عارض الاتحاد السوفياتي تقسيم اريتريا، وأوصى بعودة الادارة الايطالية لفترة محددة تنال اريتريا بعدها الاستقلال.

ومن ايلول ١٩٤٨، احيلت مشكلة الاستعمارات الايطالية السابقة، بما فيها مشكلة اريتريا،

الى الجمعية العامة للامم المتحدة نظراً لتعذر الاتفاق بين الدول الكبرى حول هذا الموضوع. وبهدف توافر المعلومات حول اريتريا، ارسلت الامم المتحدة بعثة (من ممثلي بورما، غواتيمالا، النروج، باكستان، واتحاد جنوب افريقيا) للتحقيق حول رغبات السكان. الا ان البعثة لم تستطع الخروج بحلول موضوعية وسط ضغوطات الدول صاحبة المصلحة وضمن أجواء الارهاب الذي زرعته اثيوبيا بين الاريتريين. فالامبراطور الاثيوبي استمر على موقفه الرافض للاعتراف بأي تمايز لاريتريا معتبراً اياها اقليماً اثيوبياً ليبقي له منفذاً على البحر، المنفذ الذي سبق لاثيوبيا ان عانت من فقدانه في ١٩٣٥؛ اضافة الى ما كان يشكل، بالنسبة اليه، اللون الديمقراطي الذي اصطبغت به الثقافة السياسية الاريترية من خطر على حكمه الملكي المطلق.

وفي اجواء هذه العراقيل، تبنّت الامم المتحدة، في كانون الاول ١٩٥٠، المشروع الاميركي الذي كان ينص على اقامة اتحاد فدرالي بين اريتريا واثيوبيا.

ولم يبدأ تطبيق الاتحاد إلا في ١٥ ايلول ١٩٥٢، أي بعد نحو عامين اتسما باعمال عنف وارهاب غذتهما اثيوبيا وذهب ضحيتهما الآلاف من الاريتريين، خصوصاً الاستقلاليين منهم وعلى رأسهم أحد قيادييهم عبد القادر كبير. كما لم تنشأ الحكومة الفدرالية التي كان من المفروض (بحسب قرار الجمعية العمومية للامم المتحدة) أن تؤلف من ولايتي (أو دولتي) اريتريا واثيوبيا، اذ اعتبرت الحكومة الاثيوبية نفسها هي الحكومة الفدرالية، وبادرت الى احتلال اريتريا عسكرياً عشية تنفيذ القرار الاتحادي. فكانت النتيجة ان الاستقلاليين الاريتريين الذين كانوا اقلية في ١٩٥٢، اصبحوا اكثرية، واكثرية متنامية يوماً بعد يوم غداة تشكيل «جبهة التحرير الاريترية» (١٩٦٠).

ثورة التحرير
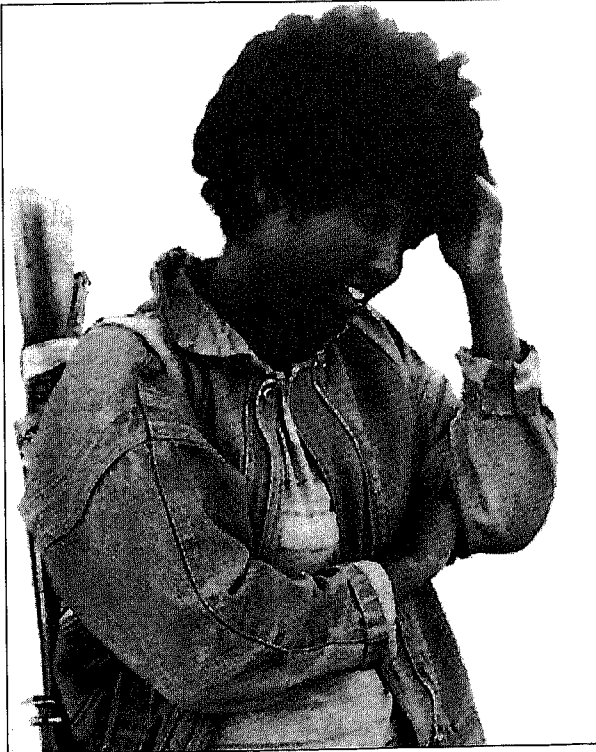
جبهة التحرير الاريترية: نشأت في تموز ١٩٦٠، وانتقلت الى العمل المسلح في ايلول ١٩٦١. تلقت دعمها من عدد من البلدان العربية، خاصة العربية السعودية والصومال. اكثر عناصرها من المسلمين الاريتريين الذين رجّحوا الاسلام في حركتهم التحريرية التي كان قد بدأ (منذ ١٩٦٧) العديد من الشبان الاريتريين المسيحيين ينضمون اليها. لكن سرعان ما وجدوا أنفسهم عرضة لمعاملة دينية غير منصفة من رفاقهم كانت تصل احياناً الى حد القتل، ما غذّى من الدعاية الاثيوبية القائلة إن جبهة التحرير الاريترية إنما هي تجسيد للعدو التاريخي المتمثل بالاسلام الساعي الى تقسيم إثيوبيا بمساعدة البلدان العربية.

شكّلت المرأة الاريترية ثِلث عديد المقاتلين إبان ثورة التحرير

فعلى الرغم من ان هذه الجبهة تمكنت، خلال سنوات، من تحرير اكثر من ٩٠٪ من المناطق الريفية في اريتريا ولم يبق تحت سيطرة الحكومة الاثيوبية سوى المدن والجزء الأكبر من الواجهة البحرية لأريتريا حيث يقع مرفأ «عصب» الحيوي، الا انها تعرضت لخلافات وانقسامات فكرية وسياسية واجتماعية وطائفية، نتج عنها، للمرة الاولى العام ١٩٧٠، قيام تنظيمين، الاول عرف باسم المجلس الثوري لجبهة التحرير الاريترية بقيادة أحمد ناصر، والآخر باسم جبهة التحرير الاريترية – قوات التحرير الشعبية بقيادة كل من عثمان صالح سبي (أحد مؤسسي الجبهة الاوائل وامينها العام لعدة سنوات) واساياس أفورقي. وما لبث هذا التنظيم الأخير ان انقسم (آذار ١٩٧٦) الى منظمتين، فاطلق على المنظمة التي يقودها اسايس أفورقي اسم الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا، بينما احتفظ التنظيم الذي يقوده سبي باسم جبهة التحرير الاريترية – قوات التحرير الشعبية.

تحية اللقاء عند الاريتريين: تلامس الاكتاف والضغط على الكف

انعكاسات الانقلاب الاثيوبي: في الوقت الذي كانت حركة التحرير الاريترية تحقق انتصاراتها الأولى، ثم تنزلق في طريق خلافاتها الداخلية (الدموية في احيان كثيرة)، غرقت اثيوبيا، بدورها، في حركة ثورية أطاحت نظام هايلي سيلاسي. كانت قضية اريتريا على رأس جدول النظام الاثيوبي الجديد. وأول رئيس للمجلس الثوري («درغ» باللغة الامهرية)، الجنرال أمان عندوم، هو نفسه أريتري، وقد سارع الى عرض مفاوضات على الثوار الاريتريين حول استقلال ذاتي للاقليم يعوّض عليه الظلم الذي الحقه به الامبراطور المخلوع. لكن اغتياله (في تشرين الثاني ١٩٧٤) على يد العناصر القومية المتطرفة في «الدرغ» بقيادة منغيستو هايلي مريام أفشل المحاولة التفاوضية السلمية للنزاع في اريتريا. وأخذت ثورة «الدرغ» تكرر الأخطاء نفسها التي ارتكبها النظام الامبراطوري.

وحال الفوضى التي تخبطت فيها الحركة الثورية في اثيوبيا، في سنواتها الأولى، دفعت خصومها جميعاً للانتقال الى مرحلة الهجوم.

من جهتها، تمكنت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا من بسط سلطتها على معظم اراضي اريتريا، وحاصرت ميناء مصوع. وفي الشرق، حاول الصومال الذي تلقى سلاحه من الاتحاد السوفياتي انتزاع إقليم أوغادين من اثيوبيا، وشارف على تحقيق غايته لو لم تنقلب التحالفات فجأة رأساً على عقب: الاتحاد السوفياتي يقلب موقفه في المنطقة ويقف بكل ثقله الى جانب اثيوبيا. الجيش الصومالي يهزم في اوغادين، والمدافع السوفياتية الثقيلة تسحق قوات الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا (الماركسية) على طول ساحل مصوع.

انكفأت الجبهة الشعبية الى الداخل، وأخذت تنشط للتعويض عن خسارتها العسكرية في الساحل، على كل المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فحقق كوادرها ما يشبه المعجزات

ونالوا اعجاب العالم: معامل وعيادات تحت الارض تجنباً للقصف، اصلاح زراعي، رفع مستوى المرأة ومشاركتها، تطوير التعليم الابتدائي وتعميمه... ثورة اجتماعية حقيقية استفادت منها الجبهة كورقة رابحة في يدها تجاه العالم، إضافة الى ما كسبته داخلياً: ففي حين كانت غالبية الاريتريين تقف الى جانب مطلب الاستقلال لأسباب سلبية نتيجة لمواقف الحكم الاثيوبي السلطوي الاوتوقراطي، او الامبريالي أو الشيوعي، اصبحت، في الثمانينات تدافع عن هذا الاستقلال لأسباب ايجابية، أي نتيجة لما لمسته من انجازات ثورتها في جميع الحقول.

وفي المقابل، لم يقدم النظام القومي – الشيوعي في أديس أبابا إلا سياسة القوة الخالصة. فخلال عشر سنوات (١٩٧٨ – ٨٨)، استمر منغيستو رافضاً لكل حوار، واستعمل قدرات عسكرية هائلة قدّمها له الاتحاد السوفياتي (مع ما يترتب على ذلك من نفقات وازمات اقتصادية واجتماعية) بهدف سحق الثورة الاريترية: اكثر من ٢٠٠٠٠٠ جندي منظم استمروا في حال جهوزية كاملة ضد ٣٠٠٠٠ من ثوار الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا. استنفدت اثيوبيا قواها في هذه الحرب التي كادت تودي بها الى الانهيار الكامل.

النزاع على عصب والانتصار النهائي: في ربيع ١٩٨٨، انقلب الموقف تماماً. الجبهة الشعبية تستولي، في معركة «أفعبت»، على ترسانة هائلة من الاسلحة الاثيوبية الثقيلة (مدافع، مصفحات). أما القوات الاثيوبية، المشكّلة بغالبيتها من شباب ينتمون الى الجنوب ولا تعني الحرب لهم شيئاً يذكر، فاحتفظت بقدرة قليلة على الدفاع. وبفضل هذه الاعتدة، والدعم العراقي الذي كانت تتلقاه الجبهة من سنوات، انتقل مقاتلوها الى الهجوم، وحتى الى دعم حلفائها في الجبهة الشعبية لتحرير التيغري التي كانت تقاتل الاثيوبيين في المناطق الجنوبية. وفي شباط ١٩٩٠، استولت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا على مصوع حيث فتحت لها نافذة على العالم الخارجي، ثم انتقلت الى محاصرة العاصمة الاريترية، أسمرا، التي كانت لا تزال في أيدي الاثيوبيين؛ ودخلتها دون معارك وفي الوقت نفسه الذي دخلت فيه قوات الحلفاء في الجبهة الشعبية لتحرير التيغري العاصمة الاثيوبية، أديس أبابا. بعد أيام معدودة، في ايار ١٩٩١، فرّ منغيستو من العاصمة متوجهاً الى زيمبابوي.

وضع اريتريا قبيل الاستقلال: البلاد مخربّة نتيجة ٣٠ عاماً من المعارك. البنى التحتية بحاجة الى التأسيس من جديد. الصناعة عند النفس الأخير حتى ولو كانت هناك صناعات (منشآت ميكانيكية صغيرة) لا تزال عاملة. العجز بالحنطة يصل الى ٣٠٠ ألف طن. هناك نصف مليون لاجئ أريتري في السودان، تشكل عمليات إعادتهم الى الوطن مشكلات هائلة لبلد لم يتجاوز عدد سكانه يوماً ٣,٥ مليون نسمة.

على الصعيد السياسي، استعدت الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا لأن تجري تحولاً في بناها وهياكلها التنظيمية وهي المعتادة على «المركزية الديمقراطية الماركسية اللينينية»، فقررت عقد مؤتمر استثنائي غداة الاستفتاء على الاستقلال لحل نفسها. رفاق زعيم الجبهة الحالي، اساياس أفورقي، الذين عرفوه منذ قبل انطلاق الثورة في ١٩٦٢، اصبحوا في عداد الاموات أو انهم انسحبوا من الحياة السياسية؛ وعدد كبير من أعضاء جبهة تحرير اريتريا التي انهزمت في السبعينات، اخذ يعود الى البلاد، وبعضهم ينتظم في تشكيلات يغلب عليها الطابع الاسلامي في حين ان الجبهة الشعبية يسيطر عليها المسيحيون. وإضافة الى ذلك، فإن السودان الذي دعم الجبهة طيلة حرب التحرير، يجد نفسه اليوم، في ظل نظام أصولي، مدفوعاً لدعم الحركات الاسلامية التي يبدو انها أخذت تنشط في اريتريا وتعتبر اساياس أفورقي «ملحداً».

البيوت من الاحجار دون مونة لاصقة ومخفية تحت الاشجار إتقاء قصف الطيران

ومع ذلك، تتمتع اريتريا برهان نادر في افريقيا: ثمة مشاعر مختلفة لدى المجموعات الاتنية والدينية، لكنها مشاعر موحدة في ما يتعلق بالمصير الوطني. فالتجارب التي عاشها الاريتريون بصورة مشتركة حفرت عميقاً في الوعي الجماعي الذي ستحتاجه اريتريا بقوة في ورشة إعادة بناء اقتصادها وإدارة تناقضاتها الاتنية — السياسية.

العلاقات مع أديس أبابا، حيث النظام الشقيق ورفيق السلاح في اسقاط منغيستو، ممتازة. ومع ذلك ثمة اسباب للخلاف: الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا تلح على رسم الحدود المعروفة منذ ١٨٩٠ (ايام الاستعمار الايطالي)، ما يتيح لأريتريا الاحتفاظ ليس فقط بمدينة عصب بل أيضاً كل منطقة الدنقل ومرفأ عصب (وهذا المرفأ يبدو قليل النفع بالنسبة لأريتريا في حين انه شديد الحيوية لاثيوبيا، وعليه مصفاة النفط الاثيوبية الوحيدة، ومنفذها الوحيد على البحر وبعيد عن جيبوتي في الوقت نفسه). ومطالبة اساياس أفورقي بـ «عصب» ترمي عصفورين بحجر واحد: من جهة، يمسك بشريان حيوي بالنسبة الى اثيوبيا يستعمله في حال قيام نظام معاد لاريتريا مستقبلاً؛ ويؤمن، من جهة ثانية، مداخيل مهمة من المرفأ ومصفاة النفط، هي المصدر الوحيد للعملات في الاقتصاد الاريتري المنكوب حالياً. لكن، ولسؤ الحظ ان عصب ومنطقتها مأهولة بقبائل العفر (أو العفار) المعادين لفكرة العيش في اريتريا مستقلة حيث لا يرون لهم دوراً، ويفضلون استقلالاً ذاتياً ضمن اثيوبيا اتحادية. فأريتريا

تستعد، فور اعلان استقلالها، لادارة امبراطورية صغيرة تضم أقليات متعددة؛ ومشكلة عفار، التي تهدد أمن عصب، تبدو المشكلة السياسية الأولى التي ستواجه العهد الاستقلالي منذ بدايته.

الاستفتاء والاستقلال

«إن الشعب الاريتري الذي حرم من التعبير عن حقه في تقرير المصير وتأكيد مسألته الوطنية، وبعدما مورست في حقه حرب جائرة، وبعد نضال طويل وشاق وتضحيات جسام، تمكن عبر الاستفتاء من التعبير عن خياره الديمقراطي على مرأى من المجتمع الدولي (...) إن الشعب الاريتري استطاع قبل عامين من انتزاع حريته في ايار ١٩٩١، وبما ان الاستقلال والانضمام الى المجتمع الدولي يتطلبان إجراء خاتمة ديمقراطية وقانونية، فإن الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا، وادراكاً منها لضرورة هذه العملية القانونية، أقامت حكومة مؤقتة من دون ان تعلن الاستقلال وقررت ان يتم التعبير عن الخيار الحر والنزيه للشعب الاريتري عبر الاستفتاء» (اسايس أفورقي، من مؤتمر صحافي عقده عقب اعلان نتائج الاستفتاء على الاستقلال في ٢٤ نيسان ١٩٩٣).

وأضاف أفورقي (زعيم الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا وأول رئيس لجمهورية اريتريا المستقلة) في المؤتمر الصحافي نفسه: «إن المراقبين، وعلى رأسهم السيد سمير صنبر (فلسطيني يحمل جواز سفر لبناني) رئيس فريق الامم المتحدة لمراقبة الاستفتاء في اريتريا، تأكدوا من ان عملية الاستفتاء والتصويت كانت حرة ونزيهة. وهذه النتيجة لم تكن مفاجئة وغير متوقعة. فالمسألة لم تكن منافسة سياسية بقدر ما كانت مسألة وجود شعب او عدمه، لذلك فان النتيجة كانت معروفة ومفهومة سلفاً. وبذلك اصبحت خاتمة تاريخية مرضية ومقبولة لخيار الشعب الاريتري. وبهذا وإن كان من المقرر ان يتم اعلان الاستقلال يوم ٢٤ من ايار ١٩٩٣ (أي بعد شهر) فان اريتريا ومنذ اليوم هي دولة مستقلة ذات سيادة».

أساياس أفورقي، الامين العام للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا واول رئيس لدولة اريتريا المستقلة

وكان عدد المسجلين للاستفتاء ١,١٧٣,٧٠٠ شخص، شارك منهم في الاقتراع ١,١٥٦,٢٨٠ شخص، فبلغت نسبة المقترعين ٩٨,٥٢٪. قال ١,١٠٠,٢٦٠ «نعم، أوافق على ان تكون اريتريا دولة مستقلة ذات سيادة»، في حين قال ١٨٢٢ شخصاً «لا اوافق على ان تكون اريتريا دولة مستقلة ذات سيادة». فتكون نسبة الموافقين ٩٩,٨٠٥٪، ونسبة غير الموافقين ٠,١٦٥٪. ومن الذين لم يوافقوا (وعددهم ١٨٢٢ شخصاً) هناك ٦٩٠ شخصاً من الذين اقترعوا خارج البلاد. ووجدت ٣٢٨ ورقة

اقتراع غير صالحة. وتمنع ٥٨٧٨ شخصاً عن الاقتراع.

وعدد المسجلين للاستفتاء والمقترعين شمل الاريتريين المقيمين (اثناء الاستفتاء) في اريتريا وخارجها. ففي السودان يعيش نحو نصف مليون نازح من الحرب، منهم ١٦٠ ألف شخص مسجل للاستفتاء. وقد سمح ايضاً للمنفيين الاريتريين في اثيوبيا وايطاليا بالادلاء بأصواتهم.

وكان هذا الاستفتاء اول انتخابات حرة في عشرين قرناً من التاريخ الاريتري المسجل لشعب حكمه في القرون الاربعة الاخيرة الاتراك والمصريون والايطاليون والبريطانيون والاثيوبيون. وقد بادرت اثيوبيا على الفور واعلنت موافقتها على نتائج الاستفتاء واعترافها بالدولة الجديدة. كما التقى ممثلو الولايات المتحدة وايطاليا ومصر والسودان أفورقي وأبلغوا اليه اعتراف حكوماتهم باستقلال اريتريا.

وبعد شهر من الاستفتاء، أي في ٢٤ ايار ١٩٩٣ (ذكرى التحرير) أعلن استقلال اريتريا. وبعد يومين صدّق مجلس الامن الدولي بالاجماع، في اجتماعين قصيرين على طلبي دولة اريتريا المستقلة حديثاً وإمارة موناكو الصغيرة الواقعة على ساحل الريفيرا الفرنسية التي لها وضع مراقب في الامم المتحدة منذ ١٩٥٥. وبعد يومين ايضاً، قبلت الجمعية العامة للامم المتحدة ضم كل من أريتريا وإمارة موناكو لعضوية المنظمة الدولية، ما زاد عدد الدول الاعضاء فيها الى ١٨٣ عضواً.

«أصبحت أريتريا الدولة الثانية والخمسين في افريقيا، وكان من الممكن، في غير الوضع الحالي للعالم العربي، ان تكون الدولة الثالثة والعشرين في جامعة الدول العربية لو استقلت اريتريا في الستينات، لكانت دخلت العالم العربي من باب حركات التحرر القومية التقدمية. ولو استقلت في السبعينات لكان من المرجح ان تدخله، كما جارتاها، جيبوتي والصومال، من باب الرغبة في الانتماء الى مجموعة دول ذات مستقبل اقتصادي زاهر بفضل الثروة النفطية لبعضها. لكن اريتريا تستقل في العام ١٩٩٣ وليس في العالم العربي ما يغري الدول الجديدة على الانضمام اليه. اريتريا اليوم هي وليدة الظرف الاقليمي، كما هي وليدة اعوام القتال الاخيرة ضد نظام منغيستو هايلي مريام «الاشتراكي» السلطوي في اثيوبيا، ونموها رهن بقدرة دولتها على استيعاب فوارق شعبها الاتنية والدينية والسياسية وارساء قاعدة إقتصادية لكيانها السياسي» (جمانة ابو الروس مفرج، باحثة في الشؤون الدولية، «دولة وحدية علمانية وهوية غامضة»، «النهار»، ٢٩ ايار ١٩٩٣).

علاقات الدولة الوليدة

الارادة الاميركية: مع تطور الاحداث في اريتريا منذ ١٩٩٠ تحديداً، شهد الموقف الاميركي تطوراً ملحوظاً باتجاه تأييد حق الشعب الاريتري في تقرير المصير. فقد رعت الادارة الاميركية لقاءات رسمية عدة بين الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا والحكومة الاثيوبية السابقة، واعترفت بالحكومة الاريترية الموقتة بعد تحرير كامل اريتريا في ٢٤ ايار ١٩٩١؛ وكانت الولايات المتحدة من اكثر الدول حماساً لاجراء الاستفتاء على الاستقلال، ثم من أولى الدول اعترافاً بالدولة الوليدة، وثمة اعتقاد لدى البعض، خصوصاً من العرب، ان الولايات المتحدة هي وراء دفع الحكم الاريتري في الاتجاه الاسرائيلي، وانه «يخشى ان يكون الاميركيون سمحوا بولادة اريتريا لتكون دولة تؤدي وظيفة حدّدوها لها... فالمولود الجديد ابصر النور وفي يده مجموعة فواتير اميركية لا بد ان يسدّدها لقاء نموه واستمراره. لذلك فهو لن يتردد في التقرب من اسرائيل ومن ثم الترعرع في كنفها، ليكون

نموذجاً لما هو مطلوب أميركياً من دول المنطقة بما فيها الدول العربية. لذلك، ايضاً، هو لم يتردد في نفي أي عروبة تشوبه شعباً ومجتمعاً حتى لو كان الأهالي في قطاع دنكاليا يتكلمون العربية ويتأثرون بعلاقة متجذرة مع اليمن. وهكذا، تجنباً لإثارة حساسية الاميركي والاسرائيلي تشهر السلطة الاريترية افريقيتها اولاً وآخراً» (عبد الوهاب بدرخان، «ولادة اريتريا»، «الحياة»، ايار ١٩٩٣).

إسرائيل: وسط اندهاش بعض العرب المعبّر عنه على اقلام الحيّز الصحافي المسموح به (والصحافة العربية والعالمية اصبحت واحدة في لغتها بتكريسها للزعامة الاميركية على العالم)، بدأ العام ١٩٩٣ يحمل اخباراً عن علاقات اريترية – إسرائيلية ممتازة واستراتيجية. هذا نموذج عنها:

«اجتمع رئيس الحكومة الاريترية الموقتة اسايس افورقي، امس (١٥ شباط ١٩٩٣)، لمدة ساعة، مع رئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين. وذكر ان البحث تناول «الاخطار التي تتهدد المنطقة لا سيما الخطر الاسلامي المتطرف» حسب مصدر في مكتب رئاسة الوزراء. واضاف المصدر ان أفورقي الذي يعالج في اسرائيل منذ اسبوعين من الملاريا قام بزيارة «مجاملة» لرابين في مكتبه، واكد له على «العلاقات المميزة بين اريتريا واثيوبيا» إذ تعتبر الاخيرة حليف اسرائيل في القرن الافريقي. وتابع المصدر «ان الجانبين اتفقا على ان هناك خطراً اسلامياً متطرفاً يتهدد منطقتي الشرق الاوسط وشرقي افريقيا، خصوصاً مع تعاظم نفوذ ايران». وقال إن الرئيس الاريتري «اشار الى الخطر السوداني على منطقة شرق افريقيا على رغم قلة مصادرها، وذلك بسبب تأثير ايران هناك مما يحتم على الجميع مكافحة هذا الخطر كما في مصر والجزائر وتونس». وقال ناطق باسم رئيس الوزراء الاسرائيلي انه ابلغ ضيفه «استعداد اسرائيل لكل انواع التعاون وفي كل المجالات مع اريتريا بعد ان تصبح كياناً مستقلاً بكل معنى الكلمة». ونقل الناطق عن أفورقي قوله ان العلاقات بين اسرائيل واريتريا «تطورت بشكل ملحوظ اخيراً وخلال فترة قصيرة، وان على اريتريا التي ستشكل نموذجاً في المنطقة ان تتعلم كل ما يمكنها من اسرائيل». واضاف ان الرئيس الاريتري اعتبر «ان السلام في الشرق الاوسط من شأنه ان يخلق نوعاً من الاستقرار في شرق افريقيا ولذا فان اريتريا على استعداد لأن تساهم بقدر ما تستطيع في استقرار منطقة الشرق الاوسط». ويذكر ان هذه هي المرة الثانية التي يزور فيها رئيس الحكومة الاريترية الموقتة اسرائيل منذ بداية العام الحالي (١٩٩٣)، ويتوقع ان يغادرها هذا الاسبوع بعدما تماثل للشفاء» («الحياة»، ١٦ شباط ١٩٩٣).

وفي مناسبات عديدة لاحقة، لم تخف الحكومة الاريترية نيتها ان تكون لها علاقة طيبة، بل مميزة، مع اسرائيل. فأقامت علاقات دبلوماسية معها. وركز المسؤولون الاريتريون على ان السياسة الخارجية لبلدهم توجهها المصالح الحاضرة لبلدهم المنكوب، وليس اعتبارات الماضي، خصوصاً ان تقلب التحالفات الدولية في المنطقة جعل معظم الدول عدوة للثورة الاريترية في مرحلة من مراحلها.

ويبرز القادة الاريتريون ان اسرائيل عرضت عليهم المساعدة مباشرة بعد التحرير. وقد ذكر أفورقي ان بلاده بذلت بدورها منذ تحررها جهداً كبيراً لتقوية العلاقات مع الدولة العبرية. وبدأ يلاحظ التعاون بين البلدين في المجال الزراعي خصوصاً، إذ يتطلع المسؤولون في اريتريا الى تطبيق الأساليب التي اختبرتها اسرائيل في التنمية الزراعية. وثمة أمر واحد لا يزال (اواسط ١٩٩٣) المسؤولون الاريتريون ينفونه ويتعلق بالتعاون العسكري بين اريتريا وإسرائيل رغم ما يرجحه (ويؤكده احياناً) مراقبون عرب وغربيون عن استخدام القوات الاسرائيلية جزيرة دهلك الاريترية القريبة من ميناء مصوع، وكان سبق لهذه القوات ان استخدمت الجزيرة في العهد الأثيوبي السابق وتركت فيها بعض المنشآت.

السودان: الى علاقاتها الممتازة باسرائيل، حافظت الحكومة الاريترية على علاقات طيبة بالبلدان العربية، منذ شارك وفد من جامعة الدول العربية في مراقبة عمليات الاستفتاء على الاستقلال (٢٢ نيسان ١٩٩٣) في اشراف الامم المتحدة. وقد اعترفت معظم الدول العربية بالدولة الجديدة. واللافت بنوع خاص تحسن العلاقات الاريترية مع السودان الذي كان اول دولة تفتح لها سفارة في اسمرا؛ مع ان لنظامي الحكم في البلدين توجهات مختلفة.

وزار اسمرا (اواخر ايار ١٩٩٣) قائد هيئة الاركان العامة السودانية وبحث مع المسؤولين الاريتريين في القضايا الامنية المشتركة، علماً ان السودان يستضيف نحو نصف مليون لاجئ اريتري نزحوا خلال القتال مع اثيوبيا. ومعروف ان «تنظيم الجهاد» الاريتري الاسلامي الاصولي المعارض للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا ينشط لدى اللاجئين في السودان؛ وتشكو بعض المنظمات المعارضة الأخرى، مثل «جبهة تحرير اريتريا – المجلس الثوري» من «تواطؤ» بين حكومتي اسمرا والخرطوم لملاحقة انصارها. وكانت السلطات الاريترية رفضت عودة اللاجئين من السودان قبل ان تحصل من المفوضية السامية للاجئين في الامم المتحدة على برامج شاملة لاستيعابهم. وقد وافقت المفوضية على ربط العودة ببرامج اعادة التوطين بعدما كانت في البداية رفضت مثل هذا الربط.

مصر وخصوصيات اهتمامها باريتريا والمنطقة: عن لسان رئيس البعثة الدبلوماسية المصرية في اريتريا ان هناك «اوجه تعاون في مجالات عدة بين القاهرة واسمرا، لدرجة ان اريتريا تتبوأ الآن (أي غداة الاعلان عن استقلال اريتريا) مركز الصدارة في قائمة الدول الأفريقية التي لها علاقات اقتصادية وفنية قوية مع مصر».

وعن هذه العلاقات باريتريا والمنطقة والاهتمام المصري الخاص بهما، كتب محمد علام تحت عنوان «مغزى زيارة الرئيس المصري لأريتريا...» يقول («الحياة»، ٢٨ ايار ١٩٩٣):

جاءت الزيارة المفاجئة للرئيس حسني مبارك الى اسمرا ودعوته لنظيره الاثيوبي ملس زيناوي لزيارة القاهرة رسمياً قبل القمة الافريقية المقبلة، انعكاساً لمدى اهتمام مصر بمنطقة القرن الافريقي والبحر وارتباط أمنها بأمن المنطقة لأنها تمثل بالنسبة الى مصر مستودع الثروات، فمنها تمر ٧٥ في المئة من تجارة البترول الدولية ومنها تحصل مصر على ٨٥ في المئة من احتياجاتها من المياه وفيها باب المندب مفتاح ممر التجارة الدولية الى قناة السويس، التي تشكل اهم وأكبر مصادر الدخل القومي المصري السنوي (بليون ونصف البليون دولار سنوياً تقريباً).

ولم تكن زيارة مبارك الى اسمرا التحرك المصري الوحيد في هذا الاتجاه فقد سبق ذلك اتفاق القاهرة وصنعاء على احياء وتنشيط ملف العلاقات وفي مقدمه موضوع امن البحر الأحمر، ومنطقة القرن وكان هذا الموضوع ضمن الاتصالات المصرية مع كل من اريتريا والصومال وجيبوتي واثيوبيا في ضوء التطورات الحاصلة هناك.

وفي هذا السياق كشفت مصادر مصرية لـ «الحياة» ان قمة افريقية مصغرة لدول القرن الافريقي والبحر الاحمر (مصر والسودان وجيبوتي واريتريا واثيوبيا اضافة الى ممثلي حكومة الصومال الموقتة) ستعقد في القاهرة على هامش القمة الافريقية في اواخر الشهر المقبل وستطرح فيها مصر عدداً من الافكار والمبادئ كأساس للتعاون، ومواجهة اي اخطار خارجية سواء كانت من ايران او اسرائيل.

فالمنطقة تشكل بالنسبة الى مصر مكاناً حساساً، فكما تمثل حدود مصر الشرقية «بوابة الموت» لأن كل الغزوات أتت منها، تمثل حدود مصر الجنوبية «بوابة الحياة» أي مياه النيل. وعلى رغم توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل الا ان تدخل اسرائيل في بوابة الحياة سيكون المدخل الوحيد الذي يمكن ان يهدد هذا السلام. وعليه فان سعي اسرائيل او ايران الى الوجود في القرن الافريقي بأي صورة من الصورة سيكون دائماً مصدر قلق واضح وخطر على أمن مصر.

ويعد التحرك الايراني في منطقة القرن الافريقي من خلال بوابة السودان اكثر ما يقلق مصر، فالتعاون الايراني - السوداني المعلن في نظر مصر هو تهديد موجه اليها بشكل مباشر كونه جاء في فترة تشهد مواجهة بين الخرطوم والقاهرة. وتقول القاهرة انها تملك معلومات عن حصول السودان من ايران على صفقة كبيرة من السلاح تقدر بنحو ٢٠ مليون دولار تشمل ذخائر وقنابل ومدافع وصواريخ أرض - أرض من طراز «سيلك وورم» وطائرات صينية من طراز «ف - ٧» وارسال طهران ٥٠٠ خبير عسكري الى السودان.

وبينما ترى القاهرة خطراً على امنها يأتي من القرن الافريقي كون النظامين الحاكمين في طهران والخرطوم يجمعهما الانتماء الى فكر أصولي يستهدف خلق محور مركزه ايران فانها لا ترى ان هناك ما يدعو الى القلق من ناحية اليمن على رغم انها كانت تنظر بريبة الى الزيارة التي قام بها مهدي كروبي رئيس مجلس الشورى (البرلمان) الايراني الى صنعاء في كانون الاول ١٩٩١، والتي وصفها الاعلام الايراني بأنها دشنت تعاوناً في مجالات عدة من بينها أمن البحر الاحمر.

وأكد وكيل وزارة الخارجية اليمنية احمد ضيف الله خلال زيارته الى مصر التعاون بين صنعاء والقاهرة في التصدي للارهاب والتيارات المتطرفة وهو موضوع تعتبره مصر همها الاول خصوصاً محاصرة النشاط الايراني في المنطقة للرد على رفض طهران اي دور لمصر في أمن الخليج وتعطيلها «اعلان دمشق» وفي وقت تسعى هي فيه الى ايجاد موطئ قدم لها في القرن الافريقي من خلال الصومال بدعم الفصائل ذات التوجهات الاصولية.

وترى القاهرة انها كسبت الرهان على فشل ايران في استخدام علاقتها مع السودان لجهة استثمار الاتفاقات الثلاثية التي وقعها رؤساء السودان واثيوبيا واريتريا في كانون الاول ١٩٩١ للتعاون في المجالات الاقتصادية والامنية، والتي تضمنت فتح الحدود امام انتقال رؤوس الاموال، ما يعني بالنسبة الى مصر فتح ابواب المنطقة امام الايرانيين. وكان الرهان المصري يقوم على استحالة استمرار وتنامي علاقات أمنية من هذا النوع بين حكومات اسلامية (السودان وايران)

ويسارية (اثيوبيا) وعلمانية (اريتريا).

اما من ناحية اسرائيل فعلى رغم تطبيع العلاقات بينها وبين مصر وانهاء حالة الحرب بينهما فان القاهرة لم تستبعد من استراتيجيتها ان الحركة الصهيونية وضعت نهر النيل يوماً ما ضمن حدود الكيان لأهميته لمشروعها الاستيطاني طويل المدى. والقاهرة لم تكن بعيدة عن هذا المخطط فقد حضر اليها تيودور هيرتزل في العام ١٩٠٣ محاولاً اقناع سلطات الاحتلال البريطاني بنقل مياه النيل الى صحراء النقب عبر سيناء، الا ان بريطانيا رفضت الفكرة لتعارضها مع مصالحها في كل من مصر والسودان.

وعلى رغم اعلان الرئيس المصري الراحل انور السادات في تصريحات صحافية منشورة عزمه على نقل مياه النيل عبر انابيب الى القدس، الا انه بعد رحيله وغزو اسرائيل للبنان عام ١٩٨٢، وحصول القاهرة على معلومات موثقة عن دعم اسرائيل للمتمردين في جنوب السودان بهدف فصله، وتعاون اسرائيل مع اثيوبيا لبناء سدود على النيل الازرق تضر بحصة مصر من المياه، استبعد الرئيس حسني مبارك هذه الافكار وحرصت الحكومة المصرية على ان تؤكد – بمناسبة ومن دون مناسبة – ان مشروع ترعة السلام (مشروع نقل مياه النيل الى شمال سيناء عبر انابيب) يدخل ضمن نطاق مشروعات التنمية واستصلاح الاراضي في مصر فقط.

وكانت اثيوبيا في عهد هايلي مريام أبلغت القاهرة عدم التزامها باتفاق تنظيم استخدام المياه الذي وقعته مع مصر والسودان بدعوى انه وقع في ظل الاحتلال وطلبت من المصرف الافريقي للتنمية تمويل انشاء سدين على النيل الازرق لكن مصر أبلغتها رفض هذه الدعاوى كون الميثاق الدولي ينص على ان ما تقوم به السلطة المهيمنة على اي بلد ويترتب عليه آثار ومصالح وواجبات يستمر العمل به. لكن ضغوط الثورة الاريترية والتدخل الاميركي عبر وساطة الرئيس السابق جيمي كارتر دفعت هايلي مريام الى الاعتذار وطلب مساعدات عسكرية من القاهرة.

واستغلت اسرائيل هذه الظروف وبعثت ٤٠٠ خبير عسكري وسرب طائرات من نوع «كفير» وغازات اعصاب، وقاذفات صواريخ، ومدافع ثقيلة الى منغيستو ومعها مشروعات سدود على النيل الازرق في محاولة للحلول محل الاتحاد السوفياتي (السابق)، وهي المحاولة نفسها التي تدفع اسرائيل الان لتحل محل الاتحاد السوفياتي ايضاً في قاعدة جزيرة دهلك الاريترية.

والغريب في هذا السياق انه في العام ١٩٧٧، في الوقت الذي كانت الثورة الاريترية تحقق انتصارات حذرت اسرائيل منغيستو من انفصال اريتريا بحجة ان اريتريا «ستكون دولة مسلمة ستجعل البحر الاحمر بحيرة عربية» وعرضت بشدة حق تقرير مصير الشعب الاريتري متصورة «ان الغالبية المسلمة ستسيطر على الاقليم بعد الاستقلال».

ولعل اشارة الرئيس الاريتري أسياس أفورقي خلال زيارة مبارك الى امكان انضمام بلاده الى الجامعة العربية ستثير بلا شك حساسية اسرائيل.

وتقول المصادر المصرية ان علاقة اثيوبيا واسرائيل ترتبط الى حد كبير بالعلاقات بين أديس أبابا والقاهرة، فهي اليوم تكرر محاولاتها على ارضية جديدة هي تعرض العلاقات بين مصر من ناحية واريتريا واثيوبيا من ناحية اخرى للفتور بسبب دعم مصر السابق لمنغيستو.

ولا تنفي مصر الدور الاميركي في منطقة القرن في الثمانينات، خصوصاً ان واشنطن اعطت الامبراطور هايلي سيلاسي ٣٦ مشروعاً مائياً لانشاء سدود وخزانات على النيل الأزرق وفروعه بهدف خفض حصة مصر بنحو خمسة بلايين متر مكعب سنوياً بعد قرار الرئيس المصري الراحل عبد الناصر بناء السد العالي.

تقول المصادر ان مصر طرحت مشروعين للتعاون المائي، الاول مع اثيوبيا ويقترح انشاء خزان على بداية فتحة بحيرة تانا. ويمكن لهذا الخزان حفظ المياه قبل ان تصل الى البحيرة بما يجعلها خزان احتياط يمنع غرق الاراضي الزراعية، والثاني هو الخاص بقناة جونغلي في جنوب السودان التي توقف العمل فيها بسبب الحرب هناك. وتشير المصادر الى ان امن القرن الافريقي الذي يعني امن البحر الاحمر جزء من الامن القومي العربي وعليه فلا بد من وجود رؤية عربية للدول ذات العلاقة المباشرة، وهي – الى جانب مصر والاردن والسعودية واليمن وجيبوتي والسودان من الجانب العربي – تضم اثيوبيا واريتريا وكينيا من الجانب الافريقي، وهو الموضوع المطروح حالياً على جداول اعمال الاتصالات المصرية – العربية.

وتعتني مصر في هذا الموضوع بايجاد «رؤية عربية للأمن في البحر الاحمر» في ضوء التهديدات القائمة او المحتملة من جانب ايران او اسرائيل وتعتقد ان هذه التهديدات ستكون الحافز للوصول الى رؤية مشتركة على رغم عدم وجود تصور عربي موحد للعلاقات او المصالح وكون كل دولة عربية لها سياستها وتوجهاتها الخاصة حالياً.

وتنظر القاهرة بارتياح الى تأكيد الرئيس الاثيوبي ملس زيناوي اهمية البعد العربي في مسألة التعاون مع دول القرن الافريقي ودعوته الى جعل الخلافات الثنائية ثانوية والمصالح مبدئية. ونقلت مصادر دبلوماسية مصرية قامت باجراء اتصالات مع دول القرن الافريقي اخيراً عن زيناوي قوله ان «هناك ارضية جديدة للتعاون من اجل الامن والاستقرار الذي يتسم بالاستمرار ولا يكون عرضة للتأثر بالتطورات كما حدث في الماضي». واشارت الى تأكيدات أفورقي خلال المحادثات مع مبارك اخيراً ان اريتريا «لا تعيش في جزيرة معزولة» وانها محاطة بجيران عرب لها معهم مصالح مشتركة.

واعتبرت المصادر ان زيارة مبارك انهت كل التأثيرات السلبية التي سببتها اتهامات أفورقي لمصر العام الماضي بأنها تسعى للسيطرة على مياه النيل ومنابعه وحوض البحر الاحمر وتقف ضد حق تقرير مصير الشعب الاريتري.

ولا تستبعد المصادر المصرية امكان عقد قمة للبحث في التعاون بين دول القرن الافريقي والبحر الاحمر في مرحلة لاحقة تضم مصر والسودان والاردن والسعودية واليمن وجيبوتي والصومال، واريتريا واثيوبيا التي طالب رئيسها بترجمة الدول العربية تضامنها المعلن الى مشروعات تعاون. وسيكون هذا الموضوع مطروحاً على جدول اعمال محادثات مبارك وزيناوي الذي سيزور القاهرة قبل القمة الافريقية.

الوضع الداخلي (١٩٩٣) ومسألة الهوية

على صعيد البناء المؤسساتي والاقتصادي للدولة، وتركيبتها المجتمعية، تنطلق اريتريا من الصفر تقريباً. وتسير بقوة دفع تترجح بين ٧ و ١٠٪ من طاقة البلد الأساسية مع الاعتماد على الدعم الخارجي الذي وصلها حتى الآن (اواسط ١٩٩٣) والموعودة به مستقبلاً.

لا طرق صالحة، وخطوطها الجوية لا تملك الا طائرة واحدة، و٦٠٪ من أراضيها محروقة، و٧٠٪ من ماشيتها قد نفقت، وهناك نقص حاد في مصادر الطاقة، ولا توجد لديها عملات صعبة. وفي البلاد مدن كانت موجودة قبل ١٩٦٠، وازيلت بكاملها خلال الحرب (التي دامت ٣٠ عاماً)، مثل نقفا وأفعبت وغيرهما على الساحل الاريتري. وهناك مدن كان يعيش اهلها تحت الارض حيث شيدوا منازلهم للحماية من قصف المقاتلات الاثيوبية.

مشاريع النهوض: وضعت الحكومة الاريترية الموقتة برئاسة الامين العام للجبهة الشعبية لتحرير اريتريا، اسايس أفورقي، برنامجاً لاعادة تأهيل البلاد خلال فترة انتقالية لاربع سنوات (١٩٩٢ – ٩٥) تتجاوز نفقاته بليوني دولار؛ وقد اعترفت الحكومة بأنها غير قادرة على تأمين هذا المبلغ من مصادرها المحلية، وانها تعتمد على الدعم الخارجي الذي لم يصلها منه حتى ايار ١٩٩٣ سوى ١٠٪ من المبلغ المطلوب. وقد جاءت هذه النسبة من البنك الدولي وتبرعات من الولايات المتحدة ودول غربية. ويشمل البرنامج اعادة تأهيل قطاعات الزراعة والاتصالات والمواصلات والسياحة واللاجئين والجيش والتعليم. وهذه القطاعات كلها يرتبط اعادة تأهيل واحدها بالآخر، فيما جميعها يفتقد البنى الأساسية والخبرات الفنية.

ولائحة اعادة البناء والتأهيل طويلة. وصحيح ان الشعب الاريتري معروف بصلابته في العمل، لكن ذلك وحده لا يكفي في حالة كالحالة الاريترية الفائقة الصعوبة. وربما لهذه الاسباب الجوهرية تميزت مواقف أفورقي، وباقي المسؤولين معه، السياسية بالاعتدال والانفتاح على الجميع، حتى ان أفورقي لم يستبعد (بعد الاستفتاء على الاستقلال بنحو اسبوعين) مشروع اقامة كونفيدرالية مع اثيوبيا، مشيراً الى ان حكومته تعمل وتتابع عمليات دمج بين قطاعات الاقتصاد في كل من البلدين. إضافة الى ان النظام السياسي، الذي يعد أفورقي باعتماده، يتضمن تجربة جديدة قياساً على تجارب دول المنطقة، وهذا النظام يسمح بانشاء احزاب ضمن نظام ديمقراطي غير قائم حتى الآن في أي من الدول المجاورة.

معارضة: صدرت مواقف كثيرة عن تنظيمات اريترية خارج البلد تنتقد اقتراح أفورقي في صدد الكونفيدرالية. وقد اشار المنتقدون الى ان الاريتريين لم يصدقوا انهم حصلوا على استقلالهم فكيف يندمجون مجدداً في من انفصلوا عنه؟ وبين اصحاب هذه المواقف ممن يمكنهم تعقيد ما يسعى اليه أفورقي، «حركة الجهاد الاسلامي» الاريترية التي تملك وجوداً عسكرياً في بعض مناطق جنوب البلاد. وزعيم «الجهاد» الشيخ احمد عرفة احمد معتقل لدى الحكومة السودانية في اطار اتفاق امني سوداني – اريتري، لكن اي تغيير يطاول الظروف الاقليمية في المنطقة قد يؤدي بالخرطوم الى اطلاق عرفة. وإذا اضفنا الى ذلك مشاكل العفر الاريتريين الذين لا يزالون يحلمون باقامة دولة العفر الكبرى عبر الاندماج مع عفر جيبوتي والصومال، أدركنا ان المشكلة السياسية لا تقل خطورة عن المشكلة الاقتصادية وضخامة ما ترتبه من شروط لإعادة البناء والتأهيل.

وبدا واضحاً ان لهجة المعارضة آخذة في التصاعد. فبعد نحو شهر واحد من اعلان الاستقلال، بدأ الحديث يتواتر عن «استياء قادة الجيش الاريتري من زيارة أفورقي (أواخر حزيران ١٩٩٣) لأديس أبابا بسبب عدم وضوح اسبابها والاعلان عنها»؛ وعن «صراع خفي على السلطة يدور حالياً في اريتريا وان القوات الاريترية بقيادة رئيس الأركان مسفون حكوس تتجه الى حسم الصراع داخل الجبهة الشعبية لتحرير اريتريا الحاكمة في اسمرا»؛ وعن «تسليم السلطة السياسية الى الجيش الذي سيمهد لتسليمها الى الشعب استناداً الى اسس ديمقراطية تنسجم مع رغبة الشعب». كما اتهم ناطق باسم «الحركة الديمقراطية لتحرير اريتريا» الحكومة الانتقالية في اريتريا بالعمل «ضد السلام والوحدة الوطنية»، وممارسة نوع جديد من «الدكتاتورية في منطقة القرن الافريقي»، ووصف التشكيلة الوزارية (مطلع حزيران ١٩٩٣) بأنها «تكريس لاول حكومة دكتاتورية في اريتريا»، وهدد باستخدام القوة المسلحة في حال استمرار الحكومة على نهجها.

في افتتاحية مجلة «العربي» (العدد ٤١٦، تموز ١٩٩٣، ص ١٩ – ٢٠) كتب الدكتور محمد الرميحي:

«والآن بعد ان انتصرت الثورة (الاريترية) على عدوها الواضح والأساسي (اثيوبيا) فإن الرفاق القدامى لم يلقوا السلاح. ويبدو ان الحساب الختامي لم يحسم بعد. وربما دعم هذا من ظهور التناقضات التي كانت مؤجلة بين الفصائل المختلفة. لقد شهدت سنوات النضال الطويلة انقسام الجبهات الى فصائل، والفصائل الى مجموعات. وهذه هي احد امراض الكفاح المسلح في العالم الثالث بشكل عام.

لقد تغير وجه الثورة التي اطلقت رصاصتها الاولى في الستينات. كانت قيادتها اولاً في ايدي العناصر المسلمة الأكثر فقراً والتي تحملت الاضطهاد الاثيوبي بصورة اساسية. وكانت امتداداً لتيار حزب الرابطة الاسلامية الذي كان يدعو الى استقلال اريتريا وعروبتها معاً. ثم دخلت الثورة الى السبعينات وقد انقسمت الى تنظيمين رئيسين هما جبهة التحرير الاريترية، وقوات التحرير الشعبية. واستطاعت الأخيرة ان تجذب مسيحيي الهضبة وكذلك العناصر المصوعية والحضرية. ثم حدث انشقاق آخر بقيادة أساياس أفورقي، وتحت قيادته بدأت الجبهة الشعبية تحقق انتصارات متوالية على النظام الاثيوبي المنهار، مستعينة على ذلك بالعناصر المسيحية التي كانت على درجة عالية من الثقافة، في الوقت الذي اخذت فيه العناصر الاسلامية في التراجع بعد ان سقطت في هوة التناحر في ما بينها.

ومعضلة الجبهة الشعبية الآن بقيادة أفورقي انها ترفض الاعتراف بمساهمة الأطراف الأخرى في عملية التحرير، وتنظر الى شخصيات الثورة الرئيسية من منظور تاريخي ورمزي أكثر منه واقعياً. وبذلك فهي تهيء نفسها للانفراد بالسلطة دون ان تتيح الفرصة لبقية الاطراف المسلمة.

ولعل صلة الرئيس الجديد باسرائيل (لا يزال الكلام كلام الدكتور محمد الرميحي في مجلة «العربي»)، تلقي المزيد من الظلال على توجهاته... وتتحدث الانباء عن مساهمة إسرائيل في المشروعات الزراعية والآبار الجوفية وبناء مطار حديث ووجود خبراء عسكريين ومن الموساد لتدريب الجيش الاريتري الذي اصبح واحداً من اقوى الجيوش في القرن الافريقي.

بقية الفصائل المعارضة ساخطة لأنها لم تدع للاشتراك في الاستفتاء. وبدأت المشاكل بين الاخوة المتناحرين حين أدلى افورقي بالتصريح العنيف ضد ما أسماه بالتدخل العربي في شؤون اريتريا الداخلية. وردت عليه بقية التنظيمات الأخرى بأنها لم تنهض للكفاح إلا دفاعاً عن تراثها الاسلامي ولغتها وثقافتها العربية. وتنتقد حركة الجهاد الاسلامي الرئيس أفورقي بعنف لأنه قرر الأحد عطلة رسمية بدلاً من الجمعة واقصى اللغة العربية عن الدواوين والمدارس وفرض اللغة التيغرية بدلاً منها، كما انه تجاهل قانون الاحوال الشخصية للمسلمين، اضافة الى حملات الاعتقال والقمع.

وهكذا (يتابع الرميحي) بدأت بوادر التحلل بين الفصائل التي قادت النضال، واذا استمر الامر على هذا النحو، فربما ادّى الى الانفجار الداخلي الذي يعود بالبلاد الى نقطة الصفر مرة أخرى».

مسألة الهوية: موضوع هوية اريتريا شائك وقام حوله جدل حاد طوال السنوات الثلاثين للثورة، وقبل ذلك ايضاً. وهو موضوع لا يزال مطروحاً اليوم في اجواء الاستقلال نظراً الى تنوع إثنية الشعب وانتماءاته الدينية والطائفية، ويبدو انه مرشح للتصاعد. جريدة «الحياة» نشرت رأياً في هوية أريتريا لكاتب وصحافي أريتري، هو محمد عثمان علي خير، بعنوان «هوية اريتريا بين العربية والافريقية» («الحياة»، ٢٠ حزيران ١٩٩٣، ص ١٥)، هذا نصه الحرفي:

«تتوالى تصريحات قيادات «الجبهة الشعبية» في رفضها عضوية اريتريا في الجامعة العربية لأن الجامعة، حسب ما يزعمون، كانت معادية وغير متعاطفة مع «القضية الاريترية»، علماً ان انضمام اريتريا الى الجامعة العربية فيه الكثير من المبررات الوطنية والقومية والاقتصادية والأمنية. فهناك ستون في المئة من السكان المسلمين في اريتريا ثقافتهم ولغتهم عربية، ظلوا محافظين على هويتهم في ظل الغياب التام للعرب في مرحلة ١٩٤٠ – ١٩٥٠ حين كانت الاقطار العربية ترزح تحت نير الاستعمار الفرنسي او البريطاني. ونعني بذلك ان انتماء غالبية السكان العرب المسلمين في اريتريا لم تكن تقف وراءه اي جهات عربية، بل لم تكن مشاريع التوسع العربي «المزعومة» التي تتاجر بها قيادات الجبهة الشعبية في الاوساط الاوروبية، موجودة. وبعد ان اسرف قادة «الشعبية» في الهجوم حتى على منظمة الوحدة الافريقية قبل التحرير رأيناهم يلهثون بعده وراء الانضمام لـ «منظمة الوحدة الافريقية». ولا ننسى، بالطبع، شعار الامين محمد سعيد مسؤول اعلام الحكومة الموقتة الذي قال فيه «لا للجامعة العربية نعم لمنظمة الوحدة الافريقية»! ولا نعلم من اي منطلق وأية مزايا اقليمية ودولية تتمتع بها تلك المنظمة التي وجدت لكي تحمي وتذود عن تلك الحدود والخرائط التي رسمها الاستعمار الاوروبي، خصوصاً ان موقف هذه المنظمة من قضية اريتريا وثورتها لا يحتاج الى شواهد بل يكفي ان نوضح بعض النقاط:

١ – في اجتماع رؤساء منظمة الدول الافريقية عام ١٩٦٤ في القاهرة تقدم هايلي سيلاسي، الذي اشرف على الاجتماع، بذلك الاقتراح الداعي الى الحفاظ على الحدود التي رسمها

المستعمرون وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لكي تنفرد كل دولة بقهر شعوبها وتحافظ على ما استولت عليه من اراضي الدول المجاورة. وقد ولدت هذه المنظمة وهي متعارضة مع اماني شعوب افريقيا، اذ لم تكن مهمتها الوقوف على مشاكل افريقيا وايجاد حلول لها، والتي كان معظمها يتمثل في تلك الألغام الموقوتة التي زرعها المستعمرون. وحينما تفجرت ثورة اريتريا وعلا صوتها استخدم هايلي سيلاسي منظمة الوحدة الافريقية في مواجهة عدالة القضية والتعتيم عليها، بل ورط المنظمة في الادعاء بأن ثوار جبهة التحرير الاريترية هم من صنع الانظمة العربية المتطرفة. وكانت جبهة التحرير الاريترية تحدّت نظام هايلي سيلاسي وسلطات أمنه في أديس أبابا، ابان انعقاد مؤتمر رؤساء منظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٦٦، فأرسلت بعض عناصرها الفدائية لتوزيع مذكرة على اعضاء الوفود في الفنادق والصالات الخارجية داخل مقر المنظمة باسم «الجبهة» توضح اعتداء اثيوبيا على الشرعية الدولية بخرقها قرار الامم المتحدة في شأن اريتريا، مما سببت احراجاً كبيراً للامبراطور وسط ضيوفه. ومع ذلك، وفي اطار هذه الضجة السياسية، اكدت المنظمة على عدائها الصارخ للقضية الاريترية.

٢ – برغم تطور النضال الاريتري وتحقيق ثورة اريتريا تلك الانتصارات العسكرية الكبيرة على اثيوبيا، والتي كان من نتيجتها سقوط نظام هايلي سيلاسي عام ١٩٧٤، إلا ان منظمة الوحدة الافريقية رفضت ان تتجاوب مع الثورة الاريترية، بل رفضت، في ذروة انتصار شعبنا على نظام منغيستو ان تغير موقفها تجاه قضية الشعب الاريتري مما جعل الاريتريين يصنفونها في معسكر الاستعمار الاثيوبي.

٣ – ليس هناك أي قرار أو توصية فتاريخ هذه المنظمة يشير، حتى من باب الاشارات البعيدة الى التعاطف مع معاناة شعبنا في الجوانب الانسانية. لذلك فان لهاث قيادات الجبهة الشعبية وراء الانضمام الى هذه المنظمة يعبر عن الاستعداد للمساهمة الفعالة في رعاية تلك الخرائط والحدود الاستعمارية. علماً انه، حتى الأمس القريب، عندما ناقش اعضاء المنظمة انضمام اريتريا وحصولها على العضوية فيها، وقف معظم الاعضاء ضد هذا الانضمام تجسيداً لموقفهم التاريخي من قضية الشعب الاريتري.

٤ – لم تكن الجامعة العربية معادية لعدالة قضيتنا، وانما كانت مقصرة في دعمها المعلن. ولكن، مع تطور النضال الاريتري، خصوصاً منذ ١٩٨٠، دخلت القضية الاريترية في اهتمامات الجامعة العربية. وهناك قرارات واضحة في مجال دعم «القضية» وافساح المجال في التعليم والصحة. وفي اجتماع للجامعة في تونس، لوزراء الخارجية العرب عام ١٩٨٥ (وفي الدورة ٧٧ حسب ما اذكر) تم الاعلان عن الدعم الكامل للقضية الاريترية والمطالبة بدعمها في كل المحافل.

واذا تجاوزنا ذلك كله نجد تلك المواقف الداعمة والمشرفة في كل المجالات من جانب الحكومات العربية التي قدمت المال والسلاح والتدريب ولها اياد بيضاء لا ينكرها الا جاحد. واتحدى ان تكون دولة افريقية واحدة دعمت قضيتنا سواء بالموقف السياسي او الدعم سوى ذلك الموقف الباهت من السنغال والذي جاء في الوقت الضائع.

خلاصة القول، ان هناك طرفين في اريتريا الآن: الأول، الأقلية السياسية التي تعبر عن اهدافها المعادية لانتماء اريتريا العربي. والثاني، رغبة شعبنا الاصيلة ضمن ذلك الخط الثابت والراسخ، في تحقيق انتماء اريتريا العربي، ليس عبر الجامعة العربية فحسب وانما في ذلك التلاحم التاريخي الذي ستشهده اريتريا بعد ان تزول تلك السحابة العابرة والتي مهما أمطرت من مطر السوء فلن تغير حقيقة من موقع اريتريا الجغرافي والسياسي والحضاري الذي يصب في وعائها العربي الذي لا ينضب» (انتهى مقال محمد عثمان علي خير).

مدن ومعالم

□ **رحلة بحر اريتريا**: «في حوالي بداية العصر المسيحي، اضحى الساحل الشرقي معروفاً تماماً حتى اعالي رأس دلغادو الواقع على الحدود بين تنزانيا وموزامبيق كما تدل عليه «رحلة بحر اريتريا»، وهو من النصوص البالغة الأهمية التي تتحدث عن تاريخ افريقيا ما قبل الاسلام. والنص كناية عن دليل بحري كتبه تاجر ملّاح بهدف تعليم زملائه امكانيات وفرص التجارة في الساحل الشرقي من افريقيا. اما تاريخ كتابة هذا النص فكان موضع نقاش غزير وطويل بين المؤرخين والعلماء. لكن هناك ميل عام لاعتباره مكتوباً في النصف الاول من القرن المسيحي الاول، اي نحو سنة ١٢٠ م.» (المرجع: موسوعة Les Memoires de l'Afrique - Robert Laffont, p. 92).

* **أسمرا**: عاصمة أريتريا. كانت تعتبر، قبل استقلال اريتريا، ثاني مدينة بالأهمية في اثيوبيا بعد عاصمتها أديس أبابا. واقعة على الخاصرة الشمالية من الهضاب العالية وعلى ارتفاع ٢٤٠٠ م عن سطح البحر. سكانها نحو ٣٠٠,٠٠٠ نسمة. صناعتها الأقمشة والمنتوجات الغذائية. ولكنها صناعات لا تزال بدائية.

* **أَفْعَبَتْ**: ثاني مدن الساحل الاريتري. تغلب التجارة على نشاطات سكانها الذين كان يبلغ تعدادهم نحو ١٦٠٠٠ نسمة قبل دخول القوات الاثيوبية اليها (١٩٧٨) إبان حرب التحرير الاريترية. هجرها معظم سكانها الى المرتفعات والى منطقة وادي لبكا المجاور حيث مارسوا الزراعة، ولم يبق في المدينة إلا اربعة آلاف نسمة. لا تزال آثار التدمير واضحة في كل معالمها. معظم سكانها مسلمون يتحدثون العربية اضافة الى لغتهم المحلية.

دهلك: ارخبيل من ١٢٢ جزيرة في جنوب البحر الأحمر، يتبع اريتريا. اهم جزره دهلك الكبير الواقع تجاه مصوّع. صيد، لؤلؤ، تجارة.

في اوائل ايار ١٩٩٣، أي بعد ايام على اعلان استقلال اريتريا، جرى تداول اعلامي، إستناداً الى مصادر اريترية واثيوبية وعربية وأجنبية، حول تعاون أمني اريتري – اسرائيلي على اساس استخدام دهلك لأغراض امنية، وكإستمرار لتعاون امني اثيوبي – اسرائيلي سابق. ومما قيل ان عدداً كبيراً من الخبراء العسكريين الاسرائيليين وصل تباعاً الى دهلك حيث يوجد مطار بناه السوفيات في السبعينات عندما كانت اجزاء كبيرة من اريتريا، ومن بينها العاصمة أسمرا، تحت سيطرة نظام الرئيس الاثيوبي منغيستو هايلي مريام. ويذكر ان إسرائيل استخدمت جزيرة دهلك قاعدة عسكرية في عهد منغيستو وتركت فيها بعض المنشآت لدى خروج خبرائها منها قبل اسابيع قليلة من فرار منغيستو الى زيمبابوي في ايار ١٩٩١. وبرأي عسكريين ان لدهلك اهمية استراتيجية بالغة في منطقة البحر الاحمر، ذلك انه في إمكان اجهزة رصد تقام فيها مراقبة معظم المنطقة العربية، خصوصاً الدول الواقعة على البحر الأحمر.

مصوّع: مرفأ اريتري على البحر الأحمر. نحو ٣٠,٠٠٠ نسمة.

نقفة: اهم مدينة على الساحل الاريتري. كان يسكنها، قبل القتال بين الاريتريين والاثيوبيين، نحو ٦٠٠٠ نسمة. من اكثر المناطق التي تعرضت للمعارك إبان حرب التحرير الاريترية.

مطار أسمرا الدولي

سوق تجاري في أفْعَبَتْ
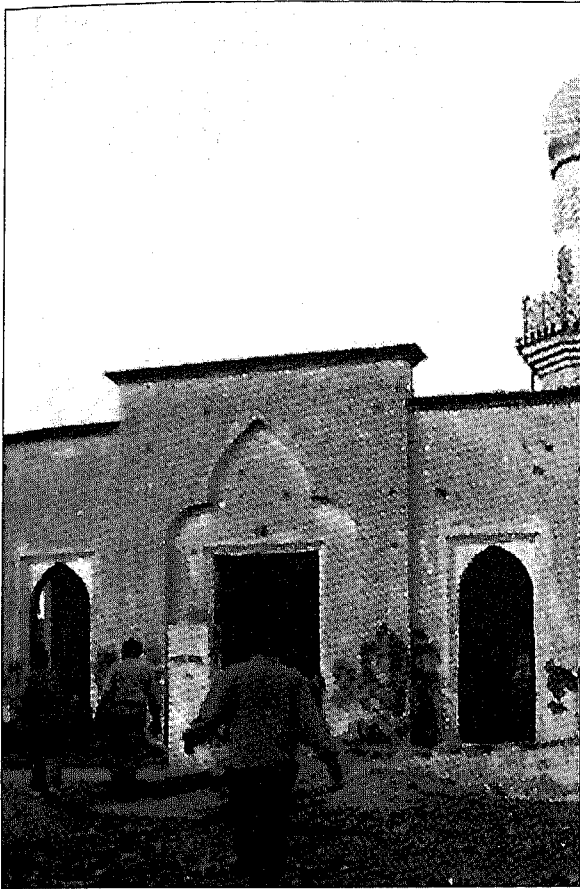
مسجد مدينة نقفة.
عليه آثار القصف أثناء الحرب

محل تجاري
في مدينة أفعبت بعد تحريرها

ESPAGNE
GOLFE DE GASCOGNE
FRANCE
La Corogne
Gijon
Grotte d'Altamira
Oviedo
Covadonga
Saint-Sébastien
Santander
Bilbao
MONTS CANTABRIQUES
Saint-Jacques-de-Compostelle
MONTS DE GALICE
PYRÉNÉES
Golfe du Lion
ANDORRE
Leon
Pampelune
Pic d'Aneto
Vigo
Minho
Burgos
Huesca
Olot
Ebre
Valladolid
Douro
Zamora
Saragosse
Tarrasa
Barcelone
M E S E T A
Salamanque
Tarragone
Ségovie
SIERRA DE GUADARRAMA
Tortosa
SIERRA DE GATA
Avila
L'Escurial
Madrid
Vinaroz
PORTUGAL
SIERRA DE GREDOS
Escalona
Talavera de la Reina
Torrijos
Aranjuez
Cuenca
MINORQUE
Tage
Lagartera
Tolède
MONTS DE TOLÈDE
Palma de Majorque
MAJORQUE
Valence
Golfe de Valence
Mérida
IBIZA
ILES BALÉARES
Guadiana
Ciudad Real
FORMENTERA
Alicante
Rio Tinto
SIERRA MORENA
Guadalquivir
Cordoue
Murcie
Carthagène
Huelva
Séville
Guadix
Grenade
Mont Mulhacén
Château de Belmonte à Cuenca
Golfe de Cadix
Jerez de la Frontera
SIERRA NEVADA
Almeria
EUROPE
Cadix
Marbella
Malaga
Torremolinos
Adra
Cap de Gata
Cap Trafalgar
Algésiras
Tarifa
GIBRALTAR (G.-B.)
Détroit de Gibraltar
MER MÉDITERRANÉE
CEUTA
MELILLA
ILES CANARIES
AFRIQUE
ALGÉRIE
MAROC
Séville
9° O.
6° O.
3° O.
0°
42° N.
39° N.
36° N.
milles
100
200
300
km

SANTANDER
BISCAYE
ALAVA
GUIPUZCOA
COROGNE
OVIEDO
LUGO
LEON
PALENCIA
BURGOS
NAVARRE
HUESCA
LERIDA
GERONA
ORENSE
LOGRONO
PONTEVEDRA
ZAMORA
VALLADOLID
SORIA
SARAGOSSE
BARCELONE
SÉGOVIE
TARRAGONE
SALAMANQUE
GUADALAJARA
TERUEL
AVILA
MADRID
CASTELLON
CACERES
TOLÈDE
CUENCA
VALENCE
CIUDAD REAL
ALBACETE
BADAJOZ
ALICANTE
CORDOUE
JAEN
MURCIE
HUELVA
SÉVILLE
GRENADE
ALMERIA
CADIX
MALAGA
ILES CANARIES
SANTA CRUZ DE TENERIFE
LAS PALMAS (Grande Canarie)
ILES BALÉARES

إسبانيا

بطاقة تعريف

الموقع: في جنوب غربي أوروبا، وتحتل أربعة أخماس شبه جزيرة إيبيريا. طول أراضيها عند أبعد نقطتين من الشمال إلى الجنوب ٨٠٠كلم، و ٩٦٠كلم من الشرق إلى الغرب. أقصى نقطة في طرفها الجنوبي يفصلها عن أفريقيا مضيق جبل طارق، وعرضه ١٣كلم.

المساحة: ٥٠٤,٧٥٠كلم٢؛ ٤٩٢,٤٦٣كلم٢ مع جزر الكناري والباليار.

العاصمة: مدريد، كان عدد سكانها في العام ١٥٦٠ نحو ١٥ ألف نسمة؛ في العام ١٦٠٠ نحو ٦٠ ألف نسمة؛ في العام ١٨٤٣ نحو ٢١٧ ألف نسمة؛ وأصبح هذا العدد ٣,١٢٠,٧٣٢ في العام ١٩٩٠.

الحكم: منذ العام ١٩٧٥، عادت إسبانيا لنظام الملكية الوراثية. الملك رئيس الدولة، يعيّن رئيس الحكومة وأعضاء مجلس الوزراء بعد استشارة رئيس الوزراء. الجمعية التشريعية (البرلمان) يدعى «كورتيس». في كانون الأول ١٩٧٨، تمّ إقرار دستور جديد. تتألف إسبانيا من ٥٠ مقاطعة، لكل منها مجلسها الخاص وحاكمها المدني المعيّن.

اللغات: الاسبانية (يقال لها أيضاً الكاستيلية) ويتكلمها ٧٣٪ من مجموع السكان. ولغة الباسك (٣٪)، واللغة القتالونية (٢٤٪)، والغاليسية (يتكلمها ٧٠٪ من الغاليسيين) وأصلها روماني من المجموعة البرتغالية. نحو ٣٢٪ من الاسبان يتكلمون لغة أجنبية على الأقل. في العام ١٩٩١، كان هناك ٣٢٠ مليوناً يتكلمون الاسبانية في العالم (المكسيك ٧٦,٧ مليوناً، إسبانيا ٤٠، الأرجنتين ٣٢، كولومبيا ٢٩,٦، الولايات المتحدة ٢٦,٥ وفنزويلا ١٨,٩).

السكان: كان عدد سكان إسبانيا في العام ١٧٦٨ نحو ٩ ملايين نسمة، وفي ١٧٩٩ نحو ١٠,٥؛ وفي ١٨٣٣ نحو ١٢,٣؛ وفي ١٩٠٠ نحو ١٨,٦؛ وفي ١٩٢٠ نحو ٢١,٤؛ وفي ١٩٥٠ نحو ٢٨,٤؛ وفي ١٩٦٠ نحو ٣٠,٩؛ وفي ١٩٨٠ نحو ٣٧,٥؛ وفي ١٩٨٥ نحو ٣٨,٦ مليون نسمة؛ وفي آخر إحصاء، العام ١٩٩٠، بلغ عدد السكان ٣٩,٥ مليوناً. وتقديرات العام ٢٠٠٠، تشير إلى أن العدد سيصبح ٤١ مليوناً.

لم تعد الكاثوليكية دين الدولة الرسمي بموجب دستور ١٩٧٨، والكونكوردا الجديدة الموقعة مع الكنيسة في ٣ كانون الثاني ١٩٧٩. الكونكوردا السابقة (٢٧ آب ١٩٥٣) كانت تمنح الكنيسة امتيازات عديدة (منها التعليم الديني الكاثوليكي إجباري في المدارس...). وفي العام ١٩٩٠، ألغت الدولة كل مساعداتها للكنيسة، وآخر مساعدة قدّمتها لها كانت ١٣,٣٥ مليار بيزيتا.

الطوائف الأخرى: البروتستانت ٤٠٠ ألف. اليهود ٢٠ ألفاً، منهم ٧٠٪ جاؤوا من المغرب في أواخر الخمسينات من هذا القرن، و ٣٠٪ من ألمانيا وأوروبا الوسطى والشرق الأوسط؛ ووضع اليهود التاريخي في أسبانيا أعادت إثارته زيارة ملك إسبانيا خوان كارلوس لتركيا (٢٨ أيار ١٩٩٣ حيث عقد لقاء «تاريخي» مع يهود أتراك كانت إسبانيا طردت أجدادهم وآوتهم الأمبراطورية العثمانية قبل ٥٠٠ عام. وهذا أول لقاء بين ملك اسباني ويهود تركيا منذ عهد الملك فرناندو والملكة اليزابيت الكاثوليكيين اللذين طردا اليهود من إسبانيا في العام ١٤٩٢. وينتمي معظم اليهود الأتراك الذين يبلغ عددهم ٢٥ ألفاً إلى السفارديم، وما زال كثيرون منهم يتكلم «اللادينو»، وهي لغة يهودية اسبانية. وفي إسبانيا كذلك نحو ٨٠ ألف مسلم يعودون بأصولهم إلى عهود الفتح العربي للأندلس.

الاقتصاد: القطاع الزراعي أهم القطاعات الاقتصادية. وأهم المزروعات الحبوب، والخضار، والفاكهة والحمضيات. نسبة العاملين بالزراعة آخذة بالانخفاض، في حين تزداد نسبة العاملين في الصناعة. وتزدهر فيها صناعة المحركات، والمواد الكيماوية، والآلات الميكانيكية، وبناء السفن. انضمامها إلى المجموعة الأوروبية آخذ في التأثير بنيوياً في قطاعاتها الاقتصادية. الوحدة النقدية: بيزيتا.

تعوّض إسبانيا عن عجزها التجاري بصناعة «السياحة»، إذ تعتبر أول بلد سياحي في العالم. في أواسط ١٩٩٣ (بعد الانتخابات التشريعية)، أبدى العاملون في القطاع السياحي تفاؤلاً بانخفاض سعر البيزيتا الذي يجذب السائح الأوروبي والأميركي. وتوقعت وزارة السياحة الاسبانية أن يزداد عدد السياح عن العام الماضي بنسبة ١ إلى ٢٪، فيبلغ عدد السياح نحو ٥٦,٥ مليون سائح، ما يعني زيادة مداخيل الدولة نحو ١٠٠ ألف مليون بيزيتا.

نبذة تاريخية

ليس هناك من معلومات مؤكّدة حول أول وجود بشري في إسبانيا. وتعيد الأسطورة القديمة هذا الوجود إلى توبال وترسيس (Tubal, Tarsis) المنحدرين من عائلة نوح. وفي عدة مغاور في شمالي البلاد نقوش تعود إلى نحو خمس عشرة ألف سنة. وهناك نقوش أحدث عهداً يعيدها الخبراء إلى الإيبيريين (Ibères)، أي إلى الشعب الذي أعطى اسمه إلى شبه الجزيرة الإيبيرية التي تشكّل إسبانيا أربعة أخماسها. وقبل نحو تسعمائة سنة قبل الميلاد، قطع السلطيون (Celtes) جبال البيرينه، وأقاموا في شبه الجزيرة حيث اندمجوا مع الإيبيريين وشكّلوا شعباً موحّداً. وكان للموقع الاستراتيجي الذي تتمتع به شبه الجزيرة الإيبيرية، ولثرواتها الطبيعية أن دفعت تجارة الشعوب المجاورة إلى المغامرة. فأقام الفينيقيون مراكز تجارية لهم على طول الشاطئ الجنوبي. وكذلك فعل اليونان الذين يعتقد أنهم علّموا سكان البلاد زراعة الزيتون والكرمة، وكذلك ضرب النقود. أما القرطاجيون فكانوا اكثر الشعوب المجاورة أثراً في حياة شبه الجزيرة قبل بدء العصر الروماني، خاصة في عهد القائد القرطاجي هميلكار برقا (القرن الثالث قبل الميلاد). وباعتبار أن قرطاجة كانت تشكّل تهديداً دائماً لروما، فقد نشبت بين المدينتين حروبٌ طويلة عرفت بالحروب البونية (استمرّت من ٢٦٤ إلى ٢٤٦ق.م.)؛ وقد دارت أغلب هذه الحروب على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية، ومنها انطلق أيضاً القائد القرطاجي هنيبعل في اجتيازه لجبال الألب. وأخيراً، تمكّن الرومان من طرد القرطاجيين، وجعل شبه الجزيرة الإيبيرية مستعمرة لهم باسم إسبانيا (أو هسبانيا).

ولم يستطع الرومان أن يسيطروا تماماً على مستعمرتهم قبل قرنين من الزمن. وفي عهدهم، الذي يمتد من حوالى ٢٠٠ق.م. إلى عام ٤٠٠م.، عرفت إسبانيا ازدهاراً واسعاً، وشكّلت بلاداً موحّدة. وكانت المسيحية التي دخلتها على يد القديس بولس (٦٣–٦٧) عاملاً أساسياً في المحافظة على وحدتها.

وبعد الرومان، كانت الغلبة على إسبانيا للغوط (قبيلة جرمانية) مع بداية القرن الخامس. وكان الغوط قد اجتازوا البيرينه وحقّقوا نصراً سهلاً وحاسماً على سكان شبه الجزيرة. وسرعان ما اندمجوا بالسكّان الأصليين، واعتنقوا المسيحية، وأصبحت الثقافة الإيبيرية – اللاتينية سائدة.

وبين ٧١١ و ١٤٩٢، تاريخ من السيطرة الإسلامية العربية على إسبانيا مع ما رافق ذلك من أثر حضاري عربي في شتّى الميادين الحياتية والعلمية (تاريخ، فلسفة، ترجمات ونقل الفكر اليوناني إلى إسبانيا وإلى أوروبا، الجغرافيا، علم الفلك، الهندسة...)، وكذلك تاريخ من الحروب ومن محاولات توحيد المقاطعات الاسبانية المسيحية لطرد المسلمين العرب من البلاد.

وأُريد لزواج ايزابيل الأولى (ملكة الكاستيل) وفرديناند الثاني (ملك الأراغون) عام ١٤٦٩، أن يكون رمزاً لوحدة إسبانيا التي لم تصبح موحّدة فعلياً إلا بدءًا من عام ١٤٩٢ حيث تمّ استرجاع غرناطة من المسلمين العرب. وقد صادف، في السنة نفسها، اكتشاف كريستوف كولومبوس للعالم الجديد باسم ملكي إسبانيا (فرديناند وايزابيل). ففتحت المناسبتان الباب واسعاً أمام إسبانيا جديدة، قوية واستعمارية.

وكان لزواج جان (Jeanne)، ابنة فرديناند وإيزابيل، من فيليب دو بورغون، ابن امبراطور النمسا ماكسيميليان دو هابسبورغ، أن وحّد بين التاجين. وذلك أن ابن فيليب وجان أصبح ملك

الملك فرديناند الثاني وزوجته ايزابيل الاولى يستقبلان كريستوف كولومبوس لدى عودته من أميركا (الصورة تعود الى القرن السابع عشر، وهي محفوظة في متحف أميركا في مدريد).

إسبانيا عام ١٥١٦ باسم شارل الأول، ثم أصبح هو نفسه امبراطور «الأمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة» عام ١٥١٩ باسم شاركان (أو شارل الخامس).

أشهر حروب شارلكان الأوروبية كانت ضد فرنسوا الأول، ملك فرنسا، وضد العثمانيين لحماية فيينا. وفي الوقت نفسه، كان الملاحون والجنود ورجال الدين الإسبان يوسّعون من حدود الأمبراطورية الاسبانية فيما وراء البحار. فرفرف العلم الاسباني فوق المكسيك (١٥٢٢)، والبيرو (١٥٣٥)، وكاليفورنيا، وفلوريدا، واميركا الوسطى، واميركا الجنوبية، وكذلك على الشواطئ الأفريقية (أواسط القرن السادس عشر)، ونابولي، والأراضي المنخفضة (١٥٥٦). وضمّ فيليب الثاني (ابن شارلكان) عرش البرتغال إليه (١٥٨٠)، وانتصر في معركة بحرية على الأتراك، ولكن أسطوله البحري (الأرمادا) أصيب بهزيمة نكراء في معركة واجه بها أسطول الملكة الانكليزية اليزابيت الأولى. ومع هذه الهزيمة بدأ نجم إسبانيا في الأفول، واستمر مع فيليب الثالث، وفيليب الرابع، ولكن، من ناحية أخرى (ناحية فنية)، شكّلت الفترة بين ١٥٥٠ و ١٦٨٠ «العصر الذهبي» للفن الاسباني.

وكان آخر ملوك إسبانيا من عائلة هابسبورغ شبه متخلّف عقلياً. فخلفه فيليب دوق دانجو من عائلة بوربون الفرنسية، باسم فيليب الخامس. وكان شارل الرابع الذي ملك على إسبانيا في القرن الثامن عشر، آخر ملوك إسبانيا من عائلة بوربون، وكان ضعيفاً، وترك الحكم الفعلي لزوجته ورئيس وزرائه مانويل دو غودوا.

جلبت الحروب النابوليونية الدمار على إسبانيا. إلا أن المقاومة الشرسة (بالتحالف مع الإنكليز أحياناً) التي أبداها الإسبان أخرجت الفرنسيين من البلاد بدءًا من عام ١٨١٤. وكانت إسبانيا بدأت تخسر مستعمراتها في القارة الأمريكية تحت ضغط حركات التحرّر المطالبة بالاستقلال. وآخر المستعمرات الاسبانية المتحررة كوبا، وبورتوريكو، بالإضافة إلى الفيليبين (عملاً باتفاقات عام ١٨٩٨ بين الولايات المتحدة وإسبانيا على أثر الحرب بينهما).

وعرفت البلاد، طيلة القرن التاسع عشر، اضطرابات وحركات تمرّد بشكل مستمر. أعلن عن نظام الجمهورية عام ١٨٧٣؛ ولكن في السنة التالية، عاد الملك ألفونس الثاني عشر إلى عرشه. وكان ابنه، ألفونس الثالث عشر، أول ملك يتخلّى عن العرش دون إراقة دماء، وذلك بعد ولاية طويلة بدأت عام ١٨٨٦ وانتهت عام ١٩٣١. وفي عهده، بدأت الطبقات الشعبية تبدي تعاطفها مع الحزب الاشتراكي، وباقي الأحزاب العمالية. وكانت الانتفاضات والاضطرابات تقمع دون شفقة. وبدأت الأفكار الثورية في

الانتشار منذ عام ١٩٢٠. وقامت في كاتالونيا إضرابات تطالب الملك بمنح سلطات كاملة للجنرال بريمو دو ريفيرا الذي أصبح أول دكتاتور عسكري في إسبانيا. وحلّ البرلمان (كورتس)، وبقي الملك ألفونس الثالث عشر على العرش. وفقد ريفيرا شعبيته، وأُطيح به عام ١٩٢٩. وعلى أثر فوز الجمهوريين في الانتخابات العامة سنة ١٩٣١، غادر الملك إسبانيا، وأُعلنت الجمهورية.

الملك الفونس الثالث عشر في ١٩٣١، قبيل تخليه عن العرش ومغادرته اسبانيا.

وواجه قادة الجمهورية الفتية معارضة شرسة من المحافظين، والملّاك العقاريين، والكنيسة، والجيش. وتمكّنت الجبهة الشعبية (الجمهوريون، الاشتراكيون، الليبراليون والشيوعيون) من إحراز نصر ساحق في انتخابات عام ١٩٣٦. ورفض الجيش هذه النتيجة وقام بانتفاضة ضد الحكومة. وبدأت حرب أهلية دامت من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ بين الجمهوريين (يدعمهم الاتحاد السوفياتي)، والقوميين الذين كان يقودهم الجنرال فرنشيسكو فرنكو (ويدعمهم هتلر وموسوليني). وأخذت المدن الاسبانية تسقط الواحدة بعد الأخرى بيد القوميين الذي أحرزوا النصر النهائي عام ١٩٣٩، وأصبح زعيمهم، فرنكو، رئيس الدولة الاسبانية. وقد خلّفت الحرب الأهلية نحو مليون قتيل.

بالإضافة إلى رئاسة الدولة، عيّن فرنكو نفسه قائداً أعلى للجيش، وزعيماً أوحد للحزب السياسي الوحيد، حزب الكتائب (فالانج)، متخذاً لنفسه لقب «كوديو» (Caudillo). أعلن فرنكو، عام ١٩٤٧، أن الملكية ستعود إلى إسبانيا بعد موته. قدّمت الولايات المتحدة دعماً مالياً كبيراً لاسبانيا منذ ١٩٥٣، وبالمقابل، حصلت على حق إقامة قواعد عسكرية على الأراضي الاسبانية. وعلى أثر موت فرنكو عام ١٩٧٥، اعتلى العرش حفيد ألفونس الثالث عشر، الأمير خوان كارلوس دو بوربون باسم خوان كارلوس الأول. وفي عام ١٩٧٧، عرفت إسبانيا أول انتخابات عامة منذ ٢١ سنة. وفي السنة التالية، صدر دستور جديد يجعل من البلاد ملكية دستورية وراثية. فيكون الملك رئيس الدولة، في حين يرأس الحكومة رئيس الوزراء. ويتكوّن البرلمان الاسباني (كورتس) من مجلس الشيوخ ومجلس النواب. أما رئيس الوزراء الذي سار مع الملك في هذه الخطوات الديمقراطية فكان أدولفو سواريز.

شعار الألوية الحمراء التي شاركت في الحرب الأهلية الاسبانية إلى جانب الجمهوريين

ملصق جمهوري يهاجم حلفاء فرنكو (كاريكاتور)

من الحرب الأهلية الاسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩).

النظام والديمقراطية والأحزاب

التحول الديمقراطي الذي بدأ بتولي الملك خوان كارلوس الأول، قد تمّ في هدوء شديد ومن دون صدام بين القوى المتصارعة التي كانت تنتظر فرصة رحيل الجنرال فرنكو (١٩٧٥). لقد تيقن الملك أن رئيس الوزراء في ذلك الوقت كارلوس أرياس نافارو غير قادر على الانفصال عن تاريخه القديم المرتبط بفرنكو، فقام بإجراء عملية تغيير شجاعة بعد التشاور مع جميع القوى السياسية، مثل الحزب الاشتراكي والأحزاب الشيوعية المختلفة. فكلّف صديقه الشخصي السياسي أدولفو سواريز بتشكيل حكومة موقتة بدأت عملها في أوائل ١٩٧٦.

وعلى رغم التخوف الذي أبداه البعض من شخصية سواريز الذي كان لامعاً في شبابه في «الحركة» الكتائبية التي كانت تعتبر تنظيم الجنرال فرنكو الوحيد، ووصل فيها إلى منصب السكرتير العام، إلا أن التوجه الديمقراطي لرئيس الوزراء الموقت تغلب على المخاوف. فخلال أقل من عامين، تم الاعتراف بشرعية جميع الأحزاب يميناً ويساراً، وأعلن عفو عام، وفتحت أبواب البلاد أمام الهاربين في المنفى منذ سقوط الجمهورية (١٩٣٩)، وحدّدت الدعوة إلى انتخابات عامة في ربيع ١٩٧٧.

وفي هذه الانتخابات رشّح سواريز نفسه مستقلاً. فاجتمعت قوى اليمين حول وزير الأشغال، كالفو سوتيلو، في حزب واحد حمل اسم «اتحاد الوسط الديمقراطي» معللاً عمله على أنه كان يهدف إلى إضفاء شرعية على شعبية رئيس الوزراء. وبعد أخذ وجذب بين مجموعة سواريز وباقي الفصائل أمكن التوصل إلى حد أدنى في برنامج انتخابي استطاع أن يحصل على غالبية بسيطة في انتخابات حزيران ١٩٧٧، مكّنته من أن يكون أكثر الأحزاب عدداً في أعضاء البرلمان حين حصل على ١٦٨ مقعداً، فيما جاء الحزب الاشتراكي في المركز الثاني وحصل على ١٢١ مقعداً بزعامة فيليبي غونزاليس، وجاء الحزب الشيوعي للمرة الأولى كقوة ثالثة، وحصل على ٢٠ مقعداً.

وباتفاق جميع القوى والأحزاب في البرلمان أعيد انتخاب أدولفو سواريز رئيساً للوزراء. فبادر هذا إلى محاولة إنهاء شرذمة الفصائل التي اجتمعت تحت زعامته في «اتحاد الوسط الديمقراطي» (يضم أكثر من ١٣ حزباً صغيراً، إضافة إلى عدد من المستقلين الذين كانوا يشكلون ثقلاً قوياً في الحياة السياسية)، وأصدر قراراً يدعو جميع الفصائل لحل نفسها وإنهاء الشكل الاتحادي للحزب واستبداله بحزب واحد موحد. فقامت صراعات إيديولوجية لم ينجح المؤتمر العام للاتحاد (١٩ تشرين الأول ١٩٧٨) في وضع حلول جذرية لها.

انتخابات آذار ١٩٧٩: كانت انتخابات مبكرة أعادت حزب اتحاد الوسط الديمقراطي إلى البرلمان بغالبية مكّنته من الاحتفاظ بمقعد رئاسة الوزارة لزعيمه سواريز بعد فوزه بـ١٩٨ مقعداً (الحزب الاشتراكي ١٢١، الحزب الشيوعي ٢٣، وصعود نجم بعض الأحزاب الاقليمية: الحزب الباسكي ٧ مقاعد، حزب الاتفاق القتالوني ٨ مقاعد، الانفصاليون الباسكيون ٣ مقاعد).

لم يتمكن هذا الفوز من دفن الخلافات داخل حزب رئيس الوزراء، بل ازدادت حدة. ومنذ بداية ١٩٨٠، أخذ سواريز يواجه العقبات في البرلمان من المعارضة (بزعامة غونزاليس) ومن أعضاء حزبه (خصوصاً كالفو سوتيلو) الذين بدأوا يتهمونه بتركيز السلطة بين يديه.

حكومة سوتيلو: كان فشل الاستفتاء الذي تمّ إجراؤه في الأندلس لمنح الإقليم حكماً ذاتياً بداية اللحظات الأخيرة لحزب الحكومة، فتقدم الحزب الاشتراكي يوم ٢١ أيار ١٩٨٠ بطلب طرح الثقة في الحكومة، ما كشف عن الضعف الذي تعانيه. وصدر بيان عنيف ضد سواريز، من اجتماع بعض

أعضاء حزب الحكومة بزعامة كالفو سوتيلو، مطالباً بعزل سواريز الذي اضطر على إعلان استقالته في ٢٩ كانون الثاني ١٩٨١.

وأثناء المعارك البرلمانية بين أعضاء الحزب الحاكم، وضغط المعارضة لإسقاط الحكومة، حدث انقلاب ٢٣ شباط ١٩٨١ الشهير باسم «انقلاب تيخيرو» نسبة إلى اسم العقيد في الحرس المدني الذي قام بالانقلاب الفاشل. وتحت ضغط التهديد بانقلاب عسكري آخر، صوّت البرلمان على حكومة جديدة برئاسة العدو السياسي لسواريز ووزيره السابق كالفو سوتيلو.

ولم تستمر حكومة سوتيلو طويلاً. فقد تفاقمت الصراعات الداخلية في حزب «اتحاد الوسط الديمقراطي»، وانتهت بلجوء أعضائه في البرلمان إلى الحزب اليميني الجديد «التحالف الشعبي» بزعامة مانويل فراغا الذي تولّى وزارات عدة في عهد فرنكو. لذلك قرّر سوتيلو الدعوة إلى انتخابات عامة مبكرة في تشرين الأول ١٩٨٢.

انتخابات ١٩٨٢: كانت آخر انتخابات شارك فيها الحزب الحاكم، «اتحاد الوسط الديمقراطي»، الذي فقد كل مقاعده تقريباً في البرلمان. وأسفرت عن فوز الحزب الاشتراكي بغالبية مطلقة وساحقة، إذ نال ٢٠٢ مقعد، بينما نال حزب الحكومة ١٢ مقعداً فقط بعد أن استطاع الحزب اليميني الجديد «التحالف الشعبي» أن يتحول إلى ثاني قوة سياسية بفوزه بـ ١٠٦ مقاعد. وكانت المفاجأة أن فقد الحزب الشيوعي شعبيته، فبعد أن كان قد حصل على ٢٣ مقعداً في انتخابات ١٩٧٩، حصل في انتخابات ١٩٨٢ على أربعة مقاعد، ومنذ ذلك الوقت بدأ أفول نجم زعيم الشيوعية الأوروبية سانتياغو كاريلو الذي خسر مقعده في البرلمان، وقرّر أخيراً مغادرة الحزب الشيوعي بعد حصول انشقاقات وصراعات لينضم إلى الحزب الاشتراكي الحاكم.

فيليبي غونزاليس (١٩٨٢– أواسط ١٩٩٣)

العهد الأول: حملت انتخابات ١٩٨٢ زعيم الحزب الاشتراكي، فيليبي غونزاليس، بقوة إلى رئاسة الحكومة. فكان أول رئيس يساري للوزارء في أسبانيا منذ بداية الثلاثينات، وأصغر رئيس للوزراء في أوروبا (٤٠ عاماً). ولعل أول امتحان واجهته الحكومة الجديدة هو الضغط الأميركي عليها الذي بدأ بزيارة وزير الدفاع الأميركي، واينبرغر، إلى إسبانيا في أواخر آذار ١٩٨٣، حيث دعاها إلى العضوية الكاملة في حلف شمال الأطلسي، بعد أن كان الاشتراكيون قد جمّدوا خطط الاندماج بالجناح العسكري للحلف عندما تولوا السلطة في تشرين الأول ١٩٨٢. وفي آذار ١٩٨٣ أيضاً لمّح غونزاليس، أثناء زيارته للمغرب إلى أن بلاده قد تعترف باسرائيل إذا تمّ التوصل إلى حل سلمي لأزمة الشرق الأوسط.

على صعيد العلاقات الخارجية أيضاً، تبنّت إسبانيا (في الفترة الأولى من حكم غونزاليس) موقفاً إيجابياً من التجربة الساندينية في نيكاراغوا، وأبدت تحفظات على سياسة واشنطن في أميركا الوسطى. وقد استقبلت مدريد (شباط ١٩٨٤) الرئيس الكوبي فيدل كاسترو يرافقه القومندان دانيال أورتيغا، منسّق المجموعة الساندينية الحاكمة في نيكاراغوا. ومع الدول العربية، زار غونزاليس (شباط ١٩٨٤) الرياض ثم عمان سعياً وراء دور أكبر لاسبانيا سواء في ما يتعلق بالأمور الاقتصادية أو رغبةً في تهدئة مشاعر القلق من أنباء أفادت أن إسبانيا تعتزم إقامة علاقات دبلوماسية مع اسرائيل. والمعروف أن حكومة مدريد تعرّضت، في تلك الأثناء، لضغوط لكي تقيم علاقات طبيعية مع الدولة العبرية قبل

فيليبي غونزاليس يؤدي قسم اليمين (١٩٨٢) امام الملك خوان كارلوس (الاول من اليمين)

قبول إسبانيا في الأسرة الاقتصادية الأوروبية. من جهة أخرى، لعبت زيارة الملك خوان كارلوس لموسكو (أيار ١٩٨٤) دوراً في إنهاء نزاعات استمرت نصف قرن بسبب دور موسكو كمصدر رئيسي للأسلحة إلى الجمهورية الفتية إبان الحرب الأهلية في إسبانيا (١٩٣٦- ٣٩).

وفي أول كانون الثاني ١٩٨٦، قبلت إسبانيا في عضوية المجموعة الأوروبية (راجع «أوروبا» حيث الكلام مفصلاً عن المجموعة الأوروبية ومعاهدة ماستريخت وغيرها). وفي آذار (١٩٨٦) جرى استفتاء حول بقاء إسبانيا في الحلف الأطلسي، وجاءت النتيجة ايجابية بنسبة ٥٢,٥٣٪ من المقترعين (في بلاد الباسك ٦٥,٢٪ قالوا لا). وفي نيسان (١٩٨٦)، زار الملك والملكة بريطانيا، وكانت هذه الزيارة الأولى يقوم بها ملك إسبانيا لبريطانيا منذ ١٩٠٦.

العهد الثاني والثالث: بدأ هذان العهدان بإعادة انتخاب غونزاليس إثر النصر الذي حققه وحزبه في انتخابات ٢٢ حزيران ١٩٨٦، وانتخابات ٢٩ تشرين الأول ١٩٨٩ التشريعيتين. وأهم أحداث هذين العهدين:

- مظاهرات كانون الثاني وشباط ١٩٨٧ الطلابية التي رفعت عدة مطالب على رأسها مجانية التعليم الجامعي.
- تجديد معاهدة ١٩٥٣ الأميركية - الاسبانية لثانية أعوام أخرى، في ١٥ أيلول ١٩٨٨.
- إضراب عام في البلاد (٩٥٪ من العمال) في ١٤ كانون الأول ١٩٨٨.
- حل الكورتس (البرلمان) في الأول من أيلول ١٩٨٩، وانتخابات تشريعية في ٢٩ تشرين الأول ١٩٨٩، وفوز غونزاليس وحزبه.
- زيارة ملك المغرب، الحسن الثاني، لاسبانيا (أول زيارة رسمية) في ٢٤- ٢٨ أيلول ١٩٨٩.
- وفاة دولوريس إيباروري (لاباسيوناريا) عن ٩٤ سنة، وقد ضمّت جنازتها أكثر من ٢٠٠ ألف شخص (١٦ تشرين الثاني ١٩٨٩).

– زيارة الزعيم السوفياتي غورباتشوف لاسبانيا في ٢٦–٢٨ تشرين الأول ١٩٩٠.

– معرض إشبيلية العالمي (بمناسبة مرور ٥٠٠ عام على ابحار كولومبوس)، وقد كلّف نحو ٥,٥ مليار فرنك وزاره نحو ٢٠ مليون شخص (تشرين الأول ١٩٩١).

– استمرار العمليات العنفية (تفجيرات، اغتيالات...) للقوميين الانفصاليين، خصوصاً منظمة «إيتا» الباسكية. وأحصيت العمليات في أواخر ١٩٩١، فبلغت ٣ آلاف عملية منذ ١٩٧٤، ذهب ضحيتها ٨٠٠ شخص. وفي ١٩٩٢ و١٩٩٣، استمرّت هذه العمليات بوتائر متصاعدة.

العهد الرابع (الشهران الأولان): فاز الحزب الاشتراكي الحاكم بزعامة رئيس الوزراء، فيليبي غونزاليس، هذه المرة أيضاً (وهي المرة الرابعة على التوالي) في انتخابات ٦ حزيران ١٩٩٣ العامة. لكنه أخفق في الحصول على الغالبية المطلقة التي تسمح به بالتفرد بالحكم. ما يعني أنه سيضطر إلى التحالف مع أحد الأحزاب الصغيرة لتشكيل حكومة ائتلافية. والنسبة التي حصل عليها الحزب الاشتراكي ٣٨,٦٨٪ من أصوات الناخبين، أي ١٥٩ مقعداً في مجلس النواب (تقتضي الغالبية المطلقة ١٧٥ مقعداً). أما الحزب الشعبي المعارض (اليمين الوسط) والمحافظ بزعامة خوسيه ماريا أزنار (٤١ عاماً) الذي كان يأمل إطاحة
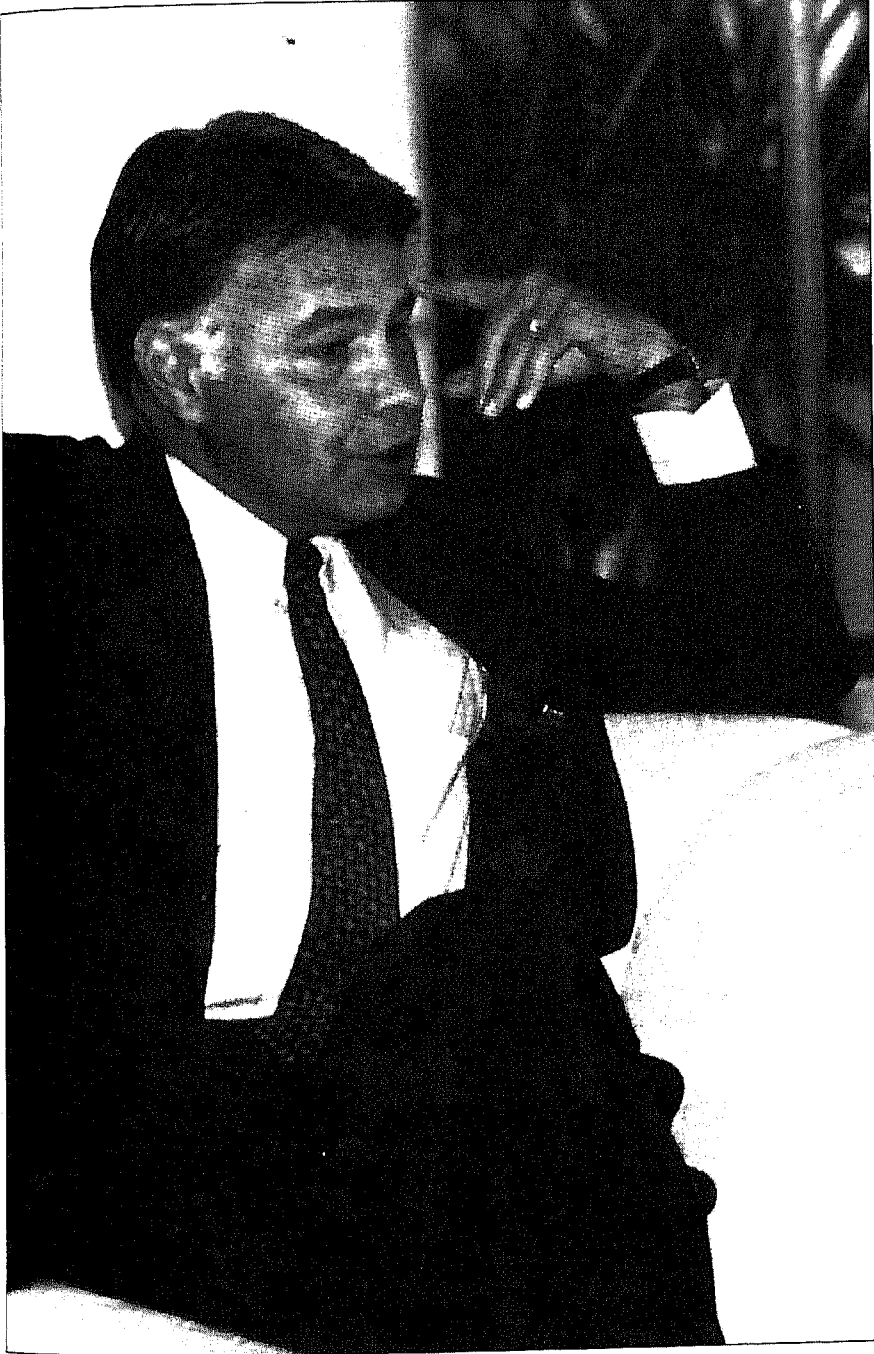
فيليبي غونزاليس عشية فوزه وحزبه للمرة الرابعة (حزيران ١٩٩٣)

الاشتراكيين في الانتخابات، فحصل على نسبة ٣٤،٨٢٪ أي ١٤١ مقعداً. وكسب بذلك عدداً من المقاعد أكبر من الذي كان له في البرلمان السابق (١٠٧ مقاعد)، وحل حزب اليسار الموحّد (الشيوعي سابقاً) بزعامة خوليو أنغويتا في المركز الثالث وحصل على ١٨ مقعداً. وانهار حزب الوسط الديمقراطي والاجتماعي الذي كان يتزعمه أدولفو سواريز، أول رئيس وزراء منتخب ديمقراطياً (١٩٧٥)، وتقلص تمثيله من ١٤ مقعداً في البرلمان السابق إلى مقعد واحد فقط. واعتبر رئيس الوزراء، غونزاليس، بأن هذه الانتخابات عكست مرحلة جديدة من عمر الديمقراطية الحديثة العهد في إسبانيا بعدما أصبح ميزان القوى أكثر توزّعاً بين الأحزاب عقب تفرد الاشتراكيين بالحكم على مدى ١١ عاماً. وأكد أنه فهم الرسالة التي وجّهها إليه الناخبون: «سنضطر إلى تعديل برنامج التغيير الذي نتبعه، وسنسعى إلى الحوار مع سائر الأحزاب لتشكيل حكومة متوازنة». وفي ١٣ تموز ١٩٩٣، أعلن تشكيل هذه الحكومة برئاسته.

وثمة ثلاثة تطورات شهدتها إسبانيا في الأسابيع القليلة التي تلت الانتخابات:

– أدى فوز الحزب الاشتراكي إلى تقوية العملة الإسبانية (بيزيتا) في مواجهة العملات الأوروبية الرئيسية في إطار النظام النقدي الأوروبي. وكانت العملة الإسبانية واجهت ضغوطاً شديدة منذ أيلول ١٩٩٢، ما أدى إلى تخفيضها ثلاث مرات.

– انفجار سيارتين مفخختين وسط العاصمة مدريد يوقع ٧ قتلى بينهم ٦ عسكريين إسبان، وإعلان منظمة الانفصاليين الباسك «إيتا» مسؤوليتها (٢٢ حزيران ١٩٩٣). واعتبر الحادث مؤشراً على نية الانفصاليين الاستمرار في مطالبهم.

– لجوء الشرطة الإسبانية (في ٢٢ تموز ١٩٩٣) إلى العنف لترحيل مواطنين مغاربة (٧٥ شخصاً) إلى بلادهم، ما أدّى بالحكومة المغربية إلى الرد بغضب على ما وصفته بلجوء الشرطة الإسبانية إلى «القوة الغاشمة». وتزامن هذا الحادث مع حوادث مماثلة شهدتها مدينة ميلانو الايطالية، كما جاء في سياق تحرّك عنصري عنفي تقوم به جماعات أوروبية ضد المهاجرين العرب والأتراك والأفارقة والمسلمين في عدد من البلدان الأوروبية.

المعارضة

إن فوز الحزب الاشتراكي الحاكم – في الانتخابات الأخيرة، ١٩٩٣– بنسبة ضئيلة تؤكد صعود نجم المعارضة وتحقيقها خطوات كبيرة نحو الحكم. والمعارضة الأساسية هي معارضة الحزب اليميني الذي أصبح اسمه «الحزب الشعبي» والذي آلت زعامته في الأخير للمحامي الشاب خوسيه ماريا أزنار. والتقدم الذي أحرزه أزنار، قبيل انتخابات ١٩٩٣، جعل الكثيرين يتوقعون له ولحزبه الفوز في هذه الانتخابات. وقد بني هذا التوقع ليس على أساس اقتناع الناخبين ببرنامج أزنار على قدر ما بني على أساس الأخطاء التي ارتكبها الحزب الاشتراكي طوال ١١ عاماً قضاها في الحكم. فقد استقال نائب رئيس الوزراء قبل ثلاثة أعوام (١٩٩٠) بعد اتهامه بالفساد لاستغلال شقيقه لموقعه الرسمي في الحصول على عمولات؛ ثم استقالة وزير الصحة (١٩٩٢) بعد كشف عمليات إثراء غير مشروع كان قد قام بها قبل توليه الوزارة وأثناء عمله كمدير عام لهيئة السكك الحديد. إضافة إلى كل هذا ما تمّ الكشف عنه حديثاً حول استغلال الحزب الاشتراكي لنفوذه والحصول على عمولات من شركات اسبانية وعالمية لتمويل خزينة الحزب بشكل غير شرعي، مقابل أن تحصل هذه الشركات على عقود حكومية في مجال الانشاءات.

إلى هذه الأخطاء هناك الأزمة الاقتصادية التي دفعت بالنشاط الإنتاجي إلى الكساد الكامل، وازدياد عدد العاطلين عن العمل، إذ وصل تعدادهم (آذار ١٩٩٣) إلى أكثر من ثلاثة ملايين، يضاف إليهم يومياً أكثر من ثلاثة آلاف نتيجة لإغلاق المصانع ونقص التمويل. وأيضاً الفضائح المالية التي أدّت إلى إغلاق شركات عالمية وإفلاس المصانع التي اشترتها في إسبانيا.

المعارضة الحادة – المشكلات الإقليمية: قبيل انتخابات حزيران ١٩٩٣ وبعيدها، وبسبب الفوز الضعيف الذي حققه الحزب الاشتراكي الحاكم، والحديث يدور حول توقع صعود نجم الأحزاب الإقليمية الصغيرة التي تكاد توجد في كل مقاطعة من مقاطعات إسبانيا الست عشرة، وأهمها حزب الاتفاق القتالوني (من قتالونيا أو كاتالونيا)، والحزب الوطني الباسكي، والحزب الأندلسي، وخصوصاً في غياب أي امكانية لقاء بين الحزبين الكبيرين: الاشتراكي والشعبي. فإمكانية وصول إسبانيا إلى فترة من عدم الاستقرار قد تدفع بالبلاد إلى أزمة تمزق مطروحة جدياً لأن أي حزب اقليمي سيبقى على موقفه ولا يشارك في تحالف حكومي مركزي ما لم يحصل على مقابل. وعلى سبيل المثال ما أعلنه زعيم الحزب الوطني الباسكي، قبل أيام من الانتخابات، ان المقابل الوحيد والمقبول للاشتراك في حكومة مركزية أو دعم هذه الحكومة في البرلمان لن يكون إلا بالاعتراف بالحكم الذاتي الكامل لإقليم الباسك.

المطالب الاستقلالية والعمليات الارهابية أكثر المشكلات التي تواجه الحكم المركزي في مدريد

والأمر نفسه بالنسبة إلى حزب الاتفاق القتالوني وإن كان أقل تمسكاً بالاستقلال من «الباسك» في المرحلة الحالية.

إن مجمل الوضع السياسي الذي عاشته إسبانيا في أجواء انتخابات ١٩٩٣، جعل العديدين يؤكدون أن الثمن الذي كان يجب أن تدفعه إسبانيا أثناء التحوّل من الديكتاتورية إلى الديمقراطية قبل ١٨ سنة، قد تدفعه في الفترة المقبلة، خصوصاً وان الوضع في بلدان أوروبية كثيرة يتجه نحو الصراع العرقي.

فمنذ نحو ثلاثين سنة والنزعة الإقليمية والعرقية، التي تصل أحياناً بمطالبها إلى حد الانفصال،

تتفاقم في بعض المناطق الإسبانية، كمناطق الباسك وقتالونيا، وبدرجة أقل، في غاليسيا ونافار. وقد حصل بعض هذه المناطق على حكمه الذاتي بموجب الدستور الصادر العام ١٩٧٧. وقد أرضى هذا الحل المعتدلين، إلا أن المتطرفين والراديكاليين ما زالوا يطالبون بالانفصال الكامل وتكوين دولة مستقلة ذات سلطة مركزية. ورأس هذه المشكلات كامن في إقليمي الباسك وقتالونيا.

تعد **قتالونيا** نحو ٤,٥ ملايين نسمة يتكلمون بأغلبهم لغتهم الخاصة. وهي تشكّل جزءًا من إسبانيا منذ أكثر من خمسمائة سنة. والشخصية الثقافية لقتالونيا عادت للظهور منذ نهاية القرن التاسع عشر، وهي تتعاطف مع فرنسا لقربها الجغرافي معها. وثمة سبب آخر لخلاف برشلونة – قاعدة قتالونيا – ومدريد، وهو السبب الكامن في شعور القتالونيين بأنهم الأكثر تضرراً في الحرب الأهلية الإسبانية، والأكثر قهراً بنتائجها التي ظهرت حتى اليوم.

أما المشكلة القومية والانفصالية الأهم التي تواجه الحكومة المركزية في مدريد فهي مشكلة مقاطعة **الباسك**. فقد قامت في هذه المناطق معارضة سياسية وعسكرية تقودها حركة قومية سرية وتنظيم مسلح (إيتا) نفذ، حتى اليوم، آلاف العمليات المسلحة. وقد تشكلت، مرة ولمدة محددة، حكومة باسكية في المنفى (على الأراضي الفرنسية) لقيادة العمليات السياسية والعسكرية الانفصالية. وإن ما يحكى عن قلة شأن المتطرفين والراديكاليين الباسك يضيع، في الحقيقة، في خضم العمليات المتكررة التي ينجحون في تحقيقها، كما وفي خضم حتى تصريحات السياسيين الباسك (من نواب وغيرهم) المعتبرين معتدلين الذين يدينون مدريد أكثر من إدانتهم منظمة «إيتا».

أما قومية سكان **النافار** فهي من نوع خاص. فخلال الحرب الأهلية، وجد فرنكو فيها مناصرين متحمسين له، وتحولت إلى قلعة للمحافظين ولنظام فرنكو. وعرف سكان النافار بدعمهم القوي مطالب جناح الملك كارلوس من أسرة بوربون في العرش الإسباني. وهذه المطالب تعود إلى أيام حرب الانفصال الإسبانية في بداية القرن الثامن عشر. وهذه المطالب كانت في أساس الاضطراب الذي عاشته النافار والذي وصل (في العام ١٩٦٨) إلى حد منع أمراء جناح الملك كارلوس من أسرة بوربون الإقامة في إسبانيا. وبعدها، وجد سكان الأرياف في النافار، المتعلقين بمطالبهم واستقلالهم، أنفسهم حلفاء كل حركات التمرد والانفصام في اسبانيا.

وبالنسبة إلى مسألة القومية في **غاليسيا**، فإنها تبدو هناك أكثر سلمية من سواها. وترتكز، أساساً، على التقاليد الثقافية المحلية التي شهدت مراحل ازدهار واسع. وتشكلت حركات مختلفة هدفت إلى اضفاء ميزة قومية وإتنية على هوية المنطقة التي يفتخر سكانها بالانتماء إليها. وتهتم الحكومات الإسبانية المتعاقبة على إخراجها من تخلفها الاقتصادي قياساً على المناطق الإسبانية الأخرى، وعلى اخراجها من عزلتها.

اسبانيا ١٩٩٣، معالم في السياسة والمجتمع

لامركزية: إسبانيا أكثر بلدان أوروبا (بما فيها ألمانيا) تطبيقاً لنظام اللامركزية. حتى الأجنبي الداخل إلى إسبانيا، تقتصر علاقته بشرطة المنطقة التي يدخل منها أو يخرج (الباسك مثلاً أو قتلونيا). في إسبانيا ١٧ مجموعة تتمتع كل منها بإدارتها الذاتية (أو حتى استقلالها الذاتي)، فلها حكومتها وهرمية كاملة من المؤسسات والإدارات المحلية. وقد قصدت الديمقراطية الحديثة العهد في إسبانيا، من خلال هذا النظام اللامركزي، إرضاء رغبات مختلف المناطق (خاصة الباسك وقتلونيا) والتوفيق بينها وبين الشعور الوطني الإسباني كما هو في الأندلس. لكن هذا النظام لا يزال عاجزاً عن تحقيق أهدافه. فمن جهة، لا تزال الأكثرية، في الباسك وقتلونيا وغاليسيا، تطالب بمزيد من الصلاحيات المحلية على حساب سلطات وصلاحيات الحكومة المركزية؛ ومن جهة ثانية، لا يزال هذا النظام المزدوج الإدارة يرهق ميزانية البلاد بنفقات هائلة؛ ففي العام ١٩٩٢، بلغت ديون مناطق الحكم الذاتي ١٠٠ مليار فرنك، وشكلت نفقاتها ٤٨٪ من الدخل القومي الإسباني.

أوروبا: شكلت أوروبا «الفردوس الموعود» بالنسبة إلى الإسبان بعد أربعين عاماً من عزلتهم السياسية عنها. لكن هذا الشعور لم يعد نفسه في الآونة الأخيرة نتيجة ما بدأ الإسبان يعرفونه ويستشعرونه من شروط اقتصادية (بعضها غير ملائم لهم) تفرضها المجموعة الأوروبية. في كانون الأول ١٩٩٢، تمنى ٦٣٪ من الإسبان الدخول في الاتحاد الأوروبي مهما كان الثمن، لكن ٤٣٪ منهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن معاهدة ماستريخت. البرلمان الإسباني صادق على المعاهدة بصورة شبه إجماعية: ٣ أصوات ضد، و ٩ غياب على مجموع ٣٢٦ صوتاً.

الفرنكوية: بعد ١٨ عاماً من وفاة «الزعيم» (كوديلّو) فرنكو، لا تزال هناك حركة مناصرة للفاشية الفرنكوية، لكنها أقلية صغيرة، تعقد تجمعات لها كل ٢٠ من تشرين الثاني (يوم وفاة فرنكو) في مدريد، تخليداً لذكرى الجنرال. وهذه الحركة لا تزال عاجزة عن إيصال ممثل لها إلى البرلمان. فعلى الرغم من الأزمة الاقتصادية، هناك ٦٧٪ من الإسبان حالياً يعلنون تأييدهم للديمقراطية، في حين ان النسبة كانت ٤٣٪ في العام ١٩٨٤. ومن الملاحظ (في أجواء انتخابات ٦ حزيران ١٩٩٣) أن الهوّة بين الأجيال آخذة في الاتساع. فنسبة المؤيدين لرئيس الوزراء، فيليبي غونزاليس (٥١ عاماً) لا تتجاوز ٨,٨٪ بين صفوف طلاب الجامعات، في حين انها تصل إلى ٣٤,٧٪ لمصلحة منافسه خوسيه ماريا أزنار (٤٠ عاماً).

الملك: في بداية عهد الديمقراطية (بعد فرنكو)، لقّب الزعيم التاريخي للحزب الشيوعي الإسباني، سنتياغو كاريلّو، الملك خوان كارلوس بـ «الملك القصير الأجل». لكن، بعد مرور ١٨ عاماً، تبيّن أن الملكية الإسبانية لا تزال قائمة، وانها عمّرت أكثر من كاريلّو. هل هذا بفضل نظام الملكية أم بفضل شخص الملك نفسه؟. لا يخفى أن الإسبان يتعلقون، عموماً، بالأشخاص أكثر من تعلقهم بالمؤسسات: تعلقوا بفرنكو أكثر من الفاشية، بغونزاليس أكثر من الاشتراكية، وبخوان كارلوس أكثر من الملكية. فلا يزال دعم الإسبان لملكهم، رمز وحدة إسبانيا، خارج أي طرح سياسي أو نقد، وإن كانت أغلبيتهم تعتقد أن الملك، الذي جاء به فرنكو، لم يظهر عن وجهه الديمقراطي إلا بعد فشل المحاولة الانقلابية في ٢٣ شباط ١٩٨١. واستمر الملك والعرش خارج موضوعات وسائل الإعلام حتى الآونة الأخيرة، حيث بدأت بعض التعليقات الصحافية تطالبه بمواقف ملكية إزاء المؤسسات والحكومة في البلاد. والأمر نفسه بالنسبة إلى العائلة المالكة التي بدأت تتعرض، في حياتها الشخصية، لملاحقة صحافيين. ويخشى الإسبان أن يبدأ قصر «زارزويلّا» (القصر الملكي الإسباني) يعيش حالة مشابهة لحالة قصر «وندسور» البريطاني.

الكنيسة: لم تعد إسبانيا البلد الكاثوليكي الذي كان يُلبس فرنكو طيلسان الأساقفة في كل مرة يدخل فيها إلى الكنيسة، مثله مثل البابا. في ١٩٩١، صرّح ٤٩٪ من الإسبان أنهم مؤمنون وممارسون، في حين ان هؤلاء كانوا ٨٧٪ في ١٩٧٠. وباتت الكنيسة تبذل جهوداً كبيرة لإقامة احتفالات المناولة الأولى للأولاد في شهر أيار، كما جرت العادة. وأصوات كثيرة من داخلها أخذت تطالب الفاتيكان والمراجع الكاثوليكية العليا في البلاد بالتجدد، وإلا فالموت.

بيزيتا: في ١٣ أيار ١٩٩٣، وبعد ساعتين فقط من إعلان رئيس الوزراء فيليبي غونزاليس انه لم يعد هناك من تراجع في قيمة العملة الإسبانية (بيزيتا)، نقلت وسائل الاعلام ان البيزيتا تراجعت قيمته للمرة الثالثة منذ أيلول ١٩٩٢. وفي اليوم نفسه، أشارت إحصائيات ان ٢٥٠,٠٠٠ شخص من العاملين أضيفوا إلى قائمة

مصارعة الثيران: رياضة أصلية.

من الفروسية ان يذبح الديوك وهي معلقة

«... السنوات الثماني عشرة التي اعقبت انتهاء حكم فرنكو شهدت ردة مستغربة الى طقوس يعود معظمها الى القرون الوسطى... إن ٨٠ طقساً ورياضة في طول البلاد وعرضها تتعرض بالتعذيب للحيوانات. «هذا عارنا» يقول رئيس جمعية الرفق بالحيوانات في برشلونة... اللافت في الظاهرة ان اسبانيا وحدها بين الدول الاوروبية، وبسبب إصرارها على مصارعة الثيران كرياضة تقليدية، ما زالت ترفض التوقيع على معاهدة اعتبار إيذاء الحيوانات جريمة. ففي ذلك التوقيع رصاصة الرحمة على مصارعة الثيران أو «الكوريدا» وهي مصدر رزق وفخار وطنيين متأصلين في الروح الاسبانية... يرد علماء الاحتماع ظاهرة عدم الاكتراث بتعذيب الحيوانات الى العزلة التاريخية التي عاشها الريف الاسباني..» (من جاد الحاج، «الحياة»، عدد ٢٣ ايلول ١٩٩٣، ص ١٩).

العاطلين عن العمل خلال ثلاثة أشهر فقط، وهو رقم يعادل ضعف الرقم بالنسبة إلى مشكلة البطالة في فرنسا. أضِف إلى ذلك حديث الفساد الذي عاد يطفو على السطح بعد انقضاء عام على عيدين وطنيين شدّا انتباه الإسبان عن كل ما عداهما: معرض اشْبيلية (حيث أبحر كولومبوس قبل ٥٠٠ عام)، والألعاب الرياضية الأولمبية في برشلونة.

الثروة: زادت ثروة الإسبان، بين ١٩٨٠ و١٩٩٢، نسبة ٤٠٪. وهذه الثروة، بعكس ما وعد به الحكم الاشتراكي، لم توزّع بصورة عادلة. فهناك نحو ٢٠٪ من البيوت الثرية جداً تستفيد من نحو نصف الثروة القومية. وبالمقابل، هناك ٢٠٪ من الأفقر بين الإسبان يتلقون ٧٪ من الدخل القومي، ويجدون أنفسهم عند حد، أو تحت حد المستوى الأدنى للمعيشة. ومركز الثقل الاقتصادي في البلاد ينتقل إلى شرق البلاد (مناطق مشمسة ومزدهرة سياحياً) على حساب الشمال (صناعة حديدية، فحم حجري...). وقد رافق نمو العائدات جنون استهلاكي وانفجار الديون. لدى الإسبان قول مأثور: «لا نعيش إلا مرة واحدة».

البطالة: انها وسواس الإسبان في الوقت الحاضر: ٧٣٪ منهم يعتبرونها المشكلة الأخطر. تشير الاحصائيات إلى ٣ ملايين عاطل عن العمل، والرقم يتزايد، ومعدّل البطالة ٢١,٧٪ من مجموع العاملين، وهو أعلى معدل في المجموعة الأوروبية. احتمالات المستقبل غير مشجعة. فليس ما يشير إلى نمو قد تنجح البلاد في تحقيقه العام ١٩٩٤، في حين خسر البيزيتا ٢٢٪ من قيمته من الخريف الماضي (خريف ١٩٩٢) حتى اليوم (آخر أيار ١٩٩٣)، وبلغت نسبة التضخم ٦,٣٪. وتسجل إسبانيا أعلى عجز بين الدول جميعها بعد الولايات المتحدة الأميركية. والمعيشة في مدريد أغلى من باريس، أو لندن، أو روما، في حين أن الحد الأدنى للأجور لا يتجاوز ٢٧٠٠ فرنك في الشهر. والبطالة تضرب خاصة الشباب حيث ٥٨٪ من العاملين بينهم إنما يعملون بموجب عقود عمل مؤقتة. وكثيرون يستمرون في السكن مع أهلهم حتى سن الثلاثين، أو يزيد.

مهاجرون: منذ بعض الوقت، أخذت مراكب تقلّ أفارقة ومراكشيين تجتاز جبل طارق قاصدةً «الأرض الموعودة» (إسبانيا). لم يعتد الإسبان على رؤية غرباء في شوارعهم. وهناك، اليوم، نحو ٧٠٠ ألف مهاجر يعيشون في إسبانيا، منهم ٣٠٠ ألف بصورة غير شرعية. هناك ٥٪ من الإسبان يعلنون عداءهم لوجود الأجانب بينهم، و٥٨٪ يرحّبون بالاندماج. ويبقى الغجر المجموعة الاجتماعية الأكثر لفظاً من الإسبان، يليهم المدمنون على المخدّرات.

مخدرات: ٨١٧ ماتوا بسببها في العام ١٩٩١ (مقابل ٤٠٠ في فرنسا في العام نفسه)، و١٠٠,٠٠٠ مدمن ينفقون ما معدله ١٠٠ مليون فرنك فرنسي في اليوم على المخدرات. وهذه الأرقام تجعل من مشكلة الإدمان عليها المشكلة الثانية من حيث الأهمية لدى الإسبان. وقرار التخفيف من عقوبة استهلاك هذه المواد المتخذ عام ١٩٨٣ هو اليوم موضوع نقاش وجدال. وهناك ٦٢٪ من الشباب يطالبون بالعودة عن هذا القرار وفرض عقوبة مناسبة على كل متعاطٍ للمخدرات. منذ تشرين الأول ١٩٩١، منعت بلدية مدريد تعاطي هذه المواد في الأماكن العامة تحت طائلة غرامة تتراوح بين ٥٠٠ و١٠٠,٠٠٠ فرنك.

قمار: الإسبان مقامرون. في إسبانيا أكثر من ٦٠٠ بينغو، وحوالي ٣٧٠,٠٠٠ جاكبوتس، وعدد كبير جداً من الآلات الأخرى المشابهة، إضافة إلى اللوتو (ستة سحوبات أسبوعياً). بلغ ما أنفقه الإسبان على هذه الألعاب ٥٠ مليار فرنك في ١٩٩١. معدل استهلاك اللاعب الواحد في السنة ١٧,٠٠٠ فرنك.

القراءة: إسبانيا نموذجية في تناقضها في هذا المجال. فهي، من ناحية، تتمتع بأحد أعلى معدّل في أوروبا من حيث التعلّم المدرسي، وفيها ٦٪ فقط أميون وأكثرهم من الذين تخطوا عمر الستين سنة. وهي، من ناحية ثانية، تكاد لا تتخطى المعيار الذي وضعته الأونسكو لقراءة الجرائد في البلدان النامية (١٠٠ جريدة لمائة ألف شخص). أكثر من ٤٠٪ من الإسبان البالغين ١٨ سنة وما فوق لا يفتحون أبداً كتاباً للقراءة. لكنهم يداومون (مثلهم مثل الفرنسيين) على الذهاب إلى الحفلات الموسيقية والمسارح والمتاحف.

مدن ومعالم

* **آبلا Avila**: مدينة إسبانية. قاعدة مقاطعة آبلا في قشتالة القديمة. نحو ٣٥,٠٠٠ن. شهيرة بآثار القرون الوسطى ولا سيّما أسوارها وكاتدرائياتها. مسقط رأس القديسة تريزيا الآفيلية، والقديس جان دهلاكروا.

قلعة آبلا

والمدينة مشهورة بأسوارها القديمة (معظمها يعود إلى القرن ١١) التي لا تزال تتحدى الزمن.

* **أبّدة Ubeda**: مدينة في منطقة جيّان (إسبانيا) نحو ٣٠,٠٠٠ن. دخلت في حوزة العرب بعد فتح الأندلس. استرجعها الإسبان منهم ١٢٣٤.

* **أراغون Aragon**: منطقة في شمال شرقي اسبانيا عاصمتها سرقسطة. بقيت مملكة مستقلة إلى ١٤٦٩ حين تزوج ملكها فردينان بإيزابيلا وارثة قشتالة فاتحدت الدولتان ونشأت مملكة إسبانيا. وبعد موت فرديناند هذا وانقضاء ولاية ابنته حنة المجنونة (أرملة فيليب الجميل)، ارتقى العرش حفيده شارل الخامس أو شارلكان وأعلن ملك اسبانيا تحت اسم شارل الأول ملك الإسبان (١٥١٦).

* **أرجذونة: Archidona**: مدينة بإقليم ملقة (إسبانيا)، نحو ١١,٥٠٠ن. كانت قديماً مدينة حصينة على حدود مملكة غرناطة. احتلها العرب ٧١١ وسقطت في يد سيد «قلعة رباح» ١٤٣١.

* **أرمادا Armada**: هو الأسطول الذي أرسله ملك إسبانيا فيليب ٢ لغزو انكلترا فأغرقته العواصف ١٥٨٨. ومهمة أرمادا كانت لمعاقبة الملكة اليزابت لإعدامها ماري ستيورات وإعادة الكثلكة إلى انكلترا. ولم تنج من هذا الأسطول إلا ٣٦ قطعة (من أصل ١٣٠ قطعة بحرية) تمكنت من العودة إلى إسبانيا. وقد أنهت هذه الكارثة التفوق البحري لدى إسبانيا.

* **إستجة Ecija**: قاعدة إقليم إشبيلية الغربي في إسبانيا. نحو ٥٥,٠٠ن. يتعاطى سكانها تربية الثيران للصراع.

* **اسكوريال Escorial**: بلدة في إسبانيا قرب مدريد. بنى فيها فيليب ٢ قصراً وديراً ١٥٦٣– ١٥٨٤ أصبحا مدفن ملوك إسبانيا. وفيه مكتبة غنية تحوي عدداً من المخطوطات العربية.

قصر ملكي من الزمن العربي في اشبيلية

* **اشبيلية Sevilla**: مدينة في الأندلس (اسبانيا). نحو ٧٠٠,٠٠٠ن. شهيرة بقصرها. فتحها العرب ٧١٢ وانتزعها منهم فرديناند ٣ سنة ١٢٤٨. صناعة نسيج. بها يكنّى يوحنا الإشبيلي: يهودي متنصر عاش في طليطلة الأندلس (ت ١١٥٣)، ترجم من العربية إلى اللاتينية كتباً في الحساب والفلك والتنجيم والطب والفلسفة. ويكفي ذكر أشبيلية لمحترفي الأدب والموسيق حتى يتبادل إلى ذهنهم دون كيشوت، كارمن، دون جوان، فيغارو... ومنذ الفتح العربي، كانت اشبيلية مركزاً تجارياً مزدهراً حتى ان مؤرّخاً عربياً قال: «إذا طلبت حليب العصفور في أشبيلية فإنك لواجده». واستمرت، بعد استرجاعها (١٢٤٨) تنمو بوتيرة مطردة، خصوصاً على اثر اكتشاف العالم الجديد ١٤٩٢ حيث استقطبت الحركة التجارية مع المستعمرات. واستمرت على هذه الحال حتى القرن الثامن عشر عندما بدأت قادس تنافسها هذا الموقع. وتأتي كاتدرائيتها مباشرة، من حيث الأهمية، بعد القديس بطرس في روما، والقديس بولس في لندن، وهي تضم رفات كريستوف كولومبس.

والمؤكد أن مدينة اشبيلية بلغت قمة مجدها على عهد الملك الشاعر المعتمد بن عباد الذي أقام فيها الحدائق والقصور التي تقع اليوم إلى جنوب مئذنة الخيرالدا الشهيرة، والتي يطلق عليها اسم «ريباليس الكاثاريس» أي القصور الملكية. وقد أقام أبناء اشبيلية المعاصرون «عمود» مرمري في حدائق القصر الملكي لإحياء ذكراه المئوية التاسعة كتبوا عليه باللغة الإسبانية: «من مدينة إشبيلية إلى مليكها المعتمد بن عباد في ذكراه المئوية التاسعة – ٧ سبتمبر ١٠٩١– التوقيع: اشبيلية ١٩٩١».

* **ألبسيط Albacete**: مدينة في إسبانيا جنوب شرقي قشتالة. مركز زراعي وكرسي أسقفي. ذكرها ابن الأبار. اشتهرت بالمعركة التي دارت بين المستنصر الهودي ونبلاء ألفونس السابع ١١٤٦.

* **ألبشارات Alpujaras**: بلاد جبلية شرقي الأندلس. فيها أودية خصيبة. اتصف سكّانها بالميل إلى التمرد والقتال. أخضعهم دون خوان النمسوي ١٧٥٠.

* **إلبيرة Elvira**: بلاد إسبانيا الجنوبية التي أصبحت إقليم غرناطة بعد الفتح العربي. ومدينة إلبيرة أو قشتالة قرب غرناطة هي قاعدة هذا الإقليم. سكنها عرب الشام. ازدهرت ثم خربت بالحروب الأهلية.

* **ألمرية Almeria**: مرفأ في إسبانيا (الأندلس) على البحر المتوسط. قاعدة إقليم ألمرية نحو ١٠٠,٠٠٠ن. قديماً من مدن مملكة غرناطة. عظم شأنها على أيام عبد الرحمن ١. احتلها فريديناند الخامس الأرغوني ١٤٨٩. مركز صناعي.

* **الأندلس Andalucia (Andalousie)**: إسم عرف به جنوب إسبانيا بعد أن احتلها الفاندال فأخذ عنهم اسمه: واندالوسيا. ثم أطلقه العرب على شبه جزيرة ايبيريا عامة بعد أن دخلوها. استقلت الأندلس عن العباسيين وكوّنت إمارة قرطبة في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الأول ٧٥٢. تلاشت الإمارة فعقبها دويلات حكمها ملوك الطوائف ١٠٣١ ومن بعدهم «المرابطون» ثم «الموحدون». هزمهم الإسبان في وقعة العقاب ١٢١٢. وبعد ذلك انحصر سلطان العرب في مملكة غرناطة (١٢٣٦– ١٤٩٢) فعرفت بالأندلس في المعنى المحصور. والأندلس اليوم ولاية في إسبانيا الجنوبية تتألف من ثمانية أقضية. فيها جبال سييرا نيفادا. منطقة زراعية.

في عودة إلى التاريخ: عرفت الأندلس، منذ الألف

الجيرالدا مئذنة وعمارة إسلامية من القرن الثاني عشر: برج أشبيلية، ارتفاعه ٩٧ متراً

شوارع ضيقة لا تختلف عن شوارع المدن التاريخية في المغرب العربي

الحادي عشر، أقدم الحضارات البشرية. أقام الفينيقيون مراكز تجارة وتبادل للبضائع على شواطئها (برطلس، أو ألميرا اليوم؛ وغادس، أو قادس اليوم). ثم تمكن القرطاجيون من الحلول مكانهم هناك جاعلين منها أغنى مقاطعة في امبراطوريتهم (من القرن السادس ق.م. إلى القرن الثاني ق.م.). وبعدهم أصبحت أكثر المستعمرات الرومانية ازدهاراً. وفي القرن الخامس، غزاها الفاندال فعرفت إلى اليوم باسمهم. وفي ٧١١، نزل الفاتح العربي طارق قرب الجبل الذي يحمل اسمه، ومن هناك بدأ بطرد الفاندال، وبدأ معه العهد العربي على الأندلس الذي عرف ذروته طيلة مدة الخلافة هناك (القرن الثامن — القرن العاشر). وعلى أثر سقوط الخليفة (القرن الحادي عشر)، تجزأت الأندلس بين عدد من ممالك المرابطين، منها مملكة غرناطة التي عرفت، طيلة قرنين، حضارة زاهية. وعلى أثر هزيمة لاس نفاس (١٢١٢)، أخذ الحكم العربي في التقهقر، وصمدت غرناطة وحدها لأكثر من قرنين من الزمن، حتى سقطت في ١٤٩٢. بعد ذلك، انضمت الأندلس إلى المملكة الإسبانية.

ويلاحظ، في أيامنا الحالية، اهتمام كبير يبديه الإسبان بالكشف عن التراث العربي والإقبال على تدريسه، ونشر الأبحاث والمجلات والكتب عنه. ومن دوافع هذا الإهتمام، إضافة إلى الدوافع التاريخية والعلمية، زوال رواسب التعصب العرقي والديني الذي صاحب فترات طويلة إبان الحكم العربي في الأندلس وبلغ ذروته في القرن الخامس عشر. ولا ريب في أن البعد الزمني قد أثر في توضيح الرؤيا لذلك الماضي الحضاري المشترك. فأخذ الإسبان يعترفون بالآثار والبصمات العربية المترسخة في تقاليدهم، ولغتهم، وفنونهم بكثير من الموضوعية والاعتزاز. فإن من يزور المكتبات الإسبانية في سائر أنحاء اسبانيا، لا في الأندلس فحسب، يدهش لوفرة الكتب المنشورة، المخصصة لتأريخ الحضارة العربية فيها، فهي تشمل سائر العلوم والفنون، بأقلام مؤرخين معاصرين وأساتذة جامعيين، وكتّاب وموسيقيين وشعراء. وعلى سبيل المثال، أحاط هنري فيرنه، في كتاب وضعه حديثاً، بكل ما قدمه العرب من خدمات جلى للغرب إبان وجودهم الطويل المستمر في الأندلس. فتحدث عن تفوقهم في العلوم كالفلك والطب والجغرافيا والجبر والري والزراعة والفلسفة، وفي الفنون كالهندسة والزخرفة والشعر والموسيقى والأدب. مما حدا به إلى القول بأن غزوهم لإسبانيا «كان غزواً ثقافياً وفنياً مذهلاً بسرعته واتساعه»، وانه ما يزال يدهش المؤرخين، إذ لم يسبق له مثيل في التاريخ. وفي كتاب اللغوي المعاصر، رافائيل لابيسا، المنشور ١٩٦٢، بعنوان «تاريخ اللغة الإسبانية»: «تأتي أهمية العنصر العربي في اللغة الإسبانية، بالدرجة الثانية بعد العنصر اللاتيني، ويوجد في لغتنا اليوم ما ينوف على أربعة آلاف كلمة عربية، ما عدا التعابير الدارجة على ألسنة الأندلسيين المأخوذة منها، فقد تبناها الناس وتوارثوها جيلاً بعد الجيل، بدافع تفاعل حضارة العرب في أرضهم قديماً، وتأثرهم بأسلوب حياتهم وتفكيرهم، إلى جانب تأثرهم بلغتهم» (راجع: «حضارة العرب المسلمين في الأندلس» بعد صفحات من هنا).

• **إيبيريا Ibéria**: إسم أطلق على شبه جزيرة إسبانيا والبرتغال. ومنها سلسلة الجبال الإيبيرية في شمال اسبانيا. و«الايبيريون» هم شعب كان يقطن في شبه جزيرة إيبيريا واستوطن حيناً بلاد الغال وسواحل ايطاليا الشمالية. خضعوا للفرس، ثم للاسكندر الكبير، ونعموا في بعض الفترات، قبل المسيح وبعده، بالاستقلال. في القرن السابع خضعوا للعرب. يختلف المؤرخون في اصل الإيبيريين والمكان الذي قدموا منه. ويعتقد بعضهم ان الباسك الحاليين يعودون بأصلهم إلى الايبيريين.

• **بارادورات إسبانيا**: قصور وقلاع تاريخية رمِّمت وعدّلت لتصبح من أعرق الفنادق في العالم. عددها ٨٤ بارادوراً؛ وزيارتها، من بارادور «كونديس دي فيليالبا» في غاليسيا إلى بارادور «ميليليا» على الساحل الافريقي الشمالي، هي من أفضل الطرق التي يتعرف بها الدارس والسائح إلى تاريخ إسبانيا وتراثها الهندسي. وإسم «بارادور» إسم عتيق كان يطلق على أماكن الاستراحة.

وصاحب فكرة إنشاء هذه الفنادق (بتحويل القصور والقلاع) التي تديرها الحكومة هو الماركيز دي لافيغا أنكلان، المفوض السياحي في المملكة عام ١٩٢٦. وهو قدّم اقتراحه إلى الملك ألفونسو الثالث عشر فأعجب به، وتمّ افتتاح أول بارادور (البارادور الوطني) في غريدوس رسمياً بعد ذلك بسنتين. وكرّت بعد ذلك سبحة تحويل القصور والقلاع إلى بارادورات.

يعطي الإسبان هذه البارادورات أهمية بالغة من حيث أنها عبارة عن شبكة تحفظ أعداداً كبيرة من التذكارات التاريخية وتساعد «في خلق شعور عميق بالوحدة الوطنية. والبارادورات هي واجهة أمتنا بالنسبة إلى العالم الخارجي وإلى المواطنين. إنها ببساطة كنز وطني أعظم من أن نهمله»، على حد تعبير أحد الإداريين السياحيين الإسبان في ١٩٨١.

نماذج من البارادورات الاربعة والثمانين في اسبانيا والتي كانت حصوناً وقصوراً قبل تحويلها الى فنادق ومنتجعات سياحية

* **الباسك**: بلاد، أو منطقة جغرافية تمتد على جبال البيرينه الغربية، ومنها ما هو في إسبانيا ويشكل مقاطعة الباسك والنافار، ومنها ما هو في فرنسا حيث مقاطعة البيرينه الأطلسية. وبلاد الباسك المجزأة اليوم بين إسبانيا وفرنسا تأخذ اسمها من المجموعة البشرية التاريخية (الباسك) التي تشكل جزءًا من سكانها في الوقت الحاضر. تمتد بلاد الباسك (بما فيها النافار الإسبانية) على مساحة ٢٠,٠٠٠كلم٢. ونحو ثلث سكانها يتكلمون الباسكية، أي هناك نحو مليون باسكي اليوم (٨٠٠,٠٠٠ في المنطقة الإسبانية، و٢٠٠,٠٠٠ في المنطقة الفرنسية) إضافة إلى عدة آلاف منهم من المهاجرين إلى مختلف بقاع العالم.

لا يزال أصل الباسك مجهولاً. وثمة اعتقاد أن لغتهم ترقى إلى زمن سابق على الغزوات الهندو اوروبية الى مناطق اوروبا الغربية، وانها تعود الى منطقة القوقاز. حققوا نصراً على جيوش شارلمان ٧٧٨ في روسنغو، وأقاموا مملكة النافار ابتداء من القرن العاشر. وبدأوا بالتفكك في القرن الحادي عشر. وبعد منازعات وحروب أوروبية طويلة وسيطرة انكليزية على المنطقة لمدة ثلاثة قرون، تقاسمت فرنسا وإسبانيا بلاد الباسك حتى قبل معاهدة البيرينه التي رسمت الحدود بين البلدين (١٦٥٩). سياسة مدريد المركزية كانت تقمع بقوة كل انتفاضة للباسك في سبيل استقلالهم الذاتي. في القرن التاسع عشر ونتيجة لانتفاضاتهم الفاشلة وحرمانهم من بعض الامتيازات التي نعموا بها فترة، بدأوا بالهجرة إلى الخارج خصوصاً إلى أميركا اللاتينية. إبان أحداث الثلاثينات في إسبانيا (حرب أهلية)، تأججت القومية الباسكية من جديد، لكن الباسك انقسموا في ما بينهم بين مؤيد لفرنكو ومعارض له ومناصر للجمهورية. واليوم، لا تزال مقاطعات الباسك مواقع لمعارضة النظام السياسي في مدريد، المعارضة التي تعبّر عن نفسها أحياناً بتنظيمات قومية وسياسية وعسكرية سرية أعلن بعضها مراراً عن حوادث اغتيال طالت شخصيات إسبانية، وأحياناً عن معارك قصيرة نشبت بين «الانفصاليين» الباسك وبين قوات الجيش الإسباني. وأشهر المنظمات الباسكية الاستقلالية منظمة إيتا (.E.T.A).

* **بالس** Palos: قرية في إسبانيا الجنوبية الغربية عند مصب نهر تينتو. منها أبحر كولومبوس لاكتشاف أميركا ١٤٩٢.

* **باليار** Baléares: أرخبيل إسباني غربي بحر المتوسط. نحو نصف مليون نسمة. مساحة ٥٠١٤ كلم٢. عاصمته بالما الواقعة في جزيرة مجورقة وهي من أهم جزر

مرفأ بالما، عاصمة جزر الباليار، على الساحل الجنوبي من جزيرة مجورقة

الأرخبيل إضافة إلى جزيرة مينورقة وايبيزا (لتحديد موقع الارخبيل راجع الخريطة).

يعيش سكان الأرخبيل على الزراعة (فاكهة، خضار). السياحة هي القطاع الاقتصادي الأهم بسبب طيب المناخ وأهمية الموقع. هذه الجزر مأهولة منذ الزمن الغابر. تعاقب الفينيقيون، والقرطاجيون، والرومان، والفاندال على السيطرة عليها. وبدءًا من القرن الثامن إلى بداية القرن الثالث عشر، خضعت للعرب في ما عدا فترات كانت السيطرة فيها للفرنجة ولأهالي البندقية. غزاها جاك أراغون الأول (١٢٢٩) وأسّس فيها مملكة مجورقة، ثم انضمت إلى الأراغون، وبعدها إلى إسبانيا. اعتاد السكان على رد هجمات البربر إلى أن تمت سيطرة الفرنسيين على مدينة الجزائر في ١٨٣٠.

في ٧٠٨م. أرسى عبد الله بن موسى بن نضير سفنه في مرافئها ووصل إلى برّها وفتح مدنها. وما إن دخل العرب هذه الجزر حتى أطلقوا عليها إسم «الجزائر الشرقية» و«جزائر شرق الأندلس» لأنها تقع إلى الشرق من الأندلس، وأخذوا بتعريب الأسماء اللاتينية فيها. وتوقف معظم الباحثين العرب القدماء عند جمال هذه الجزر وذكروا خيراتها ووصفوا عمرانها. من الآثار العربية المتبقية: حصن يطلق الإسبان عليه اليوم «قلعة الملك» وفيها دير للراهبات ومتحف صغير فيه الكثير من الآثار الإسلامية والعربية مصنوعة من الفخاريات. ومن الآثار المعمارية في جزيرة مجورقة «حمام عربي» يقع في زقاق سرّا وما يزال شاخصاً إلى اليوم وهو من الآثار القليلة الباقية من حملة التخريب التي تعرّضت لها الأبنية العربية منذ استرجاع مدينة مجورقة سنة ١٢٢٩م. إضافة إلى بقايا الحصون العربية القديمة الماثلة حتى اليوم في قلعة «كاب دوبر» و«برج عرطة» في شمال الجزيرة، ناهيك عن أن أسس كنيسة سانتا ماريا في ماهون العاصمة الحالية لجزيرة مجورقة هي الأساس القديم لأحد جوامع المدينة؛ وكنيسة سان فرنسيس الأسيزي (ذات الطابع الأندلسي) كانت المسجد الجامع لمدينة مجورقة. وفي بلدة سان خوان (في جزيرة مجورقة) عثر، في ١٩٧٥، على لوحة صغيرة من البرونز نقشت عليها حروفية عربية تمثل دعاءً إسلامياً؛ هذا إضافة إلى الأواني الزجاجية والفخارية، والخزفية المتنوعة... والجدير ذكره أن معظم الألفاظ والمصطلحات الإسبانية، التي تستعمل للدلالة على القطع الخزفية والفخارية هي من أصل عربي كما يذكر روسليو بوردي في دراسته التي نشرها حول «الخزف العربي في مجورقة» وصدرت في مجلة «مجورقة» سنة ١٩٧٥.

* **بداخس** Badajoz: إقليم في إسبانيا الغربية. قاعدته بداخس على نهر يانا. نحو ١٢٠,٠٠٠ن. كانت قاعدة بين الأفطس ١٠٢٢–١٠٩٤. دعاها العرب بطليوس.

كنيسة «العائلة المقدسة» في برشلونة
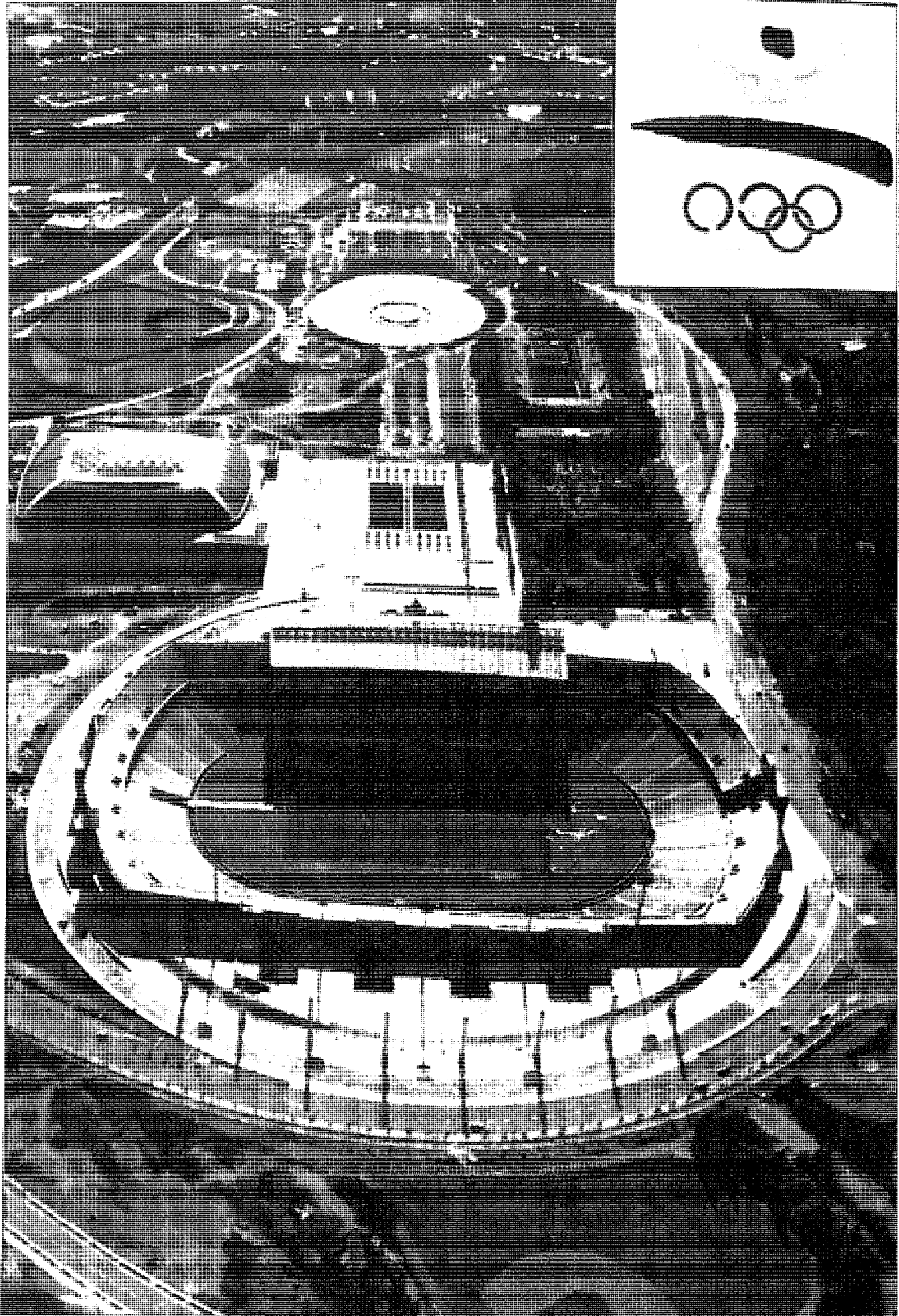
على هذه الملاعب احتضنت برشلونة اكبر دورة اولمبية في التاريخ (١٩٩٢). وفي اطار اعلى الصورة شعار الدورة.

* **برشلونة** Barcelona: مرفأ في شمال شرقي إسبانيا على المتوسط. نحو مليوني نسمة. قاعدة إقليم قتالونية. مركز صناعي. فتحها العرب ٧١٢ في عهد موسى بن نصير ثم استعادها منهم الإسبان ١١٣٧. تعود المدينة باسمها إلى القرطاجيين الذين دعوها (٢٣٧ق.م.) «برشينو» إكراماً لعائلة قائدهم هملقار. وبعدهم خضعت للسيطرة الرومانية. ثم للعرب بحسب ما تقدّم حتى انتقلت إلى يد شارلمان في ٨٠١. ومنذ أواخر القرن التاسع استقل بها أمراؤها حتى تاريخ اتحادها بالأراغون ١١٣٧. وابتداءً من ١٤٧٤ أخذت برشلونة (كقاعدة لقتلونية) تفقد بريقها لمصلحة مدريد، ما جعل مشاعر القتلونيين تتأجج بالود ناحية الفرنسيين وعائلتهم المالكة «بوربون»، فانضموا إلى لويس الثالث عشر ١٦٤٠، وارتضوا حاكماً عليهم بصفة نائب الملك الفرنسي. ومع ذلك، عادت قتلونية وقاعدتها برشلونة إلى إسبانيا بموجب معاهدة البيرينه (١٦٥٩). احتفت لقدوم الفرنسيين في ١٦٨٧، وخضعت للانكليز في ١٧٠٥ .أعاد الفرنسيون سيطرتهم عليها في ١٧١٤، وكذلك بين ١٨٠٨ و ١٨١٤ في أيام نابوليون الأول. إبان الحرب الأهلية في إسبانيا (١٩٣٧-١٩٣٩)، قاومت القوميين الوطنيين بزعامة فرنكو حتى استسلمت في ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٩.

تعتبر برشلونة منارة للثقافة الإسبانية. ففيها تتركز أهم دور النشر في العالم الناطق باللغة الاسبانية، اضافة الى اصداراتها باللغة القتلونية. وتتمتع بشهرة عالمية في مجال إقامة المهرجانات والمؤتمرات الثقافية والعلمية، حيث يوجد بها أهم قصر للمؤتمرات. وقدّمت للثقافة العالمية العديد من الأسماء الشهيرة في عالم الفن والثقافة، فهي مسقط رأس الفنان العالمي سلفادور دالي والفنان المتوسطي الأول خوان ميرو والمعاصر أنطونيو تابيس، وهي أيضاً مسقط رأس أعظم فناني المعار في هذا القرن أنطوني غاودي الذي اقترنت برشلونة باسمه. وفي ١٩٩٢، جرت فيها دورة الألعاب الأولمبية التي اعتبرت أكبر دورة أولمبية في التاريخ.

* **بلنسية** Valencia: مدينة في شرق إسبانيا. نحو ٦٢٥,٠٠٠ن. مرفأ على مصب الوادي الكبير. مركز صناعي وتجاري. بعد فتح طارق بقيت بيد العرب ٧١٤-١٠٥٨ وأصبحت من عواصم الحضارة الإسلامية ثم حكمها ملوك قشتالة إلى أن استردّها الملثمون وأخيراً استولى عليها خيمه الأول ملك أراغون ١٢٣٨. وبلنسية واقعة على خليج بلنسية الممتد بين برشلونة في الشمال وراس ناو في الجنوب.

* **بنبلونه** Pamplona: مدينة في شمال إسبانيا. نحو ١٤٠,٠٠٠ن. غزاها العرب ٧٣٨.

* **بورغوس** Burgos: مدينة في شمال إسبانيا. نحو ٨٩,٠٠٠ن. شهيرة بكاتدرائيتها وهي من تحف الفن الغوطي. مركز صناعي وتجاري.

* **تراقونة** Tarragonâ: مرفأ في شمال شرقي إسبانيا على المتوسط. نحو ٥٥,٠٠٠ن. فتحه العرب ٧٢٤ واستردّه الإسبان ١٢٢٠.

* **تطيلة** Tudela: بلدة في الأندلس شمال غربي سرّقسطة. نحو ١٦,٠٠٠ن. اتخذها عبد الرحمن الثالث قاعدة سير منها حملة على شمال الأندلس ٩٢١. ومنها بنيامين التطيلي، رحالة يهودي رحل من سرّقسطة ١١٦٥ فزار جنوب فرنسا وايطاليا واليونان والأرخبيل وقبرص وسوريا وفلسطين وما بين النهرين وفارس وبلاد العرب ومصر ثم عاد إلى سرّقسطة وفيها توفي ١١٧٣. كتب أخبار رحلته.

* **الجزيرة**: مدينتان في إسبانيا: الجزيرة أو جزيرة سكّر (Alcira): في الشرق. نحو ٢٩,٠٠٠ن. أخذها دون خيمه الأرغوني ١٢٤٢ وهجرها العرب ١٦٠٩. والجزيرة الخضراء (Algésiras): على مضيق جبل طارق. نحو ٨٥,٠٠٠ن. أول مدينة أندلسية استولى عليها العرب ٧١٠ .أخذها ألفونس الحادي عشر صاحب قشتالة ١٣٤٢. عقدت فيها الدول الأوروبية مؤتمر بشأن المغرب.

* **جنة العريف**: قصر في غرناطة قرب حمراء غرناطة (الأندلس).

* **جيليقية أو (غاليسيا)** Galicia: منطقة في شمال إسبانيا، على الأطلسي. تكسوها الغابات والمستنقعات. نحو ٢٠٠,٠٠٠ن. أهلها الجلالقة. مركزها سانتياغو ده كومبوستيل. زراعة، تربية ماشية، صيد سمك.

* **الحمة** Alhama: موضع جنوب غربي غرناطة. احتله فرديناند صاحب أرغون ١٤٨٢. خرّبته الزلازل ١٨٨٤.

* **الحمراء** Alhamra: بلاط أمراء بني الأحمر

في غرناطة، يعرف بهذا الإسم لأن حجارته حمراء. بناه محمد بن الأحمر في القرن الثالث عشر ثم وسّعه وزيّنه خلفاؤه. يعتبر بلاط الأسود والقاعات الملاصقة من آيات الفن الإسلامي في الأندلس. خرّب شارلكان جناحاً منه.

• **الحزامة** Alhucemas: جزيرة إسبانية صغيرة تجاه الريف في المغرب. غزاها النورمان ٨٥٩ واحتلها سلطان قرطبة ٩٧٣.

• **دانية**: قصبة الناحية الشمالية من كورة القَنت الإسبانية. ازدهرت تحت الحكم العربي بعد فتح الأندلس على يد طارق بن زياد ٧١٣ .أعادها فيليب الثالث إلى الإسبان ١٦١٠.

• **رندة** Runda: مدينة في إسبانيا الجنوبية. نحو ٣٣,٠٠٠ن. كانت من أمنع حصون الأندلس.

• **الزلّاقة**: موضع في إسبانيا بالقرب من غرناطة. هزم فيه يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين، ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة في ٢٣ تشرين الأول ١٠٨٦.

• **سانتياغو ده كومبوستيل**: أشهر المزارات في إسبانيا يكرمون فيه آثار القديس يعقوب الأكبر شفيع إسبانيا ورسولها. كانت عاصمة مملكة جيليقية. اجتاح المنصور البلدة ولم يمس قبر القديس بأذى ٩٩٧.

• **سان سباستيانو** San Sebastiano: مرفأ في شمال إسبانيا على الأطلسي. نحو ١٥٥,٠٠٠ن. محطة استجمام. شهير بمشاهد صراع الثيران.

• **سبتة ومليلة**: مدينتان مغربيتان تابعتان للسيادة الإسبانية وتطالب بها المغرب. عاد الجدل، حول وضع المدينتين ومستقبلهما، وأثير من جديد في ربيع ١٩٩٣ في كل من إسبانيا والمغرب. في إسبانيا، طلب مجلس الشيوخ من كل الكتل البرلمانية إجراء مشاورات لتحديد الوضع الانتقالي للمدينتين، من غير أن يعني ذلك البدء بمفاوضات مع السلطات المغربية التي تتمسك بعودة سبتة ومليلة إلى السيادة المغربية. ومع تزايد طلب السكان تحرير المدينتين من النفوذ الإسباني، قدم وفد يمثّل المدينتين إلى الرباط لتقديم البيعة والولاء إلى الملك لتأكيد مغربية سبتة ومليلة (راجع المغرب).

• **سرّقسطة** Zaragoza: مدينة في إسبانيا. نحو ٥٤١٠,٠٠٠ن. فتحها العرب ٧١٢. استرجعها الإسبان ١١١٩. مركز ثقافي.

• **سلمنقة** Salamanca: مدينة في غرب إسبانيا. نحو ١٢٠,٠٠٠ن. شهيرة بجامعتها. فتحها موسى بن نصير ٧١٢. استردّها الإسبان ١٠٥٥.

• **السهيل**: قرية بالقرب من مالقة. بها يكنى عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (ت ١١٨٥م.): مؤرخ، محدث، حافظ، لغوي. ولد وتوفي في مالقة (الأندلس). كان ضريراً. له مؤلفات كثيرة.

• **شاطبة** Jativa: مدينة في شرقي إسبانيا (الأندلس). نحو ١٧,٠٠٠ن. كانت مركزاً لصناعة الورق في العهد العربي. وبها يكنّى ابراهيم بن موسى الشاطبي: فقيه مالكي، أصولي، مفتسر، من أهل غرناطة. والقاسم بن فيّره الرعيني الشاطبي: إمام قرّاء عصره. ولد بشاطبة وتوفي بالقاهرة. كان ضريراً. رحل إلى القاهرة وعلّم فيها.

• **شذونة** Medina-Sidonia: بلدة في جنوب غربي إسبانيا في إقليم وادي آش. كانت على أيام المسلمين قاعدة ولاية إقليم إشبيلية.

حرفي اسباني (في طليطلة) يعمل في تعشيق خيوط الذهب

* **الشريش** Jerez: مدينة في إسبانيا. هي اليوم خيريث الفرونتيرة (مقاطعة قادس). كانت في العهد الإسلامي إحدى مدن مقاطعة بطليوس بالقرب من إشبيلية. احتلّها بنو عبّاد ١٢٣٣ ثم بنو نصر. استرجعها ألفونس العام ١٢٦٤. أنجبت عدداً من الأدباء والفقهاء الشهيرين. منهم: أحمد بن عبد المؤمن الشريشي (١١٦١-١٢٢٢): ولد في شريش وتوفي فيها: نحوي وأديب. أقام في بلنسية ورحل إلى الشرق. وتاج الدين أبو العباس الشريشي (ت ١٢٣٤): فقيه صوفي وأديب. ولد في بسالي وتوفي في الفيوم. نشأ في مراكش وانتقل إلى مصر.

* **شقندة** Sagunts: مدينة في إسبانيا، مقاطعة أشبيلية، على الشاطئ الأيسر للوادي الكبير. هي ساغوتا القديمة، نشبت بسببها الحرب الفونية الثانية. عندها حدثت الوقعة الحاسمة بين المعديين واليمنيين ٧٤٧.

* **شنت مانقس** Simancaa: بلدة شمالي إسبانيا. عندها انهزمت جيوش عبد الرحمن الثالث.

* **شنتمرية الغرب** (أو سانتا ماريا Santa Maria): مدينة عربية قديمة واقعة جنوب غربي الأندلس. فتحها البرتغاليون نحو ١٢٥٣. منها يوسف الشنتمري الأعلم (١٠١٩-١٠٨٣) الذي ولد فيها وتوفي في اشبيلية. وهو لغوي تعلم في قرطبة على الإفليلي واشتهر بتعليمه.

* **طرطوشة** Tortosa: مدينة في شمال شرقي إسبانيا. نحو ٥٥,٠٠٠ن. فتحها العرب وأقاموا فيها دار الصناعة ٩٤٥. كانت قاعدة بني عامر على أيام ملوك الطوائف. وبها يكنى محمد بن أبي رندقة الطرطوشي (ت ١١٢٦): فقيه مالكي انقطع إلى الأدب بمعناه الأخلاقي في جل تصانيفه. ولد في طرطوشة الأندلس وتوفي في الإسكندرية. جوّالة كثير الأسفار.

* **الطرف الأغر** Trafalgar: رأس في إسبانيا على الأطلسي، يقع شمال غربي مضيق جبل طارق. انتصر عنده نلسن الأميرال الانكليزي على الأسطولين الفرنسي والإسباني ١٨٠٥.

* **طريفا** Tarifa: مدينة في إسبانيا (الأندلس، مقاطعة قادس). نحو ٢٥,٠٠٠ن. على مضيق جبل طارق. سميت باسم أول قائد عربي غزا إسبانيا ٧١٠. آثار عربية.

* **طليطلة** Toledo: مدينة في أواسط إسبانيا قرب مدريد. نحو ٦٠,٠٠٠ن. فتحها طارق بن زياد سنة ٧١٤. استردها ألفونس ملك قشتالة ١٠٨٥. آثار عربية فخمة. كاتدرائية من القرن الثالث عشر (فن غوطي). يزورها سنوياً نحو ٣ ملايين سائح للتعرف إلى عمارتها التي لا تزال تحافظ على تميزها. ويعيش سكان طليطلة حالياً على ما ورثوه عن العرب من صناعات يدوية هي في الأساس صناعات دمشقية لا تزال تحمل

لوحة «غويرنيكا» للرسام بابلو بيكاسو

قصر الحمراء في غرناطة

الإسم نفسه في اللغة الإسبانية «الدمسكينو»، نسبة إلى دمشق التي انتقلت منها إلى الأندلس على أيدي الشاميين الذين عاشوا في تلك المنطقة. وهذا الفن الذي يتركز في صناعة الأطباق والحلي الذهبية عن طريق تعشيق خيوط الذهب والفضة في أطباق النحاس الخام، يتوارثه أبناء طليطلة المعاصرون أباً عن جد، تماماً كما كان العرب يتوارثونه من قبل.
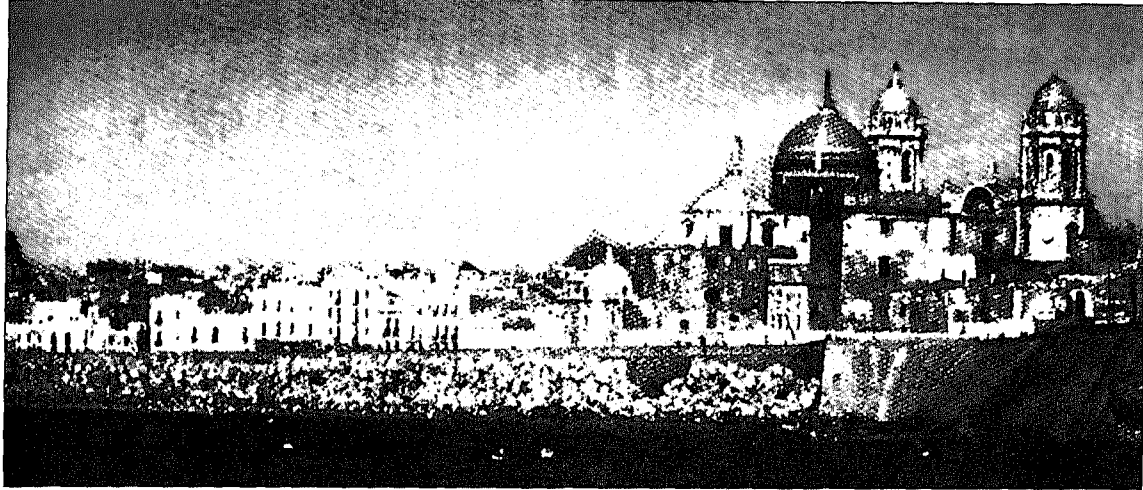
كاتدرائية قادس، ومرفأ أندلسي على الساحل الاطلسي

• **غرناطة** Granada: مدينة إسبانية (الأندلس). مركز الإقليم. نحو ٢٩٠,٠٠٠ن. كرسي أسقفي وجامعة وكاتدرائية القرن ١٦. احتلّها المرابطون ١٠٩٠ واتخذها محمد بن نصر مؤسس سلالة بني الأحمر عاصمة له ١٢٣٥ فاستمرت قاعدة هذه الدولة حتى سقوطها ١٤٩٢ وأصبحت في أيامهم مركزاً حضارياً وثقافياً لامعاً. أهم آثارها العربية قصر الحمراء الذي يعد رائعة الأندلس.

• **غويرنيكا اي لونا** Guernica y Lunö: مدينة في شمال إسبانيا (مقاطعة الباسك). نحو ١٥,٠٠٠ن. مدينة مقدسة بنظر الباسك الاسبان. ففيها أقسم فرديناند أراغون وايزابيل دو كاستيل على احترام حريّات الباسك. كانت ضحية مذبحة رهيبة إبان الحرب الأهلية الإسبانية. فعند الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر ٢٦ نيسان ١٩٣٧، وعندما كانت أجراس كنائسها تقرع والناس يتزاحمون في سوقها الرئيسية مطمئنين إلى أن الطابع الديني لمدينتهم يحميهم من النزاعات المسلحة وأعمال العنف، بدأت أطنان القنابل تتساقط فوق رؤوسهم وفوق البيوت والكنائس من طائرات حربية قامت بغارة مفاجئة، وأوقعت نحو ٢٠٠٠ قتيل. في البداية، أوحت قوات فرنكو أن الغارة قامت بها قوات «الجمهورية اليسارية»، لكن سرعان ما تبيّن أن من قام بشن الغارة إنما هي قوات المانية تابعة لفرقة «الكوندور» ومؤلفة من طائرات «جونكر» وقاذفات من طراز «ستوكا» و«هينكل ١١١» و«ميسير شميت». وهذه الطائرات أفرغت يومها كل حمولتها فوق المدينة الوادعة، في الوقت الذي راح فيه أنصار فرنكو يهاجمون المدينة من مختلف نواحيها فاتحين نيرانهم على المزارعين الهاربين في كل اتجاه. وأسفرت هذه المجزرة عن بدء تراجع القوات الجمهورية الحكومية بعد أن كانت حققت انتصارات عدة على قوات فرنكو، ما حدا بالالمان إلى القيام بذلك التدخل إلى جانب فرنكو وقواته.

أوحت هذه المجزرة للرسام بابلو بيكاسو لوحته الشهيرة «غويرنيكا» (جدرانية ٣,٥م × ٧,٨٢م) التي أنجزها خلال أسابيع قليلة ليعرضها في معرض باريس العالمي (١٩٣٧). فلا تزال هذه اللوحة تقرن شهرتها الفنية بشهادتها على استشهاد مدينة بسكانها. وأول ما حدث بعد سقوط فرنكو وعودة الديمقراطية إلى إسبانيا، أن عادت لوحة بيكاسو إلى الوطن لتعرض ويقبل عليها المتفرجون بالملايين (ص ٣٠٧).

• **فاندال** Vandales: شعب جرماني استقر في جنوب إسبانيا فسمّي الأندلس (الإسم الذي اتخذه العرب وتبناه على المنطقة) ومنه رحل إلى افريقيا الشمالية في القرنين الخامس والسادس.

• **قادس (قادش)** Càdiz: مدينة وميناء في إسبانيا (الأندلس) على الأطلسي. نحو ١٤٢,٠٠٠ن. أسّسها الفينيقيون نحو ١١٠٠ ق.م. ارتبطت بروما

ميدان خوسيه انطونيو في قلب قرطبة

قرية أندلسية

٢٠٦ق.م. احتلها العرب بعد فتح الأندلس وحكموها حتى استعادها ألفونس العاشر (١٢٦٢).

* **قتلونية (كاتالونيا)** Catalunya: مقاطعة في شمال شرقي إسبانيا. نحو ٤,٧٠٠,٠٠٠ن. قاعدتها برشلونة. اتحدت مع إسبانيا على أيام الملوك الكاثوليك ١٤٧٩. مركز صناعي وزراعي (راجع برشلونة). أكثر القتلونيين يتكلمون لغتهم ويتجنبون الإسبانية رغم أن المقاطعة هي جزء من إسبانيا منذ أكثر من خمسة قرون. وفي ذلك إرادة التأكيد على الشخصية الذاتية التي تعود في تكونها إلى القرن الثالث عشر. ويعتبر القتلونيون أنفسهم، خصوصاً سكان برشلونة، أوروبيين أكثر من القشتاليين في مدريد وفي وسط البلاد. ومردّ هذا الشعور قربهم من فرنسا من جهة، وشعورهم بالهزيمة إبان الحرب الأهلية (١٩٣٦- ١٩٣٩) حيث أفقدهم فرنكو، الذي انتصر على النظام الجمهوري، امتيازاتهم التي كانوا يتمتعون بها في عهد الجمهورية، من جهة ثانية. والقتلونيون حريصون على إظهار خصوصيتهم الأدبية خاصة والأوروبية عموماً. فهم يعطون أهمية بالغة لتظاهرة أدبية وثقافية أطلقوا عليها إسم: «٨٠٠ عام من الأدب القتلوني» (الكتلوني أو الكاتالاني). فبعد أن جالوا بها في السويد وبريطانيا والمانيا وفنلندا واليابان والنمسا وايطاليا وهنغاريا وهولندا، انتقلوا بها (١٩٩٣) إلى باريس - مركز جورج بومبيدو - في جولة تعريفية بأدبهم. واللافت في الأمر تأخر وصول هذه التظاهرة الثقافية إلى باريس على رغم أن الفرنسية هي اللغة الثانية بعد الاسبانية التي ترجم إليها الأدب القتلوني.

* **قرطبة** Cordoba: مدينة في إسبانيا (الأندلس) على الوادي الكبير. نحو ٣٣٥,٠٠٠ن. مركز الإقليم وكرسي أسقفي. صناعة الجلود والمصوغات. أسسها الفينيقيون ثم احتلها الرومان ١٥٢ق.م. استولى عليها العرب فأصبحت عاصمة الدولة الأموية في الأندلس (٧٥٦). استعادها فرديناند (١٢٣٦). مسقط رأس سينيكا وابن رشد. أهم آثارها العربية: قصر الحمراء. ويكنّى بها إسحق بن بلشك القرطبي: ترجم الأناجيل من اللاتينية إلى العربية، لخدمة نصارى إسبانيا المستعربين. وغريب بن سعيد الكاتب القرطبي: طبيب عاش في القسم الثاني من القرن العاشر، كاتب أسرار عبد الرحمن الثالث والمستنصر بالله، الخليفتين في الأندلس. وأهم آثار المدينة على الإطلاق هو المسجد الذي بناه عبد الرحمن الأول، وزاد عليه عبد الرحمن الثاني، الحكم الثاني، والمنصور وزير الخليفة هشام الثاني، الذين جعلوا من هذا المسجد أكبر المساجد في العالم بعد الكعبة في مكة. لكن، فرديناند الأول حوّل المسجد إلى كاتدرائية باسم صعود العذراء (١٢٣٦).

* **قرطجنة (كرتخينا)** Cartagena: مرفأ في جنوب غربي إسبانيا على البحر المتوسط. نحو ١٤٥,٥٠٠ن. أسّسه أهل قرطاجة ٢٢٣ق.م.

* **قشتالة (كاستيا)** Castilla: منطقة تاريخية في وسط إسبانيا. تقسمها الجبال إلى قشتالة القديمة في الشمال، حوض نهر الدورو، من مدنها: برغس، آبلا، بلادوليد، مواردها من الزراعة وتربية الماشية. وإلى قشتالة الجديدة في الجنوب يرويها نهرا التاخة وغواديانا، من مدنها العاصمة مدريد، وطليطلة ووادي الحجارة. نشأت في قشتالة منذ القرن التاسع إمارة عاصمتها برغس ثم انضمت إلى مملكة ليون ١٢٣٠ وأخذت بالتوسع على حساب الإمارات العربية. واتحدت أخيراً مع الأراغون بعد زواج ولية العهد إيزابيلا بفرديناند الثاني الأراغوني ١٤٦٩.

* **قصر الحمراء**: أهم معالم مدينة غرناطة. ملايين من السواح يسعون سنوياً لرؤية هذا القصر. كان مقراً لسلاطين المغاربة العرب (المرابطون) ومن أبدع ما بنى الإنسان على الأرض. يعود إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر. غابة كثيفة من الدردار تحيط به اليوم. استغرق بناؤه ١٥٠ سنة ولم يتوقف الأسياد العرب خلالها من تحسين هذا الصرح الممتد فوق ١٠٤٦٩٧م^2 وتجميله. داخله الفخم وخارجه الأخضر وينابيعه التي لا تعد ونوافيره البديعة وحماماته المبلّطة وقاعاته المزخرفة بالأفاريز العربية ومداخله وأبراجه العالية توقع الرهبة في النفس. في العام ١٢٣٨ كان قصر الحمراء الأصلي أربعة أشياء في واحد: حصناً وثمانية قصور متفرقة وحدائق فسيحة وبلدة صغيرة للحاشية الملكية والحرفيين والخدم. زيّن كل مبنى وكل مشكاة بذوق رفيع. داخل القصور هكتارات من الفسيفساء البرّاقة ونقوشاً دقيقة معقدة كأفضل القماش المخرّم وكيلومترات من الشعر العربي المتدفق في الطنف والأعمدة والجدران. والسقوف المنحوتة المعقودة تتوهج كسماوات منجّمة.

في الجانب الغربي الأقصى للحمراء تقف «القصبة» المهيبة. شيّدت فوق أطلال قلعة من القرن التاسع وتلوح

أبراجها العسكرية وشرفاتها الزهرية والذهبية، فوق قصور السلطان. يرتفع برج المراقبة ٢٧ متراً فوق السجون والدهاليز فيمنح رؤية شاملة لغرناطة وللسهول الفسيحة البعيدة. وفي الجهة الشرقية المقابلة تمتد نقيضة «القصبة» الحربية: الحدائق والسراداقات لقصر السلطان الصيفي.

إلا أن كنوز الحمراء التي لا توازى بروعتها هي القصور المترفة للسلاطين مجموعة مترابطة من ثلاثة قصور أندلسية. يدخل الزائر أولاً «المقصورة» الملكية حيث كان السلطان يصدر أحكامه. يكسو جدرانها بلاط محفور وتشابك مذهل من الكتابة العربية المتحابكة. وهناك قاعة السفراء حيث السقف مصنوع من خشب الأرز والذي يرتفع ١٨ متراً ويلمع بـ١٠٥ نجمات مرصعة و٨٠١٧ قطعة متوهجة مثل مجرّة. والقصر الثالث هو قصر الحريم، المقر الخاص للسلطان وزوجاته وأولاده ومحظياته (راجع غرناطة).

* **القصر** Alcazar: إسم يطلق على عدة قلاع في اسبانيا أهمها: قصور شقوبية وأشبيلية وطليطلة. اشتهر القصر الأخير بمقاومته العنيفة وصموده في وجه الجمهوريين ١٩٣٩.

* **قلعة رباح** Calatrava: قلعة في إسبانيا تقع في وسط البلاد (مقاطعة سيوداد ريال). تأسست فيها رهبانية فرسان كالاترابا ١١٥٨، وفيها آثار ديرهم.

* **قلعة هنارس** Alcala de Henaras: مدينة إسبانية (مقاطعة مدريد). نحو ٣٧,٠٠٠ن. استردّها رئيس أساقفة طليطلة من العرب ١١١٨. فيها جامعة تأسست ١٤٩٨، ثم نقلت إلى مدريد.

* **الكناري (الجزر الخضراء)** Canaries: أرخبيل إسباني في المحيط الأطلسي على بعد ١١٠كلم من المغرب و١١٠٠ كلم من إسبانيا (لتحديد موقعها راجع الخريطة). مساحته ٧,٥٤٥ كلم^2 . سكانه نحو ١,٦٠٠,٠٠٠ن. سمّاه العرب «الجزائر الخالدات». كان جغرافيو اليونان والعرب يبدأون به عدّ درجات الدائرة الأرضية. يعمل أكثر السكان في الزراعة وتربية الماشية (في الجبال) وصيد السمك وتجفيفه (على الساحل).

على الرغم من أن ملاحين مصريين وفينيقيين وإغريق ورومان وصلوا إلى جزر كناري إلا أنها بقيت في غياهب المجهول بسبب بعدها عن مراكز حضارات المتوسط. أطلق الرومان عليها إسم «جزر الكلاب». لما فيها من كلاب مميزة بضخامتها. ثم عرفت جزر الكناري لاكتشاف عصفور الكناري فيها، والذي بات معروفاً في كل أقطار العالم تقريباً. بعد سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب ٤٧٦م، استمرت جزر الكناري شبه معزولة عدة قرون. وفي أواخر القرن العاشر، نزل فيها تجار عرب أقاموا روابط تجارية مع سكانها. وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر، جاء دور الملاحين البرتغاليين والفرنسيين، لكن دون أن يقيموا محطة ثابتة لهم فيها. وفي بداية القرن الخامس عشر، نزل في الجزر جان بتنكور، أحد النورمانديين الذي كان يعمل في خدمة ملك الكاستيل. وفي تلك الأثناء، كان يقطن الجزر شعب يدعى الغانش الذي يرجح أنه قدم إلى الجزر من شمال افريقيا. وحاول الغانش مقاومة الأوروبيين قبل أن يخضعوا لهم في نهاية الأمر. وما تزال حتى اليوم أسماء عائلات نورماندية (مثل بتنكور) منتشرة في جزر الكناري. وتوصلت إسبانيا إلى فرض سيطرتها بقوة على الجزر في أواخر القرن الخامس عشر، كما انتصرت على محاولات الغزو الأوروبي للجزر. ومن المحاولات تلك محاولة الأميرال الانكليزي الشهير

فن معماري حديث

القصر الملكي في مدريد

نلسن ١٧٩٧. وفي ١٩٢٧، قسمت الحكومة الإسبانية جزر الكناري إلى مقاطعتين ممثلتين في الكورتس (المجلس التشريعي الإسباني). ومن هذه الجزر، انطلقت حركة التمرد التي قادها الجنرال فرنكو (١٩٣٦) ضد حكم الجمهورية في إسبانيا.

* **كونكه** Cuenca: مدينة في إسبانيا. نحو ٣٨,٠٠٠ن. كاتدرائية من القرن الثالث عشر.

* **لورقه** Lorca: مدينة في إسبانيا الشرقية بين غرناطة ومرسيا. نحو ٨٥,٠٠٠ن. استعادها الإسبان من العرب ١٢٦٦.

* **لوشا (لوخا)** Loja: بلدة في إسبانيا (الأندلس) جنوب غربي غرناطة. اشتهرت في العهد العربي. مسقط رأس لسان الدين ابن الخطيب. احتلها الملوك الإسبان ١٤٨٨.

* **مايورقة (مجورقة)** Majorque: كبرى جزر الباليار الإسبانية. نحو ٥٥٠,٠٠٠ن. حطّ فيها الفينيقيون (نحو القرن الحادي عشر ق.م.). مركز سياحي.

* **مجريط:** هو الإسم الذي أطلقه العرب على مدريد.

* **مدريد:** عاصمة إسبانيا (سمّاها العرب مجريط). تقع في مقاطعة قشتالة (كاستيا Castilla) الجديدة. إنها أكثر عاصمة أوروبية ارتفاعاً عن سطح البحر (٦٧٠م). سكانها نحو ٣,٢٠٠,٠٠٠ن. كرسي أسقفي. ويعود نموها الهائل إلى كونها عند عقدة مواصلات برية ونهرية وجوية في البلاد. مصارف وشركات كبرى. تتركز الصناعة المتقدمة في ضاحيتها الجنوبية. جامعة ومراكز دراسات. أهم الآثارات فيها تعود إلى القرن الثامن عشر. ثمة آثار تدل على أن مدريد كانت مأهولة منذ فجر التاريخ، لكن الأثر الأوضح يعود إلى القرن العاشر، وهو حصن عربي (مجريط) مبني في موضع المدينة حالياً. استعاد ألفونس السادس المدينة من العرب، فأصبحت مكان إقامة اثناء الصيد والراحة للملوك الاسبان. في١٥٦١.ترك فيليب الثاني طليطلة واتخذ مدريد عاصمة «مملكة الإسبان» لأسباب جغرافية على وجه الخصوص. في القرن الثامن عشر، اهتم شارل الثالث كثيراً بتزيين المدينة: بنى القصر الملكي، وشقّ جادّات عريضة. في ١٨٠٨، احتلّ الفرنسيون مدريد، وبدأت في ٢ أيار شرارة تمرد تحوّل الى وحرب تحرير طويلة. أثناء هذه الحرب أعلن جوزف بونابرت ملك إسبانيا، وسرعان ما لجأ إلى الهرب من المدينة؛ وفي ١٨١٣ اضطر نابوليون على سحب جيوشه نهائياً من البلاد. وخلال الحرب الأهلية (١٩٣٦–١٩٣٩)، استمرت مدريد عاصمة الحكومة الجمهورية حتى أتمّ فرنكو محاصرتها من جميع الجهات، فاندلعت معارك عنيفة. وكانت مدريد آخر المدن الإسبانية التي سقطت بيد فرنكو وأنصاره (آذار ١٩٣٩). في ١٩٩١، افتتحت فيها (في قصر المؤتمرات) مفاوضات السلام بين العرب وإسرائيل برعاية الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي (روسيا لاحقاً) وكانت هذه هي المرة الأولى التي يجلس فيها العرب والإسرائيليون على طاولة مفاوضات واحدة منذ إنشاء الكيان الإسرائيلي في فلسطين (١٩٤٨).

* **المدينة الزاهرة:** أسّسها المنصور بن أبي عامر بالقرب من قرطبة على الوادي الكبير (إسبانيا) ٩٨٧. أنجز القسم الأكبر منها، على ما جاء في ابن عذاري، في سنتين. تحوّل إليها النشاط التجاري وأصبحت مدينة كبيرة. أحرقها وهدمها محمد بن هشام المهدي ١٠٠٩.

* **مدينة الزهراء:** ضاحية قرطبة الملكية الأموية في الأندلس. تقوم أطلالها شمال غربي مدينة قرطبة، عند سفح جبل العروس. باشر بناءها عبد الرحمن الثالث (٩٣٦) بناء لإشارة جاريته الزهراء فسمّيت باسمها. أقام فيها الحكم الثاني وهشام الثاني. انهارت بعد تشييد المدينة الزاهرة. نهبت ١٠١٠ ولم يبق منها غير أوصافها في كتب التاريخ.

* **مدينة سالم:** بلدة في شمال شرقي إسبانيا. كانت مركزاً للحركات الحربية بين العرب والإسبان في القرن الثالث عشر.

* **مرسيا** Murcia: مدينة في جنوبي إسبانيا. نحو ٣٢٨,٠٠٠ن. احتلها المرابطون ١٠٧٨ والموحدون ١١٧٢. استردّها دون خيمه الأراغوني للإسبان ١٢٦٦. مركز صناعي.

* **ملقة** Malagâ: مرفأ في جنوب إسبانيا على البحر المتوسط. نحو ٣٨٠,٠٠٠ن. قلاع مغربية. كاتدرائية القرن السادس عشر – الثامن عشر.

خرائط لاسبانيا تظهر مراحل استرداد الاندلس من العرب والمسلمين

خمور، كرمة، صناعة كيميائية.

* **المنقر** Almunécar: بلدة في إسبانيا، جنوبي غرناطة على المتوسط. فيها نزل من البحر عبد الرحمن الأول مع ألف من فرسانه البربر ٧٥٦. استردّها الإسبان ١٤٨٩.

* **ميريده** Mérida: بلدة جنوب شرقي إسبانيا (مقاطعة بداخس). نحو ٥٥,٠٠٠ن. فتحها موسى بن نصير ٧١٣. استعادها الإسبان ١٢٢٨. آثار رومانية. وبقايا منشآت للفيزيغوط والعرب. كرسي أسقفي. وهناك مدينة في المكسيك وأخرى في فنزويلا تحملان الإسم نفسه.

* **مينورقه** Minorca: إحدى جزر الباليار شمال شرقي مايورقة (ماجورقة)، ٦٦٨كلم٢ ونحو ٧٣,٠٠٠ن. احتلّها الانكليز ١٧٥٦ ثم الفرنسيون. استعادها الإسبان، معاهدة أميان ١٨٠٢.

* **نفزة** Nafza: مدينة في الأندلس. ينسب إليها جماعة من العلماء، منهم: عبد الله ابن أبي زيد النفزي (ت ٩٩٦م): فقيه مالكي من الكبار: نسبته إلى نفزة هذه. ولد ونشأ وتوفي في القيروان. له مؤلفات فقهية جدلية تربوية.

* **وادي بكة**: موقع في جنوب إسبانيا على نهر غواداليته. جرت فيه معركة حاسمة بين جيش طارق بن زياد والقوط (الغوط) ٧١١. قتل فيها لذريق آخر ملوك القوط.

* **وادي الحجارة** Gudalajara: مدينة في وسط إسبانيا (قشتالة الجديدة). نحو ٢٩,٠٠٠ن. فتحها موسى بن نصير وطارق بن زياد ٧١٤. استردّها الإسبان ١٠٦٠. كنيسة رائعة القرن الثالث عشر. وهناك مدينة في المكسيك تحمل الإسم نفسه.

* **الوادي الكبير** Quadalquivir: نهر في جنوبي إسبانيا يمر في قرطبة وأشبيلية ويصب في الأطلسي. عنده نشب قتال انتصر فيه عبد الرحمن الأموي على يوسف الفهري والي قرطبة العباسي ٧٥٦.

* **وشقة** Huesca: مدينة في شمال شرقي إسبانيا (الأراغون). نحو ٣١,٠٠٠ن. فتحها العرب ٧١٣ واستعادها الإسبان ١٠٩٦.

□ حضارة العرب المسلمين في الأندلس:

(يعتمد هذا المبحث أساساً على أعمال للبروفسور ميشال دينكن، وإدوارد سعيد، وروجيه غارودي، وديورانت – قصة الحضارة –).

تمتد حياة العرب المسلمين في الأندلس بين الأعوام ٧١١– ١٤٩٢م. أي ما يقارب ثمانية قرون، في عصر كانت تعيش فيه أوروبا والغرب عموماً في فترة سبات حضاري، وظلام فكري، في ظل القمع الذي مارسته الكنيسة ومؤسساتها ورجالها.

واستطاع الإسلام، بعد فترة محدودة من دخوله أوروبا – عبر البوابة الأندلسية – أن ينقلها إلى عالم آخر بفعل التحدي الذي خلقه الوجود العربي الإسلامي على هذه الأرض من جهة، وبسبب التقدم والوعي والازدهار والمدنية التي حملها معهم العرب المسلمون من جهة ثانية. فكانت الأندلس النافذة التي أطل منها الإنسان الأوروبي على الشرق والإسلام وإنجازاتها الحضارية التي كان الغرب لا يزال على مسافة بعيدة عنها.

فالتنوير الديني الذي دعا له الكاهن الألماني مارتن لوثر تأسس على الوعي الجديد الذي صنعه الرهبان الذين تلقوا العلم مجاناً، مع تقديم المسكن أحياناً، في الأندلس. كما إن الجامعات الأوروبية إنما نشأت تقليداً للجامعات العربية في إسبانيا. فلقد كان للصوت الذي أطلقه لوثر الدور الأساسي في الإطاحة بجبروت الكنيسة، وتحطيم تلك السلاسل والقيود التي وضعتها على عقول الناس، والحجب التي أسدلتها على آرائهم وافكارهم.

وكان عصر العقل والعلم الذي دخلته أوروبا أوضح نتيجة للنهضة العلمية التي تأسست في الأندلس. فإبن رشد، ومحي الدين بن عربي، وابن حزم، وابن باجه... وغيرهم من العقول الوقّادة التي أنجبتها الأندلس، أضحى تراثهم الفكري مصدر إلهام للدراسات المنطقية والفلسفية والاجتماعية لكل من جاء بعدهم، من علماء الغرب والشرق.

وبوسعنا أن نتعرف على ملامح تلك النهضة العلمية من خلال ملاحظة حركة النسخ وإنتاج الكتّاب هناك: حيث كانوا في قرطبة وحدها ينسخون ١٦– ١٨ ألف كتاب سنوياً.

وقد كان الخليفة الحكم الثاني (٩٦١– ٩٧٦م) محباً للعلوم مكرماً لأهلها، جماعاً للكتب بأنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله... فبلغ عدد الفهارس التي فيها أسماء الكتب أربعاً وأربعين فهرستاً، وفي كل

فهرست عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير.

وأدخلت صناعة الورق من بغداد، فازداد حجم الكتب وتضاعف عددها حتى كان في الأندلس وحدها سبعون مكتبة عامة.

وشهد النظام التعليمي تطوراً واضحاً حتى استوعب الناشئة، فكانت المدارس الابتدائية كثيرة العدد، ولكنها كانت تتقاضى أجوراً نظير التعليم، ثم أضاف الخليفة الحكم إليها ٢٧ مدرسة لتعليم أبناء الفقراء بالمجان، وكانت البنات يذهبن إلى المدارس كالصبيان سواء بسواء، ونبغ عدد من النساء المسلمات في الأدب والفن. وكانت المساجد التي انتشرت في كل المناطق معاهد مفتوحة لتلقي العلوم والمعارف المتنوعة.

أما الصناعات المعدنية فقد تقدمت تقدماً عظيماً، فاشتهرت مرسية بمصنوعاتها من الحديد، كما اشتهرت طليطلة بالسيوف، وقرطبة بالدروع، وازدهرت كذلك الصناعات اليدوية وكان في قرطبة وحدها ١٣٠٠٠ نساج، وكان المشترون في كل مكان يقبلون على شراء السجاد والوسائد والأرائك الأندلسية.

واخترع ابن فرناس القرطبي في القرن التاسع الميلادي النظارات، والساعات الدقاقة المعقدة التركيب، كما اخترع آلة طائرة. وظلّت الأكاديميات العلمية في أوروبا قروناً كثيرة تعتمد المراجع العلمية التي استعارتها من الأندلس، ونقلتها من العربية إلى اللاتينية. فمثلاً كانت الموسوعة الطبية المسماة «التصريف»، وهي ثلاثة كتب في الجراحة ألّفها أبو القاسم الزهراوي (٩٣٦-١٠١٣م) طبيب عبد الرحمن الثالث، المرجع الأعلى في الجراحة عدة قرون بعد ترجمتها إلى اللاتينية.

ولم يكن مستوى النمو في القطاع الزراعي أو التجاري أدنى من الصناعي. يقول ديورانت في «قصة الحضارة»:

«وكان حكم العرب نعمة وبركة قصيرة الأجل على الزرّاع من أهل البلاد، ذلك أن الفاتحين لم يبقوا على الضياع التي كبرت فوق ما يجب، والتي كان يملكها القوط الغربيون، وحرّروا رقيق الأرض من عبودية الإقطاع... وكان العرب في معظم الأحوال يتركون أعمال الزراعة إلى أهل البلاد، ولكنهم كانوا يستعينون بأحدث ما ألّف من الكتب في علومها، وبفضل توجههم بلغت هذه العلوم في إسبانيا من التقدم أكثر مما بلغته في أوروبا المسيحية... وكان هناك أسطول تجاري يزيد على ألف سفينة يحمل غلات الأندلس ومصنوعاتها إلى افريقيا وآسيا...».

أما عن التجارة وتنظيم المدن، فيقول:

«لقد كانوا أقدر أهل زمانهم على تصريف الشؤون العامة في العالم الغربي، فكانت قوانينهم قائمة على العقل والرحمة، تشرف على تنفيذها هيئة قضائية حسنة النظام، وكان أهل البلاد المغلوبون يحكمون في معظم الأحوال حسب قوانينهم وعلى أيدي موظفين منهم، وكان في المدينة شرطة تسهر على الأمن فيها، وقد فرضت على الأسواق والمكاييل والموازين رقابة محكمة، وكانت الحكومة تقوم بإحصاء عام للسكان والأملاك في فترات منظمة، وكانت الضرائب معقولة إذا قورنت بما كانت تفرضه منها روما أو بيزنطة. وبلغت الإيرادات أيام عبد الرحمن الثالث ١٢,٠٤٥,٠٠٠ دينار ذهبي، وأكبر الظن أن هذا كان يفوق إيرادات حكومات البلاد المسيحية اللاتينية مجتمعة. ولم يكن مصدر هذه الإيرادات الضرائب العالية بقدر ما كان أثراً من آثار الحكم الصالح، وتقدم الزراعة والصناعة، ورواج التجارة... وكانت قرطبة في أيام المنصور من أعظم مدن العالم حضارة، ولا يفضلها في هذا إلا بغداد والقسطنطينية، وكان فيها كما يقول المقري: ٢٠٠,٠٧٧ منزلاً؛ و ٦٠,٣٠٠ قصر؛ و ٦٠٠ مسجد؛ و ٧٠٠ حمام... وكانت الشوارع مرصوفة، لكل منها طواران على الجانبين، تضاء أثناء الليل، ويستطيع الإنسان أن يسافر في الليل عشرة أميال على ضوء مصابيح الشوارع وبين صفين لا ينقطعان من المباني.

ويكاد المؤرخون، مسيحيون غربيون ومسلمون شرقيون، يجمعون، في الحقيقة، على الفارق الشاسع (وهو فارق إنساني حضاري بطبيعته) الذي تبدّى، وأيدته الوقائع التاريخية، بين معاملة المسلمين الحكام للمسيحيين المحكومين في الأندلس، وبين معاملة المسيحيين الذين استرجعوا السيطرة على الأندلس للمسلمين الذين هزموا في أواخر القرن الخامس عشر. فقياساً على ما فعله المسيحيون الأوروبيون (خاصة من خلال محاكم التفتيش الكنسية) بالمسلمين المهزومين وما أنزلوه بهم من ضروب التعسف والعنف، تبدو معاملة المسلمين لهم، منذ أن فتح هؤلاء البلاد وطيلة قرون سيطرتهم عليها، على غاية من التسامح. ومن بين وفرة وغزارة ما قاله المؤرخون في الصدد هذا، هذه العبارات التي كتبها ديورانت في «قصة الحضارة»:

«وعامل الفاتحون أهل البلاد معاملة لينة طيبة، ولم يصادروا إلا أراضي الذين قاوموهم بالقوة، ولم يفرضوا على الأهالي من الضرائب أكثر مما كان يفرضها عليهم ملوك القوط الغربيون وأطلقوا لهم من الحرية الدينة ما لم

تتمتع به إسبانيا إلا في أوقات قليلة نادرة... وفي وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الإسلامي من جاذبية للمسيحين من رسالة العام ١٣١١م تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين في ذلك الوقت بمائتي ألف، كلهم ما عدا ٥٠٠ منهم من أبناء المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام، وكثيراً ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين».

وإن كانت مرحلة سقوط الأندلس جاءت تالية للحروب الصليبية إلا أن العام ١٤٩٢ يمثل بداية العصر الجديد للغرب الذي تزامن فيه سقوط غرناطة مع اكتشاف كريستوف كولومبوس لأميركا، واكتشاف البحّارة من شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) لرأس الرجاء الصالح، الذي فتح طريقاً جديداً للشرق الإسلامي والهند. فأصبح العام ١٤٩٢م بداية عهد جديد تشكل فيه النظام الاستعماري الجديد للتسلط الغربي على العالم.

زعماء ورجال دولة

* **أريلزا، خوسيه** .Areilza, J (١٩٠٩-): دبلوماسي وسياسي إسباني. من جذور أرستقراطية، وهو كونت موتريكو. رئيس بلدية بيلباو (١٩٣٧). مدير عام الصناعة في حكومة فرانكو (١٩٣٨- ٤٠). نائب في البرلمان (كورتس) ١٩٣٤- ٤٧. سفير لدى الأرجنتين (١٩٤٧- ٥٠). سفير لدى الولايات المتحدة (١٩٥٤) وسفير في فرنسا (١٩٦٠). أمين عام الحزب الملكي (١٩٦٦- ٦٩) وعضو في المجلس السياسي لحزب الفالانج. وزير الخارجية (١٩٧٥- ٧٦). أسّس حزب الشعب ١٩٧٦.

* **أوريخا، مارسيلينو** .Oreja, M (١٩٣٥-) سياسي ودبلوماسي إسباني من مقاطعة الباسك. حصل على الدكتوراه في الحقوق من جامعة مدريد ودخل الحقل الدبلوماسي وله من العمر ٢٣ سنة. مدير الغرفة التقنية في وزارة الخارجية (١٩٦٢- ٧٠)، وأسّس مع بعض أصدقائه «جماعة تاسينو» (مجموعة الشباب المسيحي الديمقراطي الليبرالي). في ١٩٧٤، استقال من وزارة الإعلام والسياحة موفقاً بين عمله وقناعاته، مضاعفاً جهوده من أجل الحوار بين الفرنكويين الليبراليين وزعماء اليسار المعتدل. صديق شخصي للملك خوان كارلوس ولرئيس الحكومة أدولفو سواريز. وزير الخارجية في مرتين متتاليتين: تموز ١٩٧٦ وتموز ١٩٧٧. عرفت عنه دبلوماسيته الهادئة والمنفتحة على الشرق والغرب، والعاملة على دخول إسبانيا النادي الأوروبي.

* **إيباروري، دولوريس (لاباسيوناريا)** .Ibarruri, D (١٨٩٥- ١٩٨٩): قائدة إسبانية شيوعية. ولدت في الباسك من أسرة فقيرة يعمل أعضاؤها في المناجم. انضمت إلى الحزب العمالي الاشتراكي الإسباني (١٩١٧)، ثم التحقت بالحزب الشيوعي الإسباني (١٩٢١). في ١٩٢٥ بدأت تكتب في الجرائد العمالية المحلية وتوقع باسم «لاباسيوناريا» الذي يعني: خيوط دائرية من الزهر شبيهة بإكليل الشوك الموضوع على رأس السيد المسيح. أصبحت في ١٩٣١ عضواً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الإسباني. سجنت ثلاث مرات بين ١٩٣٢ و١٩٣٦ وقاست عذاب الجوع والحرمان والنفي. تزوجت من عامل شيوعي من مقاطعة استوريا ورزقت منه خمسة أولاد فقدت منهم أربعة. اشتركت في انتفاضة عمال استوريا (١٩٣٤) واشتهرت بعدها ببلاغتها الخطابية وبقدرتها الفائقة على التأثير في الجماهير، وأصبح لقبها (لاباسيوناريا) يعني الدعوة الدائمة للعمل والنضال.

فرنكو

إيبارووري

ميغويل دي ريفييرا

اشتركت (١٩٣٥) في المؤتمر السابع للأممية الشيوعية، وانتخبت عضواً في البريزيديوم الأممي. قامت بدور فعال مع الأمين العام للحزب خوسيه دياز في سبيل تحالف كل القوى الشعبية الإسبانية واجتذاب بعض القطاعات من المثقفين البورجوازيين. نائبة رئيس البرلمان (١٩٣٦) على أثر انتصار الجبهة الشعبية في الانتخابات. لم تعرف الهدوء طيلة الحرب الأهلية الإسبانية، فكانت تلازم المقاتلين على الجبهات كافة، وتسافر أحياناً إلى بعض البلدان الأوروبية تستحثها على دعم الجمهورية والديمقراطية في إسبانيا. ومما عرف عنها أثناء الحرب إطلاقها لشعارين ما يزالان يترددان على ألسنة العديدين في العالم ومن كل الاتجاهات السياسية: «لن يمروا» و«الأفضل أن نموت واقفين على أن نحيا راكعين». في ٦ آذار ١٩٣٩، بعد هزيمة الجمهوريين تركت دولوريس إيباروري إسبانيا إلى موسكو وبقيت مبعدة عن بلادها ٣٨ عاماً. انتخبت أمينة عامة للحزب الشيوعي الإسباني (١٩٤٣) بعد موت خوسيه دياز، وهي أول امرأة تضطلع بمثل هذه المسؤولية. في ١٩٦٠، انتخبت رئيسة للحزب في مؤتمره السادس وانتخب سانتياغو كاريّو أميناً عاماً له. تبنت موقف قيادة الحزب في إدانته تدخل حلف وارسو المسلح في تشيكوسلوفاكيا (١٩٦٨). عادت دولوريس ايباروري الى وطنها (١٩٧٧)، وانتخبت نائبة عن أستوريا. عارضت طروحات الشيوعية الأوروبية التي نادى بها كاريو وبقيت على علاقة وثيقة بالاتحاد السوفياتي. توفيت في ١٢ تشرين الثاني ١٩٨٩.

* **بريمو دي ريفيرا، خوسيه أنطوني** Primo de Rivera, J.A. (١٩٠٣-١٩٣٦): سياسي إسباني. ابن الجنرال ميغويل بريمو دي ريفيرا. انتسب إلى حزب الاتحاد الملكي القومي (١٩٣٠). فشل في انتخابات ١٩٣١. ساهم في مجلة «الحزمة» (El Fascio). أسّس (١٩٣٣) الكتائب الإسبانية، بالتعاون مع رفاق له. نائب عن مدينة قادس (١٩٣٤). قاد حزبه باتجاه النقابوية – القومية، واصطدم بأحزاب اليسار. سقط في انتخابات (١٩٣٦). أوقفته الجبهة الشعبية ومثل أمام محكمة عسكرية. حكم عليه بالموت ونفّذ فيه الحكم في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٣٦.

* **بريمو دي ريفيرا، ميغويل** Primo de Rivera, M. (١٨٧٠-١٩٣٠): جنرال وسياسي إسباني. شارك في العمليات العسكرية في المغرب (١٨٩٣) وكوبا (١٨٩٥)، والفيليبين (١٨٩٧). حاكم على كاتالونيا (١٩٢٢). قام بانقلاب عسكري في ١٣ أيلول ١٩٢٣، وعلى أثر هذا الانقلاب، عاد الملك ألفونس الثالث عشر إلى العرش، ولم يُعرف بالضبط دور بريمو دي ريفيرا في إعادة الملك. رئيس حكومة، فشكّل إدارة عسكرية ألغت الحريات الديمقراطية. لم يستطع القضاء على الحركة الاستقلالية في كاتالونيا. (قتالونيا او قتلونيا) أسّس (١٩٢٤) حزب الاتحاد الوطني الذي ضمّ كل مؤيدي الإدارة العسكرية. قضى على «ثورة الريف» في المغرب التي كانت بقيادة عبد الكريم. تفاقمت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ولم يستطع حلّها، فقدّم استقالته واستقالة حكومته (كانون الثاني ١٩٣٠)، ثم هاجر إلى باريس حيث توفي بعد نحو شهرين.

* **خوان كارلوس دو بوربون** Juan Carlos, D.B. (١٩٣٨-): ملك إسبانيا منذ ١٩٧٥. ولد في روما. حفيد الملك ألفونس الثالث عشر الذي أقصي عن العرش الإسباني في ١٣ نيسان ١٩٣١. وعلى الرغم من أن والده، دون خوان، هو الابن الأصغر لألفونس، إلا أن العاهات الجسمانية اضطرت عميه على عدم المطالبة بالعرش، وعلى حصر هذا الحق بوالده وبه من بعده. بعد موت ألفونس الثالث عشر (١٩٤١)، رفض الجنرال فرنكو، رغم إيمانه بالملكية، ترك السلطة لدون خوان الذي كان يطالب بالعرش. وقد أراد فرنكو أن يكون الوصي السياسي على خوان كارلوس الذي كان يتلقى العلم في سويسرا. وفي ١٨ كانون الثاني ١٩٥٥، عاد خوان كارلوس إلى مدريد، حيث أمضى خمس سنوات طالباً في الأكاديميات العسكرية للأسلحة الثلاثة (الجوية، البحرية والبرية). وفي ١٩٦٢، تزوج من الأميرة صوفي شقيقة ملك اليونان قسطنطين. وفي ٢٢ تموز ١٩٦٩، عيّنه فرنكو خليفة له على أن يسترجع خوان كارلوس لقب ملك. وقد أراد فرنكو، من وراء هذا التعيين الذي اعتبر تجاوزاً لحقوق دون خوان (والد خوان كارلوس) في العرش، أن يظهر كمؤسس لملكية تنطلق منه شخصياً وليس من حق العائلة الملكية دو بوربون في العرش الإسباني. وقد هدّد، للوصول إلى هذا الهدف، بتعيين ألفونسو دو بوربون دامبيار، وهو حفيد آخر للملك ألفونس الثالث عشر وزوج حفيدة فرنكو. فاضطر خوان كارلوس لقبول العرش بهذا الشكل. وفي تشرين الثاني ١٩٧٥، توفي فرنكو، فخلفه خوان كارلوس تحت إسم الملك خوان كارلوس الأول. فباشر

بانتهاج سياسة مناقضة لسياسة فرنكو الاستبدادية. فسمح بحرية نشاط الأحزاب السياسية (ومنها الحزب الشيوعي الإسباني)، وطبّق سياسة لامركزية في الحكم وأفرج عن المعتقلين السياسيين. وانفتح على السوق الأوروبية المشتركة. فطالب بالانضمام إليها، واستمر على انتهاج الصداقة والتعاون مع العرب التي كان قد سبقه إليها فرنكو. وأنجز إكمال انسحاب إسبانيا من الصحراء المغربية. زار اسرائيل (تشرين الثاني ١٩٩٣).

* **سواريز غونزالت، أدولفو** Suarez, G.A. (١٩٣٢–): سياسي ورجل دولة إسباني. الحاكم المدني لمقاطعة سيغوفيا حتى ١٩٦٩. المدير العام للإذاعة والتلفزيون. نائب السكرتير العام لحزب الفالانج (حتى ١٩٧٥). ثم سكرتير عام (١٩٧٥–٧٦). رئيس الوزراء (١٩٧٦–٨١)، ويترأس، منذ ١٩٧٧، اتحاد الوسط الديمقراطي. من أنصار تنمية التبادل والتعاون مع الدول العربية.

* **سوتيلو، ليوبولدو كالفو** Sotelo, L.C. (١٩٢٥–): سياسي ورجل دولة إسباني ليبرالي. درس هندسة الجسور وعمل في هذا القطاع. وزير التجارة في أول حكومة ملكية. وزير الأشغال العامة في الحكومة الثانية. سياسي مستقل. من أكثر المقربين لرئيس الحكومة أدولفو سواريز وقام بدور أساسي (١٩٧٧) في تنظيم «اتحاد الوسط الديمقراطي»، وهو الحزب الذي يتزعمه سواريز. شغل لمدة ثلاثة أعوام منصب الوزير المكلف بالعلاقات العامة مع دول المجموعة الأوروبية. النائب الثاني لرئيس الوزراء سواريز ووزير الشؤون الاقتصادية (١٩٨٠).

* **غونزاليس، فيليبي** Gonzales, Felepe (١٩٤٢–): سياسي ورجل دولة إسباني، وأول رئيس وزراء إسباني منذ نهاية نظام فرنكو. ولد في عائلة متواضعة في مدينة أشبيلية الأندلسية. بدأ نشاطاً كاثوليكياً أثناء دراسته الحقوق، ثم التفت يساراً إثر تعرفه على ناشطين يساريين من أميركا الجنوبية في الفترة التي أمضاها في جامعة لوفان الكاثوليكية في بلجيكا. عند عودته إلى إسبانيا تقرب من ألفونسو غيرا الذي كان أحد زملائه في الجامعة والذي أصبح الرجل الثاني في الحزب الاشتراكي. انضم إلى تنظيم الشباب الاشتراكي(١٩٦٢)، وبعد عامين أصبح عضواً في الحزب الاشتراكي العمالي (تأسس منذ ١٨٨١) الذي كان يجتاز وقتها مرحلة انتقالية يعيد فيها تنظيم عمله السري. جال في أنحاء الأندلس وإسبانيا يتعرف على الصراعات الاجتماعية وحاجات العمال يساعده على ذلك عمله كمحام في مكتب استشارات قانونية أنشأه هو وبعض المحامين.

كان أول من انتقد الزعماء التاريخيين للحزب المنفيين في فرنسا منذ هزيمة الجمهوريين في الحرب الأهلية (مؤتمر الحزب في بايون جنوب فرنسا العام ١٩٦٩). وحصل انشقاق في الحزب عندما رفض هؤلاء حضور المؤتمر الثاني عشر (١٩٢٧ في تولوز– فرنسا)، انتهى لصالح التيار التجديدي الذي حصل على اعتراف الأممية الاشتراكية. وكان ألفونسو غيرا أحد صانعي هذا التحوّل. وفي المؤتمر التالي المنعقد في ١٩٧٤ في ضواحي باريس، أصبحت القيادة كلها، ولأول مرة منذ نهاية الحرب الأهلية، مؤلفة من أعضاء مقيمين في اسبانيا. واختير غونزاليس أميناً عاماً، واعتبر وقتها انه لن يكون أكثر من قائد مرحلي، إلا أنه أظهر حنكة ونشاطاً جعلا منه بعد فترة وجيزة الزعيم الفعلي للحزب. فأخذ يعيد تنظيم الحزب تمهيداً لمرحلة ما بعد فرنكو. وبعد أشهر على وفاة فرنكو، استطاع الحزب أن يعقد مؤتمره في اسبانيا (للمرة الأولى منذ أربعين سنة). وقد حضره زعماء الأممية الاشتراكية جميعاً.

ونجحت جهود غونزاليس في انتخابات ١٩٧٧، إذ ظهر حزبه كأقوى تنظيم في المعارضة بعد تقهقر الشيوعيين. وقد دعّم هذا النجاح خط غونزاليس المعتدل. كما شارك الحزب الاشتراكي في وضع الأطر الدستورية والسياسية لعودة الديمقراطية إلى اسبانيا. وفي هذا السياق، دخل غونزاليس في صراع مع الجناح اليساري، وبعد محاولة أدّت إلى استقالته لأشهر استطاع أن يفرض على المؤتمر (١٩٧٩) حذف الالتزام بالماركسية من دستور الحزب. بذلك أكمل تحويل الحزب إلى تنظيم اشتراكي ديمقراطي على غرار قرائنه الألمان والنمساويين الذين كانوا منذ البدء من أشد دعائمه. وعندما فاز الحزب في انتخابات ١٩٨٢، حكم غونزاليس وفق هذه المبادئ الوسطية القائلة بأن على الاشتراكيين إنجاز الثورة البورجوازية في اسبانيا ومعتبرة بأن واجبهم تحديث البلاد وتمتين الديمقراطية فيها. وقد توّج غونزاليس هذا التوجّه بنجاحه في إدخال إسبانيا إلى السوق الأوروبية المشتركة، حيث الخط الوسطي غالب على الدول الأعضاء.

* **فراغا، مانويل** Fraga, M. (١٩٢٢–):

سياسي إسباني، شغل منصب وزير الاعلام والسياحة في عهد فرنكو، ثم منصب وزير الداخلية، في أول حكومة اسبانية تم تشكيلها في عهد الملك خوان كارلوس. قابل تصاعد قوى اليسار بتأسيس «التحالف الشعبي» الهادف إلى تجميع قوى اليمين كافة. نصّب نفسه مدافعاً عن الأسرة والملكية الخاصة ومناهضاً للشيوعية، ونجح، إلى فترة، في استقطاب أنصار فرنكو.

• **فرنكو باهاموند، فرنشيسكو** Franco B., F. (١٨٩٢–١٩٧٥): جنرال ورجل دولة إسباني. تخرّج في مدرسة المشاة في طليطلة (١٩١٠)، وخدم في المغرب من ١٩١٤ إلى ١٩٢٧، حيث كان في الأعوام الأربعة الأخيرة قائداً للفرقة التي كانت تحارب قوات الزعيم المغربي عبد الكريم الخطابي (قائد ثورة الريف المغربي)؛ وقد رقي إلى رتبة جنرال في ١٩٢٥. بعد عودته إلى اسبانيا (١٩٢٧)، عين رئيساً لمدرسة سرغسطة الحربية. أوفد (١٩٣٣) إلى جزر الباليار، ثم استدعي إلى مدريد في العام نفسه عقب انتصار اليمين وعين قائداً لأركان الجيش. تولى (١٩٣٤) حملة قمع حركة عمال مناجم استورياس المضربين عن العمل. ومع مجيء حكومة الجبهة الشعبية (التي خلفت حكومة اليمين)، أُبعد فرنكو من مدريد ونقل إلى جزر الكناري، وهناك هيّأ لانقلاب ١٩٣٦ الذي أطلق شرارة حرب أهلية مدمّرة استمرّت حتى ١٩٣٩. على اثر الانقلاب (١٩٣٦)، عيّن قائداً عاماً للجيش ورئيساً للحكومة، وجمع، في ١٩٣٨، بين رئاسة الدولة ورئاسة الحكومة وقيادة القوات البرية والبحرية. وفي ١٩٣٩، استقرّ في مدريد (إثر هزيمة الجبهة الشعبية في الحرب الأهلية)، وأصبح يلقّب بـ«الكوديّو»، أي الزعيم والقائد الأعلى. وقد استلهم مبادئ حزبه، حزب الفالانج (أي الكتائب) في بناء مؤسسات الدولة الإسبانية، وأعلن حياد بلاده في ١٩٣٩، ثم امتناعها عن التدخل في الحرب (١٩٤١)، وذلك رغم الضغوط التي تعرّض لها من هتلر وموسوليني اللذين كانا قد دعماه وساعداه إبان الحرب الأهلية. وفي ١٩٤٠، التقى هتلر في هنداي، وأقدم على احتلال طنجة (التي أجلي عنها في ١٩٤٥)، بيد أنه تنصّل من تنفيذ مطلب ألمانيا بالسماح لقواتها المتوجهة إلى جبل طارق بالمرور عبر الأراضي الإسبانية. وفي ١٩٤٧، حمل فرنكو البرلمان على التصويت على قانون للخلافة على العرش يعيد نظام الملكية إلى إسبانيا. ولم يعمد فرنكو، الذي نُصّب وصياً على العرش مدى الحياة، إلى تعيين خليفته إلا في ١٩٦٩، حيث وقع اختياره على الأمير خوان كارلوس، ملك إسبانيا منذ ١٩٧٥. وقع فرنكو في ١٩٥٣ اتفاقيات اقتصاديات وعسكرية مع الولايات المتحدة سهّلت دخول بلاده إلى الأمم المتحدة في ١٩٥٥. ذلك ان اسبانيا كانت قد استبعدت من المنظمة الدولية بسبب تعاطف «الكوديّو» فرنكو مع النظامين النازي والفاشي في ألمانيا وايطاليا. واستمرّ فرنكو رافضاً الاعتراف باسرائيل وحريصاً على إقامة علاقات طيبة مع الأقطار العربية.

الفرنكوية والكارلوسية: أما «الفرنكوية» فهي تسمية تطلق على نظام الحكم الذي أقامه الجنرال فرنكو (١٩٣٩–١٩٧٥). يعرّفها المفكر الفرنسي موريس دوفرجيه بـ«الدكتاتورية الأبوية»، ويقول إنها لم تأتِ بجديد على الصعيد النظري. فقد اصطبغت بطابع موئسسها الذي كان رجلاً عسكرياً لا مفكراً. فالمعيار في الفرنكوية هو شخص فرنكو لا الدولة أو الحزب. وكيلا يكون فرنكو مسؤولاً أمام أي هيئة دستورية، روّج اعلامه للمبدأ الذي كان سائداً في عهد الملكيات المطلقة حيث كانت سلطة العاهل من سلطة الله وحده. فكان فرنكو، في الوقت نفسه، رئيساً للدولة، ورئيساً للحزب الواحد، وقائداً أعلى للجيش، وحامي الكنيسة. أي انه كان يفرض رقابته على دعائم نظامه الثلاث: الحزب والجيش والكنيسة. وقد كان محتماً على نظام متمحور حول شخص واحد أن يسقط حالما يغيب هذا الشخص. وهذا ما حصل فعلاً. فما إن توفي فرنكو (١٩٧٥) حتى انحسرت الفرنكوية عن اسبانيا.

وأما الكارلوسية فهي حركة سياسية اسبانية نوردها هنا لأنها على علاقة بفرنكو ونظامه. تعود بجذورها إلى الأزمة التي نشأت (ضمن أسرة البوربون الإسبان) بعدما ألغى فرديناند السابع سنة ١٨٢٠ أحد القوانين بهدف تنصيب ابنته ايزابيل الثانية على العرش؛ فرفض أخوه دون كارلوس الاعتراف بشرعية ايزابيل، وانشقّت الأسرة، واندلعت بين أنصار كل فريق حروب وثورات. والحركة الكارلوسية، رغم فشلها في الحروب، انشأت في ١٩١٨ حزباً تقليدياً بزعامة فازكيز دي ميلا، واستمرّت تحارب الملكية الدستورية البوربونية وتحلم بإقامة ملكية تيوقراطية واحياء البنى الإقطاعية لإسبانيا القرون الوسطى، وشكلت طليعة المقاتلين ضد سياسة العلمنة والتيار المضاد للإكليروس. وزاد الكارلوسيون من حدة نشاطهم بدءًا من ١٩٣٢، فاشتروا السلاح وتدربوا في الجبال وحضّروا للحرب الأهلية التي كانت معالمها قد بدأت ترتسم في أجواء إسبانيا. فتحالف زعيمهم، الكونت رودزنو مع الجنرالين مولا وسانجيرجو دون أن

ينجح بدفعها إلى تبني أفكار الكارلوسية. وعندما قامت الانتفاضة القومية (اليمينية) ضد حكم الجبهة الشعبية في ١٩٣٦، شارك الكارلوسيون بها منذ البداية وكانوا يشكلون مجموعة النخبة في صفوف فرنكو. لكن فرنكو أجبرهم، في نيسان ١٩٣٧، على حل حزبهم والانضمام إلى الفالانج (الكتائب). وبدأ التناقض يبرز بمعارضتهم رأي فرنكو بتنصيب الابن الصغير لألفونس الثامن ملكاً في المستقبل على اسبانيا، وطرد الكارلوسي كزافييه دي بوربون وابنه من الأراضي الاسبانية في كانون الأول ١٩٦٨.

* **كاريرو بلانكو، لويس** Carrero Blanco, L. (١٩٠٣-١٩٧٣): عسكري ورجل دولة إسباني من أركان نظام فرنكو. شارك في الحرب الأهلية، من خلال حشده وقيادته للقوات البحرية اليمينية في خليج بسكاي. عيّنه فرنكو نائب سكرتير رئاسة الحكومة (١٩٤١)، فأمضى في خدمة فرنكو ٣٢ سنة أكثر الناس قرباً إليه وخدمة لسياسته. لم تخلُ وزارة منه إلى أن عيّن رئيساً للحكومة في حزيران ١٩٧٣، إضافة إلى ترقّيه في الجيش حتى أصبح أميرالاً. يقال انه هو الذي أقنع فرنكو بإدخال التكنوقراطيين إلى الحكومة في ١٩٦٩، واختيار خوان كارلوس ليكون ملكاً. اغتيل في مدريد على يد أعضاء في منظمة إيتا المطالبة باستقلال الباسك. وبفقدانه، فقد النظام الفرنكوي كل أمل بالاستمرار نظراً لأنه كان يعتبر الخليفة الفعلي الوحيد القادر على ملء الفراغ بعد رحيل فرنكو.

* **كاريو، سانتياغو** Carrillo, Santiago (١٩١٥-): أمين عام الحزب الشيوعي الإسباني من ١٩٦٠ إلى ١٩٨٢. كان في الثامنة عشرة من عمره (أي في ١٩٣٣) عندما أصبح أمين عام «الشبيبة الاشتراكية»، وفي سن العشرين، دخل السجن، وبدأت شخصيته تلتمع كأحد الوجوه البارزة في الحركة الاشتراكية الإسبانية. وعندما اندلعت الحرب الأهلية، كان كاريو في باريس، فتركها على الفور وعاد إلى مدريد حيث انضمّ إلى الحزب الشيوعي، وحذا حذوه العديد من أعضاء الشبيبة الاشتراكية. وبعد انتصار فرنكو (١٩٣٩)، غادر كاريو اسبانيا متنقلاً بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة والأرجنتين والجزائر. وبعد ١٩٤٤، أقام فترة في فرنسا حيث عمل على إعادة تنظيم الحزب الشيوعي داخل اسبانيا، وأصبح (١٩٦٠) الأمين العام للحزب بفضل تأييد الزعيمة الشيوعية المعروفة، دولوريس إيباروري، الملقبة بـ «باسيوناريا».

بعد موت فرنكو، عاد كاريو إلى بلاده (١٩٧٦) وأخذ يضطلع بدور هام لا في إسبانيا فحسب بل في أوروبا أيضاً، وذلك من خلال طرحه «الشيوعية الأوروبية»، وتهجمه على «الشيوعية الجامدة». فقد وضع جانباً دكتاتورية البروليتاريا، واللينينية، وحتمية إقامة علاقات مميزة مع الاتحاد السوفياتي ذاهباً إلى حد نفي الطابع الاشتراكي عن تجربة هذا البلد. ولئن أكسبه هذا الطرح تأييد الملك، وتأييد اليسار الأوروبي الغربي بهذا القدر أو ذاك، لكنه أدّى في ما أدّى إليه، إلى إضعاف الانضباط والحماسة داخل الحزب الشيوعي الإسباني. وقام في الحزب من حمّل كاريو مسؤولية الهزيمة الكبرى التي مني بها الحزب في انتخابات ١٩٨٢ حيث لم يفز إلا بأربعة مقاعد في الكورتيس (البرلمان). واتضح أن الحزب خسر ٦٥٪ من محازبيه وناخبيه بين عامي ١٩٧٩ و١٩٨٢. وإزاء حجم هذه الهزيمة اضطرّ كاريو إلى الرضوخ أمام معارضيه في الحزب، فقدم استقالته من منصب الأمين العام، غير انه ظل عضواً في اللجنة المركزية واللجنة التنفيذية للحزب.

وعلى قدر ما كان كاريو رجل الانفتاح والتجديد على صعيد الطرح الفكري والعلاقات الخارجية، كان في الوقت نفسه رجلاً مستبداً على الصعيد التنظيمي الحزبي. فقد لجأ، طوال فترة ترؤسه للحزب الشيوعي الإسباني، إلى ضرب خصومه ومعارضي سياسته، وإلى إبعادهم وفصلهم. وقد تعاظمت موجة المعارضة التي استهدفته بعد استقالته من منصب الأمين العام، وأدت في نيسان ١٩٨٥، إلى إقالته من جميع مناصبه القيادية، دون أن تجرّده من صفته الحزبية.

* **كالفو سوتيلو، ليوبولدو** Calvo Sotelo, L. (١٩٢٢-): سياسي ورجل دولة إسباني. قام بدور أساسي في تأسيس وتنظيم حزب «اتحاد الوسط الديمقراطي» الذي تزعمه رئيس الحكومة الأسبق أدولفو سواريز. وزير التجارة في أول حكومة تشكلت بعد وفاة فرنكو، ثم وزير الأشغال، ثم نائب رئيس الوزراء سواريز، ثم وزير مسؤول عن العلاقات الإسبانية مع أقطار الأسرة الأوروبية. معروف بتفكيره المنهجي، وقدرته التنظيمية، وثقافته الواسعة (مكتبته تحوي أكثر من ١٥ ألف مجلد)، وخبرته الاقتصادية، وعلاقاته الوثيقة بالأوساط المالية.

* **نافارو، كارلوس** أرياس Navarro, C.A. (١٩٠٩-): سياسي إسباني من أنصار فرنكو. شكّل أول حكومة اسبانية في عهد الملك خوان كارلوس. أحد أركان وزارة الداخلية غداة الحرب الأهلية. مدير عام الأمن العام (١٩٥٧- ١٩٦٥). ارتبط اسمه بأحلك مراحل القمع التي عرفتها اسبانيا في ظل فرنكو. في حزيران ١٩٧٣، وبمناسبة تعديل وزاري على حكومة الأميرال كاريرو بلانكو، عهد إليه، نزولاً عند رغبة فرنكو، بحقيبة الداخلية. وبعد مصرع الأميرال بلانكو (اغتيل على أيدي ثوار باسكيين - منظمة إيتا)، كلّف تشكيل الحكومة (كانون الأول ١٩٧٣). وبعد وفاة فرنكو، واعتلاء الملك خوان كارلوس العرش (١٩٧٥)، كلف نافارو مجدداً تشكيل الحكومة، إذ وقع خيار الملك عليه بهدف طمأنة القوى اليمينية التي كانت لا تزال محتفظة بقدراتها كاملة، والتي تخوفت من صعود مفاجئ لليسار بعد غياب فرنكو. لكن نافارو فشل في أن يكون رئيس حكومة انتقالية وعجز عن تقديم الإصلاحات التي كان يترقبها الشعب. وعندما شعر بأن المد الليبرالي في اسبانيا غدا أقوى من أن يقاوم قدّم استقالة حكومته (تموز ١٩٧٧)؛ فطوت إسبانيا، مع رحيله عن الحكم، آخر صفحة في كتاب تاريخها الفرنكوي.

إستونيا

بطاقة تعريف

الموقع: تقع إستونيا في الجزء الشمالي الغربي من السهل الأوروبي الشرقي على الشاطئ الشرقي من بحر البلطيق. لها حدود مشتركة مع روسيا لجهة الشرق، ومع ليتونيا لجهة الجنوب. فنلندا والسويد جارتا إستونيا من الجهة المقابلة للبلطيق. طبيعة إستونيا هادئة وخلّابة. تغطي الغابات ٣٨٪ من أراضيها. فيها ١٥٢٥ بحيرة، و ١٥٢١ جزيرة، وأكثر من ٤٢٠ مجرى ماء. شاطئها كثير التعاريج، فيشكل عدداً كبيراً جداً من الخلجان الكبيرة والصغيرة.

المساحة: ٤٥,١٠٠ كلم٢.

العاصمة: تالّين، وفي البلاد نحو ٣٠ مدينة (راجع: مدن ومعالم).

السكان: نحو ١,٧ مليون نسمة (آخر التقديرات، ١٩٩٣): نحو ٦٥٪ منهم إستونيون، ٢٨٪ روس، ٣٪ أوكرانيون، و ٢٪ بيلوروسيون. نحو ٧٠٪ من مجموع السكان يقطنون المدن. يعتنقون المسيحية، والأكثرية الساحقة موزّعة بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة البروتستانتية اللوثرية. يمتاز الاستونيون بولعهم بالثقافة والآداب والفنون والموسيقى والغناء. وفي إستونيا حكاية أسطورية طالما يرددها الإستوني، وفيها وصية الأب لابنه: «إذا أردت أن تختار زوجة لك، فاختر فتاة تحب الغناء».

اللغات: الإستونية. وجميع السكان تقريباً يتكلمون الروسية أيضاً. في إحصاء رسمي جرى العام ١٩٦٥، تبين أن ٨٥٪ من العمال الإستونيين أصبحوا يتقنون الروسية. وبعد عشرة أعوام أصبحت هذه النسبة ٩٧٪.

الاقتصاد: الأراضي صخرية، وفيها القليل من الثروات المعدنية: أحجار الشيست، والفوسفور، والكلس، والأتربة العضوية. مناجم أحجار الشيست هي الأكبر والأهم في البلاد. مستوى الإنتاج الصناعي مرتفع في إستونيا، والأكثر تطوراً هي الصناعات الخفيفة والدقيقة التي لا تعتمد على المعادن، بل على القوة العقلية: صناعات

كهربائية وإلكترونية. وهناك مصانع للنسيج، خاصة في تالّين ونارفا، آخذة في النمو والتحديث. وكذلك مصانع لتعليب الأسماك وحفظها. وكانت إستونيا، قبل انفصالها عن الاتحاد السوفياتي، في طليعة الجمهوريات السوفياتية في ما يتعلق بإنتاج الكهرباء واستهلاكها بالنسبة إلى الشخص الواحد. وكانت مجمعاتها الكهربائية (المحطات) التي تستعمل أحجار الشيست تقدم الطاقة للجمهوريات المجاورة. وصادرات إستونيا تعادل، بصورة عامة وارداتها.

أما بالنسبة إلى الزراعة، فإن نسبة العاملين فيها تقارب النسبة في فنلندا مثلاً، لكن الفارق الذي يميز إستونيا عن فنلندا والبلدان الأخرى ان معدل إنتاج الحليب واللحوم في إستونيا، أهم إنتاج زراعي فيها، يفوق معدل إنتاجها في هذه البلدان: ١٤٠ كيلو لحم و ٨٠٠ ليتر حليب للشخص الواحد. إنها نتيجة لمكننة زراعية متطورة جداً. ويؤمن هذا الوضع دخلاً للفلاحين مرتفعاً عن دخل العمال، في حين ان الوضع معكوس في أكثر البلدان الأخرى.

نبذة تاريخية

منذ نحو عشرة آلاف سنة، بدأ صيّادو الرنّة يقصدون (ويقيمون) سواحل البلطيق. وفي الألف الثالث قبل المسيح، وصلت قبائل تنتمي إلى العنصر الفيني إلى المنطقة المسمّاة، في ما بعد، «إستونيا»، حيث استوطنت واندمجت بشعوب قدمت من مناطق بلطيقية واسكندينافية. وأساس تسمية «إستونيا» هو «إيستلند» (أي بلاد الإيست) الذي أطلقه عليها أجداد الاسكندينافيين والتوتونيين (الفرسان الجرمانيين) واللغة الاستونية قريبة من الفينية (الفنلندية)، والهنغارية والموردفية.

بدأ الإستونيون، في الواقع، يعون خصوصياتهم كأمة في القرن العاشر، حيث تثبت مخطوطاتهم العائدة إلى هذا القرن استعمالهم لعبارة «مارهفاس» التي تعني «شعب أرضنا»، في حين أن مخطوطات الشعوب الأخرى المجاورة (وشعوب أوروبا الغربية) كانت لا تزال تشير إليهم بعبارة «التشود» أو «الإيست». وابتداءً من القرن الثاني عشر، بدأ استعمال اسم «إستوني» يتسع ويتعمم. وفي ذلك الوقت، أي بين القرن العاشر والقرن الثاني عشر، كان الجزء الجنوبي الشرقي من إستونيا خاضعاً لروسيا.

في بداية القرن الثالث عشر، غزا الاقطاعيون الألمان البلاد، فكانت مناهضة الاستونيين لهم عاملاً مهماً في تسريع وعيهم القومي. وخلال هذا القرن، اعتنق الاستونيون الكثلكة، ثم في عصر الإصلاح (القرن السادس عشر)، اعتنقوا البروتستانتية (اللوثرية). في ١٢١٩، بنى الدانماركيون (الذين كانوا حلّوا محل الألمان) العاصمة تالّين.

بعد ثورة الفلاحين الكبرى (١٣٤٣- ١٣٤٥)، باع الفرسان التوتانيون (الألمان)، الذين كانوا يستعبدون الفلاحين، إستونيا إلى الدانماركيين (١٣٤٦). وفي عهد ايفان الرابع الرهيب احتلّ الروس، الذين كانوا يتوقون إلى منفذ بحري على البلطيق، نارفا وتارتو (١٥٥٨- ١٥٨١). وفي ١٥٦١، احتلّت السويد والدانمارك وبولونيا باقي أجزاء إستونيا. وفي القرن السابع عشر، خضعت بكاملها للسويديين الذين حملوا إليها البروتستانتية (اللوثرية) وأسسوا جامعة تارتو (١٦٣٢).

خلال حرب الشمال (١٧٠٠- ١٧٢١)، احتلّ بطرس الأكبر إستونيا (١٧١٠) فتخلت السويد عنها للروس بموجب معاهدة نيستاد (١٧٢١)، حيث تخلّت لهم، في الوقت نفسه، عن ليفونيا. وفي بداية القرن التاسع عشر، ألغي نظام العبودية في البلاد، وفي أواخره برز كتّاب إستونيون يناهضون سياسة القيصر الروسي، الإسكندر الثالث، الداعية إلى تروسة (جعله روسياً) جميع الأقاليم الخاضعة لروسيا. ومن أبرز هؤلاء الأدباء ف. كروتزوالد و ج. لييف.

في إطار الاتحاد السوفياتي والشيوعية

بعد ثورة آذار ١٩١٧ في روسيا، منحت الحكومة الروسية المؤقتة إستونيا استقلالها (مرسوم ١٢ نيسان ١٩١٧). لكن، بعد ثورة أوكتوبر البلشفية (١٩١٧)، قامت، في إستونيا، سلطة سوفياتية (٢٨ تشرين الثاني ١٩١٧). وفي شباط ١٩١٨، هاجم الألمان إستونيا، وتخلى البلشفيك عن تالّين، وفي ٢٤ شباط (١٩١٨)، أعلنت الحكومة الإستونية المؤقتة الاستقلال. وبموجب معاهدة برست ليتوفسك (٣ آذار ١٩١٨)، تخلّى الروس للألمان عن بلدان البلطيق. ثم عادت إستونيا وأعلنت استقلالها في اليوم نفسه الذي استسلمت فيه ألمانيا؛ واعترف البلشفيك بهذا الاستقلال بموجب معاهدة تارتو (٢ شباط ١٩٢٠). وفي آذار ١٩٣٤، أقام رئيس الجمعية الوطنية الإستونية، ك. براتس، نظاماً دكتاتورياً في البلاد. وعادت إستونيا وفقدت استقلالها من جديد عندما احتلّها الجيش الأحمر في أوائل الحرب العالمية الثانية، وأُعلنت (أول آب ١٩٤٠) «جمهورية اشتراكية سوفياتية». احتلّها الألمان (آب ١٩٤١)، ثم هُزموا أمام الجيش الروسي وانسحبوا منها (١٩٤٤)، فحل محلهم الروس.

انقضى نصف قرن على وجود إستونيا في إطار الاتحاد السوفياتي والنظام الاشتراكي الشيوعي (١٩٤٠ – ١٩٩٠)، أي في إطار دولة شدّدت، طيلة وجودها (١٩١٧ – ١٩٩٠)، على «علاقات المساواة في الحقوق بين أكثر من مائة شعب وإتنية ! تتكون منها. وكانت إستونيا نفسها تتمتع بحق تقرير المصير بما فيه حق الانفصال عن هذه الدولة السوفياتية الاتحادية. فالمادة ٦٩ من دستور جمهورية إستونيا الاشتراكية السوفياتية تنصّ على احتفاظ إستونيا «بحق الانفصال، وبحرية، عن اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية».

ومن خلال منشورات سوفياتية، صدرت إبان الفترة السوفياتية، يمكن اقتطاع معلومات، مدعومة بأرقام، وخاصة بإستونيا السوفياتية:

– ٨٥٪ من العمّال الإستونيين كانوا يتكلمون الروسية في العام ١٩٦٥، وبعد مرور عقد واحد من الزمن أصبحت هذه النسبة ٩٧٪.

– بعد افتتاح خط بحري للمسافرين بين تالّين وهلسنكي (١٩٦٥)، قفزت إستونيا لتحتلّ المرتبة الأولى في الاتحاد السوفياتي من حيث عدد السوّاح الأجانب، إذ أصبح معدّل هؤلاء في الثمانينات ١٣٠ ألف سائح سنوياً من أكثر من ٤٠ بلداً أجنبياً، خاصة من فنلندا، والسويد، وبريطانيا، وكندا، والولايات المتحدة، وبولونيا ودول اشتراكية أخرى.

– لا تشكّل إستونيا أكثر من ٠٫٢٪ من كامل أراضي الاتحاد السوفياتي، ولا أكثر من ٠٫٦٪ من مجموع سكان الاتحاد السوفياتي، ومع ذلك أصبحت تساهم، في الثمانينات، بنحو ٢٪ من الإنتاج الكهربائي السوفياتي، و٩٫١٪ من إنتاج الورق، وأكثر من ١٥٪ من التجهيزات النفطية، و٤٪ من المحركات الكهربائية، و٥٫١٪ من الحليب. وبين عامي ١٩٤٠ و١٩٨٠، تضاعف الحجم الإجمالي للإنتاج الصناعي ٤٧ مرة.

– معدّل البطالة في إستونيا لم يتجاوز ٥٪ من مجموع اليد العاملة، وهو أدنى معدّل بين جمهوريات الاتحاد السوفياتي، بل في أوروبا. وفي العقد نفسه (الثمانينات)، نحو مليون مواطن حسّنوا من ظروف سكنهم.

– في مجال الصحة والتعليم، المعدّلات تقارب (أو أنها أفضل في مجالات كثيرة) معدّلات بريطانيا، وألمانيا، وايطاليا وفرنسا.

– في الثقافة، المعدّلات والنسب، هنا، تفوق معدّلات ونسب الدول الغربية المتقدمة. في

احتفال في العاصمة تالّين إحياءً لذكرى ثورة أكتوبر

إستونيا ١٠ مسارح محترفة، تسجّل مليون ونصف بطاقة دخول سنوياً (ما يعادل عدد السكان). وأكثر من مليون إستوني يزورون المتاحف سنوياً. وفي إستونيا أكثر من ٣ آلاف كاتب ورسّام ومؤلف وفنّان مسرحي. يعتقد علماء الاجتماع أن الإستونيين شديدو التعلق بالآداب الجميلة، وبعدها بالموسيقى، ثم المسرح. يعود تاريخ أول كتاب إستوني إلى العام ١٥٢٥؛ وفي العام ١٩٧٥، أي بعد ٤٥٠ سنة، كان قد صدر ٨٥ ألف كتاب باللغة الإستونية، يبلغ عدد نسخها ٣٥٠ مليون نسخة. أكثر من نصفها طُبع ووُزّع في فترة الجمهورية السوفياتية (١٩٤٠- ١٩٧٥). وفي الثمانينات، صدر ٢٠٠٠ كتاب سنوياً (حوالي ١٥٠٠ باللغة الإستونية)، يبلغ عدد نسخها حوالي ١٧ مليون نسخة (١٣ مليوناً باللغة الإستونية). وهذا يعني أن هناك ١١ كتاباً لكل مواطن؛ وهو أعلى معدّل في العالم.

الانفصال والاستقلال

في كتيّب سوفياتي رسمي عن إستونيا صادر في العام ١٩٨٢، ثمة ما يشير إلى اعتراف السوفيات بالنزعة الاستقلالية لشعوب البلطيق ولو مداورةً. ففي الكتيّب، هذه الفقرة: «يروّجون في الغرب فكرة ان إستونيا وليتونيا ولاتفيا طالما هي مستعبدة من الدولة السوفياتية الأقوى. في الحقيقة، إن شعوب هذه الجمهوريات هي التي اختارت مصيرها بملء إرادتها. وصحيح أن قوى كثيرة، في بلدان البلطيق، كانت معارضة بقوة للسلطة السوفياتية، وكان هناك أشخاص كثيرون يحملون قناعات سياسية غير محددة بشكل صحيح، فلم يفهموا كل تعقيدات الوضع الدولي، ولا حدة الصراع الطبقي...».

وما إن بدأ عهد الزعيم السوفياتي غورباتشوف، ومعه البيريسترويكا، حتى تصدرت دول البلطيق، بما فيها إستونيا، المسار الذي أدّى إلى انفصال الجمهوريات السوفياتية وإعلان استقلالها. وكان يوم ٢٣ آب ١٩٨٧ مشهوداً بمظاهرات ضخمة عمّت دول البلطيق وهي تهتف ضد
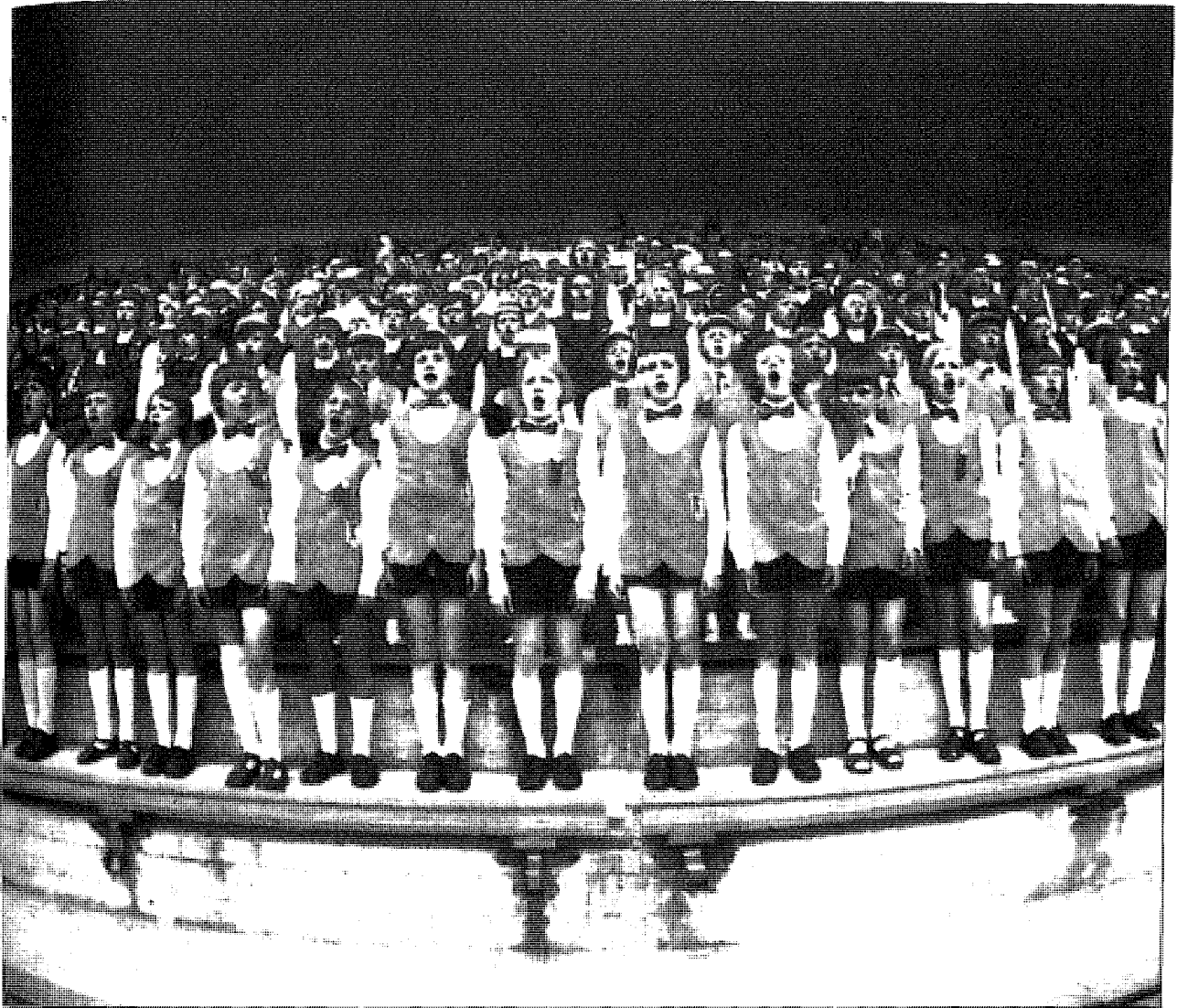
يعشق الاستونيون الموسيقى والغناء. هناك ٢٠/١ من الاستونيين عضو في جوقة موسيقية

ذكرى الانضمام إلى الاتحاد السوفياتي، وتطالب بالانفصال والاستقلال.

وفي ١٧ آذار ١٩٩١، رفضت إستونيا وخمس جمهوريات سوفياتية (لاتفيا، ليتونيا، مولدافيا، جورجيا، أرمينيا) المشاركة في الاستفتاء حول بقاء الاتحاد السوفياتي كاتحاد متجدد بين جمهوريات سيّدة ومتساوية في الحقوق. وفي أيلول ١٩٩١، أعلنت إستونيا استقلالها.

وما ان أعلن الاستقلال حتى بدأت تطفو على سطح العلاقات بين إستونيا وروسيا نقاط خلاف، بعضها أوصل هذه العلاقات إلى درجة من التوتر السياسي. وأهم هذه النقاط تلك المتعلقة بوجود قوات روسية على الأراضي الإستونية. ففي أيار ١٩٩٣، هاجمت حكومة إستونيا موسكو لتأخرها في سحب قواتها من إستونيا، واتهمت هذه القوات بمجموعة من المخالفات راوحت بين التخلص من النفايات السامة بطريقة غير مشروعة وتهريب المعادن على نطاق واسع. وقال لينارت ميري، رئيس جمهورية إستونيا: «إن زمن الامبراطوريات الاستعمارية انتهى، ولكن في روسيا هناك قوى ترغب في استعادة الامبراطورية الاستعمارية، ووجود الوحدات العسكرية الروسية في إستونيا عنصر رئيسي لعدم الاستقرار». وينتمي رئيس إستونيا إلى حزب «الوطن الأم» الذي يدعو إلى التخلص السريع من بقايا الحكم السوفياتي الذي دام من ١٩٤٠ إلى ١٩٩١. وقال: «نود التوصّل إلى اتفاق مع روسيا على سحب القوات، والمشكلة الكبرى ان روسيا لم تحدد تاريخاً واضحاً لانسحابها من إستونيا. وهناك نحو ٨ آلاف جندي روسي في إستونيا، وهي جمهورية ذات أهمية استراتيجية لروسيا، إذ فيها مفاعلان نوويان وقاعدة بحرية لتدريب الغواصات في بالديكسي».

مشكلة الأقلية الروسية: في إستونيا أقلية روسية كبيرة يبلغ تعدادها نحو نصف مليون نسمة. ويعتبر القسم الأكبر من هؤلاء مستوطنين استخدمتهم موسكو لتعزيز الهيمنة السوفياتية على دول البلطيق التي ضمتها العام ١٩٤٠. وقد أصدرت إستونيا، بعيد الاستقلال، «قانوناً للأجانب»، يمهل غير الإستونيين، عامين ليقدموا طلباً للحصول على الجنسية أو على إجازة إقامة. وأثار هذا القانون ردود فعل عنيفة من قبل موسكو التي نددت بسياسة «التطهير العرقي» التي تعتمدها إستونيا، وهددت بفرض عقوبات اقتصادية على إستونيا. فرفض الرئيس ميري توقيع القانون إثر مشاورات مكثفة في إستونيا ومع خبراء دوليين، وطلب من المجلس الأوروبي وخبراء مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي درسه. فاعتبر هؤلاء أن القانون لا يفي بالمعايير القانونية الأوروبية، وانه يجب تعديله لتخفيف التوترات.

وذهبت الأقلية الروسية (نحو ثلث السكان) المتواجدة خاصة في منطقتي نارفا وسيلاماي في شمال شرق إستونيا إلى حد تنظيم استفتاء (بإشراف السلطات البلدية في المنطقتين) حول: «هل تؤيدون حصول نارفا على استقلالها الذاتي داخل إستونيا». وجاءت النتيجة (في تموز ١٩٩٣) لمصلحة الاستقلال الذاتي، وأعلنت السلطات البلدية ان ٩٧٪ من ناخبي نارفا و ٩٨,٦٪ من ناخبي سيلاماي صوّتوا لصالح الاستقلال الذاتي لهاتين المدينتين الصناعيتين اللتين يشكل الناطقون بالروسية معظم السكّان فيهما.

وفور إعلان النتيجة، صرّح فلاديمير تشويكين، رئيس مجلس نارفا البلدي ان المسؤولين في هذه المدينة «مستعدون منذ اليوم لإجراء حوار مع الحكومة الإستونية المتهمة باتّباع سياسة تمييز حيال الأقلية الناطقة بالروسية في إستونيا». واعتبر ان نسبة المشاركة في التصويت كافية لإظهار رغبة الناطقين بالروسية في الضغط على تالّين (عاصمة إستونيا) للحصول على حقوقهم السياسية، بعدما أقرّ برلمان إستونيا قانوناً يحرم منها ذوي الأصل الروسي. وكانت السلطات الإستونية أعلنت مسبقاً عدم شرعية الاقتراع، ولكنها تعهدت عدم التدخل. وحذر تشويكين من أنه في حالة عدم تصديق سلطات تالّين على النتائج فستحتفظ سلطات نارفا لنفسها بحق تقديم شكوى إلى محكمة دولية.

هناك ١١ كتاباً كل سنة لكل مواطن.
وهو اعلى معدّل في العالم

مدن ومعالم

* **تارتو** Tartu: ثاني مدينة من حيث الأهمية بعد العاصمة تالّين. قديماً كانت تدعى دوربات. تقع على نهر الأمبا الذي ينبع من جبال الأورال. فيها جامعة قديمة، ومشهورة بأنها مدينة العلم في إستونيا. فيها بدأت الاحتفالات الفولكلورية الشهيرة التي لا تزال البلاد تحتفل بها كل خمس سنوات، وكان ذلك عام ١٨٦٩. نحو ١٧٥,٠٠٠ن.

* **تالّين** Tallin: عاصمة البلاد. عدد سكانها نحو نصف مليون ن. تذكر بعض المصادر ان الجغرافي العربي الأدريسي ضمن خريطته عن العالم إسم «كلاواني»، ويعتقد ان هذا الإسم يعود إلى مدينة تالّين المشهورة بقلاعها منذ ذلك الزمن، أي عام ١١٥٤. وقد جاء في كتاب «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» للمؤرخ كراتشكوفيسكي وترجمة صلاح الدين هاشم ما يلي: «وقد بلغت معرفة الادريسي شمالاً بلاد البلطيق».

«تومبيا» (Toompea)، أو «المدينة العالية»، هي مركز تالّين التاريخي. فيها ضريح البطل العملاق الأسطوري كاليف، زعيم أجداد الإستونيين. والضريح شيدته زوجته ليندا. وهناك متنزه كادريورغ الذي أسسه بطرس الأكبر في القرن الثامن عشر. ولا يزال أحد شوارعها (شارع بيك) يوحي، ببيوته القديمة على الجانبين، بأنه قطعة من القرون الوسطى. وثمة أزقة أخرى في المدينة تشبه أزقة أية مدينة قديمة في الكثير من البلاد: طرق ضيقة مرصوفة بحجارة البازلت السوداء الحمراء الزرقاء الداكنة. وتدعى هذه الأزقة باللغة الإستونية «السكيك»، وهي نفس الكلمة العربية الفصيحة التي تعني الطرق الضيقة. وهذا التطابق اللغوي مترافق ولا شك مع ما وجده المنقبون هناك من الكثير من العملات العربية مدفونة بين آثار المدينة، وكذلك وجدوا سيفاً مكتوباً عليه بلغة عربية واضحة إسم الأمير العربي الذي أهداه إلى أمير إستوني.

أما أشهر ما يعرفه العالم عن تالّين فهو الاحتفالات الفولكلورية التي يسمّيها البعض عيد التراث الشعبي الذي يقام في الأيام الثلاثة الأولى من شهر تموز كل خمس سنوات (واحتفالات مشابهة تشمل بلدان البلطيق الأخرى). أول احتفال يعود إلى ١٨٦٩ وجرى في مدينة تارتو (العاصمة الثانية للبلاد). ثم توالى قيام الاحتفلات بعد ذلك في العاصمة تالّين. والمغزى منها إحياء الروح القومية والوعي القومي، خاصة وأن إستونيا، كما باقي بلدان البلطيق، تناوب على حكمها دانماركيون وسويديون

القلعة الشعار لمدينة تالّين

وقياصرة روس وبارونات ألمان وغيرهم.

تعتمد تالّين اقتصادياً على الإنتاج الصناعي من الخشب والورق والبترو-كيماويات والصناعات التحويلية الدقيقة والزراعة وصيد السمك وتعليبه.

* **نارفا** Narva: مدينة ومرفأ نهري في إستونيا. تقع على نهر نارفا (أو ناروفا)، طوله ٧٨كلم، ينبع من بحيرة تشودسك ويصبّ في خليج فنلندا. نحو ٦٢,٠٠٠ن. مركز صناعي مهم (أقمشة). أسسها الدانماركيون في ١٢٢٣. احتلها (١٣٤٧) التوتونيون (الألمان)، وإيفان الرهيب (١٥٥٨)، ثم السويديون (١٥٨١). فيها انتصر شارل العاشر (الملك السويدي) على الروس (١٧٠٠). استعادها بطرس الأكبر (١٧٠٤) وحوّلها إلى موقع محصّن. وفيها أيضاً أوقف البلشفيك تقدم الالمان باتجاه بتروغراد (٢٣ شباط ١٩١٨- أصبح هذا اليوم عيد تأسيس الجيش الأحمر على الرغم من أنه انشئ بموجب مرسوم في ٢٨ كانون الثاني ١٩١٨). وفي السنة التالية، ضمّت نارفا إلى إستونيا.

«ڤيشغورود»، النواة التاريخية لمدينة تالّين
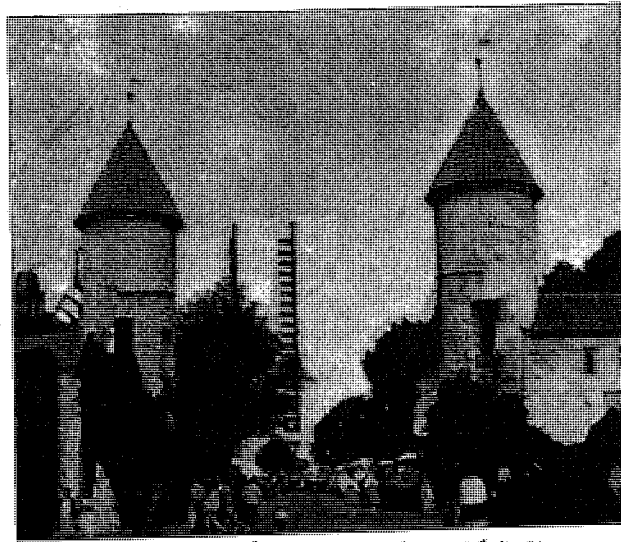
بوابة «السكيك» (السكة – الطريق) في تالّين
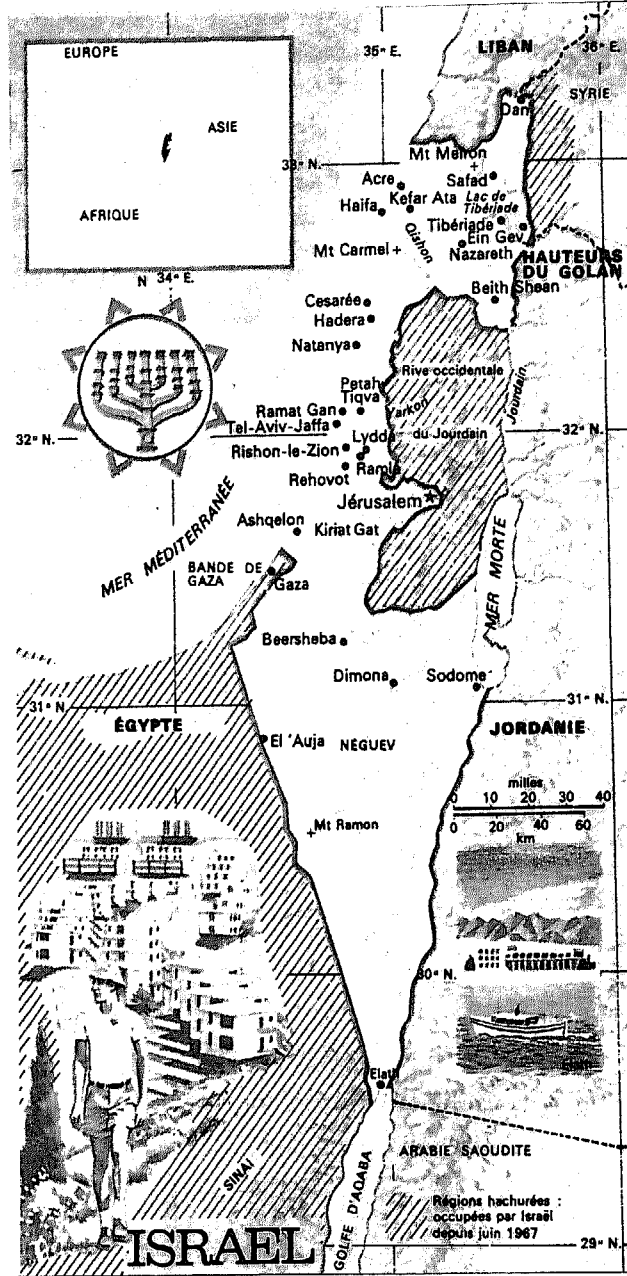
خريطة فلسطين المحتلة في ١٩٤٨. والخطوط المائلة تشير إلى المناطق التي احتلتها اسرائيل في ١٩٦٧.

إسرائيل

الاسم والبداية

كلمة «اسرائيل» من أصل كنعاني. «إسر» ومعناها جندي، و «إيل» ومعناها الإله. جاء ذكر كلمة «اسرائيل» لأول مرة في الشواهد التاريخية على المسلة التي نصبها فرعون مصر مرنبتاح بعد غارته على فلسطين سنة ١٢٢٥ق.م. إذ يقول «لقد نسفت عسقلان واكتسحت جزر ودمرت اسرائيل واقتلعت جذورها فأصبحت فلسطين أرملة لمصر». وقد استخدمت الكلمة أيضاً للإشارة إلى مملكة اسرائيل القديمة والتي حكمها شاوول وداوود وسليان حوالى ١٠٢٠ – ٩٢٢ق.م. وحينما انقسمت هذه

المملكة إلى مملكتين، احتفظت إحداهما بهذا الاسم أي مملكة «اسرائيل» فيما عرفت الأخرى بمملكة «يهودا»، إلى أن جاء الأشوريون وقضوا على مملكة اسرائيل سنة ٧٢٢ق.م. كما وضع نبوخذنصّر حداً لمملكة يهودا بعد أن دمّرها وحرق الهيكل وسبى سكّانها إلى بابل (٥٨٦ق.م.)، إلا أنه حين احتلّ الفرس البلاد أعاد الملك الفارسي قورش الأسرى اليهود من بابل إلى فلسطين (٥٣٩ق.م.) وسمح لهم بإعادة بناء الهيكل، وعرفوا منذ ذلك التاريخ باسم اليهود. وفي سنة ١٣٥م استطاع الامبراطور الروماني، هادريان، إخماد تمرد قام به اليهود وحول مدينة أورشليم، عاصمتهم، إلى مستعمرة رومانية، كما حرّم على اليهود الإقامة فيها أو الدخول إليها، وبذلك قضى على الكيان اليهودي الذي غاب عن الوجود ١٨١٣ عاماً وبصورة متواصلة، أي من سنة ١٣٥ إلى سنة ١٩٤٨، السنة التي أعلن فيها قيام «دولة اسرائيل».

كانت التسمية الشائعة لهذه الطائفة هي «اليهودية» أو «الموسوية»، كما أطلق على أتباعها اسم «الاسرائيليون» و«العبرانيون». إلا أن هذه الاصطلاحات والتسميات أخذت حديثاً تستقر على مفاهيم محددة بحيث أصبحت اليهودية تعني الديانة، والعبرانية تعني اللغة، والاسرائيلية تعني القومية. وتبعاً لذلك أطلق على الكيان الصهيوني الذي أقيم في فلسطين (١٩٤٨) إسم «دولة اسرائيل».

قيام الكيان والدولة

قبل أن تنسحب بريطانيا من فلسطين في ١٥ أيار ١٩٤٨، باعتبارها الدولة المنتدبة، كانت قد أحالت أمر فلسطين إلى الأمم المتحدة في ١٩٤٧، حيث أخذ بند فلسطين الكثير من المناقشات والمداولات أسفر في النهاية عن اتخاذ قرار بتقسيم فلسطين إلى دولتين، احداهما عربية والأخرى يهودية. وبموجب هذا القرار رقم ١٨١ تاريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧،، اعترفت الأمم المتحدة بوجود دولة يهودية على مساحة من فلسطين تبلغ ١٤,٤٠٠كلم٢، رغم أن حوالي نصف هذه الدولة كان

اعلان دولة اسرائيل في ايار ١٩٤٨ في متحف تل أبيب أثناء الاجتماع الأول لمجلس الدولة المؤقت برئاسة بن غوريون

دافيد بن غوريون
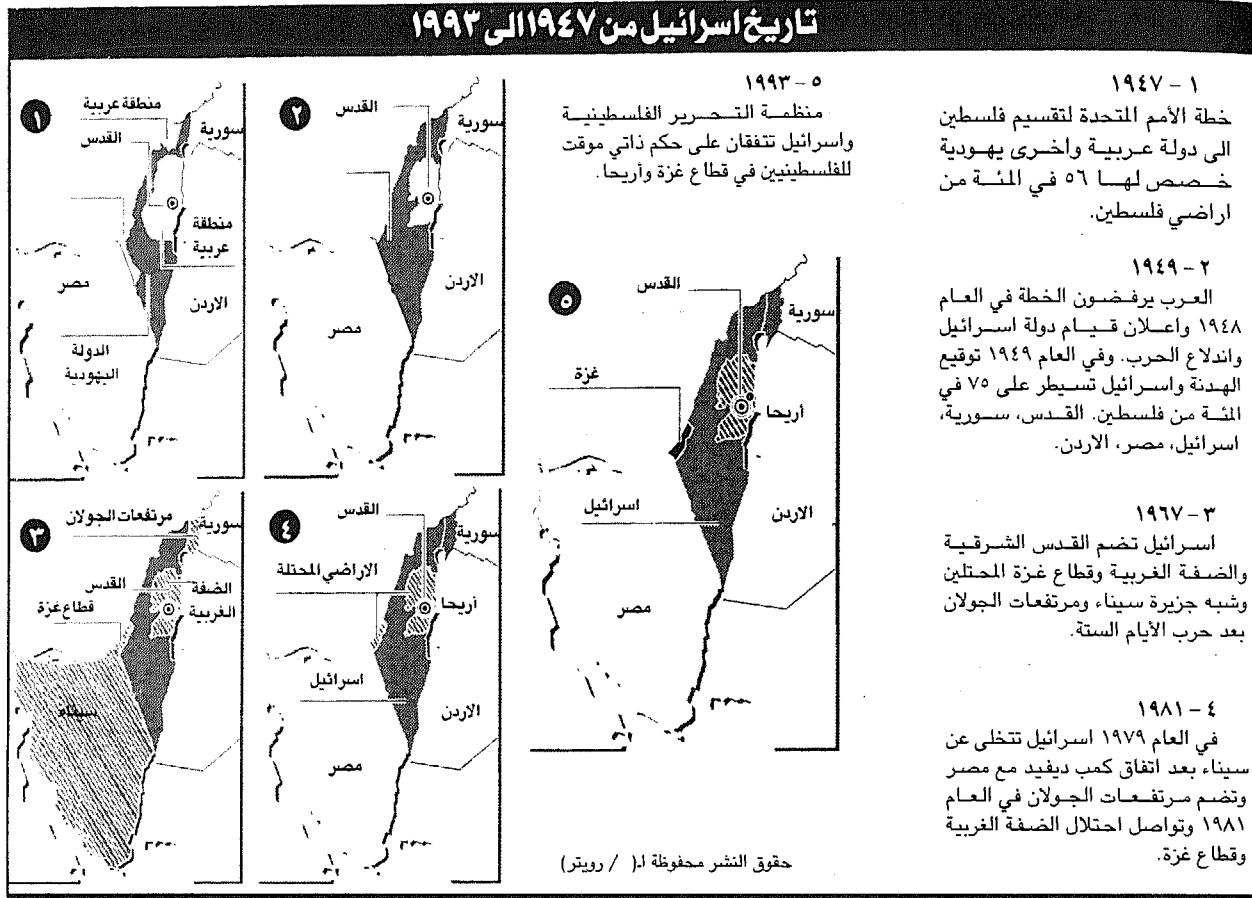
هذه الخريطة وكلامها من «الحياة». عدد ١١١٥٩ تاريخ ٢ ايلول ١٩٩٣

من العرب. وكان يقطن في هذه المنطقة – الدولة ٥٥٠ ألف يهودي و ٥٠٠ ألف عربي، ويمتلك العرب فيها ما يزيد على ثلثي ما في تلك الدولة من عقارات. هكذا، برز إلى الوجود، وعلى الصعيد الدولي، كيان جديد عرف في ما بعد بـ«دولة إسرائيل».

وفي ١٥ أيار ١٩٤٨، أعلن في اسرائيل، رسمياً، قيام «دولة اسرائيل». وجاء في المادة الأولى من القانون الأساسي الذي يبين السلطات السياسية (صادر في ١٩٤٩) ان إسم الدولة «اسرائيل»، ونصّت المادة الثانية ان «دولة إسرائيل جمهورية مستقلّة ديمقراطية ذات سيادة». وفي ٤ آذار ١٩٤٩، تقدمت اسرائيل بطلب إلى مجلس الأمن لقبولها عضواً في الأمم المتحدة، واتخذ مجلس الأمن قراره رقم ٦٩ لعام ١٩٤٩ القاضي بقبول إسرائيل عضواً في الأمم المتحدة بعد أن صوّت تسعة أعضاء لجانب القرار فيا عارضت مصر وامتنعت بريطانيا عن التصويت. وجاء في القرار: «إن مجلس الأمن، وقد تلقّى طلب اسرائيل الدخول في عضوية الأمم المتحدة، ونظر فيه، يقرّر ان اسرائيل في رأيه دولة محبة للسلام قادرة وعازمة على تنفيذ الالتزامات التي يتضمنها الميثاق. وبناءً على ذلك يوصي المجلس الجمعية العامة بقبول اسرائيل لعضوية الأمم المتحدة». وفي ١١ أيار ١٩٤٩، ناقشت الجمعية العامة التوصية الواردة إليها من مجلس الأمن، واتخذت بعد مداولات قرارها رقم ٢٧٣ لعام ١٩٤٩ جاء فيه: «... إن الجمعية العامة للأمم المتحدة، عملاً بتأدية وظائفها المنصوص عليها في المادة الرابعة من

الميثاق والقاعدة ١٢٥ من قواعد الإجراءات... تقرر ان اسرائيل دولة محبة للسلام راضية بالالتزامات الواردة في الميثاق، قادرة على تنفيذ هذه الالتزامات وراغبة في ذلك»، وتقرر ان تقبل اسرائيل عضواً في الأمم المتحدة.

هكذا، حققت الحركة الصهيونية انتصاراً كبيراً ومهماً، خططت له منذ المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في مدينة بال (سويسرا) في العام ١٨٩٧.

الدولة الاسرائيلية – المنظمة الصهيونية

بعد قيام دولة اسرائيل وتداخل مسؤوليات وصلاحيات كل من الدولة والمنظمة الصهيونية، أوصى المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين المنعقد في ١٩٥١ بـ«ضرورة إقدام دولة اسرائيل على منح المنظمة الصهيونية العالمية وضعاً قانونياً بصفتها الممثلة للشعب اليهودي في جميع المسائل المتصلة بمشاركة يهود العالم المنظمة في تطوير البلاد والاستيعاب السريع للقادمين اليهود».

وفي ٢٤ تشرين الثاني ١٩٥٢، أقرّ الكنيست القانون التشريعي الذي يحدّد صلاحيات المنظمة الصهيونية والذي جاء فيه: «تعترف دولة اسرائيل بالمنظمة الصهيونية العالمية على أنها الوكالة المخوّلة السلطات والتي سوف تتابع عملها في دولة اسرائيل لتوطين البلاد وتطويرها ولاستيعاب المهاجرين من الشتات ولتنسيق النشاطات التابعة للمؤسسات والجمعيات اليهودية العاملة في هذه الحقول».

ويلخّص موسيس لاسكي العلاقة بين الدولة والمنظمة على النحو التالي: «جميع اليهود في العالم يؤلفون أمة واحدة، دولة اسرائيل هي الممثل الشرعي لذلك القطاع من الأمة المقيم في صهيون، والمنظمة الصهيونية هي الممثل المخوّل السلطات للأمة التي تقيم خارج اسرائيل في سائر أنحاء العالم، والاثنتان تمثّلان، بنفس الرتبة والأهمية، الأمة الواحدة، ولذلك بإمكانها إبرام المواثيق والمعاهدات والتعاون في ما بينهما لخدمة الأهداف المشتركة».

لكن العلاقة، بعيد قيام الدولة، أخذت تتأزم حول موضوع صلاحيات المنظمة، ولم تخف حدّةً حتى عام ١٩٦٨ حين قرّر المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون تقليص صلاحيات المنظمة لصالح دولة اسرائيل، الأمر الذي أدّى بزعيم المنظمة التاريخي، ناحوم غولدمان، إلى التخلي عن منصبه كرئيس لها.

لا دستور ولا حدود

لا يوجد دستور مكتوب لدولة اسرائيل بل توجد قوانين أساسية صدرت عن الكنيست الاسرائيلي، وتنص على سلطات الكنيست ورئيس الوزراء ورئيس الدولة. ويقوم النظام السياسي الإسرائيلي على أساس سلطة تنفيذية مسؤولة أمام الكنيست (البرلمان) تحت إشراف رمزي من رئيس الدولة.

أما حدود دولة اسرائيل فقد بقيت دون تحديد واضح، وخاضعة لتفسيرات متباينة حتى من السياسيين الاسرائيليين والصهيونيين. فكان البعض يعتبرها تمتدّ من النيل إلى الفرات، أو من سيناء إلى الفرات، أو من البحر الأحمر إلى بحر فلسطين، معتمدين في ذلك على ما جاء في سفر التكوين ١٥/١٨: «في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام (ابراهيم) ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات». إلا أن الحركة الصهيونية، حينما تقدمت المنظمة الصهيونية

العالمية بمذكرة إلى مؤتمر الصلح المنعقد في باريس (٣ شباط ١٩١٩) طالبت فيها الدول المجتمعة في مؤتمر السلام هذا، بأن تعترف بما أسمته «الحق التاريخي للشعب اليهودي في فلسطين، وحق اليهود في أن يعيدوا انشاء وطن قومي لهم فيها». وقد أوردت المذكرة الحدود التي تزعم الحركة الصهيونية في انها حدود لدولة اسرائيل المستقبلية على النحو التالي:

«في الشمال تبتدئ الحدود بنقطة تقع على ساحل البحر المتوسط بجوار صيدا وتتبع مجاري مياه الجبال اللبنانية حتى جسر القرعون، ومنها إلى البيرة متبعة الخط الفاصل بين حوضي وادي القرن ووادي التيم، ثم تسير في اتجاه جنوبي متبعة الخط الفاصل بين السفوح الشرقية والسفوح الغربية لجبل الشيخ حتى تصل إلى جوار بيت جن، ثم تتجه شرقاً متبعة الضفة الشمالية لنهر مغنيبة حتى تحاذي الخط الحديدي الحجازي، غرباً منه.

وفي الشرق خط محاذ للخط الحديدي الحجازي وغرباً منه ينتهي في خليج العقبة.

إلى الجنوب خط يتم الاتفاق عليه مع الحكومة المصرية.

إلى الغرب البحر المتوسط.

ويجب أن تُسوّى أي تفاصيل للحدود أو أي تعديلات تفصيلية عليها بواسطة لجنة خاصة يكون لليهود تمثيل فيها».

هذا وقد وقفت الحركة الصهيونية موقفاً مناهضاً من صك الانتداب البريطاني على فلسطين دون شرقي الأردن، لأن في مثل هذا القرار ما يعني عزلاً للضفة الشرقية لنهر الأردن عن الضفة الغربية، الأمر الذي يتنافى مع الحدود الصهيونية للدولة اليهودية المقبلة كما جاء في مذكرة الحركة الصهيونية لمؤتمر السلام.

إزاء هذا يتبين معنى عدم وضع دستور لدولة اسرائيل، وكذلك عدم الإعلان عن حدود واضحة لهذه الدولة. وبالتالي معنى الحروب التوسعية المتكررة التي تشنّها اسرائيل على الأراضي العربية المجاورة، وتمسّكها بالأراضي المحتلة.

السكان

في منتصف القرن التاسع عشر لم يكن عدد اليهود المقيمين في فلسطين ليتعدى العشرة آلاف نسمة، كما ان الذين قدموا منهم إلى فلسطين انما جاؤوا بدافع الحنين الديني والتقوى. وكانوا موزّعين على المدن الرئيسية التي يقدسها التقليد اليهودي: القدس والخليل وصفد وطبرية.

ومع ظهور حركة أحباء صهيون إثر المجازر اليهودية في روسيا القيصرية بدأت الهجرات اليهودية إلى فلسطين، وأخذت هذه الهجرات تتكاثر، كما رافقها بناء التنظيم السياسي اليهودي الذي أشرف على هذه الهجرات، هذا التنظيم المعروف بـ«الحركة الصهيونية العالمية»، وهي الحركة التي هيأت الإمكانيات لاستقبال هؤلاء المهاجرين وأخذت تنشئ لهم المستعمرات (المستوطنات) وتشتري الأراضي لإسكان المهاجرين اليهود إلى فلسطين.

واستمرّت الهجرة اليهودية إلى ما بعد قيام دولة اسرائيل، وهي، قبل هذه الدولة وبعدها ولا تزال، في أساس النشاط الصهيوني والإسرائيلي. وقبيل موجة الهجرة الأخيرة التي كان الاتحاد السوفياتي سابقاً مصدرها الأساسي، كان توزيع سكان اسرائيل (والأراضي المحتلة منذ حرب ١٩٦٧) بحسب إحصاءات ١٩٨٥ على الشكل التالي:

اليهود: ٣,٤٧١,٧٠٠ نسمة.

العرب: ٢,٠٢٨,٠٠٠ نسمة، موزّعين بين ٨٩٤ ألفاً في الضفة الغربية، و ٥٢٦ ألفاً في قطاع غزة، و ٦٠٨ آلاف في اسرائيل حدود ١٩٤٨.

وآخر تقديرات النمو السكّاني في اسرائيل مقارنةً بسائر بلدان المنطقة الشرق أوسطية التي نشرها، في آب ١٩٩٣، مكتب الإحصاءات السكّانية في واشنطن، تفيد أن عدد سكّان الشرق الأوسط سيتضاعف خلال الثلاثين سنة المقبلة وستحظى اسرائيل بأبطأ نمو نسبي مقارنة مع سائر البلدان في المنطقة. ويشير التقرير إلى أن النمو الطبيعي الأبطأ يسجل في اسرائيل بنسبة تقدر بـ ١,٥٪ خلال السنوات المقبلة وسيزداد عدد سكان الدولة العبرية من خمسة ملايين و ٢٧٠ ألفاً عام ١٩٩٣ إلى سبعة ملايين و ٩٩٤ ألفاً عام ٢٠٢٥.

وفي الفترة نفسها يسجّل قطاع غزة نسبة نمو تقدر ٥٪ وسيزداد عدد السكان في هذا القطاع من ٦٩٤ ألفاً إلى مليون و ٨٨٩ ألفاً. والضفة الغربية تسجّل نسبة نمو تقدر ٤٪ وسيزداد عدد سكانها من ١,٦ مليون إلى ٢,٩٨٠ مليون نسمة.

أما بالنسبة إلى البلدان المجاورة لاسرائيل فإن سوريا تشهد أسرع نمو بنسبة تقدر بـ ٣,٨٪ وسيزداد عدد سكانها من ١٣,٤٦٣ مليون عام ١٩٩٣ إلى ٣٦,٥٢٩ مليون عام ٢٠٢٥.

وتضم منطقة الشرق الأوسط ثلاثة بلدان من «العمالقة» لجهة الكثافة السكّانية هي مصر التي سيصل عدد سكّانها إلى ١٠٤,٦٠٧ مليون نسمة عام ٢٠٢٥، وايران ١٦١,٩١٣ مليون نسمة، وتركيا ٩٨,٧٧٤ مليون نسمة.

ويعتبر نصف عدد سكان الشرق الأوسط من العرب. وهناك ٢٥٪ من الأتراك، و ١٢٪ من الايرانيين، و ٧٪ من الأكراد، و ٢٪ من اليهود و ٤٪ من الجنسيات الأخرى.

واستنتج واضعو هذه الدراسة ان التوازن الهش القائم بين الشعوب والاتجاهات السياسية والموارد المختلفة يخلق وضعاً صعباً بين بلدان الشرق الأوسط. وأكثر ما هو مقصود بـ «الوضع الصعب» ما يتعلق طبعاً باسرائيل.

التاريخ

غلب على تاريخ اليهود تداخل الرواية الدينية التوراتية على تاريخ الأحداث. فجاء تاريخاً عقائدياً، خاصة وانه وجد احتضاناً ليس فقط من كثيرين من المؤرخين الغربيين، بل أيضاً من أكثر القوى السياسية الغربية تأثيراً وفعالية. وهؤلاء المؤرّخون الغربيون توزّعوا بين مؤرخين التبس عليهم أمر هذا التداخل، ومؤرخين ارتضوه لغايات ايديولوجية أيضاً، ومؤرخين حاولوا التصدي له وتبيان هذا الخلط بين الرواية الدينية والتاريخ، فكانوا أن تعرضوا لمضايقات وصلت أحياناً إلى حد التهديد والاضطهاد. آخر هذه الحلقات ما نقلته «الحياة» (٣٠ حزيران ١٩٩٣، ص ١) عن مؤرّخ وعالم آثار وآرائه في ما نحن بصدده. فقد جاء على قلم محمد عارف مراسلاً من جامعة كيمبردج في الولايات المتحدة:

«طُرد البروفسور توماس طومسن أستاذ علم الآثار في جامعة «ماركويت» في ميلواكي من منصبه لأنه أوضح في كتابه الأخير «التاريخ القديم للإسرائيليين» Early History of the Israelite People أن مجموع التاريخ الغربي لاسرائيل والاسرائيليين يستند إلى قصص من «العهد القديم» من صنع الخيال.

وجاء في كتاب طومسن الذي نشرته دار «بريل» BRILL في هولندا، وهي أقدم دور النشر التاريخية العالمية أن نتائج التنقيبات في العقد الأخير برهنت على أن تاريخ فلسطين الكبرى أعقد وأكبر من الدراسات التوراتية التي اقتُنص فيها. و «أن التسلسل الزمني (الكرونولجي) لتاريخ المنطقة القائم على العهد القديم هيكل مصطنع قائم على مدّعيات أدبية وسياسية وإيديولوجية هدفها ترتيب وتأويل العهد القديم وليس قطعاً تقديم تسلسل لأي أحداث أو شخصيات تاريخية، ولا يمكن إدراك المضامين التاريخية لكتاب اليهود المقدس إلا بعكس الاتجاه ودراستها باعتبارها جزءًا من تاريخ فلسطين الكبرى وليس العكس».

ومع أن نائب رئيس جامعة «ماركويت» التي طردته أقرّ بالمكانة العلمية لطومسن الذي يعد من أبرز علماء الآثار المختصين بالتاريخ القديم لمنطقة الشرق الأوسط فقد صرّح بأن الجامعة تحصل على دعم مالي من الكنيسة (البروتستانتية) «والمهم في نظرها ليس أن تملك النصوص التاريخية قيمة تاريخية فحسب، بل أن تتفق أيضاً مع وجهة نظر نواميس العقيدة». واعتبر البروفسور طومسن، الذي سارعت جامعة كوبنهاغن في الدنمارك إلى تعيينه أستاذاً فيها، ان قرار الجامعة الأميركية «إنكار تام للحرية الأكاديمية التي تدّعيها».

وتتضح خطورة المهمة التي تصدّى لها طومسن في إنكارها صحة المبررات الأساسية لإيجاد دولة اسرائيل القائمة على الادعاء بعودة اليهود إلى «الأرض الموعودة» التي نزحوا عنها قبل أكثر من ألفي سنة. واعترف جوناثان توب الذي يعدّ من أكبر علماء الآثار في تاريخ المنطقة العربية القديم في «المتحف البريطاني» بأن «طومسن دقيق جداً في بحثه العلمي الكبير وشجاع في التعبير عما كان كثير منا يفكر فيه حدساً منذ زمن طويل ولكن فضّلوا كتمانه».

وذكر طومسن في حديث لـ «الحياة» أن كتابه اعتمد على أعمال التنقيب التي ساهم فيها في لبنان وسورية وفلسطين خلال السنوات العشر الماضية والتي أدت إلى اكتشافات تعادل ٢٠ مرة مجموع الاكتشافات منذ قيام علم الآثار. وقال أنه كان معنياً بكتابة تاريخ فلسطين وليس تاريخ «العهد القديم» الذي قامت عليه جميع الدراسات التاريخية والآثارية الغربية.

وأورد في كتابه الذي يقع في ٥٠٠ صفحة أكثر من ٦٠٠ مصدر تتضمن نتائج التنقيبات والمسوح الميدانية وأنماط المستوطنات السكنية الآشورية والمصرية والأغريقية والحثية والسامية الغربية وكذلك النصوص القديمة من جنوب شبه الجزيرة العربية إضافة إلى الألسنيات التاريخية وأشكال اقتصادات البحر الأبيض المتوسط والزراعة والحكومات والتجارة وتوزيع الثروات الطبيعية كالماء والتربة واستخدام الأرض وأنواع النبات وآثار تغير المناخ على اقتصادات المناطق ومجتمعاتها وعوائلها.

وكشفت هذه الدراسات عن أن جميع قصص كتاب «العهد القديم» تقريباً، بما فيها قصة الأرض الموعودة، من صنع الخيال وأنها كتبت في القرن الخامس قبل الميلاد بعد ما بين ٥٠٠ و ١٥٠٠ سنة من وقوع الأحداث التي ترويها. ولم يتم العثور على أي أثر لقيام مملكة اسرائيل في القرن العاشر قبل الميلاد أو على وجود مستوطنات سكنية في منطقتي القدس والضفة الغربية التي يصر الاسرائيليون على تسميتها بـ «يهودا والسامرة». والقدس نفسها لم تكن حتى القرن السابع قبل الميلاد سوى مقاطعة إقليمية، وقد قضى الآشوريون (العراقيون القدماء) على الوجود التاريخي والسياسي لهذا الإقليم، وسووا مدنه بالأرض، وحملوا الطبقات العليا والتجّار إلى بابل، ونقلوا سكان مدن الأقاليم إلى مناطق مختلفة من امبراطوريتهم. لذلك من المستبعد جداً أن يكون هناك أي قوم (مجموعة اثنية) في منطقة القدس قبل القرن الخامس قبل الميلاد ولا وجود لأي صلة تاريخية ما بين مجتمعات منطقة القدس القديمة

واسرائيل في العصور الحجرية والأقوام التي أعادت بناء القدس في سنة ٤٥٠ قبل الميلاد. ذلك أن المنطقة بكاملها كانت مسرحاً للصراع بين الفرس والعراقيين القدماء، أما ما يعتقد المؤرخون الغربيون أنهم الاسرائيليون فليسوا سوى جماعات هجّرها الفرس من بابل تحت شعار «العودة من المنفى» ودمجوهم مع سكان فلسطين آنذاك. ويعود إلى تلك الفترة بالذات تدوين «العهد القديم» كجزء من محاولة سكان من أصول مختلفة، سورية وفلسطينية وفينيقية ويهودية، ايجاد هوية «قومية» تجمعهم.

ويبدو تفسير التاريخ في كتاب طومسن أقرب إلى أن يكون بالجغرافيا وتغيّرات البيئة. فهو يشير إلى أن أصول التوسّع الجغرافي والإقليمي للمستوطنات السكنية في ذلك العصر لا تعود إلى قيام مملكة اسرائيل المزعومة بل تعكس ردود الأفعال عن تغيّر المناخ وظروف الجفاف التي أثّرت في منطقة شرق البحر المتوسط بأكملها. وليس ما يسمى دولة السامرة وأورشليم سوى تطورات في اقتصاد البحر الأبيض المتوسط والتوسع التجاري الذي أحدثته مصالح الامبراطورية الآشورية في العراق القديم.

وأوضح كتاب طومسن، الذي حصلت «الحياة» بصعوبة على نسخة منه، أن الكم الهائل من المعلومات التي تجمعت في العقد الماضي أدّى إلى انهيار تام للنظرية الغربية التي تعتمد على التسلسل التاريخي التوراتي وكشف عن التنوّع الكبير للمناطق المختلفة داخل فلسطين الكبرى. ويؤكّد انهيار علم التاريخ الغربي في رأي طومسن الحاجة إلى إعادة النظر ليس في تاريخ فلسطين و «العهد القديم» فحسب، بل تأسيس علم تاريخ جديد يستند على المكتشفات وليس على الأساطير. فالكتاب يكشف مثلاً عن أن مصطلحين سائدين مثل «الاسرائيليين» ويعني بهم اليهود و «الكنعانيين» ويعني أعداء اليهود أوقعا علم الآثار دائماً في مأزق وظهر أنهما لا يملكان صلة قطعاً بأي جماعات محددة من الناس، فالمصطلحان يملكان أحياناً معاني جغرافية ولا يمثّلان في أحيان أخرى سوى مدّعيات أدبية سجالية.

وتتسم آراء البروفسور طومسون بأهمية كبيرة فهو أحد المساهمين الرئيسيين في وضع الأطلس الألماني المشهور «أطلس توينبرغ للشرق الأوسط» The Tueinberg Atlas of the Middle East. ويعرض هذا الأطلس الذي يواصل الصدور على أجزاء منذ عام ١٩٧٨ ويصدر الجزء الأخير منه قريباً تاريخ المنطقة العربية من العصور الحجرية وحتى الوقت الحالي. ويعتمد طومسن على نظرة نقدية في معالجة المعضلة القائمة بين مبحث التاريخ historiography وأحداث الماضي التاريخي. ويشير إلى أن الطرق الحديثة لكتابة التاريخ تختلف في شكل جذري عن محاولات تدوين الماضي لدى المؤرخين التقليديين من المؤرّخ الأغريقي هيرودتس وحتى المؤرخين الغربيين بعد الحرب العالمية الثانية. ولم يشرع علم التاريخ النقدي الحديث إلاّ أخيراً في محاولة تقديم تفسير شامل لأحداث الماضي التاريخية مكتفياً حتى الآن بتقديم تفسير شامل لشهادات وأجزاء من الماضي لا تزال على قيد الوجود».

منذ ١٩٤٩

بعد هزيمة الجيوش العربية، وقعت كل من مصر، ولبنان، وسورية والأردن اتفاقات هدنة مع إسرائيل أنهت العمليات العسكرية عام ١٩٤٩. وكانت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين على رأس الأسباب التي حالت دون عقد معاهدات سلام بين اسرائيل والبلدان العربية. فني حين كانت الدول العربية تلحّ بالسماح للاجئين بالعودة إلى ديارهم كان الاسرائيليون يرون ان مشكلة اللاجئين يجب أن تندرج كجزء من خطة شاملة للسلام.

في ١٩٥٦، اندلعت الحرب العربية – الاسرائيلية الثانية بعد أن أعلنت مصر تأميم قناة

السويس، ومنعت مرور السفن المتوجهة إلى اسرائيل أو القادمة منها، وأغلقت مضائق تيران. وهذه الحرب اشتركت فيها بريطانيا وفرنسا إلى جانب اسرائيل وأنزلتا جيوشهما في مصر. لكن الأمم المتحدة (وكذلك الضغط التي مارسته كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي) أجبرت الدول المتحالفة الثلاث على سحب قواتها من مصر. واستمرّت مصر في منع اسرائيل من استعمال قناة السويس، بينما أمنت قوات الأمم المتحدة حرية المرور عبر مضائق تيران.

وشهدت السنوات التالية لحرب عام ١٩٥٦ حالة من التوتر الدائم على حدود إسرائيل مع مصر، الأردن وسورية (كانت الجبهة اللبنانية هادئة نسبياً) حتى كان حزيران ١٩٦٧ حيث اندلعت الحرب العربية – الاسرائيلية الثالثة. فبطلب من مصر، انسحبت القوات الدولية، وعاد الجيش المصري وأغلق مضائق تيران. فردّ الاسرائيليون بإشعال حرب خاطفة ضد مصر والأردن وسوريا، فاحتلوا قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء، والضفة الغربية ومرتفعات الجولان في غضون ستة أيام.

ورفضت اسرائيل بعد ذلك الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة ما لم تباشر الدول العربية بفتح مفاوضات سلام معها. واستمرّت حالة الحرب والتوتر الشديد، خاصة بعد انبثاق حركة المقاومة الفلسطينية وقيامها بعمليات عسكرية وفدائية ضد الأهداف الاسرائيلية. وقد أوصل هذا الوضع إلى انفجار جديد في المنطقة هو الحرب العربية – الاسرائيلية الرابعة، أو حرب أكتوبر ١٩٧٣، حيث تمكن الجيش المصري من اختراق خط بارليف على قناة السويس، إلا أنه لم يتابع زحفه في سيناء، فعاد الاسرائيليون واخترقوا صفوف الجيش المصري في عملية ثغرة الدفرسوار، وباتوا يهددون المدن المصرية القريبة من القناة. أما على الجبهة السورية (الجولان) فلم تبدل العمليات العسكرية من مواقع الطرفين بشكل عام. وقد دعم الجيش السوري في هذه الحرب فرق من جيوش عربية أخرى، وبالأخص عراقية ومغربية. وبعد هذه الحرب، زادت إسرائيل من مستوطناتها في الضفة الغربية التي دعتها «السامرة ويهودا» للدلالة على يهودية المنطقة وعلى انها جزء من اسرائيل، وجعلت عاصمتها مدينة القدس نفسها. وفي ١٩٨٢ ضمت مناطق الجولان إليها.

في عام ١٩٧٧، زار الرئيس المصري أنور السادات إسرائيل في محاولة لوضع حد لحالة الحرب بين مصر واسرائيل (مناحيم بيغن رئيس وزارئها). وقد دعمت الدبلوماسية الأميركية بقوة هذا الاتجاه، لا بل شاركت فيه حتى أوصلت البلدين إلى توقيع اتفاقات كامب دافيد عام ١٩٧٨ (وقّعت عليها الولايات المتحدة أيضاً)، ثم إلى توقيع معاهدة سلام بين مصر واسرائيل عام ١٩٧٩. وبموجب هذه المعاهدة اعترفت مصر بإسرائيل مقابل انسحاب الاسرائيليين من سيناء (تمّ هذا الانسحاب في ٢٥ نيسان ١٩٨٢) وإجراء محادثات لحل المشكلة الفلسطينية. وأصرّت إسرائيل على عدم إجراء مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية معتبرة إياها مجرد منظمة إرهابية.

في أواخر أيار ١٩٨٢، بدأت إسرائيل بعملية عسكرية واسعة النطاق في لبنان دعتها «عملية سلامة الجليل» (لم تعرف الحدود اللبنانية – الاسرائيلية هدوءًا فعلياً منذ ١٩٦٩)، وغطتها إعلامياً باعتبارها «عملية ضرورية لأمن إسرائيل وأمن العالم» لأنها تهدف إلى اجتثاث جذور «الإرهاب الفلسطيني» من بيروت ولبنان. فاجتاح جيشها أجزاء واسعة من لبنان وحاصر مناطق تواجد الفلسطينيين في بيروت، وقصفها بالطائرات والمدفعية محاولاً دخولها مدة نحو شهرين ونصف. وقد صاحب هذه العمليات العسكرية تحرّك دبلوماسي نشط، شارك فيه فيليب حبيب، مبعوث الرئيس الأميركي رونالد ريغان، حتى تمّ الاتفاق على إخراج قوات الفلسطينيين من بيروت وتوزيعها على البلدان العربية التي قبلت نزول أفرادها فيها.
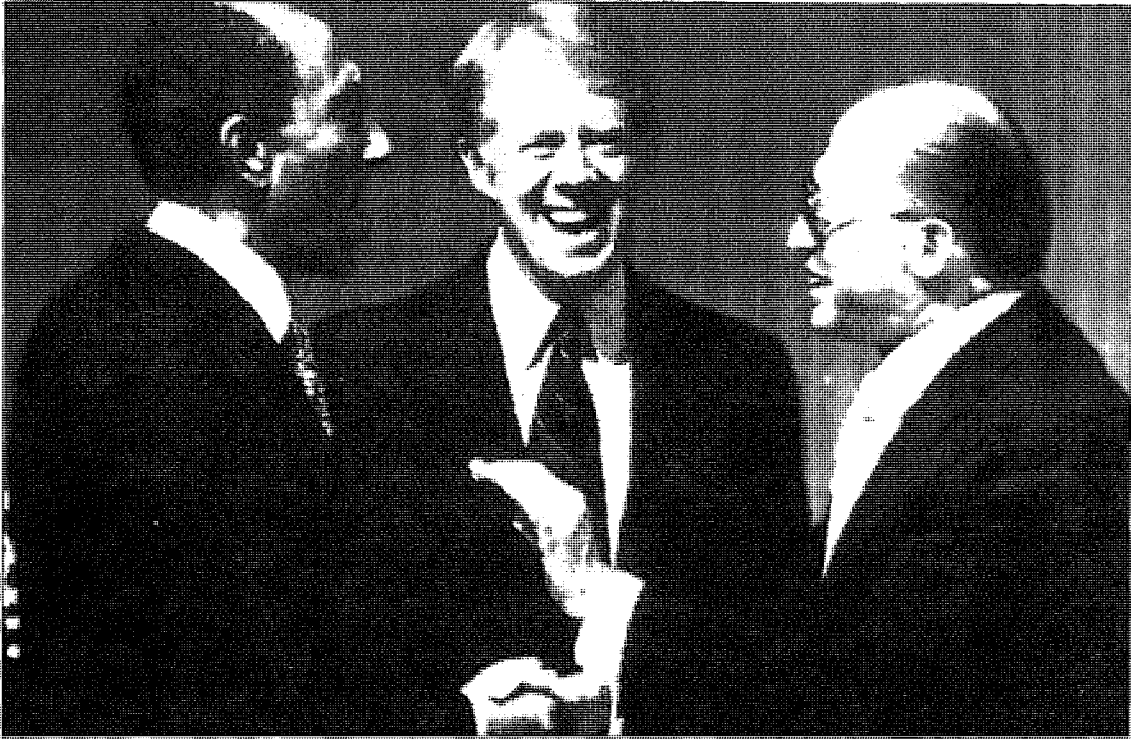
كامب دافيد ٢٦ نيسان ١٩٧٩. من اليمين الرؤساء مناحيم بيغن (الاسرائيلي)، جيمي كارتر (الاميركي)، أنور السادات (المصري)

في أيلول ١٩٨٣، استقال رئيس الوزراء مناحيم بيغن، وكلّف إسحق شامير (من تكتل ليكود كذلك) تشكيل حكومة جديدة. وأمام تحديات داخلية لم تعرفها اسرائيل منذ إنشائها: وضع اقتصادي متأزم، إضرابات متتالية، تشدد ديني وازدياد الهوة بين العلمانيين والمتدينين، استياء متزايد في أوساط الجيش تحت وطأة ما يعاني منه جنوده في جنوب لبنان... أمام هذه التحديات، حلّت الكنيست نفسها (آذار ١٩٨٤) وأقرّت إجراء انتخابات مبكرة (تموز ١٩٨٤)، فنال فيها حزب العمّال ٤٥ مقعداً، وتكتل ليكود ٤١. وبعد مفاوضات طويلة بين زعيمي الحزبين، بيريز (العمل) وشامير (ليكود)، تشكلت حكومة كانت الأولى من نوعها، إذ جاءت برأسين، ذلك أن بيريز سيتخلى لشامير، بعد ٢٥ شهراً عن رئاسة الحكومة.

وفي ١٩٨٤، جددت وثيقة التعاون الاستراتيجي (بمثابة حلف) بين الولايات المتحدة واسرائيل لخمس سنوات أخرى مع توسيع التعاون في مجالي البحث وتطوير المرافق الأمنية. وبعد أيام من زيارة رئيس الوزراء، بيريز، الولايات المتحدة (تشرين الأول ١٩٨٤)، أقرّ الكونغرس الأميركي إنشاء صندوق خاص بتوطين اليهود الإثيوبيين السود (الفالاشا) في اسرائيل في إطار برنامج المساعدات الخارجية الذي وقّعه الرئيس الأميركي ريغان. وأعقب ذلك تزايد الضغط الأميركي (والاسرائيلي) على الاتحاد السوفياتي سابقاً لتسهيله هجرة اليهود السوفيات إلى اسرائيل. وكان الاتحاد السوفياتي، إلى حينه (بداية ١٩٨٥، وقبل غورباتشوف والبيريسترويكا)، يركّز على ضرورة عقد مؤتمر دولي تشارك فيه اسرائيل والدول الكبرى والدول العربية المعنية بالنزاع. لكن اسرائيل كانت ترفض فكرة المؤتمر الدولي رفضاً قاطعاً حتى العام ١٩٩١ (مؤتمر مفاوضات السلام في مدريد) حيث كان الاتحاد السوفياتي قد شارف على الزوال، وبعد حرب الخليج الثانية التي قضى الأميركيون فيها وحلفاؤهم على القدرة

ينقلون جريحاً اسرائيلياً أصيب في الجنوب اللبناني (آب ١٩٩٣)

من الدمار الذي احدثه القصف الاسرائيلي في الجنوب اللبناني (قرية صدّيقين، آب ١٩٩٣)

العسكرية العراقية. وبعد وقت قصير من بدء هذه المفاوضات، أعادت الانتخابات في اسرائيل الزعامة ورئاسة الحكومة إلى حزب العمل. فشكّل إسحق رابين حكومته خلفاً لإسحق شامير، وأولى مهماتها إدارة مفاوضات السلام عن الجانب الإسرائيلي.

٣١ آب ١٩٩٣ هو موعد البدء بالجولة الحادية عشرة من مفاوضات السلام الاسرائيلية – العربية، بعد عشر جولات، بدأت الأولى منها مباشرة بعد افتتاح مؤتمر مدريد (١٩٩١)، ولم تؤدّ جميعها إلى أي اتفاق، إلا اللهمّ الاستمرار بعملية المفاوضات. وتطغى على هذه الجولة الحادية عشرة أحداث الشهر الأخير الذي يسبق موعدها (تأخذ هذه المادة طريقها إلى المطبعة في ٢٢ آب ١٩٩٣):

– أحداث جنوب لبنان حيث استمرّت اسرائيل تقصفه لمدة سبعة أيام متوالية محدثة تدميراً وخراباً هائلاً، وضحايا عديدين من المدنيين، وتهجيراً لأكثر من نصف مليون من السكان؛ وذلك وسط صورة عنجهية «المتفوق» عسكرياً وسياسياً التي تحرص إسرائيل على الاحتفاظ بها تجاه العرب والرأي العام الدولي.

– لم تمضِ أسابيع ثلاثة على أسبوع القصف المدمّر للجنوب حتى عاودت المقاومة الوطنية والإسلامية (حزب الله) عملياتها وضرباتها ضد الاحتلال الاسرائيلي للجنوب، فقتلت في أول عملية لها بعد القصف ثمانية جنود اسرائيليين. والمقاومة في الجنوب توازيها الانتفاضة الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة التي مضى عليها أيضاً سنوات طويلة من دون أن تتمكن اسرائيل من إخمادها، ما جعل الصورة التي تريدها اسرائيل لنفسها مقلوبة، وما دفع بأكثر المعلقين والمراقبين، بعد عملية المقاومة، إلى اعتبار أن العرب، ورغم كل ما يظهر على سطح الأشياء، لم يقولوا كلمتهم النهائية بعد، وانه بينما بدأت علامات التعب والإرهاق تظهر على اسرائيل بعد كل حروبها، فإن ما يقوله جنوب لبنان والانتفاضة هو أن العرب بدأوا للتو حربهم. والمشكلة ان اسرائيل تبدو اليوم عاجزة عن امتلاك أي من العاملين الحاسمين: لا الحكمة السياسية للخروج من هذه الحرب المستنقع، ولا المناورة العسكرية لقهر الحيلة التي نهجتها المقاومة في جنوب لبنان والانتفاضة في غزة والضفة الغربية، وعلى خلفية هذين السببين يتشكل اليوم قوام المأزق الاسرائيلي.

– ومن أوجه هذا المأزق استمرار اسرائيل في وضع العراقيل في وجه استحقاقات السلام. إذ إنها، وفي هذه الأيام الأخيرة من موعد الجولة الحادية عشرة، بدأت بزرع مستوطنة جديدة في الجولان باسم «جبل الجولان» وعاد مسؤولوها إلى تهديد جنوب لبنان بأعمال شبيهة بعدوان الأيام السبعة. كما أثاروا قضية السلاح والصواريخ السورية. والأخطر من ذلك أن اسرائيل تهدد الجولة الحادية عشرة التي من المتوقع أن تبرز فيها بعض ملامح التسوية بأزمة حكومية تمنعها من «اتخاذ قرار حاسم»، إضافة إلى تكثيفها الاستيطان في القدس المحتلة مع معرفة اسرائيل ان قضية القدس لا تهم الجانب الفلسطيني وحده بل كل الأطراف العربية، وان عدم اطمئنان الفلسطينيين إلى طبيعة الحل النهائي وشموله القدس الشرقية يمكن أن يكون عامل عرقلة، ليس فقط على المسار الفلسطيني بل على كل المسارات. وإضافة كذلك إلى تصعيد لهجتها إزاء سورية، وتهديدها بإدراج نشاط «حزب الله» في المفاوضات (كلام الفقرتين الأخيرتين ملخّص تعليقات وتحليلات عربية حول أحداث جنوب لبنان في آب ١٩٩٣).

– لكن، بعد أقل من اسبوعين (أي في ١٣ ايلول ١٩٩٣) من بدء الجولة الحادية عشرة من مفاوضات السلام فوجئ العالم، رغم احداث آب الدموية، بتوقيع اتفاقية غزة – أريحا (راجع أواخر هذه المادة).

يهود أرثوذكس

قياديان من الجماعات اليهودية المتطرفة

مشادّة بين يهوديين ينتميان الى حركتين سياسيتين

الحاخام اليعازر شاخ

الحاخام مناحيم مندل شنيرسون

معالم تاريخية

☐ **إبعاد الفلسطينيين:** لم تكن عملية الإبعاد الأخيرة لـ ٤١٨ فلسطينياً (في ١٧ كانون الأول ١٩٩٢، إلى لبنان ثم إقامتهم في مخيم في مرج الزهور على أرض جنوبية غير خاضعة للسلطة اللبنانية، ثم إعلان اسرائيل – آب ١٩٩٣ – عن سماحها بعودتهم قبل نهاية العام ١٩٩٣)، لم تكن هذه العملية سوى واحدة من سياسة اسرائيلية شاملة مورست منذ ما قبل تأسيس الدولة العبرية العام ١٩٤٨ على أيدي العصابات الصهيونية التي انتشرت في فلسطين أواخر القرن التاسع عشر. وقامت السلطات الإسرائيلية بتشريع هذه الإجراءات التي مورست ضد المواطنين الفلسطينيين بشكل جماعي وفردي بعد عام ١٩٤٨ ضمن أهداف كانت تسعى هذه السلطات إلى تحقيقها من وراء هذا الأبعاد. فقد شعرت الحركة الصهيونية، وبعد وضع برنامجها ومخططها الرامي إلى انشاء كيانها فوق أرض فلسطين، ان هذه الأرض لا يمكن أن تتسع للعرب الفلسطينيين وللملايين اليهود القادمين من دول العالم. وأساس سياسة الطرد والتهجير، التي بدأ ت بشكل جماعي في حق الفلسطينيين، هو الصراع الديموغرافي بين هؤلاء المواطنين والمهاجرين اليهود. هكذا أصبح طرد الفلسطينيين من أرضهم بكافة الأشكال هو الهدف البارز الذي سعت إليه الحركة الصهيونية بكل أحزابها. فحول إبعاد وترحيل الفلسطينيين إلى خارج وطنهم كتب تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية في يومياته عام ١٨٩٥: «سوف نحاول إخراج السكان المعدمين عبر الحدود بتأمين مجالات الاستخدام لهم في البلدان المجاورة، على أن نسد أمامهم كل مجال للعمل في بلادنا»، وأضاف مخاطباً اليهود «تجدون سعادتكم صعبة في وجود السكان غير اليهود في فلسطين».

وكثرت من بعد هرتزل الأصوات الصهيونية الداعية إلى ترحيل الفلسطينيين من ديارهم، وقدّم بعض قادة الحركة الصهيونية في تلك السنوات المبكرة من تاريخ الصراع مشاريع مختلفة لترحيل الفلسطينيين إلى البلاد العربية المجاورة. وحول ما كانت تقوم به الأحزاب الصهيونية من تحريض في هذا السبيل ذكر موشيه منوحين عازف الكمان الشهير «انهم (أي الحركة الصهيونية) قد طبعوا في قلوبنا الفتية بالترديد المتواصل ان أرض الوطن يجب أن تصبح مطهّرة من الأجانب، نظيفة من الأغيار». ويسرائيل زانغويل، وهو كاتب انغلو – يهودي بارز ومروّج لفكر ترحيل الفلسطينيين عن بلادهم، كما كان أيضاً أحد مساعدي هرتزل وأكثرهم تعصباً للحركة الصهيونية، قال بعد زيارته لفلسطين عام ١٨٩٧ «لا بد من أن نعد أنفسنا لإخراج القبائل (العرب) من هذه البلاد». وأضاف «ان إخراج العرب أمر لا بد منه لإسكان وتوطين اليهود القادمين من أوروبا. لذلك لا بد من أن نسعى إلى إقناع العرب بالهجرة الجماعية إلى البلاد المجاورة».

وكانت الممارسات الإرهابية والعمليات العدوانية ضد المواطنين العرب التي كانت تقوم بها العصابات الصهيونية لإجبار العرب على ترك قراهم وممتلكاتهم، خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين وتزايد موجات الهجرة اليهودية إليها، تؤكّد أن سياسة ترحيل العرب عن فلسطين أصبحت سياسة تسعى إلى تحقيقها كافة الأحزاب الصهيونية، وأصبحت جزءًا من العقيدة الصهيونية التي يؤمن بها المهاجرون اليهود الذين قدموا إلى فلسطين. وبذلك فإن عمليات الطرد والتهجير والإبعاد ضد الفلسطينيين، بدأ ت قبل قيام الكيان الإسرائيلي العام ١٩٤٨ من خلال التنسيق المباشر بين السلطات البريطانية والأحزاب الصهيونية. وتذكر المعلومات ان سلطات الانتداب كانت كثيراً ما تساهم بشكل مباشر في التضييق على السكان العرب لدفعهم إلى الهجرة وترك بلادهم، من خلال نسف منازلهم ومصادرة ممتلكاتهم ومساعدة اليهود في بناء المستوطنات في مكانها. وفي برنامج بثته الإذاعة البريطانية عام ١٩٦٤ تخليداً لذكرى حاييم وايزمن ذكرت الإذاعة أن اللورد بوثبي، وهو أحد القريبين لوايزمن، قال ان «تصريح بلفور الأصلي عام ١٩١٧ تضمن نصوص أحكام تقضي بترحيل العرب إلى أمكنة أخرى». وتشير الأرقام إلى أن معظم القرى العربية التي تمّ تدميرها أثناء فترة الانتداب تقع شمال فلسطين، «وبلغ مجموع القرى العربية التي اندثرت خلال تلك الفترة ٦٠ قرية». كما ان أهم المناطق التي شهدت طرد المواطنين العرب من قراهم أثناء الانتداب البريطاني هي شمال فلسطين ومناطقها الساحلية ومنطقة سهل مرج بن عامر.

وفي حرب ١٩٤٨، حين سيطرت العصابات الصهيونية على مناطق واسعة من أرض فلسطين، وتمّ طرد عدد كبير من سكّانها الأصليين وإبعادهم إلى لبنان وسورية والأردن ومصر، استعملت الأحزاب الصهيونية

المسلّحة الأساليب العنيفة في محاولة لتصفية العرب وإجبارهم على الرحيل عن بلادهم. وقد ذكر الوسيط الدولي الكونت برنادوت في تقريره المنشور قبل تعليل «ان نزوح العرب الفلسطينيين جاء نتيجة للرعب الذي خلقه القتال الدائر في مجتمعاتهم، وان كل السكان العرب تقريباً هربوا أو طردوا من المنطقة الواقعة تحت الاحتلال اليهودي».

واتبع الصهاينة أساليب الحرب النفسية إلى جانب العنف لإجبار العرب على ترك فلسطين، إذ كانت سيارات «الهاغاناه» المزودة مكبرات الصوت تسير في الشوارع مهددة المواطنين الفلسطينيين. وعندما انتشر الرعب مجتاحاً جميع الأحياء العربية، كان لا بدّ للسكّان من الرحيل، خصوصاً عندما لم يجدوا رادعاً للجرائم وأعمال العنف التي اجتاحت مناطقهم.

بعد عام ١٩٤٨ بدأت سلطات الاحتلال والقيادة السياسية والعسكرية الإسرائيلية مناقشة مشاريع مختلفة لترحيل الفلسطينيين بشكل جماعي وفردي. وكانت هذه القيادة تستغل كل ذريعة لطرد آلاف الفلسطينيين من ديارهم. وهذا ما حدث فعلاً خلال حرب ١٩٥٦ إذ قامت السلطات الإسرائيلية وعبر أساليبها المختلفة بطرد آلاف المواطنين نحو مصر والأردن. وأدّى الإرهاب الإسرائيلي وممارساته العدوانية خلال حرب ١٩٦٧ إلى نزوح عدد كبير من المواطنين العرب نحو الأردن ومصر ودول الخليج العربي، وبلغ مجموع ما خرج من الضفة الغربية وقطاع غزة أكثر من ١٩٤ ألف نسمة.

وبذلك تعتبر ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ سنوات النزوح والإبعاد الأساسية في تاريخ الصراع العربي – الإسرائيل. واستمرّت سياسة الإقلاع والإبعاد القسري والطوعي للمواطنين العرب من الضفة والقطاع منذ العام ١٩٦٧ حتى يومنا هذا، وان اتخذ هذا الإبعاد في كثير من الأحيان طابعاً فردياً لأسباب مختلفة أهمها سياسي، إذ شرعت سلطات الاحتلال منذ الأيام الأولى لاحتلالها لما تبق من أرض فلسطين، في تطبيق سياستها الرامية إلى تفريغ الأرض من السكان وتهويدها بشكل نهائي.

أحد أوجه هذه السياسة كان طرد المواطنين العرب من الضفة والقطاع أو نقلهم من أماكن سكنهم، وشمل ذلك طرد المثقفين والشخصيات النقابية والمهنية والاجتماعية والدينية.

وجاءت سياسة الإبعاد الفردي هذه، والتي تزايدت بعد عام ١٩٦٧، تطبيقاً لسياسة اسرائيل القديمة – الجديدة القاضية بضرورة إجبار العرب على ترك منازلهم وتوطين المهاجرين اليهود بدلاً منهم، وتطبيقاً أيضاً لسياستها في ابعاد الشخصيات الوطنية الفلسطينية عن الأراضي المحتلة لما لها من دور مهم في تحريض الجماهير الفلسطينية في محاولة لإعاقة دور هذه القيادات في بناء حالة شعبية واسعة معادية للاحتلال. وذكرت صحيفة «القدس» بتاريخ ١٩٨١/١٠/٣٠ ان عدد المبعدين بلغ حتى تشرين الأول ١٩٨١ حوالي ٢٠١٥ مبعداً، إضافة إلى طرد ٣٠٠ ألف فلسطيني أثناء عدوان ١٩٦٧. ويذكر ان سلطات الاحتلال قامت بعد عام ١٩٦٧ بإبعاد ٢٠ رجلاً و ٥٦ سيدة وطفلاً من قطاع غزة إلى مصر عبر قناة السويس بالاتفاق مع هيئة الرقابة الدولية. وفي شهر تموز (يوليو) ١٩٦٩ أبعدت سلطات الاحتلال تسع شخصيات فلسطينية من غزة إلى صحراء سيناء بتهمة التحريض ضد الاحتلال، وكان من بين المبعدين ابراهيم أبوشة، حيدر عبد الشافي، فيصل الحسيني، ومحمد يوسف نجم. ثم قامت سلطات الاحتلال في أوقات مختلفة بإبعاد عدد آخر من الفلسطينيين عرف منهم الشيخ عبد الحميد السائح الرئيس الحالي للمجلس الوطني الفلسطيني، إلى جانب شخصيات اجتماعية وسياسية ونقابية أخرى.

وبعد تشكيل الجبهة الوطنية الفلسطينية داخل الأرض المحتلة عام ١٩٧٣، والتي أظهرت دعمها لمنظمة التحرير الفلسطينية، وبعد نشاطات وطنية عدة مناهضة للإحتلال، قامت اسرائيل بطرد عدد من المقربين من هذه الجبهة وعلى رأسهم رئيس بلدية البيرة عبد الجواد صالح وعبد المحسن أبو ميزر.

وتؤكّد المعلومات ان السلطات الإسرائيلية لم تتراجع أبداً عن أي قرار ابعاد بحق المواطنين الفلسطينيين إلا في الحالات النادرة، إذ أعادت ما مجموعه ١ في المئة فقط من الذين اتخذ بحقهم قرار إبعاد.

اتخذت سياسة الإبعاد الإسرائيلية بحق المواطنين الفلسطينيين مساراً خطيراً بعد انفجار الانتفاضة الشعبية الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة حيث تزايدت عمليات الطرد التعسفي وملاحقة الشخصيات الوطنية. وسعت اسرائيل من خلال إبعاد هذه الشخصيات إلى محاصرة الانتفاضة وضربها، وشهدت السنوات الخمس الماضية من عمر الانتفاضة عمليات إبعاد كثيرة بحق عدد من المواطنين الفلسطينيين ممن يشتبه بقيامهم بنشاطات معادية للاحتلال، وكان آخر هذه العمليات طرد الـ ٤١٨ فلسطينيًّا إلى جنوب لبنان. وفي حديث لعضو الكنيست الإسرائيلي أستاذ القانون آمنون روبنشتاين لصحيفة «هارتس» في ١٩٨٨/٩/٤ قال تعليقاً على عمليات الإبعاد، «ان أعمال الطرد لا تردع، ذلك لأننا لا نتعاطى

مع محرضين أفراد، بل مع انتفاضة شعبية واسعة، فإذا قطع غصن ينبت مكانه عشرة». في هذا التصريح وفي غيره من التصريحات إشارة إلى أن سياسة الإبعاد الفردية لم تكن كافية لوضع حد للانتفاضة والصراع الديموغرافي الذي لم يتوقف منذ ما قبل انشاء الكيان الإسرائيلي. وهذه إشارة إلى ان اسرائيل كانت ولا تزال تستعد لتطبيق سياسة ما أطلق عليه «الترانسفير» أي الترحيل الجماعي للفلسطينيين إلى البلاد العربية المجاورة، خصوصاً أن ذلك يترافق مع استمرار تدفق اليهود من بلدان مختلفة من العالم إلى أرض فلسطين وبخاصة من جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق.

كانت سياسة الطرد والإبعاد للمواطنين الفلسطينيين إلى خارج وطنهم من أقسى الإجراءات والممارسات التي قامت بها سلطات الإحتلال ولا تزال، وهي ترتكز على الحكمين ١٠٨ و١١٢ من أنظمة الطوارئ في عهد الانتداب البريطاني لعام ١٩٤٥ وجاء فيها أن «لوزير الدفاع والحاكم العسكري حق طرد أي شخص من البلاد أو منعه من الدخول إليها أن وجد خارجها». وتقوم السلطات الإسرائيلية اليوم بتنفيذ هذه الأحكام إذ لوزير الدفاع والحاكم العسكري والسلطات المدنية والعسكرية الحاكمة حق نفي أي شخص فلسطيني «إذا كان ذلك ضرورياً ومؤاتياً للحفاظ على السلامة العامة والنظام العام أو لقمع الانتفاضة وأعمال الشغب».

وتنص المادة ١١٢ أيضاً من قانون الانتداب والذي تطبقه السلطات الإسرائيلية اليوم أن «المرء الذي هو عرضة للإبعاد يمكن أن يوضع رهن الاعتقال بغية الاستئناف القانوني، على أن تنظر لجنة استشارية خاصة برئاسة أحد رجال القانون بناء على طلب الشخص نفسه في أسباب الإبعاد». وللشخص المعرّض للإبعاد الحق في استشارة محام، وتؤدي هذه الاستشارة في الغالب إلى استصدار أمر احترازي مؤقت من المحكمة العليا. إلا أن سلطات الاحتلال، وبسبب سياسة إسرائيل، لم تسع يوماً للحد من أساليبها القمعية بحق الفلسطينيين وهي لا تطبق إلا ما يتناسب مع سياستها من قوانين وشرائع. وقد حاول بعض المبعدين اللجوء إلى القانون لإيقاف إبعادهم، إلا أن هذه الطلبات كانت ترفض في كثير من الأحيان.

ولا شك في أن قانون سلطات الاحتلال الإسرائيلي في إبعاد وطرد المواطنين الفلسطينيين، يأتي منافياً وخارقاً لكل القوانين والشرائع الدولية التي تحرم ذلك وتمنعه، إذ يؤكد البند ٧٦ من ميثاق جنيف الصادر بتاريخ ١٢/ ١٩٤٩/٨ على أن «الأشخاص المتهمين أمنياً يجب اعتقالهم في المنطقة المحتلة، وإذا اعترفوا بالتهمة المنسوبة إليهم يتوجب عليهم قضاء محكوميتهم داخل هذه المنطقة». وجاء في نص يحرم الترحيل الإجباري للسكان المدنيين من الأراضي المحتلة في اتفاقية المدنيين المادة ٤٩ الفقرة (أ): «النقل الإجباري الفردي أو الجماعي. وكذلك ترحيل الأشخاص من أراض محتلة إلى أراضي أي دولة أخرى محتلة أو غير محتلة محظور بغض النظر عن دوافعه»، وجاء في ميثاق محكمة نورمبرغ المادة ٦ الفقرة (ب) أن «الترحيل الإجباري جريمة حرب أياً كان الغرض من هذا الترحيل وهي جريمة ضد الإنسانية».

كل ذلك يجعل قرارات الإبعاد والطرد الإسرائيلية بحق الفلسطينيين قرارات عدوانية منافية للقانون الدولي، ومدانة ومستنكرة من قبل الأمم المتحدة وشرعة حقوق الإنسان والمجتمع الدولي. وفي تاريخ ١٩٦٨/١٢/١٩ أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها رقم ٢٤٥٢ الذي طالبت فيه الحكومة الإسرائيلية باتخاذ التدابير الفاعلة والفورية لتسهيل عودة السكان إلى المناطق المحتلة.

ودان المؤتمر الدولي لحقوق الإنسان الذي عقد في إيران في ١٩٦٨/٥/١٢ السلطات الإسرائيلية لارتكابها جرائم الترحيل الإجباري والطرد ضد السكان العرب. وأصدرت لجنة حقوق الإنسان القرار الرقم ٩ (٢٧) لسنة ١٩٧١ دانت فيه إسرائيل لاستمرارها في سياسة انتهاك حقوق الإنسان في الأراضي المحتلة وإنكارها لحق المبعدين بالعودة إلى ديارهم ولجوئها إلى سياسة العقاب الجماعي والترحيل الإجباري.

إن هذه القرارات والقوانين الدولية وغيرها من قرارات الاستنكار والإدانة لسياسة إسرائيل في إبعاد الفلسطينيين عن وطنهم، والتي لم تتوقف حتى الآن، لم تردع إسرائيل عن مواصلة أعمالها العدوانية بحق هؤلاء المواطنين، بل إن إسرائيل، وبطردها الـ٤١٨ فلسطينياً إلى منطقة جنوب لبنان، تؤكد مجدداً أنها كانت وما تزال تضرب عرض الحائط بكل القوانين والشرائع الدولية (عبد معروف، «الحياة»، ٢٩ كانون الأول ١٩٩٢، ص ٨).

□ **أحباء صهيون**: جمعيات صهيونية انتشرت في أوروبا الشرقية بشكل رئيسي قبل تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية في أواخر القرن الماضي (التاسع عشر)، وذلك في أعقاب صدور قوانين أيار في روسيا التي فرضت قيوداً على حركة يهود روسيا بين عامي ١٨٨١–١٨٨٣. وعملت هذه الجمعيات على تشجيع

مبعدون فلسطينيون الى مرج الزهور (قرية في الجنوب اللبناني) في طريق عودتهم، عبر معبر زمريا (ايلول ١٩٩٣). وكانت اسرائيل أبعدت ٤١٥ فلسطينياً في ١٧ كانون الاول ١٩٩٢ الى لبنان الذي رفض استقبالهم، فأقام هؤلاء مخيماً في منطقة عازلة بين مواقع الجيش الاسرائيلي ومواقع الجيش اللبناني في جنوب لبنان. وكان إبعادهم أدّى الى تعليق مفاوضات السلام الثنائية في واشنطن اربعة أشهر. وقد سمحت اسرائيل بعودتهم قبل ايام قليلة من توقيع إتفاق «غزة – أريحا» بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية (١٣ ايلول ١٩٩٣)

الهجرة إلى فلسطين ودعت لبناء المستوطنات فيها. ولم تعارض الحكومة القيصرية نشاط هذه الجمعيات بل شجعتها في بعض الأحيان وكان أول مؤتمر لجماعات أحباء صهيون في ١٨٨٤، وساعدتها عائلة روتشيلد على تغطية نفقات وحاجات المستوطنين الأول، ونجحت في التحضير النفسي لقيام الحركة الصهيونية المنظمة. وقفت بعض جمعيات أحباء صهيون ضد صهيونية هرتزل (هرتزل) لاعتماده الزائد على الدول والقوى الدولية إلا أنها عادت وتحالفت مع المنظمة بعد استقالة ولفسون من رئاسة هذه المنظمة (١٩١١) وأيّدت المخطط الصهيوني العملي لإقامة دولة إسرائيل.

□ **الأشكناز** Ashkénaze: اصطلاح يرمز إلى تجمع اليهود بشكل متماسك في شمال غربي أوروبا، ثم أصبح يعني يهود شرقي أوروبا (روسيا وبولونيا) الذين يتحدثون اليديشية والثقافة اليهودية المرتبطة بهذه المجموعات والمتحدرين منها الذين لهم صيغ دينية مختلفة عن صيغ السفارد (يهود الشرق) نظراً لاختلاف المؤثرات الحضارية والاجتماعية. وقد انقسم المستوطنون الصهيونيون في فلسطين منذ البداية إلى أشكناز وسفارد، إلا أن الهيمنة كانت ولا تزال محصورة في الأشكناز، وإن كان السفارد يشكلون، حالياً، غالبية اليهود في إسرائيل.

□ **الاستيطان اليهودي الصهيوني في فلسطين:** يعود تاريخ البدء بإنشاء مستوطنات يهودية في فلسطين إلى أواخر القرن التاسع عشر. فبدءًا من ١٨٧٥، بدأ اليهود شراء مساحات كبيرة من الأراضي كانت مزروعة للبيع بأسعار بخسة، إذ فقدت الأرض الكثير من قيمتها نتيجة عدد من الأسباب، في طليعتها الضرائب الباهظة التي فرضتها السلطنة العثمانية على ملاكي الأرض، والأعباء الكبيرة التي ترتبت، نتيجة ذلك، على الفلاحين، ما أدّى إلى إهمال الأرض، وعدم استثمارها وهجرة أهاليها عنها. كما كان للنزاعات العشائرية التي كانت سائدة آنذاك بين قبائل البدو والفلاحين دورها في زعزعة الحياة واضطرابها، تضاف إلى ذلك الكوارث الطبيعية وتفشّي الأمراض والأوبئة. كل ذلك ساعد في تدني أسعار الأراضي التي كانت ملكيتها حكراً على فئة قليلة جداً من الملاكين الذين كانوا في معظم الأحيان يقطنون في أماكن بعيدة عن ممتلكاتهم. فحفلت جرائد تلك الحقبة بإعلانات بيع لقرى بأكملها في الجليل الأعلى، إلى جانب مساحات شاسعة من قرى كثيرة أخرى. فاستغل اليهود هذا الوضع وبدأوا عمليات الشراء من خلال ثلاث قنوات أساسية: الجمعيات التابعة لحركة «أحباء صهيون»، والبارون روتشيلد، والجمعية اليهودية للاستيطان وشركة تطوير أراضي فلسطين. وبما أن القانون التركي كان يمنع تسجيل هذه الأراضي بأسماء يهودية كان يجري تسجيلها بأسماء أخرى، عربية، مؤقتاً. وكانت المستوطنة الأولى التي أقامها «أحباء صهيون» بتاح تكفا. أسسها مهاجرون من أصل روسي وروماني هاجروا من بلادهم. بعد حملات اضطهاد تعرضوا لها، إلى الولايات المتحدة ومن هناك هاجروا إلى فلسطين تدفعهم دوافع ايديولوجية وقومية. كان ذلك عام ١٨٧٨، وتبعه، بعد ثلاثة أعوام، إنشاء مستوطنة ثانية في «ريشون لتسيون». وما بين ١٨٨٢ و ١٨٨٤، أقيمت ثلاث مستوطنات في سهل الحولة هي: روش بينا، يسود هامعلا، وميشمار هايردن.

مع الحرب العالمية الأولى ازداد وضع السكان العرب سوءًا، وانخفض عددهم في فلسطين من ٥٩٠ إلى ٥٦٥ ألف نسمة. أما عدد اليهود فبلغ في العام ١٩١٥ نحو ٨٣ ألفاً. وأما الأراضي التي تمّ شراؤها حتى عام ١٩١٨ فبلغت ٤١٨ ألف دونم.

استمرت عمليات شراء اليهود للأراضي العربية مع مجيء الانتداب البريطاني، في الوقت الذي أخذت المقاومة العربية للاستيطان اليهودي شكلاً واضحاً، تمثّل في مطالبة الأهالي رفض بيع أراضيهم لليهود، وعدم القبول بالتعويضات المالية، والتصدي للمستوطنين ومنعهم بالقوة من الاستيطان. فوقعت مواجهات عدة بين الطرفين كان أعنفها في ١٩٢٢ حين لقي ١٣٣ يهودياً مصرعهم، وجرح ضعف هذا العدد في حوادث شغب متفرقة وقعت في أماكن عدة.

في ١٩٣٠، أصدرت سلطات الانتداب «الكتاب الأبيض» الذي اعتمد على تقرير رفعته لجنة خاصة درست وضع الأراضي والخلاف عليها بين اليهود والعرب، وقيّدت، بالتالي، شراء اليهود للأراضي في محاولة منها للحدّ منه. ولكن ذلك، وإن عرقل استمرار الشراء، فإنه لم يؤد إلى وقفه. فاليهود كانوا مدركين أن توزع الأرض وملكيتها والاستيطان فيها هي التي ستقرر إلى حد بعيد مستقبل حدود الدولة العبرية، وكانوا يعون أن شراء الأرض وحده لا يكفي، وإنما يجب توطين الأرض بالمستوطنين.

وبدءًا من ١٩٣٧، راح الاستيطان اليهودي يأخذ وجهة أوضح، إذ بات ذات طابع احتلالي عسكري مستفيداً من كل ما يتلاءم مع ظروف المرحلة السياسية

مستوطن اسرائيلي مسلح يحرس مستوطنة في الضفة الغربية

مستوطنة قيد الإنشاء

والأمنية. فكانت قوات الهاغاناه (منظمة الدفاع العبرية عن أرض إسرائيل) ترافق نواة المستوطنين الأوائل، وتتمركز في كل نقطة استيطانية جديدة للدفاع عنها وعن ساكنيها ضد هجمات الفلسطينيين. واستمرت عمليات شراء الأراضي. ففي ١٩٣٩، كان قد أصبح في حيازة اليهود ١,٥٣٣,٤٠٠ دونم. وبذل المسؤولون عن الاستيطان أقصى ما في وسعهم لإقامة مستوطنات جديدة على هذه الأراضي وإسكانها بمهاجرين يهود، حتى كان عدد المستوطنات قد بلغ قبيل قيام دولة إسرائيل ٣٠٢ مستوطنة. وعشية حرب ١٩٤٨، بلغت مساحة الأراضي التي يملكها اليهود ١,٨٠٢,٤٠٠ دونم؛ أما عدد اليهود فكان ٦٥٥ ألفاً.

لم يكن قد مضى أكثر من ٤٨ ساعة على إعلان دافيد بن غوريون قيام دولة إسرائيل، وفتح أبواب الدولة أمام كل يهودي راغب في الهجرة إليها، حتى بدأت وفود المهاجرين اليهود الجدد تتدفق على إسرائيل؛ إذ بلغ عددهم خلال الأشهر الستة الأولى نحو ١٠٠ ألف مهاجر. وفي ١٩٤٩، وصل أكثر من ربع مليون مهاجر، فازداد عدد سكان إسرائيل نتيجة لذلك بنسبة ٥٠٪. مقابل ذلك، اقتلع الفلسطينيون من نحو عشرين مدينة و ٤٠٠ قرية عربية غدت بأملاكها ومزارعها جزءًا من الدولة اليهودية الجديدة، كما بات نحو ٧٠٠ ألف فلسطيني مشرّدين بلا مأوى وتحولوا لاجئين. وجعل زعماء الدولة الجديدة تشجيع الهجرة إلى إسرائيل في رأس سلّم أولوياتهم القومية.

□ **الاستيطان اليهودي منذ نشوء إسرائيل:** خلال السنوات العشر الأول على نشأة دولة إسرائيل، أقيمت ٣٧٢ مستوطنة جديدة، أضيفت إلى ٣٠٢ مستوطنة زراعية كانت موجودة قبل قيامها.

وانقسمت هذه المستوطنات إلى كيبوتزات، وهي عبارة عن قرى زراعية وصناعية جماعية، هدفها تطبيق الفكرة الصهيونية والاشتراكية العمالية في حياة الكيبوتز؛ وإلى موشانيم للعمال، وهي مستوطنات زراعية يتمتع أعضاؤها بحرية الانتماء الحركي والسياسي، كما يمكنهم الانسحاب منها من دون إذن، ويملك كل عضو فيها منزلاً خاصاً به وقطعة من الأرض يعمل فيها مع أبناء عائلته. فتمكنت السنوات العشر الأولى لقيام الدولة العبرية من تغيير وجه فلسطين العربي.

وبعد أن احتلت إسرائيل ما احتلته من أراض في حرب ١٩٦٧، باتت المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية وغزة تشكل العائق الأكبر امام التسوية السلمية (التي بدأت مفاوضاتها في مؤتمر مدريد ١٩٩١) بين الإسرائيليين والعرب. فبناء على تقرير أعدّه «المركز من أجل السلام» تبيّن أن عدد المستوطنين في الضفة والقطاع بلغ في نهاية ١٩٩٢، أقل من ١١٠ آلاف شخص، ويوجد ١٢١ مستوطنة يسكنها ١٠٣,٢٢٥ شخصاً، وفي قطاع غزة ١٦ مستوطنة تضم ٣٧٧٥ شخصاً. ويشكل المستوطنون (أواسط ١٩٩٣) ٥,٣٪ من سكان المناطق الذين يقارب عددهم المليونين.

وتظهر نتائج التقرير أنه بخلاف حركات الاستيطان

ستوطنة جديدة (صيف ١٩٩٣) في الجولان

في فترات سابقة والتي أوجدت وحدات اقتصادية واجتماعية تعيل نفسها بنفسها، فإن معظم المستوطنين في السنوات الأخيرة موظفون من سكان المدن، من دون مبادرة أو كفاءة، وهم لم يسكنوا في المناطق المحتلة لدوافع ايديولوجية أو قومية، وإنما بسبب أزمة السكن في إسرائيل.

وقد أثبت التقرير فشل المخططات لتطوير الاستيطان في الضفة الغربية وقطاع غزة. فخطة دروبلس التي وضعت في ١٩٨٣ تحدثت عن ٣٠٠ ألف مستوطن في نهاية ١٩٩٢، في حين يوجد اليوم (١٩٩٣) أقل من ١١٠ آلاف. وفي عهد حكومة إسحق شامير وضع مخطط ضخم يقضي بتطوير الاستيطان في المناطق المحتلة، بحيث يبلغ عدد المستوطنين في العام ٢٠١٠ مليونين و٦٠٠ ألف يهودي. ويبقى أمر الاستيطان في الضفة والقطاع مرهوناً بنتائج المفاوضات القائمة بين العرب والإسرائيليين (راجع «القدس، تهويد»).

□ **اغتيال الوسيط الدولي**

برنادوت: «لم نعد اليوم قادرين على قتل أحد. ولكن ينبغي على العالم أن يتذكر أننا، نحن معشر اليهود نقرر مصيرنا بأنفسنا. لقد أراد برنادوت أن يعطي الجليل والقدس والنقب للعرب (...) إن ما جرى لبرنادوت كان عملية تصفية وليس اغتيالاً. وأنا لست نادماً على ما فعلت».

برنادوت المعني هنا، هو الكونت برنادوت الوسيط السويدي، خلال حرب فلسطين. أما المتحدث فهو الإسرائيلي يوشوا زتيلر، رئيس جهاز منظمة «شتيرن» الإرهابية في القدس، الذي أدلى بهذه الاعترافات، بعد اربعين عاماً على عملية الاغتيال التي كان برنادوت ضحيتها يوم الجمعة السابع عشر من أيلول ١٩٤٨، والتي كانت واحدة من الجرائم البشعة التي ارتكبها الصهاينة في ذلك الحين، وأثارت عليهم نقمة العالم، ولكن من دون جدوى بالطبع.

قال زتيلر أيضاً في ذلك التصريح أن السلطات الصهيونية كانت واثقة من أن الكونت السويدي يعمل لحساب المخابرات البريطانية، ويتصرف بما تمليه عليه عواطفه العربية.

جرت عملية الاغتيال يومها، بعدما حطت طائرة الوسيط الدولي في مطار قلنديا آتية من دمشق، وكان في استقبالها، على أرض المطار، قائد القوات العربية في القدس عبد الله التل. وكانت التحذيرات وصلت من مركز قيادة الأمم المتحدة تنصح بعدم هبوط الطائرة في المطار بسبب اشتداد عمليات القنص. لكن الوسيط الدولي لم يأبه بذلك، بل توجه في موكبه إلى رام الله حيث أجرى محادثات مع الجنرال البريطاني لاش، الذي كان يتولى مسؤولية القوات العربية في المنطقة، تبعاً لما يرويه تحقيق نشرته مجلة «اليوم السابع» قبل سنوات.

بعد عودته من رام الله، وحسب ما يروي شاهد عيان رافق برنادوت، هو الضابط السويدي أوجيه لوندستروم، اقترح هذا الأخير تغيير الطريق الذي كان

الكونت برنادوت الجالس الى اليسار

يمر دائماً عبر بوابة مندلبوم، وإبداله بطريق آخر يمر باللطرون، لكن برنادوت رفض الاقتراح قائلاً أنه يجب أن يتحمل الأخطار نفسها التي يتحملها بقية موظفي الأمم المتحدة. ويتابع لوندستروم روايته قائلاً: «قبل مغادرتنا رام الله طلبت من الجنرال لاش أن يزودنا بسيارة مصفحة، هي السيارة التي عبرنا بها نقاط التفتيش كافة، وتعرضنا خلال الطريق لإطلاق نار أصاب السيارة من الخلف، لكننا تابعنا طريقنا حتى وصلنا إلى بوابة مندلبوم، رفعنا علماً أبيض ثم عبرنا، وقمنا بجولة في بعض أنحاء المدينة حتى وصلنا إلى منطقة حي القطمون باتجاه مبنى «بيبرمانزهاوس» حيث وجدنا في الطريق شاحنة معطلة مليئة بالجنود اليهود. وما أن عبرناه حتى بات الطريق أمامنا خالياً فأوقفتنا سيارة جيب عسكرية، أعتقد أنها سرقت من مستودعات المراقبين الدوليين، توقفت هذه السيارة في منتصف الطريق وترجل منها أربعة رجال في لباس عسكري يهودي وتوجه ثلاثة منهم مباشرة نحو سيارتنا. في هذه اللحظة اعتقد الكابتن اليهودي المرافق لنا أنه حاجز جديد، فصاح باللغة العبرية «كل شيء تمام». واعتقدنا للوهلة الأولى أنهم يريدون التدقيق في أوراقنا. لكن واحداً منهم سارع بإطلاق النار من مسدسه الرشاش عبر الزجاج الخلفي على الكونت برنادوت ومرافقه سيروت. وعندما نظرت مذهولاً إلى برنادوت وجدته من دون حراك واضعاً رأسه بين يديه، وما أن مرّت ثوان حتى اكتشفت أنه مات».

بعد أربعين عاماً على تلك الجريمة كشف الإسرائيليون مسؤوليتهم عنها، وتبيّن أن الفريق الذي خطط لها بدقة كان يتألف من إسحق شامير وناتان يالين ـ مور وإسرائيل الداد، وأن القرار بتصفية برنادوت اتخذ بعد اجتماع للحكومة الإسرائيلية ناقش ما سمي يومها بمقترحات برنادوت الرقم ٢، إذ وجدت الحكومة الإسرائيلية أن ما اقترحه برنادوت لا يتناقض كثيراً مع المطالب العربية وقرارات الأمم المتحدة، وأن موقفه الصلب يهدد بتأليب الرأي العام العالمي ضد إسرائيل. ومن هنا كانت «ضرورة» التخلص منه.

ونذكر أخيراً، أن اعتراف الإسرائيليين، بما كان معروفاً منذ زمن بعيد على أي حال، أثار ثائرة السويديين بعد أربعين عاماً، مما تسبب في أزمة في العلاقة بين إسرائيل والسويد، وقال الوزير السويدي أندرشون، في العام ١٩٨٧ «إن أقل ما يمكن أن تطلبه الحكومة السويدية من إسرائيل هو تقديم اعتذار رسمي على اغتيال برنادوت».

بيد أن إسرائيل لم تقدّم مثل هذا الاعتذار حتى اليوم (ابراهيم العريس، «الحياة»، ١٧ أيلول ١٩٩٣).

□ **الأغيار (غوييم)**: «غوييم» بالعبرية ومعناها شعب أو قوم. يستعمل اليهود هذا المصطلح للإشارة إلى الأمم غير اليهودية. ومنه المصطلح العربي «الأغيار» أو «الغير». واكتسبت الكلمة معاني الذم والقدح والتعالي وأصبح معناها «الغريب». والأغيار درجات، أدناها «الأكوم» أو عبدة الأوثان والأصنام، وأعلاها الذين تركوا هذه العبادة أي المسيحيون والمسلمون. وهذا التمييز هو تطور لاحق عرفته البنية الوجدانية العامة لليهودية، إذ إن العهد القديم لا يلاحظ أي تمييز بين الوثنيين وغير الوثنيين. وقد ساهم الحاخامات في تعميق هذا الاتجاه الانعزالي بتحظيرهم الزواج من الأغيار. ثم تحوّل هذا الرفض إلى عدوانية في التلمود. ويبدو أن هذه الرؤية هي نتاج وضع اليهودي الاقتصادي الحضاري في المجتمع الأوروبي الذي كان في صميمه مجتمعاً زراعياً تصطبغ علاقاته الإنتاجية بصبغة مسيحية قومية، حتى إن ولاء الفارس للنبيل كان يعدّ ولاء مسيحياً، وكان اليهودي خارج هذا المجتمع، اقتصادياً واجتماعياً ودينياً، كتاجر أو مراب. واهتزت هذه الرؤية (ومعها الوضعية الاجتماعية) بعض الشيء مع ظهور الدولة الرأسمالية القومية، وبروز حركة الاستنارة، إلا أن الصهيونية دعت إلى إبقاء النقاء العنصري. ولم يخفف قيام الدولة اليهودية (إسرائيل) من حدة الرؤية الثنائية: يهود وأغيار. فقد أطلق بن غوريون على الأغيار إصطلاح «حاسيري ألوهيم» أي «فاقدي الإله».

□ **«أكسودس»**: إسم سفينة أقلّت ٤٥٠٠ مهاجر يهودي في ١٩٤٧، فمنعتها السلطات البريطانية من الرسوّ في ميناء فلسطيني لعدم شرعية هجرة ركّابها إلى فلسطين. فنجحت الوكالة اليهودية في تحويل تلك الهجرة السرية، وإخفاق هذه الدفعة الكبيرة من الهجرة، إلى وسيلة دعائية كبيرة كانت بأمسّ الحاجة إليها عالمياً:

في ١٠ تموز ١٩٤٧، بارحت سفينة تدعى «الرئيس وارفليد» مرفأ «سيت» الفرنسي وعلى متنها ٤٥٠٠ يهودي قدموا لاجئين من ألمانيا وبهم توجّهت السفينة إلى فلسطين. وقبل الوصول إلى حيفا حوّل اسم السفينة إلى «أكسودس» أي «الخروج» تيمناً بذكرى خروج موسى وأتباعه من مصر في اتجاه «الأرض الموعودة». رفضت السلطات البريطانية السماح لركّابها

سفينة «أكسودس» في ميناء مرسيليا (تموز ١٩٤٧)

بالنزول إلى المدينة، وأُعيدت السفينة، تحت حراسة المراكب البريطانية إلى ميناء مرسيليا الفرنسي وسط حملة إعلامية فوصلت إلى ذلك الميناء يوم ١٨ تموز ١٩٤٧. هناك رفض الركاب النزول إلى البر معلنين انهم يرفضون أي حل غير الذهاب إلى فلسطين. أصرّت السلطات البريطانية على موقفها، قائلة انهم ليسوا يهوداً ألمان بل هم آتون من بلدان أوروبا الشرقية، وانهم مهاجرون سرّيون تمنعهم القوانين من دخول فلسطين. ورأت السلطات الفرنسية ان الحل الوحيد هو إعادتهم إلى ألمانيا. وعلى الفور، اشتغلت الماكينة الإعلامية الصهيونية وراحت أخبار السفينة تملأ صحف العالم متحدثة عن «حق اليهود في أن يكون لهم وطن بعد أن استشهدوا خلال الحرب» وعن ان «الحل الوحيد هو في توجّههم إلى فلسطين حيث يجب أن تقام لهم دولة»... أُعيدت السفينة إلى هامبورغ (ألمانيا) وأُنزل ركّابها هناك بالقوة. لكن، بعد أسابيع نُقل الركّاب أنفسهم بالطائرات إلى فلسطين.

□ **بال، المؤتمر الصهيوني الأول ١٨٩٧**: بال (أو بازل) هي المدينة السويسرية التي عقد فيها المؤتمر الصهيوني الأول بين ٢٩ و ٣١ آب ١٨٩٧ بحضور ٢٠٤ مندوبين، يمثل قسم منهم ١١٧ جمعية صهيونية. وجاء نحو ٧٠ منهم من روسيا وحدها، وحضر المؤتمر مندوبون من أميركا والدول الاسكندنافية، وحتى من الجزائر. وكان من المقرر أن يعقد هذا المؤتمر في ميونيخ إلا أن الجالية اليهودية هناك عارضت ذلك.

وضع المؤتمر الأول برنامجاً سارت عليه سائر المؤتمرات التي عقدت بعد ذلك، وناقش تقارير حول أوضاع الجاليات اليهودية في العالم ومحاضر عن فلسطين والنشاط الاستيطاني فيها، وعن المسائل التربوية. وقد انتخب المؤتمر تيودور هرتزل رئيساً له ورئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية. وانتخب كذلك لجنة تنفيذية من خمسة أعضاء.

□ **البرّاق (حائط المبكى)**: هو الحائط الغربي للحرم الشريف (المسجد الأقصى) في القدس. يرى اليهود أنه يشكل جزءًا من السور الخارجي للهيكل الذي بناه هيرود بعد خراب الهيكل الأول، ويعتبرونه من الأمكنة المقدسة ويحجّون إليه من جميع أنحاء العالم. سُمّي حائط المبكى لأن الصلوات حوله تصاحبها النواح والعويل. حاول اليهود عبثاً الاستيلاء عليه بالشراء والرشوة وتملك جواره في القرن التاسع عشر والقرن العشرين (حتى ١٩٦٧). حاولوا العنف في ١٩٢٩، فاندلعت اشتباكات بينهم وبين العرب في ما عرف بثورة البراق. وعندما شكّلت لجنة تحقيق بريطانية لتحديد حقوق الملكية للحائط قررت أن المسلمين هم المالكون له وللمناطق المجاورة وأن حقوق اليهود تقتصر على

«حائط المبكى» في القدس: ما تبقى من «الهيكل الثاني» الذي هدمه الرومان في العام ٧٠ بعد الميلاد

الوصول إليه لأغراض دينية. وكان أول ما قام به الإسرائيليون إثر احتلالهم القدس (١٩٦٧) الذهاب إلى الحائط بأعداد كبيرة كرمز لانتصارهم على العرب.

☐ **بروتوكولات حكماء صهيون**: وثيقة مزعومة معادية لليهود تقع في ١١٠ صفحات نشرت في العام ١٩٠١ كملحق لكتاب ألّفه الكاتب الروسي سيرجن نيلوس. ويعتقد أن البوليس السري القيصري كانت له يد في إشاعتها. وتزعم هذه الوثيقة أن حاخامات اليهود وقادتهم عقدوا مؤتمراً سرياً (١٨٩٧) في بال (سويسرا)، أي في العام نفسه الذي عقد فيه المؤتمر الصهيوني الأول، وذلك بهدف وضع خطة عالمية محكمة بالتعاون مع الماسونيين الاحرار وغيرهم لإقامة وحدة عالمية تخضع لنفوذ اليهود وتديرها حكومة يهودية عالمية يكون مقرها القدس. أما وسائل تحقيق هذا الهدف فقد حددته البروتوكولات بالخداع وتقويض الأسرة والإيقاع بالدول الأوروبية وإفساد أخلاق العالم المسيحي الأوروبي، وهذا ما يتطلب سيطرة اليهود على الصحافة والنشر ووسائل الأعلام للتحكم في الرأي العام، ونشر الأفكار الرئيسية لداروين وماركس ونيتشه؛ كما تتهم الوثيقة اليهود بأنهم وراء كل الثورات الحديثة بل وراء ما يقع من أحداث كبرى في العالم كجزء من المؤامرة اليهودية العالمية. ولقد عمل عدد كبير في الباحثين (خصوصاً في الغرب) على دحض ما جاء في هذه الوثيقة.

☐ **بلفور، وعد**: هو الوعد (التصريح) البريطاني الرسمي الشهير الصادر في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ الذي أعلنت فيه بريطانيا تعاطفها مع الأماني اليهودية في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وذلك على شكل رسالة بعث بها اللورد بلفور، وزير الخارجية، إلى اللورد روتشيلد، المليونير اليهودي المعروف. وفي ما يلي تعريبها الحرفي:

«عزيزي اللورد روتشيلد،

يسعدني كثيراً أن أنهي إليكم نيابة عن حكومة جلالة الملك، التصريح التالي: تعاطفاً مع أماني اليهود الصهيونيين التي قدموها ووافق عليها مجلس الوزراء، إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين. وستبذل أفضل مساعيها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جلياً انه لن يسمح بأي إجراء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الجماعات غير اليهودية القائمة في فلسطين، ولا بالحقوق أو بالمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى».

☐ **تخنيون** Technion: أكبر معاهد العلوم الهندسية والتكنولوجية في اسرائيل. أسسه الناشطون الصهاينة سنة ١٩١٢ في حيفا، وأولاه وايزمن اهتمامه الحثيث كجزء من خطته لبناء دولة يهودية في فلسطين تفرض سيطرتها بواسطة القوة المصاحبة للتقدم العلمي والتكنولوجي على المنطقة العربية. يعتبر تخنيون من أهم المراكز للبحوث العسكرية. ويشكّل خرّيجو المعهد حوالي نصف القوة العاملة المدربة تدريباً عالياً في اسرائيل. هذا المعهد كان في بداية وفي أساس العلم والتكنولوجية المطبّقة في اسرائيل.

☐ **تساهال (الجيش الاسرائيلي)**: انشئ رسمياً ١٩٤٨. تعود جذوره إلى المنظمات العسكرية التي شكلتها الحركة الصهيونية في فلسطين على اثر الاحتلال البريطاني لفلسطين مثل الهاغاناه والبالماخ والأرغون. أداة الصهر الأساسية لوحدة المجتمع اليهودي الصهيوني. ونشاطه يشمل كل نواحي الحياة الاسرائيلية. يخضع للخدمة الإلزامية فيه جميع الاسرائيليين من الرجال (عمر ١٨– ٥٥) والنساء (١٨– ٣٨). والخدمة فيه لا تشمل العرب باستثناء أبناء الطائفة الدرزية، وذلك منذ ١٩٥٦. يعفى من الخدمة فيه النساء (في حالات محددة) وطلبة المدارس التلمودية. يقسم الجيش إلى ثلاث قيادات في الشمال والوسط والجنوب. ويتبع الجيش تنظيمات شبه عسكرية مثل كتائب الشباب (الناحال والجدناع)، ويلعب دوراً رئيسياً في عملية دمج المهاجرين الجدد. ويلاحظ انه لا يوجد يهودي شرقي في القيادة العليا للجيش رغم ان اليهود الشرقيين يشكّلون غالبية يهود فلسطين. يسيطر على التوجيه الفكري والمعنوي في المجتمع الاسرائيلي، ويقدم ضبّاطه كمثل عليا للمجتمع، ويستأثر بأعلى نسبة من الدخل القومي للمجتمع في العالم حتى ان بعض الدارسين يذهبون إلى القول بأن كل دول العالم تملك جيوشاً إلا في اسرائيل فإن الجيش هو الذي يملك الدولة.

☐ **التقصير (محدال)** Mehdal: تعبير ظهر في اسرائيل عقب حرب تشرين – أكتوبر ١٩٧٣ مباشرة متهماً القيادة الاسرائيلية بالتقصير في الاستعداد لهذه الحرب وفي خوضها، ويشير، بصورة غير مباشرة، إلى مقدرة العرب على المباغتة والقتال المتكافئ. وأول ما صدر في اسرائيل بصورة عنوان كتاب وضعه صحافيون

اسرائيليون وعكس صدمة المجتمع الاسرائيلي من قيادته وكفاءة المقاتلين العرب والتضامن العربي. وذهبت كلمة «التقصير» إلى حدّ أصبحت ترمز معه إلى أزمة حقيقية داخل الكيان الاسرائيلي؛ وقد تمكن هذا المجتمع من إبقائها ضمن حدود الاستيعاب والنقد الذاتي والتعلم من الأخطاء.

☐ **التلمود Talmud**: اسم مشتق من كلمة «لوحيد» العبرية التي تعني «التعليم». والتلمود هو أحد المراجع الشفهية الدينية لليهود، ويشمل ٦٣ كتاباً تعالج قضايا الدين والشريعة والتأملات الميتافيزيقية والتاريخ والآداب والعلوم الطبيعية، كما تتضمن فصولاً في الزراعة والفلاحة والصناعة والمهن والتجارة والربا والضرائب... حتى إنها تغطي كل جوانب الحياة الخاصة لليهودي إلى درجة انها تتناول كل دقائق اعداد الطعام وتناوله والعلاقات الخاصة بين الرجل والمرأة. وقد بدأ تدوين التلمود مع بداية العصر المسيحي ولم يتم الانتهاء منه إلا في القرن الخامس. ويوجد تلمودان: بابلي وأورشليمي. والتلمود البابلي هو المقدس والأهم عند اليهود.

☐ **التوراة Torah**: الكتاب المقدس عند اليهود كما انه كتاب تاريخ وتشريع وإنشاد. والكلمة قد تكون مشتقة من «تارا» بمعنى «يلقي بالقرعة لمعرفة مشيئة الله». وتستعمل للإشارة لمخطوط أسفار موسى الخمسة المكتوب باليد والمحفوظ في تابوت العهد في المعبد اليهودي والذي يعرف باسم لفائف الشريعة. وتتسع دلالات التوراة حتى أصبحت تعني العهد القديم، ثم أصبحت تشمل التفسيرات والأوامر والنواحي التي دوّنت في التلمود. كما يمكن استخدام كلمة «التوراة» للإشارة إلى كل التراث اليهودي، وكل ما أوصى الله به اليهود.

☐ **الحروب الاسرائيلية – العربية: الحرب الأولى (١٩٤٨)**: حرب نشبت في ١٥ أيار ١٩٤٨ بين قوات عدة دول عربية وقوات الكيان الصهيوني الاسرائيلي الذي كان في أطوار تشكله الأخيرة. وتخللت هذه الحرب هدنتان قبل أن تنتهي بعقد اتفاقيات هدنة بين اسرائيل وكل دولة عربية دخلت الحرب، في ١٩٤٩.

مع تصاعد التوتر في فلسطين، وإصرار بريطانيا على الانسحاب من البلاد بتاريخ أقصاه يوم ٥ أيار ١٩٤٨، وتنفيذ مذابح ضد الفلسطينيين، دخلت الجيوش العربية (منتصف ليلة ١٥ أيار ١٩٤٨) أرض فلسطين، وحققت نجاحات عدة رغم الثغرات التي عانت منها وأهمها انعدام التنسيق في ما بينها. ضغط مجلس الأمن والولايات المتحدة وبريطانيا لوقف النار. واستفادت اسرائيل إلى أقصى حد من هذه الهدنة، حتى إذا ما تجدد القتال على الجبهة المصرية وبقية الجبهات في ٧ تموز ١٩٤٨، واستمر إلى مطلع ١٩٤٩، كانت اسرائيل قد ظفرت بأجزاء من فلسطين تفوق من حيث المساحة القسم الذي حدده قرار تقسيم فلسطين في الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ والذي رفضته في حينه جامعة الدول العربية والحكومات العربية.

الحرب الثانية (١٩٥٦): وتعرف أيضاً باسم «العدوان الثلاثي» على مصر، حيث شاركت فيها، إلى جانب اسرائيل، إنكلترا وفرنسا، وانتهت بانتصار سياسي لمصر وحركة التحرر العربية رغم ان النتيجة العسكرية لم تكن لصالح مصر.

في العام ١٩٥٥، بدأت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بممارسة ضغوطات على مصر لاتباعها سياسة تحررية وطنية وقومية. كما كانت اسرائيل، من ناحية أخرى، قد صعّدت من اعتداءاتها على قطاع غزة والحدود المصرية بغية ردع مصر والإعداد لحرب تستهدف تحطيم الجيش المصري قبل أن يتمكن من استيعاب الأسلحة السوفياتية والتشيكية التي كانت قد وصلته حديثاً. وتوّجت الضغوطات على مصر في ١٩ تموز ١٩٥٦ حين سحبت الولايات المتحدة وبريطانيا عرضهما لتمويل مشروع السدّ العالي. فقام الرئيس المصري جمال عبد الناصر في ٢٦ تموز ١٩٥٦ بإعلان قرار تأميم قناة السويس في خطاب تاريخي ألقاه في الاسكندرية.

وبعد إجراء تنسيق تام في المواقف السياسية والعسكرية بين اسرائيل وبريطانيا وفرنسا، بدأ ت اسرائيل هجومها في ٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦؛ ثم بعد أيام لحقت بها بريطانيا وفرنسا بالقيام بغارات جوية على مصر استمرّت حتى ٥ تشرين الثاني ١٩٥٦ حين تمّ إنزال المظليين البريطانيين والفرنسيين ونشبت معركة بور سعيد.

هبت مظاهرات صاخبة في كل أرجاء العالم العربي ونسفت المصالح البريطانية والفرنسية، خصوصاً أنابيب البترول ومحطات الضخ التابعة لشركة نفط العراق البريطانية. ووجّه الاتحاد السوفياتي إنذاراً بضرب لندن وباريس، ولم تقف الولايات المتحدة إلى جانبها. فاضطرّ أطراف «العدوان الثلاثي» إلى القبول بقرار الأمم المتحدة

بوقف إطلاق النار في ليلة ٧ تشرين الثاني ١٩٥٦. وتمّ انسحاب القوات البريطانية والفرنسية من بور سعيد في ٢٢ كانون الأول ١٩٥٦، بعد أن تعرضت لعدة عمليات قامت بها «المقاومة الشعبية»، كما انسحبت القوات الاسرائيلية من قطاع غزة والأراضي المصرية يوم ٦ أذار ١٩٥٧، بعد مماطلة انتهت بعد أن تعهدت مصر شفهياً للولايات المتحدة بعدم القيام بأي عمل عدائي ضد اسرائيل وضمان حرية الملاحة في خليج العقبة. وتعتبر حرب ١٩٥٦ نقطة تحوّل في تاريخ المنطقة. إذ على الرغم من أن نتائجها العسكرية كانت لغير صالح مصر، فإن نتائجها السياسية أدّت إلى تصاعد حركة القومية العربية.

الحرب الثالثة (١٩٦٧): حرب ٥ حزيران ١٩٦٧، أو «حرب الأيام الستة» تمكنت اسرائيل خلالها من السيطرة على شبه جزيرة سيناء والجولان والضفة الغربية، وأصبحت مساحة الأراضي الخاضعة لسيطرتها ٨٩,٣٥٩كلم[٢]، في حين كانت مساحة اسرائيل عشية هذه الحرب لا تتجاوز ٢٠,٧٠٠ كلم[٢]، كما تمكنت اسرائيل من تحطيم القوة العسكرية لمصر وسوريا والأردن، وخلقت هالة حول القدرات العسكرية التي تمتلكها، وبرز وزير دفاعها، موشي دايان، كبطل حرب. أما أسباب هذه الحرب المباشرة فبدأت في نيسان ١٩٦٧ من خلال سلسلة انتهاكات اسرائيل لاتفاقية الهدنة مع سوريا، ثم إعلان الرئيس المصري جمال عبد الناصر (في أيار ١٩٦٧) اغلاق مضائق تيران في وجه الملاحة الاسرائيلية. وبعدها تسارعت الأحداث، ووصلت وحدات من جيوش عربية (كويتية وجزائرية وسودانية) إلى مصر، ووقع العاهل الأردني الملك حسين مع عبد الناصر معاهدة دفاع مشترك. وفي الساعة ٨,٤٥ من صباح الاثنين ٥ حزيران ١٩٦٧، بدأت اسرائيل هجومها الجوي على القواعد الجوية المصرية. وقد تمكنت هذه الضربة وما تلاها من ضربات جوية ضد القواعد الجوية العربية الأخرى من القضاء على أسلحة الجو العربية وتحقيق السيطرة للطيران الاسرائيلي على أجواء المنطقة، الأمر الذي سهّل اندفاع القوات البرية الاسرائيلية في سيناء والضفة الغربية والجولان. وتوقف القتال في ١٠ حزيران ١٩٦٧ (بعد ستة أيام فقط) تنفيذاً لقرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار.

الحرب الرابعة (١٩٧٣): هي الحرب التي شنتها مصر وسورية، وانضمّ إليها العراق وغيره من الأقطار العربية - بوحدات عسكرية - والمقاومة الفلسطينية بتنفيذها لعمليات عسكرية عديدة خصوصاً من الجبهة اللبنانية، ضد اسرائيل في ٦ تشرين الأول ١٩٧٣. وتعرف باسم حرب تشرين أو حرب أكتوبر. انتهت هذه الحرب بانتصارات عسكرية عربية ومحاولات اسرائيلية، ناجحة أحياناً، لتحقيق انتصارات موازية تؤدي إلى تعديل نتائج الحرب. ورافق الحرب حظر نفطي عربي كان له أثر كبير على الوضع الدولي. وجاءت النتائج السياسية المترتبة عن هذه الحرب لمصلحة اسرائيل أكثر مما هي لمصلحة العرب.

بذلت جهود دولية وإقليمية لتسوية سلمية لمسألة احتلال اسرائيل الأراضي العربية في حرب ١٩٦٧، وعلى أساس تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢. وكل هذه الجهود وصلت إلى طريق مسدود. كما تصاعدت التحركات الجماهيرية العربية، لا سيّما الطالبية، التي طالبت بخوض حرب تحرير وطني ضد الاحتلال الاسرائيلي.

في ٢٨ كانون الثاني ١٩٧٣، تمّ تشكيل قيادة عسكرية مشتركة ضمت مصر وسورية والأردن بقيادة الفريق أول أحمد اسماعيل (مصري). وبعد هذا التاريخ، بدأ استعداد جدي (خصوصاً في مصر وسوريا) لخوض الحرب، وترجم هذا الاستعداد بالإكثار من زيارات المسؤولين المصريين والسوريين للاتحاد السوفياتي بهدف الحصول على سلاح متطور لا سيّما في مجال الدفاع الجوي؛ وتوالت الاجتماعات بين القيادتين المصرية والسورية. وفي ١٢ آب ١٩٧٣، عقد اجتماع سري بين القادة العسكريين المصريين والسوريين في الاسكندرية لوضع اللمسات النهائية على الخطة، وترك تحديد توقيت الهجوم للرئيسين السادات (مصر) والأسد (سورية). وفي ٣ تشرين الأول ١٩٧٣، وإبان زيارة الفريق أول أحمد اسماعيل إلى دمشق، تمّ تحديد الساعة الثانية من بعد ظهر ٦ تشرين الأول لبدء الهجوم على الجبهتين.

أثناء المعارك التي مالت كفتها بشكل عام إلى جانب العرب خصوصاً على الجبهة المصرية، تمكنت قوة اسرائيلية على رأسها الجنرال شارون من الاندفاع وإقامة رأس جسر بالقرب من الدفرسوار (مصر) فأحدثت ثغرة في الجبهة المصرية لم تبذل القيادة المصرية جهوداً جدية لاحتوائها، فتابع الاسرائيليون تقدمهم نحو السويس بهدف تحقيق نصر يعيد التوازن بعد النصر الذي حققته القوات المصرية بعبور قناة السويس.

أدّت هذه الحرب إلى تدهور المعنويات داخل اسرائيل، وشمولية الشعور بالتقصير لديها، الأمر الذي قاد إلى تحولات سياسية مهمة في اسرائيل. وتلا الحرب (التي أوقفها قرار وقف إطلاق النار من مجلس الأمن في

٢٤ تشرين الأول ١٩٧٣) إتفاقيتا فصل القوات على الجبهتين (المصرية والسورية)، بالإضافة إلى سلسلة من التطورات في العلاقات المصرية – الأميركية قادت في النهاية إلى مبادرة الرئيس المصري السادات، واتفاقية كامب دافيد والمعاهدة المصرية – الاسرائيلية، وتالياً إلى سلسلة من إجراءات سياسية اسرائيلية داخلية وخارجية مكّنت اسرائيل من استيعاب صدمة الحرب وإعادة صورتها المتفوقة في المنطقة، تقابلها سلسلة من تراجعات عربية أعادت الأقطار العربية إلى حال من تمزق وعجز.

الحرب الخامسة (لبنان): حرب متقطعة، أو حرب استنزاف استمرّت اسرائيل تشنّها على لبنان عبر جنوبه بحجة ملاحقة الفدائيين الفلسطينيين في مرحلة أولى (١٩٦٨– ١٩٨٢)، أهمها الغزو الاسرائيلي في ١٩٧٨، ثم الغزو الاسرائيلي الذي وصل إلى العاصمة بيروت في ١٩٨٢؛ وفي مرحلة ثانية (١٩٨٣– أواخر تموز ١٩٩٣) بحجة ملاحقة المقاومة الوطنية والفلسطينية – حزب الله – بلغت ذروتها في أواخر تموز ١٩٩٣ التي أسفرت عن دمار هائل في جنوب لبنان وتشريد نحو نصف مليون من سكّانه.

□ **الحريديم**: يهود متدينون متطرفون يعيشون حياة منعزلة عن اليهود غير المتدينين. فلهم حاراتهم وقراهم الخاصة بهم، ومؤسساتهم التعليمية والاقتصادية وحياتهم الاجتماعية، ولا يتزوج اليهودي الحريدي من غير مجموعته، وإذا ما حدث ذلك فإن الأمر يعتبر كما لو ان شخصاً قد مات من العائلة. والانفصال بين الحريديم وبين اليهود الآخرين «غير المتدينين» برأيهم، آخذ في الاتساع. أبرز قادة الحريديم الحاخام اليعازر شاخ المتميز بجرأته ودوره في السياسة في اسرائيل. وأشهر خطبه الخطاب الذي ألقاه في ١٩٩٠ في أحد الملاعب على آلاف من أنصاره، وهاجم فيه أعضاء القبوصيم (المستوطنات) غير المتدينين خصوصاً. وعندما دافع رئيس الدولة، حاييم هرتزوغ، عن أعضاء القبوصيم، انتقده الحاخام شاخ واعتبر ما قاله «جريمة». ونشرت صحيفة «يتدنئمان» (التي يشرف عليها الحاخام شاخ) وثيقة تشير إلى أن والد رئيس الدولة – الذي كان رئيساً للحاخامين – قد دان أعضاء القبوصيم في وقته على عدم التزامهم بالشريعة اليهودية. وعاد الحاخام شاخ إلى نقد رئيس الدولة في ١٩٩١ وحذّره بأنه سيعاقب على مساندته لأعضاء القبوصيم «آكلي لحم الخنازير». ومن أكثر النقاط إثارة للخلاف بين الحريديم و«غير المتدينين» ما يتعلق بمفهوم «الهلوكوست». في خطاب للحاخام شاخ، جاء «تذكروا ما يقول لكم شيخ يهودي ان الرب صبور وقد يمهل ولكنه لا يهمل إذ قد ينزل غداً باليهود مذبحة (هلوكوست) كما أنزلها عليهم من قبل». وأثار هذا الكلام حفيظة اليهود غير المتدينين لأن هؤلاء لا يقبلون فكرة هلوكوست ثانية ويعتبرون ما حدث هو شيء فريد لم يحدث مثله ولن يحدث مثله وليس له ارتباط بما قبله أو بما بعده. ولا يرى الحريديم هذا الرأي. فالهلوكوست (المذبحة)، برأيهم، يأتي ضمن سياق ما وقع على اليهود في تاريخهم كحادث تهديم معبدهم الأول وأخذهم أسرى إلى العراق، وكتقتيل الرومان لهم وتهديم معبدهم الثاني، وكإخراجهم من اسبانيا أو ما حصل لهم في بولونيا (بولندا) في مذبحة عام ١٦٤٨. ويرى الحريديم ان اطلاق مصطلح «الهلوكوست» على ما حصل لليهود على أيدي النازيين هو مصطلح خاطئ، وكذلك مقابله العبري «هاشوعاه»، ويفضلون استعمال مصطلح «خربان» الذي يعني حرفياً «تهديم وتخريب». ويذكر هنا ان الحريديم يعتبرون اليهود الصهاينة مسببين لما حدث لليهود على يد النازية لأنهم دعوا إلى إقامة الدولة اليهودية، وبهذا خالفوا وجوب انتظار «المسيح المخلّص» كما يدّعون في كتبهم وحاولوا التعجيل بظهوره. لذلك غضب الرب على كل اليهود وعاقبهم.

□ **رئاسة الدولة الاسرائيلية**: يصنّف نظام الحكم الاسرائيلي بأنه نظام جمهوري. وحددت القوانين الأساسية أن يكون منصب رئيس الدولة تمثيلياً ورمزياً، في حين أعطيت صلاحيات الحكم للكنيست (البرلمان) والحكومة. فمؤسسة رئاسة الدولة لا تنتمي إلى أي من السلطات الثلاث (التشريعية والتنفيذية والقضائية)، بل تقف فوق جميع المؤسسات والسلطات، من دون أن تضطلع بأداء مهمات كبرى بالقياس مع مهمات الرئاسة في الأنظمة الأوروبية مثلاً. فالرئيس الاسرائيلي يشبه ملكاً دستورياً (بريطانيا مثلاً) في مهمته وسلطاته، مع انه يحمل اللقب العبري القديم (مناسي = الرئيس) الذي تتحدث النصوص اليهودية عن دوره ومكانته الرفيعة في حياة الشعب.

خلال الأشهر الأولى لقيام إسرائيل نشأ خلاف بين حاييم وايزمن (رئيس المنظمة الصهيونية العالمية) المرشح لتسلّم منصب الرئيس الأول لإسرائيل، وبين دافيد بن غوريون (رئيس الحكومة الموقتة وزعيم حزب ماباي). ففي حين كان الأول يتطلع إلى منح الرئيس سلطات وصلاحيات واسعة ومهمة في نظام الحكم، كان الثاني

يعمل على خفضها إلى الحدود الرمزية والتمثيلية، وقد غلبت وجهة نظره ووضعت القوانين الأساسية الخاصة برئاسة الدولة على أساسها. حتى ان طاقم مؤسسة الرئاسة، في سنواتها الأولى (في ولاية وايزمن) لم يزد عن ستة أشخاص فقط بما فيهم عاملة التنظيفات في مكتب الرئيس. والأمر نفسه مع الرئيس الثاني إسحق بن تسفي. وبمرور الزمن وصلت هذه المؤسسة إلى حال أصبح فيها مقر الرئيس يضم عشرات الموظفين، في الوقت الذي لم يطرأ فيه أي تغيير على وظيفته خلال السنوات المتعاقبة.

نصت الفقرة ١٢ من القانون الأساسي الثالث الصادر عن الكنيست في ١٩٦٤، على ان كل وثيقة رسمية، باستثناء الوثيقة المتعلقة بتشكيل الحكومة، يوقّع عليها رئيس الدولة، يجب أن يصادق عليها رئيس الوزراء أو أي وزير آخر تختاره الحكومة لهذه المهمة. وهذا يعني أن الرئيس معفى من المسؤوليات الدستورية المتعلقة بالوثائق الرسمية التي يوقّعها، وفي الوقت ذاته يتحمل تلك المسؤوليات الوزير الذي يصادق على توقيعه ويكون مسؤولاً عن ذلك، ليس فقط أمام الكنيست، وإنما أمام إحدى المحاكم أيضاً.

الرؤساء: لدى استعراض أسماء الشخصيات التي تولت منصب رئيس الدولة في اسرائيل، يتبين ان كل رؤساء إسرائيل كانوا يتمتعون بمكانة رفيعة في ميادين اهتماماتهم وفي النشاط الاسرائيلي العام. فلم يأتِ أي رئيس من الظل، ولم يكن أي رئيس شخصاً عادياً أو لا يمتلك رصيداً في مجال معين. كان رؤساء اسرائيل من ذوي السيرة الشخصية المعروفة من غالبية الاسرائيليين، ومن ذوي الإمكانات الخاصة التي تقنع الاسرائيلي العادي برئيسه:

– رئيس اسرائيل الأول، **حاييم وايزمن**، ولد في روسيا عام ١٨٧٤، وحصل على درجة الدكتوراه في الكيمياء من جامعة برلين عام ١٨٩٩، وشارك في جميع المؤتمرات الصهيونية التي سبقت قيام اسرائيل، وكان زعيماً للاتجاه الصهيوني الداعي إلى ارتباط الحركة الصهيونية ببريطانيا، وعمل وايزمن استاذاً للكيمياء في إحدى الجامعات البريطانية. وفي العام ١٩٢٠ انتخب رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية، ثم رئيساً للوكالة اليهودية لدى تأسيسها عام ١٩٢٩، وأعيد انتخابه رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٣٥ وظل في منصبه هذا حتى العام ١٩٤٦. ومع قيام اسرائيل انتخب وايزمن (في ١٩٤٨/٥/١٧) رئيساً لمجلس الدولة الموقّت، ثم رئيساً للدولة عام ١٩٤٩، وبقي في منصبه

رئيس اسرائيل الأول حاييم وايزمن

هذا حتى توفي عام ١٩٢٥.

ساهم وايزمن في تأسيس معهد وايزمن للعلوم في رحبوت عام ١٩٣٤، وتولى رئاسته فترة طويلة، كما ترأس مجلس أمناء الجامعة العبرية في القدس (١٩٣٢–١٩٤٩)، ولعب دوراً كبيراً في الحصول على اعتراف العديد من دول العالم باسرائيل، وفي التعاون معها ضمن مجالات مختلفة.

– رئيس اسرائيل الثاني، **إسحق بن تسفي**، ولد في روسيا عام ١٨٨٤، ودرس في جامعة كييف، وحضر المؤتمر التأسيسي لحزب الصهيونية الاشتراكية في روسيا، وكان أحد أعضاء اللجنة التي وضعت برنامج الحزب وخصوصاً النقاط التي تتعلق بفلسطين. وتنقّل بن تسفي بين ألمانيا والنمسا وسويسرا للتأثير على الطلاب اليهود في هذه البلدان، واستوطن في فلسطين عام ١٩٠٧ وساهم في تأسيس منظمة هاشومير (١٩٠٩) وقام بزيارة اسطنبول وسالونيك وبيروت ودمشق لتوطيد العلاقات مع الجمعيات اليهودية فيها. وعمل مع بن غوريون في تأسيس منظمة الطليعي (حالوتس)، وتأسيس الكتائب اليهودية في أميركا، وانتقل إلى فلسطين عن طريق مصر مع القوات البريطانية (١٩١٨). وفي العام ١٩٢٠ عيّن سكرتيراً لمنظمة العمل اليهودية (الهستدروت)، وانتخب رئيساً لمجلس بلدية القدس عام ١٩٢٧. واستمرّ في نشاطاته ضمن مجالات متعددة حتى قيام اسرائيل عام ١٩٤٨.

ترأس بن تسفي معهد الدراسات الخاص بالطوائف اليهودية الشرقية عام ١٩٤٨، وقد سمّي هذا المعهد باسمه

عام ١٩٥٢. وبعد وفاة وايزمن انتخب بن تسفي رئيساً للدولة (١٩٥٢) وأُعيد انتخابه لولاية ثانية عام ١٩٥٧، وثالثة عام ١٩٦٢، لكنه توفي عام ١٩٦٣. وكان بن تسفي باحثاً متخصصاً بتاريخ فلسطين، وكتب العديد من الدراسات والمقالات، وألف عدة كتب في هذا الميدان.

– الرئيس الاسرائيلي الثالث، **زلمان شازار**، ولد في روسيا عام ١٨٨٩، وانضم إلى حزب بوعالي تسيون في شبابه، والتحق بالأكاديمية اليهودية للعلوم في بطرسبرغ، ثم هاجر للدراسة في جامعات ألمانيا، وهناك شارك بشكل فعّال في النشاط الصهيوني، وكان أحد مؤسسي حركة العمل الصهيونية ١٩١٦ ومنظمة الطليعي (حالوتس). وبعد هجرته إلى فلسطين عام ١٩٢٤، أصبح عضواً في الهستدروت، وعمل محرراً في صحيفة «دافار»، وترأس مؤسسة النشر حتى العام ١٩٤٩، ثم عيّن وزيراً للمعارف والثقافة واستمرّ في هذا المنصب حتى عام ١٩٥١. وعمل شازار عضواً في اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية ورئيس لقسم الإعلام فيها، وترأس اللجنة من ١٩٥٦– ١٩٦٠. وفي العام ١٩٦٣ انتُخب رئيساً لدولة اسرائيل، وأُعيد انتخابه عام ١٩٦٨، وتوفي عام ١٩٧٤.

كان زلمان شازار قيادياً معروفاً في الأوساط الصهيونية، وشخصية نشيطة في العديد من المجالات، وضمنها مجال الكتابة والتأليف في التاريخ والأدب.

– الرئيس الاسرائيلي الرابع، **افرايم كاتسير**، ولد في كييف عام ١٩١٦، وهاجر مع عائلته إلى فلسطين عام ١٩٢٢، ودرس في الجامعة العبرية ونال درجة الدكتوراه في علم الأحياء عام ١٩٤١. انضم في مطلع شبابه إلى الهاغاناه، وكان أحد الذين أسسوا الشعبة العلمية فيها، وكان رئيساً لهذه الشعبة خلال حرب ١٩٤٨. وعيّن في ذلك العام رئيساً لقسم البيوفيزياء في معهد وايزمن للعلوم، وعمل خمس سنوات محرّرا للزاوية العلمية في صحيفة «هآرتس».

انتخب كاتسير عام ١٩٦٦ عضواً للأكاديمية الأميركية للعلوم، وعمل أستاذاً في جامعتي هارفارد وكاليفورنيا، وتفوق أعماله العلمية المنشورة ٢٥٠ عملاً. وانتخب رئيساً لاسرائيل عام ١٩٧٣ لمدة خمس سنوات، ساهم خلالها في تعزيز صورة اسرائيل المتقدمة علمياً في مختلف اتصالاته وأنشطته الخارجية.

– الرئيس الاسرائيلي الخامس، **اسحق نافون**، ولد في القدس عام ١٩٢١، ودرس في إحدى المدارس الدينية، ثم تخرّج من الجامعة العبرية متخصصاً بالأدب العبري والتاريخ الإسلامي. وفي العام ١٩٤٦ عُيّن رئيساً للفرع العربي في قيادة الهاغانا، وبعد قيام اسرائيل عمل في السلك الديبلوماسي في أورغواي والأرجنتين، ثم أصبح سكرتيراً خاصاً لوزير الخارجية عام ١٩٥٠، وسكرتيراً خاصاً لبن غوريون حتى العام ١٩٦٣، وبعد استقالة بن غوريون عمل نافون في وزارة المعارف، ثم انضم إلى حزب رافي مع بن غوريون، ثم عاد إلى حزب مباي. ومن المناصب التي شغلها، رئيس لجنة الخارجية والأمن في الكنيست ورئيس المجلس العام في المنظمة الصهيونية. وهو يجيد ست لغات بشكل تام (هي العبرية والعربية واليديش والإسبانية والانكليزية والفرنسية). وانتخب رئيساً للدولة عام ١٩٧٨، واستمر في منصبه هذا حتى العام ١٩٨٣. وبعد ذلك عيّن نائباً لرئيس الحكومة ووزيراً للتعليم في حكومة شيمون بيريز الائتلافية عام ١٩٨٤، ووزيراً للتعليم والثقافة في حكومة ١٩٨٨.

– الرئيس الاسرائيلي السادس، **حاييم هرتزوغ**،

رئيس اسرائيل السادس حاييم هرتزوغ

ولد في بلفاست عاصمة ايرلندا الشمالية عام ١٩١٨، وكان والده آنذاك الحاخام الرئيسي ليهود ايرلندا. هاجر مع أسرته إلى فلسطين عام ١٩٣٥، وأصبح والده بعد قيام اسرائيل الحاخام الاشكنازي الأكبر. وفي فلسطين حصل هرتزوغ غلى ثقافة دينية، ثم درس القانون في جامعتي لندن وكمبردج. وتطوّع في الجيش البريطاني أثناء الحرب العالمية الثانية ووصل فيه إلى رتبة مقدم. وبعد تسريحه عاد إلى فلسطين وترأس منصب رئيس جهاز الأمن (١٩٤٧– ١٩٤٨). وكان ضابط عمليات

أحد الألوية التي حاربت في منطقة القدس، ثم عيّن رئيساً لفرع المخابرات العسكرية (١٩٤٨- ١٩٥٠) وملحقاً عسكرياً في واشنطن حتى العام ١٩٥٤، وقائداً لمنطقة القدس حتى العام ١٩٥٧، ثم رئيساً لأركان قيادة المنطقة الجنوبية (١٩٥٧- ١٩٥٩) وأصبح رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية (١٩٥٩- ١٩٦٢) وترك الخدمة وهو برتبة لواء.

عمل هرتزوغ بالمحاماة، وأصبح عضواً في مجلس إدارة عدد من الشركات والمؤسسات. وخلال حرب ١٩٦٧، كان يتولى إدارة الحرب النفسية عبر تعليقاته الإذاعية اليومية خلال الحرب، ثم عيّن أول حاكم عسكري للضفة الغربية بعد احتلالها، وترك الخدمة ثانية وعاد للعمل في المحاماة. وفي العام ١٩٧٥ عيّن رئيساً للوفد الاسرائيلي في الأمم المتحدة، وظل في هذا المنصب حتى العام ١٩٧٨، حين عاد إلى أعماله الخاصة.

انخرط هرتزوغ في العمل السياسي / الحزبي منذ أن ترك الخدمة العسكرية. فانضم إلى حزب مباي (العمل حالياً) وإلى كتلة رافي مع بن غوريون، ثم عاد إلى حزب العمل مع بيريز وموشي دايان عام ١٩٦٨. وقد انتخب عضواً في الكنيست عدة دورات. وفي العام ١٩٨٣ انتخب رئيساً لاسرائيل، وأعيد انتخابه عام ١٩٨٨، ويعتبر هرتزوغ من صقور حزب العمل المتطرفين، ويقترب في مواقفه من دعاة «أرض اسرائيل الكاملة» في الأحزاب اليمينية الاسرائيلية.

- ولد الرئيس الاسرائيلي السابع، **عازر وايزمن**، في حيفا عام ١٩٢٤ من أب روسي الأصل، ودرس في المدرسة العسكرية الداخلية / هرئيلي في حيفا. تطوع في الجيش البريطاني عام ١٩٤٢، وحارب في الصحراء الغربية. واشترك في دورة طيارين في روديسيا عام ١٩٤٣، وكان عضو أول مجموعة صهيونية للتدرب على الطائرات في روديسيا. وظل يخدم في سلاح الجو البريطاني كطيار حربي حتى العام ١٩٤٦، خدم خلالها في مصر والهند. وفي

رئيس اسرائيل السابع (الحالي)
عازر وايزمن

العامين ١٩٤٦/ ١٩٤٧، درس علوم الطيران في بريطانيا، ثم انضم إلى الهاغانا وكلف بإقامة نواة سلاح الطيران الاسرائيلي. وفي العام ١٩٤٩ كان قائداً لسرب قتالي، وعيّن رئيساً لقسم العمليات في سلاح الجو عام ١٩٥٠، وقائد جناح (١٩٥٢- ١٩٥٧). وتسلم قيادة سلاح الجو الاسرائيلي (١٩٥٨- ١٩٦٦) وبعد ذلك كان رئيس العمليات في هيئة الأركان حتى العام ١٩٦٩، حيث سرح من الجيش وهو برتبة لواء، وانضم إلى حزب حيروت (حزب بيغن) الذي شكل بعد ذلك العمود الفقري لليكود. وفي تموز (يوليو) ١٩٦٩ عيّن وزيراً للمواصلات في حكومة غولدا مائير، ممثلاً لكتلة جاحل، وبقي في هذا المنصب حتى آب ١٩٧٠ حين انحلت هذه الحكومة.

انتخب وايزمن رئيساً لإدارة حيروت عام ١٩٧١، وتخلى عن الحزب عام ١٩٧٢، وتفرغ بعد ذلك للأعمال الخاصة، وتعاقد مع وزارة الدفاع الاسرائيلية ليكون وسيطاً بشأن شراء الأسلحة من الشركات الأجنبية. وعاد إلى النشاط الحزبي في المؤتمر الثاني عشر لحزب حيروت (عام ١٩٧٤) وقاد حملة الليكود الانتخابية التي أوصلته إلى السلطة بزعامة بيغن عام ١٩٧٧، وأصبح وايزمن الرجل الثاني في حيروت. وفي ٦/٢١/ ١٩٧٧، عيّن وايزمن وزيراً للدفاع في حكومة بيغن الأولى، ثم اختلف معه واستقال في ١٩٨٠/٥/٢٦.

شكّل وايزمن حركة «ياحد» عشية انتخابات الكنيست الحادية عشرة (١٩٨٤) وحصلت هذه الحركة على ٣ مقاعد. ثم اندمجت مع حزب العمل فيما بعد. وشغل منصب وزير بلا وزارة في حكومة بيريز الائتلافية (١٩٨٤). وانتخب عضواً في الكنيست الثانية عشرة، وعيّن وزيراً للعلوم والتطوير في حكومة شامير الائتلافية (١٩٨٨- ١٩٩٠). وهو ابن أخ رئيس اسرئيل الأول حاييم وايزمن. ومن الناحية الحزبية السياسية، أصبح ينتمي إلى تيار الحمائم في حزب العمل، منذ اندماج حركة «ياحد» في الحزب.

رشّح حزب العمل وايزمن للتنافس على منصب رئيس اسرائيل، وفاز بهذا الترشيح في مركز الحزب (يوم ١٩٩٣/١/١٤) حين صوّت لصالحه ٦٢٣ عضواً (أي نحو ٥٢ في المئة من عدد أعضاء المركز) وتفوق بذلك على المرشحين الآخرين (شلومو هليل ولوبا الياف). وتأثرت عملية انتخابه في مركز حزب العمل بعلاقات القوى السائدة فيه، حين نجح شيمون بيريز وبنيامين بن اليعازر (وزير البناء في حكومة رابين) بتأمين شعبية كبيرة لوايزمن في مركز الحزب، فيما كان المعارضون لترشيحه

يرون انه لم يقدم مساعدة لحزب العمل في حملاته الانتخابية. وعلى أي حال كان التنافس على ترشيح حزب العمل لمنصب رئيس الدولة، هذا العام (١٩٩٣)، أقل حدة من الحالة السابقة، ويبدو ان أوساط الحزب كانت في صورة توجهات قيادته لاختيار وايزمن، حين طرح اسمه كمرشح لمنصب رئيس الدولة منذ حملة حزب العمل لانتخابات الكنيست الثالثة عشرة في صيف ١٩٩٢.

وخارج الحزب، خاض وايزمن التنافس على منصب رئيس الدولة أمام دون شيلانسكي (مرشح الليكود واليمين المتطرف)، وفاز على منافسه في تصويت الكنيست لصالحه (في ١٩٩٣/٣/٢٤) بغالبية ٦٦ صوتاً، مقابل ٥٣ صوتاً لصالح شيلانسكي، وبطاقة بيضاء.

يرمز الرئيس السابع إلى التغير الايديولوجي السياسي للعديد من الاسرائيليين، خصوصاً وان الأشخاص الذين تحتفظ ذاكرة الاسرائيليين لهم بمثل هذا التغير، هم قلة. وعلى رغم ارتباط وايزمن بحزب العمل، إلا أن أوساط الليكود تختزن له صورة العضو النشيط في هذا الحزب، والرجل الذي ساعد بيغن في إنجاز عملية السلام مع مصر، وغير ذلك من الأعمال التي ظهر فيها وايزمن شخصية مركزية في النشاط الحزبي والسياسي، سواء قبل خروجه من الليكود أو بعد ذلك.

جرى انتخاب وايزمن لمنصب رئيس اسرائيل، في أجواء كانت تسودها تقديرات اسرائيلية واضحة لطبيعة المرحلة التي يتسلم فيها وايزمن هذا المنصب، وتم الربط بين هذه المرحلة وبين شخصيته وسيرته الحزبية السياسية. فقيل مثلاً ان انتخابه كرئيس للدولة من شأنه أن يبدو احدى الثمار الحقيقية للانقلاب السلطوي، ومدماكاً آخر في تغيير سلم الأفضليات الاسرائيلية. وقيل أيضاً أن وايزمن هو نموذج للاسرائيلي القادر على الفوز بتعاطف الاسرائيليين واليهود عموماً من اليسار واليمين على حد سواء. وعلى رغم الصبغة السياسية التي يظهر بها، في حين يفضّل الكثيرون من الاسرائيليين أن تكون صبغة الرئيس اجتماعية، علمية، ثقافية، إلا أن صورة وايزمن كصهيوني عنيف سابقاً، وكرجل سلام مع مصر، ومتحوّل من اليمين إلى يسار الوسط، لن تكون عبئاً على علاقته مع مختلف القوى والفعاليات الاسرائيلية. ذلك ان وايزمن، بصرف النظر عن كبر سنّه، يرمز «للاسرائيلي الحديث» الذي يعرف متطلبات الحياة الاسرائيلية المعاصرة، ثم انه يرمز إلى جيل الصابر (المولودين في البلاد) ويمكنه من خلال هذه الصفة أن يستقطب الغربيين والشرقيين.

من المقدر أن يكون «الأداء السياسي» للرئيس الاسرائيلي الجديد، متمايزاً من حيث كبر حجمه عما شهدته اسرائيل في عهود الرؤساء السابقين. وإذا كان منصب رئيس الدولة في اسرائيل يشكّل إطاراً ضيقاً وضاغطاً لأي أداء كهذا، فإن شخصية وايزمن ستلعب دوراً في توسيع هذا الإطار، ليس بالمضامين القانونية، وإنما بالمضامين الاجتماعية، وبمعايير العلاقات التي سيعمل وايزمن على توطيدها مع الأوساط الاسرائيلية الحاكمة في السلطتين التنفيذية والتشريعية. ومع وجود دور كهذا يمكن أن يلعبه الرئيس الاسرائيلي الجديد، ربما يتم فتح الباب أمام إرساء نمط جديد لعمل مؤسسة الرئاسة الاسرائيلية، على الأقل من حيث الممارسة والسلوك، ان لم يكن عن طريق ايجاد أعراف جديدة تتعلق بمهمة الرئيس ودوره في العمل الاسرائيلي العام.

لعلّ في مقدمة المواضيع المرشّحة لإرساء هذا النمط، الموضوع الخاص بإعطاء رئيس الدولة أهمية كبرى في المداولات التي يجريها رئيس الحكومة حول الشؤون السياسية وقضية السلام في المنطقة، خصوصاً ان وايزمن يمتلك خبرة ميدانية ونظرية غنية في هذا المنحى.

ان توجهات وايزمن الخاصة لدفع عملية السلام مع العرب خطوات إلى الأمام، وتبنيه العديد من التصورات الحمائمية إزاء العلاقة مع الفلسطينيين والدول العربية، وتطلعه إلى شرق أوسط جديد، كل هذا وسواه سيكون مادة يقدمها في خطابه السياسي الموجه على المستويين الرسمي والعام.

□ **السفارد** Sephardim: يهود إسبانيا وحوض البحر الأبيض المتوسط. يقابلهم الاشكناز الذين سكنوا شرقي أوروبا وشمالها الغربي. وللإصطلاح دلالته الدينية نظراً لاختلاف الطقوس والعبادات عند الفريقين. ويطلق هذا التعبير على كل اليهود الذين ليسوا من أصل اشكنازي. ورغم انهم ١٥٪ من يهود العالم فإن الصهيونية لم تتوجه إليهم في البداية، إلا أنها لم تجد بداً من حملهم على الهجرة إلى فلسطين حيث يشكلون اليوم أكثر من ٥٠٪ من السكان اليهود في اسرائيل. ولكن القيادة الاسرائيلية والصهيونية (وهي أشكنازية) لا تزال تنظر إليهم بريبة باعتبار ان السفارد ينتمون إلى المحيط الحضاري العربي. مستوى معيشتهم في اسرائيل متدن، ويعتبرون (واقعياً) مواطنين من الدرجة الثانية.

□ **«الشعب المختار»**: مفهوم ديني يهودي مؤداه أن «الشعب اليهودي» اختاره الرب ليكون شعباً خاصاً

فوق جميع شعوب الأرض. رأى المفكرون ان هذا المفهوم في أساس «العقد» اليهودية، وأساس ارتباطهم بالتجارة والربا، والعزلة والغيتو. ويطبع هذا المفهوم بانعكاساته العرقية والتوراتية اليهودية بطابع الدين القبلي، بينما يذهب الإسلام إلى القول بأن الاختيار مشروط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن أكرم المسلمين والناس أتقاهم بصرف النظر عن العرق. وتذهب المسيحية إلى وضع المحبة في قمة مبادئها وعقائدها وسلوكها فتقول ان محبة القريب، وكل إنسان قريب، واجبة كمحبة الذات. وتسيطر فكرة الشعب المختار على الفكر الصهيوني بجميع اتجاهاته.

□ **شعب غيحون السامي**: راجع إثيوبيا.

□ **الصابرا**: كلمة عبرية مشتقة من الكلمة العربية «الصبر» أو «نبات الصبار»، وتطلق على اليهود من مواليد فلسطين كناية على الخشونة والانتماء إلى الأرض، ومحاولة طمس الفروق بين المولودين في فلسطين والتمييز ضد اليهود الشرقيين (السفارد). والتدقيق في استخدام هذه الكلمة يظهر انها تستخدم عادة لتمجيد الشباب الصهيوني ذوي الأصول الاشكنازية فحسب.

□ **صهيون**: جبل صهيون جنوب غربي القدس. يحج إليه اليهود هاتفين «رنّموا للرب الساكن في صهيون». ويتسع معنى الكلمة ليشمل مدينة القدس، «أم اسرائيل» التي يولد «الشعب اليهودي» من رحمها. وهكذا، تشير الكلمة إلى الشعب والأرض معاً، ولتشمل الأرض كل فلسطين (وحتى فلسطين لا حدود محددة لها بعد لدى اليهود). فيشكل الحنين إلى صهيون حلم اليهود في العودة إلى «أرض الميعاد». ومنها اشتقاق كلمة «صهيونية».

□ **الصهيونية**: دعوة وحركة عنصرية – دينية استيطانية تطالب بتجميع اليهود في دولة خاصة بهم في فلسطين. والكلمة نسبة إلى «صهيون»، اشتقها ناشان برنباوم (١٨٩٠) ليصف بها تحوّل تعلق اليهود بجبل صهيون وأرض فلسطين من البعد الديني الماشيحاني القديم إلى برنامج سياسي استيطاني يستهدف عودة الشعب اليهودي إلى فلسطين. والواقع ان رئيس وزراء بريطانيا الفايكونت بالمرستون دعا إلى تهجير اليهود إلى فلسطين ١٨٤٠، أي قبل خمسين عاماً من اشتقاق الكلمة، بقصد إيجاد حاجز بشري استيطاني للحيلولة دون قيام دولة موحدة تجمع مصر والمشرق العربي بعد تجربة محمد علي في مصر وسوريا وتهديده لمصالح الدول الأجنبية في النصف الأول من القرن التاسع عشر. لكن الصهيونية، كفكرة محددة المعالم وكبرنامج سياسي وكتنظيم، لم ترَ النور إلا في ١٨٩٧ عندما تمكن تيودور هرتزل من عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال (بازل) في سويسرا وأعلن عن قيام المنظمة الصهيونية العالمية. لكن، وككل فكرة، وبرنامج، وتنظيم، اختلفت آراء روادها وأتباعها، وتشعبت الصهيونية إلى مذاهب وفرق تراوحت بين التصلّب أو الاعتدال أو المرونة. فهناك مثلاً: الصهيونية الإقليمية، والتنقيحية، والتوفيقية، والثقافية – الروحية، والدينية، والراديكالية، والسياسية، والعملية، والعمومية. والجدير ذكره ان ثمة صهيونيين غير يهود، خصوصاً في صفوف السياسيين وأوساط رجال الأعمال والمال في الدول الأجنبية.

□ **العبرانيون**: نسبة إلى ابراهيم العبراني. تستخدم الكلمة في العهد القديم للإشارة إلى اليهود الذين يطلق عليهم اصطلاح «بني يسرائيل». ويقال ان أصل الكلمة (العبرانيون) يعني «عابر» (حفيد سام)، ويقال انها نسبة إلى «عبور» اليهود النهر فكانوا يعرفون بأنهم الذين أتوا من «الجانب الآخر» من نهر الأردن، وكلمة «عبر» العبرية تعني الجانب الآخر. ويرى بعض الكتّاب أن الكلمة مشتقة من كلمة «هابيرو» أو «الخابيرو». وعلى ذلك فإن أول ذكر للعبرانيين في التاريخ المكتوب ورد على ألواح تل العمارنة (١٢٠٠ق.م.). وكلمة خابيرو لها معانٍ كثيرة مترابطة. فهي تعني العابر والمتجول والبدوي. وقد كان الاصطلاح يستخدم للإشارة للقبائل التي كانت تهاجم حدود مصر وتغير بين آونة وأخرى على أرض كنعان. ومن معاني الكلمة أيضاً «الجندي المرتزق». ومن المعروف أنه في القرن السابع ق.م. في عصر فرعون الأول كانت توجد حامية من اليهود والمرتزقة المستوطنين في جزيرة الفنتاين كانت مهمتهم حماية حدود مصر من هجمات النوبيين، ولكن أحياناً كانت تستخدم الكلمة للإشارة لأي عناصر فوضوية في المجتمع. يفضل بعض الصهيونيين استخدام كلمة «عبري» بدل «يسرائيلي» أو «يهودي» باعتبار ان الكلمة تشير إلى بني يسرائيل قبل اعتناقهم اليهودية، أي ان مصطلح «عبري» يؤكّد الجانب العرقي على حساب الجانب الديني.

□ **عصبة الدفاع اليهودي**: منظمة سياسية

صهيونية عنصرية تأسست عام ١٩٦٨ في الولايات المتحدة الأميركية ونشطت بين اليهود الأميركيين في السبعينات. مؤسسها الحاخام اليهودي مائير كاهانا الذي يعتبر من أبرز ممثلي التيار الديني المتطرف في اسرائيل. وقد أعلنت العصبة في بيانها التأسيسي انها تعمل للدفاع عن اليهود في جميع أنحاء العالم، كما أعلنت ان مقاومة اللاسامية هي في رأس اهتماماتها. وقد مارست عصبة الدفاع اليهودي منذ تأسيسها نشاطاً سياسياً وإرهابياً واسعاً داخل الولايات المتحدة في مواجهة النشاط السياسي العربي عموماً والفلسطيني خصوصاً. وعلى أرضية هذه الأفكار أسس الحاخام مائير كاهانا أيضاً بعد هجرته إلى اسرائيل حركة «كاخ».

☐ **عمّال صهيون**: حركة صهيونية عمالية حاولت إضفاء طابع الاهتمام الطبقي بالبروليتاريا اليهودية على الحركة الصهيونية. ظهرت في روسيا في أواخر القرن التاسع عشر وفي أميركا وفلسطين وتوحدت في لاهاي (١٩٠٧) وكوّنت «اتحاد عمال صهيون» الذي انضمّ فور تكوينه إلى المنظمة الصهيونية العالمية. رمى برنامجها الأساسي إلى تنمية الوعي القومي بين البروليتاريا اليهودية وإقامة تحالف مع البورجوازية اليهودية لإنشاء «الوطن القومي اليهودي» على أن تأتي بعد ذلك مرحلة الصراع الطبقي على أرض يهودية. وقد تغلغل عمال صهيون في اليسار الأوروبي وشكلوا مناخاً عاماً مؤيداً للصهيونية داخل الأحزاب العمالية اليمينية في أوروبا. وانضم عمال لا حزبيون إلى عمال صهيون لتأسيس حزب اتحاد العمل بقيادة بن غوريون الذي وضع قضية بناء «الوطن القومي اليهودي» في المرتبة الأولى من أهدافه بعيداً عن أي ادعاءات اشتراكية. وشارك عمال صهيون في أعمال منظمة الحارس العسكرية الصهيونية الموجّهة ضد عرب فلسطين منذ البداية. وفي ١٩٣٠، اندمج اتحاد العمل والعامل الفتى ليكونا حزب الماباي.

☐ **غوش إيمونيم**: حركة سياسية صهيونية تدعو إلى استيطان اليهود في كافة أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة وسائر الأراضي المحتلة في حرب حزيران ١٩٦٧، على أساس أن هذه الأرض جزء من دولة إسرائيل الكبرى.

نشأت هذه الحركة في كنف الحزب الوطني الديني (المفدال) في ربيع ١٩٧٤، وكانت لبعض الوقت جزءًا من تنظيماته السياسية. ولكن بعد فترة قصيرة، انفصل قادة هذه الحركة عن الحزب الوطني الديني وأعلنوا قيام هيئة مستقلة لحركتهم. وأبرز مؤسسي هذه الحركة الحاخام دوركمان والحاخام ليفنغر الذي أصبح الزعيم الفعلي للحركة، وحنا بورات ويوئال بن نون، وعضو الكنيست الإسرائيلي، وقتئذ، زبولون هامر.

ومن أهم المعاهد التي لعبت دوراً بارزاً في تنشئة قادة حركة «غوش إيمونيم» وكوادرها هو معهد الدراسة النورانية (مركز هاراف) الذي كان الحاخام كوك قد أسسه في ١٩٢٤ في الحي اليهودي في مدينة القدس. وقد أثرت مؤلفات الحاخام كوك وابنه تسبي كوك وتعاليمهما بصورة مباشرة في أفكار قادة غوش إيمونيم وكوادرها وفي وضع أسس البناء الايديولوجي للحركة. ولهذا السبب لم يكن مستغرباً أن تعتبر أفكار الحاخام كوك الواردة بصورة خاصة في كتابه «الأضواء» وسائر عظاته الدينية الأخرى بمثابة «التوراة» الثانية بالنسبة لقادة الحركة وكوادرها. ومعظم هؤلاء كانوا بالأساس من النشيطين داخل حركة بني عقيبا وفي الكيبوتزات (الكيبوتسات) المتدينة وكانوا يتميزون باعتمار القبعات الدينية.

انتشرت الحركة بين صفوف المستوطنين اليهود في الأراضي المحتلة (١٩٦٧)، وكان الرافد الذي أعطى دفعاً قوياً لعمليات إرهابية ضد الفلسطينيين والمؤسسات الدينة الإسلامية والمسيحية. وتعتبر الفترة الممتدة من ١٩٧٤ إلى ١٩٧٧ فترة مزدهرة لهذه الحركة ولمشاريعها الاستيطانية. ترفض فكرة الانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة وسائر الأراضي التي احتلت في ١٩٦٧، وتعارض بصورة قطعية فكرة «الأرض مقابل السلام».

☐ **غيتو** Ghetto: مصطلح يعني في الأصل حياً مقصوراً على إحدى الأقليات الدينية أو القومية، ولكنها تستخدم تحديداً للإشارة إلى أحياء اليهود في أوروبا منذ ١٥١٦، وهو تاريخ إقامة أول غيتو يهودي في البندقية (ايطاليا). جاء تجميع اليهود في حي من مجتمعات القرون الوسطى الزراعية الإقطاعية بمثابة تحديد لواقع اقتصادي وهو اشتغال اليهود بأعمال التجارة والربا، وهو نشاط كان يؤمن لهم استقلالاً اجتماعياً واقتصادياً ودينياً. إلا أن انهيار دور اليهود الاقتصادي المميز في ظل التحول الذي طرأ على المجتمعات الإقطاعية باتجاه أنماط من الرأسمالية التجارية، واضطرار اليهود إلى التعامل بالربا مع الطبقات الفقيرة، زاد من حدة الحقد على اليهود، وجعل من الغيتو رمزاً لعزلتهم. وما لبث الغيتو أن أصبح مكاناً مزرياً محاطاً بأسوار عالية يمنع اليهود من مغادرته بعد منتصف الليل وفي أعياد المسيحيين. وقد ترك هذا

الوضع آثاره العميقة على النفسية اليهودية، وولّد لديهم عداء مستحكماً تجاه الأغيار (غير اليهود – غوييم)، وعزّز الإيمان الهروبي بأن اليهود هم شعب الله المختار، وجعل الاندماج النفسي والكامل متعذراً. ولعل فكرة المستوطنات الصهيونية المسلّحة بل فكرة إسرائيل كقلعة مسلحة في وسط المنطقة العربية تعود إلى عمق أثر فكرة الغيتوية، على أساس أن لا طمأنينة خارج الأسوار، وأن العداء هو الحالة الوحيدة الممكنة بين الغيتو وبين ما يجاوره من مجتمعات وبشر.

□ **فالاشا**: راجع إثيوبيا.

□ **القدس، تهويد**: عملية مخططة بدأت إسرائيل تنفيذها منذ اللحظة الأولى لاحتلالها القدس الشرقية في حرب ١٩٦٧. وقد طالت هذه العملية عدة مستويات إدارية وسياسية وثقافية، وتوجت في العام ١٩٨٠ بوضع القانون الأساسي لمدينة «القدس الموحدة» الذي اعتبرت بموجبه القدس عاصمة إسرائيل، ما يعني أن تكون فيها مقرات رئاسة الدولة والحكومة والبرلمان والقضاء والسفارات. لكن التهويد لم يقتصر على مثل هذه الإجراءات والقرارات الفوقية بل شملت تغييرات ديموغرافية وإدارية عميقة.

كانت نقطة الانطلاق في عملية التهويد الشاملة القرار الذي اتخذته سلطات الاحتلال الصهيونية في العام ١٩٦٧ وأخضعت بموجبه المدينة، قانونياً وإدارياً، للإدارة الإسرائيلية. وقد استتبع ذلك عدد من الإجراءات التي تمثلت بإلحاق القدس بعد حل الأمانة العامة العربية ببلدية القدس المحتلة في العام ١٩٤٨، وفصل الهيئات القضائية، عن مركزها في القدس العربية وذلك بنقل محاكم إلى مدن أخرى في الضفة (رام الله) وجعل سكان القدس تابعين للمحكمة الشرعية في يافا، ثم ربط شبكات المياه والهاتف بالقدس الغربية، وكذلك بالنسبة إلى أعضاء التنظيمات المهنية في القدس الشرقية (أطباء، تجار، محامون...) فقد فُرض عليهم الالتحاق بالتنظيمات الإسرائيلية، كي يحق لهم مزاولة أعمالهم. وتمّ كذلك ربط القدس جمركياً وضريبياً بالدولة الإسرائيلية بعد فصلها عن الضفة وحصل الأمر نفسه على صعيد أنظمة التعليم.

وإلى جانب هذه الإجراءات الإدارية سلكت عملية التهويد مسلكاً آخر أكثر عمقاً تمثل بتزوير التراث الديني للقدس وجعله يتطابق والمعتقدات اليهودية. ومن أجل ذلك كانت المحاولات لهدم الأقصى سواء بإحراقه (٢١ آب ١٩٦٩)، أم بتصديعه عبر عمليات تنقيب عن الآثار للتفتيش عن هيكل سليمان، أم عبر حبك خطط لهدمه أو نسفه على يد جماعات متطرفة، إضافة إلى سلسلة من الاعتداءات والممارسات التي لم توفر كنائس المسيحيين (نهب كنيسة القيامة واستملاك أراضي الأديرة) أو مقدسات المسلمين (الصلاة في ساحة الأقصى والاعتداء على المقابر...).

أما التهويد ديموغرافياً فقد تمثل بالاستيطان المكثف في مدينة القدس وجوارها لقلب البنية السكانية في المدينة. وعمليات الاستيطان تطلبت مصادرة أراض وهدم أحياء بكاملها (حي المغاربة)، ولم توفر عمليات الاستملاك أراضي الوقف والمدارس، حتى وصلت هذه الأراضي إلى ١٠٪ من مساحة البلدة القديمة وتهجير الآلاف من سكانها وإقامة وحدات سكنية لمهاجرين يهود جدد في قلب المدينة القديمة.

وتعددت مراحل الاستيطان في خارج مدينة القدس، وكان أولها تلك التي بدأت في ١٩٦٨، وتمثلت بإقامة حزام من الأحياء السكنية رغم احتجاجات اليونيسكو على اعتبار أن هذه الإنشاءات تشوه الطابع الحضاري للمدينة. وقد بلغ عدد الأحياء تسعة أحياء حتى العام ١٩٨١. ولكن المشروع الاستيطاني الأهم يتمثل بقيام مشروع «القدس الكبرى عاصمة إسرائيل»؛ وهذا ينص على أن لا يتعدى عدد السكان العرب فيها ٢٥٪ من مجموع السكان. ويتناول توسيع حدود بلدية القدس إلى منطقة تمتد من رام الله شمالاً إلى بيت لحم جنوباً، بحيث تضم ٣٠٪ من مساحة الضفة الغربية. وقد أقيمت حتى ١٩٨٥ ثلاثة أحزمة من المستوطنات حول مدينة القدس. وبلغ مجموع ما صودر من الأراضي حوالي ٣٣,٥٥٦ دونماً أقيمت فيها ٢٢ ألف وحدة سكنية.

في آب ١٩٩٣، وقبيل انعقاد الجولة الحادية عشر من المفاوضات العربية – الإسرائيلية، نقلت وسائل الإعلام صورة عن آخر العمليات الإسرائيلية الإستيطانية والتهويدية لمدينة القدس. ففي تقرير لوكالة «فرانس برس» عن السياسة المتبعة في موازاة المفاوضات جاء الكلام التالي (١٣ آب ١٩٩٣):

«تتحرك الجرافات الإسرائيلية وسط غبار كثيف لإزاحة أطنان من التربة وبناء آلاف من المنازل لليهود في حي «بيسغات زئيف» في القدس الشرقية التي ضمتها الدولة العبرية. وتعمل إسرائيل بسرعة فائقة لخلق أمر واقع في القدس الشرقية التي تشكل حجر الزاوية في مفاوضات السلام الجارية مع الفلسطينيين. وتستقبل

التلال التي تطل على المدينة المقدسة المزيد من العائلات الإسرائيلية التي تجذبها الشروط التشجيعية لشراء المنازل في المنطقة بينما راح جدار هائل من الإسمنت يرتفع حول الأحياء العربية في المدينة القديمة ويعزلها.

وتعكس الأرقام الرسمية في بلدية القدس هذا الوضع الجديد وتعبّر عنه خير تعبير. فهناك أربعون ألف مسكن بنيت خلال ٢٦ عاماً للإسرائيليين في عشرة أحياء جديدة من القدس الشرقية. كما تقوم حالياً ورشة كبيرة لبناء خمسة آلاف مسكن شمال شرقي المدينة وستة آلاف أخرى في الجنوب الشرقي يفترض أن تبنى خلال السنوات العشر المقبلة.

إلى ذلك تشهد حركة بناء المستوطنات في الضفة الغربية نشاطاً كبيراً يتركز بخاصة على مسافة ١٠ إلى ١٥كلم حول القدس... ويتوقع مساعد رئيس بلدية القدس المحتلة ابراهام كحيلة أنه خلال ٢٠ عاماً سيعيش مليون نسمة بينهم ٣٠٠ ألف عربي داخل حدود بلدية المدينة. ويبلغ عدد سكان المدينة حالياً (آب ١٩٩٣) ٥٦٤ ألفاً هم ٤١٤ ألفاً من اليهود الإسرائيليين يقيم ١٥٣ ألفاً منهم في الجزء الشرقي للمدينة و١٥٠ ألف فلسطيني مقابل ٧٤ ألفاً منذ ٢٦ عاماً.

وفي تموز الماضي (١٩٩٣) أعلن ابراهام كحيلة: «أن اليهود أصبحوا يشكلون أغلبية سكان الجزء الشرقي... أعلن ذلك كي ينظر الفلسطينيون إلى الأمور بواقعية ويدركوا أن إعادة توحيد القدس تحت السيادة الإسرائيلية أمر لا رجعة فيه». واستبعد، شأنه شأن الحكومة الإسرائيلية، أن توضع القدس الشرقية تحت سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني. واعتبر أن الحل الوسط الوحيد الذي يمكن قبوله هو الاعتراف بـ«سيادة رمزية» عربية على المسجد الأقصى.

واعترف بأن السلطات الإسرائيلية وسّعت شرقاً الحدود الجغرافية للمدينة سنة ١٩٦٧ على أساس مبدأ «أقصى قدر من الأراضي وأدنى حد من العرب». وبذلك زادت مساحة المدينة ثلاثة اضعاف لتصبح عشرة آلاف هكتار. وتقول عالمة الاجتماع الفلسطينية تيري بلاطة أن هدف الخطط العمرانية الإسرائيلية هو عزل الأحياء العربية وجعلها معازل محاطة بشبكة طرق وأحياء يهودية.

□ **القومية اليهودية**: إحساس وقناعة عند الكثيرين من اليهود، أفراداً وأقليات في العالم، مؤداهما أن اليهود جماعة دينية وقومية في آن معاً، يربطهم كيان متماسك يدعى «بنو إسرائيل» المرتبط روحياً بـ«التوراة»، ويتحدرون من أصل عرقي واحد ولهم لغة مشتركة وتاريخ يهودي مشترك. وكان من شأن اشتغال الأقليات اليهودية في العالم بالتجارة والربا إعطاء هذه الأفكار والأحاسيس بعداً اقتصادياً، ويعززها تصور ديني يهودي يعطي للملكوت السماوي والآخرة طابعاً قومياً، وذلك من خلال الايمان بظهور الماشيح الذي يأتي «ليعود» بشعبه (اليهود) إلى أرض الميعاد. وأكثر المدققين والدارسين لهذه المعتقدات يثبتون بطلانها ويعتبرونها مجرد أوهام، إذ إن اليهود لا ينتمون إلى عرق واحد (فمنهم الخزر والأفارقة)، وليس لهم تاريخ مشترك، وانهم لا يتكلمون لغة واحدة، وأكثريتهم ترفض العودة إلى فلسطين (إسرائيل)، وانهم ليسوا شعباً واحداً ليشكلوا قومية.

□ **كاهان، تقرير**: تقرير تضمن نتائج التحقيق الذي توصلت إليه «لجنة التحقيق في مجازر صبرا وشاتيلا»، التي كانت قد شكلتها الحكومة الإسرائيلية في أول تشرين الأول ١٩٨٢، في أعقاب الضجة العالمية التي ثارت بعد حصول هذه المجازر بين يومي ١٤ و١٦ أيلول ١٩٨٢، في الوقت الذي كان فيه الجيش الإسرائيلي يحتل شوارع بيروت الغربية. والمخيمان الفلسطينيان المذكوران (صبرا وشاتيلا) اللذان تعرض أبناؤهما لهذه المجازر يقعان في منطقة بيروت الغربية.

في القسم الذي نشر من هذا التقرير تركيز على عدم تحمل إسرائيل لأي مسؤولية مباشرة عن هذه المجازر، في الوقت الذي أشار فيه إلى المسؤولية غير المباشرة لبعض القادة الإسرائيليين ومن أبرزهم الجنرال شارون وايتان، واكتفى بالحديث عن مسؤولية مناحيم بيغن (رئيس الوزراء) الشخصية «إلى حد ما» (كما ورد في التقرير).

وهذا يعني أن التقرير، من خلال تحميل المسؤولية غير المباشرة لبعض القادة السياسيين والعسكريين، عمل على تبرئة إسرائيل بالذات من تهمة التخطيط والإشراف على تنفيذ هذه المجزرة بعد أن نجحت قواتها في اقتحام بيروت الغربية مستغلة ردود الفعل التي أعقبت اغتيال قائد القوات اللبنانية بشير الجميل والذي كان قد انتخب لرئاسة الجمهورية في ظل ظروف الاحتلال العسكري لقسم كبير من الأراضي اللبنانية.

ولقد تجاهل التقرير تماماً المعلومات التي باتت متداولة والتي تؤكد بأن تخطيط المجزرة إسرائيلي بغض النظر عن الأدوات التي استعملت في التنفيذ وكغطاء للتورط الإسرائيلي. وقد أكد هذه المعلومات الصحفي الإسرائيلي أمنون كابليوك في كتابه «تحقيق في مجزرة» أثبتت بشكل قاطع تورط الحكومة الإسرائيلية مباشرة في المجزرة.

وكان ترأس لجنة التحقيق هذه قاضي المحكمة العليا في إسرائيل إسحق كاهان، وعرف التقرير باسمه.

□ **الكيبوتس (الكيبوتز)** Kibbutz: كلمة عبرية تعني «الجماعة» أو التجمع. وقد تطور هذا المعنى فأصبح يشير إلى مجموعة من الناس يعيشون بشكل مشترك في مزرعة تعاونية زراعية. ويرتبط وجود الكيبوتس مع نشوء الحركة الصهيونية التي بدأت بعد مؤتمرها الأول بإنشاء مؤسسات مالية معنية بإقامة نظام الكيبوتس هذا؛ وذلك عن طريق تهجير السكان الفلسطينيين بعد احتلال أراضيهم وإسكان المهاجرين اليهود في الكيبوتسات التي تؤلف بمجموعها نظام المستعمرات الجماعية اليهودية والذي اعتبر، منذ مطلع هذا القرن (القرن العشرين) مع النظامين العسكري والعمالي، الأساس العملي لتحقيق الحلم الصهيوني في الاستيلاء على فلسطين.

تتراوح مساحة الكيبوتس الواحد بين ألفين وعشرين ألف دونم. ويتراوح عدد سكانه بين ٣٠ و ١٥٠٠ نسمة. وسكانه يعتبرون من المقاتلين، ويشكلون من مستعمراتهم حصوناً تصلح للأعمال القتالية بكل أنواعها: وتتصف حياة الكيبوتس بالتقشف والمشاركة في مرافق الحياة المختلفة كالمطعم والمطبخ والحمام... وكذلك بالجماعية وغياب الملكية الخاصة والنشاط الاقتصادي الفردي... وتتم تنشئة الأطفال جماعياً وتتولى مسؤولية ذلك مؤسسات الكيبوتس التربوية والتعليمية التي تعمل على تحويلهم جميعاً إلى مقاتلين... وتوجد أنواع مختلفة من الكيبوتسات: فهناك اتحاد الكيبوتسات، والكيبوتس القطري، والكيبوتس الموحد الذي يعتبر أقواها إذ تكوّن بعد توحيد أحزاب العمل الإسرائيلية، وأيضاً الكيبوتس المتدين، وكيبوتس أغودات إسرائيل. ويبلغ عدد الكيبوتسات (حسب إحصاء ٣١ كانون الأول ١٩٨٠) ٢٥٥ كيبوتساً، بينما يبلغ عدد سكانها حسب الإحصاء نفسه ١١١,٢٠٠ شخص أي حوالي ٢,٨٪ من مجموع السكان، ويشكل شباب الكيبوتسات نسبة ٢٥٪ من خيرة وحدات الجيش الإسرائيلي وضباطه.

□ **اللاسامية** Antisémitism: مصطلح أوروبي حديث يشار به إلى معاداة اليهود. استخدمه للمرة الأولى الصحافي الالماني فيلهم مار في العام ١٨٧٣ في كتابه «انتصار اليهودية على الجرمانية»، وانتشر بسرعة في سائر أنحاء أوروبا وترجم إلى كل اللغات الأوروبية.

بالمعنى الحرفي، لا ينطبق المصطلح على المفهوم الذي يشير إليه. ولم يستعمل منذ استحداثه إلا لوصف مواقف العداء لليهود التي بلغت أوجها مع النازية. واللاسامية هذه تختلف عن العداء المسيحي لليهود الذي راج في أوروبا القرون الوسطى، وإن كانت تستند إليه في جذورها.

كان غوبينو أبرز من نظّر، في هذا المجال، في كتابه «في عدم تساوي الأعراق البشرية» (١٨٥٣)، معتبراً أن لليهود خصائص عرقية وراثية. ورغم أن هذه الخصائص تنطبق عامة على سائر «العرق السامي»، وفق الايديولوجية المذكورة، إلا أن اللاساميين كانوا يحصرون اهتمامهم باليهود في مجتمعاتهم. ويمكن التأكد من ذلك عبر مقارنة سريعة بين اللاسامية والعنصرية الموجهة ضد سكان المستعمرات الأوروبية ومنهم العرب. فبينما تتميز هذه العنصرية بالتأكيد على دونية غير الأوروبيين، تغيب فكرة الدونية عن اللاسامية التي تفترض عند دعاتها الاعتقاد بمساوئ اليهود وخبثهم. بل إن أكثر ما يأخذه اللاساميون على اليهود هو نزعتهم التسلطية الفوقية. وهو اتهام يستعيد بقالب حديث وبدوافع جديدة العداء الديني الشائع ضد اليهود في العصر الإقطاعي.

الجذور القديمة: تكشفها الكتابات التلمودية ومؤلفات آباء الكنيسة عن سجال قديم بين رجال الدين واليهود والمسيحيين في القرون الأولى للميلاد. وعندما انتصرت الكنيسة داخل الأمبراطورية الرومانية في القرن الرابع، فرضت على اليهود إجراءات تفرقة عديدة وتعزز هذا الوضع في القرون الوسطى، حين أصبحت الكنيسة المرجع الأول والأخير للحياة الأوروبية. وقد حُرّم على اليهود طيلة هذا العصر ممارسة العديد من المهن. فمنعوا من حمل السلاح ومن العمل في الزراعة، وانكفأوا على التجارة. وانحصر وجودهم في أحياء خاصة بهم سميت «غيتو» لا سيّما في أوروبا الوسطى. وقد شهدت مختلف المناطق الأوروبية مجازر ضدهم، ابتداء من القرن الحادي عشر. وكانوا ضحايا محاكم التفتيش. وقد سرت حولهم شائعات وخرافات كثيرة، منها مثلاً، أنهم يسممون المياه، ويقتلون أولاد المسيحيين ليستخدموا دمهم في أغراض شعائرية، وأنهم ينقلون الطاعون، فضلاً عن نعتهم بـ«الشعب قاتل الإله». والتهمة التي بقيت ملتصقة بهم حتى العصور الحديثة تتعلق بمزاولتهم التجارة التي كادت تكون المهنة الوحيدة التي سمح لهم بممارستها. ولما كانت الكنيسة تحرّم الربا، فقد أوكل إلى اليهود العمل في «تجارة المال»، أي في الصيرفة عندما أصبحت أوروبا بحاجة إلى تعميم وترشيد المبادلات

المالية. وقد شجع الأمراء هذا النشاط كما استخدموا اليهود في جمع الضرائب؛ وبذلك فقد أصبح اليهود كبش محرقة سهل المنال، لا سيّما وأن ممارسة الربا كانت تسعّر العداء حيالهم وتطبع سلباً تميزهم الديني والاجتماعي. وظل اليهود الأوروبيون يعانون من الاضطهاد حتى القرن الثامن عشر، كما طُردوا من دول عديدة. وقد جاء تحرير اليهود على يد الثورة الفرنسية. فصدر في ١٧٩١ قانون يقضي برفع كل إجراءات عنهم. وصارت الجيوش الفرنسية تهدم جدار الغيتوات في كل مدينة تفتحها. وبدأ عصر جديد سمح لليهود فيه بالاندماج والانصهار في مجتمعاتهم في أوروبا الغربية. وقد شارك العديد منهم في الثورة الصناعية.

اللاسامية الحديثة: بدأت، إذاً، ترتبط بمسألة اندماج اليهود في مجتمعاتهم، هذا الاندماج الذي شرّعت الثورة الفرنسية الأبواب أمامه بقضائها على إجراءات التفرقة التي وضعتها القرون الوسطى في أوروبا. لكن تحرير اليهود هذا اقتصر، في مراحله الأولى، على أوروبا الغربية التي صارت ملجأ ليهود أوروبا الوسطى والشرقية. ثم إن وجود المجموعات اليهودية في دول مختلفةأعطت عنهم صورة أمة انطوائية لا يدين أعضاؤها بالولاء لأوطانهم الرسمية. وهذا ما يفسّر كيف اتسم الفكر القومي في أوروبا باللاسامية. وما يميز اللاسامية هو انتشارها في جميع الأوساط. فالفئات المحافظة كانت ترى في تحرير اليهود إحدى نتائج الثورة الفرنسية، وهي ثورة حاربها المحافظون بشراسة. أما البورجوازيون، فكانوا يعتبرون اليهود منافسين لهم. وكان العمال، من جهتهم يرجعون أسباب استغلالهم إلى وجود رأسماليين يهود لا إلى وجود الرأسمالية بحد ذاتها. فالعوامل التي ولّدت اللاسامية الحديثة هي:

– العداء الديني المسيحي لدعاة ديانة بائدة ومسؤولة عن صلب المسيح.

– العداء العلماني الذي نما في أوساط مناهضة للكنيسة، لكن هذه الأوساط كانت ترى في اليهودية منبع الكنيسة وسبب أخطائها.

– العداء الاجتماعي المتوارث عبر القرون بسبب نشاطات اليهود الاقتصادية (والمفروضة عليهم) أي جلب الضرائب والربا، لا سيّما وأن العديد من اليهود ظلوا يعملون في المجالات نفسها.

– العداء الاثني لمجموعات تعيش وفق تقاليد مختلفة لا سيّما بعد توافد أعداد من يهود أوروبا الشرقية إلى المانيا وفرنسا.

غير أن هذا الطابع العرقي للاسامية لا يعني أنه يمكن اعتبار وجود تطابق بين العنصرية واللاسامية. فهذه الأخيرة كثيراً ما تنبع من الشعور بالمنافسة حتى ان الأوروبي اللاسامي يضع نفسه في موقع الدفاع. فهو يعترف لليهودي بتفوقه الثقافي أو الاقتصادي مثلاً لكنه يستعيض عن ذلك، أو يبرره، باتهامه بدونية أخلاقية تجعل من اليهودي في نظره إنساناً خبيثاً وصولياً يسعى بمساعدة أقرانه وأشباههم إلى السيطرة على عصب المجتمع. وبعد أن أصبح اليهود يعيشون بشكل طبيعي في المجتمع فإن قلق اللاسامي ازداد. ويتحول وجود اليهود الذين لا يعرّفون بأنفسهم دائماً، لا سيّما إذا كانوا مندمجين تماماً، إلى هاجس مرضي. من هنا يأتي إصرار النازيين على أن يشير كل يهودي إلى نفسه بنجمة صفراء.

وفترات اللاسامية الحديثة الساخنة: عرفتها روسيا القيصرية بصورة حادة ابتداء من ١٨٨١، حيث قتل القيصر الكسندر الثاني على يد مجموعة فوضوية. واستغلت السلطة وجود أفراد يهود بين مدبري الاغتيال لتحول نقمة الشعب ضد اليهود. وعندها بدأت سلسلة من المجازر ذهب ضحيتها العديد من اليهود ودفعت آخرين إلى الهروب إلى أميركا وأوروبا الغربية. وأخذت الشرطة السرية الروسية توزع منشوراً عرف باسم «بروتوكولات حكماء صهيون» يتضمن تفاصيل ما سمي بالمؤامرة اليهودية – الماسونية الهادفة إلى السيطرة على العالم والقضاء على المسيحية. واتضح لاحقاً أن الشرطة الروسية استوحت هذه البروتوكولات من كتاب فرنسي صدر في ١٨٦٤ بعنوان «حوار في جهنم بين مونتسكيو وميكيافيلي». وهو كتاب لا يمت بصلة للمسألة اليهودية وكان مؤلفه موريس جولي يهدف به إلى فضح ديكتاتورية الأمبراطور نابوليون الثاني. ورغم أن هذه «البروتوكولات» من وضع السلطة القيصرية فإن العديد من الدول أقبلت على استخدامها. كما ان موضوع «المؤامرة اليهودية» ظلّ يجد صدى في الرأي العام، لا سيّما بعد أن أُدخلت الحركة الشيوعية في عداد الوسائل الآيلة إلى فرض «سيطرة اليهود». وقد ساعد على ذلك وجود عدد من الأشخاص من أصل يهودي بين قادة الثورة البلشفية.

وقضية دريفوس: نموذج على هاجس التغلغل اليهودي الذي يمكن أن يأخذ وجهاً آخر هو وجه التعصب القومي. ففي فرنسا أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كان اليهود مندمجين تماماً في حياة المجتمع منذ إجراءات الثورة الفرنسية التي حرّرتهم.

في غيتو فرصوفيا

النقيب دريفوس اثناء خروجه من محكمة مدينة رين في ايلول ١٨٩٩

انفجار حملة معادية لليهود في باريس ايلول ١٩٤١

حتى ان الحكومة منحت الجنسية الفرنسية يهود الجزائر في ١٨٧٠ (وهو الإجراء الذي ساهم في إيجاد هوة بين اليهود والمسلمين وأدّى لاحقاً إلى رحيل اليهود عن الجزائر مع المستعمرين). ومع هزيمة فرنسا في الحرب ضد بروسيا وخسارة مقاطعتي الالزاس واللورين (١٨٧٠) بدأ المناخ يتغير تدريجياً، حتى ان اليهود، وبعضهم يحمل أسماء ألمانية الايقاع، اتهموا بإضعاف المقاومة الفرنسية. ثم وقعت إفلاسات تجارية ردّها جزء من الرأي العام وخاصة البورجوازية الصغيرة إلى تآمر اليهود». وفي هذا الجو، نشر الصحافي ادوار درمون كتاباً بعنوان «فرنسا اليهودية» جمع فيه كل مآخذ البورجوازية الصغيرة الكاثوليكية المترمتة على اليهود. وتوافقت هذه الهجمة الاكليريكية مع موجة قومية عنيفة، والتقى التياران في عدائهما لليهود. وفي ١٨٩٢، أسّس درمون جريدة يومية أصبحت لسان حال اللاسامية الفرنسية. وفي هذه الظروف والأجواء، حدثت في ١٨٩٤ قضية دريفوس.

وهذه القضية لم تكن لتتعدى مسألة تجسس عادية لو أنها لم تصبح مشكلة وطنية انقسمت حولها فرنسا. وخلاصتها أن بعض الأوراق السرية سرقت من رئاسة أركان الجيش وسلّمت إلى دول أجنبية. وبعد تحقيق سريع أوقف رئيس الأركان نقيباً من أصل يهودي اسمه ألفريد دريفوس كان يعمل في قيادة الجيش. وحكم عليه بالنفي مدى الحياة في جزيرة، وجرّد من رتبه العسكرية. ويوم تجريده من رتبه، تجمع حشد من الناس أمام المدرسة الحربية وأخذوا يهتفون: الموت لليهود، وكأنما أرادوا أن يؤكدوا أن أصل دريفوس اليهودي يفسّر خيانته. وقد اتضح لاحقاً أنه اتهم بالخيانة وحوكم، رغم احتجاجاته، لأنه كان يهودياً وحسب. وبعد فترة (١٨٩٦)، اكتشف رئيس الشعبة الثانية الكولونيل بيكار أن الخائن الحقيقي هو المقدّم استرهازي، وهو من أصل مجري. لكن قادة الجيش فضّلوا عدم الاعتراف بالخطأ ونقلوا بيكار إلى نقطة ثانية في صحراء تونس، عندها أخذت قضية دريفوس حجمها. وانقسمت فرنسا حولها إلى فئتين غير متساويتين. ففي جهة، وقف اليمين القومي والديني الذي كان يؤيد رئاسة الأركان ويدّعي الدفاع عن شرف الجيش رافضاً إعادة محاكمة دريفوس. وفي جهة ثانية، وقفت لجنة حقوق الإنسان واليسار وقسم من المثقفين وعلى رأسهم الكاتب إميل زولا. وقد توصل المدافعون عن دريفوس إلى إجراء محاكمة ثانية. لكن المحكمة العسكرية رفضت نقض الحكم الأول إنما اعترفت لدريفوس بظروف مخففة. وبعد انتصار اليسار في انتخابات ١٩٠٢، أعيد الاعتبار إلى دريفوس. وقد كان من الطبيعي أن تخلف هذه المعركة التي دامت زهاء عشرة أعوام آثاراً جديدة في الجسد الفرنسي. وطرحت من جديد مسألة اندماج اليهود في المجتمع والأمة.

وظهرت مجدداً قوة التيار اللاسامي في الثلاثينات من هذا القرن، ثم بعد هزيمة فرنسا في ١٩٤٠ واحتلالها من الألمان، حينما لم تحتج حكومة فيشي إلى ضغوط كثيرة لكي تصدر إجراءات تعسفية ضد اليهود قام بتطبيقها ورثة مناهضي دريفوس. وازدادت اللاسامية حدة مع وصول النازيين إلى الحكم في ألمانيا حيث كانت قد تطورت نتيجة ردة فعل قومية بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، إذ انتشرت مقولة الخيانة تبريراً لهذه النكسة؛ تضاف إلى ذلك النظريات العنصرية النازية القائلة بتراتبية الأعراق.

وما بين **اللاسامية والصهيونية** قدر كبير مما بين السبب والنتيجة. فالواقع أن الصهيونية نبتت في الأجواء العنصرية نفسها التي خلقت العداء للسامية. والصهيونية تقبل مقولات اللاساميين في تحديد من هو يهودي. ويقال إن مؤسس الصهيونية تيودور هرتزل بدأ يعمل للفكرة الصهيونية أثناء تغطيته تطورات قضية دريفوس لحساب جريدته النمساوية. وانه اختار الدفاع عن فكرة تجميع اليهود في دولة قوية عندما اتضح له فشل عملية الاندماج.

وفي استحالة اندماج اليهود، ذهب هرتزل إلى القول في يومياته إن اليهودي يحمل معه جرثومة اللاسامية أينما ذهب، وإن الحل هو كما يقول أعداء السامية يتمثل في رحيل هؤلاء اليهود عن المجتمعات الغربية وتكوين وطن خاص بهم. هذا يعني أن الصهيونية مثل اللاسامية لا تعتبر اليهود مواطنين في دولهم. ولذلك، فقد رفض العديد من اليهود الفكرة الصهيونية دون أن يكون هذا الموقف عائداً إلى اطلاعهم على حقيقة الاستيطان اليهودي في فلسطين. إلا ان نمو اللاسامية جعل المزيد من اليهود يتقبلون الصهيونية، ما يعني أن ثمة توافقاً بين هاتين الفكرتين. وخير دليل على ذلك التأييد الذي تحظى به إسرائيل في الأوساط اللاسامية تقليدياً.

ويبقى أن اللاسامية مفهوم أوروبي، مراجعه كلها أوروبية والممارسات التي نتجت عنها أوروبية. غير أن الفكر الصهيوني يسعى إلى تعميم هذا المفهوم وعلى تجريده من معانيه التاريخية والجغرافية، وصولاً إلى فرض معادلة توازي بين اللاسامية ومناهضة الصهيونية.

□ **ليكود**: تجمّع سياسي وبرلماني اسرائيلي صهيوني أُنشئ في أيلول ١٩٧٣ من كتلة غاحال وأحزاب المركز الحر والقائمة الرسمية وحركة أرض اسرائيل قبيل انتخابات الكنيست لمواجهة تحالف المعراخ. ينادي التكتل بالاقتصاد الحر، وبالتوسع على حساب الأراضي العربية المجاورة تحت شعار «استعادة أرض اسرائيل الكاملة». وقد حقق نجاحاً انتخابياً كبيراً في كانون الأول ١٩٧٣ على حساب حزب العمل والمعراخ نتيجة انهيار سمعة قادة حزب العمل في أعقاب حرب تشرين الأول ١٩٧٣ وانضمام الجنرال شارون إلى هذا التكتل.

□ **المابام**: هو حزب العمال الموحد، حزب صهيوني تأسس في ١٩٤٨ إثر اندماج حركة الحارس الفتى واتحاد عمال صهيون، وأعلن في برنامجه انه حزب «صهيوني اشتراكي يساري»، وطالب بإنشاء دولة ثنائية القومية (عربية ويهودية) وبالمساواة بين العرب واليهود، وبإعلان اسرائيل دولة محايدة. لكن ذلك بقي شعارات من غير صلة بواقع مسيرة الحزب. والمابام جزء أساسي من المنظمة الصهيونية العالمية، ويحتلّ مرتبة متقدمة في عدد ممثليه في الكنيست. تحالف، في ١٩٦٩، مع حزب العمل الاسرائيلي وانضم إلى المعراخ، وأخذ يشدد رغم تقديمه مشروعاً للسلام في الشرق الأوسط على فكرة الحدود الآمنة وضرورة الاحتفاظ بقطاع غزة والقدس ويدعو لتقوية الجيش الاسرائيلي وتشجيع الحركة الاستيطانية في مناطق الحدود.

□ **الماباي**: حزب اسرائيلي صهيوني تأسس في ١٩٣٠. أبرز قادته دافيد بن غوريون، وليفي اشكول، وغولدا مائير، وموشي دايان، وشيمون بيريز، واسحق رابين. في برنامج مؤتمره التأسيسي جاء: «التفاني في بعث شعب اسرائيل على أرضه كشعب عامل متحرر ومتساوي الحقوق، يضرب جذوره في جميع المجالات الزراعية والصناعية، ويطوّر ثقافته وتراثه العبري، ويتلاءم مع الطبقة العمّالية العالمية في نضالها لإلغاء العبودية والاضطهاد الاجتماعي». اتصف توجهه، في الحكم وخارجه، بالبراغماتية. سيطر على الهستدروت ومزارع الكيبوتس والمستعمرات التعاونية والمنظمة الصهيونية العالمية. لعب دوراً قيادياً في الهاغاناه؛ وعمد بعد قيام اسرائيل، إلى توحيد الهاغاناه والمنظمات العسكرية الأخرى وتحويلها إلى جيش الدفاع الاسرائيلي.

تميزت سياسة الماباي الخارجية بالتعاون الوثيق مع الولايات المتحدة والدول الغربية، والسعي إلى ربط اسرائيل بالاستراتيجية الاميركية في المنطقة. وسيطر على الحياة السياسية في اسرائيل، وكان عدد المقاعد التي حصل عليها بمفرده في البرلمان (الكنيست) الأول إلى الكنيست السادس يراوح بين ٤٠ و٤٨ مقعداً من مجموع المقاعد البالغة ١٢٠ مقعداً. تعرّض لشروخ في داخله أبعدته عن السلطة لمصلحة اليمين وتكتل ليكود بعد حرب تشرين ١٩٧٣ حتى أواخر الثمانينات (أي في فترة حكومات بيغن وشامير)، ثم نجح في العودة إلى السلطة. حالياً (أواسط ١٩٩٣)، زعيمه، اسحق رابين، يرأس الحكومة الاسرائيلية.

□ **ماسادا**: مدينة يهودية تاريخية، تقع شمالي سادوم وعلى بعد ٢٥كلم من البحر الميت. اشتهرت بقلعتها (قلعة هيرود) التي لجأ إليها اليهود الزيلوتيون بعد سقوط القدس وتدمير الهيكل في العام ٧٠ على يد الرومان.

تقول «الموسوعة اليهودية» إن هيرود «ملك اليهود الذي نصّبه الرومان على القدس» حوّل صخرة ماسادا إلى قلعة حصينة بين عام ٣٧ وعام ٣١ق.م.، وتضيف «الموسوعة اليهودية» ان المعلومات تنقطع عن ماسادا بعد موت هيرود ويحتمل أن تكون حامية رومانية أقامت في القلعة من عام ٦ إلى عام ٦٦ بعد الميلاد.

اندلعت الحرب بين اليهود أنفسهم فهرب مناحيم بن يهودا الجليلي من القدس ومعه جماعة من اليهود الزيلوتيين وهاجم القلعة واحتلّها بالحيلة والخداع، وبعد أن قتل مناحيم هذا التحق ابن أخيه واسمه إليعازر بالقلعة، وأصبح قائداً لحاميتها حتى سقوطها في العام ٧٣ بعد الميلاد. وخلال هذه الفترة كان بعض الزيلوتيين (يقال لهم أيضاً القنائيون) يلتحقون بالقلعة حتى بلغ عددهم ٩٦٠ رجلاً وامرأة وطفلاً.

في العام ٧٢ بعد الميلاد، سار الحاكم الروماني فلافيوس سيلفا إلى ماسادا آخر قلعة للمحاربين الزيلوتيين اليهود على رأس الفرقة العاشرة وبعض القطعات المساعدة، وآلاف من أسرى الحرب اليهود. وبعد حصار طويل فتح سيلفا ثغرة في سور ماسادا، وبدأ أليعازر يقنع أتباعه بأن ينتحروا فيقتل بعضهم بعضاً، وهكذا حتى يفنوا جميعاً، فذلك خير من أن يقعوا بين أيدي الرومان. وقد أطال المؤرخ يوسيفوس في وصف الساعات المأساوية الأخيرة للماسادا: خطاب إليعازر وانتحار ٩٦٠ رجلاً وامرأة وطفلاً، وحرق الأبنية ومخازن الأغذية. وتقول «الموسوعة اليهودية» إن المؤرّخ يوسيفوس أخذ الحكاية كلها عن

امرأتين اختفتا في كهف مع خمسة أطفال فلم يشتركوا في «الانتحار الجماعي». وقام مؤرّخ صهيوني معاصر، الجنرال ييغال يادين، فأصدر كتاباً في العام ١٩٦٦، اجتهد فيه لجعل هذه الرواية حقيقة تاريخية لا يرقى إليها شك. فأجرى في القلعة حفريات أثرية ورسم لها خرائط ومخططات وأعاد بناء بعض البيوت والمرافق. وعمل الجنرال يادين هذا وُضع، على أساسه، فيلم سينمائي دعائي كلّف أموالاً باهظة.

ويميل أغلب المؤرخين، منهم اليهود أنفسهم، إلى اعتبار رواية ماسادا مجرد اختلاق لحادثة حشرت في التاريخ اليهودي حشراً لتؤدي وظيفة تعظيم الشعب اليهودي؛ ويعطون على ذلك أدلة تاريخية كثيرة منها ما تطال سيرة حياة المؤرّخ اليهودي نفسه يوسيفوس، وسيرة حياة قائد الماسادا إليعازر، ومنها ما تطال سياق الأحداث التاريخية في تلك الحقبة التي تشير إلى أن الحادثة ما كانت لتجري بالشكل الذي صوّرت به. من هؤلاء، الباحثة اليهودية ويبسي روزمارين التي كتبت (جريدة جويش بوست، ٢٤ آب ١٩٧٣) تقول إن نتائج دراستها تؤكد أن ماسادا محض خرافة وأسطورة، وانه لا يمكن التدليل على سلامة الاكتشافات الأثرية «وهي اكتشافات الجنرال يادين» التي تستند إليها هذه القصة.

□ **المجلس الوطني اليهودي**: معروف باللجنة القومية (بالعبرية: فاد ليؤمي). معروف بدعمه للوجود الصهيوني في فلسطين منذ إنشائه (١٠ تشرين الأول ١٩٢٠) حتى إقامة الحكومة المؤقتة في أيار ١٩٤٨. تعاون بشكل وثيق مع الوكالة اليهودية التي كانت مسؤولة عن رسم السياسة العامة للهجرة والاستيطان، والتطوّر الاقتصادي والشؤون العسكرية لليهود. وتتمثل الأهمية التاريخية لهذا المجلس في انه حدّد معالم النشاط الصهيوني لإقامة دولة على أراضي فلسطين من خلال برنامج سياسي اقتصادي عسكري واسع النطاق نفّذ بإشراف الوكالة اليهودية.

□ **المخابرات الاسرائيلية: «شاي»**: مع إنشاء الوكالة اليهودية (١٩٢٠) لتنظيم الهجرة إلى فلسطين ألحق بها قسم سري خاص أسندت إليه مهمة تكوين شبكات للتجسس، تمتد فروعها إلى البلدان العربية وأوروبا والولايات المتحدة. وعرف هذا القسم بالمكتب السياسي، تولاه الجاسوس البريطاني اليهودي الكولونيل كيتس. وكانت المنظمات الصهيونية في مطلع القرن قد أنشأت بعض شبكات التجسس، إلا أن نشاطها كان محدوداً. ولقد قررت قيادة الهاغاناه في الثلاثينات إنشاء شبكة لأعمال المخابرات سمّيت «شين – يود» ويرمز لها باسم «شاي»، وعملها متخصص بالإرهاب وتدريب الجواسيس من اليهود، وكذلك اعداد دراسات منتقاة من المعلومات السرية عن الأوضاع السياسية والاقتصادية للفلسطينيين والحصول على كافة المعلومات عن نشاط الحركات والمنظمات الفلسطينية. وامتدت شبكات «شاي» لتشمل البلدان العربية والأجنبية وحتى اليهود أنفسهم. وفي ١٩٤٠، افتتحت دائرة عربية في استخبارات الهاغاناه «شاي» برئاسة عزرا دفين وكلفت تأسيس أرشيف للمعلومات عن التركيب الاجتماعي للقرى والمدن العربية في فلسطين بالإضافة إلى إقامة شبكة من المخبرين العرب.

الموساد: وعلى اثر قيام دولة اسرائيل، صدر في ١٩٥٣ قرار بتنظيم الاستخبارات الاسرائيلية وإنشاء لجنة تنسيق تجمع كافة فروع المخابرات، ترتبط برئيس واحد هو عيزر هارنيل، عرفت بـ«اللجنة العليا لرؤساء الاستخبارات». وبناء عليه أصبح جهاز الاستخبارات يتألف من مؤسسة رئيسية مشرفة هي إدارة أمن الدولة»، ترتبط بها خمس مؤسسات أخرى، والمؤسسة المركزية بينها هي «الموساد». وإنشاء الموساد يعود إلى ١٩٣٧ بهدف القيام بعمليات تهجير اليهود إلى فلسطين. والكلمة اختصار لعبارة «موساد لعالياه بت» العبرية، أي منظمة الهجرة غير الشرعية، وكانت إحدى أجهزة المخابرات التابعة للهاغاناه. ومنذ ١٩٥٣، استمرّ الجهاز المركزي يحمل الاسم نفسه، ومهماته الرئيسية:

– إدارة شبكات التجسس في الأقطار الخارجية كافة، وزرع العملاء وتجنيد المندوبين.

– إدارة فرع المعلومات العلنية الذي يقوم برصد مختلف مصادر المعلومات التي ترد في النشرات والصحف والدراسات الأكاديمية والاستراتيجية في أنحاء العالم.

– وضع تقويم للموقف السياسي والاقتصادي للدول العربية، مرفقاً بمقترحات وتوصيات حول الخطوات الواجب اتّباعها في ضوء المعلومات السرية المتوافرة.

ويضم الموساد ثلاثة أقسام: ١) قسم المعلومات، ويتولى جمع المعلومات واستقراءها وتحليلها ووضع الاستنتاجات بشأنها؛ ٢) قسم العمليات، ويتولى وضع خطط العمليات الخاصة بأعمال التخريب والخطف والقتل ضمن إطار مخطط عام للدولة؛ ٣) قسم الحرب النفسية، ويشرف على الخطط الخاصة بالحرب النفسية وتنفيذها

مستعيناً بذلك بجهود القسمين السابقين عن طريقة نشر الفكرة الصهيونية.

أمان: الكلمة اختصار «أرغون موديعين» أي مكتب الاستعلام. وهو إحدى دوائر الاستخبارات الاسرائيلية. يعتبر ثاني جهاز استخبارات بعد الموساد ويختص بأمن القوات المسلحة وجمع المعلومات العسكرية الاستراتيجية والعملانية والتكتيكية والميدانية عن القوات المسلحة العربية، وكذلك عن مختلف الطاقات العربية التي يمكن توظيفها لصالح القوات المسلّحة الاسرائيلية. ويرتبط به قسم خاص له صلة بالصحفيين الأجانب العاملين في اسرائيل. ويرتبط هذا الجهاز إدارياً بوزارة الدفاع.

دائرة البحوث السياسية: إحدى مؤسسات وزارة الخارجية، لكنها مرتبطة بجهاز الاستخبارات. تركّز في نشاطها داخل اسرائيل على السعي لتجنيد الدبلوماسيين الأجانب ومراسلي الصحف والبعثات الأجنبية. ويمتد نشاطها إلى الخارج عن طريق الإشراف على البعثات الدبلوماسية للسفارات الاسرائيلية للحصول على معلومات سرية عبر مندوبين لها في الهيئات الدولية وعبر علاقات بالقوى السياسية في العالم. وتقوم هذه الدائرة بإعداد تقرير أسبوعي يرفع إلى «اللجنة العليا لأجهزة الأمن» يتضمن تقويماً للوضع الدولي. كما تعد دراسات متخصصة سياسية واقتصادية عن نشاطات المؤتمرات الدولية كافة. وتقدم كذلك تقديرات لردود الفعل السياسية التي قد تنجم عن تحرّك سياسي أو عسكري معين، وهذه التقديرات تشرف عليها مجموعة من كبار الدبلوماسيين.

مصلحة الأمن العام (شين بت، أو شاباك): يرتبط هذا الجهاز إدارياً بمصلحة الشرطة. خاص بالأمن الداخلي. مهمته الأساسية جمع المعلومات عن النشاطات المعادية للسلطة في الداخل، وبمقدمها نشاطات عرب فلسطين ومنظمات المقاومة. وكذلك مكافحة الجاسوسية وأعمال التخريب من الداخل. يمتلك هذا الجهاز أرشيفاً كاملاً للفلسطينيين داخل اسرائيل، يحدد ميولهم ونشاطاتهم عبر معلومات متراكمة منذ ١٩٥٣، وذلك عبر شبكة من المندوبين والمخبرين في مختلف قطاعات الحياة.

مصلحة يهود الاغتراب: ترتبط بوزارة الهجرة، وتتولى إعداد الدراسات عن تجمعات اليهود في العالم، والإشراف على عمليات الهجرة، ودفع اليهود إلى ترك مجتمعاتهم والهجرة إلى اسرائيل باستعمال طرق الترغيب أو الترهيب.

أدولف إيخمان أثناء محاكمته في اسرائيل

نسجت اسرائيل هالة حول قدرة مخابراتها. وأهدافها من وراء ذلك، الحرب النفسية، كما كان الأمر بالنسبة لما أحاط عملية اختطاف النازي **ادولف ايخمان** وما كانت تؤكد اسرائيل عليه في حينه. فقد جاء في جريدة «الحياة» (١١ نيسان ١٩٩٣) ضمن زاوية «ذاكرة القرن العشرين» التي يكتبها ابراهيم العريس:

«بالنسبة إلى إسرائيل، كان أدولف إيخمان دجاجة تبيض ذهباً. ليس فقط لأنها تمكنت، عبر التركيبة الجهنمية لحكاية القبض عليه واختطافه في الأرجنتين حيث كان يقيم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، من أن تصنع هالة أسطورية من حول أجهزة مخابراتها. وليس فقط لأنها تمكنت عبره من أن تطمئن يهود العالم إلى وجودها كممثلة لهم ووارثة لكل نكباتهم ومسؤولة عن «إعادة العدل إلى مجراه» حسب تعبير سياسي اسرائيلي مرموق في ذلك الحين. بل لأن اعتقاله ومحاكمته وإعدامه، بسرعة وبصورة استثنائية اضطرّ الكنيست من أجلها إلى إصدار قانون خاص مكّن الصهيونية العالمية من التخلص من شاهد ثقيل الوطأة ! على ماذا؟ على مفاوضات، تروي مصادر عدة، انها دارت بين النازيين وبعض الأطراف الصهيونية بغية التوصّل إلى حل سهل للمسألة اليهودية يقضي بتهريبهم إلى فلسطين، بدلاً من قتلهم ومضايقتهم في أوروبا. ويقال ان ايخمان كان من المشاركين في تلك المفاوضات التي دارت حيناً في هنغاريا وحيناً في تركيا.

هل يمكن لهذا الكلام أن يكون صحيحاً؟ المشكلة ان أوروبا واسرائيل تمنعان حتى مجرد التكهن والنقاش في مثل هذه الأمور. لذلك نطرح الفرضية وننتقل إلى الشق الثاني من الموضوع: لقد كان ايخمان دجاجة تبيض ذهباً بالنسبة إلى اسرائيل، لأنه كان أرفع مسؤول نازي تتمكن من الحصول عليه في ذلك الحين. ومن الواضح أنها تعمدت أن تحيط اختطافه ومحاكمته الصورية بضجة كبيرة بغية التركيز على مسألة من الغريب انها صارت «من المسلمات» منذ ذلك الحين: مسألة ان الحرب العالمية الثانية لم تكن في نهاية الأمر سوى مجزرة ارتكبها النازيون بحق اليهود.

هذا ما توخته إسرائيل يومها من محاكمة ايخمان التي بدأت يوم ١١ نيسان ١٩٦١، ودامت شهوراً قليلة انتهت بإعدام مجرم الحرب. فالحال ان جلسات المحاكمة التي أُحيطت بتغطية اعلامية لم يسبق لها مثيل، كانت مناسبة للحديث عن «ملايين اليهود» الذين كان ايخمان مسؤولاً عن قتلهم (والحقيقة ان ايخمان كان مسؤولاً نازياً في هنغاريا... ومن المعروف ان الكاثوليك والغجر الذين قتلهم النازيون في هنغاريا يفوق عددهم عدد اليهود الضحايا الذين كانوا يعدون هناك بالمئات فقط)، وكانت مناسبة للحديث عن «الحل النهائي» (مع ان ايخمان قال وكرر انه إنما كان ينفّذ الأوامر، بل قال مرات عدة – أمر عندها بأن يخرس – بأنه إنما كان يساعد على تهريب اليهود لا على قتلهم). طبعاً إسرائيل لم تكن تريد مثل هذا الكلام. كذلك لم تكن تريد احتجاجات مثل تلك التي أبداها محامي ايخمان على صلاحية المحكمة الاسرائيلية للحكم على المجرم، بالنظر إلى أن الجريمة وقعت قبل قيام تلك الدولة. اسرائيل كانت تريد، فقط، أن تصل إلى إعدام ايخمان، ولكن بعد محاكمة وسجال يقنعان العالم كله ان اليهود كانوا وحدهم ضحايا النازية، وهو ما كانت العناصر الصهيونية قد عجزت عن فرضه كلياً على محاكمات نورمبرغ. في ذلك الحين كان اليهود ضحايا من بين ضحايا آخرين. ولكن مع محاكمة ايخمان صار اليهود هم الضحايا وهم المتضررون. والنتيجة؟ فلتدفع ألمانيا تعويضات لا تنتهي! وليطمئن اليهود مقيمين في فلسطين التي احتلوها، لأن للضحايا حقاً، ليس على جلّاديهم، بل على العالم أجمع.

وهكذا، ابتداءً من ١١ نيسان ١٩٦١، صار للحرب العالمية الثانية معنى آخر، وصار لها ثمن آخر. إما أن تكون حكاية خطف ايخمان في الأرجنتين حكاية تخرق كل الأعراف الدبلوماسية، وأن تلعب مخابرات غربية عدة دوراً في الخطف فينسب كله لمخابرات اسرائيلية لم تلبث أن أصبحت أسطورة بعد ذلك، وأن يكون الرجل (وهو مجرم حرب نازي، دون شك) قد استخدم لمحاكمة جلّادين أكبر منه دفع هو ثمن أخطائهم، وأن تكون المسألة كلها قد جيّرت لصالح صهيونية عالمية تجيد اللعب، وتجيد خاصة إثارة الضجيج من حول لعبها لخدمة أهدافها، فتلك أمور لم يهتم بها كثيرون في ذلك الحين، وإن كانت المفكّرة الألمانية اليهودية حنّة أرندت قد كتبت حول الموضوع نصًّا يشكّل إدانة للسلطات الاسرائيلية، كما يشكّل في الوقت نفسه إدانة للنازية في كتابها «ايخمان في القدس». فكانت من الأصوات القليلة التي تجرّأت على قول كلام ما، في ذلك الحين».

☐ **مشروع إيبان:** هو مشروع تسوية سياسية للصراع العربي – الاسرائيلي تقدم به أبا إيبان، وزير الخارجية الاسرائيلي، إلى الجمعية العمومية للأمم المتحدة خلال دورتها الثالثة والعشرين، وفي خطاب ألقاه أمام هذه الجمعية في ٨ تشرين الأول ١٩٦٨، وتضمن تسع نقاط:

أولاً: إقامة سلام عادل ودائم يعقب وقف إطلاق النار بعد مناقشات دقيقة يتم ترجمتها إلى اتفاقات تعاقدية تتضمن شروط تعايش اسرائيل مع جيرانها، وذلك بعد الاتفاق على خارطة ترسم الحدود الآمنة والمعترف بها من قبل الجميع. وهذا السلام يجب أن يسمح في جوهره لطرفي النزاع بإمكانية القول ان هذا النزاع انتهى بصورة نهائية.

ثانياً: بعد الاتفاق على حل النزاع سلمياً يتم استبدال خطوط وقف النار بحدود آمنة ودائمة معترف بها من قبل اسرائيل من جهة، ومن قبل كل واحدة من الدول العربية المجاورة من جهة ثانية، على أن يتم إعادة ترتيب القوات المسلحة وفق هذه الحدود التي ستقام في ظل السلام النهائي والدائم.

ثالثاً: إقامة ترتيبات أمنية متفق عليها، إضافة إلى الحدود الإقليمية الآمنة والدائمة، وذلك بهدف تجنّب الأوضاع والظروف الحسّاسة التي أدّت إلى انهيار السلام عام ١٩٦٧، هذا ويجب أن تنصّ اتفاقية السلام على تعهدات متبادلة بعدم الاعتداء.

رابعاً: الإبقاء على حرية الانتقال والحركة القائمة الآن عبر الحدود في المنطقة، وعلى وجه الخصوص في القطاع الاسرائيلي – الأردني.

خامساً: ضمان حرية الملاحة بصورة دقيقة وغير مشروطة وفق ترتيبات مقامة على أساس المساواة الكاملة

في الحقوق والالتزامات بين اسرائيل وسائر الدول المطلة على البحر وجميع أعضاء مجموعة الدول البحرية.

سادساً: عقد مؤتمر لدول الشرق الأوسط تشارك فيه التي تساهم في إغاثة اللاجئين ووكالات الأمم المتحدة المختصة، بهدف وضع خطة خمسية لحل مشكلة اللاجئين على أساس دمجهم في البيئات التي يقيمون فيها، ومن الممكن الدعوة لعقد هذا المؤتمر قبل البدء بمحادثات السلام، على أن تنص اتفاقيات السلام على ضرورة إنشاء لجان مشتركة لإعادة توطين اللاجئين ودمجهم في بيئاتهم.

سابعاً: إيجاد وضع خاص للأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية من خلال التوصّل إلى تفاهم مناسب مع الأطراف المعنية. إن إسرائيل لا تسعى لممارسة السيطرة القانونية من جانب واحد على هذه الأماكن المقدسة، وهي ترى انها يجب أن تكون تحت مسؤولية الجهات الدينية التي تقدسها.

ثامناً: عقد اتفاقيات تعاقدية بين حكومة اسرائيل وكل من الحكومات العربية تنصّ على الاعتراف المتبادل بسيادة ووحدة أراضي كل دولة في المنطقة وحقها في بناء حياتها القومية. وبالاستناد إلى هذه الاتفاقيات تقوم الدول العربية بسحب جميع تحفظاتها على المواثيق والاتفاقيات الدولية بعد انضمام اسرائيل إليها.

تاسعاً: إن السلام يقتضي دراسة مسألة إيجاد تعاون مشترك بين اسرائيل وسائر الدول العربية حول بعض الموارد الرئيسية وحول وسائل الاتصال في المنطقة، وذلك بهدف العمل لوضع أسس مجموعة شرق- أوسطية من الدول المستقلّة.

وفي حينه، رأت الدول العربية في مشروع إيبان هذا انه:

- ينسجم إلى أبعد الحدود مع التفسير الاسرائيلي الرسمي لقرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ تاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧. كما انه يمثّل الفهم الصهيوني لأسلوب معالجة القضية الفلسطينية والصراع العربي - الاسرائيلي.
- المشروع لا يهدف إلى إيجاد حل للصراع في المنطقة بقدر ما كان يهدف إلى وضع الدول العربية أمام خيارين: إما القبول بالشروط الاسرائيلية للتسوية، وإما رفض التسوية بما يتيح المجال أمام اسرائيل في تحقيق خطتها للتوسّع في الأراضي العربية.
- المشروع دعائي تقصد اسرائيل من وراء طرحه على منبر الأمم المتحدة الظهور بمظهر الساعي إلى حل بعد حرب ١٩٦٧ واحتلالها الأراضي العربية، إضافة إلى هدف آخر هو إفشال مهمة الممثل الشخصي للأمين العام للأمم المتحدة غونار يارينغ في السعي لدى الأطراف المعنية لتنفيذ قرار مجلس الأمن الدولي ٢٤٢.

☐ **معراخ**: تجمّع أحزاب تأسس في ١٩٦٥ بمبادرة من حزب العمال الاسرائيلي «ماباي» وإحدوت هاعفودا وعمال صهيون، للعمل بصورة مشتركة في مؤسسات الدولة، ونقابة العمال الهستدروت والسلطات المحلية، استعداداً للانتخابات السادسة للكنيست. وقد أطلق على هذا التجمّع الحزبي اسم «التجمّع لوحدة عمال اسرائيل». وتمّت المصادقة على ميثاق التجمّع في شباط ١٩٦٥ في مؤتمر ماباي، ومجلس أحدوت هاعفودا وعمال صهيون. وجاء في هذا الميثاق ان أحزاب التجمّع ستعمل على ضمان تقديم الدولة مساعدات مالية لنشاطات نقابة العمال من أجل تطوير البلاد وتحسين مستوى أجور العمال، ورفع مستوى معيشة الطبقات الضعيفة والقضاء على التخلّف في البناء المهني للطوائف المختلفة، وإعطاء الأولوية لتوطين وإسكان «أرض اسرائيل» وتطوير أمن اسرائيل. وفي كانون الثاني ١٩٦٨، أسست أحزاب التجمّع مع «رافي» (قائمة عمال اسرائيل) حزب العمل الاسرائيلي. وقبيل الانتخابات السابعة للكنيست، أنشأ حزب العمل الاسرائيلي ومعه حزب مابام كتلة سياسية لتنسيق العمل بينهما مع احتفاظ كل حزب باستقلاله التنظيمي.

☐ **مفاعل ديمونا والسلاح النووي**: يوماً بعد يوم تتكشف حقائق ومعلومات جديدة عن قدرات اسرائيل النووية وذلك على رغم المحاولات المستمرة التي يقوم بها قادة «الدولة العبرية» لإخفاء هذه الحقائق والمعلومات وإبقاء العالم عموماً والعرب خصوصاً في حالة من الشك والغموض بخصوص مسألة الخيار النووي لدى اسرائيل. فبعد فضيحة الفني البريطاني فاعنونو الذي كشف قبل سنوات معلومات خطيرة ومثيرة عن عدد الرؤوس النووية التي تمتلكها اسرائيل وعن حقيقة ما يجري في مفاعل ديمونا في صحراء النقب جاءت مجلة غربية أخرى لتؤكّد المعلومات والتخمينات التي تحدثت في الماضي عن قدرات اسرائيل الذرية وسعيها الدائم نحو تطوير هذه القدرات بصورة فعّالة. فيوم ١٩٩٣/١/٧ نشرت مجلة «ليفنمن دي جودي» الفرنسية تحقيقاً مثيراً عن الأسلحة النووية التي بحوزة اسرائيل جاء فيه ان «الدولة اليهودية» تمتلك على الأقل ١٠٠ سلاح نووي يمكن أن تطلق بواسطة صواريخ ذات مدى متوسط وقصير المسافة بطول يتراوح بين ٥٠٠- ١٤٥٠كلم. كما يمكن أن تطلق هذه

الصواريخ بطائرات أف ٤، وأف ١٥، وأف ١٦ الاميركية الصنع وكذلك بواسطة طائرات «كفير» الاسرائيلية. وأشارت المجلة إلى ان اسرائيل تمتلك مفاعلين نوويين احدهما في «نهال سورك» بقوة ٥ ميغاواط والثاني في ديمونا بقوة ١٥٠ ميغاواط. ويعتبر مفاعل ديمونا والملحقات التابعة له أساس البرنامج النووي الاسرائيلي إذ قامت تل أبيب بتطويره بدءًا من فترة الخمسينات بمساعدة الفرنسيين والأميركيين.

مراحل واستراتيجية: عودة إلى الوثائق التاريخية تكشف النقاب عن حقيقة مهمة وهي ان البرنامج النووي الاسرائيلي ليس حديث العهد ولكنه يمتد في جذوره إلى أيام الحرب العالمية الثانية. فالضربة الذرية التي وجّهتها الولايات المتحدة إلى المدن اليابانية في السادس من آب عام ١٩٤٥ حفزت الخيال اليهودي ودفعته إلى التفكير جدياً بامتلاك مثل هذا السلاح كضمانة لمستقبل المشروع الصهيوني. وقد لعب الدكتور حاييم وايزمان أول رئيس اسرائيلي دوراً مهماً جداً في وضع الأسس الأولية للأبحاث النووية في اسرائيل. فقد كان وايزمان من كبار علماء الكيمياء ويقيم صلات واسعة مع مختلف علماء الدول الغربية مما مهّد الطريق أمام الباحثين والخبراء الاسرائيليين للاطلاع بسهولة ويسر على نتائج الأبحاث الجارية في هذا الميدان وعلى استخدام المنشآت الضرورية لتطوير التجارب الذرية. ويمكن رصد النشاطات الأولى لمؤسسة الطاقة الذرية الاسرائيلية منذ نهاية العام ١٩٤٨ حيث كانت هناك وحدة علمية تابعة لفرع البحث والتخطيط في وزارة الدفاع الاسرائيلية تجري دراسة مفصّلة للمصادر المعدنية في صحراء النقب. وقد اكتشفت تلك الوحدة رواسب من الفوسفات تحتوي على اليورانيوم بنسبة ١,٠-١ في المئة.

وكانت وزارة الدفاع الاسرائيلية قد أوفدت مجموعة من العلماء باختصاص مختلف فروع علم النوويات إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وسويسرا وهولندا. وقد عاد هؤلاء بين عامي ١٩٥٣- ١٩٥٤ لممارسة نشاطهم داخل اسرائيل. ولتطوير البرنامج تشكلت

مفاعل ديمونا الاسرائيلي من الخارج (الصورتان الأعلى والوسطى) ونموذج لقنبلة نووية إسرائيلية (الصورة الاسفل): لم تؤكد إسرائيل رسمياً بعد انها تمتلك اسلحة نووية، وتصر على انها لن تكون اول دولة تنشر هذه الأسلحة في المنطقة. افادت شبكة «إن . بي .سي» التلفزيونية الاميركية (في ايلول ١٩٩٣) ان اسرائيل تمتلك أكثر من قنبلة ورأس حربية ذرية ضمن ترسانة نووية قد تكون اكبر من ترسانة بريطانيا. وان معظم القنابل الذرية الاسرائيلية او نحو ٧٠ منها مخزنة في قاعدة تعرف باسم تل نوف (جنوب الوسط)

لجنة الطاقة الذرية الاسرائيلية رسمياً في ١٣ حزيران عام ١٩٥٣ ضمن إطار وزارة الدفاع حين ترأسها الدكتور ديفيد بيرغمان الذي اكتشف اليورانيوم في صحراء النقب. وقد حددت اللجنة أهدافها بالآتي: اكتشاف إمكانات الحصول على المعادن ذات الفاعلية الإشعاعية لصناعة إنتاج اليورانيوم والتوصل إلى عملية انتاج الماء الثقيل وفق الأسس التي وضعها الدكتور دوستروفسكي في معهد وايزمان.

الدور الفرنسي: لعبت فرنسا دوراً مركزياً في تطوير البرنامج النووي الاسرائيلي ودفعه خطوات مهمة إلى الأمام. ففي النصف الأول من عام ١٩٥٣ جرى التوقيع على معاهدة «تعاون في حقل الذرة» بين فرنسا واسرائيل. وقد نصّت بنود الاتفاقية على أن تقوم الحكومة الفرنسية بشراء براءة اختراع اسرائيل حول إنتاج الماء الثقيل مقابل تدريب العلماء والفنيين الاسرائيليين في المنشآت الذرية الفرنسية. وقد بقي هذا الاتفاق سراً حتى نهاية عام ١٩٦٠ عندما اعترفت وزارة الخارجية الفرنسية والسفارة الاسرائيلية في باريس بأن فرنسا قد ساعدت اسرائيل في بناء مفاعل نووي في منطقة ديمونا في صحراء النقب. وعلى أثر ذلك اعترف بن غوريون رئيس أول حكومة اسرائيلية في ٢١ كانون الأول عام ١٩٦٠ أمام الكنيست بوجود مفاعل ديمونا بطاقة ٢٤ ميغاواط وادّعى أنه سيخصص للأغراض السلمية. فيما تمّ وضعه في التشغيل بالماء الثقيل العام ١٩٦٤. وكان التعاون بين فرنسا واسرائيل قد توطد أثناء التحضير للعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ الأمر الذي مكّن اسرائيل من تسخير هذا التعاون لدعم برنامجها النووي والاستفادة من الخبرات الفرنسية إلى أبعد الحدود.

الدور الأميركي: في الوقت نفسه، سعت اسرائيل إلى الاستفادة من التقدم الأميركي الناشط في ميدان الطاقة الذرية وكانت النتيجة التوصّل إلى اتفاقات فعّالة مع الولايات المتحدة في ١٢ تموز عام ١٩٥٥ إثر اتصالات مكثّفة أجراها السفير الإسرائيلي في واشنطن ابا ايبان ومورهد باترسن كبير المفاوضين الأميركيين في برنامج «الذرة من أجل السلم». ونصّت تلك الاتفاقيات على تبادل واسع للمعلومات بين الجانبين بشأن مفاعلات البحث الذري وعلى مدّ اسرائيل بستة كيلوغرامات من اليورانيوم المخصب بنسبة ٢٠ في المئة. كما نصّت الاتفاقيات على بناء مفاعل للبحث العلمي في «ريشون لتسيون» بقدرة ٨ مليون واط حراري حيث بدأ العمل فيه عام ١٩٥٧. كما بنت الولايات المتحدة لاسرائيل عام ١٩٦٦ مفاعلاً نووياً جديداً يحمل اسم النبي روبين بقدرة ٢٠ مليون واط حراري وأعلن أنه سيستخدم لتحلية مياه البحر وتوليد الطاقة الكهربائية. وتؤكّد مختلف المصادر بأن المساعدات والخبرات الاميركية هي التي مكّنت اسرائيل من تطوير برنامجها الذري بطريقة سريعة ومتقدمة. ففي شهر آب من عام ١٩٥٥ قدمت الولايات المتحدة لاسرائيل مكتبة فنية تحتوي على نحو ٦٥٠٠ تقرير عن البحث والتطوير الذريين معدة من تقارير «لجنة الطاقة الذرية الأميركية» ونحو ٤٥ مجلداً عن النظرية النووية وخلاصات التقارير والأبحاث الأميركية في هذا الميدان. وفي الإطار نفسه شجعت الولايات المتحدة الدول الغربية على تقديم المساعدات النووية إلى إسرائيل لتطوير برنامجها الذري. وسبق لمجلة «شتيرن» الألمانية أن أكدت بأن المعهد الألماني للأبحاث النووية في مدينة كارلسون يقوم بتطوير مفاعل نووي حديث لاسرائيل فيما صرّح البروفسور شيمون بفتاح أحد كبار علماء الذرة في اسرائيل بأن فرنسا وألمانيا اتفقتا على بيع مفاعلات ذرية لاسرائيل من دون أن تبالغا في فرض القيود أو الشروط.

الردع النووي: لقد قامت استراتيجية اسرائيل الذرية على مبدأ «الردع النووي» وفق الأسس الآتية:

– تحقيق التفوّق العسكري النوعي على الدول العربية كلها بهدف فرض السيطرة السياسية والأمنية والاقتصادية عل مقدرات المنطقة.

– منع الدول العربية من امتلاك الأسلحة الذرية وذلك عن طريق مراقبة نشاط كل دولة على حدة واستخدام القوة عند الضرورة كما حدث في تدمير المفاعل النووي العراقي في ربيع ١٩٨١.

– إلغاء الخيار العسكري لدى العرب من خلال تسويق النظرية القائلة بأن إسرائيل لا يمكن لها أن تقبل بأية هزيمة وأن «الضربة النووية» قد تكون البديل لأية هزيمة من هذا النوع.

وهذا يعني بأن هناك «عقيدة ذرية» في اسرائيل وهي تعني ان من الممكن استخدام السلاح الذري في حرب شاملة مع العرب قد تعرض أمن «الدولة العبرية» للخطر المباشر على حد تعبير كبار المسؤولين الاسرائيليين. وعلى رغم ان الخيار النووي الاسرائيلي يرتبط مباشرة بالحرب النفسية التي تتعرض لها الدول العربية من جانب إسرائيل إلا أن هذا الارتباط لا يمكن أن يزيل احتمالات استخدام السلاح الذري من قبل جنرالات المؤسسة العسكرية الاسرائيلية. ولهذا السبب فإن اسرائيل رفضت وترفض بقوة السماح لأية جهة دولية بمراقبة أو

تفتيش منشآتها النووية. فعلى رغم ان كل الدول العربية قد وقعت على معاهدة عدم انتشار الأسلحة الذرية وتعاونت – إلى أبعد الحدود – مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية فإن إسرائيل تفعل العكس تماماً. فهي ما تزال حتى الآن تماطل في التوقيع على هذه المعاهدة وتقدم تبريرات غير مقنعة على الإطلاق. وتعارض في الوقت نفسه أن تقوم «الوكالة الدولية للطاقة الذرية» بأي نشاط لها داخل المنشآت النووية الاسرائيلية.

شهادات اسرائيلية: وتعكس التصريحات التي يطلقها المسؤولون الإسرائيليون حول الخيار النووي ومسألة انتشار الأسلحة الذرية في الشرق الأوسط اعترافات خطيرة بعزم قادة «الدولة العبرية» على المضي قدماً في تطوير برنامجها النووي وجعل هذا السلاح مسلطاً – بصورة دائمة – فوق رؤوس العرب ورقاب شعوبهم. فقبل عدوان ١٩٦٧ صرّح ابا ايبان وزير خارجية إسرائيل آنذاك قائلاً: «لن نبادر إلى تكوين مناطق غير نووية في الشرق الأوسط لأن الدول العربية لن تتفاوض معنا في أي شيء». وكان ليفي أشكول رئيس الوزراء الاسرائيلي آنذاك قد برّر رفض اسرائيل التوقيع على معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية بقوله: «ان إسرائيل ترفض التوقيع على معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية لأن الخطر السوفياتي والعرب يهددان سلامتها». والسؤال هنا: لماذا لا تبادر اسرائيل إلى التوقيع على هذه المعاهدة بعد زوال الاتحاد السوفياتي والخطر المزعوم الذي كان يشكله على اسرائيل ودخول العرب في مفاوضات سلام جادة مع «الدولة العبرية» في واشنطن؟

أجاب رئيس الحكومة الاسرائيلية اسحق رابين أخيراً: «لن تكون اسرائيل البادئة في استخدام السلاح النووي في الشرق الأوسط». وكان رابين نفسه قد صرّح في اجتماع للكنيست عام ١٩٦٦: «انني أعرف أن العرب يشككون في نوايانا النووية. وأعرف أن الشك قوة رادعة. فلماذا نخفف هذه الشكوك»؟

التلويح النووي: هل يمكن لاسرائيل أن تستخدم السلاح الذري في حرب جديدة مع العرب؟

ان عودة إلى وقائع الصراع تكشف النقاب عن حقيقة مثيرة للغاية وهي ان اسرائيل لوّحت بالخيار النووي في موقعتين بارزتين: الأولى أثناء حرب تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٧٣ والثانية خلال حرب الخليج في كانون الأول عام ١٩٩٠. فخلال حرب تشرين وبنتيجة الهزيمة العسكرية التي تعرضت لها على أيدي القوات المصرية – السورية فكّرت إسرائيل حتى اللحظة الأخيرة باللجوء إلى الخيار الذري. وهذه هي الوقائع. فأقمار التجسس السوفياتية كشفت في العام ١٩٧٣ قيام إسرائيل بتحريك بعض الرؤوس النووية في مفاعل ديمونا في صحراء النقب وسارعت موسكو إلى إبلاغ الجانب الأميركي وتحذير تل أبيب من مغبة الإقدام على خطوة كهذه. وأكدت غولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل آنذاك صحة هذه الواقعة. وصرّحت في لندن عام ١٩٧٥: «ليكن بعلمكم انه في المرة القادمة عندما نواجه خطر التدمير فلن نكون الوحيدين في ذلك». وبدوره أكّد موشي دايان وزير الدفاع الاسرائيلي آنذاك فكرة الخيار النووي بقوله: «على اسرائيل أن تؤمّن لنفسها خياراً ذرياً وتنتج بنفسها صواريخ أرض – أرض بعيدة المدى»، وأضاف: «اننا نملك الآن إمكان إنتاج القنبلة الذرية، فنحن دولة صغيرة والولايات المتحدة لم تعد دركي العالم. ويجب ان ندافع عن أنفسنا». وفي ١٩٧٦/٤/١١ نقلت صحيفة «يديعوت أحرنوت» عن دايان قوله: «ان على اسرائيل الوصول إلى الخيار الذري حتى يعترف العرب اننا نستطيع تدميرهم فيما إذا نشأ وضع أصبحت بموجبه الدولة كوجود معرّضة للخطر». هذا في المرحلة التي أعقبت حرب ١٩٧٣ .أما في عام ١٩٩٠ فقد حدثت تطورات أكثر إثارة. فعندما قام العراق بإطلاق صواريخ «سكاد» على تل أبيب تعرضت حكومة اسحق شامير لضغوط قوية من جنرلات المؤسسة العسكرية لاستخدام قنابل نووية محدودة الانشطار للرد على القصف العراقي، وكاد هذا أن يحدث لولا الممانعة الأميركية إذ حذّرت إدارة الرئيس جورج بوش اسرائيل من الإقدام على خطوة خطيرة كهذه.

بيد أن الخبراء يثيرون مشكلة في غاية الخطورة والتعقيد وهي: هل تستطيع اسرائيل استخدام القنابل والرؤوس الذرية في المدى الجغرافي الضيّق المحيط بها؟ بمعنى ألا يمكن أن تتأثر هي نفسها بمثل هذه الحرب؟

يؤكّد هؤلاء بأن مسألة انتقال الإشعاع هي احتمال واقعي جداً نظراً لقرب المسافة الجغرافية بين اسرائيل والدول العربية. ومثال ذلك الانفجار الرهيب الذي وقع في تشيرنوبيل في الاتحاد السوفياتي العام ١٩٨٥. فالرياح والعوامل الجوية والمناخية نقلت بسرعة الإشعاعات الذرية إلى تركيا وبلغاريا وبولندا وبقية دول أوروبا الشرقية. كما تأثرت منطقة الشرق الأوسط بتلك الإشعاعات. واضطرّت اسرائيل بالذات إلى اختبار درجة التلوّث الإشعاعي فيها بعد التقارير التي أشارت إلى حدوث انتقال ما جرى في تشيرنوبيل بسرعة فائقة إلى العديد من مناطق العالم. فكيف إذا أقدمت اسرائيل

على استخدام السلاح الذري بصورة مباشرة في المنطقة؟
لا شك أن النتائج ستكون في غاية الخطورة ومع ذلك فإن هذا الاعتبار لا يشكّل في نظر اسرائيل وقادتها سبباً كافياً لاستبعاد الخيار النووي. فهم في «الدولة العبرية» يتعاملون مع هذا الخيار بطريقة جدية للغاية ولهذا السبب فإن إسرائيل لا تزال ترفض حتى الآن التوقيع على معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية وتمنع «الوكالة الدولية للطاقة الذرية» من التفتيش في منشآتها النووية. فمن خلال هذه المواقف الرسمية المعلنة تبقى اسرائيل سلاحها الذري كالسيف المسلّط فوق الشرق الأوسط فيما أخفق العرب حتى الآن في امتلاك سلاح موازٍ للسلاح الاسرائيلي. والأمل أن تحلّ هذه المشكلة في إطار محادثات السلام بين العرب واسرائيل في واشنطن رغم أن النتائج المتحققة حتى الآن لا تقود إلى أي نوع من أنواع التفاؤل (محمود ظروف – باحث في مركز الأبحاث والدراسات الاستراتيجية في دمشق – «الحياة»، ٢٥ شباط ١٩٩٣، ص ١٠).

□ **المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية:**
الإطار التنظيمي الذي يضم كل اليهود الذين يقبلون برنامج بال (أو بازل – المؤتمر الصهيوني الأول) ويدفعون الشاقل. أسست في ١٨٩٧ في المؤتمر الصهيوني الأول لخدمة هدف الصهيونية في إقامة وطن قومي «ليضم الشعب اليهودي» ويخدم مصالحه عن طريق تهجير اليهود واستعمار فلسطين وتعبئة يهود العالم ووضعهم في خدمة هذا الهدف في إطار التعاون مع الدول الغربية الكبرى. كان مركزها يتنقل من عاصمة أوروبية إلى أخرى، ولكن بعد صدور وعد بلفور استقرّ في لندن، ثم انتقل إلى القدس منذ ١٩٣٦. وتضم هذه المنظمة مختلف المدارس والاتجاهات الصهيونية على أساس أنها تشكّل الحد المشترك بين كل الصهاينة، وباعتبار ان الخلافات بينهم تنحصر في التكتيك ولا تطال الاستراتيجية.

وبناء على اتفاق مع حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين أنشأت المنظمة الصهيونية العالمية ساعدها التنفيذي المعروف باسم «الوكالة اليهودية» عام ١٩٢٢، فاختصت المنظمة بالنشاط بين الأقليات اليهودية في العالم واضطلعت بالمهام الدعائية والدولية والدبلوماسية والفكرية؛ بينما اختصّت الوكالة بالنشاط الاستيطاني والتنفيذي في فلسطين بكل جوانبه ولو انه من المفضّل الإشارة إلى المنظمتين كمنظمة واحدة باسم «المنظمة الصهيونية العالمية – الوكالة اليهودية». وبعد قيام اسرائيل (١٩٤٨) أخذت الدولة الوليدة تقوم بالكثير من مهام المنظمة فكان لا بد من إعادة تعريف العلاقة بين المنظمة والدولة فصدر في ١٩٥٢ القانون المعروف باسم «قانون العودة» الذي أكّد الصفة الصهيونية لاسرائيل وادّعى تمثيل الصهيونية واسرائيل للشعب اليهودي، وان تطلعات الأجيال اليهودية هي العودة إلى اسرائيل وان واجب اسرائيل والصهيونية هو «تجميع المنفيين» (يهود العالم).

أما التنظيم الهيكلي للمنظمة الصهيونية فيتألف من المؤتمر الصهيوني وهو الهيئة العليا، ويضم أعضاء المجلس الصهيوني العام واللجنة التنفيذية وممثلين عن مختلف المنظمات الصهيونية في العالم بما في ذلك الأحزاب الاسرائيلية، ويجتمع مرة كل أربع سنوات. وفي غياب المؤتمر يتولى المجلس الصهيوني العام، الذي يعكس تركيبه تركيب المؤتمر، مهام المؤتمر ويكون مسؤولاً أمامه. أما اللجنة التنفيذية فتتولى إدارة شؤون المنظمة وتنفيذ قرارات المؤتمر وتجتمع أسبوعياً ومقرّها القدس. ويتزعم المنظمة رئيس ينتخبه المؤتمر العام. وأول رئيس لها كان مؤسسها تيودور هرتزل، ثم خلفه دافيد ولفسون (١٩٠٥– ١٩١١)، ثم أوتو واربورغ (١٩١١– ١٩٢٠)، ثم حاييم وايزمن (١٩٢٠– ١٩٣١)، وبعده ناحوم سوكولوف (١٩٣١– ١٩٣٥)، ووايزمن مرة

المقر الاول للوكالة اليهودية

اخرى (١٩٣٥– ١٩٤٦). وبعد وايزمن ظلت المنظمة دون رئيس حتى ١٩٥٦ حين انتخب ناحوم غولدمان الذي لم يجدد له في ١٩٦٨، فبقيت المنظمة دون رئيس، وإن كان للوكالة اليهودية رئيس اسرائيلي يقوم

بدور الرئيس الفعلي للمنظمة.

تمارس المنظمة نشاطها في معظم أنحاء العالم، إلا أن هذا النشاط يتركز أكثر ما يكون في الولايات المتحدة الأميركية.

□ **المؤامرة اليهودية الكبرى أو العالمية**: راجع بروتوكولات حكماء صهيون.

□ **المؤتمر اليهودي الأميركي**: منظمة يهودية تأسسة في ١٩٢٨، إثر اجتماع عقده مندوبون عن المنظمات الدينية واليهودية والمنظمات الصهيونية وعدد من الشخصيات اليهودية في الولايات المتحدة الأميركية. ترأس المؤتمر ستيفن وايز. بدأ المؤتمر السعي لتشكيل لوبي صهيوني قوي، فما لبث أن تحوّل هذا المؤتمر في فترة الثلاثينات إلى القوة اليهودية الأساسية في العمل ضد النازية ومساعدة الضحايا اليهود في أوروبا. وقد نجح المؤتمر داخل الولايات المتحدة في إثارة الرأي العام لمصلحة اليهود، وطوّق بصورة شبه كاملة تيار اللاسامية الذي كان بدأ خطواته الأولى في هذه البلاد. استمرّ في تطوير أنظمته حتى انه لم يأتِ عام ١٩٦٧ حتى بلغت فروعه حوالى ٣٠٠ فرع. وقد جاء هذا المؤتمر في أعقاب انتهاء دور المؤتمر اليهودي الأميركي الذي تأسس في ١٩١٨ إثر اجتماعات عقدها في فيلادلفيا.

□ **المؤتمر اليهودي العالمي**: منظمة يهودية عالمية تأسست في ١٩٣٦. وتنتسب إليها اليوم الهيئات الرئيسية للجاليات والتنظيمات اليهودية في نحو ٦٠ بلداً. وهذا المؤتمر يسعى إلى تنسيق جهود اليهود وضمان حقوقهم في جالياتهم حيث هي في بلدان العالم. من أبرز الشخصيات الصهيونية التي دفعت باتجاه هذا المؤتمر ماكس نورداو، ستيفن وايز، ناحوم سوكولوف، ليو موتسكين وناحوم غولدمان، ومن بعدهم يتسحاق بن تسفي (رئيس سابق لاسرائيل)، ويوسف شبرينسال (اول رئيس للكنيست) وغيرهم. وكان أكبر عمل قام به قادة المؤتمر اليهودي العالمي اضطلاعهم بالدور الحاسم في حمل حكومة ألمانيا الاتحادية على أن توقع في ١٩٥٢ اتفاقية لوكسمبورغ التي أسفرت عن موافقة الحكومة الألمانية على دفع بلايين الماركات للحكومة الاسرائيلية تعويضاً لليهود الذين تضرروا من النازية. إلا أن الحكومة الاسرائيلية استخدمت معظم هذه الأموال في مشاريعها الاقتصادية وخططها العسكرية وفي جلب اليهود من مختلف أنحاء العالم للاستيطان في فلسطين.

استطاع المؤتمر اليهودي العالمي التغلغل في بعض المؤسسات الدولية. فكان أول تنظيم يهودي يمنح صفة استشارية في المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة، وفي اليونسكو، كما انه حصل على تمثيل منظمة العمل الدولية. وفي أواخر ١٩٦٩، كان هذا المؤتمر، برئاسة ناحوم غولدمان، يتألف من جاليات ومنظمات يهودية في أكثر من ٦٠ بلداً. آخر جمعية عمومية للمؤتمر (١٩٨٠) أصدرت إعلاناً أطلقت عليه تسمية «اعلان القدس»، أكّدت فيه تصميم «الشعب اليهودي بأسره» على «المحافظة على وحدة القدس عاصمة لدولة اسرائيل». كما أكدت في قراراتها الرفض القاطع لإقامة ما يُسمّى «دولة علمانية فلسطينية لا هدف لها سوى القضاء على دولة اسرائيل»، والسعي إلى «إلغاء قرارات اليونسكو المعادية لاسرائيل».

□ **هجرة اليهود إلى فلسطين، ثم اسرائيل**: إنها القضية المركزية في فكر وممارسة الحركة الصهيونية ومنظماتها، في بلدان العالم أو على أرض فلسطين، في المراحل السابقة والممهدة لقيام دولة اسرائيل في ١٩٤٨. كما واستمرّت القضية المركزية لدى زعماء وحكّام اسرائيل ولدى زعماء الصهيونية ومنظماتها في العالم منذ نشوء دولة اسرائيل حتى اليوم ومستقبلاً كذلك على الارجح ذلك لأن من حق هجرة اليهود أن تمد اسرائيل ليس فقط بأهم أسباب (أي السبب البشري) اعمارها وحياتها وتمنيعها وتحصينها أمنياً وعسكرياً، بل أيضاً بأسباب توسّعها بما يتلاءم والمطامع الصهيونية غير الخافية، خصوصاً وان الحجم الديموغرافي لسكّان اسرائيل من اليهود، ولليهود عموماً، لا يتعدى حالياً ٣٪ من الحجم الديموغرافي العربي المحيط بها. والعلم الديموغرافي يشير بوضوح إلى أن هذه النسبة آخذة حتماً بالتناقص بحيث ستصبح بعد حوالي عقدين فقط من الزمن في حدود ١,٥٪ فقط. وزعماء اسرائيل والصهيونية يدركون (بل هم أكثر من أدرك) خطورة هذا الوضع الديموغرافي المزيل بالنسبة إليهم قياساً على «القنبلة الديموغرافية العربية»، مهما كان هناك من أهمية معطاة، أو هي بالفعل، للتقدم العلمي والتطوّر التكنولوجي في تحديد نتائج استعمالات القوة العسكرية والتقدم العلمي والدهاء السياسي بما يمكنه من نسج لشبكات تحالفات دولية تصل حد الاعتماد الكلي على الدول الحليفة. من هنا محورية بذل كل نشاط في سبيل تأمين المهاجرين اليهود إلى اسرائيل. ويوازي هذه المحورية، نشاط محوري آخر مكمّل، وهو من شقين: تأمين التفوّق العسكري والتكنولوجي بشكل

مهاجرون من روسيا الى اسرائيل

يهود يمنيون يتناولون اول عشاء لهم في اسرائيل في مركز تأهيل اللاجئين في عسقلان (١٥ تموز ١٩٩٣)

ثابت إلى حد امتلاك السلاح النووي وبذل كل جهد في سبيل منعه عن العرب، والاستمرار بسياسة القمع والتضييق والإبعاد بحق الفلسطينيين والعرب.

ووصل النشاط السياسي الاسرائيلي والصهيوني من أجل تأمين هجرة اليهود إلى إسرائيل حد احتلاله خانة مقياس كل سياسة اسرائيلية وصهيونية بكل ما تمتلكه من أدوات وكتل الضغط في العالم، خصوصاً في الولايات المتحدة وتحديداً إزاء ممارسة هذه الدولة الأعظم الضغوط على الاتحاد السوفياتي سابقاً لتسهيل هجرة اليهود السوفيات إلى اسرائيل. فقد أعلنت الوكالة اليهودية، في أول ١٩٩٣، ان ٤٠٠ ألف و ٤٥٥ يهودياً من الاتحاد السوفياتي سابقاً هاجروا إلى اسرائيل منذ كانون الأول عام ١٩٨٩. وأوضحت هذه الوكالة المعنية باستقبال الوافدين ان ٧٦ ألف مهاجر وصلوا إلى اسرائيل خلال العام ١٩٩٢ من بينهم ٦٤ ألفاً من الاتحاد السوفياتي سابقاً. وكان ١٧٠ ألف مهاجر وصلوا في العام ١٩٩١ من بينهم ١٤٥ ألفاً من الاتحاد السوفياتي سابقاً. وسجّلت الهجرة من الاتحاد السوفياتي أعلى مستوى لها في كانون الأول ١٩٩٠ مع وصول ٣٦,٦٢٥ مهاجراً (١٨٥ ألف مهاجر خلال العام ١٩٩٠ بكامله)، وأدنى مستوى لها في أيار ١٩٩٢ مع وصول ٣٣٦١ مهاجراً. وتوقعت الوكالة اليهودية وصول ١١٠ آلاف مهاجر في العام ١٩٩٣ من بينهم مئة ألف من الاتحاد السوفياتي سابقاً.

وعلى خط موازٍ من النشاط الاسرائيلي حول هجرة اليهود الموجّه ناحية يهود البلدان المتقدمة (ثمة مصاعب على هذا الخط أساسها المستوى المتقدم لمجتمعات هذه البلدان) هناك خط آخر موجّه ناحية بلدان العالم الثالث التي تعيش فيها أقليات يهودية، منها البلدان العربية. فآخر مردود هذا النشاط ما أعلنته الوكالة اليهودية (في أواسط تموز ١٩٩٣) ان ٣٤ يهودياً يمنياً وصلوا إلى مطار بن غوريون في تل أبيب، ونُقلوا إلى مركز لتأهيل اللاجئين في عسقلان (جنوب تل أبيب). وكان نحو ٤٣ ألف يهودي يمني هاجروا إلى اسرائيل في الفترة الممتدة من حزيران ١٩٤٩ إلى تموز ١٩٥٠ في إطار عملية أطلق عليها اسم «عملية بساط الريح». وكان توجّه ١٦ ألفاً آخرين إلى فلسطين قبل قيام دولة اسرائيل في العام ١٩٤٨ (راجع: المعالم التاريخية، الاستيطان اليهودي في فلسطين؛ وإثيوبيا، الفالاشا وشعب غيحون السامي).

☐ **هستدروت:** أو الكونفدرالية العامة للعمال الاسرائيليين. يحددها الاسرائيليون بمهماتها الرئيسية الأربع: ١) دور نقابي: الدفاع عن مصالح العمال كأية نقابة في المجتمعات الرأسمالية؛ ٢) دور إقتصادي (إدارة وامتلاك وتنظيم) تقوم به الهستدروت كمالك لوسائل إنتاج متعددة، فتصبح بحدّ ذاتها قطاعاً إقتصادياً يسمّى القطاع التعاوني أو قطاع الاقتصاد العمالي، يدّعي سيادة علاقات الإنتاج الاشتراكية؛ ٣) إدارة مجموعة مؤسسات للضمان الصحي والاجتماعي؛ ٤) دور ثقافي ومن أهم ما يقع على عاتقه تربية النشء.

أسست الهستدروت في حيفا عام ١٩٢٠، وأرست القاعدة الاقتصادية للدولة اليهودية. هدف الهستدروت، في الأساس، تأمين الشروط الضرورية لإيجاد وتنظيم طبقة عاملة جديدة ولها امتيازاتها. وهذه الشروط هي في خلق المؤسسات الصناعية والزراعية لتنمو فيها الطبقة العاملة اليهودية. والمؤسسات الأولى التي انشأتها الهستدروت:

– المؤسسة الكبرى للأشغال العامة (سوليل بونيه) في ١٩٢١.

– شركة النقل بين المدن (ايجد) تؤمن ٦٥٪ من المواصلات بين المدن في ١٩٣٣.

– شركة «مكروت»، أهم منظم وموزّع للماء في المستعمرة الصهيونية، في ١٩٣٦.

– الشركة البحرية (تسيم) في ١٩٣٦.

ووسّعت الهستدروت نشاطها بحيث شمل مختلف المجالات الاقتصادية: أسست شركات لبيع الإنتاج الزراعي وكذلك شركات تعاونية للبيع بالجملة... وأحاطت نفسها بشبكة مؤسسات ضخمة: شبكة مدرسية (للمهاجرين اليهود) وصحية (ضمان صحي)...

وكانت الهستدروت تتولى الإشراف على منظمة الدفاع اليهودية (الهاغاناه). وأشرفت على المستعمرات (المستوطنات) الزراعية، ولعبت دوراً كبيراً في طرد اليد العاملة العربية والفلاحين. هدفها ايديولوجي وسياسي على قدر ما هو إقتصادي، بل أكثر بمعنى انها وضعت الاقتصادي في خدمة الايديولوجي. والدليل قول بن غوريون: «لا ينبغي فقط تنظيم الطبقة العاملة، إنما خلقها وتكوينها وزرعها في فلسطين»، وقول مؤسسي الهستدروت: «إن المصلحة القومية تعلو على المصلحة الاقتصادية والمصلحة الثقافية». استمرّت الهستدروت كأساس لتكوين اسرائيل الاقتصادي، وكأساس، في الوقت نفسه، للنشاط السياسي من حيث انها القاعدة الحزبية والانتخابية الأهم. ومنذ بداية السبعينات، بدأت ترتسم دلائل تراجع للهستدروت لمصلحة القطاع الخاص.

□ **هولوكوست (هلوكوست)**: تعبير انكليزي يستخدم للدلالة على «المجزرة» أو «المحرقة» التي تعرّض لها اليهود في ألمانيا وأوروبا على يد النازيين. وهذا التعبير في أساس النشاط الصهيوني الإعلامي والدعائي، كسباً لدعم الرأي العام لإسرائيل واليهود والصهيونية ومختلف القضايا التي تهم دولة إسرائيل وقضاياها خصوصاً لجهة وجودها والصراع العربي – الإسرائيلي. ووصل النشاط الإعلامي الدعائي الصهيوني إلى أوجه في ربيع هذه السنة (١٩٩٣) مع افتتاح متحف «الهولوكوست» في واشنطن الذي تحوّل إلى مناسبة لإدانة النازية ولتسليط الأنظار على الأذى العظيم الذي ألحقته باليهود في العالم. وتضمن المتحف إحصاءات تظهر ان هتلر قضى على ستة ملايين من اليهود، أي على حوالي ثلث اليهود في العالم. وقد كلّف بناء المتحف ما يقارب ١٦٨ مليون دولار، وافتتحه الرئيس الأميركي كلينتون. وشدّد المسؤولون في واشنطن على أن الغرض من الهولوكوست ليس مجرد توثيق جرائم النازيين، وانما أيضاً النفاذ إلى أسبابها، ومن ثم قطع الطريق على إمكان تكرارها في المستقبل. فالمقصود من النشاط الإعلامي الصهيوني حول الهولوكوست هو هذه العبارة الأخيرة: «قطع الطريق على امكان تكرارها في المستقبل» وما تتضمنه من معاني دعم اسرائيل وتبرير وجودها وحروبها. وخير دليل على ذلك المحاضرة التي ألقاها رئيس الوزراء الاسرائيلي، مناحيم بيغن، بعد الغزو الاسرائيلي للبنان (١٩٨٢) والتي قارن فيها بين ياسر عرفات وأدولف هتلر، وبين مطالبة منظمة التحرير الفلسطينية بإعطاء الفلسطينيين حق تقرير المصير وسعي النازيين إلى القضاء على اليهود، ثم خلص إلى القول بأنه لو لم تحتلّ القوات الاسرائيلية لبنان لتكرر الهولوكوست، وتعرّض اليهود إلى الفناء.

زعماء ورجال دولة

* **أحاد هاعام** Ahad Ha-am (١٨٥٦–١٩٢٧): إسم الشهرة لآشر غينزبرغ، يهودي روسي. أحد أهم الكتّاب والمفكّرين في أدب العبرية وفيلسوف الصهيونية الثقافية والروحية. عارض فكرةجمعيات أحباء صهيون الداعية إلى هجرة اليهود إلى فلسطين بقصد استيطانها في مقال مهم عنوانه: «ليس هذا هو الطريق». قام بأكثر من زيارة إلى فلسطين، وشدّد على نظرته الأساسية: إحياء اليهودية يتحقق عن طريق العمل التثقيفي وتنمية وتطوير صهيونية ثقافية مقترنة بقيم أخلاقية وروحية، أما إنشاء دولة يهودية فيكون نهاية المطاف لا بدايته، فتصبح اسرائيل عند ذلك مركزاً ثقافياً وروحياً يحفظ وحدة اليهود واستمرارهم دون السعي إلى تجميعهم في مركز واحد، لأن ذلك يحول دون أداء رسالتهم في مجتمعاتهم المتفرقة في أنحاء العالم. أسّس هاعام جماعة بني موسى السرية، وأصدر مجلة (١٩١٦) نشرت أفكاره وخلافاته مع الصهيونية السياسية. وعلى الرغم من مساهماته في جهود إعلان وعد بلفور إلا أنه كان من أوائل الذين تنبهوا لبديهية وجود عرب فلسطين وحقوقهم القومية فيها. وفي ١٩٢٢، استقرّ في تل أبيب، وأكمل هناك جمع كتاباته في مجلدات أربعة: «في مفترق الطريق». وجمعت رسائله في مرحلة لاحقة في ستة أجزاء. هاعام شخصية فريدة في عصره، إلا أن أثره لم يكن كبيراً. ولعلّ الدكتور جواد ماغنيس (رئيس الجامعة العبرية لفترة) الذي لم يستطع أن يلعب دوراً كبيراً، بدوره، كان أهم تلاميذه وأبرزهم.

* **إشكول، ليفي** Eshkol, L. (١٨٩٥–١٩٦٩): سياسي ورجل دولة صهيوني من الرعيل الأول. ولد في أورانتوف (أوكرانيا) ١٨٩٥ في وسط يهودي تقليدي. هاجر إلى فلسطين ١٩١٤. شارك في إنشاء مستعمرة كريات أنافيم. انضمّ إلى الفيلق اليهودي في الحرب العالمية الأولى. مدير القسم الزراعي في هابويل هاتسائير (الحزب الاشتراكي الصهيوني). مندوب إلى المؤتمر التأسيسي للهستدروت. قام بدور مهم في نقل الأملاك الألمانية إلى فلسطين. عضو في قيادة الهاغاناه ومسؤول عن الصناعات فيها. مدير عام وزارة الدفاع (١٩٥٠– ٥٢). أمين صندوق الوكالة اليهودية (١٩٥١– ٥٢). وزير زراعة ومالية (١٩٥٢– ٦٣) حيث ارتبط اسمه باتفاقية التعويضات الألمانية. خلف بن غوريون كرئيس للوزارة ووزير مالية وظل فيها حتى وفاته (من ١٩٦٣ إلى ١٩٦٩).

* **اغرانات، شيمون** Agranat, Sh. (١٩٠٦ –): شخصية قضائية – سياسية صهيونية. ولد في الولايات المتحدة ودرس في جامعة شيكاغو، ثم هاجر إلى فلسطين كمستوطن صهيوني. عمل في المحاماة ثم في سلك القضاء وتدرّج حتى أصبح رئيس المحكمة العليا في الستينات والسبعينات. عيّن في محكمة التحكيم الدولية في لاهاي (١٩٦٢– ٦٨). انتخب رئيساً للجنة التحقيق الخاصة بتحديد أسباب وظروف خسارة اسرائيل في الأيام الأولى لحرب تشرين – أكتوبر ١٩٧٣ . وأصدرت اللجنة تقريرها الأول في نيسان

١٩٧٤، والثاني في تموز ١٩٧٤، والثالث في كانون الثاني ١٩٧٥، حيث أوصت بعدم نشره لأسباب أمنية ولمدة ثلاثين سنة على أن ينشر كله أو بعضه، بعد هذه المدة، بإذن من المحكمة العليا وبناءً على طلب من الحكومة أو لجنة الخارجية والأمن. وما سمح به ونشر أثار ردود فعل وتعليقات في الأوساط السياسية والصحافية والشعبية الاسرائيلية، خصوصاً خيبة أمل الاسرائيليين من عدم إجابة التقرير عن الأسئلة التي طرحت نتيجة الحرب، ما كان له أثره الكبير على تطوّر الحياة السياسية في اسرائيل.

* **أفنيري، شلومو** Avineri, Shlomo (١٩٣٣–): سياسي وأكاديمي صهيوني. ولد في بولونيا وهاجر إلى فلسطين وتلقّ علومه الثانوية والجامعية فيها ثم انتسب إلى جامعة لندن. عيّن أستاذاً في الجامعة العبرية منذ ١٩٧١ ثم أصبح عميداً للعلوم الاجتماعية فيها. تولى المديرية العامة لوزارة الخارجية الاسرائيلية (١٩٧٦– ٧٧). نشر أفكاره حول تسوية مع العرب عن طريق التفاهم مع الأردن، ونقل بعض مظاهر السلطة ومهماتها في الضفة الغربية إلى الحكومة الأردنية بشكل تدريجي وبواسطة الهيئات المحلية (صيف ١٩٧٨).

* **أفنيري، يوري** Avineri, Uri (١٩٢٣–): صحافي وكاتب وسياسي اسرائيلي. ولد في ألمانيا وهاجر إلى فلسطين وهو طفل. التحق بالأرغون وحارب في صفوف الهاغاناه في حرب ١٩٤٨، ثم انشقّ وأسس منظمة «كفاح» التي كانت تصدر مجلة بهذا الاسم. ترأس تحرير مجلة «هاعولام هازيه» وجعل منها منبراً لعرض أفكار حركة العمل السامي التي طالبت بالانفصال عن الماضي اليهودي في «الدياسبورا» والتفاهم مع العرب. ثم أسس «حركة القوة الجديدة» (هاعولام هازيه) وانتخب على لائحتها في الكنيست (١٩٦٥ و ٦٦)، إلا أنه فشل في انتخابات ١٩٧٤. الحل عنده بـ «اسرائيل بلا صهيونية»، وهو عنوان كتاب له يدعو فيه إلى قيام دولة فدرالية، علمانية، شرق أوسطية، عاصمتها القدس، وتضم دولتين: فلسطينية ويهودية.

* **العازر، دافيد** Elazar, D. (١٩٢٥– ١٩٧٦): عسكري صهيوني ولد في يوغوسلافيا وهاجر إلى فلسطين (١٩٤٠)، وانضم إلى البالماخ وقاد محاولتها احتلال القدس القديمة (١٩٤٨). عيّن قائداً لمدرسة المشاة، وكان على رأس القوات الاسرائيلية التي هاجمت قطاع غزة (١٩٥٦). وفي ١٩٥٩، عيّن نائباً لقائد سلاح المدرعات، ثم قائداً له (١٩٦١). رأس هيئة العمليات فرئاسة الأركان. شارك في تخطيط عدة عمليات اسرائيلية ضد حركة المقاومة الفلسطينية في لبنان. أظهرت حرب ١٩٧٣ عجزه عن إدارة دفة العمليات عندما تم استدعاء ستة جنرالات لمساعدته أثناء المعارك، وتمّ عزله (١٩٧٤) على اثر إدانته بالتقصير في تقرير لجنة «أغرانات». عيّن بعد ذلك رئيساً للشركة الاسرائيلية للملاحة «زيم»، حتى وفاته.

* **الموجي، جوزف** Almogi J. (١٩١٠–): سياسي صهيوني من أصل بولوني. هاجر إلى فلسطين (١٩٣٠) وشارك في النشاطات العسكرية والأمنية ضد العرب. عضو في قيادة الهاغاناه من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٩. وسكرتير عام لمجلس العمال في حيفا (١٩٤٥– ٥٩). وسكرتير عام للمباي. وعضو في القيادة التنفيذية للهستدروت من ١٩٥٩ إلى ١٩٦١. دخل الوزارة العمالية لأول مرة (١٩٦١) كوزير دولة، ثم كوزير للإسكان والتنمية (١٩٦٢– ٦٥). انضمّ إلى حزب العمال الاسرائيلي المنشق (رافي) ١٩٦٥، وانتخب نائباً على لائحته. عيّن وزيراً للعمل (١٩٦٨– ٧٤)، ثم انتخب رئيساً لبلدية حيفا (١٩٧٤)، ورئيساً للوكالة اليهودية في اسرائيل.

* **آلون، يغال** Allon, Ygal (١٩١٨–): سياسي صهيوني. ولد في فلسطين. عمل لحساب البريطانيين في سورية ولبنان. نائب قائد قوات البالماخ (١٩٤٣) ثم قائدها. لعب دوراً بارزاً في حرب ١٩٤٨. عارض الاتجاهات الماركسية في حزب المابام وانضمّ إلى حزب اتحاد العمل وانتخب عنه في الكنيست (١٩٥٤). وزير للعمل (١٩٦١). ثم نائب لرئيس الوزراء ووزير استيعاب المهاجرين اليهود الوافدين إلى فلسطين، ثم وزير التعليم والثقافة. نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية حتى قيام حكومة بيغن في ربيع ١٩٧٧. أكثر الزعماء الاسرائيليين ترويجاً لفكرة الحدود الآمنة غير الواضحة المعالم الحدودية، ولفكرة التنبه إلى تعاظم أعداد العرب في اسرائيل.

* **إلياف، آري** Eliav, Arie (١٩٢١–): سياسي صهيوني. سكرتير عام سابق لحزب هاعفودة العمالي. عضو الكنيست. ولد في موسكو وهاجر إلى فلسطين ١٩٢٤. التحق بالجيش البريطاني (١٩٤٠–

٤٥). نظم معسكرات اللاجئين اليهود في أوروبا (١٩٤٥-٤٧). عقيد في الجيش الاسرائيلي خلال حرب ١٩٤٨. مساعد وزير الزراعة، ثم مساعد وزير المالية، ثم سكرتير أول للسفارة الاسرائيلية في موسكو (١٩٥٨-٦٠). نائب وزير الهجرة والاستيعاب (١٩٦٩). استقال (١٩٧١)، ونشر كتاباً بعنوان «أرض الميعاد» حيث دعا إلى تفاهم القوميتين العربية والاسرائيلية على أساس قبول اسرائيل لإنشاء كيان فلسطيني يكون بمثابة جسر بين اسرائيل والعرب.

* **إيبان، أبا** Eban, Abba (١٩١٥-): سياسي صهيوني. ولد في جنوبي افريقيا. تلقى دراسته في الشؤون العربية والشرقية في جامعة كمبردج في بريطانيا، والتحق بالجيش البريطاني، ونقل إلى القاهرة بناءً على طلبه (١٩٤١) ليعمل في مكتب وزير الدولة البريطاني، وعمل كضابط اتصال بين بريطانيا والوكالة اليهودية. عقب اعلان الدولة اليهودية عيّن مندوباً لها في الأمم المتحدة حتى ١٩٥٩. انتخب عضواً في الكنيست عن حزب الماباي. وزير تعليم وثقافة (١٩٦٠). نائب رئيس الوزراء (١٩٦٣). وزير الخارجية (١٩٦٦-٧٣). نادى بقدر من المرونة في التعامل مع العرب.

* **بارليف، حاييم** Barlev, Haim (١٩٢٤-): سياسي صهيوني. وزير التجارة والصناعة ورئيس الأركان الاسرائيلية (١٩٦٧-٧١). ولد في فيينا (النمسا)، وهاجر إلى فلسطين ١٩٣٩. انضم إلى البالماخ وشارك في عملياتها في اخلاء السكان العرب بالقوة، وتولى قيادة إحدى الكتائب في النقب (١٩٤٨). رقي في مهمات ووظائف حتى أصبح رئيساً للأركان (١٩٦٨) حيث أشرف على إقامة التحصينات بمحاذاة قناة السويس عرفت باسمه (خط بارليف): خط دفاعي أقامته القيادة العسكرية الإسرائيلية على امتداد قناة السويس خلال المراحل الأولى من حرب الاستنزاف (١٩٦٩) في وجه أية محاولة مصرية لعبور قناة السويس. وكان هذا الخط يتألف من سلسلة مواقع أو نقاط عسكرية حصينة بلغ عددها نحو ٣١. لكن المصريين في حرب تشرين الأول/ أكتوبر (١٩٧٣) تمكّنوا من عبوره خلال ٦ ساعات. وصفه السياسي والقائد العسكري الاسرائيلي الشهير موشي دايان: «هذا الخط مثل قطعة من جبن الغرويير، فيها من الثقوب أكثر ما فيها من الجبن».

* **برغر، ألمر** Berger, E. (١٩٠٨-): حاخام وكاتب أميركي يهودي، مناهض للفكر الصهيوني. ساهم في تأسيس وقيادة المجلس الأميركي لليهودية بهدف التصدي لإنشاء الدولة الاسرائيلية. زار بلدان الشرق الأوسط (١٩٥٥). عن القدس قال: «أشعر شعوراً عميقاً مذلاً بالخجل من كوني يهودياً وان اسرائيل تضطهد اليهود أنفسهم». بعد حرب ١٩٦٧ جال في أوروبا، وزار بيروت. تعرّض لسخط الصهيونيين واسرائيل ما أدّى إلى استقالته من المجلس (١٩٦٨). له عدة مؤلفات.

* **برنشتاين، تسفي** Berustein, Z. (١٩١٤-): سياسي اسرائيلي. رئيس حزب مزراحي والحزب الديني الوطني في اسرائيل. عضو مجلس تحرير جريدة «هاتزوفيه». أمين صندوق المجلس اليهودي العالمي. ولد في ليتوانيا وهاجر إلى فلسطين (١٩٣٥).

* **بن أهارون، يتسحاق** Ben Aharon, Y. (١٩٠٦-): سياسي ونقابي صهيوني. ولد في النمسا وهاجر إلى فلسطين ١٩٢٨، وأسس كيبوتز غيفات حاييم وأصبح سكرتيراً لمجلس العمّال الصهيوني في تل أبيب. انتُخب نائباً في الكنيست (١٩٤٩-١٩٦٢). وزير النقل (١٩٥٩-٦٢). عاد إلى الكنيست (١٩٦٩) وتولى السكرتارية العامة للهستدروت (١٩٦٩-٧٣). طالب بالابتعاد عن المفهوم التوسعي الجغرافي لإسرائيل ودعا إلى التخلي عن بعض الأراضي العربية، ونادى بإمكانية قيام دولتين في فلسطين: واحدة عربية وأخرى اسرائيلية.

* **بنتوف، موردخاي** Bentov, M. (١٩٠٠-) سياسي وصحافي صهيوني. ولد في وارسو (بولونيا). هاجر إلى فلسطين (١٩٢٠). أسّس جريدة هامشمار وترأس تحريرها (١٩٤٣-٤٨). شارك في عدة مؤتمرات صهيونية. نائب في الكنيست منذ ١٩٤٩. وزير العمل (١٩٤٨-٤٩)، والتنمية (١٩٥٥-٦١)، والإسكان (١٩٦٦-٧٠). عضو في قيادة حزب المابام. له مؤلفات عديدة.

* **بن غوريون، دافيد** Ben Gurion, D. (١٨٨٦-١٩٧٣): زعيم صهيوني ورئيس وزراء ووزير دفاع في اسرائيل. ولد في بولونيا في بلدة بلونسك وكان اسمه دافيد غرين. درس التوراة والتلمود في المدارس الحاخامية وسمع عن ظهور «الماشيح المخلص» (أي المسيح) في شخصية ثيودور هرتزل. هاجر إلى فلسطين

١٩٠٦، وبدأ نشاطاً محموماً لإحياء اللغة العبرية. إبان الحرب، ذهب الى الولايات المتحدة حيث أسس «جماعة الروّاد». عاد إلى فلسطين (١٩١٨) فور انتهاء الحرب، وساهم في تأسيس الهستدروت وتولى رئاسته (١٩١٢-٣٢). وفي ١٩٣٠ ساهم في تأسيس حزب الماباي، وفرض نفسه زعيماً على الحركة الصهيونية في الثلاثينات بعد أن أخذ يعارض تدريجياً سياسة وايزمن. في ١٩٤٢ وضع برنامج بلتمور الذي تبنته الحركة الصهيونية، وفيه دعوة الدول لنقل رعاياتها للصهيونية إلى العمل على إنشاء اسرائيل. أعلن بنفسه قيام دولة إسرائيل (١٩٤٨) ونصح بعدم الإشارة إلى حدود هذه الدولة، وطالب بجعل القدس عاصمة لاسرائيل. تولى رئاسة الوزراء مرات عدة واضطرته فضيحة لافون إلى الاستقالة ١٩٥٥. استقال من حزب الماباي وأنشأ حزب «رافي» (١٩٦٥) مع عدد من أعوانه، أبرزهم موشي دايان، وشيمون بيريز. فاز بمقاعد في الكنيست، وما لبث أن استقال واعتزل السياسة.

دوره رئيسي وبارز في إنشاء دولة اسرائيل. حلّ كل المنظمات العسكرية الصهيونية بعد إعلانه قيام الدولة وحوّلها إلى «جيش الدفاع الاسرائيلي» وأولاه اهتمامه وشغل منصب وزير الدفاع في جميع الوزارات التي رأ سها كما شغلها أتباعه بعده. تحالف مع فرنسا (١٩٥٥)، وجدّد التحالف مع بريطانيا، وكان على رأس الحرب على مصر (١٩٥٦). آمن بتفوّق الشعب اليهودي، وضرورة طرد العرب من فلسطين. له عدة مؤلفات.

* **بوبر، مارتن** Buber, M. (١٨٧٨-١٩٦٥): فيلسوف يهودي صهيوني روحي انضمّ للحركة الصهيونية ١٨٩٨. لكنه ما لبث أن اختلف مع هرتزل الذي كان يتزعم الصهيونية السياسية المختلفة عن صهيونية بوبر الروحية. أسّس مجلة «اليهودي» (١٩١٦) وشرح فيها فلسفة الحوار الوجودية وموقفه الصهيوني. في العشرينات، ساهم في ترجمة التوراة إلى الألمانية، وهاجر إلى فلسطين (١٩٣٨) حيث أسس مع جودا ماغنيس جماعة ايحود التي كانت تطالب بدولة مزدوجة القومية في فلسطين. له مؤلفات عديدة.

* **بورغ، يوسف** Burg, J. (١٩٠٩-): سياسي صهيوني. ولد في ألمانيا. درس التوراة في برلين ولايبزغ. ترأ س مكتب الوكالة اليهودية في برلين (١٩٣٦)، وهاجر إلى فلسطين لينضم إلى قيادة حزب مزراحي والمجلس الصهيوني العام (١٩٣٩-٥٢). انتخب نائباً في الكنيست ونائباً لرئيسه (١٩٤٩-٥١)، ثم وزيراً للصحة (١٩٥١-٥٢)، وللبريد والتلغراف (١٩٥٢-٥٨)، ثم للضمان الاجتماعي (١٩٥٩-٧٠)، فوزيراً للداخلية (١٩٧٠-٧٦) فوزيراً للداخلية والبوليس (عن الحزب الديني القومي) في حكومة بيغن (١٩٧٦).

* **بيريز، شيمون** Perez, Sh. (١٩٢٣-): سياسي اسرائيلي. ولد في بولونيا. هاجر إلى فلسطين ١٩٣٤. انضم إلى الهاغاناه وقاد الوحدات البحرية الصهيونية في حرب ١٩٤٨. ترأس بعثة وزارة الدفاع الاسرائيلية في الولايات المتحدة (١٩٥٠) ودرس في جامعة هارفارد. مدير عام وزارة الدفاع (١٩٥٣-٥٩). نائب وزير الدفاع (١٩٥٩-٦٥). عضو في الكنيست وكان من مؤسسي حركة «رافي» بزعامة بن غوريون. مسؤول الشؤون الاقتصادية في المناطق التي احتلّتها اسرائيل في حرب ١٩٦٧. وزير للنقل والمواصلات (١٩٧٠). رشّح نفسه لخلافة غولدا مائير (١٩٧٣) في رئاسة الوزراء. خلف اسحق رابين في مناصبه الحكومية والحزبية بعد استقالة الأخير في ربيع ١٩٧٧. قاد حملة الانتخابات وفشل فيها ما أدّى إلى خروج حزبه (حزب العمل) من الحكم لأول مرة منذ تأسيس دولة إسرائيل إذ حلّ الليكود (بزعامة بيغن) في الحكم ابتداءً من حزيران ١٩٧٧.

منذ ١٩٧٤ حتى ١٩٩٢ يختصر سجله السياسي بأنه عبارة عن سلسلة متكررة من المشاحنات والصراع مع إسحق رابين. في ١٩٨٦، وقف كأول رئيس حكومة في إسرائيل أمام الكنيست ليقول: «أيها الفلسطينيون لن نستطيع أن نهزمكم كما ليس بإمكانكم هزيمتنا». فتأكد عند ذاك أنه الزعيم الاسرائيلي الذي أخذ على عاتقه مهمة جعل المصالحة مع الفلسطينيين رسالته الشخصية. لكنه كان يعرف (في ١٩٨٦) أن يديه مكبّلتان بالشراكة مع إسحق شامير في تقاسم الحكومة، وانه لا يستطيع القيام بأي مبادرة. وبدءًا من أيلول ١٩٩٣ (توقيع اتفاق غزة - أريحا)، أصبح بيريز، بصفته وزيراً للخارجية في حكومة اسحق رابين، يعتبر الصانع الحقيقي والملهم لأول اتفاق بين الاسرائيليين والفلسطينيين بعد مئة عام من الحروب المتواصلة.

* **بيغن، مناحيم** Begin, M. (١٩١٣): زعيم صهيوني. رئيس حزب حيروت والليكود. قائد سابق لمنظمة الارغون (حيث ارتبط اسمه بأعمال إرهابية).

مناحيم بيغن (الى اليمين) وأريل شارون

شيمون بيريز

رئيس وزراء اسرائيل (١٩٧٧- ٨٤). ولد في بريست ليتوفسك (بولونيا) لأب صهيوني قتله الألمان فترك ذلك أثراً عميقاً في نفسه. تخرّج في الحقوق من جامعة وارسو. انضم إلى منظمة بيتار (١٩٢٩) التي كانت تعد الشبيبة اليهودية للهجرة إلى فلسطين وتمجد العنف بتوجيه من جابوتنسكي زعيمها العقائدي. أوصله نشاطه إلى زعامة هذه المنظمة. في فترة ١٩٤٣- ١٩٤٨ مارس بيغن أشد الأعمال عنفاً ضد عرب فلسطين، وأحياناً ضد الإدارة البريطانية (نسف فندق الملك داود، مقر حكومة الانتداب - مذبحة دير ياسين). بعد قيام إسرائيل، أنشأ حزب حيروت، وتزعم المعارضة داخل الكنيست حتى ١٩٦٧. ازدادت قوته الانتخابية وانسحب من حكومة غولدا مائير بسبب قبولها مشروع روجرز (وزير الخارجية الأميركية) في آب ١٩٧٠، لمعارضته الانسحاب من الأراضي المحتلة إثر حرب ١٩٦٧. بعد حرب ١٩٧٣، وما أحدثته من مراجعات داخل الرأي العام الاسرائيلي وفي حسابات الدول (أخصّها الولايات المتحدة)، رأى بيغن (والليكود) انها الفرصة المؤاتية لاستلام السلطة. ونجح الليكود في انتخابات ١٩٧٧، وشكل بيغن الوزارة. وفي محاولات تحسين صورته العنفية، زار بلداناً غربية عدة حيث رافقه إعلام قدمه للرأي العام الدولي على انه رجل المرحلة القادمة على حل لقضية الصراع العربي - الاسرائيلي. لكن الكسب الأكبر له تمثّل في زيارة الرئيس المصري أنور السادات له في القدس وما نتج عنها من اتفاقيات برعاية من الرئيس الأميركي جيمي كارتر (اتفاقيات كامب دافيد). وثمة كسب إعلامي آخر تمثل بمنحه، مناصفة مع الرئيس المصري، جائزة نوبل للسلام. وعلى رغم فشله في بعض الأمور الداخلية (أزمات اقتصادية - الأسعار)، والخارجية (اجتياح لبنان، ١٩٧٨ و ١٩٨٢)، اعتبر بيغن انه من كبار السياسيين والحكّام الاسرائيليين الذين خدموا الأهداف الصهيونية.

* **تامير، شموئيل موشيه** Tamir, C.M. (١٩٢٣-): سياسي اسرائيلي. وزير العدل في حكومة بيغن. ولد في القدس ودرس الحقوق في جامعتها. لاحقته السلطات الانتدابية البريطانية بسبب نشاطه قبل ١٩٤٨. شارك في تأسيس حركة حيروت (١٩٤٨). انتخب ممثلاً لهذه الحركة في الكنيست (١٩٦٥). وفي ١٩٦٦ انشقّ عن حيروت وأنشأ حزب المركز الحر على أثر خلافات مع بيغن. في صيف ١٩٧٣، انضم إلى الليكود (كتلة نيابية انتخابية تنادي بإنشاء «اسرائيل الكبرى»، وبعدم الانسحاب من أي شبر من الأراضي العربية المحتلة). بعد ١٩٧٣، انقلب على نفسه وأخذ ينادي بالاعتدال؛ وفي ١٩٧٧ انسحب من الليكود وانضمّ إلى الحركة الديمقراطية للتغيير بزعامة يغال يدين، وانتخب عضواً في الكنيست التاسع على لائحتها. ثم وزيراً للعدل.

* **تيكواه، يوسف** Tekoah, Y. (١٩٢٥-): دبلوماسي إسرائيلي. درس في جامعة هارفرد. مدير شؤون الهدنة بوزارة الخارجية (١٩٤٩- ٥٧). مثل حكومة إسرائيل في مجلس الأمن وعمل كمندوب إسرائيل الدائم في الأمم المتحدة (١٩٥٨- ٦٠) و (١٩٦٨- ٧٥). سفير في البرازيل والاتحاد السوفياتي. رئيس جامعة بن غوريون منذ ١٩٧٥.

* **جابوتنسكي، فلاديمير** Jabotinsky, V. (١٨٨٠- ١٩٤٠): زعيم صهيوني متطرف وقائد حركة الصهيونيين التنقيحيين. ولد في روسيا. شارك في المؤتمرات الصهيونية. انتقل إلى استانبول حيث تولى مسؤولية الصحافة الصهيونية (١٩٠٩- ١٩١١). وشارك في تأسيس الصندوق القومي اليهودي والفيلق اليهودي. أصبح عضواً في الهيئة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية (١٩٢١) وعمل على محاربة البلاشفة. في ١٩٢٥ أسّس اتحاداً عالمياً للتنقيحيين (اليهود المصطفين) لاتهامه القيادة الصهيونية بالمساومة والتخاذل. كما أسّس في الثلاثينات منظمة عمالية صهيونية تنافس الهستدروت من مواقع مؤيدة للرأسمالية لإقامة مجتمع صهيوني رأسمالي. اشتهر بتمجيد القوة، وباعتمادها في مواجهة العرب.

* **دايان، موشي** Dayan, M. (١٩١٥-): عسكري وسياسي إسرائيلي صهيوني بارز. ولد في دجانيا (فلسطين). انضم إلى الهاغاناه وتعلّم في مدرسة كبار الضباط في بريطانيا. عمل مع المخابرات البريطانية حتى ١٩٤٤. في حرب ١٩٤٨ قاد القوات الصهيونية في وادي الأردن. قائد منطقة القدس أثناء الحصار العربي. مثل إسرائيل في مفاوضات رودس. بعد ١٩٥٠، تولى رئاسة المخابرات العسكرية، في ١٩٥٢، رئيس أركان الجيش، وقام بتدبير عمليات ضد مصر وسورية ولبنان (١٩٥٥) وتولى قيادة حملة سيناء في حرب ١٩٥٦. نائب (١٩٥٥) ووزير الزراعة. وزير الدفاع (١٩٦٦- ٧٤)، وأشهر عسكري إسرائيلي في حرب ١٩٦٧ حتى أصبح رمزاً للجيش الإسرائيلي. تولى إدارة المناطق العربية

المحتلة في حرب ١٩٦٧، وتبنى سياسة الجسور المفتوحة مع الأردن. وجهت له انتقادات عقب حرب ١٩٧٣ ولم يشترك في وزارة رابين. استقال من حزب العمل بعد

موشي دايان

انتخابات ١٩٧٧. وزير الخارجية في حكومة بيغن، ولعب دوراً نشيطاً في اتفاقيات كامب دافيد وقيادة المفاوضات حتى توقيع معاهدة الصلح مع مصر. اختلف مع بيغن في موضوع الحكم الذاتي (١٩٧٩) متهماً إياه بالتشدد، فاستقال من وزارة الخارجية.

• **دوري، يعقوب** Dori, Y. (١٨٩٩–):
جنرال إسرائيلي وأول رئيس أركان في الجيش الإسرائيلي. رئيس سابق لمعهد «تخنيون» (المعهد التكنولوجي الإسرائيلي) في حيفا. ولد في حيفا. التحق بالفرقة اليهودية (١٩١٨). درس الهندسة (١٩٢٢– ٢٦). الرجل الثاني في قيادة الهاغاناه وقائداً لها في حيفا. رئيس الأركان العامة للهاغاناه حتى ١٩٤٧. رئيس الأركان العامة للجيش (١٩٤٨– ١٩٤٩). رئيس قسم الأبحاث العلمية والتنمية (١٩٥٠).

• **رابين، إسحق** Rabin, Y. (١٩٢٢–):
عسكري وسياسي إسرائيلي صهيوني بارز. ولد في القدس. انضم إلى البالماخ منذ تكوينها وعمل مع دايان. درس في كلية الأركان في بريطانيا وتخرج منها (١٩٥٤)، وتولى إدارة التدريب في الجيش الإسرائيلي. تولى القيادة الشمالية (١٩٥٦– ٥٩)، وانتقل بعدها إلى هيئة الأركان. ولمع اسمه في حرب حزيران (١٩٦٧) وعيّن سفيراً في واشنطن تمهيداً لتوليه رئاسة الوزراء. اشترك في حرب ١٩٧٣، وبعدها عيّن وزيراً للعمل في حكومة غولدا مائير. رئيس الوزراء (١٩٧٤). معروف عنه أنه من أنصار السياسة الأميركية. استقال من رئاسة حزب العمل، على أثر ارتباط اسمه بفضيحة مالية، لمصلحة شيمون بيريز، وذلك في الفترة القصيرة السابقة للانتخابات التي دفعت بتجمع ليكود إلى السلطة (١٩٧٧).

في ١٩٧٧، كانت حكومة رابين تواجه عدداً من المصاعب الداخلية، ما أدّى إلى الإجهاز عليها بعد اكتشاف «الحساب السري» لزوجته في الولايات المتحدة. إثر ذلك صعد شيمون بيريز إلى قيادة الائتلاف العمالي لكنه هزم في الانتخابات أمام مناحيم بيغن.

انتقل إسحق رابين إلى المعارضة، لكنها معارضة تبحث باستمرار عن نقاط الالتقاء مع اليمين الليكودي. ولم يكن غريباً أن يحصل ذلك في مناسبة كمب ديفيد، ولكن الغريب أنه حصل في خلال الغزو الإسرائيلي للبنان. وفي هذا المجال يعترف رابين بما يذكره مؤرخو تلك المرحلة من أنه كان قريباً جداً من الجنرال شارون، لا بل إنه المسؤل عن «نصيحة» هذا الأخير بفرض الحصار الغذائي على بيروت (غزو ١٩٨٢)، وهو صاحب العبارة الشهيرة «إن قصف بيروت أربعاً وعشرين ساعة يومياً لا يمنعني من النوم».

أصبح رابين وزيراً للدفاع في حكومات «الوحدة الوطنية» المتعاقبة منذ ١٩٨٤ حتى ١٩٨٨. وكان من

إسحق رابين

الواضح أنه أقرب إلى إسحق شامير منه إلى شيمون بيريز، وأنه الوزير العمالي الأكثر شعبية لدى أنصار ليكود. تولى المواجهات الأولى ضد الانتفاضة الفلسطينية واعداً نفسه وجمهوره بإنهائها خلال أيام. ولما بدا له الأمر أصعب، لم يتورع عن مطالبة الجنود بـ«تحطيم الأيدي والأرجل»، وهذا ما حصل قبل أن يدخل تعديلاً على موقفه وبشكل يغلّب الدعوة إلى القمع العنيف على أساس أن الحل الفعلي والنهائي لا يمكن أن يكون إلا حلاً سياسياً. وهذا الحل السياسي هو الذي كان دافعاً لانتقاء رابين رئيساً للحكومة بعد أن كانت بدأت المفاوضات العربية – الإسرائيلية. وهو، إذ صعّد القمع ضد الفلسطينيين، فإنه فتح ثغرة في التصلب الأعمى الذي كان شامير يدعو إليه ويمارسه. وفعل رابين ذلك كسباً لود الولايات المتحدة وتجديداً لعلاقات الثقة بينها وبين إسرائيل. لقد نزع عن المفاوضات البعد الايديولوجي «الليكودي» ليتمسك، بتعنت شديد، بالجانب الأمني ويعتبره الحد الذي لا تنازل بعده.

إسحق رابين ضد «السلام بأي ثمن»، وضد «التسرع في التفاوض». لكنه، في الأخير وقّع اتفاق غزة – أريحا في واشنطن (١٣ أيلول ١٩٩٣) مع الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات.

* **روتشيلد** Rotshild: أشهر العائلات اليهودية المصرفية في العالم. نشأت في فرانكفورت في القرن السادس عشر. أثرى عميدها ماير روتشيلد من اشتغاله بالعملة أثناء حروب الثورة الفرنسية. تفرّق أبناؤه الخمسة وأسسوا أعمالهم في خمسة بلاد أوروبية مختلفة وأصبحوا شخصيات مهمة في عالم المال والسياسة فاحتلوا المقاعد النيابية وموّلوا عملية شراء بريطانيا لأسهم قناة السويس، وبعض الأحزاب، ونشاط المستوطنين اليهود في فلسطين في أواخر القرن التاسع عشر. ووعد بلفور وُجه بصيغة رسالة إلى اللورد ليونيل والتر روتشيلد. وعلى رغم تناقص أهمية عائلة روتشيلد بظهور النظام المصرفي الرأسمالي الحديث وانقراض نظام التجارة والربا القديمين فإن عائلة روتشيلد لا تزال مهمة في عالم المال والمصارف. وقد لعب أفرادها دوراً في مؤتمر المليونيريين اليهود الذي عقد في إسرائيل (في السبعينات) لدعم الدولة الإسرائيلية.

* **سابير، بنحاس** Sapir, Pinhas (١٩٠٩– ١٩٧٥): سياسي صهيوني بارز. ولد في بولونيا. هاجر إلى فلسطين ١٩٢٩. انضم إلى الماباي (١٩١٨) والهاغاناه. وزير التجارة، ثم وزير الصناعة، ثم وزير المالية (١٩٦٣–٦٨). ترك المنصب الأخير لمدة عام إثر انتخابه سكرتيراً عاماً لحزب العمل ثم عاد بعد ذلك إلى وزارة المالية. وكان في عداد المرشحين لتولي رئاسة الوزراء بعد مائير. اشتهر باعتداله السياسي إذ عارض ضم الأراضي العربية المحتلة في حرب ٦٧، لكنه كثيراً ما كان يقرن هذا الاعتدال بمبرر عنصري وهو ضرورة إبقاء العنصر اليهودي غالباً في إسرائيل. انتخب (١٩٧٤) رئيساً للوكالة اليهودية وللمنظمة الصهيونية العالمية.

* **ساسون، إلياهو** Sasson, E. (١٩٠٢–): دبلوماسي وسياسي صهيوني. ولد في دمشق وتعلم في كلية القديس يوسف (اليسوعية) في بيروت. تولى رئاسة تحرير صحيفة «الحياة» الدمشقية اليهودية، وهاجر إلى فلسطين (١٩٢٧). في ١٩٣٣ أصبح رئيساً للقسم العربي في الوكالة اليهودية، واستمر فيه حتى ١٩٤٨. وبعدها ترأس قسم الشرق الأوسط في الخارجية الإسرائيلية ووقّع على اتفاقية رودس للهدنة مع مصر. وزير البريد (١٩٦١– ٦٧). ووزير البوليس (١٩٦٧– ٦٩).

* **سبيسر، إلياهو** Speiser, E. (١٩٣٠–): سياسي إسرائيلي صهيوني. أحد أقوى قادة حزب العمل. ولد في حيفا وانضم إلى التنظيمات العسكرية الصهيونية. بدأت حياته السياسية (١٩٦٢). عمل على بناء قاعدة قوية له داخل الهستدروت. نائب في الكنيست (١٩٧٧). وقف مع بيريز ضد كتلة يغال ألون وإسحق رابين. تمكن من استقطاب قادة اليهود الشرقيين، وعزي إليه الفضل في تغلب بيريز على رابين في قيادة الحزب (مؤتمر ١٩٨٠).

* **سينه، موشي** Sneh, Moshé (١٩٠٩– ١٩٧٢): زعيم الحزب الشيوعي الإسرائيلي «ماكي» (ذي الميول الصهيونية) ورئيس تحرير صحيفته اليومية وممثله في الكنيست. ولد في بولونيا، وترأس اللجنة المركزية للمنظمة الصهيونية البولونية (١٩٣٥– ٣٨). عمل ضابطاً في الجيش البولوني. هاجر إلى فلسطين (١٩٤٠)، وقاد الهاغاناه – ١٩٤٠– ٤٦). انضم إلى حزب المابام وبقي فيه (١٩٤٨– ٥٢). انضم إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي (١٩٥٤). في ١٩٦٥، نجح هو وميكونس في شق الحزب الشيوعي الإسرائيلي احتجاجاً على موقف الحزب المعادي من الصهيونية، وسمي جناحه

«ماكي» بينما انضوت أغلبية الشيوعيين الإسرائيليين تحت إسم «راكاح». وبفضل مساعدة السلطات تمكن من الاستيلاء على صحيفة الحزب ومؤسساته.

* **شاحاك، اسرائيل** Shahak, I. (١٩٣٣ –): مفكر وحركي تحرري يهودي. ولد في بولونيا. قضى ٣ سنوات في معسكرات الاعتقال النازية. هاجر إلى فلسطين (١٩٤٥). أستاذ في الجامعة العبرية بعد نيله الدكتوراه في الكيمياء (١٩٦٣). اتخذ مواقف معادية للصهيونية بعد حرب ١٩٦٧، وانضم إلى رابطة الدفاع عن حقوق الإنسان في إسرائيل، ودافع عن السجناء العرب. انتخب (١٩٧٠) رئيساً لهذه الرابطة. له كتاب «عنصرية دولة إسرائيل» الذي ترجم إلى عدة لغات.

* **شارون، أريبل** Sharon, A. (١٩٢٨ –): عسكري وسياسي إسرائيلي صهيوني بارز. عضو الكنيست عن تحالف ليكود. شارك في نشاط الهاغاناه ثم في حرب ١٩٤٨، ثم رأس قوة كوماندوس خاصة لمقاومة الفدائيين العرب. اشترك في حرب ١٩٥٦، ثم في حرب ١٩٦٧ حيث قاد المجموعة التي استولت على ممر متلة. وبعدها عيّن قائداً للمنطقة الجنوبية حيث عمل على إجلاء المئات من بدو رفح. لمع اسمه في حرب تشرين – أكتوبر ١٩٧٣ بعد انهيار خط بارليف عندما قام بقيادة القوات الإسرائيلية بفتح ثغرة في الدفاعات المصرية (الدفرسوار). استقال من الجيش، وأصبح نائباً عن تكتل ليكود. عيّنه رابين مستشاراً عسكرياً له مسؤولاً عن مكافحة الإرهاب. أعيد انتخابه في انتخابات ١٩٧٧، وعيّن وزيراً للزراعة والاستيطان في حكومة بيغن الأولى. وتميزت فترة وجوده على رأس وزارة الاستيطان بتسريع برنامج الاستيطان الإسرائيلي في الأراضي العربية المحتلة. وبعد انتخابات ١٩٨٠، عيّن وزيراً للدفاع فكان المهندس الأول لعملية غزو لبنان (صيف ١٩٨٢). أقيل من وزارة الدفاع بسبب مسؤوليته عن مجزرة صبرا وشاتيلا (مخيمان فلسطينيان في بيروت) المروعة التي أرعبت صورها العالم، بل ودفعت أكثر من ربع مليون إسرائيلي إلى التظاهر في شوارع تل أبيب مطالبين بمعاقبة الجاني. وفي ١٣ شباط ١٩٨٣، تألفت لجنة التحقيق الإسرائيلية الخاصة وقدمت مطالعتها حول «مسؤولية شارون هذه»، وطلبت من شارون الاستقالة من وزارة الدفاع؛ فاستقال، وبقي وزيراً من دون وزراة. استمر شارون رجلاً سياسياً مطالباً بالاستيطان وبطرد الفلسطينيين إلى خارج أرض إسرائيل الكبرى.

* **شاريت، موشيه** Sharett, M. (١٨٩٤–١٩٦٥): زعيم صهيوني ومن قادة الدولة الإسرائيلية في مرحلة نشوئها. ولد في روسيا وهاجر إلى فلسطين (١٩٠٦) واستقر في قرية فلسطينية حيث تعلم اللغة والعادات العربية. تطوع في الجيش التركي في الحرب العالمية الأولى. ذهب إلى لندن وتتلمذ على يد هارولد لاسكي (١٩٢٠). ترأس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية (١٩٣١–٤٨)، وعيّن وزير خارجية إسرائيل. استقال (١٩٥٦) بسبب فضيحة لافون. عرف عنه اعتداله في مسألة استخدام القوة ضد العرب ما أدّى إلى خلاف بينه وبين بن غوريون. له عدة مؤلفات.

* **شـازار، زلمان** Shazar, Z. (١٨٩٦–١٩٧٤): راجع المعالم التاريخية، رئاسة الدولة الإسرائيلية.

* **شامير، إسحق**: صهيوني متطرف، شارك في أعمال إرهابية ضد الفلسطينيين، وأحياناً البريطانيين، قبيل إعلان دولة إسرائيل، ولاحقته سلطات الانتداب البريطانية بتهمة تخطيطه وتنفيذه لعدد من العمليات الإرهابية، واستمر اسمه «مطلوباً» على لائحة دوائر الأمن البريطانية. خاض غمار السياسة، وأصبح قيادياً في تكتل ليكود، ومقرباً من مناحيم بيغن ووزيراً في حكومته. خلف بيغن في رئاسة الحكومة (١٩٨٣)، ثم تناوب على رئاسة حكومة ائتلافية (ليكود – العمل) مع شمعون بيريز. كان رئيساً للحكومة في افتتاح المفاوضات العربية – الإسرائيلية في مدريد (١٩٩١). تشدّده في المفاوضات خلق ظروفاً، بدعم واضح من الولايات المتحدة، أبعدته وتكتل ليكود، عن الحكومة لمصلحة حزب العمل، فخلفه إسحق رابين.

* **غاليلي، إسرائيل** Galili, I. (١٩١٠ –): أحد زعماء حزب الاتحاد والعمل. من مواليد روسيا، جاء إلى فلسطين طفلاً وشارك في الحركات الاستيطانية وفي الهاغاناه. نائب وزير الدفاع عقب إعلان دولة إسرائيل. عضو الكنيست. أحد الأركان المقربين لغولدا مائير، والمتحمسين لسياسة الاستيطان وشراء الأراضي العربية في المناطق التي احتلت (١٩٦٧) وإنشاء المستعمرات العسكرية فيها. وهذه السياسة متجسدة في «وثيقة غاليلي» التي اعتمدتها قيادة حزب العمل قبل حرب ١٩٧٣، والتي لخصها أحد أقطاب حزب العمل

الحاكم آنذاك، آرييه إلياف، بأنها «وثيقة الضم الزاحف». توصي هذه الوثيقة بخلق وضع مشابه للوضع في جنوب أفريقيا: دمج اقتصادي لعمال الأراضي المحتلة الفلسطينيين في سوق العمل الإسرائيلية دون أن يطال هذا الدمج الناحية الاجتماعية. وعلى الصعيد السياسي، تسعى إسرائيل لإقامة وجود عسكري واستيطاني في الضفة الغربية. وقد أقيمت عملياً، المستوطنات على طول «الخط الأخضر» الفاصل من أجل خلق أمر واقع يسمح لاحقاً بإجراء تعديل على الحدود في حال التوصل إلى تسوية للصراع العربي الإسرائيلي ومن أجل الفصل جغرافياً بين المناطق العربية المحتلة عام ١٩٤٨ وتلك المحتلة عام ١٩٦٧. وبالإضافة إلى ذلك فقد أقيمت المستوطنات على طول ضفة نهر الأردن بغية الاستفادة من الأراضي الزراعية الخصبة.

* **غوردون، أهارون دافيد** Gordon, A.D. (١٨٥٦–١٩٢٢): ايديولوجي صهيوني من منظري الصهيونية العمالية ومن أهم من دعا اليهود إلى العمل الزراعي والاستيطان في فلسطين وطرد شعبها العربي. ولد في أوكرانيا وتلقى تعليماً دينياً، وتعرف على جماعة أحباء صهيون في مطلع القرن وهاجر الى فلسطين (١٩٠٤).تطلق على افكاره عبارة «دين العمل» أو «اقتحام العمل». يرفض دياسبورا اليهود، ويرفض اندماجهم، ويدعو إلى الهجرة إلى فلسطين وتكوين أمة عبرانية واعتبار العمل اليدوي القومي قيمة إبداعية وأخلاقية من خلاله يصار إلى بعث الأمة اليهودية.

* **غولدمان، ناحوم** Goldman, N. (١٨٩٥–١٩٨٢): زعيم صهيوني ومؤسس المؤتمر اليهودي العالمي. ولد في روسيا واعتنق الصهيونية وهو يافع، وحصل على الدكتوراه في القانون من ألمانيا، وحاول جذب اهتمام الحكومة الألمانية في الحرب العالمية الأولى نحو إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين تحت رعاية ألمانيا، ومن ثم إقامة علاقة طيبة بالزعيم الفاشي موسوليني الذي بارك جهود غولدمان في تأسيس المؤتمر اليهودي العالمي في ١٩٣٦. حضر جميع المؤتمرات الصهيونية منذ ١٩٢١، وحصل على الجنسية الأميركية في ١٩٤٠، وتولى رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية منذ ١٩٥٦ حتى ١٩٦٨، وأصبح مواطناً إسرائيلياً في ١٩٦٤. تولى مهمة التوصل إلى اتفاقية التعويضات الألمانية لأسر اليهود الذين قتل ذووهم في معسكرات الاعتقال النازية، ولكن التعويضات الرئسية والبالغة حوالي أربعة بلايين دولار ذهبت للدولة الصهيونية علاوة على مبالغ أخرى ذهبت للأفراد.

وعلى الرغم من صهيونيته ودوره الهام في تدعيم الاستيطان الصهيوني في فلسطين، اصطدم غولدمان بين غوريون الذي أصر على إدانة كل يهودي لا يعود إلى «أرض إسرائيل»، وذلك لأن غولدمان لا يرى ضرورة ذلك وإن كان يتبنى مركزية إسرائيل في حياة اليهود. ومن هنا، عمل غولدمان على تحسين أحوال الأقليات اليهودية في العالم مع تمسكه بحق اليهود في التمتع بازدواج الولاء الحضاري للبلد الذي يعيشون فيه. وأخذ ينبه في أواخر أيامه إلى ضرورة اعتماد المرونة في اتجاه الاعتراف بحقيقة وجود الشعب الفلسطيني والتخفيف من الاعتماد المبالغ به على القوة العسكرية، وفي الاتجاه لإنجاز صيغ للتعايش مع الدول العربية المجاورة من ضمن الوصول إلى تسوية سلمية في الشرق الأوسط، الأمر الذي حال دون تجديد انتخابه رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية في العام ١٩٦٨. وقبيل وفاته، اتخذ موقفاً معارضاً لحكومة الليكود ولسياستها الاستيطانية في الأراضي المحتلة وحربها ضد لبنان (صيف ١٩٨٢). وقد موّل، من جيبه الخاص، العديد من المجلات والدوريات الفكرية اليهودية التي كانت تشجع على الاتصال بمنظمة التحرير الفلسطينية. وكان آخر نشاط سياسي علني قبل موته هو توجيه نداء مع صديقه الرئيس الفرنسي الأسبق بيار منديس فرانس وفيليب كلوتزنيك لإيقاف الغزو الإسرائيلي للبنان والتفاوض مع الفلسطينيين. من أهم كتبه: «سيرة ذاتية» (١٩٧٠)، و «إلى أين تذهب إسرائيل؟» (١٩٧٥).

أما «**مشروع ناحوم غولدمان**» فيتضمن عدة مقترحات لحل المشكلة الفلسطينية. وهو كناية عن مجموع ما كتبه، في هذا الصدد، غولدمان في مجلات غربية وإسرائيلية. وشكلت هذه المقترحات خروجاً واضحاً على السياسة الإسرائيلية الرسمية، وقوبلت باستهجان الأوساط الصهيونية العالمية المرتبطة بالحكومة الإسرائيلية. من أهم مقترحات هذا المشروع:

١– إعلان حياد إسرائيل وانسحابها من الأمم المتحدة كدليل على خروجها من دائرة الصراع بين مختلف الكتل الدولية.

٢– إيجاد قوات دولية رمزية على حدودها (حدود ٤ حزيران ١٩٦٧ ما عدا غزة) بحيث يعتبر أي اعتداء ضدها اعتداء على الدول الضامنة لحيادها.

٣– عدم تجريدها من القوة العسكرية إلا إذا ثبتت فعالية الضمانات الدولية.

٤- عدم تحولها إلى عائق أمام وحدة العالم العربي.

٥- تأمين حل لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين بتوطينهم في الضفة الغربية والأردن وضم قطاع غزة إلى إسرائيل شرط الاعتراف بالمساواة الكاملة بين سكانه العرب والإسرائيليين.

٦- التأكيد على وحدة مدينة القدس مع اعتماد القسم اليهودي منها فقط عاصمة لإسرائيل، إذا ما دعت الحاجة لذلك.

٧- اعتبار منح اللاجئين حرية الاختيار بين العودة والتعويض أكثر الحلول فاعلية، على أن تؤخذ بعين الاعتبار المسائل الأمنية والاستيعاب الاقتصادي. واقتراح منح اللاجئين الفلسطينيين الذين يفضلون العيش في الدول العربية تعويضات مالية كبيرة.

٨- الحصول على ضمانات من الدول الكبرى لفرض هذا الحل.

لم يقدّر لهذا المشروع أن يتحقق بسبب المعارضة الصهيونية العنيفة له وعدم ترحيب الدول العربية به. وقد دفع الموقف العدائي للحكم الإسرائيلي من آراء غولدمان بهذا الأخير إلى التخلي تدريجياً عن تفاؤله بإيجاد حل لمشكلة الصراع العربي - الصهيوني وتوقع نهاية مأسوية لدولة إسرائيل.

* **فلنر، ماير** Vilner, M. (١٩١٨-): سكرتير المكتب السياسي للحزب الشيوعي الإسرائيلي «راكاح» وعضو الكنيست عنه. ولد في بولونيا (بولندا)، وهاجر إلى فلسطين (١٩٣٨)، ودرس في الجامعة العبرية في القدس، وساهم في تأسيس الحزب الشيوعي الإسرائيلي (١٩٦٥)، ترأس الأكثرية التي نظمت نفسها تحت إسم «راكاح». رأى في الصهيونية حركة متعصبة. أدان عدوان ١٩٦٧، واعترف بشرعية المقاومة الفلسطينية. عرّضته مواقفه لحملة صهيونية ولمحاولة اغتيال عن طريق طعنه بسكين، وبرأت المحكمة الجاني بدعوى أنه تحرك بدوافع وطنية.

* كاتزير، أهارون Katzir, A. (١٩١٦ -): راجع المعالم التاريخية، رئاسة الدولة الاسرائيلية

* **كاهانا، مائير** Kahana, Meir (١٩٣٣ -): رجل دين يهودي وسياسي صهيوني تبنى أطروحات فكرية وسياسية شديدة التطرف خصوصاً على صعيد الصراع العربي - الإسرائيلي والموقف من العرب داخل إسرائيل. ولد في الولايات المتحدة، وتلقى تعليمه في مدرسة دينية يهودية، الأمر الذي أتاح له أن يصبح حاخاماً في ما بعد. تأثر في مطلع شبابه بأفكار جابوتنسكي. في بداية الستينات عمل كمخبر لدى جهاز «الأف بي آي» الأميركي. وفي ١٩٦٨، أنشأ «عصبة الدفاع اليهودي» في نيويورك التي ضمت متطرفين مدربين على حمل السلاح وإلقاء المتفجرات، وشمل نشاطها الأوساط الأميركية المناوئة لإسرائيل وحركات الزنوج الأميركيين والدبلوماسيين السوفيات والعرب وسائر الدبلوماسيين المؤيدين للقضايا العربية. هاجر إلى إسرائيل (١٩٧١) واحتفظ بجنسيته الأميركية. في ١٩٧٢ أسس حركة جديدة أطلق عليها إسم «كاخ» التي تعني «هكذا» أو «هذا هو الطريق»، وهذه المنظمة مسؤولة عن عدد كبير من عمليات العنف والإرهاب بحق الفلسطينيين ومؤيديهم. في تموز ١٩٨٤، انتخب كاهانا نائباً في الكنيست بعد فشله في ثلاث دورات انتخابية سابقة. أبرز أطروحاته دعوته لأن تكون «أرض إسرائيل من الفرات إلى النيل»، واعتباره أن تعايش العرب واليهود في إسرائيل أمر مستحيل نظراً للتناقض المطلق بين الشعبين. لذلك دعوته إلى طرد العرب من إسرائيل. اغتيل في الولايات المتحدة.

* **لافون، بنحاس** Lavon, Pinhas (١٩٠٤- ١٩٧٦): من زعماء الصهيونية العمالية. استوطن فلسطين منذ ١٩٢٩. سكرتير حزب الماباي، وانتخب (١٩٤٩) سكرتيراً عاماً للهستدروت وعضواً في الكنيست (١٩٤٩- ١٩٦١). وزير الزراعة في حكومة بن غوريون (١٩٥٠- ١٩٥٢). وزير الدفاع (١٩٥٣- ٥٤) حين أخذت إسرائيل في الاتجاه إلى الاعتماد على السلاح الفرنسي. استقال في ١٩٥٥ بسبب فضيحة عرفت باسمه، وهي فضيحة إسرائيلية سياسية واستخباراتية كبرى وقعت في ١٩٥٤ أثناء تولي بنحاس لافون وزارة الدفاع، وكان لها أكبر الأثر في الصراع على السلطة بين أقطاب حزب العمل الإسرائيلي.

بدأت وقائع هذه الفضيحة في منتصف شهر تموز ١٩٥٤ عندما أصدرت قيادة المخابرات الإسرائيلية أوامرها إلى بعض عملائها في مصر، ومعظمهم من اليهود المصريين، بالقيام بأعمال تخريبية ضد بعض المنشآت الأميركية والبريطانية في مصر وذلك بهدف توتير العلاقات المصرية الأميركية وعرقلة انسحاب بريطانيا من القناة وزعزعة الثقة بنظام الحكم المصري المنبثق من ثورة الضباط الأحرار (١٩٥٢). إلا أن السلطات المصرية اكتشفت المخطط قبل استكماله وألقت

القبض على الجواسيس وأعدمت بعضهم، الأمر الذي أثار ضجة في إسرائيل (أفرج الرئيس المصري محمد أنور السادات عن آخر هؤلاء الجواسيس غداة زيارته للقدس في تشرين الثاني ١٩٧٧).

سارع بن غوريون ومعاونوه (دايان وبيريز) إلى عرقلة مساعي لجنة التحقيق لمعرفة الجهة التي خططت للعملية. وحينما طالب لافون بتقوية سلطات وزير الدفاع، رفض طلبه، فاستقال ممهداً بذلك لعودة بن غوريون إلى الحياة السياسية في ١٩٥٥. وفي ١٩٦٠، طالب لافون بتبرئته من جديد لظهور معلومات عن قيام خصومه بتزوير الوثائق والادلاء بشهادات كاذبة. فشكلت لجنة انتهت تحقيقاتها إلى تبرئة لافون، ولكن بن غوريون كان قد نجح في طرد لافون من سكرتيرية الهستدروت وفي حماية أنصاره في المخابرات، الأمر الذي أدّى في النهاية إلى استقالة بن غوريون في ١٩٦٣، وانشقاقه عن الماباي وتكوين حزب في ١٩٦٥. وقد اضطر اشكول إلى تبرئة لافون في رسالة مقتضبة حفاظاً على تماسك الحركة العمالية الإسرائيلية.

* **لاندو حاييم** Landau, Hayeem (١٩١٦ -): من زعماء منظمة «أتسيل» الصهيونية. عضو اللجنة التنفيذية في حزب «حيروت» اليميني وممثله في الكنيست منذ تأسيس الكنيست. ولد في أوستراليا وهاجر إلى فلسطين (١٩٣٥). شارك وقاد عمليات ضد العرب في منطقة حيفا والجليل، اتسمت بالعنف والإجرام حتى ان السلطات البريطانية كانت تنفي كل عضو من هذه المنظمة (أتسيل)، التي كان لاندو أحد قادتها، إلى جنوب أفريقيا، إذا وقع بين يدي قواتها. مثل لاندو حزب حيروت في حكومة «الاتحاد الوطني» التي ألّفها ليفي أشكول في حزيران ١٩٦٧، فتسلم فيها وزارة الإنماء.

* **لوز، كاديش** Luz, Kaddish (١٨٩٥ - ١٩٦٨): ضابط سابق في الجيش الروسي وأحد قادة منظمة «الهاغاناه» وعضو في الكنيست ورئيسه الرابع. ولد في روسيا. هاجر إلى فلسطين في ١٩٢٠. كان ممن ساهموا في تأسيس منظمة الهاغاناه في فلسطين التي سبق أن تكونت في دول أوروبا الشرقية ونمت بعد الثورة الروسية، ثم بدأت بدفع الشباب الصهيوني للهجرة إلى فلسطين، ومن بينهم كان لوز. بين ١٩٢١ و١٩٤٨، شارك في العديد من المؤتمرات الصهيونية العالمية ممثلاً لحزب العمال (ماباي) ولمنظمة الهاغاناه.

* **ليشنسكي، يوسف** Lestschinsky, Y. (١٨٩٠ - ١٩١٧): يهودي فلسطيني وقائد صهيوني. ولد في المطلة (فلسطين). تطلع، منذ طفولته، لحمل السلاح كطريق لتحقيق حلم صهيون وإقامة الدولة اليهودية. خدم في منظمة الحراس «هاشومير» التي تأسست في الجليل. ثم أسّس منظمة حرّاس مسلحين من أبناء المستوطنات اليهودية أطلق عليها إسم «هانوتير» (الناطور)، وفرضت هيمنتها على المستوطنات اليهودية الصغيرة الواقعة جنوبي فلسطين.

في ١٩١٥، قام الزعيم الصهيوني أهارون أهارونسو، الذي كان يعمل كمدير لمحطة التجارب الزراعية الأميركية في عتليت، بتأسيس أول منظمة مخابرات صهيونية لمساعدة الانكليز خلال الحرب العالمية الأولى في الحصول على معلومات أمنية عن مراكز وحشودات القوات العثمانية في فلسطين. وأطلق عليها إسم «نيلي»، وهو اختصار لعبارة عبرية هي «نيتسح يسرائيل لو يشوكار» التي تعني «انتصار إسرائيل حتمي». وكان يوسف ليشنسكي من أوائل الأعضاء الذين انضموا إلى المنظمة المذكورة.

في هذه الأثناء، قام ليشنسكي بإحدى أجرأ عمليات التجسس لصالح الانكليز عندما ذهب إلى حيفا لمقابلة الصهيوني ابراهام كرينسكي الذي كان يدير في حينه مصنعاً لقذائف المدفعية التي تباع للأتراك بهدف تحديد مكانه لتقوم الطائرات البريطانية بقصفه. ولكن المعلومات التي جمعها عن مصنع القذائف في حيفا لم تصل إلى قيادة القوات البريطانية في القاهرة، بل سقطت في يد والي قيسارية التركي، عندما هبطت حمامة غير مدربة جيداً بين طيوره فضبطها وعثر في ذيلها على الرسالة، وعلى معلومات تتعلق بأسماء غالبية أعضاء منظمة «نيلي» واسم ليشنسكي بينها. وقد تأكدت القيادة التركية أنها إزاء منظمة مخابرات صهيونية خطرة، فقامت بحملات مداهمة اجتاحت خلالها غالبية المستوطنات الصهيونية في فلسطين، واعتقلت عدداً كبيراً من سكانها، كما قامت بطرد عدد كبير من سكان مدينة تل أبيب اليهود الذين أجلوا إلى مصر بواسطة السفن.

ثار غضب سكان المستوطنات اليهودية على أفراد منظمة «نيلي»، وقرروا تسليمهم إلى السلطات العثمانية، بينما اعتبرت منظمة هاشومير أفراد «نيلي» خارجين على قانون الحركة الصهيونية وطالبت بإعدامهم.

وقد تمكن ليشنسكي من الوصول إلى الجليل حيث اتصل ببعض أفراد منظمة هاشومير. لكنهم بدل أن يستقبلوه، كما كان يأمل، أطلقوا عليه النار لقتله، إلا أنه

لم يصب وفرّ باتجاه مستوطنة بيتاح تكفا. وبينما كان يهم بسرقة جمل من راعي فلسطيني قرب النبي روبين، قبضوا عليه وسلّموه إلى والي مدينة الرملة التركي الذي نقله إلى دمشق حيث جرت محاكمته بتهمة الخيانة العظمى وإدانته بالإعدام مع نائبه نعمان بلكيند، ونفذ الحكم في ١٦ كانون الأول ١٩١٧ وسط ساحة المرجة في دمشق.

بعد دخول الانكليز إلى فلسطين في أواخر ١٩١٧، أصبح قادة المشروع الاستيطاني الصهيوني يعتبرون ليشنسكي أحد أبرز القادة الذين عملوا من أجل المشروع. وفي ١٩٧٧، تقدم أولاد ليشنسكي من رئيس الحكومة الإسرائيلية، مناحيم بيغن، بطلب نقل جثمان والدهم من المقبرة اليهودية في ريشون لتسيون إلى المقبرة العسكرية في القدس، باعتباره أحد أبطال التاريخ الصهيوني.

* **ليفي، دافيد** Levy, D. (١٩٣٧-): سياسي إسرائيلي. ولد في الرباط وهاجر إلى إسرائيل في ١٩٥٧. انخرط في صفوف العمل النقابي وأصبح عضواً في الهستدروت. أيّد بيغن وعارض هيمنة حزب العمال على الهستدروت، ثم التحق بتكتل ليكود الذي نجح في استقطاب اليهود السفارديين الذين مكّنوه من تحقيق النصر في انتخابات ١٩٧٧ النيابية. وزير، ثم نائب رئيس الوزراء في ١٩٨١. نافس شامير على زعامة الليكود. شغل في حكومة الائتلاف الوطني التناوبية (بين بيريز وشامير) منصب وزير الإسكان ونائب رئيس الوزراء، فعمل على المضي في سياسة الاستيطان في الأراضي المحتلة (الضفة الغربية).

غولدا مائير

* **ليفينغر، موشي** Lewinger, M. (١٩٣٩-): سياسي وحاخام إسرائيلي وأحد رواد «غوش إمونيم» اليمينية المتطرفة. ولد في القدس. في ١٩٦٨، عارض بشدة فكرة إعادة الأراضي التي احتلتها إسرائيل في حرب ١٩٦٧، ودعا إلى ضم الضفة الغربية. وفي ١٩٨٢، شنّ حملة عنيفة ضد الحكومة الإسرائيلية احتجاجاً على إعادة سيناء لمصر. اعتقل في أيار ١٩٨٤، لثبوت مسؤولياته عن أعمال إرهابية ذهب ضحيتها فلسطينيون في الأراضي المحتلة.

* **مائير، غولدا** Meir, G. (١٨٩٨- ١٩٧٨): سياسية صهيونية إسرائيلية. رئيسة الوزراء (١٩٦٩- ١٩٧٤). ولدت في روسيا وكان اسمها غولدا مايرسون مايوفيتش. هاجرت مع عائلتها (١٩٠٦) إلى الولايات المتحدة، وانضمت إلى حزب عمال صهيون (١٩١٥). هاجرت إلى فلسطين (١٩٢١) حيث نشطت للعمل في حركة الكيبوتز، وانتخبت في ١٩٣٤ عضواً في قيادة الهستدروت، وتولت في مرحلة لاحقة رئاسة الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية.

قامت أثناء حرب ١٩٤٨ بجمع ٥٠٠ مليون دولار من يهود الولايات المتحدة لشراء أسلحة ومعدات قتالية للتنظيمات الصهيونية. عينت أول سفيرة لإسرائيل في موسكو في أعقاب إعلان الدولة الصهيونية. وفي العام التالي، عينت وزيرة للعمل (١٩٤٩- ٥٦) عن حزب الماباي. وفي ١٩٥٦ غيّرت اسمها عندما أصبحت وزيرة للخارجية (١٩٥٦- ١٩٦٦)، انتخبت سكرتيرة لحزب الماباي وعارضت بن غوريون بشأن قضية لافون. وبعد حرب حزيران ١٩٦٧، تولت منصب السكرتير العام لحزب العمل الإسرائيلي الموحد. وبعد وفاة إشكول (١٩٦٩) تولت رئاسة الوزراء، وشكلت بعد انتخابات ذلك العام حكومة «الوحدة القومية»، وأولت تطوير العلاقات مع أفريقيا وتوثيق التحالف مع الولايات المتحدة اهتماماً خاصاً. اشتهرت مائير بتشددها مع العرب والتمسك بالأراضي العربية المحتلة في العام ١٩٦٧، وبانكارها وجود الشعب الفلسطيني، وقلقها الشديد إزاء تزايد الفلسطينيين. وعلى الرغم من تمتعها بشعبية واضحة في صفوف الإسرائيليين، فإن حرب تشرين الأول ١٩٧٣ زعزعت مكانتها وأدّت في النهاية إلى استقالتها في ١٩٧٤. خلفها في رئاسة الحكومة إسحق رابين لمدة ثلاث سنوات، انتقل الحكم بعدها

(١٩٧٧) إلى الليكود.

* **نافون، إسحق** .Navon, Y (١٩٢١-): راجع المعالم التاريخية، رئاسة الدولة الإسرائيلية.

* **هرتزل، تيودور** .Hertzel, T (١٨٦٠- ١٩٠٤): مؤسس الحركة الصهيونية الجديدة. ولد في مدينة بودابست وانتقل إلى فيينا واستقر بها واشتغل بالصحافة. في ١٨٩٦، وضع مؤلفاً باللغة الألمانية بعنوان «الدولة اليهودية» ضمنه القواعد التي تقوم عليها الصهيونية في صورتها الجديدة التي تهدف إلى جمع اليهود في دولة خالصة لهم، واستغل في دعوته قضية الضابط اليهودي الفرنسي درايفوس الذي اتهم بالخيانة (١٨٩٥) وحكم عليه بالسجن في جزيرة الشيطان، ثم برئ بعد ذلك.

بدأ هرتزل نشاطه بالدعوة إلى عقد مؤتمر يضم ممثلين لليهودية الأوروبية في مدينة بازل السويسرية في ١٨٩٧. وعقد المؤتمر بالفعل، وانتخب هرتزل رئيساً له، فرئيساً للمنظمة الصهيونية، وأصدر المؤتمر ما عرف باسم «برنامج بازل» الذي تضمن محاولة الحصول على موافقة دولية بمشروعية الهجرة اليهودية الجماعية إلى فلسطين لبناء دولة يهودية خالصة. وتوالى بعد ذلك انعقاد المؤتمر الصهيوني في كل عام برئاسة هرتزل، وتضامن عدد من الكتاب اليهود لمناصرته هرتزل في دعوته، منهم ماكس نوردو، وإسرائيل زانجويل.

حاول هرتزل تذليل العقبات في سبيل تحقيق هدفه الأول بمحاولة الحصول على موافقة الحكومة العثمانية على فتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين والسماح للمهاجرين بامتلاك الأرض وإقامة المنشآت. فسافر مرتين إلى اسطنبول (١٩٠١- ١٩٠٢)، وحظي بمقابلة السلطان عبد الحميد الثاني الذي رفض بعناد كل محاولة وإغراء في هذا الشأ ن. كما قابل البابا للغرض نفسه. وفشلت محاولة أخرى قام بها بمساعدة سلطات الاحتلال البريطاني في مصر بفتح أبواب شبه جزيرة سيناء للهجرة اليهودية. ومن ثم عرض أمام المؤتمر الصهيوني السادس المنعقد في ١٩٠٣ تحويل الأنظار عن فلسطين وسيناء إلى مستعمرة أوغندا البريطانية. ولكن المؤتمرين رفضوا المشروع ملتزمين بضروة إقامة الوطن اليهودي الصهيوني على أرض فلسطين دون غيرها. وكانت بدأ ت محاولات لتوطين اليهود في أميركا الجنوبية كالأرجنتين بعد أن دعمت هذه المحاولات تبرعات سخية من أثرياء اليهود مثل مونتفيوري وهيرش. توفي هرتزل في بلدة أولاخ، ونقلت رفاته بعد ذلك إلى فلسطين (إ سرائيل).

* **هيرتزوغ، حاييم** .Hertzog, H (١٩١٨ -): راجع المعالم التاريخية، رئاسة الدولة الإسرائيلية.

* **وايزمن، حاييم** .Weizmann, H (١٨٧٤- ١٩٥٢): راجع المعالم التاريخية، رئاسة الدولة الإسرائيلية.

* **وايزمن، عازر** .Weizmann, E: راجع المعالم التاريخية، رئاسة الدولة الإسرائيلية.

	مرتفعات الجولان	قطاع غزة	الضفة الغربية
عدد السكان العرب	١٥٣٠٠	٧٥٠٠٠٠	٩١٥٠٠٠
عدد المستوطنين اليهود	١٠٦٠٠	٣٠٠٠	٧٨٦٠٠

غزة – أريحا

سبق بداية الجولة الحادية عشرة (آخر آب ١٩٩٣) من مفاوضات السلام العربية – الاسرائيلية حديث الكونفدرالية الأردنية – الفلسطينية. وزامن هذه البداية حديث أزمة مالية خانقة تعيشها منظمة التحرير الفلسطينية حتى انها اضطرّت إلى إيقاف رواتب عديدين من موظفيها وعناصرها. ثم فجأة، وبعد يومين من هذه البداية، برز حديث الاتفاق بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية حول «غزة – أريحا»، ما لبث أن توّج هذا الاتفاق بتبادل الاعتراف، رسمياً، بين الطرفين (اسحق رابين وياسر عرفات) في ١٠ أيلول ١٩٩٣، ثم بالتوقيع عليه في ١٣ أيلول ١٩٩٣ في واشنطن وبرعاية الرئيس الأميركي.

هذا الحدث التاريخي البالغ الأهمية والخطورة والذي يحتل، في هذه الأيام، المرتبة الأولى في اهتمامات دول المنطقة والعالم وفي علاقاتها، تجري فصوله الأولى في حين يأخذ هذا الجزء الأول من الموسوعة طريقه إلى الطبع. نستلحق الحديث بخرائط وصور مزيلة بكلامها وتحتل صفحات تالية بعد التعريف بغزة وأريحا، وتأريخ يومي ١٠ و١٣ أيلول ١٩٩٣، ومناقشة أولية للاتفاق.

غزة

تقع على البحر المتوسط. تحتلّ المدينة وقطاعها مساحة من الأرض تبلغ وفقاً لمصادر الإحصاء العربية ٣٦٨كلم^2 والاسرائيلية ٣٦٢كلم^2، ويتخذ القطاع شكل شريط بري مستطيل بعرض ٨كلم وطول ٤٥كلم.

قبل ١٩٤٨، كانت غزة كغيرها من المناطق الفلسطينية تضم نواحي وقرى زراعية متوسطة الكثافة السكانية. وكانت المدينة تعيش من نشاطات مرفئها أساساً ومن الصيد البحري والمنتجات الزراعية. لم يكن عدد سكانها يتعدى مئة ألف نسمة في ذلك الحين، ولم تكن أرضاً للجوء الفلسطينيين بعد. وكانت تربطها علاقات وثيقة مع النواحي المصرية المحاذية لها وخصوصاً مدينة العريش.

انقلب مصير هذه المنطقة الهادئة رأساً على عقب بعد حرب ١٩٤٨ وعلى أثر سقوط فلسطين بأيدي الصهيونيين. فلجأ إليها عشرات الآلاف من الفلسطينيين الذين تركوا قراهم ومدنهم. ويقدر عدد هؤلاء بـ٢٠٠ ألف نسمة أي ما يعادل ضعفي سكّان القطاع. وقد عاش اللاجئون، بأكثريتهم الساحقة، منذ ذلك الحين، في ثمانية مخيّمات تمتد من شمال القطاع حتى جنوبيه. وبالرغم من اختيار قسم من اللاجئين العيش خارج المخيّمات، فإن هؤلاء لم يجتاحوا التجمّعات السكنية لأهالي غزة الأصليين الذين انحصروا أساساً في مدن القطاع الثلاث وهي غزة وخان يونس ورفح.

بين ١٩٤٨ و١٩٨٧ (تاريخ اندلاع الانتفاضة الفلسطينية) تضاعف عدد سكان غزة حتى وصل إلى ما يقارب ٧٠٠ ألف نسمة. وتعتبر هذه النسبة بين الأكثر ارتفاعاً في العالم وهي شبيهة بنسبة مسجّلة في هونغ كونغ وكلكوتا في الهند أو في الضاحية الجنوبية لبيروت الغربية. وتضخمت المخيمات بفعل الاكتظاظ السكّاني خلال سنوات الاحتلال ولم يعد معروفاً أين تبدأ وأين تنتهي، وتداخلت بعض المخيّمات بالمدن وأحياناً بعضها ببعض. وتجمع وسائل الإعلام الغربية وبعض الشهود العيان على أن هذا الواقع أدّى في بعض الحالات إلى أن تضطر أُسر مؤلفة من ٢٠ فرداً للعيش في غرفتين أو ثلاث. أما الخدمات فإنها كانت وما زالت غير متناسبة مع حجم السكّان (سرير واحد لكل ألف نسمة في المستشفيات).

بمقابل النمو السكّاني الكثيف في القطاع اتبعت اسرائيل سياسة مصادرة للأراضي الخصبة وبناء مستوطنات زراعية. وتشير الاحصاءات الاسرائيلية إلى وجود ١٨ مستوطنة في القطاع يسكنها ٢٥٠٠ نسمة وتسيطر وحدها على ٣٠٪ من أراضي غزة. وإذا ما أضفنا إلى ذلك الأراضي التي صادرها الجيش الاسرائيلي لأعمال التدريب والقواعد العسكرية يصل الرقم إلى ٤٨٪ من الأراضي التي تشرف عليها الدولة العبرية في القطاع مقابل ٥٢٪ للفلسطينيين.

ولمراقبة سكّان غزة وضبطهم كرّست اسرائيل جيشاً كاملاً من ١٥ ألف جندي وأقامت سواتر ترابية عالية على حدود المخيّمات وفي مواجهتها، وبنت أبراجاً حول هذه السواتر لمراقبة حركة السكّان، ما جعل القطاع عبارة عن معسكر اعتقال ضخم ربّما هو الأول من نوعه في الشرق الأوسط. واستخدمت اسرائيل قوانين مختلفة موروثة من الانتداب البريطاني قبل ١٩٤٨ والإدارة المصرية قبل ١٩٦٧، فضلاً عن الأوامر العسكرية الصادرة عن وزارة الدفاع الاسرائيلية ابتداءً من العام المذكور (حرب حزيران). ومن بين هذه الأوامر: ١) يمنع التجمّع في الأماكن العامة لثلاثة أشخاص وما فوق، ٢) يمنع استبدال الأشجار غير المثمرة بأشجار مثمرة، ٣) تمنع زراعة المانغا والأفوكا للحؤول دون منافسة الانتاج الاسرائيلي، ٤) يمنع الصيد في البحر خلال أوقات معينة تحددها الإدارة العسكرية، ٥) يمنع حفر الآبار الأرتوازية، ٦) يمنع ارتداء الملابس التي تحمل ألوان العلم الفلسطيني: أسود، أبيض، أحمر، أخضر. بالإضافة إلى ذلك، كانت الإدارة العسكرية تعلن حظر التجول بطريقة كيفية واعتباطية وتسيّر دوريات على مدار الساعة في كل نواحي ومدن القطاع.

في ظل هذه الظروف كان على الأهالي أن يحصّلوا رزقهم من خلال العمل في اسرائيل حيث تشير الإحصاءات المتداولة إلى أن ما يقارب ٤٥ ألف فلسطيني كانوا يتوجّهون يومياً للعمل في اسرائيل بشروط مجحفة وغالباً بالسر من دون الإفادة من ضمانات العمل المرعية في البلاد. وبالنظر إلى ضيق فرص العمل في غزة نفسها فقد درج خرّيجو الجامعات، وهم أحياناً من الأطبّاء والمهندسين والمحامين، على العمل في اسرائيل في مجالات البناء والتنظيفات لتحصيل ما يكفي لمعيشة أهلهم وأسرهم، وكان على هؤلاء أن يعودوا إلى القطاع قبل مغيب الشمس ويحظر عليهم المبيت في اسرائيل.

في هذا المجال أيضاً، تشير الاحصاءات الاسرائيلية إلى أن نصف سكان غزة كانوا عاطلين عن العمل قبل الانتفاضة في حين ان عنصر الشباب كان قد نما بوتيرة كثيفة خلال فترة الاحتلال بحيث صارت نسبة الفتيان ممن لا تتجاوز أعمارهم ١٨ سنة تتعدى ٦٠٪ من مجموع السكان. فكانت غزة قبل الانتفاضة الفلسطينية تشبه «طنجرة ضغط» معرّضة لنار حامية ومؤهلة للانفجار في أي وقت.

وقع الانفجار في ٩ كانون الأول ١٩٨٧ في مخيم جباليا في غزة حين دهست شاحنة اسرائيلية مجموعة من الشبّان الفلسطينيين. منذ ذلك الوقت انفجرت غزة

ومعها بطبيعة الحال كل الأراضي المحتلة، وسيحمل هذا الانفجار إسم «انتفاضة الحجارة». وحصيلة الانتفاضة في غزة ثقيلة للغاية. فقد سقط حتى الآن أكثر من ألف شهيد وعشرات الآلاف من الجرحى بينهم الآلاف ممن يحتفظون بجروح وعاهات دائمة. لكن الحصيلة الأهم تكمن في تحوّل غزة إلى منطقة عصية على الاحتلال تكره اسرائيل العيش فيها ويحلم رئيس الوزراء الاسرائيلي بإلقائها في البحر.

تفسيرات عديدة أُعطيت لانفجار غزة من بينها نمو التيار الأصولي فيها ممثلاً بحركة المقاومة الإسلامية (حماس) وحركة الجهاد الإسلامي وغيرهما من الفرق الصغيرة الأخرى. واعتبر النمو السكّاني (٤,٨٪) مسؤولاً بنسبة كبيرة عن تغلغل الأصوليين في صفوف الشبّان العاطلين عن العمل والمحبطين بسبب تراجع اليسار وضعف منظمة التحرير الفلسطينية. لكن الأمر المؤكّد هو أن غزة ستحتل موقعاً مركزياً منذ ١٩٨٧ وحتى اللحظة الراهنة سواء في المجابهة مع اسرائيل أو في المفاوضات السلمية حيث اختير الغزاوي حيدر عبد الشافي لمواجهة الاسرائيليين حول طاولة المفاوضات.

مع «خيار غزة وأريحا أولاً» (شعار الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات – أبو عمار)، لن تكون غزة عاصمة موقتة للحكم الذاتي الفلسطيني وإنما أريحا التي يعتبرها الاسرائيليون كالقدس في أساطيرهم، وهي في كل الحالات ستكون أهدأ من غزة التي سرعان ما سيكتشف أبو عمار ان تحررها من الاحتلال الاسرائيلي سيزيدها غلياناً (فيصل جلول، مجلة «الوسط»، العدد ٨٤، تاريخ ٦ أيلول ١٩٩٣، ص ١٩).

وما يمكن إضافته إلى هذا التعريف بغزة وتأريخها في المرحلة الحالية:

– تذكّر غزة بفلسطين أكثر مما تذكر بها أية مدينة أخرى: بعد ١٩٤٨، سقطت فلسطين تحت الاحتلال، أما ما تبق (الضفة الغربية) فصارت جزءًا من الأردن، فيما ظلت غزة وحدها تحمل اسم فلسطين، ولهذا كان الناس يحرصون عند كتابة رسائلهم أن يكون عنوانهم دائماً فلسطين – قطاع غزة.

– أولى العمليات الفدائية انطلقت من غزة في سنوات الخمسينات الأولى. ردود الفعل الاسرائيلية كانت عنيفة، ولعلّ أهمها الغارة على محطة السكك الحديد في المدينة، حيث تمكنت القوات الاسرائيلية من القضاء على كتيبة مصرية كاملة. هذه الحادثة ستكون فاصلة في تاريخ غزة وفي تاريخ المنطقة. ففي أعقابها خرجت المظاهرات الصاخبة تطالب بالسلاح وبحماية حقيقية للقطاع. والناس الذين قاوموا مذبحة شباط ١٩٥٥، هم أنفسهم الذين تصدّوا بعد ذلك لمشروع التوطين في آذار من العام نفسه. كان المشروع يهدف إلى ترحيل سكان القطاع إلى صحراء سيناء، وكانت الحكومة المصرية قد وقّعت عليه بالأحرف الأولى. وفجأة انفجر قطاع غزة كله، من رفح جنوباً حتى بيت حانون شمالاً. الجيش الذي تمترس في الشوارع الجانبية فاجأ الناس بالرصاص قرب سينما «السامر»، وهناك سقط حسين بلال، واضطرّ «مجلس قيادة الثورة» في مصر إلى إلغاء المشروع علناً. وتلك الأيام، بتظاهراتها وتضحياتها كانت المقدمة الحقيقية لتجربة المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي، والذي جاءت به حرب السويس ١٩٥٦، وهي مقاومة نظمتها وقادتها «الجبهة الوطنية المتحدة» التي تشكلت فور احتلال القطاع من الأحزاب والشخصيات الوطنية المستقلة.

– في ٧ آذار ١٩٥٧، أفاق الناس على وجود قوات الطوارئ الدولية، وزوال الاحتلال: جنود من السويد والدانمارك وكولومبيا والبرازيل ويوغوسلافيا، ومعهم قرار من الأمم المتحدة بتدويل القطاع، وتعيين مساعد الأمين العام للأمم المتحدة رالف بانش، السويدي الجنسية، حاكماً دولياً عاماً عليه.

– ومن ٧ آذار حتى ١٤ منه، عاشت غزة أسبوعاً من التظاهرات الصاخبة التي راحت تطالب بإلغاء قرار التدويل وعودة الإدارة المصرية. وفي سرايا الحكومة أنزل المتظاهرون علم المنظمة الدولية ورفعوا بدلاً منه علم فلسطين، فأطلق جنود قوات الطوارئ الرصاص على محمد مشرف الذي سقط من فوق سارية العلم.

– أما السنوات العشر من ١٩٥٧ حتى ١٩٦٧، فكانت سنوات الكدّ الفلسطيني في اتجاهين: البحث عن مصادر الرزق في الدول العربية وخصوصاً في الخليج، والبحث عن الهوية وطريق الخلاص.

وبدأت المحاولات الأولى لتأسيس أندية تنظيمية سياسية، فازدحمت المدارس بالحزبيين وبنشاط الأحزاب. وتلك كانت أيام التبشير بنشاطات «فتح» الأولى، السياسية أولاً، ثم العسكرية. وهي نشاطات كانت تستدعي استنفار السلطة الناصرية التي راحت تلاحق نشطاء «فتح» بالاعتقال والشائعات التي حاولت اتهامهم بالعمالة لجهات مختلفة. «حركة القوميين العرب»، التي كانت تحظى بشعبية مميزة في غزة، كانت في تلك الأيام تعيش صراعها المعروف حول الموقف من الكفاح المسلّح، وهو صراع شهد تنافس تيارين، دعا أولهما إلى ممارسته، فيما أعلن التيار الثاني انه

صغار غزة يكشفون على اصابة رفيق لهم

بقايا قصر هشام في أريحا

في سوق أريحا

العلم الفلسطيني مرفوعاً (بعد تبادل الاعتراف بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية وتوقيعهما اتفاق غزة – اريحا) على فندق قصر هشام الذي يتوقع ان يصير مقر منظمة التحرير في أريحا

مستوطنة اسرائيلية في أريحا

مع ممارسة محدودة بالتنسيق مع الحكومة المصرية. وقد اشتهر من صراعات تلك الأيام شعار التيار الثاني «فوق الصفر، وتحت التوريط»، في إشارة إلى خشية أنصاره من توريط عبد الناصر في حرب مبكرة لم يستعد لها.

واستدعى نشاط الأحزاب السياسية أنشطة ثقافية في أوساط الشباب، فصدرت جريدة «أخبار فلسطين» الأسبوعية برئاسة تحرير زهير الريّس، وكتب فيها المعروفون من كتّاب تلك الأيام، فيما اهتمّت بنشر أخبار القطاع والنشاطات الرسمية والاجتماعية وبعض التحليلات السياسية. لكنها في ذلك كله خضعت لرقابة مباشرة من «إدارة الحاكم العام لقطاع غزة»، فظلت في صورتها العامة صورة مشوّهة وقاصرة عن صحف مصر الناصرية.

عام ١٩٦٤، شهد ولادة منظمة التحرير بقرار من القمة العربية. جاء أحمد الشقيري إلى غزة فاستقبله الناس على طول الطريق، وعقد مهرجانات خطابية في مختلف مدن القطاع داعياً إلى تأسيس المنظمة. وبعدها بقليل، تشكّلت في الأحياء والمخيّمات «مراكز التنظيم الشعبي الفلسطيني» على أمل أن تكون قاعدة جماهيرية للمنظمة، غير انها جاءت هي الأخرى تشكيلاً فوقياً ضم مناصري السلطة والدائرين في فلكها، وهو التشكيل الذي جعل المنظمة، على رغم نوايا الشقيري، كياناً معزولاً لا يخلق تلاحماً حقيقياً مع الناس.

والخاتمة الطبيعية لذلك كله كانت هزيمة مدوية، سقط خلالها ما تبقى من فلسطين: الضفة الغربية بما فيها القدس وقطاع غزة، لتبدأ مرحلة تيه جديد (راسم مدهون، «الحياة»، تيارات، العدد ٢٣، تاريخ ١١ أيلول ١٩٩٣).

أريحا

يعتبر مؤرخون أن أريحا من أقدم مدن العالم إن لم تكن أقدمها، ويرجعون أصلها إلى العصر الحجري، ويقدّرون عمرها بسبعة آلاف سنة على الأقل. وأصلها كلمة «يريحو» الكنعانية التي تعني القمر أو مكان الروائح العطرية. وعلى رغم انخفاضها ٣٩٢ متراً عن سطح البحر، فإنها عبارة عن واحة خضراء تخترقها السيول وتكثر فيها عيون الماء. في الرواية الدينية اليهودية أن يوشع بن نون أسقط أسوارها بحملة عسكرية لم تتكرر، هي النفخ بالبوق؛ وفي الإنجيل أن السيد المسيح مرّ بها بعد أن تعمّد في نهر الأردن في طريقه إلى القدس.

وأريحا مدينة فلسطينية صغيرة في الضفة الغربية. تبعد ٣٧كلم عن القدس و ١٠٠كلم عن غزة، ومنعزلة نسبياً عن بقية التجمعات السكانية في الضفة الغربية. بُنيت على أكثر بقاع الأرض انخفاضاً عن سطح البحر. وتعتبر من أكبر مدن الضفة الغربية من حيث المساحة، إذ تساوي مساحة أراضيها تلك التي تضمها منطقة الخليل تقريباً أي ٢٥كلم^{٢} أو ٢٢٠ ألف دونم. وبُنيت عليها مستوطنات يهودية ثلاث هي «فيريد بريمو» و«اليشع» و«نعما». وهناك ١٣ مستوطنة إسرائيلية أخرى في منطقة أريحا الممتدة من البحر الأحمر جنوباً (١٨كلم عن مدينة أريحا) إلى الخان الأحمر غرباً ونابلس شمالاً.

يقدّر باحثون عدد سكان منطقة الغور التي تضم مدينة أريحا وحوالي ١٣ قرية وخربة بحوالي ٣٠ ألف نسمة، من بينهم ١٦٧٠٠ في مدينة أريحا في مقابل ١٠٩٣ في العام ١٩٢٢. ووصل إليها في عام ١٩٤٨ حوالي ٧٢ ألف لاجئ، لكن غالبيتهم فرّت منها في ١٩٦٧، ولم يبق فيها سوى ٤٧٠٠ لاجئ في مخيمين تابعين لوكالة غوث اللاجئين، هما عين السلطان وعقبة جبر.

اقتصادياً، تعتمد مدينة أريحا على العمل في مستوطنات الخان الأحمر اليهودية وفي الزراعة المتميزة والناجحة لوفرة مياه المكان وحرارة المناخ، وعلى السياحة خصوصاً. ففيما عدا السياح الفلسطينيين الذين يعتبرون أريحا مشتاهم الوحيد، فإن السياح الأجانب يمرون بها في طريقهم إلى بيسان، إضافة إلى كونها منطقة حدودية مع الأردن، وهي المعبر الرئيسي الذي يسلكه عشرات الآلاف من الفلسطينيين إلى الأردن. وما زالت المدينة تعتمد، في شكل رئيسي، على السياحة لآثارها التي تضم قصر هشام بن عبد الملك، ودير القرنطل، وعين السلطان، وقمران، إضافة إلى البحر الميت. لكن سياحها اقتصروا على الأجانب من غير العرب منذ العام ١٩٦٧ عندما وقعت تحت الاحتلال وهجرها روادها من الدول العربية في فصول الشتاء. ومع بداية الانتفاضة أغلق معظم فنادق أريحا ومطاعمها لتعود وتفتح مجدداً بعدما هدأت وتيرة الانتفاضة.

لم يكن لأريحا موقع مميز على الخريطة السياسية الفلسطينية في يوم من الأيام. إن ما يزال البعض يتذكره كحدث مهم مرتبط بها هو المؤتمر الذي عقد فيها بإشراف الملك عبد الله (١٩٤٨) في وقت كان اللاجئون الفلسطينيون يتدفقون عليها من كل صوب. ففي الأول من كانون الأول ١٩٤٨، أي بعد حوالي سبعة أشهر على إعلان قيام إسرائيل، جمع الملك عبد الله مؤيديه من القيادة التقليدية برئاسة رئيس بلدية الخليل آنذاك الشيخ محمد علي الجعبري تحت إسم «المؤتمر الفلسطيني الثاني»،

واتخذ المؤتمرون قرارات تدعو إلى وحدة شرق الأردن وفلسطين تحت تاج الملك عبد الله، وتبعها إلحاق الضفة الغربية بشرق الأردن. ومن المفارقات التي يلاحظها المطلعون على تلك الفترة أن المؤتمر اعتبر أن «فلسطين وحدة لا تتجزأ وكل حل يتنافى مع ذلك لا يعتبر حلاً نهائياً». وقد عقد هذا المؤتمر في فندق يقع وسط المدينة يطلق عليه «القصر الشتوي»، لكنه بات مهجوراً شبه مهدّم منذ وقعت المدينة في أيدي الاحتلال.

وحدث آخر مرتبط بأريحا أيضاً يتذكره الفلسطينيون والعرب اليوم في سياق ما يستشعرونه من مرارة وألم وحس بالهزيمة، وما يجرونه من نقد ومراجعة للمرحلة السابقة. وهذا الحدث هو الخطاب الذي ألقاه الرئيس التونسي السابق الحبيب بورقيبة في أريحا في ٣ آذار ١٩٦٥ أثناء جولة قام بها في الشرق الأوسط. وقد قوبل يومها بعاصفة من التنديد والتخوين، ذلك لأنه كان يدعو إلى الإعراض عن سياسة «المطالبة بالكل أو لا شيء». ومما جاء في الخطاب:

«كيف يكتب النجاح لزعيم إذا اتهمه الناس بالخيانة وبأنه عميل للاستعمار لأول بادرة تصدر عنه قصد إخراج مشكلة عربية من مأزق وقعت فيه، كأن يقترح حلاً وقتياً غير كامل، أو الدخول في مفاوضات مع الخصم تمهيداً للظفر بالحل الكامل. وبدل أن يلقى التفهم لخطته والانصياع لما تشير به المصلحة، يقابله الناس بمهاترات ومزايدات لا تغني عن الواقع شيئاً (...) إن كفاحنا في تونس لم ينجح في بضع سنين إلا لأننا أعرضنا عن سياسة «المطالبة بالكل أو لا شيء»، واعتبرنا كل خطوة نخطوها أداة تقربنا من هدفنا الذي بقينا متمسكين به وهو الاستقلال. وتجزئة كفاحنا إلى مراحل سهّلت على فرنسا نفسها التنازل، وجعلتها ترضى بقبول اجتياز مرحلة محدودة في كل مرة، باعتبارها أخف الضررين بالنسبة إليها (...) إننا لو رفضنا الحلول المنقوصة مثلما رفض العرب الكتاب الأبيض والتقسيم – وقد ندموا على ذلك في ما بعد – لظلت تونس إلى هذا اليوم منكوبة بالاستعمار الفرنسي (...) تلك هي وصيتي أوصيكم بها، وطريقتي أعرضها عليكم في هذه الزيارة التي لا أعلم هل ستمتد بي الحياة حتى تتاح لي مرة ثانية. ولعلكم تذكرونها وتذكرون الحبيب بورقيبة، ذا الإمكانيات المتواضعة، الذي تقدم بها إليكم وإلى كل العرب، عساها تكون عماداً لكم إلى جانب العاطفة والحماس والقصائد الملتهبة، ولا يتطرق إليكم الشك في صدق مُسدي هذه النصائح وإخلاصه وتفانيه. وإني أناشدكم الأخذ بها للوصول إلى الهدف حتى لا نظل – بعد سبعة عشر عاماً أخرى أو عشرين أو مئة – نردّد بدون جدوى أغاني العودة والوطن السليب. ذلك أن كفاحنا لو يقتصر على العاطفة الملتهبة فسوف نبقى على هذه الحال قروناً وقرناً (...) ودعائي لكم وللقادة بالانسجام والتخلص من كل المركّبات، سواء كانت مركّبات نقص يشعرون بها أمام قوة العدو، أو مركّبات غرور وتهور وارتياء على الهزيمة المؤكدة دون تقدير للعواقب. بذلك نوفر لمعركتنا أسباب النجاح...» («الحياة»، تيارات، ١١ أيلول ١٩٩٣).

١٠ أيلول ١٩٩٣

في هذا اليوم، وقّع رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين أول اتفاق مكتوب في التاريخ بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وذلك عبر رسالة موجهة إلى الرئيس ياسر عرفات يعترف فيها بأن منظمة التحرير هي «الممثل للشعب الفلسطيني» بعد أن نقل إليه وزير الخارجية النروجي جوهان بورغن هولست رسالة اعتراف عرفات بإسرائيل.

الرسالة الأولى من عرفات إلى رابين:

«في ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٩٣

السيد رئيس الوزراء:

إن توقيع إعلان المبادئ ينبئ بعهد جديد في تاريخ الشرق الأوسط. وانني بدافع الاقتناع الجازم بذلك أود أن أوكد التعهدات التالية لمنظمة التحرير الفلسطينية:

إن منظمة التحرير الفلسطينية تعترف بحق دولة إسرائيل في العيش في سلام وأمن. وتوافق منظمة التحرير الفلسطينية على القرار الرقم ٢٤٢ والرقم ٣٣٨ لمجلس الأمن الدولي.

إن منظمة التحرير الفلسطينية تلتزم بمسيرة السلام في الشرق الأوسط وبالمشاركة في إيجاد حل سلمي ينهي النزاع بين الطرفين وتعلن أن جميع المسائل المعلقة التي ترتبط بالوضع الدائم سيتم تسويتها عن طريق التفاوض.

وتعتقد منظمة التحرير الفلسطينية أن توقيع إعلان المبادئ يعدّ حدثاً تاريخياً ينبئ ببدء عهد جديد من التعايش السلمي يكون خالياً من العنف وأي عمل آخر يمكن أن يعرّض للخطر السلام والاستقرار. ومن ثم فإن منظمة التحرير الفلسطينية تتخلى عن الإرهاب وعن أي عمل من أعمال العنف وستتحمل المسؤولية بالنسبة إلى كل عناصر وموظفي منظمة التحرير الفلسطينية. وتتعهد بتدارك أي انتهاك لهذه التعهدات وباتخاذ إجراءات تأديبية ضد أي مخالف لها.

رابين يوقع رسالة الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية

عرفات يوقع رسالة الاعتراف باسرائيل

وزير الخارجية النروجي يوهان يورغان هولست

منزل وزير الخارجية النروجي الواقع في ضاحية هوف القريبة من العاصمة أوسلو والذي شهد أعقد مراحل المفاوضات السرية بين اسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية

ومنظمة التحرير الفلسطينية إذ تستقبل عهداً جديداً وتوشك أن توقع إعلان المبادئ في إطار الموافقة الفلسطينية على القرار الرقم ٢٤٢ والرقم ٣٣٨ لمجلس الأمن تؤكد أن مواد ونقاط الميثاق الفلسطيني التي تنكر حق إسرائيل في الوجود وأيضاً نقاط الميثاق التي تتعارض مع التعهدات الواردة في هذه الرسالة أصبحت عديمة الأثر وغير سارية المفعول. وبالتالي ستعرض منظمة التحرير الفلسطينية على المجلس الوطني الفلسطيني التغييرات الضرورية في الميثاق الفلسطيني للموافقة عليها.

المخلص ياسر عرفات

رئيس منظمة التحرير الفلسطينية».

الرسالة الثانية من عرفات إلى وزير الخارجية النرويجي جوهان جورغن هولست

«في ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٩٣

سعادة وزير خارجية النرويج

جوهان جورغن هولست

أود أن أؤكد لكم أن تصريحاتي العلنية ستتضمن المواقف التالية عند توقيع إعلان المبادئ.

على ضوء العهد الجديد الذي ينبئ به توقيع إعلان المبادئ فإن منظمة التحرير الفلسطينية تشجع الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة وتدعوه إلى المشاركة في التدابير التي تؤدي إلى التطبيع ورفض العنف والإرهاب والإسهام في تحقيق السلام والاستقرار والمشاركة الإيجابية في التعمير والتنمية الاقتصادية والتعاون.

المخلص ياسر عرفات

رئيس منظمة التحرير الفلسطينية».

الرسالة الثالثة من رابين إلى عرفات

«السيد ياسر عرفات

رئيس منظمة التحرير الفلسطينية

ردًّا على رسالتكم المؤرخة ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٩٣ أود أن أعلن لكم أنه على ضوء تعهدات منظمة التحرير الفلسطينية الواردة في هذه الرسالة فقد قررت الحكومة الإسرائيلية الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الممثل للشعب الفلسطيني وبدء مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية في إطار مسيرة السلام في الشرق الأوسط.

إسحق رابين

رئيس وزراء إسرائيل».

١٣ أيلول ١٩٩٣

في هذا اليوم، طويت في واشنطن، وبرعاية الرئيس الأميركي بيل كلينتون، صفحة في تاريخ الشرق الأوسط عندما تصافح الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين ووزير خارجيته شيمون بيريز.

وبعد توقيع الاتفاق «بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية» (على الطاولة التي وقع عليها، قبل ١٥ سنة، اتفاقا كمب ديفيد بين مصر وإسرائيل)، تحدث كل من كريستوفر (وزير الخارجية الأميركية)، وكوزيريف (وزير خارجية روسيا)، ورابين، وعرفات، والرئيس كلينتون الذي رعى الاحتفال.

قال كريستوفر إن الفلسطينيين والإسرائيليين أقدموا على «خطوة دراماتيكية نحو سلام عادل ودائم وشامل سيرفع مستوى حياة شعوب الشرق الأوسط». وأشاد بتغلبهم على «عقبات ضخمة» من خلال الاتفاق على إعلان المبادئ والاعتراف المتبادل بين منظمة التحرير وإسرائيل». وأعاد التأكيد على أن «الولايات المتحدة ملتزمة سلاماً شاملاً بين إسرائيل وجميع جيرانها العرب ونأمل ونعتقد أن هذا الاتفاق سيكون حافزاً للتقدم في المفاوضات بين إسرائيل وكل من سوريا والأردن ولبنان».

وأكد كوزيريف عزم روسيا على الاستمرار في لعب دور الراعي لعملية السلام مع أميركا والأمم المتحدة والأطراف المعنية. وحذّر من القوى المتطرفة التي تسعى إلى تخريب عملية السلام. وقال إن موسكو لا تسعى إلى مساعدة الفلسطينيين على تأمين حقوقهم المشروعة بل من أجل إحلال الاستقرار في الشرق الأوسط. وزاد أن الاتفاق يشكل «خطوة أولى ضخمة على طريق طويل».

نص كلمة الرئيس الأميركي بيل كلينتون: «رئيس الوزراء رابين، الرئيس عرفات، وزير الخارجية بيريز، السيّد عباس، الرئيس كارتر، الرئيس بوش، الضيوف الكرام، باسم الولايات المتحدة وروسيا، راعيي عملية السلام في الشرق الأوسط أرحب بكم في هذه المناسبة العظيمة الحافلة بالتاريخ والأمل.

اليوم نشهد فصلاً فذاً في واحدة من قصص التاريخ البارزة. قصة بدأت في عهد أجدادنا حين انطلقت البشرى من رقعة من الأرض بين نهر الأردن والبحر المتوسط. تلك الأرض المباركة أرض الحياة والوحي هي موطن ذكريات اليهود والمسلمين والمسيحيين في العالم وأحلامهم.

وكما نعلم جميعاً، كان الإخلاص لهذه الأرض مصدر الصراع وسفك الدماء لفترة تجاوزت الحدود. وطوال هذا القرن سلبت العداوة بين الفلسطينيين

واليهود والمنطقة بأسرها من مواردها وطاقاتها الكامنة وأعداداً أكثر مما ينبغي من أبنائها وبناتها. وغرقت هذه الأرض بالحروب والحقد ما جعل دعاوى تاريخية متضاربة تتصارع بعمق في أرواح المقاتلين هناك إلى درجة أن كثيرين يعتقدون أن الماضي هو الذي سيسود دائماً.

وقبل أربعة عشر عاماً أخذ الماضي يتراجع حين وضع في هذا المكان وعلى هذه المائدة، ثلاثة رجال ذوي بصيرة نافذة تواقيعهم على اتفاقي كامب ديفيد. واليوم نحيي ذكرى مناحيم بيغن وأنور السادات ونشيد بالقيادة الحكيمة للرئيس جيمي كارتر.

آنذاك، كما هي الحال الآن، سمعنا أولئك الذين قالوا إن الصراع سيعيد سيرته الأولى، لكن السلام بين مصر وإسرائيل صمد. وكذلك يجب أن يصمد هذا المسعى الجديد الجريء، هذه المغامرة الجسورة كي يكون المستقبل أفضل من الماضي.

قبل سنتين في مدريد، خطا رئيس آخر خطوة أخرى في الطريق نحو السلام بجمع إسرائيل وكل جاراتها للانطلاق في مفاوضات مباشرة. واليوم نتوجه أيضاً بشكرنا إلى القيادة الماهرة للرئيس جورج بوش.

منذ اعترف هاري ترومان بإسرائيل في البداية عمل جميع الرؤساء الأميركيين، جمهوريين وديمقراطيين من أجل السلام بين إسرائيل وجاراتها. وأوصلتنا جهود جميع الذين عملوا في السابق إلى هذه اللحظة، اللحظة التي نتجاسر أن نتعهد فيها ما كان حتى الآن أمراً يصعب حتى تصوره، وهو أن أمن الشعب الإسرائيلي سيتوافق مع طموحات الشعب الفلسطيني وسيزداد الأمن وتتعاظم الطموحات لدى الجميع.

اليوم، توقع قيادتا إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية إعلان مبادئ في شأن حكم ذاتي موقت للفلسطينيين. وهذا يرسم مساراً نحو الوفاق بين الشعبين اللذين عرف كلاهما المرارة والتشرد. والآن يتعهد كلاهما أن يضع الآلام والعداوة خلف ظهره وأن يعمل من أجل مستقبل مشترك تصوغه قيم التوراة والقرآن والإنجيل. اسمحوا لنا أن نحيي أيضاً حكومة النروج لدورها الرائع في رعاية هذا الاتفاق. ولكن من دون كل الأمور وقبلها جميعاً، اسمحوا لنا أن نشيد بالزعماء الذين تحلوا بالشجاعة وقيادة شعبهم نحو السلام بعيداً عن آثار المعارك وجروح الماضي وخسائره، نحو غد أكثر إشراقاً.

العالم اليوم يتوجه بالشكر إلى رئيس الوزراء رابين ووزير الخارجية بيريز والرئيس عرفات. منحتنا طاقتهم الدؤوبة ورؤاهم الأمل ببداية جديدة.

وما قام به هؤلاء الزعماء الآن يجب أن يقوم به الآخرون. وينبغي أن يكون إنجازهم عاملاً فاعلاً من أجل التقدم في كل جوانب عملية السلام. وأولئك الذين يؤيدونهم منا عليهم أن يكونوا مستعدين لتقديم العون في كل الميادين لأن السلام لا بد أن يعود على أولئك الذين يعززونه.

وصلنا إلى سلام الشجعان، وفي كل أنحاء الشرق الأوسط هناك توق عظيم إلى حدوث المعجزة بقيام حياة عادية. ونحن ندرك أن أمامنا طريقاً صعباً. ولكل سلام أعداؤه، وأولئك الذين ما زالوا يفضلون استسهال التمسك بمشاعر الحقد على العمل المضني من أجل الوفاق. لكن رئيس الوزراء رابين ذكّرنا أن المرء لا يضطر إلى إحلال السلام مع أصدقائه. ويعلمنا القرآن «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها». لهذا، دعونا نصمم على أن يصبح هذا الاعتراف الجديد المتبادل عملية مستمرة تعيد فيها الأطراف المعنية قولبة جوهر الأسلوب الذي يرى أحدها من خلاله الطرف الآخر ويفهمه. وليتذكر المشككون في هذا السلام ما كان ذات يوم قائماً بين هذه الشعوب. كان هناك زمن تنتقل فيه الآراء وحركة التجارة وأفواج الحجيج من دون انقطاع بين مدن الهلال الخصيب. وفي إسبانيا والشرق الأوسط كان المسلمون واليهود يعملون معاً لتسطير الفصول الساطعة في تاريخ الآداب والعلوم. ويمكن لهذا كله أن يعود ثانية.

السيد رئيس الوزراء، السيد الرئيس، أتعهد بتقديم الدعم الفاعل للولايات المتحدة الأميركية في الجهود الصعبة المقبلة. والولايات المتحدة ملتزمة ضمان أن يزيد هذا الاتفاق الأمن لأولئك الذين يتأثرون به. وريادة العالم في تسخير الموارد اللازمة لتنفيذ التفاصيل الصعبة التي من شأنها أن تنجز المبادئ التي تلزمون أنفسكم بها.

دعونا معاً نتصور ما يمكن تحقيقه إذا أمكننا استثمار طاقة الإسرائيليين والفلسطينيين ومقدرتهم جميعاً في جهودكم الدؤوبة والتي يمكن أن تسخر الآن في فلاحة الأرض وتوفير المياه العذبة وفي إنهاء المقاطعة وإيجاد صناعات جديدة وفي خلق أرض حافلة بالخيْرات والسلام كما هي تحفل بالقدسية.

وقبل هذا كله دعونا نكرّس أنفسنا اليوم من أجل الجيل الآتي في منطقتكم.

وفي تجمعنا هذا كله ليس هناك من هو أهم من هذه المجموعة من الأطفال العرب والإسرائيليين الجالسين معنا اليوم. وبفضل ما فعلتموه اليوم أصبح الغد لهؤلاء وينبغي أن لا نتركهم نهباً لسياسات التطرف

واليأس ولأولئك الذين قد يحرفون هذه العملية عن مسارها لأنهم عاجزون عن التغلب على المخاوف والأحقاد التي تنتمي إلى الماضي. يجب أن لا نخون مستقبل هؤلاء، ولقد طالت الفترة التي احتجز فيها أطفال الشرق الأوسط داخل خناق الحقد الذي لا ضلع لهم فيه. ولقد طال الزمن الذي كان يلقّنون فيه تعاليمهم من سجلات الحرب. ولأن نستطيع أن نعطيهم الفرصة لتذوق السلام.

وعلينا من أجلهم أن ندرك مغزى نبوءة أشعيا بأن لا يسمع صراخ العنف مرة أخرى في أرضكم ولا الدمار داخل حدودكم. إن أبناء ابراهيم وأحفاد إسحق وإسماعيل انطلقوا معاً في رحلة جريئة. ونحن جميعاً اليوم وبكل قلوبنا نقول لهم شالوم. سلام. بيس (سلام)».

نص كلمة ياسر عرفات: «بسم الله الرحمن الرحيم، السيد الرئيس، سيداتي سادتي،

أود أن أعبّر عن تقديرنا الكبير للرئيس كلينتون وحكومته لرعاية هذا الحدث التاريخي الذي يرقبه العالم بأسره.

إنني يا سيدي الرئيس، أغتنم الفرصة لأؤكد لكم ولشعبكم العظيم اننا نشاطركم مبادئ الحرية والعدالة وحقوق الإنسان التي يطمح شعبي إلى التمتع بها.

كما يأمل شعبي أن يكون هذا الاتفاق الذي نوقع عليه اليوم هو بداية لطي صفحة الآلام والعذاب التي استمرت طوال قرن وأن يفتتح عهد السلام والتعايش والمساواة بالحقوق. إننا نعوّل على دوركم يا سيدي الرئيس ودور جميع الدول التي ترى أن السلام في العالم لا يكتمل بدون سلام الشرق الأوسط.

إن تطبيق الاتفاق والتوجه نحو حل نهائي بعد سنتين من تنفيذ قراري مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨ بجميع جوانبهما ولحل قضايا القدس والمستوطنات واللاجئين والحدود مسؤولية فلسطينية وإسرائيلية وكذلك مسؤولية دولية شاملة للمساعدة على التغلب على المصاعب الهائلة التي لا تزال تعترض المسيرة من أجل الوصول بها نحو السلام النهائي والشامل.

في بداية هذه المرحلة التاريخية الجديدة أتوجه إلى شعب إسرائيل وإلى قيادته التي نلتقي معها اليوم لأول مرة مؤكداً أن القرار الصعب الذي توصلنا إليه معاً كان يحتاج إلى شجاعة كبيرة واستثنائية واننا سوف نحتاج إلى مزيد من الشجاعة والتصميم لنواصل مسيرة بناء التعايش والسلام بيننا. وهذا ممكن وسيتحقق بالإرادة المشتركة وبالعمل على إرساء قواعد السلام العادل والشامل مع جميع الأطراف وعلى كل المسارات.

وشعبنا لا يعتبر أن ممارسة حقه في تقرير المصير يمكن أن يشكل اعتداء على حقوق جيرانه ومساساً بأمنهم بل إن في إلغاء الشعور بالغبن والظلم التاريخي هو أكبر ضمانة لتحقيق الحياة المشتركة والانفتاح بين شعبينا وبين أجيالنا المقبلة.

إن شعبينا يراقبان اليوم هذا الأمل التاريخي ويريدان إعطاء فرصة حقيقية للسلام. مثل هذا التحول سيعطينا الفرصة للدخول في عملية البناء والتطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتي نتطلع إلى أوسع مساهمة دولية فيها كما يتيح الفرصة أمام جميع أشكال التعاون على نطاق واسع وفي كل الميادين.

أشكركم يا سيدي الرئيس ونأمل أن يكون لقاؤنا بداية جديدة لعلاقات مثمرة وفعالة بين الشعبين الأميركي والفلسطيني.

كما أتوجه بالشكر إلى دولة روسيا الاتحادية وإلى الرئيس بوريس يلتسن وكذلك نشكر الوزيرين كريستوفر وكوزيريف وحكومة النروج ووزير خارجيتها لدورهم الإيجابي في التوصل إلى هذا الإنجاز الكبير.

وأوجه تحية إلى كل إخواننا القادة العرب وفي العالم الذين ساهموا في الوصول إلى هذا الإنجاز.

إن معركة السلام أيها السيدات والسادة هي أصعب معارك حياتنا وهي تستحق منا كل الجهود لأن أرض السلام تتوق للسلام العادل والشامل. شكراً شكراً شكراً».

نص كلمة إسحق رابين: «الرئيس كلينتون رئيس الولايات المتحدة، أصحاب السعادة، السيدات والسادة، لم يكن توقيع إعلان المبادئ الإسرائيلي – الفلسطيني اليوم أمراً سهلاً بالنسبة إليّ كجندي شارك في الحروب الإسرائيلية، ولا لشعب إسرائيل، ولا للشعب اليهودي في الشتات الذين يشاهدوننا الآن ونفوسهم مفعمة بأمل كبير ممزوج بالخوف.

ومن المؤكد أنه ليس سهلاً بالنسبة إلى أسر ضحايا الحروب والعنف والإرهاب الذين لن تبرأ جروحهم مطلقاً وكذلك بالنسبة إلى الآلاف ممن دافعوا عن أرواحنا بأرواحهم وفدوا حياتنا بحياتهم. بالنسبة إلى هؤلاء فإن هذا الحفل وهذه الحفلة أتت متأخرة جداً. إننا نذكر اليوم عشية فرصة السلام هذه، وربما فرصة إنهاء العنف والحروب جميع أولئك بحب لامتناه.

لقد أتينا من القدس العاصمة القديمة والأبدية للشعب اليهودي. أتينا من أرض تتألم، أتينا من شعب ووطن وأسرة لم تشهد سنة واحدة بل شهراً واحداً، لم تثكل فيه أمهات أبناءهن.

عرفات ورابين يتصافحان في رعاية الرئيس الاميركي بيل كلينتون (واشنطن، ١٣ ايلول ١٩٩٣)

لقد أتينا لكي نسعى إلى وضع حد للعداوة حتى لا يشهد أطفالنا وأطفالهم مرة أخرى تجربة الثمن المؤلم للحرب والعنف والإرهاب. لقد أتينا لضمان حياتهم وتخفيف الأسى وذكريات الماضي المؤلمة ولكي نأمل في السلام ونصلي من أجله.

دعوني أقول لكم أيها الفلسطينيون: إنه محكوم علينا بأن نعيش معاً على الأرض نفسها، على التربة نفسها. إننا نحن الجنود الذين عدنا من المعارك ملطخين بالدماء ونحن الذين رأينا أقرباءنا وأصدقاءنا يموتون أمام أعيننا ونحن الذين شيّعنا جنازاتهم ولم يكن بمستطاعنا أن ننظر إلى أعين آبائهم. نحن الذين جئنا من أرض يدفن فيها الآباء أطفالهم ونحن الذين حاربناكم. أيها الفلسطينيون نقول لكم اليوم بصوت عال وواضح: كفى دماء ودموعاً. كفى.

إننا لا نرغب في الانتقام إذ إننا لا نضمر نحوكم كراهية ونحو أناس مثلكم، أناس يريدون أن يبنوا وطناً وأن يغرسوا شجرة، يريدون المحبة وأن يعيشوا جنباً إلى جنب بكل كرامة وأخوة باعتبارهم آدميين وأحراراً. إننا نعطي السلام اليوم فرصة ونقول لكم مرة أخرى: كفى. دعونا نصلي من أجل يوم نقول فيه جميعاً وداعاً للسلاح.

إننا نتمنى أن نبدأ فصلاً جديداً في كتاب حياتنا الحزينة، فصلاً من الاعتراف المتبادل وحسن الجوار والاحترام المتبادل والتفاهم. ونأمل أن نبدأ عصراً جديداً في تاريخ الشرق الأوسط.

سنبدأ اليوم هنا، في البيت الأبيض في واشنطن فجراً جديداً في العلاقات بين شعوب، بين آباء تعبوا من الحرب وبين أطفال لن يعرفوا الحرب.

السيد رئيس الولايات المتحدة، السيدات والسادة.

إن قيمنا الأخلاقية السامية مستمدة من «أم الكتب» على مدى آلاف السنوات. وقد ورد فيه (...) «لكل شيء موسم وزمن، لكل هدف تحت السماء. زمن للولادة وزمن للموت. زمن للقتل وزمن للبراءة. زمن للبكاء وزمن للضحك. زمن للحب وزمن للكراهية. زمن للحرب وزمن للسلام».

من مجلة «الوسط»، العدد ٨٦ تاريخ ٢٠ ايلول ١٩٩٣، ص ٧

السيدات والسادة،

لقد حان وقت السلام. بعد يومين سوف يحتفل الشعب اليهودي ببداية سنة جديدة وأنا أعتقد وآمل وأصلي كي تأتي السنة الجديدة برسالة خلاص لجميع الشعوب سنة طيبة لكم، لكم جميعاً، سنة طيبة للإسرائيليين وللفلسطينيين، سنة طيبة لجميع شعوب الشرق الأوسط، سنة طيبة لجميع أصدقائنا الأميركيين الذين يريدون السلام حقاً ويساعدون على تحقيقه، وللرؤساء وأعضاء الادارات السابقة خصوصاً لكم سيدي الرئيس كلينتون وموظفيكم ولمواطني دول العالم أتمنى أن يعم السلام بيوتكم. ومن العرف اليهودي أن نختم صلاتنا بأن نقول: آمين، أو كما قلتموها حسب نطقكم. ولتسمحوا لي يا رجال السلام أن أختم بكلمات من الصلاة التي يرددها اليهود يومياً وأطلب ممن يتطوعون منكم أن يرددوا معي: آمين (حديث بالعبرية). آمين».

إتفاق غزة – أريحا

مناقشة أولية

«هناك شيء ما واضح وغامض، صادق وكاذب، طيب وشرير، واقعي ومتطرف، يخرج الآن من رحم الصراع العربي – الإسرائيلي الذي دام قرابة خمسين عاماً ليفرض منطقه الخاص، ويطرح للتداول كلمات لم تكن مستساغة وتعبيرات كانت محرمة، ومواقف تحولت إلى أسلحة قديمة لم يعد يهتم بها سوى نفر قليل من عشاق المتاحف الحربية. فقد وقع المستحيل، وتبادلت إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية الاعتراف، وقبلتا مبدئياً إنزال أحمال الماضي، واقتسام الحاضر والمستقبل. لقد بدأ نوع جديد من الصراع وضع الفلسطينيين والإسرائيليين قبالة خيار العيش في ماضٍ انتهى ولم يعد قادراً على المساهمة في بناء حاضر معقد وصعب، أو التعايش في الحاضر لرسم مستقبل يبدو غامضاً ومبهماً في مرحلة يغرق فيها خطاب كامل في ضباب كثيف. وفي عمق هذا القلق المتبادل ما بين مؤيد للاتفاق الفلسطيني – الإسرائيلي يخشى المستقبل الغامض، ورافض له يرفع مخاوفه على مستوى عدم التفاهم تكمن أزمة الانقلاب السياسي الجديد. هكذا احتاج الوضع الذي يتجه إليه الفلسطينيون إلى تعريف يستند إلى بنود الاتفاق الفلسطيني – الإسرائيلي وما ينطوي عليه من احتمالات...» (ربعي المدهون، باحث فلسطيني، «الحياة»، ١٥ أيلول ١٩٩٣، ص ١٨).

محاولة أولى لتعريف هذا الاتفاق ومناقشته، قام بها أحمد محمود عجاج (باحث قانوني لبناني مقيم في

ما مصير هذا المشروع بعد إتفاق غزة – أريحا؟. فكرة المشروع قديمة وتعود الى ١٨٥٠ والى المهندس البريطاني ويليم ألن. لم تتحمس بريطانيا لتنفيذه بعدما اصبحت قناة السويس تحت تصرفها منذ ١٨٨٢. تيودور هرتزل تبناه وتكلم على فوائده للدولة اليهودية المقبلة. بعد وصول تكتل ليكود الى السلطة (ايار ١٩٧٧)، شكل بيغن (لجنة قناة البحرين: المتوسط – الميت» لوضع الدراسة. وبدأت إسرائيل التنفيذ في ١٩٨٣، لكنه توقف فجأة.

بريطانيا) ونشرتها «الحياة» (في عددها تاريخ ١٥ أيلول ١٩٩٣، ص ١٨) تحت عنوان: «قراءة قانونية خاطفة في اتفاق غزة – أريحا أولاً، غموض بنود التسوية ليس في صالح الفلسطيني:

«إذا ما ابتعدنا قليلاً عن لحظة المفاجأة وطرحنا جانباً ما يقوله المؤيدون والمعارضون من كلا المعسكرين الإسرائيلي والفلسطيني يحق لنا أن نسأل أنفسنا بواقعية: هل إن الاتفاق الأخير (إعلان المبادئ) يحقق فعلاً للفلسطينيين ما يحلمون به أو لنقل على الأقل الحد الأدنى مما يطالبون به وهو إقامة دولة فلسطينية بجانب
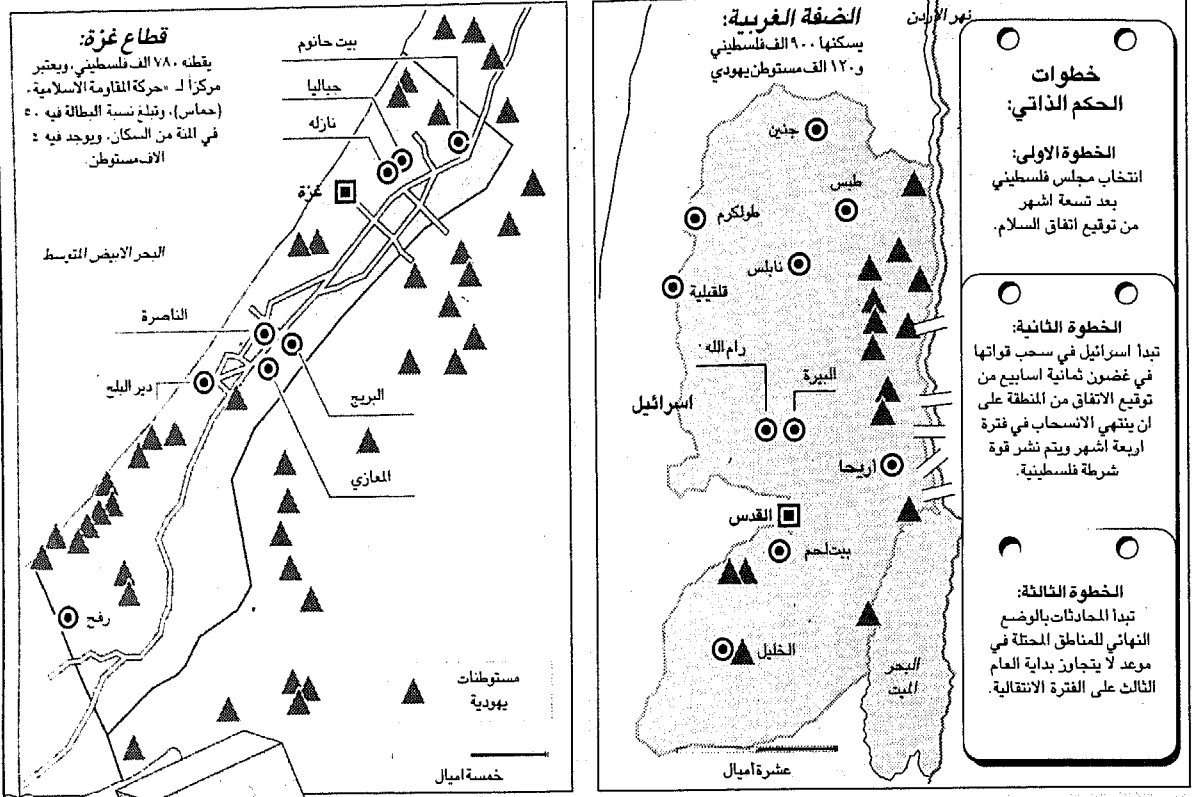
من «الحياة»، العدد ١١١٦٠، تاريخ ٣ ايلول ١٩٩٣، ص ٦

الدولة العبرية؟

إن أية إجابة عن هذا السؤال ليست بالأمر السهل واليسير خصوصاً إذا ما أخذ بالاعتبار هشاشة تنفيذ الاتفاقات المعقودة وسرعة تنصّل الأطراف من بعض قيودها وبنودها إذا ما شعرت أنها في نهاية المطاف لا تخدم مصالحها القومية والحيوية بل تضر بها. لكن رغم وجود تلك العوائق فإنه بالإمكان رسم خطوط عامة لأية اتفاقية من خلال قراءتها والحكم بالتالي عليها سلباً أم إيجاباً. لذا فإن الاتفاقية الفلسطينية – الإسرائيلية يمكن تقييمها في ضوء الخطوط العامة التي يطالب بها الفلسطينيون ومنها إقامة دولة فلسطينية عاصمتها «القدس» وعودة اللاجئين وممارسة السيادة كأية دولة والتعايش مع الدولة العبرية.

تحدد الاتفاقية وما تبعها من ملاحق في بنودها هدف المفاوضات وإطار عمل للمرحلة الانتقالية بدءًا بإجراء انتخابات وانسحابات إسرائيلية وانتهاء بنقل الصلاحيات والمسؤليات إلى السلطة الفلسطينية الناشئة. كما انها تتطرق إلى قضايا التعاون الاقتصادي والإقليمي وتضع آلية لفض المنازعات التي يمكن أن تنشأ في مسار تنفيذ الاتفاقية. فالبند الأول من الاتفاقية يحدد بوضوح ان هدف المفاوضات ليس إقامة دولة فلسطينية بل تأسيس «سلطة فلسطينية انتقالية ذاتية تؤدي إلى تسوية نهائية مبنية على أساس قراري مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ و٣٣٨». فصياغة البند كما يتبين يبدو أنه يدعم التوجه أو الرؤية الإسرائيلية على حساب الطرف الفلسطيني الذي يصر دائماً أن الهدف هو إقامة دولة فلسطين! فإحالة التسوية النهائية على قراري مجلس الأمن الآنفي الذكر يزيد من حدة غموضها لأنها (أي

معارضون إسرائيليون لاتفاق غزة – أريحا: مستوطن يحمل لافتة معادية للاتفاق، ومستوطنون يحملون، خلال تظاهرة، ملصقاً لرئيس الوزراء الاسرائيلي رابين معتمراً كوفية عرفات. وفي الاسفل متظاهرون في تل أبيب يندّدون بالاتفاق.

معارضون فلسطينيون: فوق، احد عناصر حركة «حماس» الذين تطاردهم القوات الاسرائيلية في قطاع غزة، وتحت عنصران من «الجبهة الشعبية» في مخيم عين الحلوة (لبنان) يكتبان شعارات ضد عرفات (تشرين الاول ١٩٩٣). وقد حملت أنباء يوم ١٦ تشرين الاول ١٩٩٣ ان قادة وممثلي «الفصائل العشرة» اتفقوا على تشكيل «تحالف وطني» مع التنظيمات «الاسلامية والديمقراطية والوطنية»، علي ان يكون «برنامج الاجماع الوطني» مستنداً الى «الميثاق الوطني الفلسطيني» لمواجهة إتفاق منظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل.

القرارين) أصلاً مثار خلاف وجدال قانونيين مستمرين. فإحالة الغامض على الغامض كمن يُعرّف المجهول بالمجهول! لذا فإنه يتوجب على المفاوض الفلسطيني توضيح هذه النقطة لكي لا تصبح أداة بيد إسرائيل تستخدمها متى تشاء لتمييع الحق الفلسطيني وهضمه.

في ما يتعلق بالانتخابات التي هي شريطة أساسية من أجل تمكين الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة من حكم أنفسهم ذاتياً فإن البند الثالث والملحق الأول من الاتفاقية حدّدا بوضوح وجلاء الروح والشروط التي بموجبها يجب أن تجرى هذه الانتخابات. فالبند الثالث والملحق أعطيا إسرائيل حقاً في المشاركة في تحديد «نظام الانتخابات وصيغة مراقبتها والقوانين والإجراءات المتعلقة بحملة الانتخابات وترتيبات متفق عليها لتنظيم الإعلام الجماهيري وإمكانية ترخيص محطة تلفزيون إذاعية». فالمرء يجد نفسه هنا أمام ما يمكن أن يُطلق عليه بالثابت والمؤجل في آن معاً. فالثابت هو أن الانتخابات ستجري لكن المؤجل هو اتفاقية تقيّد الطرف الفلسطيني وتحد من هويته باعتباره طرفاً دولياً وتقزّمه إلى حد يجعله بحاجة إلى مناقشة أبسط أمور السيادة وهي إنشاء محطة تلفزيونية!

والأكثر ان وقف وضع ترتيبات، تتعلق بإعلام الحملة الانتخابية ونظامها وغيرها، على مشاركة إسرائيل وموافقتها من شأنه أن يسمح لها بوضع شروط في غاية الصعوبة ويمكن أن تثير قلاقل ونفور وتقاتل في الصف الفلسطيني. فعلى سبيل المثال من الممكن جداً أن تطالب إسرائيل أن الحملة الانتخابية يجب أن لا يشارك فيها من يرفض وجود إسرائيل أو من يقوم بحملة دعاوية تتعرض للدولة العبرية مما يعني أن أحزاباً إسلامية ستُبعد حتماً وبالتالي تجبر على العمل السري الذي يمكن أن يتطور إلى نزاع دموي فلسطيني – فلسطيني بسبب حرمانها من العمل الديمقراطي وحق الترشيح والمشاركة.

أما في ما يتعلق بموضوع القدس واللاجئين فإن الاتفاقية لم تعط تفاصيل وافية توضح أموراً في غاية الحساسية والأهمية. فاللاجئون الفلسطينيون ليسوا جميعاً في درجة واحدة لأن الاتفاقية لم تلحظ إلا حقوق لاجئي عام ١٩٦٧ فقط. فقد نصّ البند الثاني عشر أن حق العودة مسموح للاجئي عام ١٩٦٧ من الضفة الغربية وقطاع غزة. وهذا بحد ذاته يثير علامات استفهام حول مصير بقية اللاجئين الفلسطينيين ممن شردوا في عام ١٩٤٨. من الممكن القول إن حق هؤلاء لم يفرط به باعتبار أن البند الخامس قد نصّ على أن مفاوضات التسوية النهائية ستشمل القدامى واللاجئين والمستوطنات وغيرها. وعبارة اللاجئين كما وردت في هذا النص تشير إلى البقية على اعتبار أن مسألة لاجئي عام ١٩٦٧ قد حلّت في البند الثاني عشر. لكن تفسيراً آخر معاكساً يمكن أن يثار حول هذه المسألة ويمكن بالتالي ربطه بموضوع القدس حتى تتجلى الصورة. والسبب ان التفسير القانوني للاتفاقيات أو المعاهدات من الأفضل أن يبتعد عن التفسير الحرفي والإفرادي للمواد واعتماد تفسير إجمالي يربط المواد ببعضها من أجل إعطاء صورة أوضح لروح ومقصد أي بند من بنود الاتفاقية. فإذا ما اعتمد هذا النهج فإن مسألة القدس ولاجئي عام ١٩٤٨ يمكن استشفافها من البند الأول من الملحق الأول والبند الرابع والبند الثاني عشر. فالبند الأول نصّ أن فلسطينيي القدس الذين يعيشون هناك لهم حق المشاركة في الانتخابات المقترحة في قطاع غزة ومدينة أريحا مما يعني أنهم منتمون إلى السلطة الفلسطينية الجديدة. لكن الانتماء تتوجب معرفة ما إذا كان موقوفاً فقط على الأشخاص أو الأرض أو كلاهما معاً. وللإجابة عن هذا السؤال فإن البند الرابع والثاني عشر يوضحان الأمر ويزيلان اللبس وذلك لأن الأول نص على أن «سلطة المجلس» تغطي الضفة الغربية وقطاع غزة وأن الطرفين ينظران إلى الضفة الغربية وقطاع غزة كوحدة جغرافية وان القدس مستثناة مع قضايا أخرى بانتظار التفاوض بشأنها. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا استثنت الاتفاقية القدس ولم تستثن السكان؟ والسبب ربما يكون اعتقاد إسرائيل ان وجود الفلسطينيين في القدس لا يعدو من الآن فصاعداً عن كونه مجرد «إقامة قانونية» لأجانب منتمين لسلطة الضفة وقطاع غزة. وهذا التفسير يزداد قوة إذا ما نظر إلى البند الثاني عشر الذي نص على إنشاء لجنة متابعة تقرر من خلال اتفاقية «ماهية صيغة دخول لأشخاص شردوا من الضفة الغربية وقطاع غزة في العام ١٩٦٧». وهنا مرة أخرى لماذا فقط أولئك الأشخاص الذين شردوا في عام ١٩٦٧ من الضفة الغربية وقطاع غزة وليس القدس التي تهجّر منها كثيرون في عام ١٩٦٧؟ إن ضم هذه المواد بعضها لبعض يوضح أن الاتفاقية تغاضت عن لاجئي ما قبل عام ١٩٦٧ إضافة إلى غموضها في ما يتعلق بوضع القدس وترجيحها كفة التفسير الإسرائيلي الذي يصر علناً أن القدس عاصمة إسرائيل للأبد. فالمفاوض يدرك مهما علا صوته في مفاوضات التسوية النهائية أن غموض البنود ليس في صالحه لأن التسوية في النهاية ستكون في جانب الطرف الأقوى قانونياً وفعلياً.

والأغرب في الاتفاقية هو وجود الفقرة الرابعة من البند الخامس التي تنص على التالي: «يتفق الطرفان على أن

رائيليون مؤيدون للاتفاق

فلسطينيون مؤيدون للاتفاق في تظاهرة جرت في غزة بعد يومين من توقيع الاتفاق في ١٣ ايلول ١٩٩٣

فلسطينيون يتلقون تدريباً في أكاديمية الشرطة في عمان استعداداً لتشكيل قوة من الشرطة الفلسطينية. وفي مصر، يجري ايضاً تدريب كوادر على أعمال الأمن والنظام المرتقبة في غزة وأريحا بحسب تصريح وزير الداخلية المصري في ١٦ تشرين الاول ١٩٩٣.

نتيجة مفاوضات الوضع النهائي لن تكون محكومة ومتأثرة باتفاقات تمّ التوصل إليها للمرحلة الانتقالية». فإذا ما تمّ قراءة هذا البند مع البند الثاني الذي ينص على أن «إطار العمل المتفق عليه للمرحلة الانتقالية منصوص عليه في إعلان المبادئ هذا» فإن إسرائيل تكون ملكت بذلك مجالاً أوسع للمناورة مما يسمح لها بالتهرب مما ألزمت به نفسها في إعلان المبادئ بصورة غير مباشرة.

على صعيد نقل الصلاحيات والمسؤوليات وحفظ النظام العام والأمن وحل الخلافات الناشئة فإن الاتفاقية رسمت الخطوط العامة التي سيتم في ضوئها وضع تلك الأمور موضوع التنفيذ. وما يثار في هذا الصدد هو محدودية الصلاحيات المعطاة التي يمكن تلخيصها واختصارها بعبارة «صلاحيات إدارية بحتة ومحدودة جداً» تتركز حول إدارة الأمن الداخلي وجباية الضرائب والتعليم وغيره بينما تبقى القضايا الحساسة والتي هي من جوهر ومميزات وجود الدولة في يد إسرائيل. فالأمن الخارجي وأمن الإسرائيليين والمستوطنات هي أمور ليس للسلطة الفلسطينية فيها أي يد بل هي متروكة إلى إسرائيل. وما تتوجب إليه الإشارة هو أن البند الثامن نص على أن «تواصل إسرائيل تحمل مسؤولية الدفاع ضد المخاطر الخارجية» وكذلك أمن الإسرائيليين العام بغرض حماية «أمنهم الداخلي والنظام العام». فعبارتا الأمن الداخلي والنظام العام هما عبارتان واسعتان يمكن أن يدخل ضمنهما أي شيء تريده إسرائيل وبالتالي تقيّد من السلطة الفلسطينية. ولا يخفى في هذا المجال الإشكال الذي سينشأ نتيجة هذا البند في حل أي نزاع يشترك فيه فلسطينيون مدنيون وإسرائيليون. فهل يا ترى يعود أمر البت به إلى محكمة فلسطينية أم إسرائيلية؟ طبعاً أشارت الاتفاقية إلى ضرورة وجود لجنة ارتباط فلسطينية - إسرائيلية في البند العاشر من أجل توفير تطبيق سهل لإعلان المبادئ هذا وأية اتفاقية تالية متعلقة بالفترة الانتقالية. كما أن البند الخامس نص أيضاً على أن حل النزاعات الناجمة عن تطبيق أو تفسير إعلان المبادئ أو أية اتفاقيات متعلقة بالفترة الانتقالية بواسطة التفاوض عبر لجنة الارتباط المشتركة وأن تعذر من خلال آلية يتفق عليها الأطراف وأن تعذّر أيضاً ضرورة اللجوء إلى التحكيم بموافقة الطرفين وتشكيل لجنة تحكيم لكن دون تحديد آليته والقواعد التي تحكمه.

والمتبقي من بنود المعاهدة ركّز على تطوير التعاون الاقتصادي بين الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي وتعزيزه. والخطورة تكمن في أن تعزيز الارتباط الاقتصادي - الفلسطيني يجعل الأخير مرتبطاً ومعتمداً على الأول مما يؤدي مستقبلاً إلى ربط القرار السياسي بالاقتصادي وإضعاف القرار الفلسطيني الذي يطمح أولاً وأخيراً إلى الاستقلالية في التفكير والعمل.

في الحقيقة ان هناك نقاطاً عديدة كان من المتوجب الإسهاب بها والتعليق عليها لكن من المستحسن الانتظار حتى تتضح معالم الاتفاقية أكثر وتصبح المداولات التي سبقت الاتفاقية بما فيها الصفحات الثلاث التي تتضمن ملاحظات تحدد نقاط التفاهم والاتفاق في متناول اليد. فالنقد القانوني لأية اتفاقية يكون ناقصاً إذا لم تتضح الملابسات والظروف التي أدّت إلى ظهورها. كما انه تجب الإشارة هنا أيضاً إلى أن اتفاقيات من هذا النوع من الصعب جداً أن تكون واضحة لا لشيء سوى أن الغموض هو عنصر من عناصر نجاحها.

فالهوة الفاصلة بين الفريقين عميقة جداً ولا يمكن اجتيازها إلا بوضع اتفاقية تحظى بالإجماع وتكون بالتالي ممراً إلى اتفاقيات لاحقة أشد دقة ووضوحاً. فالمعروف أن الأطراف المتفاوضة في أية معاهدة أو اتفاقية تلجأ إلى عقد صفقة شاملة تقبل فيها بأمور من غير الممكن أن توافق عليها لولا أنها لم تصغ بصورة غامضة تسمح لكل طرف أن يفسرها كما يشتهي. فالفلسطينيون لم يفعلوا أكثر من عقد صفقة من هذا النوع ترضيهم وترضي الإسرائيليين في الوقت نفسه على أمل أن يكون المستقبل والاتفاقيات اللاحقة هي المحك الأساسي ونقطة الدخول في التفاصيل الدقيقة. فالطرفان يدركان الآن أنهما خطيا معاً أول خطوة في مسافة الألف ميل ودخلا نقطة اللارجوع وانهما الآن يدركان أن مستقبل الصراع في المنطقة متوقف عليهما. فالاتفاقية إذا ما نظر إليها من هذا المنطلق فإنها على رغم قصورها وغموضها وإجحافها بحق الطرف الفلسطيني يمكن أن تكون بداية طيبة. فالكلمة الأولى والأخيرة ليست متوقفة فقط على النصوص بل على النيات وتصميم الطرفين على التوصل إلى اتفاق ينهي حال البؤس والحرب في منطقة عانت الكثير وكفاها بؤساً وشقاءً».